

تفسير الشعراوي

المجلد السابع عشر

أخبار اليوم

قطاع الثقافة

تفسير

الشعراوي

المجلد السابع عشر

من الآية ٣٥ « سورة النور » إلى الآية ٢٩ « سورة القصص »

يقول الحق سبحانه : ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ .. (٣٥) ﴾ [النور]

يعنى : شجرة زيتون لا شرقية ولا غربية ، يعنى : لا شرقية لأنها غربية ، ولا غربية لأنها شرقية ، فهى إذن شرقية غربية على حَدٍّ سواء ، لكن كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الشجرة الزيتونة حينما تكون فى الشرق يكون الغرب مظلماً ، وحينما تكون فى الغرب يكون الشرق مظلماً ، إذن : يطرأ عليها نور وظلمة ، إنما هذه لا هى شرقية ولا هى غربية ، إنما شرقية غربية لا يحجز شىء عنها الضوء .

وهذا يؤثر فى زيتها ، فتراه من صفائه ولمعانه ﴿ يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ .. (٣٥) ﴾ [النور] ، وتعطى الشجرة الضوء القوى الذى يناسب بنوتها للشمس ، فإن كانت الشمس هى التى تنير الدنيا ، فالشجرة الزيتونة هى ابنتها ، ومنها تستمد نورها ، بحيث لا يغيب عنها ضوء الشمس .

إذن : مَثَلُ تنوير الله للسمٰوات وللأرض مثل هذه الصورة مكتملة كما وصفنا ، وانظر إلى مشكاة فيها مصباح بهذه المواصفات ، أيكون بها موضع مظلم ؟ فالسموات والأرض على سعتهما كمثل هذه المشكاة ، والمثل هنا ليس لنور الله ، إنما لتنويره للسموات وللأرض ، أما نوره تعالى فشىء آخر فوق أنْ يُوصَف . وما المثل هنا إلا لتقريب المسألة إلى الأذهان .

وسبق أنْ ذكرنا قصة أبى تمام حين وصف الخليفة ومدحه بأبرز الصفات عند العرب ، فقال :

إِقْدَامُ عَمْرٍو فِى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ فى حِلْمِ أحنفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

فجمع للخليفة كل هذه الصفات ومدحه بأشهر الخصال عند العرب ؛ لذلك قام إليه أحد الحاقدين وقال معترضاً عليه : كيف تشبه الخليفة بصعاليك العرب ؟ فالأمير فوق مَنْ وصفتَ .

فأكمل أبو تمام على البديهة وبنفس الوزن والقافية :

لاَ تُنكروا ضَرْبى لَهُ مَنْ دُونَهُ مثَلاً شَرُوداً فى النَّدَى والبَاسِ
فَاللهُ قَدْ ضربَ الأقلَّ لنُورِه مَثَلاً من المشْكَاة والنِّبراسِ

فالله - تبارك وتعالى - هو نور السموات والأرض أى : مُنوِّرهما ، وهذا أمر واضح جداً حينما تنظر إلى نور الشمس ساعة يظهر يجلو الكون ، بحيث لا يظهر معه نور آخر ، وتتلاشى أنوار الكواكب الأخرى والنجوم رغم وجودها مع الشمس فى وقت واحد ، لكن يغلب على نورها نور الشمس ، على حَدِّ قول الشاعر فى المدح :

كأنكَ شَمْسٌ والملُوكُ كَواكبٌ إذَا ظَهَرتْ لَمْ يَبْدُ منهُنَّ كوكَبُ

ثم يقول سبحانه : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ .. (٣٥) ﴾ [النور] فلم يتركنا الحق - سبحانه وتعالى - فى النور الحسىِّ فقط ، إنما أرسل إلينا نوراً آخر على يد الرسل هو نور المنهج الذى ينظم لنا حركة الحياة ، كأنه تعالى يقول لنا : بعثت إليكم نوراً على نور ، نور حسِّى ، ونور قيمى معنوى ، وإذا شهدتم أنتم بأن نورى الحسىّ ينير لكم السموات والأرض ، وإذا ظهر تلاشت أمامه كل أنواركم ، فاعلموا أن نور منهجى كذلك يطغَى على كل مناهجكم ، وليس لكم أن تأخذوا بمناهج البشر فى وجود منهج الله .

وقوله تعالى : ﴿ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ .. (٣٥) ﴾ [النور] أى : لنوره المعنوى نور المنهج ونور التكاليف ، والكفار لم يهتدوا إلى هذا النور ، وإن اهتدوا إلى النور الحسىِّ فى الشمس والقمر وانتفعوا به ، وأطفأوا لهَ مصابيحهم ، لكن لم يكُنْ لهم حظ فى النور المعنوى ، حيث أغلقوا دونه عيونهم وقلوبهم وأسماعهم فلم ينتفعوا به .

وكان عليهم أن يفهموا أن نور الله المعنوى مثْلُ نوره الحسى لا يمكن الاستغناء عنه ، لذلك جاء فى أثر على بن أبى طالب : « من تركه من جبَّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله » .

والعجيب أن العبد كلما توغل فى الهداية ازداد نوراً على نور ، كما قال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. (٢٩) ﴾ [الأنفال]

وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾[محمد]

ثم يقول تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ .. (٣٥) ﴾ [النور] يعني : للعبرة والعظة مثل المثل السابق لنوره تعالى ﴿ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾ [النور]

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) ﴾

بدأت الآية بالجار والمجرور ﴿ فِي بُيُوتٍ .. (٣٦) ﴾ [النور] ولا بُدَّ أن نبحث له عن متعلق ، فالمعنى : هذا النور الذى سبق الحديث عنه فى بيوت أذن الله أن تُرفع . والبيت : هو ما أُعدَّ للبيتوتة ، بل لمعيشة الحياة الثابتة ، وإليه يأوى الإنسان بعد عناء اليوم وطوافه فى مناكب الأرض ، والبيت على أية صورة هو مكان الإنسان الخاص الذى يعزله عن المجتمع العام ، ويجعل له خصوصية فى ذاته ، وإلا فالإنسان لا يرضى أن يعيش فى ساحة عامة مع غيره من الناس .

وهذه الخصوصية فى البيوت يتفاوت فيها الناس وتتسامى حسْب إمكاناتهم ، وكل إنسان يريد أنْ يتحيَّز إلى مكان خاص به ؛ لأن التحيُّز أمر مطلوب فى النفس البشرية : الأسرة تريد أن تتحيز عن المجتمع العام ، والأفراد داخل الأسرة يريدون أن يتحيزوا أيضاً ، كل إلى حجرة تخصه ، وكذلك الأمر فى اللباس ، ذلك لأن لكل واحد منا

مساتير بينه وبين نفسه ، لا يحب أن يطلع عليها أحد .

وقد اتخذ الله له بيتاً فى الأرض ، هو أول بيت وُضع للناس ، كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا .. (٩٦)﴾ [آل عمران]

وهذا هو بيت الله باختيار الله ، ثم تعددتْ بيوت الله التى اختارها خَلْق الله ، فكما اتخذتم لأنفسكم بيوتاً اتخذ الله لنفسه بيوتاً ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ .. (٣٦)﴾ [النور] وأنتم جميعاً عباد الله وعيال الله ، وسوف تجدون الراحة فى بيته تعالى كما تجدون الراحة فى بيوتكم ، مع الفارق بين الراحة فى بيتك والراحة فى بيت الله .

الراحة فى بيوتكم راحة حِسِّية بدنية فى صالون مريح أو مطبخ مليء بالطعام ، أمّا فى بيت الله فالراحة معنوية قيمية ؛ لأن ربك ـ عز وجل ـ غيْبٌ فيريحك أيضاً بالغيب .

لذلك كان النبى ﷺ كلما حزبه أمر يقوم إلى الصلاة[1] ليُلقى بأحماله على ربه . وماذا تقول فى صنعة تُعرض على صانعها مرة واحدة كل يوم ، أيبقى بها عطل أو فساد ؟ فما بالك إنْ عُرِضَتْ على صانعها خمس مرات فى اليوم والليلة ؟

فربُّكَ يدعوك إلى بيته ليريحك ، وليحمل عنك همومك ، ويصلح ما فسد فيك ، ويفتح لك أبواب الفرج . إذن : فنور على نور هذه لا تكون إلا فى بيوت الله التى أَذِن سبحانه أن تُرفعَ بالذكر وبالطاعات وترفع عما يحل فى الأماكن الأخرى وتعظم .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة بن اليمان رضى الله عنه .

فالبيوت كلها لها مستوى واحد ، لكن ترفع بيوت عن بيوت وتُعلَّى وقد رُفِعَتْ بيوت الله بالطاعة والعبادة ، فالمسجد مكان للعبادة لا يُعصَى الله فيه أبداً على خلاف البيوت والأماكن الأخرى ، فعظّم الله بيوته أن يُعْصَى فيها ، وعظّم روادها أن يشتغلوا فيها بسفاسف الأمور الحياتية الدنيوية ، فعليك أن تترك الدنيا على باب المسجد كما تترك الحذاء .

لذلك نهى الإسلام أن نعقد صفقة فى بيت الله ، أو حتى ننشد فيه الضالة ؛ لأن الصفقة التى تُعقَد فى بيت الله خاسرة بائرة ، والضالة التى ينشدها صاحبها فيه لا تُردُّ عليه ، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول لمن يفعل هذا بالمسجد : « لا ردها الله عليك »[(١)] .

وإنْ جعل الله الأرض كلها لأمة محمد ﷺ مسجداً وطهوراً ، لكن فَرْقٌ بين الصلاة فى المسجد والصلاة فى أىِّ مكان آخر ، المسجد خُصِّص للعبادة ، ولا نذكر فيه إلا الله ، أمّا الأماكن الأخرى فتصلح للصلاة ، وأيضاً لمزاولة أمور الدنيا .

وإلا ، فكيف تعيش كل وقتك لأمور الدنيا على مدار اليوم والليلة ، ثم تستكثر على ربك هذه الدقائق التى تؤدى فيها فَرْض الله عليك فتجرجر الدنيا معك حتى فى بيت الله ؟ ألا تعلم أن بيوت الله ما جُعلت إلا لعبادة الله ؟ لا بد للمؤمن أن يترك دُنْياه خارج المسجد ، وأن ينوى الاعتكاف على عبادة ربه والمداومة على ذِكْره فى بيته ، فلا يليق بك أن تكون فى بيت الله وتنشغل بغيره .

فإن التزمتَ بآداب المسجد تلقيتَ من ربك نوراً على نور ، وزال

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ : « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا رأيتم من ينشد ضالة فقولوا : لا ردها الله عليك » أخرجه النسائى فى عمل اليوم والليلة (ص ٧٣) والدارمى فى سننه (١/٣٢٦) والترمذى فى سننه (١٣٢١) وقال : حسن غريب .

عن كاهلك الهمّ والغم وحلّت مشاكلك من حيث لا تحتسب .

إذن : فالحق ـ تبارك وتعالى ـ جعل فى الفطرة الإيمانية أن تؤمن بإله ، فالإيمان أمر فطرى مهما حاول الإنسان إنكاره ، فالكافر الذى ينكر وجود الله ساعة يتعرَّض لأزمة لا منجاةَ منها بأسباب البشر تجده تلقائياً يتوجه إلى الله يقول : يا رب ، لا يمكن أن يكذبَ على نفسه فى هذه الحالة أو يُسلم نفسه ويبيعها رخيصة .

وفى ذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ[1] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا .. ⑧ ﴾ [الزمر]

ومن دقة الأداء القرآنى فى هذه المسألة قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ⑨ ﴾ [الجمعة]

فذكر طرفاً واحداً من عملية التجارة وهو البيع ، ولم يقل : والشراء ، قالوا : لأنه حين يُمنع البيع يُمنع الشراء فى الوقت نفسه ؛ ولأن الإنسان يحرص على البيع لكن قد يشترى وهو كاره ، فشهوة الإنسان متعلقة بالبيع لا بالشراء ، لأن الشراء يحتاج منه إلى مال على خلاف البيع الذى يجلب له المال .

إذن : قوله تعالى : ﴿ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ⑨ ﴾ [الجمعة] إنما ذكر قمة حركة الحياة وخلاصتها ، فكل حركات الحياة من تجارة أو زراعة أو صناعة تنتهى إلى مسألة البيع ؛ لذلك يحزن البائع إذا لم يَبِعْ ، أما المشترى فيقول حين لا يجد الشىء أو يجد المحل مُغلَقاً : بركة يا جامع .

---

(١) خوَّله كذا : ملَّكه إياه متفضّلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١/٢١٤] .

ثم إذا انتهتْ الصلاة يعيدنا من جديد إلى حركة الحياة : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ⓾ ﴾ [الجمعة]

كأنك ذهبتَ للمسجد لتأخذ شحنة إيمانية تعينك وتسيطر على كُلِّ حواسك في حركتك في التجارة ، وفي الإنتاج ، وفي الاستهلاك ، وفي كل ما ينفعك ويُنمي حياتك . وحين يأمرك ربك أن تفرغ لأداء الصلاة لا يريد من هذا الفراغ أن يُعطِّل لك حركة الحياة ، إنما ليعطيك الوقود اللازم لتصبح حركة حياتك على وَفْق ما أراده الله . وما أشبه هذا الوقت الذي نختزله من مصالح دنيانا في عبادة الله بشحن بطارية الكهرباء ، فحين تذهب بالبطارية إلى جهاز الشحن لا نقول : إنك عطلت البطارية إنما زدتَ من صلاحيتها لأداء مهمتها وأَخْذ خيرها .

فأنت تذهب إلى بيت الله بنور الإيمان ، وبنور الاستجابة لنداء : الله أكبر ، فتخرج بأنوار متعددة من فيوضات الله ؛ لذلك ضرب لنا الحق - تبارك وتعالى - مثلاً لهذا النور بالمصباح الذي يتنامى نوره ويتصاعد ؛ لأنه في زجاجة تزيد من ضوئه ؛ لأنها مثل كوكب دُرِّيٍّ والنور يتصاعد ؛ لأنها بزيت زيتونة ، ويتصاعد لأنها شرقية وغربية في آن واحد ، إذن : عندنا ألوان متعددة في المثل ، فكذلك النور في بيوت الله .

لذلك قال بعض العارفين : أهل الأرض ينظرون في السماء نجوماً متلألئة ، والملائكة في السماء ينظرون نجوماً متلألئة من بيوت الله ، ولا عجبَ في ذلك لأنها أنوار الله تتلألأ وتتدفق في بيته وفي مسجده ، وكيف نستبعد ذلك ونحن نرى نور الشمس كيف يفعل حينما ينعكس على سطح القمر فيُلقي إلينا بالضوء الذي نراه ؟ والشمس والقمر أثر من آثار نور الله الذي يَسْطع في بيوت الله ، ألاَ يعطينا ذلك الإشعاع الذي يفوق إشعاع البدور ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ يُسَبِّحُ(١) لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) ﴾[النور] فالمساجد جُعلَتْ لتسبيح الله ؛ لذلك كان بعض الصالحين إذا نزل بلداً يتحيل أن ينزلها في غير وقت الصلاة ، ثم يذهب إلى المسجد فإنْ وجده عامراً في غير وقت الصلاة بالمسبحين علم أن هؤلاء ملتزمون بمنهج الله ، حيث يجلسون قبل وقت الصلاة يُسبِّحون الله وينتظرون الصلاة ، وإنْ وجد الحال غير ذلك انصرف عنها وعلم أنها بلد لا خيرَ فيها(٢) .

والغُدوُّ : يعني الصباح ، والآصال : يعني المساء ، فهي لا تخلو أبداً من ذكْر الله وتسبيحه ، وقد وصف هؤلاء الذين يعمرون بيوت الله بالذكر والتسبيح بأنهم :

﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ(٣) فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ (٣٧) ﴾

قلنا : إن التجارة هي قمة حركة الحياة ؛ لأنها واسطة بين منتج زارع أو صانع وبين مستهلك ، وهي تقتضي البيع والشراء ، وهما قمة التبادلات ، وهؤلاء الرجال لم تُلْههمْ التجارة عن ذكْر الله لأنهم عرفوا ما في الزمن المستقطع للصلاة مِنْ بركة تنثر في الزمن الباقي .

---

(١) هناك قراءة أخرى « يُسبَّح » قرأها عبد الله بن عامر وعاصم في رواية أبي بكر عنه والحسن . بفتح الباء على ما لم يُسمَّ فاعله . ذكره القرطبي في تفسيره (٤٨١٢/٦) .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٤٨١٢/٦) : « رأى سالم بن عبد الله أهل الأسواق وهم مقبلون إلى الصلاة ، فقال : هؤلاء الذين أراد الله بقوله ﴿ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ .. (٣٧) ﴾ [النور] ثم قال : « اختلف العلماء في وصف الله تعالى المسبحين . فقيل : هم المراقبون أمر الله ، الطالبون رضاءه ، الذين لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا » .

(٣) كناية عن الحيرة والفزع الشديد والبحث عن موضع للفرار من أهوال يوم القيامة . [القاموس القويم ١٢٩/٢] . وقيل : تتقلب القلوب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك ، والأبصار تنظر من أي ناحية يعطون كتبهم وإلى أي ناحية يؤخذ بهم [تفسير القرطبي ٤٨١٧/٦] .

أو نقول : إن التجارة لم تُلْههم عن ذكْر الله فى ذاتها ، فهُمْ حالَ تجارتهم لا يغفلون عن ذكر الله ، وقد كنا فى الصِّغَر نسمع فى الأسواق بين البائع والمشترى ، يقول أحدهما للآخر : وحِّد الله ، صلِّ على النبى ، مدِّح النبى ، بالصلاة على النبى ، كل هذه العبارات انقرضت الآن من الأسواق والتعاملات التجارية وحَلَّ محلَّها قيم وعبارات أخرى تعتمد على العَرْض والإعلان ، بل الغش والتدليس . ولم نَعُدْ نسمع هذه العبارات ، حتى إذا لم يتم البيع كنت تسمع البائع يقول : كسبنا الصلاة على النبى ، فهىَ فى حَدِّ ذاتها مكسب حتى لو لم يتم البيع .

﴿ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ .. (٣٧) ﴾ [النور] الصلاة لأنها تأخذ وقتاً من العمل ، وكثيراً ما ينشغل المرء بعمله وتجارته عن إقامة الصلاة ظاناً أنها ستُضيِّع عليه الوقت ، وتُفوِّت عليه مصالح كثيرة ، وكذلك ينظر إلى الزكاة على أنها تنقص من ماله ، وهذه نظرة خاطئة حمقاء ؛ لأن الفلاح الذى يُخرِج من مخزنه أردباً من القمح ليزرع به أرضه : الأحمق يقول : المخزن نقص أردباً ، أما العاقل فيثق أن هذا الأردب سيتضاعف عند الحصاد أضعافاً مضاعفة .

أو : أن الله تعالى يفيض عليه من أنواره ، فيبارك له فى وقته ، وينجز من الأعمال فى الوقت المتبقى ما لا ينجزه تارك الصلاة ، أو : يرزقه بصفقة رابحة تأتيه فى دقائق ، ومن حيث لا يحتسب ، والبركة كما قلنا قد تكون سَلْباً وقد تكون إيجاباً ، وهذه كلها أنوار وتجليات يفيض الله بها على الملتزم بمنهجه .

ثم يقول سبحانه فى صفات هؤلاء الرجال : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧) ﴾ [النور] ذلك لأنهم يتاجرون لهدف أسمى

وأخلد ، فأهل الدنيا إنما يتاجرون لصيانة دنياهم ، أمّا هؤلاء فيتاجرون مع الله تجارة لن تبور ، تجارة تصون الدنيا وتصون الآخرة .

وإذا قستَ زمن دنياك بزمن أُخْراك لوجدته هباء لا قيمةَ له ، كما أنه زمن مظنون لعمر مظنون ، لا تدرى متى يفاجئك فيه الموت ، أمّا الآخرة فحياة يقينية باقية دائمة ، وفى الدنيا يفوتك النعيم مهما حَلاَ وطال ، أما الآخرة فنعيمها دائم لا ينقطع .

إذن : فَهُمْ يعملون للآخرة ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧)﴾ [النور] واليوم فى ذاته لا يُخاف منه ، وإنما يُخَاف ما فيه ، كما يقول الطالب : خِفْت يوم الامتحان ، واليوم يوم عادى لا يخاف منه ، إنما يُخاف مما سيحدث فى هذا اليوم ، فالمراد : يخافون عذاب هذا اليوم .

ومعنى ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ (٣٧)﴾ [النور] يعنى : رجفة القلب واضطراب حركته ، وما ينتابه من خفقان شديد ، ونحن نرى ما يصيب القلوب من ذلك لمجرد أحداث الدنيا ، فما بالك بهوْل الآخرة ، وما يحدث من اضطراب فى القلب ؟

كذلك تضطرب الأبصار وتتقلَّب هنا وهناك ؛ لأنها حين ترى الفزع الذى يخيفها تتقلب ، تنظر هنا وتنظر هنا علَّها ترى ما يُطمئنها أو يُخفِّف عنها ما تجد ، لكن هيهات فلن ترى إلا فزعاً آخر أشدّ وأنكى .

لذلك ينتهى الموقف إلى : ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ .. (٤٣)﴾ [القلم] ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩)﴾ [النازعات] يعنى : ذليلة منكسرة حيث لا مفرٌ ولا مَنْجى ، ولن يجد فى هذا اليوم راحة إلا مَنْ قدم له العمل الصالح كالتلميذ المجتهد الواثق من نفسه ومعلوماته،

يتلهف إلى ورقة الأسئلة ، أما الآخر فيقف حائراً لا يدرى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾

أى : فى هذا اليوم يجزيهم الله أحسن ما عملوا ، ما شاء الله على رحمة الله !! لكن كيف بأسوأ ما عملوا ؟ هذه دَعْوها لرحمة الله ولمغفرته ﴿ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [النور] لأن الله تعالى لا يعاملنا فى الحسنات بالعدل ، ولا يجازينا عليها بالقسطاس المستقيم وعلى قَدْر ما نستحق ، إنما يزيدنا من فضله .

لذلك ورد فى الدعاء : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وبالإحسان لا بالميزان . فليس لنا نجاة إلا بهذا ، كما يقول سبحانه : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النور] والرزق : كُلُّ ما يُنتفع به ، وكل معنى فيه فوقية لك هو رزق ، فالصحة رزق ، والعلم رزق ، والحلم رزق ، والشجاعة رزق .. إلخ .

والبعض يظن أن الرزق يعنى المال ، وهذا خطأ ؛ لأن الرزق مجموعُ أمور كثيرة ، فإنْ كان رزقُك علماً فعلِّم الجاهل ، وإنْ كان رزقك قوةً فأعِن الضعيف ، وإنْ كان رزقك حلْماً فاصبر على السَّفيه ، وإن كان رزقكَ صنعة تجيدها ، فاصنع لأخرقَ لا يجيد شيئاً .

وإذن : هذا كله رزق ، وما دام ربك ـ عز وجل ـ يرزقك بغير حساب ، ويفيض عليك من فضله فأعْطِ المحتاجين ، وارزق أنت أيضاً

المعدمين ، واعلم أنك مُنَاول عن الله ، والرزق فى الأصل من الله وقد تكفَّل لعباده به ، وما أنت إلا يد الله الممدودة بالعطاء ، واعلم أنك ما دُمْتَ واسطة فى العطاء ، فأنت تعطى من خزائن لا تنفد ، فلا تضنّ ولا تبخل ، فما عندكم ينفد وما عند الله بَاقٍ .

والحساب : أنْ تحسب ثمرة الأفعال : هذه تعطى كذا ، وهذا ينتج كذا ، يعنى ميزانية ودراسة جدوى ، أمّا عطاء الله فيأتيك دون هذه الحسابات ، فأنت تحسب ؛ لأن وراءك مَنْ سيحاسبك ، أمّا ربك عز وجل فلا يحاسبه أحد ؛ لذلك يعطيك بلا عمل ودون أسباب ، ويعطيك بلا مُقدِّمات ، ويعطيك وأنت لا تستحق ، ألاَ ترى مَنْ تتعثر قدمه فيجد تحتها كنزاً ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (٣٩) ﴾

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يلفت أنظار مَنْ شغلتهم الدنيا بحركتها ونشاطها عن المراد بالآخرة ، فيصنعون صنائع معروف كثيرة ، لكن لم يُخلصوا فيها النية لله ، والأصل فى عمل الخير أنّ يكون من الله ولله ، وسوف يُواجَه هؤلاء بهذه الحقيقة فيقال لأحدهم كما جاء فى الحديث : « عملت ليقال وقد قيل »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) وأحمد فى مسنده (٣٢٢/٢) والنسائى فى سننه (٢٣/٦ ، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وفيه : « إن أول الناس يُقْضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل . ثم أُمِر به فسُحِب على وجهه حتى أُلقِي فى النار » الحديث .

لقد مدحوك وأثنَوْا عليك ، وأقاموا لك التماثيل وخلَّدوا ذكْراك ؛ لذلك رسم لهم القرآن هذه الصورة : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور]

﴿ أَعْمَالُهُمْ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور] أى : التى يظنونها خيراً ، وينتظرون ثوابها ، والسراب : ما يظهر فى الصحراء وقت الظهيرة ، كأنه ماء وليس كذلك . وهذه الظاهرة نتيجة انكسار الضوء ، و « قِيعة » : جمع قاع وهى الأرض المستوية مثل جار وجيرة .

وأسند الفعل ﴿ يَحْسَبُهُ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور] إلى الظمآن ؛ لأنه فى حاجة للماء ، وربما لو لم يكُنْ ظمآناً لما التفتَ إلى هذه الظاهرة ، فلظمئه يجرى خلف الماء ، لكنه لا يجد شيئاً ، وليت الأمر ينتهى عند خيبة المسعى إنما ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور] فُوجِئ بإله لم يكُنْ على باله حينما فعل الخير ، إله لم يؤمن به ، والآن فقط يتنبه ، ويصحو من غَفْلته ، ويُفَاجأ بضياع عمله .

إذن : تجتمع عليه مصيبتان : مصيبة الظمأ الذى لم يجد له رِيّاً ، ومصيبة العذاب الذى ينتظره ، كما قال الشاعر[1] :

كَما ابرقَتْ قَوْماً عِطَاشاً غَمَامَةٌ فلمَّا رأوْهَا أقْشَعَتْ وتَجلَّتِ[2]

وسبق أن ضربنا مثلاً لهذه المسألة بالسجين الذى بلغ منه العطش مبلغاً ، فطلب الماء ، فأتاه الحارس به حتى إذا جعله عند فيه

(١) هو : كثير بن عبد الرحمن أبو صخر الخزاعى ، يقال له « كثير عزة » وهى عزة بنت جميل الضمرية ، كان عفيفاً فى حبه لها ، شاعر متيم مشهور ، من أهل المدينة أكثر إقامته بمصر ، كان مفرط القصر دميماً فى نفسه شمم وترفع . توفى عام (١٠٥ هـ) الأعلام للزركلى (٥/٢١٩) .

(٢) ديوان كثير (ص ٢٠٧) وأورده شهاب الدين الحلبى (ت ٧٢٥ هـ) فى « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » ص ١٢١ . وأقشعت الغمامة : انكشفت وذهبت .

واستشرف المسكين للارتواء أراق الحارسُ الكوبَ ، ويُسمُّون ذلك : يأسٌ بعد إطْماع .

لذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطينا فى الكون أمثلة تُزهِّد الناس فى العمل للناس من أجل الناس ، فالعمل للناس لا بُدَّ أنْ يكون من أجل الله . وفى الواقع تصادف مَنْ ينكر الجميل ويتنكر لك بعد أنْ أحسنْتَ إليه ، وما ذلك إلا لأنك عملتَ من أجله ، فوجدت الجزاء العادل لتتأدب بعدها ولا تعمل من أجل الناس ، ولو فعلتَ ما فعلتَ من أجل الله لوجدتَ الجزاء والثواب من الله قبل أنْ تنتهى من مباشرة هذا الفعل .

وفى موضع آخر يُشبِّه الحق سبحانه الذى ينفق ماله رياء الناس بالحجر الأملس الذى لا ينتفع بالماء ، فلا ينبت شيئاً : ﴿ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ[1] عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ[2] فَتَرَكَهُ صَلْدًا[3] لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور] فإياك أنْ تستبعد الموت أو البعث ، فالزمن بعد الموت وإلى أن تقوم الساعة زمنٌ لا يُحسَب لأنه يمرُّ عليك دون أن تشعر به ، كما قال سبحانه : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات]

والله تعالى أخفى الموت أسباباً وميعاداً ؛ لأن الإبهام قد يكون غاية البيان ، وبإبهام الموت تظل ذاكراً له عاملاً للآخرة ؛ لأنك تتوقعه

(١) الصفوان : الحجر الأملس الذى لا يصلح للزراعة . [القاموس القويم ١ / ٣٨٠] .
(٢) الوابل : المطر الكثير القطر . والوبيل : الثقيل الغليظ جداً . [لسان العرب ـ مادة : وبل] .
(٣) الصلد : الحجر الصلب الأملس فلا يصلح لإنبات نبات . [القاموس القويم ٣٨١/١] .

فى أى لحظة ، فهو دائماً على بالك ، ومَنْ يدريك لعلّك إنْ خفضْتَ طرْفك لا ترفعه ، وعلى هذا فالحساب قريب وسريع ؛ لذلك قالوا : مَنْ مات فقد قامت قيامته[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

هذا مَثَل آخر توضيحى لأعمال الذين كفروا ، والبحر اللجى : الواسع الكبير الذى تتلاطم فيه الأمواج ، بعضها فوق بعض ، وفوق هذا كله سحاب إذن : فالظلام مُطبق ؛ لأنه طبقات متتالية ، وفى أعماق بعيدة ، وقد بلغتْ هذه الظلمة حداً لا يرى الإنسان معها حتى يده التى هى جزء منه ، فما بالك بالأشياء الأخرى ؟

وقوله : ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ..﴿٤٠﴾﴾ [النور] أى : لم يقرب من أنْ يراها ، وإذا نفى القُرْب من أن يرى فقد نفى الرؤية من باب أوْلَى ؛ ذلك لأنه ليس له نور من الله يرى به ويهتدى ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور] فكما أنه لم ينتفع بالنور ، ولم يَرَ حتى يده ، كذلك لا ينتفع بشىء من عمله .

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنىً كدّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم ، الموت القيامة ، فمن مات قامت قيامته » . وأخرجه الديلمى فى مسند الفردوس (حديث ١١١٧) عن أنس رفعه بلفظ « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته فاعبدوا الله كأنكم ترونه واستغفروه كل ساعة » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ(١) كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) ﴾

يريد الحق - سبحانه وتعالى - أن يلفتنا إلى ما يدلّ على وحدة الخالق الأعلى ، وكمال قيوميته ، وكمال قدرته ، وذُكِرَتْ هذه الآية بعد عدة أوامر ونواه ، وكأن ربك - عز وجل - يريد أنّ يُطمئنك على أن هذا الكون الذى خَلقه من أجلك وقبل أن تُولد ، بل ، وقبل أن يخلق الله آدم أعدَّ له هذا الكون ، وجعله فى استقباله بسمائه وأرضه وشمسه وقمره ومائه وهوائه ، يقول لك ربك : اطمئن فلن يخرج شىء من هذا الكون عن خدمتك فهو مُسخَّر لك ، ولن يأتى يوم يتمرّد فيه ، أو يعصى أوامر الله :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٤١) ﴾ [النور]

﴿ أَلَمْ تَرَ .. (٤١) ﴾ [النور] يعني : ألم تعلم ، كما فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل] ومعلوم أن النبى ﷺ وُلد عام الفيل ، ولم يَرَ هذه الحادثة ، فلماذا لم يخاطبه ربُّه بألم تعلم ويريح الناس الذين يتشكّكون فى الألفاظ ؟

قالوا : ليدلّك على أن ما يخبرك الله به - غيباً عنك - أوثقُ مما تخبرك به عينُك مشهداً لك ؛ لأن مصدر علمك هو الله ، ألاَ ترى أن النظر قد يصيبه مرض فتختل رؤيته ، كمن عنده عمى ألوان أو قصَر

---

(١) صافات : مصطفات الأجنحة فى الهواء ، فهن باسطات الأجنحة . وقال سفيان : للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود . وقيل : إن ضربها بأجنحتها صلاة ، وإن أصواتها تسبيح . حكاه النقاش . [تفسير القرطبى ٦/٤٨٢٤] .

نظر .. إلخ إذن : فالنظر نفسه وهو أوثق شيء لديك قد يكذب عليك .

والتسبيح : هو التنزيه ، والتنزيه أن ترتفع بالمنزّه عن مستوى ما يمكن أنْ يجولَ بخاطرك : فالله تعالى له وجود ، وأنت لك وجود ، لكن وجودَ الله ليس كوجودك ، الله له ذات وصفات ، لكن ليست كذاتك وصفاتك .. إلخ .

إذن : نزِّه ذات الله تعالى عن الذوات التى تعرفها ؛ لأنها ذوات وُهبَتْ الوجود ، أما ذات الله فغير موهوبة ، ذات الله ذاتية ، كذلك لك فعْل ، ولله تعالى فعْل .

وقد ذكرنا فى قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ① ﴾ [الإسراء]

إن الذين اعترضوا على هذا الفعل اعترضوا بغباء ، فلم يُفرِّقوا بين فعْل الله وفعْل العبد ، فرسول الله ﷺ لم يقل : سريْتُ من مكة إلى بيت المقدس . إنما قال : أُسْرِى بى .

فالاعتراض على هذا فيه مغالطة ، فإنْ كنتم تضربون إليها أكباد الإبل شهراً ؛ فذلك لأن سَيْركم خاضع لقدرتكم وإمكاناتكم ، أمّا الله تعالى فيقول للشيء : كُنْ فيكون ، فلا يحتاج فى فعْله سبحانه إلى زمن . فمن الأدب ألاَّ تقارن فعْل الله بفعلك ، ومن الأدب أنْ تُنزِّه الله عن كل مَا يخطر لك ببال ، نزِّه الله ذاتاً ، ونزِّهه صفاتاً ، ونزهه أفعالاً .

ألا ترى أن (سبحان) مصدر للتسبيح ، يدل على أن تنزيه الله ثابت له سبحانه قبل أن يخلق مَنْ ينزهه ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. ⑱ ﴾ [آل عمران] فشهد الحق - تبارك وتعالى - لنفسه قبل أنْ تشهدوا ، وقبل أن تشهد الملائكة ، فهذه هى

شـهادة الذات للذات . وقـبل أن يخلق الله الإنسـان المـسبِّح سـبَّح لله السموات والأرض ساعة خلقهما سبحانه وتعالى .

وحين تتـتبع ألفاظ التسـبيح فى القرآن الكريم تجدهـا جاءت مرة بصيغة الماضى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ①﴾ [الحديد] فهل سـبَّحَتْ السموات والأرض مـرة واحدة ، فقالت : سبـحان الله ثم سكتَتْ عن التسبيح ؟ لا إنما سبَّحَتْ فى الماضى ، ولا تزال تُسبِّح فى الحاضر : ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ .. ①﴾ [الجمعة]

وما دام أن الكون كله سبَّح لله ، وما يزال يُسبِّح فلم يَبْقَ إلا أنت يا ابن آدم : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ①﴾ [الأعلى] يعنى : اسـتح أن يكون الكون كله مُـسبِّـحاً وأنت غـيـر مُسـبِّح ، فصِلْ أنت تسـبيـحك بتسبيح كل هذه المخلوقات .

وعجـيب أن نسـمع من يقول أن (مَنْ) فى الآية للعـاقل ، فـهو الذى يُسبِّح أمّـا السموات والأرض فـلا دخلَ لهما فى هذه المـسألة ، ونقول : لا دخلَ لها فى تصورك أنت ، أمّا الحقـيقة فإنها مثلك تُسبِّح كما قال تعالى : ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ٤١﴾ [النور]

وقال : ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. ١٣﴾ [الرعد] فليس لك بعد كلام الله كلام .

وآخر يقول لك : التسبيح هنا ليس على الحـقيقة ، إنما هو تسبيح دلالة وحـال ، لا مـقـال ، يعنى : هذه المـخلوقـات تدلُّ بحـالهـا على تسبيح الله وتنزيهه ، وأنه واحد لا شريك له ، على حد قول الشاعر :

وَفِى كُلِّ شَىء لَهُ آيَةٌ ‌ ‌ ‌ تدُلُّ على أنَّه الوَاحِدُ

وهذا القول مردود بقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

إذن : فهذه المخلوقات تُسبِّح على الحقيقة ولها لسان ولغة ، لكنك لا تفهم عنها ولا تفقه لغاتها ، وهل فهمتَ أنت كل لغات بنى جنسك حتى تفهم لغات المخلوقات الأخرى ؟ إن العربى إذا لم يتعلم الإنجليزية مثلاً لا يستطيع أن يفهم منها شيئاً ، وهى لغة منطوقة مكتوبة ، ولها ألفاظ وكلمات وتراكيب مثل العربية .

إذن : لا تقُلْ تسبيحَ حال ، هو تسبيح مقال ، لكنك لا تفهمه ، وكل شىء له مقال ويعرف مقاله ، بدليل أن الله تعالى إنْ شاء أطلع بعض أهل الاصطفاء على هذه اللغات ، ففهمها كما فهم سليمان عليه السلام عن النملة ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل] وسمع كلام الهدهد وفهم عنه ما يقول عن ملكة سبأ .

ونقول لأصحاب هذا الرأى : تأملوا الخلية المسدَّسة التى يصنعها النحل وما فيها من هندسة تتحدى أساطين الهندسة والمقاييس أن يصنعوا مثلها ، تأمَّلوا عش الطائر وكيف ينسج عيدان القش ، ويُدخل بعضها فى بعض ، ويجعل للعُشِّ حافَّة تحمى الصغار ، فإذا وضعْتَ يدك فى العُشِّ وهو من القَشِّ وجدتَ له ملمسَ الحرير ، تأملوا خيوط العنكبوت وكيف يصطاد بها فرائسه ؟

لقد شاهدت فيلماً مصوراً يُسجِّل صراعاً بين دب وثور ، الدب رأى قرون الثور طويلة حادة ، وعلم أنها وسيلة الثور التى ستقضى عليه ، فما كان منه إلا أن هجم على الثور وأمسك قَرْنَيْه بيديه ، وظل ينهش رأس الثور بأسنانه حتى أثخنه جراحاً حتى سقط فراح يأكله .

إذن : كيف نستبعد أن يكون لهذه المخلوقات لغات تُسبِّح الله بها

لا يعرفها إلا بنو جنسها ، أو مَنْ أفاض الله عليه بعلمها ؟

ثم ألم يتعلَّم الإنسان من الغراب كيف يدفن الموتى لما قَتَل قابيلُ هابيلَ ؟ كما يقول سبحانه : ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ .. (٣١)﴾ [المائدة] وكأن ربنا - عز وجل - يُعلِّمنا الأدب وعدم الغرور .

وقرأنا أن بعض الباحثين والدارسين لحياة النمل وجدوا أنه يُكوِّن مملكة متكاملة بلغت القمة في النظام والتعاون ، فقد لاحظوا مجموعة تمرُّ هنا وهناك ، حتى وجدتْ قطعة من طعام فتركوها وانصرفوا ، حيث أتوا ، ثم جاءت بعدهم كوكبة من النمل التفتْ حول هذه القطعة وحملتْها إلى العُشِّ ، ثم قام الباحث بوضع قطعة أخرى ضِعْف الأولى ، فإذا بمجموعة الاستكشاف (أو الناضورجية) تمر عليها وتذهب دون أنْ تحاول حَمْلها ، وبعدها جاء جماعة من النمل ضِعْف الجماعة الأولى ، فكأن النمل يعرف الحجم والوزن والكتلة ويُجيد تقديرها .

وفي إحدى المرات لاحظ الباحث فتاتاً أبيض أمام عُشِّ النمل ، فلما فحصه وجده من جنين الحبة الذي يُكوِّن النبتة ، وقد اهتدى النمل إلى فصل هذا الجنين حتى لا تُنبت الحبة فتهدم عليهم العُشّ ، لهذا الحد علِم النمل قانون صيانته ، وعلم كيف يحمي نفسه ، وهو من أصغر المخلوقات ، أبعد هذا كله نستبعد أن يكون للنمل أو لغيره لُغته الخاصة ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١)﴾ [النور] فلماذا خَصَّ الطير بالذكر مع أنها داخلة في ﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٤١)﴾ [النور]

قالوا : خَصَّها لأن لها خصوصية أخرى وعجيبة ، يجب أن نلتفت إليها ؛ لأن الله تعالى يريد أنْ يجعل الطير مثلاً ونموذجاً لشيء أعظم ، فالطير كائن له وزن وثقل ، يخضع لقانون الجاذبية التى تجذب للأرض كُلَّ ثقل يعلَقُ فى الهواء .

لكن الحق - سبحانه وتعالى - يخرق هذا القانون للطير حين يصُفُّ أجنحته فى الهواء ، يظل مُعلَّقاً لا يسقط : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَٰنُ .. ⦗١٩⦘﴾ [الملك]

وكأن الخالق - عز وجل يقول : خُذُوا من الطير المشاهد نموذجاً ووسيلة إيضاح ، فإذا قلتُ لكم : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ⦗٦٥⦘﴾ [الحج] فَصدِّقوا وآمنوا أن الله يُمسك السماء ، بل : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. ⦗٤١⦘﴾ [فاطر]

فخُذْ من المشهد الذى تدركه دليلاً على ما لا تدركه .

لكن ، مَن الفاعل فى ﴿عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ⦗٤١⦘﴾ [النور] ؟

يمكن أن يكون الفاعل الطير وكل ما فى الوجود ، وأحسن منه أن نقول : علم الله صلاتها وتسبيحها ؛ لأنه سبحانه خالقها وهاديها إلى هذا التسبيح[1] . إذن : فكل ما فى الوجود يعلم صلاته ويعلم تسبيحه ، كما تعلم أنت المنهج ، لكنه استقام على منهجه لأنه مُسخَّر وانحرفت أنت لأنك مُخيَّر .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٨٢٤/٦) : « يجوز أن يكون المعنى : كل قد علم الله صلاته وتسبيحه ، أى : علم صلاة المصلى وتسبيح المسبِّح ؛ ولهذا قال : ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ⦗٤١⦘﴾ [النور] أى : لا يخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم . وقد قيل : المعنى : قد علم كل مُصلٍّ ومسبِّح صلاة نفسه وتسبيحه الذى كلفه » .

فإنْ أردتَ أنْ تستقيمَ أمور حياتك فطبِّق منهج الله كما جاءك ؛ لذلك لا تجد فى الكون خللاً أبداً إلا فى منطقة الاختيار عند الإنسان ، كل شىء لا دخْلَ للإنسان فيه يسير منتظماً ، فالشمس لم تعترض فى يوم من الأيام ولم تتخلف ، كذلك القمر والنجوم والهواء ، إنها منضبطة غاية الانضباط ، حتى إن الناس يضبطون عليها حساباتهم ومواعيدهم واتجاهاتهم .

لذلك يقول تعالى : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾ [الرحمن] يعنى : بحساب دقيق ، وما كان للشمس أنْ تضبط الوقت إلا إذا كانت هى فى ذاتها منضبطة .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٤١ ﴾ [النور] أى : لقيوميته تعالى على خَلْقه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٤٢ ﴾

يريد ربك ـ عز وجل ـ أنْ يُطمئنك أن الذى كلَّفك بما كلَّفك به يضمن لك مُقوِّمات حياتك ، فلن ينقطع عنك الهواء فى يوم من الأيام ، ولن تتأبَّى عليك الشمس أو القمر أو الأرض ؛ لأنها مُلْك لله ، لا يشاركه سبحانه فى ملكيتها أحد يمنعها عنك ، فاطمئن إلى أنها ستؤدى مهمتها فى خدمتك إلى يوم القيامة ، ولا تشغل نفسك بها ، فقد ضمنها الله .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ(١) يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا(٢) بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ .. (٤٣) ﴾ [النور] يعنى : ألم تعلم ، وقد وقفنا مع تطور العلم على كيفية تكوُّن المطر بين التبخير والتكثيف الذى يُكوِّن السحاب ، وقلنا سابقاً : إن مُسطح الماء على الأرض ثلاثة أرباع اليابسة حتى تكفى هذه المساحة البخر اللازم لتكوّن المطر ، ونحن نُجرى مثل هذه العملية فى تقطير الماء حين نغلى الماء ونستقبل البخار على سطح بارد ، فتحدث له عملية التكثيف .

وقد أوضحنا هذه العملية بكوب الماء حين تتركه ممتلئاً وتسافر مثلاً ، فحين تعود تجد الكوب قد نقص قليلاً ، أما إذا أرقْتَهُ على الأرض ، فإنه يجفُّ سريعاً ، وقبل أن تغادر المكان ، لماذا ؟ لأنك وسَّعْتَ مساحة البَخْر .

ومعنى ﴿ يُزْجِي سَحَابًا .. (٤٣) ﴾ [النور] أى : يرسله برِفْق ومَهَل ؛ لذلك لما وصف الشاعر مَشْى الفتاة قال :

كَأَنَّ مِشْيَتَها منْ بيْت جَارَتها ... مَرُّ السَّحابَة لاَ رَيْث(٣) ولاَ عَجَل

(١) الودق : المطر ، شديده وهيِّنه . [لسان العرب ـ مادة : ودق] .

(٢) السنا : ضوء النار والبرق . قال أبو زيد : سنا البرق ضوؤه من غير أن ترى البرق أو ترى مخرجه فى موضعه ، فإنما يكون السنا بالليل دون النهار ، وربما كان فى غير سحاب [لسان العرب ـ مادة : سنا] .

(٣) الريث : الإبطاء . راث يريث : أبطأ . وتريث فلان علينا . أى : أبطأ . [لسان العرب ـ مادة : ريث] .

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ .. (٤٣)﴾ [النور] أى : يجمع بعضه على بعض ، وحين يُجمع الشيء بعضه على بعض لا بُدَّ أن يبقى بينه فاصل ، فلا يلتحم بغيره التحاماً تاماً ، ولولا هذه الفواصل بين قِطَع السحاب ، ولولا هذه الفتوق ما نزل الوَدَق من خلاله .

ولو شاء سبحانه لجعل السحاب قطعة واحدة ، ولكنه سبحانه يؤلف بينه ويُجمِّعه بعضه على بعض دون أنْ يُوحِّده تكويناً ، فيحدث بذلك فراغاً بين قطع السحاب . أرأيتَ حين نلصق الورق بالصمغ مثلاً فمهما وضعت عليه من ثقل لا بُدَّ أن يبقى بينه فراغات ؛ لأنه ليس ذاتاً واحدة .

وعملية تفريغ الهواء هذه تلاحظها حين تضع كوباً مبلولاً وتتركه لفترة ، فيتبخر الماء من تحته ويخرج الهواء ، فإذا أردْتَ رفعه وجدته صعباً لماذا ؟ لتفريغ الهواء من تحت قاعدة الكوب ، وفى هؤلاء الذين يعالجون الآلام الناتجة عن البرد ، فيضعون الكوب مقلوباً على مكان الألم ، ثم يُشعِلُون بداخله قطعةً من القماش مثلاً لتحرق الهواء بداخل الكوب .

وبذلك نمنع الخلل فى التقاء الكوب بالجسم ، وهذه المسألة هى سِرُّ عظمة قدماء المصريين فى البناء ، حيث تتماسك الحجارة دون وجود (مونة) تربط بينها .

إذن : وجود الهواء بين الشيئين يُحدث خللاً بينهما ، ولولا هذا الخلل فى السحاب ما نزل منه الماء ، والمطر آية عظيمة من آيات الله لا نشعر بها ، ولك أنْ تتصور كم يُكلِّفنا كوب الماء المقطّر حين نُعِدُّه فى المعمل ، فما بالك بالمطر الذى يسقى الأرض كلها ؟

ثم يقول تعالى : ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا .. (٤٣)﴾ [النور] يعنى : مُكدَّساً

بعضه على بعض ، وفي آية أخرى : ﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الطور] متراكم بعضه على بعض ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] أى : المطر : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] أى : من خلال هذه الفجوات والفواصل التى تفصل بين السُّحُب .

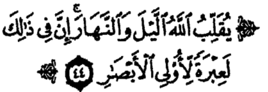
وهذا الماء الذى ينزل من السماء فيُحيى به الله الأرض قد يأتى نقمةً وعذاباً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] ولنا فى أهل مأرب الذين أغرقهم الله عبرةٌ وعظة .

ولو تأملتَ لوجدتَ الماء والنار عدويْن متقابلين يصعب مقاومتهما ؛ لذلك كان العرب إلى عهد قريب يخافون الماء لما عاينوه من غرق بعد انهيار سدِّ مأرب ؛ لذلك آثروا أنْ يعيشوا فى الصحراء بعيداً عن الماء .

وبالماء نجَّى الله تعالى موسى - عليه السلام - وأغرق عدوه فرعون ، ففعل سبحانه الشيء وضده بالشيء الواحد .

وقوله تعالى : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور] أى : الضوء الشديد الذى يُحدثه السحاب يكاد أن يخطف الأبصار ، وفى البرق تتولد النار من الماء ؛ لذلك حينما يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ[1] ﴿٦﴾ ﴾ [التكوير] فصدِّق هذه الآية الغيبية ؛ لأنك شاهدتَ نموذجاً لها فى مسألة البرق .

ثم يقول الحق سبحانه :


﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴾

(١) أى : امتلأت ماءً ، أو امتلأت ناراً يوم القيامة . [القاموس القويم ١/٣٠٣] .

فالليل والنهار آيتان يتتابعان لكن دون رتابة ، فالليل قد يأخذ من النهار ، والنهار يأخذ من الليل ، وقد يستويان فى الزمن تماماً . ومن تقليب الليل والنهار ما يعتريهما من حَرٍّ أو برد أو نور وظلمة .

إذن : فالمسألة ليست ميكانيكية رتيبة ، إنما هى قيومية الله تعالى وقدرته فى تصريف الأمور على مراده تعالى ؛ لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور]

العبرة والعَبرة والعبور والتعبير كلها من مادة واحدة ، نقول : هذا مكان العبور يعنى الانتقال من جهة إلى جهة أخرى ، وفلان عبَّر عن كذا ، يعنى : نقل الكلام النفسى إلى كلام باللسان ، والعبرة أنْ ننظرَ فى الشيء ونعتبر ، ثم ننتقل منه إلى غيره ، وكذلك العَبْرة لأنها حزن أسال شيئاً ، فنزل من عينى الدمع .

والعبرة هنا لمن ؟ ﴿ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور] والمراد : الأبصار الواعية لا الأبصار التى تدرك فقط ، والإنسان له إدراكات بوسائلها ، وله عقل يستقبل المدركات ويغربلها ، ويخلُص منها إلى قضايا ، ومن الناس مَنْ يبصر لكنه لا يرى شيئاً ولا يصل من رؤيته إلى شيء ، ومنهم أصحاب النظر الواعى المدقِّق ، فالذى اكتشف قوة البخار رأى القدْر وهى تغلى وتفور فيرتفع عليها الغطاء ، وهذا منظر نراه جميعاً الرجل والمرأة ، والكبير والصغير ، لكن لم يصل أحد إلى مثل ما وصل إليه .

إذن : المراد الأبصار التى تنقل المبصر إلى العقل ليُحلِّله ويستنبط ما فيه من أسباب ، لعله يستفيد منها بشيء ينفعه ، والله تعالى قد خلق فى الكون ظواهرَ وآيات لو تأملها الإنسان ونظر إليها بتعقُّل وتبصُّر لاستنبطَ منها مَا يُثرى حَياته ويرتقى بها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) ﴾

الدابة : كلّ ما يدبُّ على الأرض ، سواء أكان إنساناً أو أنعاماً أو وحشاً ، فكُلُّ ما له دبيب على الأرض خلقه الله من ماء حتى النملة لها على الأرض دبيب .

وكل شيء يضخم قابل لأنْ يُصغَّر ، وقد يُضخَّم تضخيماً لدرجة أنك لا تستطيع أن تدرك كُنْهه ، وقد يَصْغُر تصغيراً حتى لا تكاد تراه ، وتحتاج في رؤيته إلى مُكبِّر ، ومن عجائب الخَلْق أن النملة أو الناموسة فيها كل أجهزة الحياة ومُقوِّماتها ، وفيها حياة كحياة الفيل الضخم ، ومن عظمة الخالق سبحانه أن يخلق الشيء الضخم الذي يفوق الإدراك لضخامته ، ويخلق الشيء الضئيل الذي يفوق الإدراك لضآلته .

ألاَ ترى أن ساعة (بج بن) أخذتْ شهرتها لضخامة حجمها ، ثم جاء بعد ذلك مَنْ صنع الساعة في حجم فصٍّ الخاتم ، وفيها نفس الآلات التي في ساعة (بج بن) ، كذلك خلق الله من الماء الفيل الضخم ، وخلق الناموسة التي تؤرق الفيل رغم صِغَرها .. سبحان الخالق .

ولما كان الماء هو الأصل في خِلْقة كل شيء حيٍّ وجدنا العلماء يقتلون حتى الميكروب الصغير الدقيق بأنْ يحجبوا عنه المائية فيموت ، ومن ذلك مداواة الجروح بالعسل ؛ لأنه يمتص المائية أو يحجبها ، فلا يجد الميكروب وسطاً مائياً يعيش فيه

وهذه الخِلْقة ليست على شكل واحد ولا وتيرة واحدة في قوالب ثابتة ، إنما هي ألوان وأشكال ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ .. (٤٥)﴾ [النور]

والمشى : هو انتقال الموصوف بالمشى من حَيِّز مكانى إلى حَيِّز مكانى آخر ، والناس تفهم أن المشى ما كان بالقدمين ، لكن يُوضِّح لنا سبحانه أن المشْى أنواع : فمن الدوابِّ مَنْ يمشى على بطنه ، ومنهم مَنْ يمشى على رِجْلَيْن ، ومنهم مَنْ يمشى على أربع[1] .

وربنا - سبحانه وتعالى - بسط لنا هذه المسألة بَسْطاً يتناسب وإعجاز القرآن وإيجازه ، فلم يذكر مثلاً أن من الدواب مَنْ له أربع وأربعون مثلاً ، وفي تنوع طُرق المشى فى الدواب عجائب تدلنا على قدرته تعالى وبديع خَلْقه .

لذلك قال بعدها : ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ .. (٤٥)﴾ [النور] لأن الآية لم تستقْص كل ألوان المشى ، إنما تعطينا نماذج ، وتحت ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ .. (٤٥)﴾ [النور] تندرج مثلاً (أم أربعة وأربعين) وغيرها من الدواب ، والآية دليل على طلاقة قدرته سبحانه .

وكما سخر الله الإنسان لخدمة الإنسان ، كذلك سخَّر الحيوان لخدمة الحيوان ليُوفِّر له مُقوِّمات حياته ، ألاَ ترى الطير يقتات على فضلات الطعام بين أسنان التمساح مثلاً فينظفها له ، إذن : فما فى

---

(١) قال النقاش : إنما اكتفى فى القول بذكر ما يمشى على أربع عن ذكر ما يمشى على أكثر ؛ لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع ، وهى قوام مشيه ، وكثرة الأرجل فى بعضه زيادة فى خلقته ، لا يحتاج ذلك الحيوان فى مشيه إلى جميعها . وقال ابن عطية : والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلاً ، بل هى محتاج إليها فى تنقل الحيوان ، وهى كلها تتحرك فى تصرفه . [تفسير القرطبى ٤٨٢٩/٦] .

فم التمساح من الخمائر والبكتيريا هى مخزن قوت لهذه الطيور ، ويحدث بينها توافق وانسجام وتعاون ، حتى إن الطير إنْ رأى الصياد الذى يريد أن يصطاد التمساح فإنها تُحدِث صوتاً لتنبه التمساح حتى ينجو .

ومن المشْى أيضاً السَّعْى بين الناس بالنميمة ، كما قال تعالى : ﴿ هَمَّازٍ[1] مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) ﴾ [القلم]

وبعد أن أعطانا الحق - تبارك وتعالى - الأدلة على أن الملْك له وحده ، وأن كل شىء يُسبِّح بحمده تعالى وإليه تُرجَع الأمور ، وأنه تعالى خلق كُلَّ دابة من ماء ، قال سبحانه :

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾

يعنى : مَنْ ملك هذا الملْك وحده ، وخلق لكم هذه العجائب أنزل لكم آيات بينات تحمل إليكم الأحكام ، فكما فعل لكم الجميل ، ووفر لكم ما يخدمكم فى الكون ، سمائه وأرضه ، فأدُّوا أنتم ما عليكم نحو منهجه وأحكامه ، واتبعوا هذه الآيات البينات .

ومعنى ﴿ مُّبَيِّنَاتٍ .. (٤٦) ﴾ [النور] أى : لاستقامة حركة الحياة ؛ لأن حركة الحياة تحتاج لأنْ يتحرك الجميع ويؤدى كُلٌّ مهمته حتى تتساند الحركات ولا تتعاند ، فالذى يُتعب الدنيا أن تبنى وغيرك يهدم .

إذن : لا بُدَّ من ضابط قيمى يضبط كل الحركات ويحثّ كل

(١) الهماز : صيغة مبالغة . والهُمَزة : كثير الهمز واللمز والغمز واغتياب الناس وعيبهم . وقيل « الهمز » فى القفا والسر ، و « اللمز » عيب فى الوجه فى العلانية . [القاموس القويم ٣٠٧/٢] .

صانع أنْ يتقن صَنْعته ويُخلص فيها ، والإنسان غالباً لا يحسن إلا زاوية واحدة فى حياته ، هى حرفته وتخصصه ، وربما لا يحسنها لنفسه ؛ لأنه لا يتقاضى عليها أجراً ، لذلك يقولون (باب النجار مخلع) أما إنْ عمل للآخرين فإنه يُحسن عمله ويتقن صنعته ، وكذلك يتقن الناس لك ما فى أيديهم ، فتستقيم الأمور ، فأحْسن ما فى يدك للناس ، يحسنْ لك الناسُ ما فى أيديهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النور]

ولقائل أنْ يسأل : وما ذنب مَنْ لم يدخل فى هذه المشيئة فلم يَهْتد ؟ وسبق أن قلنا : إن الهداية نوعان : هداية الدلالة وهداية المعونة على الدلالة .

فالله تعالى يهدى الجميع هداية الدلالة ، ويبين للكل أسباب الخير وسُبل النجاة وطريق الفلاح والأسلوب الأمثل فى إدارة حركة الحياة ، فمَنْ سمع كلام الله ووثق فى توجيهه وأطاع فى هداية الدلالة أعانه بهداية المعونة .

فساعة تسمع : ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المائدة]

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة]

فاعلم أنهم امتنعوا عن هداية الدلالة فامتنعت عنهم هداية المعونة ، لا هداية الدلالة والإرشاد والبيان .

وقلنا : إن كلمة ﴿ أَنزَلْنَا .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [النور] تشعر باحترام الشيء المنزّل ؛ لأن الإنزال لا يكون إلا من العُلُو إلى الأدنى ، فكأن ربك - عز وجل - حين يكلفك يقول لك : أريد أن أرتفع بك من مستوى الأرض إلى عُلو السماء ؛ لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام]

أى : لا تضعوا لأنفسكم القوانين ، ولا تسيروا خلف آرائكم وأفكاركم ، إنما تعالوا إلى الله وخذوا منه سبحانه منهج حياتكم ، فهو الذى خلقكم ، وخلق لكم هذه الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النساء]

وهؤلاء هم المنافقون ، وخَيْبة المنافق أنه متضارب الملكات النفسية ؛ ذلك لأن للإنسان مَلَكات متعددة تتساند حال الاستقامة ، وتتعاند حَال المعصية ، فالإنسان تراه طبيعياً حين ينظر إلى ابنته أو زوجته ، لأن مَلَكاته منسجمة مع هذا الفعل ، أما حين ينظر إلى محارم الغير فتراه يختلس النظرة ، يخاف أنْ يراه أحد يتلصّص ويحتاط ؛ لأن ملَكاته مضطربة غير منسجمة مع هذا الفعل .

لذلك يقولون : الاستقامة استسامة[1] ، فملكات النفس بطبيعتها متساندة لا تتعارض أبداً ، لكن المنافق فضلاً عن كذبه ، فهو متضارب الملكات فى نفسه ؛ لأن القلب كافر واللسان مؤمن .

لذلك فكرامة الإنسان تكون بينه وبين نفسه قبل أن تكون بينه وبين الناس ، فقد يصنع الإنسان أمام الناس صنائع خير تُعجب الآخرين ، لكنه يعلم من نفسه الشر ، فهو وإن كسب ثقة المجتمع من حوله ، إلا أنه خسر رأى نفسه فى نفسه ، وإذا خسر الإنسان نفسه

(١) من تقلد الوسام وآثر الحسن والجمال فالاستسامة طلب الحسن والجمال .

فلن يُعوِّضه عنها شيء حتى إنْ كسب العالم كله ؛ لأن المجتمع لا يكون معك طول الوقت ، أمّا نفسك فملازمة لك كل الوقت لا تنفك عنها ، فأنا كبير أمام الناس ما دُمْت معهم ، أمّا حين أختلي بنفسي أجدها حقيرة : فعلتُ كذا ، وفعلت كذا .

إذن : أنت حكمتَ أنّ رأى الناس أنفَسُ من رأيك ، ولو كان لرأيك عندك قيمة لحاولت أن يكون رأيك في نفسك صحيحاً ، لكن أنت تريد أن يكون رأى الناس فيك صحيحاً ، وإنْ كان رأيك عند نفسك غير ذلك .

ويقول تعالى في هؤلاء : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيدًا (٦٠)﴾ [النساء]

فقد حكم عليهم أنهم يزعمون ، والزعم مطيّة الكذب ، والدليل على أنهم يزعمون أنهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، ولو كانوا مؤمنين بما أُنزِل إليك وما أُنزل من قبلك ما تحاكموا إلى الطاغوت ، وهكذا فضحوا هم أنفسهم ، فالثانية فضحتْ الأولى .

لذلك قالوا : إن الكافر أحسن منهم ؛ لأنه منسجم الملكات : قلبه موافق للسانه ، قلبه كافر ولسانه كذلك ، ومن هنا كان المنافقون في الدَّرْك الأسفل من النار .

والحق - تبارك وتعالى - يعطينا صورة ونموذجاً يحذرنا ألاَّ نحكم على القول وحده ، فيقول تعالى عن المنافقين : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١)﴾ . [المنافقون]

وهذه المقولة ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. ①﴾ [المنافقون] مقولة صادقة ، لكن القرآن يُكذِّبهم فى أنهم شَهدوا بها .

وقد نزلتْ هذه الآية[1] فى أحد المنافقين أظن أنه بشر[2]، وكانت له خصومة مع يهودى ، فطلب اليهودى أن يتحاكما عند رسول الله ﷺ ، وطلب المنافق أنْ يتحاكما عند كعب بن الأشرف ، لكن رَدَّ اليهودى حكومة كعب لما يعلمه من تزييفه وعدم أمانته - والإنسان وإن كان فى نفسه مُزِّيفاً إلا أنه يحب أنْ يحتكم فى أمره إلى الأمين العادل - وفعلاً تغلّب اليهودى وذهبا إلى رسول الله فحكم لليهودى . وفى هذا دلالة على أن اليهودى كان ذكياً فَطناً ، يعرف الحق ويعرف مكانة رسول الله ﷺ .

لكن المنافق لم يَرْضَ حكم رسول الله ، وانتهى بهما الأمر إلى عمر رضى الله عنه وقَصَّا عليه ما كان ، ولما علم أن المنافق رَدَّ حكم

---

(١) يقصد الآيتين التاليتين من سورة النور آية ٤٨ ، ٤٩ .

(٢) هذه القصة وردت فى سبب نزول آية أخرى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ .. ⑥⓪﴾ [النساء] . أوردها الواحدى فى أسباب النزول (ص ٩٢) عن ابن عباس قال : « نزلت - أى آية سورة النساء - فى رجل من المنافقين كان بينه وبين يهودى خصومة ، فقال اليهودى : انطلق بنا إلى محمد . وقال المنافق : بل نأتى كعب بن الأشرف وهو الذى سماه الله تعالى الطاغوت ، فأبى اليهودى إلا أن يخاصمه إلى رسول الله ﷺ ، فلما رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله ﷺ ، فاختصما إليه ، فقضى رسول الله ﷺ لليهودى ، فلما خرجا من عنده لزمه المنافق وقال : ننطلق إلى عمر بن الخطاب ، فأقبلا إلى عمر . فقال اليهودى : اختصمنا أنا وهذا إلى محمد فقضى عليه فلم يرض بقضائه : وزعم أنه مخاصم إليك وتعلق بى فجئت إليك معه . فقال عمر للمنافق : أكذلك ؟ قال : نعم . فقال لهما : رويداً حتى أخرج إليكما . فدخل عمر وأخذ السيف فاشتمل عليه ، ثم خرج إليهما وضرب به المنافق حتى برد . وقال : هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله ، وهرب اليهودى ونزلت هذه الآية . وقال جبريل : إن عمر فرق بين الحق والباطل ، فسُمِّى الفاروق » .

وقد أوردها أيضاً فى أسباب النزول (ص ١٨٨) وكذا أوردها القرطبى فى تفسيره (٤٨٣١/٦) .

رسول الله قام عمر وجاء بالسيف يُشْهره في وجه المنافق وهو يقول : مَنْ لم يَرْضَ بقضاء رسول الله فذلك قضائي فيه .

إذن : فهؤلاء يقولون : ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا .. (٤٧)﴾ [النور] كلام جميل وأكثر الله من خيركم ، لكن هذا قول فقط لا يسانده تطبيق عملي ، والإيمان يقتضي أن تجيء الأعمال على وَفْق منطوق الإيمان .

فهذا منهم مجرد كلام ، أما التطبيق : ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ .. (٤٧)﴾ [النور] والتولِّي : الانصراف عن شيء كان موجوداً إلى شيء مناقض ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧)﴾ [النور] فما داموا قد تولوا فهم لم يطيعوا ولم يؤمنوا .

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩)﴾

المراد ما كان من أمر بشر واليهودي ، وقد أعرضا عن حكم الله ورسوله ، وإنْ كان إعراض المنافق واضحاً فالآية لا تريد تبرئة ساحة اليهودي ، لأنه ما رضى بحكم الله إلا لأنه واثق أن الحق له وواثق أن رسول الله ﷺ لن يحكم إلا بالحق ، حتى وإنْ كان ليهودي ، وإذن : ما أذعن لحكم الله ورسوله محبةً فيه أو إيماناً به ، إنما لمصلحته الشخصية ، لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ[1] اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠)﴾

---

(١) الحيف : الميل في الحكم والجور فيه . حاف يحيف : جار وظلم . [القاموس القويم ١٨١/١] .

والمرض : خروج الشيء عن استقامة سلامته ، فكل عضو من أعضائك له سلامة : العين لها سلامة ، والأذن لها سلامة .. الخ والعجيب أن تعيش بالجارحة لا تدرى بها طالما هى سليمة صحيحة ، فإذا أصابها مرض تنبهتَ إليها ، وأحسست بنعمة الله عليك فيها حال سلامتها .

﴿أَمِ ارْتَابُوا .. ۝٥٠﴾ [النور] يعنى : شكُّوا فى رسول الله ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ.. ۝٥٠﴾ [النور] يعنى : يجور ويظلم ﴿بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٥٠﴾ [النور] أى : لأنفسهم أولاً ، وذلك منتهى الحُمْق أن يظلم الإنسان نفسه ، لو ظلم غيره لَقُلْنا : خير يجلبه لنفسه ، لكن ما الخير فى ظلم الإنسان لنفسه ؟ ومَنْ ظلم نفسه لا تَلُمْه إن ظلَم الآخرين .

والحق - تبارك وتعالى - حينما يعاقب الظالم ، فذلك لمصلحته حتى لا يتمادى فى ظُلْمه ، ويجرُّ على نفسه جزاء شر بعد أن كان الحق سبحانه يُمنِّيه بجزاء خير .

ثم يأتى السياق بالمقابل :

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥١﴾

فما دُمْت قد آمنتَ ، والإيمان لا يكون إلا عن رغبة واختيار لا يجبرك أحد عليه ، فعليك أن تحترم اختيار نفسك بأنْ تطيعَ هذا الاختيار ، وإلا سفَّهتَ رأيك واختيارك ، لذلك كان حال المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله أن يقولوا : سمعنا وأطعنا .

ولو تأملتَ الكون من حولك لوجدتَهُ يسير على هذه القاعدة ، فما دون الإنسان فى كَوْن الله مُسيَّر لا مُخيَّر ، وإنْ كان الأصل أنه خُيِّر

أولاً ، فاختار أن يكون مُسيَّراً من البداية ، وأراح نفسه ، كما قال سبحانه :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢)﴾ [الأحزاب]

وتصدير الآية الكريمة بـ (إنما) يدل على أنها سبقها مقابل ، هذا المقابل على النقيض لما يجيء بعدها ، فالمنافقون أعرضوا وردُّوا حكم الله ورسوله ، والمؤمنون قالوا سمعنا وأطعنا ، كما تقول : فلان كسول إنما أخوه مُجِدٌّ . فقول المنافقين أنهم لا يقبلون حكم الله ورسوله ، أمَّا المؤمنون فيقبلون حكْم الله ورسوله .

ومعنى ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا .. (٥١)﴾ [النور] يعني : سمعنا سمعاً واعياً يليه إجابة وطاعة ، لا مجرد أنْ يصل الصوت إلى أذن السامع دون أن يُؤثر فيه شيء .

ويقول تعالى في موضع آخر : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ .. (٨٣)﴾ [المائدة]

فالسمع له وظيفة ، وهو هنا بمعنى : أجَبْنا يا رب ، وصممنا على الإجابة ، وهذا وعد كلامي يتبعه تنفيذ وطاعة . مثل قولنا في الصلاة : سمع الله لمن حمده ، يعني : أجاب الله مَنْ حمده .

﴿وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١)﴾ [النور] المفلحون : الفائزون الذين بلغوا درجة الفلاح ، ومن العجيب أن يستخدم الحق سبحانه كلمة الفلاح ، وهي من فلاحة الأرض ؛ لأن الفلاحة في الأرض هي أصل الاقتيات ، وكل مَنْ أتقن فلاحة أرضه جاءت عليه بالثمرة الطيبة ، وزاد خيره ، وتضاعف محصوله ، حتى إن حبة القمح تعطي سبعمائة حبة ، فإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تعالى تعطي من يزرعها كل

هذا العطاء ، فما بالك بخالق الأرض كيف يكون عطاؤه ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

كان سيدنا الشيخ موسى شريف - رحمه الله ورضى الله عنه - يدرس لنا التفسير ، فلما جاءت هذه الآية قال : اسمعوا ، هذه برقية من الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] فلم تَدَع هذه الآية حُكْماً من أحكام الإسلام إلا جاءتْ به فى هذه البرقية الموجزة التى جمعتْ المنهج كله(١).

ومعنى ﴿ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] آمن بالله وأطاعه وصدَّق رسوله ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] أى : يخافه لما سبق من الذنوب ﴿ وَيَتَّقْهِ . ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] فى الباقى من عمره ﴿ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [النور] وهكذا جمعتْ الآيةُ المعانىَ الكثيرة فى اللفظ القليل الموجز .

ومعلوم أن التعبير الموجز أصعب من الإطناب والتطويل ، وسبق أنْ ذكرنا قصة الخطيب الإنجليزى المشهور حين قالوا له : إذا طُلِب

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٤٨٣٣/٦) أن عمر بينما هو قائم فى مسجد النبى ﷺ وإذا رجل من دهاقين الروم على رأسه وهو يقول : أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . فقال له عمر : ما شأنك ؟ قال : أسلمت لله . قال : هل لهذا سبب ؟ قال : نعم إنى قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء ، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما فى الكتب المتقدمة ، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت . قال : ما هذه الآية ؟ قال : قوله تعالى ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ ﴾ فى الفرائض ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ فى السنن ﴿ وَيَخْشَ اللَّهَ ﴾ فيما مضى من عمره ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما بقى من عمره ﴿ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة . فقال عمر : قال النبى ﷺ : « أوتيتُ جوامع الكلم » .

منك إعداد خطاب تلقيه في ربع ساعة في كم تُعدّه ؟ قال : في أسبوع ، قالوا : فإنْ كان في نصف ساعة ؟ قال : أعدُّه في ثلاثة أيام ، قالوا : فإذا كان في ساعة ؟ قال : أعدّه في يومين ، قالوا : فإنْ كان في ثلاث ساعات ؟ قال : أعده الآن .

وقالوا : إن سعد باشا زغلول رحمه الله أرسل من فرنسا خطاباً لصديق في أربع صفحات قال فيه : أما بعد ، فإني أعتذر إليك عن الإطناب (الإطالة) ؛ لأنه لا وقت عندي للإيجاز .

وبعد أنْ تحدّث القرآن عن قَوْل المنافقين وعن ما يقابله من قول المؤمنين وما ترتب عليه من حكم ﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ﴾ [النور] ذلك لأن ذكْر المقابل يُظهر المقابل ، كما قالوا : والضد يظهر حُسْنَه الضدُّ . بعدها عاد إلى الحديث عن النفاق والمنافقين ، فقال سبحانه :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) ﴾

القَسَم : هو اليمين والحلف ، والإنسان يُقسم ليؤكد المقسَم عليه يريد أن يطمئن المخاطب على أن المقسَم عليه حَقٌّ ، وهؤلاء لم يقسموا بالله سراً في أنفسهم ، إنما ﴿ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ .. (٥٣) ﴾ [النور] يعني : بالَغوا وأتَوْا بمنتهى الجهد في القسم ، فلم يقل أحدهم : وحياة أمي أو أبي ، إنما أقسموا بالله ، وليس هناك قَسَم أبلغ من هذا القسم ، لذلك يقول النبي ﷺ : « مَنْ كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت »[1]

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٢٦٧٩ ، ٣٨٣٦ ، ٦١٠٨) وكذا مسلم في صحيحه (١٦٤٦) كتاب الأيمان من حديث عبد الله بن مسعود ، وفي لفظ مسلم أن ابن مسعود أدرك عمر بن الخطاب في ركب وعمر يحلف بأبيه فناداهم رسول الله ﷺ « ألا إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

فلما أقسموا بالله للرسول أنْ يخرجوا من بيوتهم وأولادهم وأموالهم إلى الجهاد مع رسول الله فضح الله سرائرهم ، وكشف سترهم ، وأبان عن زيف نواياهم ، كما قال فى آية أخرى : ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ .. ﴿٨١﴾﴾ [النساء]

وتأمل دقَّة الأداء القرآنى فى : ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ .. ﴿٨١﴾﴾ [النساء] وهذا احتياط ؛ لأن منهم أناساً يراود الإيمان قلوبهم ويفكرون فى أنْ يُخلصوا إيمانهم ونواياهم لله تعالى ، ويعودوا إلى الإسلام الصحيح .

والقرآن يفضح أمر هؤلاء الذين يُقسمون عن غير صدْق فى القَسَم ، كمن تعوَّد كثرة الحلف والحنْث فيه ؛ لذلك ينهاهم عن هذا الحلف : ﴿قُل لاَّ تُقْسِمُوا .. ﴿٥٣﴾﴾ [النور] ولا يمكن أن ينهى المتكلمُ المخَاطبَ عن القسم خصوصاً إذا أقسم على خير ، لكن هؤلاء حانثون فى قَسَمهم ، فهو كعدمه ، فهم يُقسمون باللسان ، ويخالفون بالوجدان .

وقوله تعالى : ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ .. ﴿٥٣﴾﴾ [النور] يُشعر بتوبيخهم ، كأنه يقول لهم : طاعتكم معروفة لدينا ولها سوابق واضحة ، فهى طاعة باللسان فحسب ، ثم يؤكد هذا المعنى فيقول : ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النور] والذى يؤكد هذه الخبرة أنه يفضح قلوبهم ويفضح نواياهم .

والعجيب أنهم لا يعتبرون بالأحداث السابقة ، ولا يتعظون بها ، وقد سبق لهم أنه كان يجلس أحدهم يُحدِّث نفسه الحديث فيفضح الله ما فى نفسه ويخبر به رسول الله ، فيبلغهم بما يدور فى نفوسهم ، كما جاء فى قول الله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ﴿٨﴾﴾ [المجادلة]

ومع ذلك لم يعتبروا ولم يعترفوا لرسول الله بأنه مُؤيَّد من الله ، وأنه تعالى لن يتخلى عن رسوله ، ولن يدعه لهم يخادعونه ويغشُّونه ، وهذه سوابق تكررتْ منهم مرات عدّة ، ومع ذلك لم ينتهوا عما هم فيه من النفاق ، ولم يُخلِصوا الإيمان لله .

وبعد هذا كله يوصى الحق تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يُبقِى عليهم ، وألاَّ يرمى (طوبتهم) لعل وعسى ، فيقول عز وجل :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

وكأنه تعالى لا يريد أنْ يُغلق الباب دونهم ، فيعطيهم الفرصة : جَدِّدوا طاعة لله ، وجَدِّدوا طاعة لرسوله ، واستدركوا الأمر ؛ ذلك لأنهم عباده وخَلْقه .

وكما ورد فى الحديث الشريف : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم وقع على بعيره وقد أضله فى فلاة .. »[1]

ونلحظ فى هذه الآية تكرار الأمر أطيعوا ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور] وفي آيات أخرى يأتى الأمر مرة واحدة ، كما فى الآية السابقة : ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ .. ﴿٥٢﴾﴾ [النور] ، وفى : ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ..﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال] وفى ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .. ﴿٨٠﴾﴾ [النساء] أى : أن طاعتهما واحدة .

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٣٠٨ ، ٦٣٠٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٧٤٤) من حديث عبد الله بن مسعود . والفلاة : الصحراء الواسعة التى قُليت عن الزرع والإنبات .

قالوا : لأن القرآن ليس كتابَ أحكام فحسب كالكتب السابقة ، إنما هو كتاب إعجاز ، والأصل فيه أنه مُعْجز ، ومع ذلك أدخل فيه بعض الأصول والأحكام ، وترك البعض الآخر لبيان الرسول وتوضيحه فى الحديث الشريف ، وجعل له ﷺ حقاً فى التشريع بنصِّ القرآن : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ⑦﴾ [الحشر]

والقرآن حين يُورد الأحكام يوردها إجمالاً ثم يُفصِّلها رسول الله ﷺ ، فالصلاة مثلاً أمر بها الحق - تبارك وتعالى - وفرضها ، لكن تفصيلها جاء فى السنة النبوية المطهرة ، فإنْ أردتَ التفصيل فانظر فى السنة .

كالذى يقول : إذا غاب الموظف عن عمله خمسة عشر يوماً يُفصل ، مع أن الدستور لم ينص على هذا ، نقول : لكن فى الدستور مادة خاصة بالموظفين تنظم مثل هذه الأمور ، وتضع لهم اللوائح المنظِّمة للعمل .

وذكرنا أن الشيخ محمد عبده سأله بعض المستشرقين : تقولون فى القرآن ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ㊳﴾ [الأنعام] فهات لى من القرآن : كم رغيفاً فى إردب القمح ؟ فما كان من الشيخ إلا أن أرسل لأحد الخبازين وسأله هذا السؤال فأجابه : فى الإردب كذا رغيف . فاعترض السائل : أريد من القرآن .

فردَّ الشيخ : هذا من القرآن ؛ لأنه يقول : ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ㊸﴾ [النحل]

فالأمر الذى يصدر فيه حكم من الله وحكم من رسول الله ، كالصلاة مثلاً : ﴿إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ⑩③﴾ [النساء]

وفى الحديث : « الصلاة عماد الدين »[1]

ففى مثل هذه المسألة نقول : أطيعوا الله والرسول ؛ لأنهما متواردان على أمر واحد ، فجاء الأمر بالطاعة واحداً .

أما فى مسائل عدد الركعات وما يُقَال فى كل ركعة وكوْنها سراً أو جهراً ، كلها مسائل بيَّنها رسول الله . إذن : فهناك طاعة لله فى إجمال التشريع أن الصلاة مفروضة ، وهناك طاعة خاصة بالرسول فى تفصيل هذا التشريع ، لذلك يأتى الأمر مرتين ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور]

كما نلحظ فى القرآن : ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٦﴾﴾ [النور] هكذا فحسب .

قالوا : هذه فى المسائل التى لم يَرِدْ فيها تشريع ونَصٌّ ، فالرسول فى هذه الحالة هو المشرِّع ، وهذه من مميزات النبى ﷺ عن جميع الرسل ، فقد جاءوا جميعاً لاستقبال التشريع وتبليغه للناس ، وكان ﷺ هو الوحيد الذى فُوِّض من الله فى التشريع .

ثم يقول تعالى : ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ .. ﴿٥٤﴾﴾ [النور] لأنه تعالى أعلم بحِرْص النبى على هداية القوم ، وكيف أنه يجهد نفسه فى دعوتهم ، كما خاطبه فى موضع آخر : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء] وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه : قُلْ لهم وادْعُهم مرة ثانية لتريح نفسك ﴿قُلْ

---

(١) تمام الحديث : « من أقامها فقد أقام الدين ، ومن تركها فقد هدم الدين » قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء (١٤٧/١) : « رواه البيهقى فى الشّعب بسند ضعّفه من حديث عمر » وقال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٧٨) : « قال ابن الصلاح فى « مشكل الوسيط » : « إنه غير معروف » . وذكره السيوطى فى الدرر المنتثرة (ح ٢٧٩) .

أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾ [النور] وإنْ كنت غير مكلَّف بالتكرار ، فما عليك إلا البلاغ مرة واحدة .

ومعنى : ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ .. ﴿٥٤﴾ [النور] أى : من الله تعالى ، فالرسول حُمِّل الدعوة والبلاغ ، وأنتم حُمِّلْتم الطاعة والأداء ، فعليكم أن تُؤدُّوا ما كلَّفكم الله به .

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا .. ﴿٥٤﴾ [النور] نلحظ أن المفعول فى ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ .. ﴿٥٤﴾ [النور] مفرد ، فلم يقل : تطيعوهما ، لتناسب صدر الآية ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ .. ﴿٥٤﴾ [النور] ذلك لأن الطاعة هنا غير منقسمة ، بل هى طاعة واحدة .

وقوله : ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ .. ﴿٥٤﴾ [النور] تكليفاً من الله ﴿إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ [النور] المحيط بكل تفصيلات المنهج التشريعى لتنظيم حركة الحياة .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

---

(١) سبب نزول الآية : مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين بعدما أوحى الله إليه خائفاً هو وأصحابه يدعون إلى الله سبحانه سراً وعلانية ، ثم أمر بالهجرة إلى المدينة وكانوا بها خائفين ، يصبحون فى السلاح ويمسون فى السلاح . فقال رجل من أصحابه : يا رسول الله ما يأتى علينا يوم نامن فيه ونضع فيه السلاح ، فقال رسول الله ﷺ : لن تلبثوا إلا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبياً ليست فيهم حديدة ، وأنزل الله تعالى : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٥٥﴾ [النور] إلى آخر الآية ، فأظهر الله تعالى نبيه على جزيرة العرب ، فوضعوا السلاح وأمنوا ثم قبض الله تعالى نبيه فكانوا آمنين كذلك فى إمارة أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم حتى وقعوا فيما وقعوا فيه وكفروا النعمة فأدخل الله عليهم الخوف وغيَّروا فغيَّر الله بهم . رواه الربيع ابن أنس عن أبى العالية . أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٨٨) ، وابن كثير فى تفسيره (٣٠١/٣) ، والقرطبى فى تفسيره (٤٨٣٥/٦) .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) ﴾

فى أول الحديث عن سورة النور قلنا : إنها سُمِّيَتْ بالنور ؛ لأنها تبين للناس النور الحسىّ فى الكون ، وتقيس عليه النور المعنوى فى القيم ، وما دُمْنا نطفىء أنوارنا الحسية حين يظهر نور الله فى الشمس ، يجب كذلك أن نطفىء أنوارنا المعنوية حين يأتينا شرع من الله .

فليس لأحد رأىٌ مع شرع الله ؛ ذلك لأن الخالق - عز وجل - يريد لخليفته فى الأرض أن يكون فى نور حسِّىٍّ ومعنوى ، ثم ضمن له مقومات بقاء حياته بالطعام والشراب شريطةَ أنْ يكون من حلال حتى تبنى خلاياه وتتكون من الحلال فيَسلم له جهاز الاستقبال عن الله وجهاز الإرسال إنْ أراد الدعاء .

وفى الحديث الشريف : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (١٧٢) ﴾ [البقرة] ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغُذِّى

بالحرام فأنَّى يُستجاب لذلك ؟»[1] .

فهذه أجهزة مُعطَّلة خَرِبة أشبه ما تكون بالراديو الذى لا يحسن استقبال ما تذيعه محطات الإذاعة ، فالإرسال قائم يستقبله غيره ، أما هو فجهاز استقباله غير سليم .

فإذا ضمنتَ سلامة تكوينك بلقمة الحلال ضمن الله لك إجابة الدعاء ، وفى الحديث يقول النبى ﷺ لسعد بن أبى وقاص رضى الله عنه : « أطبْ مَطْعمك تكُنْ مُسْتجاب الدعوة »[2] .

ثم ضمن الله للإنسان مُقوِّمات بقاء نوعه بالزواج لاستمرار الذرية لتستمر الخلافة فى الأرض طاهرة نظيفة ، ثم تحدثتْ السورة مُحذِّرة إياكم أنْ تجترئوا على أعراض الناس ، أو ترمُوا المحصنات ، أو تدخلوا البيوت دون استئذان ، حتى لا تطَّلعوا على عورات الناس .. إلخ .

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد سلامة المجتمع وسلامة الخلافة فى الأرض ، وكل هذه الأحكام والمعانى تصبُّ فى هذه الآية :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ.. (٥٥) ﴾ [النور] فمَنْ فعل ذلك كان أهْلاً للخلافة عن الله ، إنها معركة ابتلاءات وتمحيص تُبيِّن الغَثّ[3] من السَّمين ، ألاَ ترى المسلمين

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٥) كتاب الزكاة ، وأحمد فى مسنده (٣٢٨/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٩١/١٠) من حديث ابن عباس قال : تليت عند رسول الله ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا.. (١٦٨) ﴾ [البقرة] فقال سعد : يا رسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال ﷺ : « يا سعد ، أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذى نفس محمد بيده ، إن العبد يقذف اللقمة الحرام فى جوفه ما يتقبل منه العمل أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من سحت فالنار أولى به » . قال الهيثمى : « رواه الطبرانى فى الصغير وفيه من لم أعرفهم »

(٣) الغث : الردىء من كل شىء . ولحم غَثٌّ : مهزول . [لسان العرب ـ مادة : غثث] .

الأوائل كيف كانوا يُعذَّبون ويُضطهدون ، ولا يجرؤ أحد على حمايتهم حتى اضطروا للهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وقد قال تعالى :
﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت]

وهؤلاء الصحابة هم الذين حملوا للدنيا مشاعلَ الهداية ، وساحوا بدعوة الله فى أنحاء الأرض ، فلا بُدَّ أن يُربوا هذه التربية القاسية ، وأن يُمتحنوا كل هذا الامتحان ، وهم يعلمون جيداً ثمن هذه التضحية وينتظرون ثوابها من الله ، فأهل الحق يدفعون الثمن أولاً ، أما أهل المبادىء الباطلة فيقبضون الثمن أولاً قبل أنْ يتحركوا فى اتجاه مبادئهم . وهذا الابتلاء الذى عاشه المسلمون الأوائل هو من تنقية الخليفة ليكون أهْلاً لها .

لذلك قال سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ .. ۝ ﴾ [النور] والوَعْد : بشارة بخير لم يأتِ زمنُه بعد ، حتى يستعد الناس بالوسيلة له ، وضدّه الوعيد أو الإنذار بشرٍّ لم يأتِ زمنه بعد ، لتكون هناك فرصة للاحتياط وتلافى الوقوع فى أسبابه .

وما دام الوعد من الله تعالى فهو صدْق ، كما قال سبحانه :
﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ۝ ﴾ [النساء] وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۝ ﴾ [التوبة].

والذى يفسد على الناس وعودهم ، ويجرُّ عليهم عدم الوفاء أن الإنسان مُتغيِّر بطَبْعه مُتقلِّب ، فقد يَعِد إنساناً بخير ثم يتغير قلبه عليه فلا يفى له بما وعد ، وقد يأتى زمنُ الوفاء فلا يقدر عليه ، أمّا الحق - تبارك وتعالى - فلا يتغير أبداً ، وهو سبحانه قادر على الوفاء بما وعد به ، فليست هناك قوة أخرى تمنعه ، فهو سبحانه واحد لا إله غيره ؛ لذلك فوَعْده تعالى ناجز .

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ..(٥٥)﴾ [النور] قلنا : إن الإيمان الذى يقوم على صفاء الينبوع والعقيدة ليس مطلوباً لذاته ، إنما لا بُدَّ أن تكون له ثمرة ، وأن يُرى أثره طاعة وتنفيذاً لأوامر الله ، فطالما آمنتَ بالله فنفِّذ ما يأمرك به ، وهناك من الناس مَنْ يفعل الخير ، لكن ليس من منطلق إيمانى مثل المنافقين الذين قال الله فيهم : ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا.. (١٤)﴾ [الحجرات] فَردَّ الله عليهم : ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا..(١٤)﴾ [الحجرات] يعنى : خضعنا للأوامر ، لكن عن غير إيمان ، إذن : فقيمة الإيمان أن تُنفِّذ مطلوبه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ [العصر]

فبماذا وعد الله الذين آمنوا ؟ ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ..(٥٥)﴾ [النور] وهذه ليست جديدة ، فقد سبقهم أسلافهم الأوائل ﴿ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ..(٥٥)﴾ [النور] ، فاستخلاف الذين آمنوا ليس بدْعاً ، إنما هو أمر مُشاهد فى مواكب الرسل والنبوة ومُشَاهد فى المسلمين الأوائل من الصحابة الذين أُوذُوا وعُذِّبوا واضطهدوا وأُخْرِجوا من ديارهم وأولادهم وأموالهم ولم يُؤْمَروا بردِّ العدوان .

حتى إن رسول الله ﷺ حينما قدم المدينة فى جَمْع من صحابته استقبله الأنصار بالحفاوة ، واحتضنوا هؤلاء المهاجرين ، وفعلوا معهم نموذجاً من الإيثار ليس له مثيل فى تاريخ البشرية ، وهل هناك إيثار أعظم من أنْ يعرض الأنصارى زوجاته على المهاجر يقول : اختر إحداهما أُطلِّقها لك ، إلى هذه الدرجة فعل الإيمان بنفوس الأنصار .

ولما رأى كفار قريش ما صنعه الأنصار مع المهاجرين توقَّدوا ناراً : كيف يعيش المهاجرون فى المدينة هذه العيشة الهنية وتكتلوا جميعاً ضد هذا الدين ليضربوه عن قَوْس واحدة ، وتآمروا على القدوة ليقضوا على هذا الدين الوليد الذى يشكل أعظم الخطر عليهم .

حتى إن الأمر قد بلغ بالمهاجرين والأنصار أنهم لا يبيتون إلا بالسلاح ، ولا يصبحون إلا بالسلاح مخافةَ أنْ ينقضَّ عليهم أعداؤهم ، حتى إن أحد الصحابة يقول لإخوانه : أترونَ أنَّا نعيش حتى نأمن ونطمئن ولا نبيت فى السلاح ونصبح فيه ، ولا نخشى إلا الله ؟ يعنى : أهناك أمل فى هذه الغاية ؟

وآخر يذهب إلى رسول الله ﷺ يقول : يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون ؟ ألاَ يأتينا يوم نضع فيه السلاح ونبيت آمنين ؟

فيقول النبى ﷺ بلسان الواثق من وعد ربه ، وليس كلاماً قد يُكذَّب فيما بعد : « لا تصبرون إلا يسيراً ، حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم مُحْتبياً ليست فيه حديدة »[1] يعنى : فى الملأ الواسع ، والاحتباء جلسة المستريح الهانىء ، والحديدة كناية عن السلاح .

وقد قال ﷺ : « إن الله زوى لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ مُلْك أمتى ما زُوِىَ لى منها »[2] .

ومعنى « إن الله زوى لى الأرض » معلوم أن للإنسان مجالَ رؤية يلتقى فيه إلى نهاية الأفق ، أمَّا الأرض ذاتها فواسعة ، فزُوِيَتْ الأرض لرسول الله يعنى : جُمعت فى زاوية ، فصار ينظر إليها كلها .

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٠١) سبباً فى نزول الآية مروياً عن أبى العالية .
(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٨٩) كتاب الفتن ، وأحمد فى مسنده (٥/٢٧٨ ، ٢٨٤) من حديث ثوبان رضى الله عنه .

إذن : فهم فى هذه المرحلة يشتهون الأمن وهدوء البال ، وقد قال تعالى عنهم فى هذه الفترة : ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤)﴾ [البقرة].

وفى غمرة هذه الشدة وقمة هذا الضيق يُنزل تعالى على رسوله : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] حتى إن الصحابة ليتعجبون ، يقول عمر رضى الله عنه : أىُّ جمع هذا ؟ وقد نزلت الآية وهم فى مكة فى أشد الخوف لا يستطيعون حماية أنفسهم .

لكن بعد بدر وبعد أنْ رأى ما نزل بالكفار قال : صدق الله ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر]

ثم ينزل الله تعالى على رسوله ﷺ بعض الآيات التى تُطمئن المؤمنين وتصبرهم : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ..(٤١)﴾ [الرعد]

فاطمئنوا ، فكل يوم ننقص من أرض الكفر ، ونزيد فى أرض الإيمان ، فالمقدِّمات فى صالحكم ، ثم يأتى فتح مكة ويدخلها النبى ﷺ فى موكب مهيب مُطْأطِئاً رأسه ، تواضعاً لمن أدخله ، مُظهِراً ذلة العبودية لله .

حتى إن أبا سفيان لما رأى رسول الله ﷺ فى هذا الموكب يقول للعباس : لقد أصبح مُلْك ابن أخيك عظيماً ، فيقول العباس : إنها النبوة يا أبا سفيان[1] ، يعنى : المسألة ليست مُلْكاً إنما هى بشائر

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٤/٤٠٤) أن جيوش المسلمين عُرضت على أبى سفيان فى فتح مكة وهو مع العباس عم رسول الله ﷺ ، فقال : ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح مُلْك ابن أخيك الغداة عظيماً ، قال : قلت يا أبا سفيان ، إنها النبوة . قال : فنعم إذن .

النصر لدين الله وظهوره على معقل الأصنام والأوثان فى مكة .

ثم يذهب إلى خيبر معقل أهل الكتاب من بنى قَيْنُقَاع وبنى النضير وبنى قريظة وينتصر عليهم ، ثم تسقط فى يده البحرين ومجوس هَجَر ، ويدفعون الجزية .

بعد ذلك يرسل ﷺ كُتبه إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام ، فيرسل إلى النجاشى ملك الحبشة ، وإلى المقوقِس ، وإلى هرقل ، وإلى كسرى ، وتأتيه الهدايا من كُلٍّ هؤلاء .

ويستمر المدُّ الإسلامى والوفاء بوعد الله تعالى لخليفة رسول الله ، فإنْ كان المد الإسلامى قد شمل الجزيرة العربية على عهد رسول الله ، فإنه تعدّاها إلى شتى أنحاء العالم فى عهد الخلفاء الراشدين ، حتى ساد الإسلامُ العالمَ كله ، وأظهره الله على أكبر حضارتين فى ذلك الوقت : حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الروم فى الغرب فى وقت واحد ، ويتحقق وعد الله للذين آمنوا بأنْ يستخلفهم فى الأرض .

وبعد وفاة رسول الله ﷺ تتحقق النبوءات التى أخبر بها ، ومنها ما كان من أمر سراقة بن مالك الذى خرج خلف رسول الله فى رحلة الهجرة يريد طلبه والفوز بجائزة قريش ، وبعد أنْ تاب سُرَاقة وعاد إلى الجادة كان الصحابة يعجبون لدقة ساعديْه ويصفونهما بما يدعو إلى الضحك فكان ﷺ يقول عن ساعدى سراقة : « كيف بهما فى سوارى كسرى ؟ »[1]

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٦/٣٢٥) أن عمر بن الخطاب أتى بفروة كسرى فوضعت بين يديه وفى القوم سراقة بن مالك قال : فألقى إليه سوارى كسرى بن هرمز فجعلهما فى يديه فبلغا منكبيه ، فلما رآهما فى يَدَىْ سراقة قال : الحمد لله ، سوارا كسرى بن هرمز فى يد سُراقة ابن مالك بن جُعْشم أعرابى من بنى مدلج وذكر الحديث . قال الشافعى ـ رحمه الله : وإنما ألبسهما سراقة لأن النبى ﷺ قال لسراقة ونظر إلى ذراعيه : « كأنى بك قد لبست سِوارىْ كسرى » .

ويفتح المسلمون بعد ذلك مُلْك كسرى ، ويكون سِوَارا كسرى من نصيب سُرَاقة ، فيلبسهما ، ويراهما الناس في يديه .

هذه كلها بشائر ومقدمات لوعد الله يراها المؤمنون في أنفسهم ، لا فيمن يأتي بعد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ.. (٥٥)﴾ [النور] يعني : المسألة لن تطول .

كذلك أم حرام بنت ملحان[1] التي خرجت في غزوة ذات الصواري وركبت البحر ذكرت أن رسول الله ﷺ كان ينام هناك ثم يصحو وهو يضحك ، فقالت له : ما يُضحكك يا رسول الله ؟ قال : « أناس من أمتي يركبون زَبَد هذا البحر ، ملوك على الأسرَّة أو كالملوك على الأسِرَّة » فقال : ادْعُ الله أن أكون منهم ، فدعا لها فاستجاب الله دعاءه ، وخرجتْ في الغزوة ، ولما ركبوا البحر الأبيض أرادت أنْ تخرج فماتت[2] .

إذن : فالبشارة في هذه الآية ليست بشارة لفظية ، إنما هي بشارة واقعية لها واقع يؤيدها ، قد حدث فعلاً .

لكن ، ما المراد بالأرض في ﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ ..(٥٥)﴾ [النور] ؟ إذا جاءت الأرض هكذا مُفْردةً غير مضافة لشيء فتعني كل الأرض ، كما في قوله تعالى : ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا

---

(١) أخت أم سليم ، أسلمت وبايعت رسول الله ﷺ ، وكان يقيل في بيتها وتزوجها عبادة بن الصامت . قال هشام بن الغاز : قبر أم حرام بقبرس ، وهم يقولون : هذا قبر المرأة الصالحة . « المؤمنات الصالحات لتقي الدين الحصني توفي ٨٢٩ هـ . ص ٥٣ ، ٥٤ ـ دار البشير تحقيق عادل أبو المعاطي » .

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (٢/ ٦١) بهذا اللفظ ، وأخرجه البخاري في صحيحه (٦/ ١٠٢ ـ فتح الباري) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٦٢) بلفظ : « أول جيش من أمتي يغزون البحر قد أوجبوا » قالت أم حرام : أنا منهم ؟ قال : « أنت منهم » .

الأَرْضَ.. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الإسراء] يعنى : تقطّعوا فى كل أنحـائها ، ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ.. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الإسراء] الذى وعد الله به ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الإسراء] يعنى : جـمعناكم من الأراضـى كلها ، وهذا هو الأمل القـوى الذى نعيش عليه ، وننتظر من الله أنْ يتحقق .

ثم يقول تعالى : ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور] فـفوق الاسـتـخـلاف فى الأرض يُمكِّن الله لهم الدين ، ومـعنى تمكين الدين : سيطرته على حركة الحياة ، فلا يصدر من أمور الحياة أمر إلا فى ضـوئه وعلى هَدْيه ، لا يكون ديناً مُعطّلاً كـما نُعطّله نحن اليوم ، تـمكين الدين يعنى توظيفـه وقيـامه بدوره فى حـركة الحـياة تنظيماً وصيانة .

وقوله سبحانه : ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور] وهم الذين قالوا : نبـيت فى السلاح ، ونصبح فى السلاح ، فـيبدلهم الله بعد هذا الخوف أمْناً ، فإذا ما حـدث ذلك فعليهم أنْ يحافظوا على الخلافة هذه ، وأنْ يقومـوا بحقها ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور]

ومعنى ﴿كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور] يعنى : بعد أن اسـتخلفه الله ، ومكّن له الدين وأمَّنه وأزال عنه أسباب الخوف .

وفَـرْق بين تمكين الإســلام وتمكـين مَنْ يُنسب إلى الإســلام ، فالبعض يدَّعى الإسلام ، ويركب موجتـه حتى يحكم ويستتب له الأمر وتنتهى المسألة ، لا .. لأن التمكين ليس لك أيها الحاكم ، إنما التمكين لدين الله .

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

دائماً ما يقرن القرآن بين هذين الركنين ، وتأتى الزكاة بعد الصلاة ؛ ذلك لأن الصلاة هى الركن الوحيد الذى فُرض من الله مباشرة ، أما بقية الأركان فقد فُرضَتْ بالوحى ، وضربنا لذلك مثلاً ، ولله تعالى المثل الأعلى بالرئيس الذى يُكلِّف مرؤوسيه بتأشيرة أو بالتليفون ، فإنْ كان الأمر مُهماً استدعى الموظف المختص إلى مكتبه وكلَّفه بهذا الأمر مباشرة لأهميته .

فكذلك الحق - تبارك وتعالى - أمر بكل التكاليف الشرعية بالوحى ، إلا الصلاة فقد فرضها على رسول الله بعد أن استدعاه إلى رحلة المعراج فكلّفه بها مشافهةً دون واسطة ، ولما يعلمه الله تعالى من محبة النبى ﷺ لأمته قال له : أنا فرضتُ عليك الصلاة بالقرب ، وكذلك أجعلها للمصلى فى الأرض بالقرب ، فإنْ دخل المسجد وجدنى .

وإنْ كانت أركان الإسلام خمسةً ، فإن الشهادة والصلاة هما الركنان الدائمان اللذان لا ينحلان عن المؤمن بحال من الأحوال ، فقد لا تتوفر لك شروط الصوم أو الزكاة أو الحج فلا تجب عليك ، كما أن الصلاة هى الفريضة المكررة على مدار اليوم والليلة خمس مرات ، وبها يتم إعلان الولاء لله دائماً ، وقد وزَّعها الحق سبحانه على الزمن ليظل المؤمن على صلة دائمة بربه كلما شغلتْه الدنيا وجد (الله أكبر) تناديه .

وانظر إلى عظمة الخالق - عز وجل - حين يطلب من صنعته أن

تقابله وتُعرض عليه كل يوم خمس مرات ، وهو سبحانه الذى يطلب هذا اللقاء ويفرضه عليك لمصلحتك أنت ، ولك أن تتصور صنعة تُعرض على صانعها كل يوم خمس مرات أيصيبها عَطَب ؟

وربك هو الذى يناديك ويدعوك للقائه ويقول : « لا أملّ حتّى تملُّوا »[1] ومن رحمته بك ومحبته لك تركَ لك حرية اختيار الزمان والمكان ، وترك لك حرية إنهاء المقابلة متى تشاء ، فإنْ أردتَ أنْ تظلّ فى بيته وفى معيته فعلى الرَّحْب والسَّعَة .

ولأهمية الصلاة ومكانتها فى الإسلام اجتمع فيها كل أركان الإسلام ، ففى الصلاة تتكرر الشهادة : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وفى الصلاة زكاة ؛ لأن الزكاة فرع العمل ، والعمل فرع الوقت ، والصلاة تأخذ الوقت نفسه ، وفيها صيام حيث تمتنع فى الصلاة عما تمتنع عنه فى الصوم بل وأكثر ، وفيها حج لأنك تتجه فى صلاتك إلى الكعبة .

إذن : فالصلاة نائبة عن جميع الأركان فى الاستبقاء ، لذلك كانت هى عمود الدين ، والتى لا تسقط عن المؤمن بحال من الأحوال حتى إنْ لم يستطع الصلاة قائماً صلى جالساً أو مضطجعاً ، ولو أن يشير بأصبعه أو بطرفه أو حتى يخطرها على باله ؛ ذلك لاستدامة الولاء بالعبودية لله المعبود .

والصلاة تحفظ القيم ، فتُسوِّى بين الناس ، فيقف الغنى والفقير والرئيس والمرؤوس فى صَفٍّ واحد ، الكل يجلس حَسْب قدومه ،

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول : « خذوا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تملوا » . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٩٧٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٧٨٢) كتاب صلاة المسافرين .

وهذا يُحدث استطراقاً غبودياً فى المجتمع ، ففى الصلاة مجال يستوى فيه الجميع .

وإنْ كانت الصلاة قوامَ القيم ، فالزكاة قوام المادة لمنْ ليستْ له قدرة على الكسب والعمل . إذن : لدينا قوانين للحياة ، ولاستدامة الخلافة على الأرض قوام القيم فى الصلاة ، وقوام المادة فى الزكاة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النور] وهنا فى الصلاة والزكاة خَصَّ الرسول بالإطاعة ؛ لأنه صاحب البيان والتفصيل لما أجمله الحق سبحانه فى فرضية الصلاة والزكاة ، حيث تفصيل كل منهما فى السُّنة المطهرة ، فقال : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ.. ﴿٥٦﴾ ﴾ [النور]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾

يعود السياق للحديث عن الكافرين : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [النور] يعنى : لا تظنن ، والشىء المعجز هو الذى يثبت العجز للمقابل ، نقول : عملنا شيئاً مُعْجزاً لفلان يعنى : لا يستطيع الإتيان بمثله .

فإياك أنْ تظن أن الكافرين مهما علَتْ مراتبهم ومهما استشرى طغيانهم يُفْلتون من عقاب الله ، فلن يثبتوا له سبحانه العجز عنهم أبداً ، ولن يُعجزوه ، إنما يُملى لهم سبحانه ويمهلهم حتى إذا أخذهم ، أخذهم أَخْذ عزيز مقتدر ، وهو سبحانه مُدرِكهم لا محالةَ .

وجاء على لسان الجن : ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾ [الجن]

ونلحظ فى قوله تعالى : ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ .. ﴿٥٧﴾﴾ [النور] أنها عطفتْ هذه الجملة على سابقتها ، وهى منفية ﴿لا تَحْسَبَنَّ .. ﴿٥٧﴾﴾ [النور] فهل يعنى هذا أن معناها : ولا تحسبن مأواهم النار ؟ قالوا : لا ، إنما المعنى : ولا تحسبن الذين كفروا معجزين فى الأرض لأن مأواهم النار .

﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾ [النور] أى : المرجع والمآب .

ثم ينتقل السياق إلى سلوك يمسُّ المجتمع من داخله والأسرة فى أدقِّ خصوصياتها ، بعد أنْ ذكر فى أول السورة الأحكام الخاصة بالمجتمع الخارجى ، فيقول سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ(١) مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾

تُعلِّمنا هذه الآية آداب الاستئذان داخل الأسرة المكوَّنة من الأبويْن والأبناء ، ثم الأتباع مثل الخدم وغيرهم ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ

(١) حلم الصبى يحلم حُلْماً : بلغ مبلغ الرجال . [القاموس القويم ١/١٦٩] .

يريد أن يُنشِّئَ هذه الأسرة على أفضل ما يكون ، ويخصّ بالنداء هنا الذين آمنوا ، يعنى : يا من آمنتم بى رباً حكيماً مُشرِّعاً لكم حريصاً على مصلحتكم استمعوا إلى هذا الأدب : ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ .. (٥٨)﴾ [النور]

معلوم أن طلب المتكلم من المخاطب يأتى على صورتين : فعل الأمر وفعل المضارع المقترن بلام الأمر ، فقوله تعالى : ﴿لِيَسْتَأْذِنكُمُ.. (٥٨)﴾ [النور] يعنى : علِّموا هؤلاء أن يستأذنوا عليكم ، مثل : ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا .. (٣٣)﴾ [النور] يعنى : استعفوا ، لأن اللام هنا لام الأمر ، ومثل : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ..(٧)﴾ [الطلاق]

وهذا الأدب تكليف من الله تعالى يُكلِّف به كل مؤمن داخل الأسرة ، وإنْ كان الأمر هنا لغير المأمور ، فالمأمور بالاستئذان هم ملْك اليمين والأطفال الصغار ، فأمر الله الكبارَ أن يُعلِّموا الصغار ، كما ورد فى الحديث الشريف : « مروا أولادكم بالصلاة لسبع ، واضربوهم عليها لعشر »[1] .

فلم يُكلِّف بهذا الصغار إنما كلَّف الكبار ؛ لأن الأطفال لم يبلغوا بَعْد مبلغ التكليف من ربهم ، إنما بلغوا مبلغ التكليف عندكم أنتم ، لذلك أنت الذى تأمر وأنت الذى تتابع وتعاقب[2] .

وأمْرُ الصغير بالصلاة أو بالاستئذان لتُربى فيه الدربة والتعود

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١٨٧/٢) وأبو داود فى سننه (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص . واللفظ لأحمد .

(٢) قال الشيخ أبو يحيى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٨٩ : « إن قلت : كيف أمر الله تعالى بالاستئذان لهم ، مع أنهم غير مكلفين ؟ قلت : الأمر فى الحقيقة لأوليائهم ليؤدِّبوهم » .

على أمر قد يشقُّ عليه حال كِبَره ، إنما إنْ عوَّدته عليها الآن فإنها تسهل عليهم عند سنِّ التكليف ، وتتحول العادة فى حقه إلى عبادة يسير عليها .

وشرع الله لنا آداب الاستئذان ؛ لأن للإنسان ظاهراً يراه الناس جميعاً ويكثر ظاهره للخاصة من أهله فى أمور لا يُظهرها على الآخرين ، إذن : فَرُقْعة الأهل والملاصقين لك أوسع ، وهناك ضوابط اجتماعية للمجتمع العام ، وضوابط اجتماعية للمجتمع الخاص وهو الأسرة ، وحرية المرء فى أسرته أوسع من حريته فى المجتمع العام ، فإنْ كان فى حجرته الخاصة كانت حريته أوسعَ من حريته مع الأسرة .

فلا بُدَّ إذن من ضوابط تحمى هذه الخصوصيات ، وتُنظِّم علاقات الأفراد فى الأسرة الواحدة ، كما سبقت ضوابط تُنظِّم علاقات الأفراد خارج الأسرة .

ومعنى : ﴿ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ .. (٥٨) ﴾ [النور] هم العبيد الذين يقومون على خدمة بعض الناس وليس الأجير، لأن الأجير حر يستطيع أن يتركك فى أى وقت ، أمَّا العبد فليس كذلك ؛ لأنه مملوك الرقبة لا حريةَ له ، فالمملوكية راجحة فى هؤلاء ، وللسيد السيطرة والمهابة فلا يستطيع أن يُفْلت منه .

﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ .. (٥٨) ﴾ [النور] هم الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا مبلَغ التكليف ، ويقضون المصالح ؛ فتراهم فى البيت يدخلون ويخرجون دون ضابط ، فهل نتركهم هكذا يطَّلِعون على خصوصياتنا ؟

وللخدم فى البيت طبيعة تقتضى أن يدخلوا علينا ويخرجوا ،

وكذلك الصغار ، إلا فى أوقات ثلاثة لا يُسْمح لهم فيها بالدخول إلا بعد الاستئذان : ﴿ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ .. (٥٨) ﴾ [النور] لأنه وقت متصل بالنوم ، والإنسان فى النوم يكون حُرَّ الحركة واللباس ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ .. (٥٨) ﴾ [النور] وهو وقت القيلولة ، وهى وقت راحة يتخفَّف فيها المرء من ملابسه ﴿ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ .. (٥٨) ﴾ [النور] وبعد العشاء النوم . هذه أوقات ثلاثة ، لا ينبغى لأحد أن يدخل عليك فيها إلا بإذنك .

وانظر إلى هذا التحفُّظ الذى يوفره لك ربك ـ عز وجل ـ حتى لا تُقيِّد حريتك فى أمورك الشخصية ومسائلك الخاصة ، وكأن هذه الأوقات مِلْكٌ لك أيها المؤمن تأخذ فيها راحتك وتتمتع بخصوصياتك ، والاستئذانَ يعطيك الفرصة لتتهيأ لمقابلة المستأذن .

أما فى بقية الأوقات فالكل يستأذن عليك حتى الزوجة .

وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله ﷺ أراد سيدنا عمر فى أمر من الأمور ، فأرسل إليه غلاماً[1] من الأنصار ، فلما ذهب الغلام دفع الباب ونادى : يا عمر . فلم يرد ؛ لأنه كان نائماً ، فخرج الغلام وجلس فى الخارج ودَقَّ الباب فلم يستيقظ عمر ، فماذا يفعل الغلام ؟

رفع الغلام يديه إلى السماء وقال : يا رب أيقظه . ثم دفع الباب ودخل عليه ، وكان عمر نائماً على وضع لا يصح أن يراه عليه أحد ، واستيقظ عمر ولحظ أن الغلام قد رآه على هذا الوضع ، فلما ذهب إلى النبى ﷺ قال : يا رسول الله نريد أن يستأذن علينا أبناؤنا

(١) هو : مدلج الأنصارى . ذكره ابن حجر العسقلانى فى « تمييز الصحابة » (ترجمة رقم ٧٨٥٢) وذكر هذا الحديث وقال : « أخرجه ابن منده من طريق السدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس » ذكره ثم قال : « وفيه أن النبى ﷺ قال للغلام « أنت ممن يلج الجنة » .

ونساؤنا وموالينا وخدمنا ، فقد حدث من الغلام كيت وكيت ، فنزلت هذه الآية[١] .

ويُسمِّى الله تعالى هذه الأوقات الثلاثة عورة : ﴿ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ.. (٥٨)﴾ [النور] والعورة : هى ما يحب الإنسان ألاَّ يراها أحد ، أو يراه عليها ؛ لأنها نوع من الخلل والخصوصية ، والله لا يريد أنْ يراك أحد على شىء تكرهه .

لذلك يقولون لمن به خَلَل فى عينه مثلاً : أعور ، والعرب تقول للكلمة القبيحة : عوراء[٢] ، كما قال الشاعر :

وعَوْراء جاءتْ من أخٍ فردَدْتُها بِسالمةِ العَيْنيْنِ طَالبةً عُذْراً[٣]

يعنى : كلمة قبيحة لم أردّ عليها بمثلها ، إنما بسالمة لا عين واحدة ، بل بسالمة العينين الاثنين .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ .. (٥٨)﴾ [النور] يعنى : بعد هذه الأوقات : لا إثمَ ولا حرجَ عليكم ، ولا على المماليك ، أو الصغار أنْ يدخلوا عليكم ، ففى غير هذه الأوقات يجلس المرء مُسْتعداً لممارسة حياته العادية ، ولا مانع لديه من استقبال الخَدَم أو الأَطفال الصغار دون استئذان ؛ لأن طبيعة المعيشة فى البيوت لا تستغنى عن دخول هؤلاء وخروجهم باستمرار .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ..

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٦/٤٨٤٠) : « قال مقاتل : نزلت فى أسماء بنت مرثد ، دخل عليها غلام لها كبير ، فاشتكت إلى رسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية . وقيل : سبب نزولها دخول مُدلج على عمر » .

(٢) قال أبو الهيثم : يقال للكلمة القبيحة عوراء ، وللكلمة الحسناء : عيناء . وقال الليث : العوراء الكلمة التى تهوى فى غير عقل ولا رشد . [لسان العرب ـ مادة : عور] .

(٣) ذكره ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة عور . ولم يذكر اسم الشاعر .

﴿٥٨﴾ [النور] يعنى : حركتهم فى البيت دائمة ، دخولاً وخروجاً ، فكيف نُقيِّدها فى غير هذه الأوقات ؟

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ .. ﴿٥٨﴾﴾ [النور] أى : بياناً واضحاً ، حتى لا يحدث فى المجتمع تناقضات فيما بعد ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ .. ﴿٥٨﴾﴾ [النور] بكل ما يُصلح الخلافة فى الأرض ﴿حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النور] فى تشريعاته وأوامره ، لا يضع الحكم إلا بحكمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾

الطفل حين كان طفلاً لم يبلغ الحُلُم كان يدخل دون استئذان فى غير هذه الأوقات ، فإنْ بلغ الحُلُم فعليه أنْ يستأذن ، لا نقول : إنه تعوَّد الاستئذان فى هذه الأوقات فقط ، لا ، إنما عليه أنْ يستأذن فى جميع الأوقات فقد شَبَّ وكَبِر ، وانتهتْ بالنسبة له هذه الحالة .

وبلوغ الحلم أن ينضج الإنسان نُضْجاً يجعله صالحاً لإنجاب مثله ، فهذه علامة اكتمال تكوينه ، وهذا لا يتأتّى إلا باستكمال الغريزة الجنسية التى هى سَبَب النَّسْل والإنجاب ، ومثَّلْنا ذلك بالثمرة التى لا تحلو إلا بعد نُضْجها ، فإنْ تركتَها بعد النضج سقطتْ من نفسها ، وهذه آية من آيات الله لبقاء النوع ، فلو أكلنا الثمرة قبل نُضْجها لا تنبت بذرتها وينقرض نوعها ، فمن حكمة الله فى الخَلْق ألاَّ تحلو الثمرة إلا بعد النُّضْج .

كذلك الولد حين يبلغ يصبح صالحاً للإنجاب ، ونقول له : انتهتْ الرخصة التى منحها لك الشرع ، وعليك أن تستأذن فى جميع الأوقات .

لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١)﴾ [النور]

وجاء بالطفل بصيغة المفرد ؛ لأن الأطفال فى هذه السنِّ لم تتكوّن لديهم الغريزة ، وليست لهم هذه الميول أو المآرب ، فكأنهم واحد ، أمّا بعد البلوغ وتكوُّن الميول الغريزية قال : ﴿الأَطْفَالُ .. (٥٩)﴾ [النور] لأن لكل منهم بعد البلوغ ميوله وشخصيته وشطحاته .

وقوله : ﴿كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٥٩)﴾ [النور] أى : من الكبار الذين يستأذنون فى كل الأوقات ﴿كَذَٰلِكَ .. (٥٩)﴾ [النور] أى : مثل ما بينّا فى الاستئذان الأول ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ .. (٥٩)﴾ [النور] لأنه سبحانه ﴿عَلِيمٌ .. (٥٩)﴾ [النور] بما يُصلِحكم ﴿حَكِيمٌ (٥٩)﴾ [النور] لا يُشرِّع لكم إلا بحكمة .

ثم يقول سبحانه :

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)﴾

نعلم أن الشارع الحكيم وضع للمرأة المسلمة قواعد تسير عليها فى زِيِّها وسلوكها ومِشْيتها ، حمايةً لها وصيانةً للمجتمع من الفتنة ،

وحتى لا يطمع فيها أصحاب النفوس المريضة ، فجعل لها حجاباً يسترها يُخفى زينتها لا يكون شفافاً ولا واصفاً ، وقال : ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأحزاب]

لكن القواعد من النساء والكبيرات منهن لَهُنَّ حكم آخر .

والقواعد : جمع قاعد لا قاعدة ، قاعدة تدل على الجلوس ، أمّا القاعد ذكراً أو أنثى فهو الذى قعد عن دورة الحياة ، ولم يَعُدْ له مهمة الإنجاب ، ومثل هؤلاء لم يَعُدْ فيهنَّ إرْبة ولا مطمع ؛ لذلك لا مانعَ أن يتخفَّفْنَ بعض الشيء من اللباس الذى فُرض عليهن حال وجود الفتنة ، ولها أن تضع (طرحتها) مثلاً .

لكن هذه مسألة مقولة بالتشكيك : نسبية يعنى : فمن النساء مَنْ ينقطع حَيْضها ويدركها الكِبَر ، لكن ما يزال فيها جمال وفتنة ؛ لذلك ربنا ـ تبارك وتعالى ـ وضع لنا الحكم الاحتياطى ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النور] ثم يدلُّهُن على ما هو خير من ذلك ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النور]

والمقصود بوَضْع الثياب : التخفُّف بعض الشيء من الثياب الخارجية شريطة ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النور] فلا يجوز للمرأة أن تضع ثيابها أَخْذاً بهذه الرخصة ، ثم تضع الزينة وتتبرج . ونخشى أن نُعلِّم النساء هذا الحكم فلا يأخُذْنَ به حتى لا نقول عنهن : إنهن قواعد !!

وتعجب حين ترى المرأة عندما تبلغ هذه السِّنَّ فتجدها وَرِعة فى ملبسها ، وَرِعة فى مظهرها ، وَرِعة فى سلوكها ، فتزداد جمالاً وتزداد بهاءً وآسرية ، على خلاف التى لا تحترم سِنَّها فتضع على

وجهها المساحيق والألوان فتبدو مَسْخاً مُشوَّهاً .

ومعنى ﴿يَسْتَعْفِفْنَ .. (٦٠)﴾ [النور] أى : يحتفظْنَ بملابسهن لا يضعْنَ منها شيئاً ، فهذا أدْعى للعفة .

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦١)﴾

قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ .. (٦١)﴾ [النور] الحرج : هو الضيق ، كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ .. (١٢٥)﴾ [الأنعام]

أو الحرج بمعنى : الإثم ، فالحرج المرفوع عن هؤلاء هو الضيِّق

أو الإثم الذى يتعلق بالحكم الآتى فى مسألة الأكل ، بدليل أنه يقول ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور]

والأعمى يتحرَّج أنْ يأكل مع الناس ؛ لأنه لا يرى طعامه ، وربما امتدتْ يده إلى أطيب الطعام فيأكله ويترك أدناه ، والأعرج يحتاج إلى راحة خاصة فى جلْسته ، وربما ضايق بذلك الآخرين ، والمريض قد يتأفف منه الناس . فرفَع الله تعالى عن عباده هذا الحرج ، وقال : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .. (٦١)﴾ [النور]

فيصح أن تأكلوا معاً ؛ لأن الحق - سبحانه وتعالى - يريد أنْ يجعل التكامل فى الذوات لا فى الأعراض ، وأيضاً أنك إنْ رأيتَ شاباً مَؤوفاً[1] يعنى به آفة ، ثم تعامله معاملة خاصة فربما جرحْتَ شعوره ، حتى إنْ كان ما به أمراً خَلْقياً من الله لا يتأباه ، والبعض يتأبى أن يخلقه الله على هيئة لا يرضاها .

لذلك كانوا فى الريف نسمعهم يقولون : اللى يعطى العمى حقه فهو مبصر ، لماذا ؟ لأنه رضى بهذا الابتلاء ، وتعامل مع الناس على أنه كذلك ، فطلب منهم المساعدة ؛ لذلك ترى الناس جميعاً يتسابقون إلى مساعدته والأخْذ بيده ، فإنْ كان قد فقد عيناً فقد عوَّضه الله بها ألف عَيْن ، أما الذى يتأبَّى ويرفض الاعتراف بعجزه ويرتدى نظارة سوداء ليخفى بها عاهته فإنه يسير مُتعسِّراً يتخبَّط لا يساعده أحد .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يريد لأصحاب هذه الآفات أن يتوافقوا مع المجتمع ، لا يأخذون منه موقفاً ، ولا يأخذ المجتمع

(١) مؤوف : أصابته آفة . والآفة : العاهة . وآفت البلاد : صارت فيها آفة . [لسان العرب - مادة : أوف] .

منهم موقفاً[1] ؛ لذلك يعطف على ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ .. (٦١)﴾ [النور] ثم يقول سبحانه ﴿وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] يعنى : هم مثلكم تماماً ، فلا حرجَ بينكم فى شىء .

﴿أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] إلخ .

وكان فى الأنصار قزازة[2] ، إذا جلس فى بيت لا يأكل منه إلا إذا أذنَ له صاحب البيت ، وقد يسافر الرجل منهم ويترك التابع عنده فى البيت دون أنْ يأذنَ له فى الأكل من طعام بيته ويعود ، فيجد الطعام كما هو ، أو يجده قد فسد دون أنْ يأكل منه التابع شيئاً ، فأراد الحق سبحانه أنْ يرفع هذا الحرج عن الناس ، فقال :

﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] إلى آخر هذه المعطوفات .

ولقائل أنْ يقول : وأىّ حرج فى أنْ يأكل المرء من بيته ؟ وهل كان يخطر على البال أنْ تجد حَرَجاً ، وأنت تأكل من بيتك ؟

قالوا : لو حاولتَ استقصاء هؤلاء الأقارب المذكورين فى الآية لتبيّن لك الجواب ، فقد ذكرتْ الآية آباءكم وأمهاتكم وإخوانكم وأخواتكم وأعمامكم وعماتكم وأخوالكم وخالاتكم ، ولم تذكر شيئاً عن الأبناء وهم فى مقدمة هذا الترتيب ، لماذا ؟

---

(١) قال ابن عباس : لما أنزل الله تبارك وتعالى ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ .. (١٨٨)﴾ [البقرة] تحرّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزمنى والعرج وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل ، والأعمى لا يبصر موضع الطعام الطيب ، والمريض لا يستوفى الطعام . فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ .. (٦١)﴾ [النور] [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ١٨٩] .

(٢) القزازة : الحياء . قززْتُ نفسى عن الشىء : أبَيْته وعَافته . وتقزز الرجل من الشىء : لم يطعمه ولم يشربه بإرادة . [لسان العرب ـ مادة : قزز] .

قالوا : لأن بيوت الأبناء هي بيوت الآباء ، وحين تأكل من بيت ولدك كأنك تأكل من بيتك ، على اعتبار أن الولد وما ملكتْ يداه ملْك لأبيه ، إذن : لك أن تضع مكان ﴿بُيُوتِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] بيوت أبنائكم . ذلك لأن الحق - تبارك وتعالى - لم يُرِدْ أنْ يجعل للأبناء بيوتاً مع الآباء ، لأنهما شيء واحد .

إذن : لا حرجَ عليك أن تأكل من بيت ابنك أو أبيك أو أمك أو أخيك أو أختك أو عمك أو عمتك أو خالك أو خالتك ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ .. (٦١)﴾ [النور] يعنى : يعطيك صاحب البيت مفتاح بيته[1] ، وفى هذا إذْنٌ لك بالتصرُّف والأكل من طعامه إنْ أردتَ .

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] وتلحظ فى هذه أنها الوحيدة التى وردتْ بصيغة المفرد فى هذه الآية ، فقبلها : بيوتكم ، آبائكم ، أمهاتكم .. إلخ إلا فى الصديق فقال ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] ولم يقل : أصدقائكم .

ذلك لأن كلمة صديق مثل كلمة عدو تستعمل للجميع بصيغة المفرد ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. (٧٧)﴾ [الشعراء]

لأنهم حتى إنْ كانوا جماعة لا بُدَّ أنْ يكونوا على قلب رجل واحد ، وإلا ما كانوا أصدقاء ، وكذلك فى حالة العداوة نقول عدو ، وهم جمع ؛ لأن الأعداء تجمعهم الكراهية ، فكأنهم واحد .

---

(١) عن سعيد بن المسيب انه كان يقول فى هذه الآية : انزلت فى أناس كانوا إذا خرجوا مع النبى ﷺ وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم ، وكانوا يامرونهم أن ياكلوا مما فى بيوتهم إذا احتاجوا إلى ذلك ، وكانوا يتقون أن ياكلوا منها ويقولون : نخشى أن لا تكون أنفسهم بذلك طيبة ، فانزل الله تعالى هذه الآية . [أورده الواحدى فى أسباب النزول ص ١٩٠] .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا .. ⦗٦١⦘ ﴾ [النور] ﴿ جَمِيعًا .. ⦗٦١⦘ ﴾ [النور] سوياً بعضكم مع بعض ، ﴿ أَوْ أَشْتَاتًا .. ⦗٦١⦘ ﴾ [النور] متفرقين ، كُلٌّ وحده .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ[1] تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً .. ⦗٦١⦘ ﴾ [النور] على أنفكسم ، لأنك حين تُسلِّم على غيرك كأنك تُسلِّم على نفسك ، لأن غيرك هو أيضاً سيسلم عليك ، ذلك لأن الإسلام يريد أن يجعل المجتمع الإيمانى وحدة متماسكة ، فحين تقول لغيرك : السلام عليكم سيردّ : وعليكم السلام . فكأنك تُسلِّم على نفسك .

أو : أن المعنى : إنْ دخلتم بيوتاً ليس فيها أحد فسلِّموا على أنفسكم ، وإذا دخلوا المسجد قالوا : السلام على رسول الله وعلينا من ربنا ، قالوا : تُسمع الملائكة وهى ترد .

وقوله تعالى : ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً .. ⦗٦١⦘ ﴾ [النور] وفى آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا .. ⦗٨٦⦘ ﴾ [النساء]

والتحية فوق أنها من عند الله فقد وصفها بأنها ﴿ مُبَارَكَةً .. ⦗٦١⦘ ﴾ [النور] والشىء المبارك : الذى يعطى فوق ما ينتظر منه ﴿ كَذَٰلِكَ .. ⦗٦١⦘ ﴾ [النور] أى : كما بيَّن لكم الأحكام السابقة يُبيِّن لكم ﴿ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ⦗٦١⦘ ﴾ [النور]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٨٥٧/٦) : « الأوجه أن يقال : إن هذا عام فى دخول كل بيت ، فإن كان فيه ساكن مسلم يقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وإن لم يكن فيه ساكن يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . وإن كان فى البيت من ليس بمسلم قال : السلام على من اتبع الهدى أو السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

أى : أن الذى كلَّفكم بهذه الأحكام رَبٌّ يحب الخير لكم ، وهو غنىٌّ عن هذه ، إنما يأمركم بأشياء ليعود نَفْعها عليكم ، فإنْ أطعتموه فيما أمركم به انتفعتُم بأوامره فى الدنيا ، ثم ينتظركم جزاؤه وثوابه فى الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ(١) لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) ﴾

المؤمن : مَنْ آمن بإله وآمن بالرسول المبلِّغ عن الإله ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالرسول المبلِّغ عن الله فلا بُدَّ أن تكون حركتك خاضعةً لأوامره ، ويجب أن تكون ذاتك له ، فإذا رأى الرسول أمراً جامعاً يجمع المسلمين فى خَطْب أو حدث أو حرب ، ثم يدعوكم إلى التشاور ليُدلى كل منكم برأيه وتجربته ، ويُوسِّع مساحة الشورى فى المجتمع ليأتى الحكم صحيحاً سليماً موافقاً للمصلحة العامة .

فالمؤمن الحق إذا دُعى إلى مثل هذا الأمر الجامع ، لا يقوم من مجلسه حتى يستأذن رسول الله ﷺ ، وليس إلزاماً أنْ يأذن له رسول الله ﷺ ؛ لأن أمر المسلمين الجامع لهم قد يكون أهمّ من الأمر الذى يشغلك ، وتريد أن تقوم من أجله ، وتترك مجلس رسول الله ﷺ .

(١) اختلف فى الأمر الجامع ما هو ؟ فقيل : المراد به ما للإمام من حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة ، من إقامة سنة فى الدين أو لترهيب عدو باجتماعهم ، وللحروب . وقال مكحول والزهرى : الجمعة من الأمر الجامع . [تفسير القرطبى ٤٨٥٨/٦] .

وقوله تعالى :: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ .. (٦٢) ﴾ [النور] فالاستئذان هنا من علامات الإيمان ، لا يقوم خلسة (وينسلت) من المجلس ، لا يشعر به أحد ، لا بُدَّ من أنْ يستأذن رسول الله حتى لا يُفوت مصلحة على المؤمنين ، ولربما كان له رأىٌ ينتفع به .

والرسول إنما يستشير أصحابه ليستنير برأيهم وتجاربهم ، فحين يدعوهم إلى أمر جامع يجب أن يُفهم هذا الأمر على نطاق منزلة الرسول من بلاغه عن الله للأمة ، فإذا دعا نفر نفراً للتشاور ، فإنما يتشاوران فى أمر شخصى يخصُّ صاحبه ، لكن حين يدعوهم رسول الله لا يدعو لخصوصية واحدة ، وإنما لخصوصية أمة ، شاء الله أن تكون خير أمة أُخْرِجَتْ للناس ، وسوف يستفيد الفرد أيضاً من هذه الدعوة ، وربما كانت استفادته من الاستجابة للدعوة العامة التى تنتظم كل الناس خَيْراً من استفادته من دعوته الخاصة ، فيجب أنْ يُقدِّر المدعو هذا الفارق .

ومع وجود هذا الفارق لم يَحرم اللهُ بعضَ الناس الذين لهم مشاغل أنْ يستأذنوا فيها رسول الله وينصرفوا ؛ لذا شرع لهم الاستئذان ، لكن يجب أنْ يضعوا هذا الفارق فى بالهم ، وأنْ يذكروا أنهم انصرفوا لبعض شأنهم ، والرسول قائم فى أمر لشئون الدنيا كلها إلى أنْ تقوم الساعة .

فكأنه إنْ شارك فى هذا الاجتماع فسيستفيد كفرد ، وستستفيد أمته : المعاصرون منهم والآتون إلى أنْ تقومَ الساعة ، فإنْ فضّل شأنه الخاص على هذه الشئون فقد أساء ، وفعل مَا لا يليق بمؤمن ؛ لذلك أُمر رسول الله أنْ يأذنَ لمنْ يشاء ، ثم يستغفر له اللهَ .

يقول سبحانه : ﴿ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ..(٦٢)﴾ [النور] فالأمر متروك لرسول الله يُقدِّره حَسْبَ مصلحة المسلمين العامة ، فَلَهُ أن يأذنَ أو لا يأذنَ .

إذن : لا بُدَّ من استئذان رسول الله ﷺ فيأذن لمَنْ يشاء منهم ممَّنْ يرى أن في الباقين عوَضاً عنه وعن رأيه ، فإنِ استأذن صاحب رأى يستفيد منه المسلمونَ لم يأذن له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ..(٦٢)﴾ [النور] ، وكأن مسألة الاستئذان والقيام من مجلس رسول الله ﷺ أمر لا يريده الله تعالى .

حتى إن استأذنتَ لأمر يهمك ، وحتى إنْ أذن لك رسول الله ، فالأفضل ألاَّ تستأذن ؛ لأن الرسول ﷺ حين يدعو لأمر جامع يُهِمّ جماعة المسلمين ، يجب ألاَّ ينشغل أحد عمَّا دُعى إليه ، وألاَّ يُقدِّم على مصلحة المسلمين ومجلس رسول الله شيئاً آخَر ، ففى الأمر الجامع ينبغى أنْ يُكتّل الجميع مواهبهم وخواطرهم فى الموضوع ، وساعة تستأذن لأمر يخصُّك فأنت منشغل عن الجماعة شارد عنهم .

فحين تنشغل بأمرك الخاص عن أمر المسلمين العام ، فهذه مسألة تحتاج إلى استغفار لك من رسول الله ، فالرسول يأذن لك ، ثم يستغفر لك الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾

قوله سبحانه : ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا.. ﴿٦٣﴾﴾ [النور] فأنتم يدعو بعضكم بعضاً فى مسألة خاصة ، لكن الرسول يدعوكم لمسألة عامة تتعلق بحركة حياة الناس جميعاً إلى أنْ تقوم الساعة .

أو : أن الدعاء هنا بمعنى النداء يعنى : يناديكم الرسول أو تنادونه ؛ لأن لنداء الرسول ﷺ آداباً يجب مراعاتها ، فهو ليس كأحدكم تنادونه : يا محمد ، وقد عاب القرآن على جماعة لم يلتزموا أدب النداء مع رسول الله ، فقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾ [الحجرات]

فأساءوا حين قالوا : يا محمد ، ولو قالوا حتى : يا أيها الرسول فقد أساءوا ؛ لأنه لا يصحّ أنْ يتعجّلوا رسول الله ، ويجب أنْ يتركوه على راحته ، إنْ وجد فراغاً للقائهم خرج إليهم ، إذن : أساءوا من وجهين .

ولا يليق أن نناديه ﷺ باسمه : يا محمد . لأن الجامع بين الرسول وأمته ليس أنه محمد ، إنما الجامع أنه رسول الله ، فلا بُدَّ أن نناديه بهذا الوصف . ولِمَ لا وربه عز وجل وهو خالقه ومصطفيه قد ميّزه عن سائر إخوانه من الرسل ، ومن أولى العزم ، فناداهم بأسمائهم :

﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة]

وقال : ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا .. ﴿٤٨﴾﴾ [هود]

وقال : ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا .. ﴿١٠٥﴾﴾ [الصافات]

وقال : ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ .. ﴿٣٠﴾﴾ [القصص]

وقال : ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ .. ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة]

وقال : ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ .. ﴿٢٦﴾﴾ [ص]

لكن لم يُنَاد رسولَ الله ﷺ باسمه أبداً ، إنما يناديه بـ «يٰأيها » الرسول ، يٰأيهَا النبى . فإذا كان الحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يجعل دعاءه للرسول كدعائه لباقى رسله ، أفندعوه نحن باسمه ؟ ينبغى أن نقول : يا أيها الرسول ، يا أيها النبى ، يا رسول الله ، يا نبى الله ، فهذا هو الوصف اللائق المشرِّف .

وكما نُميِّز دعاء رسول الله حين نناديه ، كذلك حين ينادينا نحن يجب أن نُقدِّر هذا النداء ، ونعلم أن هذا النداء لخير عام يعود نفعه على الجميع .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ [النور]

لا شكَّ أن الذين يستأذنون رسول الله فيهم إيمان ، فيُراعون مجلس رسول الله ، ولا يقومون إلا بإذنه ، لكن هناك آخرون يقومون دون استئذان : ﴿يَتَسَلَّلُونَ .. (٦٣)﴾ [النور] والتسلل : هو الخروج بتدريج وخُفْية كأنْ يتزحزح من مكان لآخر حتى يخرج ، أو يُوهمك أنه يريد الكلام مع شخص آخر ليقوم فينسلتُ من المجلس خُفْيَة ، وهذا معنى ﴿يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا .. (٦٣)﴾ [النور] يلوذ بآخر ليخرج بسببه .

ويحذر الله هؤلاء : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ .. (٦٣)﴾ [النور] والتحذير إنذار بالعاقبة السيئة التى تترتب على الانسحاب من مجلس رسول الله ، كأنه يقول لهم : قارنوا بين انسحابكم من مجلس الرسول وبين ما ينتظركم من العقاب عليه .

وقال : ﴿ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [النور] لا يخالفون أمره ، فجعل فى المخالفة معنى الإعراض ، لا مجرد المخالفة ، فالمعنى : يُعرضون عنه .

والأمر : يُراد به فعل الأمر أو النهى أو الموضوع الذى نحن بصدده يعنى : ليس طلباً ، وهذا المعنى هو المراد هنا : أى الموضوع الذى نبحثه ونتحدث فيه ، فانظروا ماذا قال رسول الله ولا تخالفوه ولا تعارضوه ؛ لأنه وإنْ كان بشراً مثلكم إلا أنه يُوحَى إليه .

لذلك يحدد الرسول ﷺ مركزه كبشر وكرسول ، فيقول : « يَرِدُ علىَّ ـ يعنى من الحق الأعلى ـ فأقول : أنا لست كأحدكم ، ويُؤخَذ منى فأقول : ما أنا إلا بشر مثلكم » .

لذلك كان الصحابة يفهمون هذه المسألة ، ويتأدبون فيها مع رسول الله ، ويسألونه فى الأمر : أهو من عند الله قد نزل فيه وَحْى ، أم هو الرأى والمشورة ؟ فإنْ كان الأمر فيه وَحْىٌ من الله فلا كلامَ لأحد مع كلام الله ، وإنْ كان لم يرد فيه من الله شىء أدلَى كُلٌّ منهم برأيه ومشورته .

وهذا حدث فعلاً فى غزوة بدر حين نزل رسول الله ﷺ منزلاً رأى بعض الصحابة أن غيره خير منه ، فسألوا رسول الله : أهذا منزل أنزلكهُ الله ، أم هو الرأىُ والمشورة ؟ فقال : « بل هو الرأى والمشورة »[1] فأخبروه أنه غير مناسب ، وأن المكان المناسب كذا وكذا .

(١) قال الحباب بن المنذر بن الجموح : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله » الحديث . أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٦٢٠) نقلاً عن ابن إسحاق .

وقوله تعالى : ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ .. (٦٣)﴾ [النور] أى : فى الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣)﴾ [النور] أى : فى الآخرة ، فإنْ أفلتوا من فتنة الدنيا فلنْ يُفلتوا من عذاب الآخرة .

ثم تختم السورة بقوله تعالى :

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ (٦٤)﴾

ألا : أداة تنبيه لشيء مهم بعدها ، والتنبيه يأتى لأن الكلام سفارة بين المتكلم والمخاطب ، المتكلم عادة يُعد كلامه ، ولديْه أُنْسٌ بما سيقول ، لكن المخاطب قد لا يكون خالى الذِّهْن فيفاجئه القول ، وربما شغله ذلك عن الكلام ، فيضيع منه بعضه .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد ألاَّ يضيع منك حرف واحد من كلامه ، فينبهك بكلمة هى فى الواقع لا معنى لها فى ذاتها ، إلا أنها تنبهك وتُذهب ما عندك من دهشة أو غفلة ، فتعى ما يُقال لك ، وهذا أسلوب عربى عرفته العرب ، وتحدثتْ به قبل نزول القرآن .

ويقول الشاعر[1] الجاهلى يخاطب المرأة التى تناوله الكأس :

أَلاَ هُبِّى بِصَحْنِك فَاصْبِحِينَا ... وَلاَ تُبْقِى خُمُورَ الأَنْدرِينَا[2]

---

(١) هو : عمرو بن كلثوم ، من بنى تغلب ، أبو الأسود ، شاعر جاهلى ، من الطبقة الأولى ، ولد فى شمال جزيرة العرب فى بلاد ربيعة ، ساد قومه تغلب وهو فتى وعمر طويلاً ، توفى ٤٠ ق . هـ ، وهو الذى قتل الملك عمرو بن هند ، مات فى الجزيرة الفراتية . [الأعلام للزركلى ٥/ ٨٤] .

(٢) البيت من معلقة عمرو بن كلثوم . والصحن : القدح العظيم . والأندرون : قرى بالشام . قال الزوزنى فى شرحه (ص ١٦٥) : « ألا استيقظى من نومك أيتها الساقية واسقينى الصبوح بقدحك العظيم ولا تدخرى خمر هذه القرى » .

يريد أن ينبهها إلى الكلام المفيد الذى يأتى بعد .

وبعد الا التنبيهية يقول سبحانه : ﴿إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ.. (٦٤)﴾ [النور]

والسموات والأرض ظرف فيهما كل شيء فى الكون العُلْوى والسُّفْلى ، فلله ما فى السموات وما فى الأرض أى : المظروف فيهما ، فما بال الظرف نفسه ؟ قالوا : هو أيضاً لله ، كما جاء فى آية أخرى : ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٤٢)﴾ [النور] إذن : فالظرف والمظروف مِلْك له سبحانه .

وعادةً ما يكون الظرف أقلَّ قيمةً من المظروف فيه ، فما بداخل الخزينة مثلاً أثمن منها ، وما بداخل الكيس أثمن منه ، وكذلك عظمة السموات والأرض بما فيهما من مخلوقات . لذلك إياك أنْ تجعل المصحف الشريف ظرفاً لشيء مهم عندك فتحفظه فى المصحف ؛ لأنه لا شيء أغلى ولا أثمن من كتاب الله ، فلا يليق أن تجعله حافظةً لنقودك ، أو لأوراقك المهمة ؛ لأن المحفوظ عادة أثمن من المحفوظ فيه .

وفى الآية : ﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٦٤)﴾ [النور] أسلوب قصر بتقديم الجار والمجرور ، فكلٌّ ما فى السموات ، وكل ما فى الأرض مِلْكٌ لله وحده ، لا يشاركه فيه أحد ، وعلى كثرة المفترين فى الألوهية والفَرعونية لم يَدَّعِ أحد منهم أن له مُلْكَ شيء منها .

حتى إن النمرود الذى جادل أبانا إبراهيم عليه السلام وقال : أنا أحى وأميت لمَّا قال له إبراهيم : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة] لم يستطع فِعْل شيء وبُهِت وانتهت المسألة .

ومُلْكه تعالى لم يقتصر على الخَلْق ، فخَلَق الأشياء ثم تركها تؤدى مهمتها وحدها ، إنما خلقها وله تعالى قيومية على ما خلق ، وتصرّف فى كل شىء ، فلا تظن الكون من حولك يخدُمك آلياً ، إنما هو خاضع لإرادة الله وتصرّفه سبحانه .

فالماء الذى ينساب لك من الأمطار والأنهار قد يُمنع عنك ويصيب أرضك الجفاف ، أو يزيد عن حَدّه ، فيصبح سيولاً تغرق وتدمر ، إذن : المسألة ليست رتابة خَلْق ، وليست المخلوقات آلات (ميكانيكية) ، إنما لله المُلْك والقيومية والتصرُّف فى كل ما خلق .

ثم يقول سبحانه : ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ .. ﴿٦٤﴾﴾ [النور] لفهم هذه الآية لا بُدَّ أن نعلم أن علاقة الحق - تبارك وتعالى - بالأحداث ليستْ كعلاقتنا نحن ، فنحن نعلم من علم النحو أن الأفعال ماضٍ ، وهو ما وقع بالفعل قبل أن تتكلم به مثل : جاء محمد ، ومضارع وهو إما للحال مثل : يأكل محمد . أو للاستقبال مثل : سيأكل محمد .

أما بالنسبة لله تعالى ، فالأحداث سواء كلها مَاضٍ وواقع ، وقد تكلمنا فى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾﴾ [النحل]

ومعلوم أن الاستعجال يكون للأمر الذى لم يأتِ بَعْد ، والقيامة لم تأت بعد لكن عبَّر عنها بالماضى (أتى) لأنه سبحانه لا يعوقه ولا يُخرِجه شىء عن مراده ، فكأنها أتتْ بالفعل ، إذن : ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ﴿١﴾﴾ [النحل] ليست منطقية مع كلامك أنت ، إنما هى منطقية مع كلام الله .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ .. ﴿٦٤﴾﴾ [النور] فقد : للتحقيق ، ويعلم بالنسبة لله تعالى تعنى عَلِم ، لكنه بالنسبة لك

أنت يعلم . إذن : فهناك طرف منك وطرف من الحق سبحانه ، فبالنسبة للتحقيق جاء بقد ، وبالنسبة للاستقبال جاء بيعلم .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [النور] وجاء في آية أخرى : ﴿وَمَا يَعْزُبُ[1] عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس]

فإياك أن تفهم أن نظر الله ورؤيته سبحانه للأبعاض المختلفة في الأماكن المختلفة رؤية جزئية ، تتجه إلى شيء فلا ترى الآخر ، إنما هي رؤية شاملة ، كأن لكل شيء رؤية وحده ، وهذا واضح في قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الرعد]

فسبحانه لا يشغله سَمْع عن سمع ، ولا بَصَر عن بصر ، فبصره سبحانه محيط ، واطلاعه دقيق ؛ لذلك يأتي جزاؤه حقاً يناسب دقّة اطلاعه ، فإياك إذن أن تغفل هذه الحقيقة ، فربُّك قائم عليك ، ناظر إليك ، لا تَخْفى عليه منك خافية .

فيا مَنْ تتسلل لِواذاً احذر ، فلا شيء أهمّ من مجلس مع رسول الله ﷺ ، ورسول الله نفسه كان حريصاً أن يرى أصحابه في مجلسه باستمرار ، والله تعالى يوصيه بذلك فيقول له : ﴿وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ.. ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف]

وكان بعض أصحابه يُصلِّي خلفه ، فكان عندما يسلم ينصرف الرجل مسرعاً فيراه ﷺ في أول الصلاة ، ولا يراه في آخرها ،

(١) عزب الأمر يعزب : بَعُدَ وغاب وصعب مطلبه . أي : لا يغيب ولا يبعد عنه أي شيء فهو يعلم الصغير والكبير من الأمور والأشياء . [القاموس القويم ٢/١٨] .

فاستـوقفه فى إحدى الصلوات وقال له : « أزهداً فـينا » ؟ وكأنه يعزّ على رسول الله أن يجد أحد أصحابه لا يتواجد مع حضرته ، أو يَزْهَد فى مجلســه ، فيُحرم من الخـيرات والتجليـات التى تتنزل على مجلس رسول الله ، ويُحرَم من إشعاعات بصيرته وبصره إليه .

لذلك أُحـرِج الرجل ، وأخذ يوضـح لرســول الله ﷺ ما يدفـعه كل صلاة إلى الإســراع بالانصراف ، وأن هذا منه ليس زهداً فى حـضرة رســول الله ومجلس رســول الله ، فـقــال : يا رسول الله إن لى امـرأة بالبيت تنتظر ردائى هذا لتصلى فيه .

يعنى : ليس لديـه فى بيتـه إلا ثوبٌ واحـد ، فـدعـا له النبى ﷺ بالخير ، فلما عاد لزوجته سألته عن سبب غيابه ، فقصَّ عليها ما كان من أمر رسـول الله ، وأنه استـوقفه وحكى لها ما دار بينهـما ، فقالت لزوجها : أتشكو ربك لمحمد ؟

ولما سألوها بعـد ذلك قالت : « غاب عنى مقدار مائة تســبيحة » فانظر إلى ساعتها التى تضبط عليها وقتها .

سُورَةُ الفُرْقَانِ

بعد أن خُتِمَتْ سورة النور بهذه الآية التى تبين مالله تعالى من مُلْك وقَهْر وجَبروت ، وبيَنَتْ أن العودة إليه والرجوع يوم القيامة للحساب ، بدأتْ سورة الفرقان تُبيِّن أن هذا الملْك ليس مُلْك استعباد ، إنما مُلْك رحمة ، نظمت لكم الحياة لتعيشوا فيها على هُدىً ونور ، فقال تعالى :

سورة الفرقان[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ①﴾

﴿ تَبَارَكَ ..① ﴾ [الفرقان] مادة الباء والراء والكاف عادةً تدلُّ على البركة ، وهى أن يعطيك الشىء من الخير فوق ما تظن فيه ويزيد عن تقديرك ، كما لو رأيتَ طعام الثلاثة يكفى العشرة ، فتقول : إن هذا الطعام مُبَارَكٌ أو فيه بركة .

---

(١) سورة مكية كلها فى قول الجمهور . وقال ابن عباس وقتادة : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ .. ⑥⑧ ﴾ [الفرقان] إلى قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑦⓪ ﴾ [الفرقان] وقال الضحاك : هى مدنية ، وفيها آيات مكية . [تفسير القرطبى ٦/٤٨٦٣] وسورة الفرقان عدد آياتها ٧٧ آية ، وهى السورة رقم (٢٥) فى ترتيب سور المصحف ، أما فى ترتيب النزول فهى السورة رقم (٤١) نزلت بعد سورة يس ، وقبل سورة الملائكة (سورة فاطر) .

ومن معانى تبارك : تعالى قَدْره و﴿تَبَارَكَ ..①﴾ [الفرقان] تنزّه عن شبه ما سواه ، وتبارك : عَظُم خَيْره وعطاؤه . وهذه الثلاثة تجدها مُكمِّلة لبعضها .

ومن العجيب أن هذا اللفظ ﴿تَبَارَكَ ..①﴾ [الفرقان] مُعجز فى رَسْمه ومُعْجز فى اشتقاقه ، فلو تتبعتَ القرآن لوجدتَ أن هذه الكلمة وردتْ فى القرآن تسْع مرات : سبْع منها بالألف ﴿تَبَارَكَ ..①﴾ [الفرقان] ومرتان بدون الألف[1] ، فلماذا لم تُكتب بالألف فى الجميع ، أو بدونها فى الجميع ؟ ذلك ليدلُّك على أن رَسْم القرآن رَسْم توقيفىّ ، ليس أمراً (ميكانيكياً) ، كما فى قوله تعالى فى أول سورة العلق : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ①﴾ [العلق] فرَسْم كلمة اسم هنا بالألف ، وفى باقى القرآن بدون الألف .

إذن : فالقرآن ليس عادياً فى رَسْمه وكتابته ، وليس عادياً فى قراءته ، فأنت تقرأ فى أى كتاب آخر على أىِّ حال كنتَ ، إلا فى القرآن لا بُدَّ أن تكون على وضوء وتدخل عليه بطُهْر .. الخ ما نعلم من آداب تلاوة القرآن .

ومن حيث الاشتقاق نعلم أن الفعل يُشتَقُّ منه الماضى والمضارع والأمر واسم الفاعل .. الخ ، لكن ﴿تَبَارَكَ ..①﴾ [الفرقان] لم يذكر منها القرآن إلا هذه الصيغة ، وكأنه يريد أنْ يخصَّها بتنزيه الله تعالى ، مثلها مثل كلمة سبحان ؛ لذلك على كثرة ما مرَّ فى التاريخ من الجبابرة أرغموا الناس على مدحهم والخضوع لهم ، لكن ما رأينا واحداً مهما كان مجرماً فى الدين يقول لأحد هؤلاء : سبحانك .

---

(١) – وردت ﴿ تبارك ﴾ فى سبعة مواضع بالألف : (الأعراف : ٥٤) ، (المؤمنون ١٤) ، (الفرقان ١ ، ١٠ ، ٦١) ، (غافر ٦٤) ، (الزخرف ٨٥) .
– وردت مرتين بدون الألف ﴿تبٰرك ﴾ : (الرحمن : ٧٨) ، (الملك : ١) قال السيوطى فى (الإتقان فى علوم القرآن) (١٨٨/٢) : « تبارك : فعل لا يُستعمل إلا بلفظ الماضى ، ولا يستعمل إلا لله » .

لذلك نقول فى تسبيح الله : سبحانك ، ولا تُقال إلا لك . مهما اجترأ الملاحدة فإنهم لا ينطقونها لغير الله .

إذن : ﴿تَبَارَكَ ..①﴾ [الفرقان] تدور حول معَان ثلاثة : تعالى قَدْره ، وتنزُّه عن مشابهة ما سواه ، وعَظُم خَيْرهُ وعطاؤه ، ومَنْ تعاظُم خَيْره سبحانه أنه لا مثيل له : فى قَدْره ، ولا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى فعله . وهذا كله من مصلحتنا نحن ، فلا كبيرَ إلا الله ، ولا جبارَ إلا الله ، ولا غنىَّ إلا الله .

وسُمِّى القرآن فرقاناً ؛ لأنه يُفرِّق بين الحق والباطل ، وقد نزل القرآن ليُخرج الناسَ من الظلمات إلى النور ، فيسير الناس على هُدىً وعلى بصيرة ، فالقرآن إذن فَرَق لهم مواضع الخير عن مواضع العطب ، فالفرقان سائر فى كل جهات الدين ، ففى الدين قمة هى الحق - تبارك وتعالى - ومُبلِّغ عن القمة هو الرسول ﷺ ، ومُرْسَل إليه هم المؤمنون ، فجاء القرآن ليفرِّقَ بين الحق والباطل فى هذه الثلاثة .

ففى القمة ، وُجِد مَنْ ينكر وجود إله خالق لهذا الكون ، وآخرون يقولون بوجود آلهة مَتعددة ، وكلاهما على طرفى نقيض للآخر ، ليس هناك سيال فكر يجمعهم ، فجاء القرآن ليفرق بين الحق والباطل فى هذه المسألة ، ويقول : الأمر وسط بين ما قُلْتم : فالإله موجود ، لكنه إله واحد لا شريكَ له ، ففرقَ فى مسألة القمة .

كذلك فَرق فى مسألة الرسول وهو بشر من قومه ، فلما اعترض بعضهم عليه وحسدوه على هذه المكانة وهو واحد منهم أيَّده الله بالمعجزة التى تُؤيده وتُظهر صدْقه فى البلاغ عن الله ، وكانت معجزته ﷺ فى شىء نبغ فيه القوم ، وهى الفصاحة والبلاغة والبيان ، والعرب أهل بيان ، وهذه بضاعتهم الرائجة وتحدَّاهم بهذه المعجزة فلم يستطيعوا .

وكذلك فَرَق فـى مسألة الخَلْق من حيث مُـقوِّمات حياتهـم ، فبيَّن لهم الحلال والحـرام ، وفى استبـقاء النوع بيَّن لهم الحـلال ، وشرع لهم الزواج ، ونهاهم عن الزنا ليحفظ سلالة الخليفة لله فى الأرض .

إذن : فَرق القرآن فى كل شىء : فى الإله ، وفى الرسول ، وفى قِوَام حياة المرسَل إليهم ، ومـا دام قد فَرقَ فى كل هذه المسائل فلا يوجد لفظ أفضل من أن نُسمِّيه « الفرقان » .

ولا شكَّ أن الألفـاظ التى ينطق بها الحق ـ تبـارك وتعالى ـ لـها إشعاعات ، وفى طياتها معَانٍ يعلمها أهل النظر والبصيرة ممَّنْ فتح الله عليهم ، ومـا أشبهها بفـصوص الماس ! والذى جعل المـاس ثميناً أن به فى كل ذرة من ذراته تكسـرات إشعاعـية ليست فى شىء غـيره ، فمن أىٍّ ناحـية نظرتَ إليه قابلك شُـعاع معكوس يعطى بريقاً ولمـعاناً يتلألأ من كل نواحيه ، وكذلك ألفاظ القرآن الكريم .

ومن معانى الفـرقان التى قال بها بعض العلماء أنه نزل مُـفَرَّقاً ، كـما جـاء فى قوله تعـالى : ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ .. (١٠٦)﴾ [الإسراء] يعنى : أنزلناه مُـفرَّقـاً لم ينزل مـرة واحدة كـالكتب السـابقة عليـه ، وللحق ـ تبارك وتعالى ـ حكمة فى إنزال القرآن مُفرقاً ، حيث يعطى الفرصة لكل نَجْم ينزل من القـرآن أنْ يسـتوعـبه الناس ؛ لأنه يرتبط بحـادثة معينة ، كذلك ليحدث التدرّج المطلوب فى التشريعات .

يقـول تعـالى : ﴿وَقُـرْآنًا فَـرَقْنَاهُ لِتَـقْـرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦)﴾ [الإسراء]

لقد كان المسلمون الأوائل فى فترة نزول القرآن كثيرى الأسئلة ، يسـتفـسرون من رسـول الله عن مـسائل الديـن ، كمـا قال تعـالى :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة] ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ .. (٢١٩) ﴾ [البقرة] ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ .. (١) ﴾ [الانفال] فكان النجم من القرآن ينزل ليُجيب عليهم ويُشرِّع لهم ، وما كان يتأتَّى ذلك لو نزل القرآن جملة واحدة .

وكلمة : ﴿ نَزَّلَ الْفُرْقَانَ .. (١) ﴾ [الفرقان] تؤيد هذا المعنى وتسانده ؛ لأن نزَّل تفيد تكرار الفعل غير « أنزل » التى تفيد تعدِّى الفعل مرة واحدة .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَىٰ عَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الفرقان] كأن حيثية التنزيل عليه هى العبودية لله تعالى ، فهو العبد المأمون أن ينزل القرآن عليه . وسبق أن قلنا : إن العبودية لفظ بغيض إن استُعمل فى غير جانب الحق سبحانه ، أمَّا العبودية لله فهى عِزٌّ وشرف ولفظ محبوب فى عبودية الخَلْق للخالق ؛ لأن العبودية للبشر يأخذ السيد خير عبده ، أمَّا العبودية لله فيأخذ العبد خير سيده .

لذلك جعل الله تعالى العبودية له سبحانه حيثيةً للارتقاء السماوى فى رحلة الإسراء ، فقال :﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..(١) ﴾ [الإسراء] فالرِّفْعة هنا جاءتْ من العبودية لله .

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً (١) ﴾ [الفرقان] العالمين : جمع عَالَم ، والعَالَم ما سوى الله تعالى ، ومن العوالم : عالم الملائكة ، عالم الإنس ، وعالم الجن ، وعالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم الجماد ، إلا أن بعض هذه العوالم لم يأْتِها بشير ولا نذير ؛ لأنها ليست مُخيَّرة ، والبشارة والنذارة لا تكون إلا للمخيَّر .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن

يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

فإنْ عزلْتَ من هذه العوالم مَنْ ليس له اختيار ، فيتبقى منها : الجنّ والإنس ، وإليهما أرسل الرسول ﷺ بشيراً ونذيراً ، لكن لماذا قال هنا ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) ﴾ [الفرقان] ولم يقل : بشيراً ونذيراً ؟

قالوا : لأنه سبحانه سيتكلم هنا عن الذين خاضوا فى الألوهية ، وهؤلاء تناسبهم النِّذَارة لا البشارة ؛ لذلك قال فى الآية بعدها :

﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا (٢) ﴾

فى آخر سورة النور قال سبحانه : ﴿ أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (٦٤) ﴾ [النور] فذكر ملكية المظروف ، وهنا قال : ﴿ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢) ﴾ [الفرقان] فذكر ملْكية الظرف أى : السماوات والأرض .

ثم تكلّم سبحانه فى مسألة القمة التى تجرّأوا عليها ، فقال : ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ..(٢) ﴾ [الفرقان]

وسبق أنْ تكلمنا كثيراً عن مسألة اتخاذ الولد والحكمة منها ، فالناس تحب الولد ، إما ليكون امتداداً للذكْر ، وإما ليساند والده حالَ ضَعْفه ، وإما للكثرة ، والحق ـ تبارك وتعالى ـ هو الحىُّ الباقى الذى لا يموت ، ولا يحتاج لمن يُخلِّد ذكْراه ، وهو القوىُّ الذى لا يحتاج لغيره ، فلِمَ إذنْ يتخذ ولداً ؟

وقوله : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ .. (٢) ﴾ [الفرقان] وهذا أمر

يؤيده الواقع ؛ لأن الله تعالى أول ما شَهد شَهد لنفسه ، فقال سبحانه : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ.. (١٨) ﴾[آل عمران]

أى : لما خلقتُ الملائكة شهدوا لله تعالى ، ثم شهد أولو العلم بالاستدلال ، فشهادة الحق سبحانه لنفسه شهادة الذات للذات ، والملائكة شهدتْ شهادةَ المشاهدة ، ونحن شهدنا شهادةَ الاستدلال والبرهان .

والحق - تبارك وتعالى - يُعطينا الدليل على صدْق هذه الشهادة ، فيقول تعالى : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. (٩١) ﴾ [المؤمنون]

وقال سبحانه : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الإسراء]

وهذا هو التفصيل المنطقى العاقل الذى نردُّ به على هؤلاء ، فلو كان مع الله تعالى آلهة أخرى لَذهبَ كل منهم بجزء من الكون ، وجعله إقطاعية خاصة به ، وعَلاَ كل منهم على الآخر وحاربه ، ولو كان معه سبحانه آلهة أخرى لاجتمعوا على هذا الذى أخذ الملْك منهم ليحاكموه أو ليتوسَّلوا إليه .

وقلنا : إن الدَّعْوى تثبُتُ لصاحبها إذا لم يَدّعهَا أحد غيره لنفسه ، وهذه المسألة لم يدَّعها أحد ، فهى - إذن - ثَابتة لله تعالى إلى أنْ يُوجَد مَنْ يدَّعى هذا الخَلْق لنفسه .

وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بجماعة فى مجلس فَقَد أحدهم محفظته فيه ، ولما انصرفوا وجدها صاحب البيت ، فسألهم عنها ، فلم يدَّعها أحد منهم ، ثم اتصل به أحدهم يقول : إنها لى ، فلا شكّ أنها لَه حتى يوجد مُدَّعٍ آخر ، فنفصل بينهما .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ② ﴾ [الفرقان] فخلْق الله تعالى ليس خَلْقاً كما اتفق ، إنما خَلْقه سبحانه بقَدَر وحساب وحكمة ، فيخلق الشيء على قَدْر مهمته التي يُؤدِّيها ؛ لذلك قال في موضع آخر : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③ ﴾ [الأعلى]

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ③ ﴾

أي : أتوْا بآلهة غير الله ، هذه الآلهة بإقرارهم وبشهادتهم وواقعهم لا تخلق شيئاً ، ويا ليتها فقط لا تخلق شيئاً ، ولكن هي أنفسها مخلوقة ، فاجتمع فيها الأمران .

وهذه من الآيات التي وقف عندها المستشرقون وقالوا : إن فيها شبهة تناقض ؛ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قال : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ⑭ ﴾[المؤمنون] فأثبت أن معه آخرين لهم صفة الخَلْق ، بدليل أنه جمعهم معه ، وهو سبحانه أحسنهم . وفي موضع آخر يقول سبحانه :﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ .. ⑭٩ ﴾ [آل عمران]

وللردِّ على هؤلاء نقول : تعالوْا أولاً نفهم معنى الخَلْق ، الخَلْق : إيجاد لمعدوم ، كما مثَّلْنا سابقاً بصناعة كوب الزجاج من صَهْر بعض المواد ، فالكوب كان معدوماً وهو أوجده ، لكن من شيء موجود ، كما أن الكوب يجمد على حالته ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُوجِد من معدوم : معدوماً من معدوم ، ويُوجده على هيئة فيها حياة ونمو

وتكاثر من ذاته ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الذاريات]

والذين يصنعون الآن الورد الصناعى ، ويحاولون جاهدين مُضَاهاة الورد الطبيعى الذى خلقه ، فيضعون عليه رائحة الورد ليتوفر لها الشكل والرائحة ، ثم ترى الوردة الصناعية زاهية لا تذبُل ، لكن العظمة فى الوردة الطبيعية أنها تذبل ؛ لأن ذُبولها يدلُّ على أن بها حياة .

لذلك سمَّى اللهُ الإنسانَ خالقاً ، فأنصفه واحترم إيجاده للمعدوم ، لكنه سبحانه أحسنُ الخالقين ، ووَجْه الحُسْن أن الله تعالى خلق من لا شيء ، وأنت خلقتَ من موجود ، الله خلق خَلْقاً فيه حياة ونمو وتكاثر ، وأنت خلقتَ شيئاً جامداً على حالته الأولى ، ومع ذلك أنصفك ربك .

ففى قوله تعالى : ﴿ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [آل عمران] معلوم أنه فى مقدور كل إنسان أنْ يُصوِّر من الطين طَيْراً ، ويُصمِّمه على شكله ، لكن أيُقال له : إنه خلق بهذا التصوير طَيْراً ؟ وهل العظمة فى تصويره على هيئة الطير ؟ العظمة فى أنْ تبعثَ فيه الحياة ، وهذه لا تكون إلا من عند الله ؛ لذلك قال عيسى عليه السلام : ﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [آل عمران]

فإنْ سلَّمْنا أنهم يخلقون شيئاً فهم فى ذات الوقت مخلوقون ، والأدْهَى من هذا أن الذى يتخذونه إلهاً لا يستطيع حتى أن يحمى نفسه أو يقيمها ، إنْ أطاحتْ به الريح ، وإنْ كُسر ذراع الإله أخذوه ليُرمموه ، الإله فى يد العامل ليصلحه !! شيء عجيبٌ وعقليات حمقاء .

لذلك يقول تعالى عن آلهتهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الحج]

ثم يقول سبحانه :﴿ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا ..(٣) ﴾ [الفرقان] يعنى : لا تنفعهم إنْ عبدوها ، ولا تضرّهم إنْ كفروا بها ﴿وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا (٣) ﴾ [الفرقان] أى : موتاً أو حياة لغيرهم ، فهم لا يملكون شيئاً من هذا كله ، لأنه من صفات الإله الحق الذى يُحيى ويُميت ، ثم ينشر الناس فى الآخرة . إذن : للإنسان مراحل متعددة ، فبعد أنْ كان عَدَماً أوجده الله ، ثم يطرأ عليه الموت فيموت ، ثم يبعثه الله ، ويُحييه حياة الآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ ﴾

بعد أن تكلم الفرقان وفرَق فى مسألة القمة والألوهية واتخاذ الولد والشركاء ، وبيَّن الإله الحق من الإله الباطل ، أراد سبحانه أنْ يتكلَّم عن الفرقان فى الرسالة ، فيحكى ما قاله الكفار عن القرآن ﴿ إنْ هَٰذَا .. (٤) ﴾ [الفرقان] يعنى : ما هذا - أى القرآن - الذى يقوله محمد ﴿إلاَّ إفْكٌ (٤) ﴾ [الفرقان] الإفك : تعمُّد الكذب الذى يقلب الحقائق ، وسبق أن قُلْنا : إن النسبة الكلامية إنْ وافقت الواقع فهى صِدْق ، وإنْ خالفتْه فهى كذب .

والإفْك قَلْب للواقع يجعل الموجود غير موجود ، وغير الموجود موجوداً ، كما جاء فى حادثة الإفك حين اتهموا عائشة أم المؤمنين بما يخالف الواقع ، فالواقع أن صفوان[1] أناخ لها ناقته حتى ركبت

(١) هو : صفوان بن المعطل بن رحضة السلمى الذكوانى ، أبو عمرو : صحابى ، شهد الخندق والمشاهد كلها ، وحضر فتح دمشق ، واستشهد بارمينية عام ١٩ هـ . [الأعلام للزركلى ٢٠٦/٣] .

دون أن ينظر إليها ، وهذا يدل على مُنْتهى العفَّة والصيانة ، وهُم بالإفك جعلوا الطُّهْر والعفة عُهْراً .

ومن العجيب أن هؤلاء الذين اتهموا القرآن بأنه إفك هم أنفسهم الذين قالوا عنه :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

فهم يعترفون بالقرآن ويشهدون له ، لكن يُتعبهم ويُنغِّص عليهم أن يُنزل على محمد بالذات ، فلو نزل ـ فرضاً ـ على غير محمد لآمنوا به .

ومن حُمْقهم أن يقولوا :﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

والمنطق أن يقولوا فاهْدنا إليه ، لكنه العناد والمكابرة .

وقوله : ﴿ افْتَرَاهُ .. (٤) ﴾ [الفرقان] أي : ادعاه ، وعجيب أمر هؤلاء ، يتهمون القرآن بأنه إفك مُفْترى ، فلماذا لا يفترون هم أيضاً مثله ، وهم أمة بلاغة وبيان ؟!

وفي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) ﴾ [النحل]

وقديماً قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً ، وإلا فكيف تتهمون محمداً أن رجلاً أعجمياً يُعلِّمه القرآن ، والقرآن عربي ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ .. (٤) ﴾ [الفرقان] الذي قال هذه المقولة هو النضر بن الحارث ، ولما قالها رددها بعده آخرون أمثال : عدَّاس ، ويسَّار ، وأبي فكيهة الرومي ، والقرآن يرد على كل هذه الاتهامات : ﴿ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) ﴾ [الفرقان] أي : حكموا به

والظلم هو : الحكم بغير الحق ، والزّور هو : عُدّة الحكم ودليله . والظلم يأتى بعد الزور ، لأن القاضى يستمع أولاً إلى الشهادة ، ثم يُرتّب عليها الحكم ، فإن كانت الشهادةُ شهادةَ زور كان الحكم حينئذ ظلماً .

لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول ﴿ ظُلْمًا وَزُورًا ④ ﴾ [الفرقان] وهذا دليل على أن الحكم جاء منهم مُسبقاً ، ثم التمسوا له دليلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ⑤ ﴾

الأساطير : جمع أسطورة ، مثل : أعاجيب جمع أعجوبة ، وأحاديث جمع أُحْدوثة ، والبكرة أول النهار ، والأصيل آخره ، والمعنى أنهم قالوا عن القرآن : إنه حكايات وأساطير السابقين ﴿اكْتَتَبَهَا .. ⑤﴾ [الفرقان] يعنى : أمر بكتابتها . وهذا من ترددهم واضطراب أقوالهم ، فالنبى ﷺ أمىٌّ لا يقرأ ولا يكتب ، وقولهم : ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ⑤﴾ [الفرقان] أى : باستمرار ليكرِّرها ويحفظها .

ويردُّ القرآن عليهم :

﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ⑥ ﴾

﴿ أَنزَلَهُ .. ⑥ ﴾ [الفرقان] أى : القرآن مرة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ﴿الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. ⑥﴾ [الفرقان] فلا تظن أنك بمجرد خَلْقك قدرْتَ أن تكشف أسرار الله فى

كونه ، إنما ستظل إلى قيام الساعة تقف على سر ، وتقف عند سر آخر .

لماذا ؟ لأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أن يبطل هذه المدعيات ، ويأتى بأشياء غيبية لم تكن تخطر على بال المعاصرين لمحمد ، ثم تتضح هذه الأشياء على مَرِّ القرون ، مع أن القرآن نزل فى أمة أمية ، والرسول الذى نزل عليه القرآن رجل أمى ، ومع ذلك يكشف لنا القرآن كل يوم عن آية جديدة من آيات الله .

كما قال سبحانه : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت]

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يكشف لرسوله ﷺ شيئاً من الغيبيات ، ليراها المعاصرون له ليلقم الكفارَ الذين اتهموه حجراً ، فيكشف بعض الأسرار كما حدث فى بدر حيث وقف النبى ﷺ فى ساحة المعركة بعد أن عرف أن مكة ألقتْ بفلذات أكبادها وسادتها فى المعركة ، وقف يشير بعصاه إلى مصارع الكفار ، ويقول « هذا مصرع أبى جهل ، وهذا مصرع عتبة بن ربيعة .. »[1] .. الخ يخطط على الأرض مصارع القوم .

ومَن الذى يستطيع أن يحكم مسبقاً فى معركة فيها كَرٌّ وفَرٌّ ، وضَرْب وانتقال وحركة ، ثم يقول : سيموت فلان فى هذا المكان .

والوليد بن المغيرة والذى قال عنه القرآن[2] ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩ ، ٢٥٨) من حديث أنس بن مالك . قال : فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ . قال النووى « فما ماط » أى فما تباعد .

(٢) قال ابن حجر فى الفتح (٨/٦٦٢) : « اختُلف فى الذى نزلت فيه ، فقيل هو الوليد بن المغيرة وذكره يحى بن سلام فى تفسيره . وقيل : الأسود بن عبد يغوث ذكره سنيد بن داود فى تفسيره . وقيل : الأخنس بن شُريق وذكره السهيلى عن القتيبى ، وحكى هذين القولين الطبرى » .

الْخُرْطُومِ (١٦)﴾ [القلم] يعنى : ستأتيه ضربة على أنفه تَسِمُه بسِمَة تلازمه ، وبعد المعركة يتفقده القوم فيجدونه كذلك .

هذه كلها أسرار من أسرار الكون يخبر بها الحق ـ تبارك وتعالى ـ رسوله ﷺ ، والرسول يخبر بها أمته فى غير مظنَّة العلم بها .

ومن ذلك ما يُروى من أن ابنتى رسول الله ﷺ قد تزوجتا من ولدين لأبى لهب ، فلما حدثت العداوة بينه وبين رسول الله أمر ولديْه بتطليق ابنتى رسول الله ، وبعدها رأى أحد الولدين رسول الله ماشياً ، فبصق ناحيته ، ورأى رسول الله ذلك فقال له : « أكلك كلب[1] من كلاب الله »[2]. فقال أبو لهب بعد أن علم بهذه الدعوة : أخاف على ولدى من دعوة محمد .

وعجيب أنْ يخاف هذا الكافر من دعوة رسول الله ، وهو الذى يتهمه بالسحر وبالكذب ويكفر به وبدعوته .

ولما خرج هذا الولد فى رحلة التجارة إلى الشام أوصى به القوم أن يحرسوه ، ويجعلوا حوله سياجاً من بضائعهم يحميه خشية أن تنفذ فيه دعوة محمد ، وهذا منه كلام غير منطقى ، فهو يعلم صدق النبى ﷺ وأنه مُرْسَل من عند الله ، لكن يمنعه من الإيمان حقده على رسول الله وتكبّره على الحق.

---

(١) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد ، قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح . وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير . [لسان العرب ـ مادة : كلب] . وانظر فتح البارى (٣٩/٤) .

(٢) وذلك أن عتيبة بن أبى لهب حين فارق أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ جاء النبى وقال : كفرت بدينك ، وفارقت ابنتك ، لا تحبنى ولا أحبك ، ثم تسلط على رسول الله ﷺ فشق قميصه ، فقال ﷺ : « أما إنى أسأل الله أن يسلط عليه كلبه » أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٣٣٨/٢ ، ٣٣٩) ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٩/٦) وعزاه للطبرانى مرسلاً وقال : « فيه زهير بن العلاء وهو ضعيف » وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٥٣٩/٢) من حديث أبى عقرب وصححه ، وحسَّنه ابن حجر فى الفتح (٣٩/٤) .

وخرج الولد في رحلة التجارة ورغم احتياطهم في حمايته هجم عليه سبع في إحدى الليالي واختطفه من بين أصحابه ، فتعجبوا لأن رسول الله قال « كلب من كلاب الله » وهذا أسد ليس كلباً . قال أهل العلم : ما دام أن رسول الله نسب الكلب إلى الله ، فكلب الله لا يكون إلا أسداً .

فالمعنى : قل يا محمد في الرد عليهم ولإبطال دعاواهم : ﴿ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان] وسوف يفضحكم ويُبطل افتراءكم على رسول الله من قولكم إفك وكذب وافتراء وأساطير الأولين ، وسوف يُخْزيكم أمام أعْين الناس جميعاً .

وعلى عهد رسول الله قامتْ معركة بين الفُرْس والروم غُلبت فيها الروم ، فحزن رسول الله لهزيمة الروم ؛ لأنهم أهل كتاب يؤمنون بالله وبالرسل ، أما الفرس فكانوا كفاراً لا يؤمنون بالله ويعبدون النار وغيرها . فمع أنهما يتفقان في تكذيبهم لرسول الله ، إلا أن إيمان الروم بالله جعل رسول الله يتعصب لهم مع أنهم كافرون به ، فعصبية رسول الله لا تكون إلا لربه عز وجل .

فلما حزن رسول الله لذلك أنزل الله تعالى عليه :﴿ الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ﴿٥﴾ ﴾ [الروم]

فأيُّ عقل يستطيع أنْ يحكم على معركة ستحدث بعد عدة سنوات ؟ لو أن المعركة ستحدث غداً لأمكن التنبؤ بنتيجتها ، بناءً على حساب العَدد والعُدة والإمكانات العسكرية ، لكن مَنْ يحكم على معركة ستدور رحاها بعد سبع سنين ؟ ومَنْ يجرؤ أن يقولها قرآناً يُتْلَى ويُتعبَّد به إلى يوم القيامة . فلو أن هذه المدة مرَّت ولم يحدث ما أخبر به رسول الله لكفَر به مَنْ آمن وانفضَّ عنه مَنْ حوله .

إذن : ما قالها رسول الله قرآناً يُتْلَى ويُتعبَّد به إلا وهو واثق من صدْق ما يخبر به ؛ لأن الذى يخبره ربه - عز وجل - الذى يعلم السرَّ فى السموات والأرض ؛ لذلك قال هنا الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان]

ومن العجيب أن ينتصر الروم على الفُرْس فى نفس اليوم الذى انتصر فيه الإيمان على الكفر فى غزوة بدر ، هذا اليوم الذى قال الله تعالى عنه :﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ ..﴿٥﴾ ﴾ [الروم]

وما دام أن الذى أنزل القرآن هو سبحانه الذى يعلم السِّر فى السماوات والأرض ، فلن يحدث تضارب أبداً بين منطوق القرآن ومنطوق الأكوان ؛ لأن خالقهما واحد - سبحانه وتعالى - فمن أين يأتى الاختلاف أو التضارب ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴿٦﴾ ﴾ [الفرقان] فما مناسبة الحديث عن المغفرة والرحمة هنا ؟ قالوا : لأن الله - تبارك وتعالى - يريد أن يترك لهؤلاء القوم الذين يقرعهم مجالاً للتوبة وطريقاً للعودة إليه - عز وجل - وإلى ساحة الإيمان .

لذلك يقول النبى ﷺ لمن أشار عليه بقتل الكفار : « لعلَّ الله يُخرِج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً »(١)

وكان الصحابة يألمون أشد الألم إنْ أفلتَ أحد رءوس الكفر من

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٢٣١ ، ٧٣٨٩) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٩٥) من حديث عائشة رضى الله عنها أن جبريل عليه السلام قال للنبى ﷺ : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليه ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فنادانى ملك الجبال فسلم علىّ ثم قال : يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال ﷺ : « بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به » .

القتل في المعركة ، كما حدث مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص قبل إسلامهما ، وهم لا يدرون أن الله تعالى كان يدّخرهم للإسلام فيما بعد .

فقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ ﴾ [الفرقان] حتى لا يقطع سبيل العودة إلى الإيمان بمحمد على مَنْ كان كافراً به ، فيقول لهم : على رغم ما حدث منكم . إنْ عُدْتم إلى الجادة وإلى حظيرة الإيمان ففي انتظاركم مغفرة الله ورحمته .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يُبيِّن لنا هذه المسألة حتى في النزوع العاطفي عند الخَلْق ، فهند بنت عتبة[١] التي أغرتْ وَحْشياً[٢] بقتل حمزة عم رسول الله وأسد الله وأسد رسوله ، ولم تكتف بهذا ، بل مثَّلتْ به بعد مقتله ، ولاكَتْ[٣] كبده رضي الله عنه ، ومع ذلك بعد أنْ أسلمتْ وبايعتْ النبي ﷺ نُسيت لها هذه الفعلة وكأنها لم تكُنْ .

ولما قال أحدهم لعمر بن الخطاب : هذا قاتل أخيك (يشير إليه) والمراد زيد بن الخطاب[٤] ، فما كان من عمر إلا أن قال : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟

---

(١) هي : هند بنت عتبة بن ربيعة القرشية ، والدة معاوية بن أبي سفيان ، شهدت أحداً في جانب المشركين وفعلت ما فعلت بحمزة ، وقد أسلمت يوم الفتح ، ماتت في خلافة عثمان . (الإصابة في تمييز الصحابة ٢٠٦/٨) .

(٢) هو : وحشي بن حرب الحبشي مولى بني نوفل ، وهو قاتل حمزة عم رسول الله ﷺ قتله يوم أحد ، وقد أمره النبي ﷺ أن يغيب وجهه عنه ، وقد شارك في حروب الردة في قتل مسيلمة وقد شهد موقعة اليرموك ثم سكن حمص ومات بها ، وقد عاش إلى خلافة عثمان . (الإصابة ترجمة ٩١١٠) .

(٣) لاك : مضغ . وهو مضغ الشيء الصلب تديره في فمك . واللوْكُ : إدارة الشيء في الفم . [لسان العرب ـ مادة : لوك] .

(٤) هو : زيد بن الخطاب بن نفيل العدوي ، أخو عمر بن الخطاب لأبيه ، أمه أسماء بنت وهب من بني أسد ، أما أم عمر فهي حنتمة بنت هاشم المخزومية ، وكان زيد أكبر سناً من عمر وأسلم قبله وشهد بدراً والمشاهد واستشهد باليمامة . [تمييز الصحابة ٢٧/٣] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ⟨٧⟩ ﴾

عجيب أمر هؤلاء المعاندين : يعترضون على رسول الله أنْ يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق لكسْب العيش ، فهل سبق لهم أنْ رأَوْا نبياً لا يأكل الطعام ، ولا يمشى فى الأسواق ؟ ولو أن الأمر كذلك لكان لاعتراضهم معنى ، إذن : قولهم ﴿ مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ .. ⟨٧⟩ ﴾ [الفرقان] قولٌ بلا حجة من الواقع ، ليستدركوا بهذه المسألة على رسول الله .

فماذا يريدون ؟

قالوا : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ⟨٧⟩ ﴾ [الفرقان] صحيح أن الملك لا يأكل ، لكن معنى ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ .. ⟨٧⟩ ﴾ [الفرقان] يعنى : يسانده ، وفى هذه الحالة لن يُغيِّر من الأمر شيئاً ، وسيظل كلام محمد هو هو لا يتغير . إذنَ : لن يضيف الملك جديداً إلى الرسالة .. وعليه ، فكلامهم هذا سفسطة وجَدَلٌ لا معنى له .

وكلمة ﴿ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ⟨٧⟩ ﴾ [الفرقان] لم يقولوا بشيراً ، مما يدل على اللدَد واللجاج ، وأنهم لن يؤمنوا ؛ لذلك لن يفارقهم الإنذار .

﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ⟨٨⟩ ﴾

تلحظ أنهم يتنزلون فى لَدَدهم وجَدَلهم ، فبعد أنْ طلبوا ملَكاً يقولون ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ ⟨٨⟩﴾ [الفرقان] أى : ينزل عليه ليعيش منه ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ⟨٨⟩﴾ [الفرقان] أى : بستان ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ⟨٨⟩﴾ [الفرقان]

والمسحور هو الذى ذهب السِّحْر بعقله ، والعقل هو الذى يختار بين البدائل ويُرتِّب التصرُّفات ، ففاقد العقل لا يمكن أن يكونَ منطقياً فى تصرفاته ولا فى كلامه ، ومحمد ﷺ ليس كذلك ، فأنتم تعرفون خُلقه وأمانته ، وتُسمُّونه « الصادق الأمين » وتعترفون بسلامة تصرفاته وحكمته ، كيف تقولون عنه مجنون ؟

لذلك يقول تعالى ردّاً عليهم :﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ⟨١⟩ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ⟨٢⟩ وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ⟨٣⟩ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ⟨٤⟩﴾ [القلم]

والخُلُق يسوى تصرُّفات الإنسان فيجعلها مُسْعدة غير مفسدة ، فكيف - إذن - يكون ذو الخُلق مجنوناً ؟ إذن : ليس محمد مسحوراً .

وفى موضع آخر قالوا : ساحر ، وعلى فرض أنه ﷺ ساحر ، فلماذا لم يسحركم كما سَحَر المؤمنين به ؟ إنه لَجَج الباطل وتخبّطه واضطرابه فى المجابهة . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ⟨٩⟩ ﴾

﴿ انظُرْ ..⟨٩⟩﴾ [الفرقان] خطاب لإيناس رسول الله وتطمينه ﴿كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ ..⟨٩⟩﴾ [الفرقان] أى : اتهموك بشتّى التهم فقالوا ساحر . وقالوا : مسحور . وقالوا : شاعر . وقالوا : كاهن ﴿ فَضَلُّوا

﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ۝٩﴾ [الفرقان] لأنهم يقولون كذباً وهُرَاءً وتناقضاً فى القول .

﴿فَضَلُّوا..۝٩﴾ [الفرقان] أى : عن المثل الذى يصدُق فيك ليصرف عنك المؤمنين بك ، ويجعل الذين لم يؤمنوا يُصرُّون على كفرهم ، فلم يصادفوا ولو مثلاً واحداً ، فقالوا : ساحر وكذبوا وقالوا : مسحور وكذبوا ﴿فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ۝٩﴾ [الفرقان] أى : إلى ذلك .

ثم يقول الحق سبحانه[1]:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ۝١٠﴾

﴿تَبَارَكَ ..۝١٠﴾ [الفرقان] كما قلنا : تنزَّه وعَظُم خيره ؛ لأن الكلام هنا أيضاً فيه عطاء مُتمثِّل فى الخير الذى ساقه الله تعالى لرسوله ﷺ ، فعطاؤه سبحانه دائم لا ينقطع ، بحيث لا يقف خير عند عطائه ، بل يظل عطاؤه خيراً موصولاً ، فإذا أعطاك اليوم عرفتَ أن ما عنده فى الغد خير مما أعطاك بالأمس .

---

(١) سبب نزول الآية : قال ابن عباس : لما عيَّر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة قالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق حزن رسول الله ﷺ فنزل جبريل من عند ربه معزياً له ، فقال : السلام عليك يا رسول الله ، رب العزة يقرئك السلام ويقول لك : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ .. ۝٢٠﴾ [الفرقان] وقال جبريل : أبشر يا محمد ، هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك ، فاقبل رضوان حتى سلم ثم قال : يا محمد رب العزة يقرئك السلام ، ومعه سفط من نور يتلألأ ويقول لك ربك : هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع ما لا ينتقص لك مما عنده فى الآخرة مثل جناح بعوضة ، فقال : يا رضوان ، لا حاجة لى فيها ، الفقر أحب إلىَّ وأن أكون عبداً صابراً شكوراً . بتصرف واختصار [من أسباب النزول للواحدى النيسابورى ص ١٩٠ ، ١٩١] ، و [تفسير القرطبى ٦/٤٨٦٩] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) ﴾

يُضرب السياق عن الكلام السابق ، ويعود إلى مسألة تكذيبهم وعدم الإيمان بمحمد ﷺ ؛ لأن الإيمان ليس فى مصلحتهم ، فالإيمان يقتضى حساباً وجزاءً ، وهم يريدون التمادى فى باطلهم والاستمرار فى لَغْوهم واستهتارهم ومعاصيهم ؛ لذلك يُكذِّبون أنفسهم ويخدعونها ليظلوا على ما هم عليه .

ولذلك ترى الذين يُسرفون على أنفسهم فى الدنيا من الماديين والملاحدة والفلاسفة يتمنون أنْ تكون قضية الدين قضيةً فاسدة كاذبة ، فينكرونها بكل ما لديْهم من قوة ، فالدين عندهم أمر غير معقول ؛ لأنهم لو أقروا به فمصيبتهم كبيرة .

ومعنى : ﴿ أَعْتَدْنَا.. (١١) ﴾ [الفرقان] هيّأنا وأعددْنا لهم سعيراً ؛ لأن عدم إيمانهم بالساعة هو الذى جَرَّ عليهم العذاب ، ولو أنهم آمنوا بها وبلقاء الله وبالحساب وبالجزاء لاهتدَوْا ، واعتدلوا على الجادة ، ولَنجَوْا من هذا السعير .

والسعير : اسم للنار المسعورة التى تلتهم كل ما أمامها ، كما نقول : كَلْب مسعور ، ثم يقول سبحانه فى وصفها :

﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) ﴾

يريد الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن يُشخِّص لنا النار ، فهى ترى أهلها من بعيد ، وتتحرّش بهم تريد من غَيْظها أنْ تَثِبَ عليهم قبل أنْ يصلوا إليها .

والتغيُّظ : ألم وجدانى فى النفس يجعل الإنسان يضيق بما يجد ،

ومن ذلك نسمع مَنْ يقول : (أنا ح أطق من جنابى) ، يعنى : نتيجة ما بداخله من الغيظ لا يتسع له جوفه ، وما دام الغيظ فوق تحمُّل النفس وسعَتها فلا بُدَّ أن يشعر الإنسان بالضيق ، وأنه يكاد ينفجر .

لذلك يقول تعالى عن النار فى موضع آخر :﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ⟨٨⟩ ﴾[الملك] تميّز يعنى : تكاد أبعاضها تنفصل بعضها عن بعض .

لكن ، لماذا تميَّز النار من الغيظ ؟ قالوا : لأن الكون كله مُسبِّح لله حامد شاكر لربه ؛ لذلك يُسَرُّ بالطائع ويحبه ، ويكره العاصى ، ألاَ ترى أن الوجود كله قد فرح لمولد النبى ﷺ ، فرح لمولده الجمادُ والنباتُ والحيوانُ واستبشر ، لأنه ﷺ جاء ليعيد للإنسان انسجامه مع الكون المخلوق له ، ويعدل الميزان .

ومع ذلك نرى من البشر العقلاء أصحاب الاختيار مَنْ يكفر ، لذلك تغتاظ النار من هؤلاء الذين شذُّوا عن منظومة التسبيح والتحميد ورَضُوا لأنفسهم أن يكونوا أدْنى من الجماد والنبات والحيوان ، ومن ذلك يقولون : نَبَا بهم المكان من كفرهم ، يعنى الأماكن من الأرض تُنكرهم وتتضايق من وجودهم عليها ، كما تفرح الأرض بالطائع وتحييه ؛ لأنه منسجم معها ، المكان والمكين ينتظمان فى منظومة التسبيح والطاعة .

لذلك يُنبِّهنا إلى هذه المسألة الإمام على ـ رضى الله عنه ـ فيقول : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض . أما فى الأرض فموضع مُصلاَّه ؛ لأنه حُرِم من صلاته ، وأما موضعه فى السماء فمصعد عمله الطيب[(١)].

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/١٤٢) وعزاه لابن أبى حاتم أن علياً قال : « إنه ليس من عبد إلا له مصلى فى الأرض ومصعد عمله من السماء ، وإن آل فرعون لم يكن لهم عمل صالح فى الأرض ولا عمل يصعد فى السماء » . وعن أنس بن مالك عن النبى ﷺ قال : « ما من عبد إلا وله فى السماء بابان : باب يخرج منه رزقه ، وباب يدخل منه عمله وكلامه ، فإذا مات فقداه وبكيا عليه » قال الهيثمى فى المجمع « رواه أبو يعلى ، وفيه موسى بن عبيدة الربذى ، وهو ضعيف » .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يُظهر لنا هذه الصورة فى قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق]

فالنار تتشوّق لأهلها كالذى يأكل ولا يشبع ، فمهما أُلْقِى فيها من العصاة تقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [ق]

ومعنى ﴿ زَفِيراً.. ﴿١٢﴾ ﴾ [الفرقان] النفَس الخارج . وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ ﴾[الملك] فذكر أن لها شهيقاً وزفيراً ، وهى فى المكان الضيق .

﴿ وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا[1] مُّقَرَّنِينَ[2] دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ ﴾

فجمع الله عليهم من العذاب ألواناً حتى يقول الواحد منهم لمجرد أن يرى العذاب :﴿ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾ ﴾[النبأ] وهنا يدعو بالويل والثبور ، يقول : يا ويلاه يا ثبوراه يعنى : يا هلاكى تعالَ احضر ، فهذا أوانك لتُخلِّصنى مما أنا فيه من العذاب ، فلن يُنجينى من العذاب إلا الهلاك ؛ لذلك يقولون : أشدّ من الموت الذى يطلب الموت على حدِّ قول الشاعر :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى المَوْتَ شَافِياً وَحَسْبُ المنَايَا أَنْ يكُنَّ أَمَانيَا[3]

ولك أن تتصور بشاعة العذاب الذى يجعل صاحبه يتمنى الموت ، ويدعو به لنفسه .

---

(١) قال عبد الله بن مسعود : إن جهنم لتضيق على الكافر كتضييق الزج على الرمح . ذكره ابن المبارك فى رقائقه (٢٩٩ ـ زوائد الزهد) وأورده القرطبى فى تفسيره (٤٨٧١/٦) .

(٢) مقرنين : مُكتَّفين . قاله أبو صالح . وقيل : مصفَّدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم فى الأغلال . وقيل : قُرِنوا مع الشياطين ، أى : قُرِن كل واحد منهم إلى شيطانه . [أورد هذه الأقوال القرطبى فى تفسيره (٤٨٧١/٦)] .

(٣) البيت للمتنبى (ديوانه ٢٨١/٤) وذكره شهاب الدين محمود الحلبى فى « صناعة الترسل » (ص ٢٥٢) فى شواهد حُسْن الابتداءات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾

يُوبِّخهم الحق - سبحانه وتعالى - ويُبكِّتهم : يا خيبتكم ويا ضياعكم ، لن ينفعكم أنْ تدعوا ثُبوراً واحداً ، بل ادعوا ثُبوراً وثبوراً وثبوراً ؛ لأنها مسألة لن تنتهي ، فسوف يُسْلمكم العذاب إلى عذاب ، حتى ينادوا : ﴿ يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الزخرف] وهو عذاب متجدد : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل ليكون ذلك أنْكَى لأهل الشر وأغْيظ لهم ، فيذكر بعد العذاب الثوابَ على الخير وعظَم الجزاء على الطاعة ، ومثل هذه المقابلات كثيرة في كتاب الله ، كما في قوله تعالى :﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]

ويقول سبحانه : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [التوبة]

وهنا بعد أنْ ذكر النار وما لها من شهيق وزفير ، يقول سبحانه :

﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ قُلْ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفرقان] أمْر لرسول الله بأن يقول ، والمقول له هم الذين اعترضوا على نبوته ﷺ باعتراضات واهية من المعاصرين له ،

وكانوا يتخبّطون فى هذه المسائل تخبُّط مَنْ لا يعرف فيها حقيقة ، وإنما غرضه فقط أنْ يتعرّض لرسول الله فى أمر دعوته ، والتعرُّض لأىِّ نبيٍّ فى أمر دعوته من المعاصرين له أمر طبيعى ؛ لأن الرسل إنما يجيئون حين يستشرى الفساد .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ جعل فى كل نفس ملكةً تجعل الإنسان يفعل شيئاً ، ثم تأتى ملكة أخرى فيه لتلومه على ذلك ، حينئذ تكون المناعة فى ذات الإنسان ويُسمُّونها النفس اللوّامة ، لكن قد تنطمس فيه هذه الملكة ، فتتعاون كل ملكاته على الشر ، بحيث تكون النفس بكل ملكاتها أمّارة بالسوء ، وهى أمّارة بصيغة المبالغة لا آمرة أى : أنها أخذتْ هذا الأمر حِرْفةً لها .

كما لو رأيت رجلاً يَنْجُر فى قطعة من الخشب تقول له : ناجر ، فإنِ اتخذها حرفةً له ، لا يعمل إلا هى ، تقول له : نجار ، ومثله : خائط وخيّاط . فالمعنى : أمّارة يعنى : لم يَعُدْ لها عمل فى أن تردع عن الشر ، بل دائماً تُقوِّى نوازع الشر فى النفس ، وتتأصل فيها حتى تصير لها حرفة .

فماذا يكون الموقف إذن ؟

لا بُدَّ أنْ يجعل الحق سبحانه فى نفوس قوم آخرين ملَكة الخير ليواجهوا أصحاب هذه الأنفس الأمّارة بالسوء ، يواجهونهم بالنصح والإرشاد والموعظة ، ويصرفونهم عن الشر إلى الخير . فإذا ما فسد المجتمع كله ، لا نفسٌ مانعة ، ولا مجتمعٌ مانع ، فلا بُدَّ أنْ تتدخّل السماء برسول جديد .

ومن رحمة الله بالعالم أنه سبحانه ضمن لأمة محمد ﷺ أن تكون فيها النفس اللوامة ، وضمن لها أنْ يظل مجتمعها آمراً بالمعروف ،

ناهياً عن المنكر ؛ لـذلك لا حاجةَ لرسول بعـد رسول الله ﷺ . إذن : فالمناعة موجودة فى أمـة الإسلام ، ولو لم تكُنْ هذه المناعة موجودة فى النفس أولاً ، وفى المجـتمع ثانياً لتـدخلتْ السماء بعـد رسول الله برسول جديد ومعجزة جديدة ليعيد الخَلْق إلى رُشْدهم .

ولا شكَّ أن فى المجتمع طائفةً تنتفع بهذا الفساد ، ويعيشون فى ترف فى ظله ، فطبيعى ـ إذن ـ أنْ يدافعوا عنه ، وطبيعى أنْ يتصدَّوْا لدعـوة الرسول التى جـاءتْ لتعـدل ميزان الـمجتـمع ، وأنْ يقفـوا له بالمرصاد ؛ لأنه يهدِّد هذه النفعية ويقضى على مصلحتهم .

وإنْ كان الرسل السـابقون قد تعرَّضـوا لمثل هذا الاضطهاد ، فـقد تعرَّض رسول الله ﷺ لأضعاف مـا تعرَّضوا له ؛ لأن اضطهاده ﷺ جاء مناسباً لضـخامة مهمتـه ، فقد جاءتْ الرسل قبله ، كُلٌّ إلى أمتـه خاصة فى زمن محـدد ، أمّا رسـالته ﷺ فقـد جاءت للناس كـافة ، تعمُّ كل الزمان وكل المكان إلى أن تقوم الساعة ، فـلا بُدَّ إذن أن تكون مهمته أصعب .

وهؤلاء الكبـراء الذين ينتفـعون بالفـساد فى المـجتـمع يظنون أن رسـول الله إذا لُوِّح له بالمـال والنعـيم يمكن أن يتنازل عن دعـوته ، ويتـرك لهم الساحـة ؛ لذلك اجتـمع صناديد قريش علـى رسول الله ، يُلوِّحون له بالمـال والجاه والسلطان ، ليصدُّوه عن الدعـوة ويصرفوه عنهـا ، هؤلاء الذين سمـاهم أستـاذنا الشيخ مـوسى : دستـة الشر ، وكـانوا اثنا عـشـر رجـلاً ، مـنهم : أبو البـخـتـري(١) ، وأبو جـهل ، وأبو سـفيـان ، والأسود بن المطلب ، وأمـية بن خلف ، والعـاص بن وائل ، وعتبـة بن ربيعة ، ومُنبِّه بـن الحجاج ، والوليد بن المـغيرة ،

---

(١) أبو البختـرى : اسمه العاص بن هشـام بن الحارث . قاله ابن إسحـاق . وقال ابن هشام : هو العاص بن هاشم . [السيرة النبوية ١/٢٦٤] .

والنضر بن الحارث ، وشيبة بن ربيعة ، ونُبيه بن الحجاج[1] .

لقد ذهب هؤلاء[2] إلى سيدنا رسول الله يقولون : « نحن وفد قومك إليك ، جئنا لنقدِّم المعذرة حتى لا يلومنا أحد بعد ذلك ، فإنْ كنتَ تريد مالاً جمعنا لك الأموال ، وإنْ كنتَ تريد شرفاً سوَّدناك علينا ، وإن كنت تريد مُلْكاً ملّكناكَ علينا » .

وفَرْق بين المال والشرف : المال أن يكون الإنسان غنياً ، لكن ربما لا شرفَ له ، ولا مكانةَ بين الناس ، وهناك مَنْ له شرف وسيادة ، وليس له مال .

ونلحظ أنهم ارتقوا في مساومة رسول الله من المال إلى الشرف والسيادة ، ثم إلى المُلْك . فماذا كان موقفه ﷺ ؟ كان موقفه هو الموقف الذي مهَّد الله له به ، حينما عرض عليه جبريل عليه السلام أن يجعل الله له جبال مكة ذهباً ، فقال ﷺ : « بل أشبع يوماً فأشكر ، وأجوع ثلاثة أيام فأتضرع »[3] .

---

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (١/٢٦٤) أنهم تسعة نفر ، واستثنى ممن ذكرهم الشيخ : أمية بن خلف ، النضر بن الحارث .

هذا الوفد ذهبوا إلى أبي طالب وقالوا : يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا ، وضلَّل آباءنا ، فإما أن تكفّه عنا ، وإما أن تخلّي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه ، فنكفيكه فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً ، وردهم رداً جميلاً ، فانصرفوا عنه ، ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (١/٢٦٥) وانظر موقفاً آخر (١/٢٩٥) .

(٢) هو : الوليد بن المغيرة في واقعة أخرى أنه قال لرسول الله ﷺ : يا بن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سوَّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به مُلْكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه . [سيرة ابن هشام ١/٢٩٣ ، ٢٩٤] باختصار .

(٣) عن أبي أمامة قال النبي ﷺ : « عرض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً ، قلت : لا يا رب ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً وقال ثلاثاً أو نحو هذا ، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك . أخرجه الترمذي في سننه (٢٣٤٧) ، وأحمد في مسنده (٥/٢٥٤) . قال الترمذي : حديث حسن .

وفى موقف آخر ، قال له جبريل : يُخيِّرك ربك أن تكون نبياً ملكاً ، أو نبياً عبداً ؟ فقال : « بل نبياً عبداً »[1]

والنبى مالك منهج السماء ، والملك الذى يملك السيطرة بحيث لا يستطيع أحد أن يقف فى وجهه ، مثل سليمان عليه السلام ، حيث آتاه الله مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، ومع ذلك لم يكن هذا الملْك هو المطلوب فى ذاته ، بدليل أن سليمان ـ عليه السلام ـ مع ما أوتيه من الملْك كان لا يأكل إلا الخوشكار يعنى : الخبز الأسمر غير النقى (الردَّة) فى حين يأكل عبيده ومواليه الدقيق الفاخر النقى[2]، فلم يكن سليمان يريد الملْك لذاته ، إنما ليقْوَى به على دعوته ، فلا يعارضه فيها أحد .

لذلك ، لما أرسلتْ إليه ملكة سبأ بهدية لتستميله بها وتَصرْفه عما يريد رَدّ عليها : ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦)﴾ [النمل]

لذلك جاءته صاغرة تقول :﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل]

إذن : مسألة المال هذه عُرِضَتْ على رسول الله قبل أن يقترحها كفار مكة ، فإذا كان ﷺ قد رفضه ممَّنْ يملكه ، فكيف يقبله ممَّنْ لا يملك شيئاً ؟ لذلك قال لهم : والله ما بى حاجة إلى ما تقولون ،

---

(١) أخرجه ابن المبارك فى الزهد (ص ٢٦٥) ، والطبرانى فى المعجم الكبير (١٠٦٨٦) ، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٠/٩) : « فيه بقية بن الوليد وهو مدلس » . وعزاه للطبرانى فى الأوسط وقال (٣١٥/١٠) : « فيه سعدان بن الوليد ولم أعرفه ، وبقية رجاله رجال الصحيح » .

(٢) أخرج أحمد فى الزهد (ص ١٤١ طبعة دار الكتاب العربى ـ بيروت) عن عطاء رضى الله عنه قال : كان سليمان عليه السلام يعمل الخوص بيده ، ويأكل خبز الشعير ، ويطعم بنى إسرائيل الحوارى . وأورده السيوطى فى الدر المنثور (١٨٩/٧) فى تفسير آية ٣٥ ـ سورة ص . والحوارى هو الدقيق الأبيض النقى .

فلست طالب مال ، ولا مُلْك ، ولا شرف ، إنما أنا رسول الله أُرسلْتُ إليكم ، ومعى كتاب فيه منهجكم ، وأمرنى ربى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فإنْ جئتم على ما أحب فقد ضمنتم حظّ الدنيا والآخرة ، وإنْ رددتُمْ عليّ قولى فإننى سأصبر إلى أن يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين(١) .

فلجئوا إلى عم النبى ﷺ ، لعله يستطيع أن يستميله ، فلما كلَّمه عمه قال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركتُه حتى يُظهِره الله أو أهلك دونه »(٢)

﴿ أَذَٰلِكَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الفرقان] أى : ما أنتم فيه الآن من العذاب خير ، أم جنة الخلد التى وُعد المتقون ؟ احكموا أنتم فى هذه المسألة وسنرضى بحكمكم ، إنَها إغاظة لأهل النار ، حيث جمع الله عليهم مقاساة العذاب مع النظر إلى أهل الجنة وما هم فيه من النعيم ، ولو كانت الأولى وحدها لكانت كافية ، إنما هو فى العذاب ويأتيه أهل الجنة ليُبكّتوه : انظر ما فاتك من النعيم !!

وفيها أيضاً تقريع لهم ، فليس هناك وجه للمقارنة بين الجنة والنار ، فأنت مثلاً لا تقول : العسل خير أم الخل ؛ لأنه أمر معروف بداهة .

وسبق أنْ تكلّمنا عن الصراط ، ولماذا ضُرِب على مَتْن جهنم ، والجميع يمرون عليه ؛ لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يجعل لك

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية بنحو هذا (١/٢٩٦) .
(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٦٦) معزواً لابن إسحاق ، أن قريشاً قالوا لأبى طالب : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين . فقال رسول الله ﷺ لعمه أبى طالب هذه المقالة .

من مرائى النار التى تمرُّ عليها فوق الصراط نعمة أخرى تُذكِّرك بالنجاة من النار قبل أنْ تباشر نعيم الجنة .

لذلك لا يمتن الله علينا بدخول الجنة فحسب ، إنما أيضاً بالنجاة من النار ، فيقول سبحانه : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ..﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران]

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يذكر لنا النار ، وأن من صفاتها كذا وكذا ، أما فى الآخرة فسوف نراها رأى العين ، كما قال سبحانه : ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾[التكاثر] وذلك حين تكون على الصراط ، فتحمد الله على الإسلام الذى أنجاك من النار ، وأدخلك الجنة ، فكل نعمة منها أعظم من الأخرى .

وفى قوله تعالى : ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ..﴿١٥﴾﴾[الفرقان] كلمة خير فى اللغة تدور على معنيين : خير يقابله شَرٌّ ، وخير يقابله خير أعظم منه . كما جاء فى الحديث الشريف : « المؤمن القوى خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كُلٍّ خير »[1] فكلاهما فيه خير ، وإن زاد الخير فى المؤمن القوى ، وعادة ما تأتى (من) فى هذا الأسلوب : هذا خير من هذا .

أما الخير الذى يقابله شر ، فمثل قوله تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة]

والجنة كما نستعملها فى استعمالات الدنيا : هى المكان المليء بالأشجار والمزروعات التى تستر السائر فيها ، أو تستر صاحبها أنْ ينتقلَ منها إلى خارجها ؛ لأن بها كل متطلبات حياته ، بحيث يستغنى بها عن غيرها ، لذلك أردفها الحق ـ تبارك وتعالى ـ بقوله : ﴿الْخُلْدِ ..﴿١٥﴾﴾ [الفرقان]

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (٣٦٦/٢ ، ٣٧٠) ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

إذن : فالجنة التى تراها فى الدنيا مهما بلغت فليست هى جنة الخلد ؛ لأنها لابد إلى زوال ، فعُمرها من عُمْر دُنْياها ، كأنه سبحانه يقول لكل صاحب جنة فى الدنيا : لا تغترْ بجنتك ؛ لأنها ستؤول إلى زوال ، وأشدّ الغم لصاحب السرور أنْ يتيقن زواله ، كما قال الشاعر :

أَشَدُّ الغَمِّ عِنْدى فِى سُرُورٍ تَيقَّنَ عَنْهُ صَاحِبُه انْتِقَالاَ

لذلك يُطمئن الله تعالى عباده المؤمنين بأن الجنة التى وعدهم بها هى جنة الخلد والبقاء ، حيث لا يفنى نعيمها ، ولا يُنغِّص سرورها ، فلذَّاتها دائمة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة .

وقوله تعالى : ﴿ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۝١٥ ﴾ [الفرقان] الوعد هنا من الله تعالى الذى يملك كل أسباب الوفاء ، والوَعْد بشارة بخير قبل مجيئه لتستعد لأن تكون من أهله ، ويقابله الإنذار ، وهو التهديد بشرٍّ قبل مجيئه لتتلافاه ، وتجتنب أسباب الوقوع فيه .

وكلمة (مُتَّقٍ) الأصل فيها مَنْ جعل بينه وبين الشر وقاية ، كما يقول سبحانه : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ۝٢٤ ﴾ [البقرة] يعنى : اجعلوا بينكم وبينها وقاية .

ومن العجيب أن يقول سبحانه : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ ۝١٩٤ ﴾ [البقرة] ويقول ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ ۝٢٤ ﴾ [البقرة] والمعنى : اجعلوا بينكم وبين صفات جلاله القهرية وقايةً ؛ لأنكم لا تتحمّلون صفات قَهْره ، والنار جُنْد من جنود الله فى صفات جلاله ، فكأنه تعالى قال : اتقوا جنود صفات الجلال من الله .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً.. ۝١٥ ﴾ [الفرقان] أى : جزاءً لما قدَّموا ، وهذا المعنى واضح فى قوله تعالى : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝٢٤ ﴾ [الحاقة] فهذا تعليلُ ما هم فيه من النعيم : أنهم كثيراً ما تَعبُوا ، واضطهدوا وعُذِّبوا ، وجزاء من عُذِّب فى ديننا أن نُسعده الآن فى الآخرة .

﴿ وَمَصِيراً ﴿١٥﴾ ﴾ [الفرقان] أى : يصيرون إليه ، إذن : لا تنظر إلى ما أنت فيه الآن ، لكن انظر إلى ما تصير إليه حَتْماً ، وتأمل وجودك فى الدنيا ، وأنه موقوت مظنون ، ووجودك فى الآخرة وأنه باقٍ دائم لا ينتهى ، لذلك يقولون : إياك أنْ تدخل مدخلاً لا تعرف كيفية الخروج منه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٦﴾ ﴾

فى الآية السابقة قال سبحانه : ﴿ جَنَّةُ الْخُلْدِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [الفرقان] وهنا يقول ﴿ خَالِدِينَ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الفرقان] وهذه من المواضع التى يرى فيها السطحيون تكراراً فى كلام الله ، مع أن الفرق واضح بينهما ، فالخُلْد الأول للجنة ، أما الثانى فلأهلها ، بحيث لا تزول عنهمُ ولا يزولون هم عنها .

وقوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الفرقان] كأن امتياز الجنة أن يكون للذى دخلها ما يشاء ، وفى هذه المسألة بَحْث يجب أن نتنبه إليه ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : إذا دخلتَ الجنة فلك فيها ما تشاء . إذن : لك فيها مشيئة من النعيم ، ولا تشاء إلا ما تعرف من النعيم المحدود ، أما الجنة ففيها ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وهذا الوعد لا يتحقق للمؤمن إلا فى الجنة ، أما فى الدنيا فلا أحدَ ينال كل ما يشاء ـ حتى الأنبياء ـ ألاَ ترى أن نوحاً عليه السلام طلب من ربه نجاة ولده . فقال : ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [هود] فلم يُجَبْ إلى ما يشاء .

ومحمد ﷺ ـ رغم كل المحاولات ـ لم يتمكن من هداية عمه أبى طالب ، وهذا لا يكون إلا فى الدنيا ، لذلك فاعلم أن الله تعالى حين يحجب عنك ما تشاء فى الدنيا إنما ليدخره لك كما يشاء فى الآخرة ، مع أن الكثيرين يظنون هذا حرماناً ، وحاشا لله تعالى أن يحرم عبده .

وفى قوله : ﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (١٦) ﴾ [الفرقان] عطاءات أخرى ، لكن ربك يعطيك على قَدْر معرفتك بالنعيم ، ويجعل عليك (كنترولاً) فأنت تطلب وربُّكَ يعطيك ، ويدخر لك ما هو أفضل مما أعطاك .

والمشيئة فى الأخرى ستكون بنفسيات وملكات أخرى غير نفسيات وملكات مشيئات الدنيا ، إنها فى الآخرة نفوس صفائية خالصة لا تشتهى غير الخير ، على خلاف ما نرى فى الدنيا من ملكات تشتهى السوء ، لأن الملكات هنا محكومة بحكم الجبر فى أشياء والاختيار فى أشياء : الجبر فى الأشياء التى لا تستطيع أن تتزحزح عنها كالمرض والموت مثلاً ، أما الاختيار ففى المسائل الأخرى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولاً (١٦) ﴾ [الفرقان] الوعد ـ كما قلنا ـ البشارة بخير قبل أوانه . وبعض العلماء يرى أن وعداً هنا بمعنى حق ، لكن هل لأحد حق عند الله ؟

وفى موضع آخر يُسمِّيه تعالى جزاءً ، فهل هو وعد أم جزاء ؟ نقول : حينما شرع الحق سبحانه الوعد صار جزاءً ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يرجع فى وعده ، ولا يحول شيء دون تحقيقه .

وكلمة ﴿ مَّسْئُولاً (١٦) ﴾ [الفرقان] مَن السائل هنا ؟ قالوا : الله تعالى علَّمنا أن نسأله ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ .. (١٩٤) ﴾ [آل عمران] فقد سألناها نحن .

وكذلك سألتها الملائكة ، كما جاء في قوله سبحانه على لسان الملائكة : ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ .. ⑧﴾ [غافر]

فالجنة - إذن - مسئولة من أصحاب الشأن ، ومسئولة من الملائكة الذين يستغفرون لنا[1].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ⑰﴾

قوله : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ .. ⑰﴾ [الفرقان] الحشر : جَمْع الناس أجمعين من لَدُنْ آدم - عليه السلام - وإلى أنْ تقومَ الساعة في مكان واحد ، ولغاية واحدة ، وإذا كنا الآن نضجّ من الزحام ونشكو من ضيق الأرض بأهلها ، ونحن في جيل واحد ، فما بالك بموقف يجمع فيه كل الخلائق من آدم إلى قيام الساعة ؟

والعبادة : أن يطيع العابدُ أوامرَ معبوده ، فينبغي أن ننظر في كل مَنْ له أمر نطيعه : أهو أمر من ذاته ؟ أم أمر مُبلِّغ من أعلى منه : رسول أو إله ؟ فإنْ كان الأمر من ذاته فعليك أن تنظر أهو مُبَاح أم يتعارض مع نصٍّ شرعي ؟ فإنْ كان مباحاً فلا بأسَ في إطاعته ، أما إنْ كان مخالفاً للشرع فإنْ أطعْتَه فكأنك تعبده من دون الله .

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم والبيهقي من طريق سعيد بن هلال عن محمد بن كعب القرظي في قوله ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ⑯﴾ [الفرقان] قال : إن الملائكة تسأل لهم ذلك في قولهم ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ .. ⑧﴾ [غافر] قال سعيد : وسمعت أبا حازم يقول : إذا كان يوم القيامة قال المؤمنون : ربنا عملنا لك بالذي أمرتنا ، فانجز لنا ما وعدتنا ، فذلك قوله ﴿وَعْدًا مَّسْئُولًا ⑯﴾ [الفرقان] . أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٢٤١) .

إذن : حينما يأمرك الآمر بالصلاة أو الزكاة أو الصوم فأنت قبل أن تطيعه أطعتَ مَنْ حَمَّله هذه الأمانة ، والذين يطيعون مَنْ يأمرونهم بأشياء مخالفة لمنهج الله عبدوهم من دون الله ، وجعلوهم آلهة مُطاعين ، كما قال سبحانه فى الشياطين : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١)﴾ [الأنعام] وآخرون عبدوا الطاغوت ، أو عبدوا الشمس ، أو القمر ، أو النجوم ، أو الأصنام والجماد .

ومعلوم أن عبادة هذه الجمادات عبادة باطلة خاطئة ، فالعبادة إطاعة أمر ، وهل للجمادات أمر لأحد ؟ إنما العبادة إنْ صَحَّتْ بهذا المعنى فتكون لمَنْ يملك أمراً أو سلطة زمنية من الرهبان ، أو من الشياطين ، أو الملائكة ، أو من عيسى عليه السلام حيث قال البعض بألوهيته أو العزير الخ . ودخلت الجمادات مع هؤلاء على سبيل العموم .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (١٧)﴾ [الفرقان] يعنى : يجمع العابد على الضلال والمعبود على الضلال فى مكان واحد معاً ، لماذا ؟ لأن العابد إذا وجد نفسه فى العذاب ربما انتظر معبوده أنْ ينقذه من العذاب ، لكن ها هو يسبقه إلى النار ويقطع عنه كلَّ أمل فى النجاة .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧)﴾ [الفرقان]

والخطاب هنا مُوجَّه لمن يعقل منهم ، ولا مانعَ أن يكون للجميع ، فنحن نتحدث عن القانون الذى نعرفه ، وقد بيَّن لنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ أن لكل شىء لغةً ، فلماذا نستبعد أن يكون الخطاب هنا للعاقل ولغير العاقل ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء]

وقد قال سليمان عليه السلام وهو ممَّن فقه التسبيح : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف] لما سمع النملة تُحذِّر قومها : ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. ﴿١٨﴾﴾ [النمل] فتبسَّم سليمان ـ عليه السلام ـ لما سمع من النملة وسمَّاه قَوْلاً ، وفي هذا رَدٌّ على مَنْ يقول : إن التسبيح هنا من النملة تسبيحُ حال ، لا تسبيح مقال .

وهو قَوْل مخالف لنصِّ القرآن الذي قال : ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ.. ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء] فقد حكم الحق سبحانه بأنك لا تفقه هذا التسبيح ، فإن قُلْتَ : هو تسبيح دلالة فقد فقهته ، وقد حكم سبحانه بعدم فقْهك له إلا إذا عرَّفك الله تعالى ، وأطلعك على لغات هذه المخلوقات .

ولماذا نستبعد هذه المسألة والعلم الحديث يُقرِّر الآن أن لكل أمة من أمم الموجودات لغتها الخاصة ، والسْنَا نتحدث الآن فيما بيننا بلغة غير منطوقة ، وهي لغة الإشارات التي يتفاهم بها البحارة مثلاً ؟

فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يسأل المَعبودين : ﴿أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ .. ﴿١٧﴾﴾ [الفرقان] والله يعلم إنْ كانوا أضلُّوهم أم لا ؛ لذلك أجاب عيسى ـ عليه السلام ـ على مثل هذا السؤال في قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَـٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي .. ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة]

وسؤال الله للمعبودين تقريع للعابدين أمام مَنْ عبدوهم ، ولو أن

---

(١) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثَّه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده ، قال تعالى : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ .. ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف] أي : ألهمني شكرك وادفعني إليه وحبِّبْه إليَّ [القاموس القويم ٢/٣٢٤] .

عبادتهم بحقٍّ لكان المعبودون دافعوا عن هؤلاء أمام الله ؛ لذلك أجاب عيسى عليه السلام : ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ .. (١١٧)﴾ [المائدة]

أما الآخرون فقالوا : ما أضللناهم ، بل هم ضلُّوا السبيل .

وكلمة ﴿عِبَادِي .. (١٧)﴾ [الفرقان] سبق أن قلنا إن (عبد) تُجمع على (عباد) و (عبيد) ، وعبد يعنى أنه خاضع لأمر السيد ، وليس له تصرُّف من ذاته ، إنْ نظرتَ هذه النظرة فكل خَلْق الله عبيد ؛ لأن هناك أشياء لا يخرجون فيها عن مراد الله تعالى كميلاده على شكل خاص أو مرضه أو وفاته .

لذلك نقول للذين ألِفُوا مخالفة أوامر الله والتمرد عليه سبحانه : قد تتمردون على الإيمان به فتكفروا ، وقد تتمردون على الإيمان برسوله فتكذِّبوا ، وقد تتمردون على حُكْم من الأحكام فتخالفوه .

إذن : لكم جَرْأة على المخالفة وإِلْف للتمرد ، وما دام لك دُرْبة على ذلك ، فعليك أنْ تتمرد أيضاً عند المرض وتقول : لن أمرض وتتمرَّد على الموت فلا تموت ، لكن هيهات ، فهذه مسائل ، الكل فيها عبيد لله مقهورون لإرادته سبحانه ، المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى .

وهناك أمور أخرى جعلها الله بالاختيار ، فالذين سبقتْ لهم من الله الحسنى ، وأُلْهموا التوفيق يتنازلون عن اختيارهم لاختيار ربهم ومراده ، فيكونون عبيداً لله فى كل الأمور القهريات وغير القهريات ، وهؤلاء هم الذين يستحقون أن يكونوا عباداً لله .

فالعباد - إذن - يشتركون مع العبيد فى القهريات ، ويتميزون عنهم بتنازلهم عن مرادهم لمراد ربهم ، وعن اختيارهم لاختياره عَزَّ وجلَّ ؛ لذلك سمَّاهم عباداً ، كما جاء فى قوله سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا[1] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

والاستفهام فى قوله سبحانه : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي .. (١٧) ﴾ [الفرقان] يقول فيه بعض غير المؤهَّلين للفَهْم عن الله : أما كان يقول : أضللتم عبادى ؟ ونقول لهؤلاء : ليس لديكم الملكة اللغوية لفَهْم القرآن ، فأنت تستفهم عن الفعل إذا لم يكن موجوداً أمامك ، تقول : أبنيتَ البيت الذى أخبرتنى أنك ستبنيه ؟ فيخبرك : بنيتُه أو لم أَبْنه ، أمَّا حين تقول : أبنيتَ هذا البيت ؟ فالسؤال ليس عن البناء ، إنما عن فاعله ، أنت أم غيرك ؟ لأن البناء قائم أمامك .

إذن : فَرْقٌ بين السؤال عن الحَدث ، والسؤال عن فاعل الحدث ، والضلال هنا موجود فعلاً ، فالسؤال عن الفاعل ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَـٰؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان]

وسمَّاهم عباداً هنا مع أنهم ضالون ؛ لأن الكلام فى الآخرة ، حيث لم يَعُدْ لأحد اختيار ، الاختيار كان فى الدنيا وعليه ميَّزنا بين العبيد والعباد ، أما فى الآخرة فالجميع عبيد والجميع عباد ، فقد زال ما يُميِّزهم ؛ لأنهم جميعاً مقهورون لا اختيارَ لأحد منهم .

﴿ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا (١٨) ﴾

(١) المشى هوناً : بالسكينة والوقار . قاله عكرمة ومجاهد فيما نقله عنهما ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : هون] .

كلمة (سبحان) أى : تنزيهاً لله تعالى فى ذاته عن مشابهة الذوات ، وتنزيهاً لله تعالى فى صفاته وأفعاله عن مشابهة الصفات والأفعال ، فللّه سَمْع ولك سمع ، ولله وجود ولك وجود ، ولله حياة ولك حياة ، لكن أحياتك كحياة الله ؟ الله جبار وأنت قد تكون جباراً ، الله غنى وأنت قد تكون غنياً ، فهل غِنَاك كغِنَى الله ؟ ولله تعالى فِعْل ولك فعل ، فهل فِعْلك كفِعْل الله ؟

إذن : هناك فَرْق بين الصفات الذاتية والصفات الموهوبة التى يقبضها واهبها إنْ شاء .

وقد تُقال سبحان الله ويُقصَد بها التعجب ، فحين تسمع كلاماً عجيباً تقول : سبحان الله يعنى : أنا أنزه أن يكون هذا الكلام حدث .

لذلك يقولون هنا : ﴿سُبْحَانَكَ .. ⁽١٨⁾﴾ [الفرقان] يعنى : عجيبة أننا نضل ، كيف ونحن نعبدك نجعل الآخرين يعبدوننا ، والمعنى : أن هذا لا يصح منَّا ، كيف ونحن ندعو الناس إلى عبادتك ، وليس من المعقول أننا ندعوهم إلى عبادتك ونتحوَّل نحن لكى يعبدونا : ﴿سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ .. ⁽١٨⁾﴾ [الفرقان]

فأنت وليُّنا الذى نتقرَّب إليه ، وقد بعثْتنا لمهمة من المهمات ، ولابُدَّ أن صواب اختيارك لنا يمنعنا أن نفعل هذا ، وإلا ما كُنا أمناء على هذه المهمة . فسبحانك : تنزيهاً لك أن تختار مَنْ ليس جديراً بالمهمة ، فيأخذ الأمر منك لنفسه .

ومعنى : ﴿مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا .. ⁽١٨⁾﴾ [الفرقان] نفى الانبغاء ، نقول : ما ينبغى لفلان أن يفعل كذا ، كما قال تعالى فى حق رسوله ﷺ : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ .. ⁽٦٩⁾﴾ [يس] والشعر ملكة وموهبة بيان أدائية ، وكان العرب يتفاضلون بهذه الموهبة ، وإنْ

نبغ فيهم شاعر افتخروا به ورفع من شأنهم ، ولقد توفرت لرسول الله هذه الملَكة .

ولو كان ﷺ شاعراً لكان شاعراً مُبْدعاً ، لكنه ﷺ ما ينبغى له ذلك ؛ لأن الشعر مبنىٌّ على التخيُّل ؛ لذلك أبعده الله عن الشعر حتى لا يظن القوم أن ما يأتى به محمد من القرآن تخيلات شاعر ، فلم تكُنْ طبيعة رسول الله جامدة لا تصلح للشعر ، إنما كان ﷺ ذا إحساس مُرْهَف ، ولو قُدِّر له أنْ يكون شاعراً لكان عظيماً .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى عن الشعراء :

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) ﴾ [الشعراء]

وقالوا عن الشعر : أعْذبه أكذبُه ، لذلك لم يدخل رسول الله طوال حياته هذا المجال .

إذن : فقولهم ﴿ سُبْحَانَكَ .. (١٨) ﴾ [الفرقان] ردٌّ على ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلاءِ .. (١٧) ﴾ [الفرقان] ثم يذكر الدليل على ﴿ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان] فى قوله : ﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) ﴾ [الفرقان] فلما متَّعتهم يا ربِّ أترفهم النعيم ، وشغلتْهم النعمة عن المنعِم ، فانحرفوا عن الجادَّة .

والآية تنبه المؤمن ألاَّ يأسَى على نعيم فاته ، فربما فتنك هذا النعيم وصرفك عن المنعم عزَّ وجل ، فمن الخير - إذن - أنْ يمنعه الله عنك ؛ لأنك لا تضمن نفسك حال النعمة .

وقوله تعالى :﴿ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ .. (١٨) ﴾ [الفرقان] أى : نسُوا المنْعِم ، وحَقُّ النعمة ألاَّ تُنَسِى المنعم ؛ لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن

الصحيح إنْ كان فى نعمة العافية من المنعم سبحانه ، فالمريض الذى حُرِم منها ليس فى نعمة المنعِم ، إنما فى صحبته ومعيته .

ومن هنا لما مرض أحد العارفين بالله كان يغضب إذا دُعِى له بالشفاء ، ويقول لعائده : لا تقطع عليَّ أُنْسى بربى .

وجاء فى الحديث القدسي : « يا ابن آدم ، مرضتُ فلم تَعُدْنى ، قال : وكيف أعودُكَ وأنت ربُّ العالمين ، قال : أما علمتَ أن عبدى فلاناً مرض فلم تَعُدْهُ ، أما إنك لو عُدته لوجدتنى عنده »[1]

إذن : حينما يعلم المريض أنه فى معية الله يستحى أن يجزع ومعنى ﴿ قَوْمًا بُورًا ١٨ ﴾ [الفرقان] البُور : الهلاك ، ومنه أرض بُور ، وهى التى لا تُنبت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ١٩ ﴾

بعد أن سألهم الحق ـ تبارك وتعالى ـ وهو أعلم بهم : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَـٰؤُلَاءِ .. ١٧ ﴾ [الفرقان] وأجابوا : ﴿ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ١٨ ﴾ [الفرقان] وقد هزَّهم هذا السؤال هزَّة عنيفة أراد سبحانه أنْ يُبرئهم فقال ﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ .. ١٩ ﴾ [الفرقان] يعنى : أنا أعرف أنكم قلتم الحق ، لكنهم كذَّبوكم بما تقولون ﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا .. ١٩ ﴾ [الفرقان]

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٥٦٩) كتاب البر والصلة ـ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

فالتفت إليهم . والصرف : أن تدفع بذاتك عن ذاتك الشر إنْ تعرّض به أحد لك ، والنصر : إذا لم تستطع أنت أنْ تدفع عن نفسك فيأتى مَنْ يدفع عنك .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [الفرقان] وقد يسأل سائل : لماذا يخاطب الحق سبحانه أولياءه بهذا العنف ؟ قالوا : فى الواقع ليس هذا العنف نَهْراً لأولياء الله ، إنما زجر ولَفْتُ نظرٍ للآخرين ، فإذا كان الحق سبحانه يخاطب أهل طاعته بهذا العنف ، فما بالك بأعدائه والخارجين على منهجه ؟

إنهم حين يسمعون هذا الخطاب لا بُدَّ أن يقولوا : مع أن الله اصطفاهم وقرّبهم لم يمنعه ذلك أنْ يُوجِّههم إلى الحق وينهرهم .

ألم يقل سبحانه عن حبيبه ونبيه محمد ﷺ : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ(١) ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة] فالحق - تبارك وتعالى - يتحدث عن نبيه بهذه الطريقة ليخيف الآخرين ويرهبهم .

والظلم : أخْذُ حقِّ الغير ، وما دام أن الله تعالى حرَّم ذلك ، فهذا يعنى أن الله يريد أنْ يتمتع كل واحد بثمرة مجهوده ؛ لأن أمور الحياة لا تستقيم إنْ أخذ الإنسان ثمرةَ غيره ، وتعوَّد أن يعيش على دماء الآخرين وعَرقهم ؛ لذلك نرى فى المجتمع بعض المجرمين والمنحرفين (الفاقدين) الذين يعيشون على عَرق الآخرين وهم لا يعرقون .

---

(١) الوتين : عرْق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج من القلب ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة] أى : أمتناه عاجلاً وأهلكناه سريعاً إذا خالف أمرنا أى مخالفة . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

وحين يُؤخَذ الحق من صاحبه ، ثم لا يجد مَنْ ينصفه ، ويعيد له حقه المسلوب يميل إلى الكسل ويزهَد في العمل وبذْل المجهود ، ومعلوم أن العمل لا تعود ثمرته على صاحبه فحسب ، وإنما على الآخرين حيث يُيسِّر للناس مصالحهم ، ويُسهِم بحركته في حركة المجتمع .

وسبق أن قلنا : إن الفرْق بين المؤمن وغيره في العمل أن الكافر يعمل لنفسه ، أمّا المؤمن فيعمل لما يكفيه ، ويجهد ليساعد الآخرين ؛ لذلك عليك أن تعمل على قَدْر طاقتك لا على قَدْر حاجتك ، فحاجتك تتوفر لك مما أتيته بطاقتك ، ثم يكون الباقي عندك لمن لا يقدر على العمل وليس لديه طاقة .

والمعركة التي تدور بين الكفار والمؤمنين وعلى رأسهم الرسل ، الله تعالى يفصل فيها ، يقول : لا يستطيع أحد من خَلْقي أن يظلمني ، لأن المظلوم فيه نقطة ضعف ، والظالم فيه نقطة قوة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا .. (٥٧) ﴾ [البقرة] أي : لا يقدر أحد على ذلك ﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٥٧) ﴾ [البقرة] ، فظُلْمهم لأنفسهم ، لا للمؤمنين .

فالحق - تبارك وتعالى - يغَارُ على عبده أن يظلم نفسه ؛ لأن للإنسان ملكات متعددة : ملكة الاشتهاء العاجل وملكة التأنِّي الآجل . فالتلميذ المجتهد اختار الراحة الآجلة ، والكسول اختار الراحة العاجلة ، فكلاهما مُحبٌّ لنفسه يسعى إلى راحتها ، لكن فَرْق بين حُبٍّ واعٍ ، وحُبٍّ أحمق ، فالأول يتحمل المشاق لينال في نهاية الأمر أعلى المراتب ، والآخر تستهويه الراحة العاجلة ، وسرعان ما يجد نفسه صُعْلوكاً في المجتمع ، فمتعة الأول أبقى وأطول ، ومتعة الآخر سريعة منتهية .

هذه قاعدة عامة تُقال فى عمل الدنيا ، وتُقال فى عمل الآخرة ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ خلق الإنسان ويحب منه ألاَّ تظلم ملكة فى النفس ملكةً أخرى ، وألا تظلم ملكة العجلة ملكة التأنِّى ؛ لأن ملكة العجلة تأخذ خيراً عاجلاً منتهياً ، أما ملكة التأنى فتنال الخير الآجل الباقى غير المنتهى .

إذن : فالله تعالى يريد لصنعته ، سواء المؤمن أو الكافر ألاَّ يظلم نفسه ؛ لأن الله كرَّمه وخلق الكون كله لخدمته وسخَّره من أجله ؛ لذلك يقول له : إنك لا تستطيع أن تظلمنى ولا تظلم المؤمنين ، إنما تظلم نفسك ، فربٌّ يعاقب الإنسان على أنه ظلم نفسه فهو نِعْم الربّ .

لذلك جاء فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك مُحبٌّ ـ بدليل أننى أعاقبك إذا ظلمتَ نفسك ـ فبحقِّى عليك كُنْ لى مُحباً »(1) .

وحين يُضخِّم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ العقوبة : ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩)﴾ [الفرقان] إنما ليُنفِّر عباده منها ، ويبتعد بهم عن أسبابها ، فلا تقع .

وكثيراً ما يعترض أعداء الإسلام على قوله تعالى : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..(٢٥٦)﴾ [البقرة] يقولون : فلماذا تقتلون مَنْ يرتدّ عن الإسلام ؟ وهؤلاء لا يَدْرُون أن هذا الحكم نضعه عقبةً فى طريق كل مَنْ يريد الإيمان ، وتنبيه له حتى يفكر جيداً فيما هو مُقبل عليه إن اختار الإسلام ، فلا يدخله إلا بعد رضاً واقتناع تام ، وحين يعلم هذا الحكم يحتاطُ للأمر فيدخل عليه بمَحْض اختياره وتعقّله .

فالإسلام لا يريد كثرة مُتسرِّعة ، إنما يريد تروياً وتعقّلاً وتدبراً ،

---

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٢٩٦/٤) قال : « فى بعض الكتب : عبدى أنا وحقّك لك محب ، فبحقى عليك كن لى محباً » .

وهذا يُحسب للإسلام لا عليه ، فهو سلعة غالية يثق صاحبها فى جَوْدتها ، كما تذهب إلى تاجر القماش مثلاً ، فيعرض عليك بضاعته ويُظهر لك جودتها ويختبرها أمامك ، لماذا ؟ لأنه واثق من جودة بضاعته .

ومن ذلك ما خُتِمَتْ به كثير من آيات الذكر الحكيم مثل : تفكّرون ، تعقلون ، تذكّرون . وهذا دليل على أنك لو تعقلتَ ، لو تدبرتَ ، لو تذكرتَ لاهتديت إلى ما جاء به القرآن .

إذن : فقوله تعالى : ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩)﴾ [الفرقان] كان الذى يؤخذ على القرآن ، أو على الحق سبحانه أن الظالم حين يظلم هو يُعاقب لنفسه حيث أُخذ منه شيء ، لكن الحق سبحانه ما أُخذ منه شيء ، إنما هو سبحانه بصفات الكمال فيه سبحانه خلقكم ، فما ظلمتم إلا أنفسكم .

ثم يقول الحق سبحانه عن رسله وأنبيائه :

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا (٢٠)﴾

سبق أن تكلمنا فى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ .. (٧)﴾[الفرقان] وهذه صفة كل الرسل ، وليس محمد بدْعاً فى ذلك ، وإذا كان أكْل الطعام يقدح فى كونه ﷺ رسولاً ، وكانوا يريدون رسولاً لا يأكل الطعام ، فنقول : بالله إذا كان أكْل الطعام منعه عندكم أن يكون رسولاً ، فكيف تقولون لمن أكل

الطعام أنه إله ؟ كيف وأنتم ما رضيتم به رسولاً ؟

وقد جعل الحق ـ تبارك وتعالى ـ الرسل يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ؛ لأن الرسول يجب أن يكون قدوة وأسْوة في كل شيء للخَلْق ، ولذلك كان رسول الله على أقلّ حالات الكون المادية من ناحية أمور الدنيا من أكْل وشُرْب ولباس ، ذلك ليكون أسْوة للناس ، وكذلك نجده ﷺ حريصاً على أن يكون أهل بيته مثله ، لذلك لم يجعل لهم نصيباً في الزكاة التي يأخذها أمثالهم من الفقراء .

ويقول ﷺ : « إنَّا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة »[1] .

ومَنْ كان عليه دَيْن من المسلمين تحمَّله عنه رسول الله ، وهذا كله إنْ دلَّ فإنما يدل على أنه ﷺ واثق من جزاء أُخْراه ، فلا يُحبّ أن يناله منه شيء في الدنيا .

لذلك قُلْنا : لو نظرتَ في مبادئ الحق ومبادئ الباطل أمامك في الدنيا لوجدتَ أن مبدأ الباطل يدفع ثمنه أولاً ، فمثلاً لكي تكون شيوعياً لا بُدَّ أن تأخذ الثمن أولاً ، أما مبدأ الحق فأنت تدفع الثمن مُقدَّماً : تتعب وتُظلم وتُعذَّب وتجوع وتتشرد ، وتخرج من أهلك ومن مالك ، ثم تنتظر الجزاء في الآخرة . وبهذا المقياس تستطيع أنْ تُفرِّق بين الحق والباطل .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ .. ⟨٢٠⟩ ﴾ [الفرقان] أي : يرتادونها لقضاء مصالحهم وشراء حاجياتهم ، دليلٌ على تواضعهم وعدم تكبُّرهم على مثل هذه الأعمال ؛ لذلك كان سيدنا رسول الله

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤٦٣) بلفظ : « إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركت بعد مؤنة عاملي ونفقة نسائي صدقة » من حديث أبي هريرة . وأخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٣٣) كتاب المغازي من حديث عمر بن الخطاب ، وكذا مسلم في صحيحه ـ كتاب الجهاد .

يحمل حاجته بنفسه ، فإنْ عرض عليه أحدٌ صحابته أنْ يحملها عنه يقول ﷺ : « صاحب الشيء أحقُّ بحمله »[1] .

ومعنى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ .. (٢٠) ﴾ [الفرقان] فأىّ بعض فتنة لأىّ بعض ؟ كما فى قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف] أىُّ بعض مرفوع ، وأىّ بعض مرفوع عليه ؟

نلاحظ فى مثل هذه المسائل أن الناس لا تنظر إلا إلى زاوية واحدة : أن هذا غنىٌّ وهذا فقير ، لكنهم لو أخذوا فى المفاضلة بكل جوانب النفس الإنسانية لوجدوا أن فى كل إنسان موهبةً خَصّه الله بها ، فكلٌّ منّا عنده مَيْزةٌ ليست عند أخيه ؛ ذلك ليتكاتف الناس ويتكامل الخَلْق ؛ لأن العالم لو كان نسخة واحدة مكررة ما احتاجَ أحدٌ لأحد ، وما سأل أحد عن أحد ، أمّا حين تتعدد المواهب فيكون عندك ما ليس عندى ، فيترابط المجتمع ترابط الحاجة لا ترابط التفضل .

ولو تصورنا الناس جميعاً تخرجوا فى الجامعة وأصبحوا (دكاترة) فمَنْ يكنس الشارع ؟ ساعتها سيتطوع أحدنا يوماً لهذه المهمة ، إذن : تصبح الحاجة بنت تطوُّع وتفضُّل ، والتفضُّل لا يُلْزِم أحداً بعمل ، فقد تتعطل المصالح . أمّا حين تدعوك الحاجة فأنت الذى تُسرع إلى العمل وتبحث عنه .

ألاَ ترى أصحاب المهن الشاقة يخرجون فى الصباح يبحثون عن

---

(١) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٢٢/٥) من حديث أبى هريرة وقال : « رواه أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط وفيه يوسف بن زياد البصرى وهو ضعيف » . قال العجلونى فى كشف الخفاء (٢٥/٢) : « ذكره القاضى عياض فى الشفاء بدون عَزْو وهو ضعيف ، بل بالغ ابن الجوزى فعدّه فى الموضوعات » وخطّأه الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة » (حديث ٥٥٣) .

عمل ، ويغضب الواحد منهم إذا لم يجد فرصة عمل فى يومه مع ما سيتحمله من آلام ومشاق ، لماذا ؟ إنها الحاجة .

فالعامل الذى يعمل فى المجارى مثلاً ويتحمَّل أذاها هو فى قدرته على نفسه ورضاه بقدَر الله فيه أفضل منِّى أنا فى هذه المسألة ، لأننى لا أقدر على هذا العمل وهو يقدر ، ولو ترك الله مثل هذه الأعمال للتفضّل ما أقدم عليها أحد ، إذن : التسخيرات من الحق سبحانه وتعالى لحكمة .

ومثل هذه الأعمال الشاقة أو التى تؤذى العامل يعدُّها البعض أعمالاً حقيرة ، وهذا خطأ ، فأىُّ عمل يُصلح المجتمع لا يُعَدُّ حقيراً ، فلا يوجد عمل حقير أبداً ، وإنما يوجد عامل حقير .

فمعنى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً .. (٢٠) ﴾ [الفرقان] كل بعض منا فتنة للآخر ، فالغنىُّ فتنةٌ للفقير ، والفقير فتنة للغنى .. إلخ فحين يتعالى الغنى على الفقير ويستذلّه فالفقير هنا فتنة للغنى ، وحين يحقد الفقير على الغنى ويحسده ، فالغنىّ هنا فتنة للفقير ، وهكذا الصحيح فتنة للمريض ، والرسل فتنة لمن كذّبوهم ، والكفار فتنة للرسل .

والناس يفرون من الفتنة فى ذاتها ، وهذا لا يصح ؛ لأن الفتنة تعنى الاختبار ، فالذى ينبغى أن نفر منه نتيجة الفتنة ، لا الفتنة ذاتها ، فالامتحان فتنة للطلاب ، مَنْ ينجح فالفتنة له خَيْر ومَنْ يخفق فالفتنة فى حَقِّه شَرٌّ . إذن : الفتنة فى ذاتها غير مذمومة .

لذلك تُؤخَذ الفتنة من فتنة الذهب حين يُصْهر ، ومعلوم أن الذهَب أفضل المعادن ، وإنْ وُجد ما هو أنفس منه ، لماذا ؟ لأن من مَيْزاته أنه لا يتأكسد ولا يتفاعل مع غيره ، وهو كذلك سهل السَّبْك ؛ لذلك

يقولون : المعدن النفيس كالأخيار بَطِيءٌ كَسْره ، سريع جَبْره . فمثلاً حين يتكسر الذهب يسهل إعادته وتصنيعه على خلاف الزجاج مثلاً .

إذن : الفتنة اختبار ، الماهر مَنْ يفوز فيه ، فإنْ كان غنياً كان شاكراً مُؤدِّياً لحقِّ الغنى مُتواضعاً يبحث عن الفقراء ويعطف عليهم ، والفقير هو العاجز عن الكسب ، لا الفقير الذى احترف البلطجة وأَكْل أموال الناس بالباطل .

ولما كانت الفتنة تقتضى صَبْراً من المفتون ، قال سبحانه : ﴿ أَتَصْبِرُونَ .. (٢٠) ﴾ [الفرقان] فكل فتنة تحتاج إلى صبر ، فهل تصبرون عليها ؟

ولأهمية الصبر يقول تعالى فى سورة العصر : ﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر] يعنى : مُطلَق الإنسان فى خُسْر لا ينجيه منه إلاَّ أنْ يتصف بهذه الصفات : ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

وتُختم الآية بقوله سبحانه : ﴿ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً (٢٠) ﴾ [الفرقان] لينبهنا الحق سبحانه أن كل حركة من حركاتكم فى الفتنة مُبْصَرة لنا ، وبصرنا للأعمال ليس لمجرد العلم ، إنما لنُرتِّب على الأعمال جزاءً على وَفْقها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١) ﴾

واللقاء : يعنى البعث ، وقد آمنا بالله غَـيْباً ، وفى الآخرة نؤمن به تعالى مَشْهداً ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. ⦗١٦⦘﴾ [غافر] حتى مَنْ لم يؤمن فى الدنيا سيؤمن فى الآخرة .

لذلك يقـول سبحـانه فى موضـع آخر : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ⦗٣٩⦘﴾ [النور]

ويا ليتـه جاء فلم يجـد عمله ، المصـيبة أنـه وجد عمله كـاملاً ، ووجد الله تعـالى يحاسـبه ويُجـازيه ، ولم يكن هذا كله على باله فى الدنيا ؛ لذلك يُفَاجأ به الآن .

وقوله : ﴿لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا .. ⦗٢١⦘﴾ [الفرقان] يعنى : لا ينتظرونه ولا يؤمنون به ؛ لذلك لم يسـتـعدوا له ، لمـاذا ؟ لأنهم آثروا عـافيـة العاجلة على عـافية الآجلة ، ورأوْا أمامهم شـهوات ومُتَعـاً لم يصبروا عليها ، وغفلوا عن الغاية الأخيرة .

مـا هو اللقـاء ؟ اللقـاء يعنى الوَصْل والمـقـابلة ، لكن كـيف يتم الوَصْل والمقابلة بين الحق ـ تبارك وتعالى ـ وبين الخَلْق ـ وهذه من المسائل التى كَثُر فيها الجدال ، وحـدثت فيها ضجّة شككتْ المسلمين فى كثير من القضايا .

قالوا : اللقـاء يقتضى أن يكون الله تعـالى مُجسّمـاً وهذا ممنوع ، وقال آخـرون : ليس بالضـرورة أن يكون اللقاء وَصْـلاً ، فقـد يكون مـجردَ الرؤيـة ؛ لأن رؤية العَيْن للـرب ليست لقـاء ، وهذا قـول أهل السنة .

أما المعتـزلة فقد نفَوْا حتى الرؤية ، فقـال : لا يلقونه وَصْلاً ولا

رؤية ، لأن الرائى يحدد المرئى ، وهذا مُحَال على الله عز وجل .

ونقول للمعتزلة : أنتم تأخذون المسائل بالنسبة لله ، كما تأخذونها بالنسبة لمخلوقات الله ، لماذا لا تأخذون كل شيء بالنسبة لله تعالى فى إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى] فإذا كان لكم ببعض لقاء يقتضى الوَصْل ، فلله تعالى لقاء لا يقتضى الوصل ، وإذا كانت الرؤية تحدد فلله تعالى رؤية لا تحدد . إن لك سَمْعاً ولله سمع ، أسمعُك كسمع الله عز وجل ؟ إذن : لماذا تريد أن يكون لقاء الله كلقائك يقتضى تجسُّداً ، أو رؤيته كرؤيتك ؟

لذلك فى قصة رؤية موسى عليه السلام لربه عز وجل ، ماذا قال موسى ؟ قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] فطلب من ربه أن يُريه لأنه لا يستطيع ذلك بذاته ، ولا يصلح لهذه الرؤية ، إلا أن يُريه الله ويطلعه ، فالمسألة ليست من جهة المرئىّ ، إنما من جهة الرائى . لكن هل قرَّعه الله على طلبه هذا وقال عنه : استكبر وعتا عُتُواً كبيراً كما قال هنا ؟ لا إنما قال له : ﴿ لَن تَرَانِي .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] ولم يقُلْ سبحانه : لن أُرَى ، وفرْق بين العبارتين .

فقوله : ﴿ لَن تَرَانِي .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] المنع هنا ليس من المرئىّ بل المنع من الرائى ؛ لذلك أعطاه ربه عز وجل الدليل : ﴿ وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] يعنى : أأنت أقوى أم الجبل؟ ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف]

ولاحظ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ .. (١٤٣) ﴾ [الأعراف] كلمة تجلى أى : أن الله تعالى يتجلى على بعض خَلْقه ، لكن أيصبرون على هذا التجلى ؟ وليس الجبل أكرم عند الله من الإنسان الذى سخَّر اللهُ له الجبل وكلّ شيء فى الوجود .

إذن : فالإنسان هو الأكرم ، لكن تكوينه وطبيعته لا تصلح لهذه الرؤية ، وليس لديه الاستعداد لتلقّى الأنوار الإلهية ؛ ذلك لأن الله تعالى خلقه للأرض . أما فى الآخرة فالأمر مختلف ؛ لذلك سيُعدِّل الله هذا الخلق بحيث تتغير حقائقه ويمكنه أن يرى ، وإذا كان موسى - عليه السلام - قد صُعِق لرؤية المتجلِّى عليه وهو الجبل ، فكيف به إذا رأى المتجلِّى عز وجل ؟

لذلك ، كان من نعمة الله تعالى على عباده فى الآخرة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

وقال عن الكفار : ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ﴾ [المطففين] إذن : ما يُميِّز المؤمنين عن الكافرين أنهم لا يُحجبون عن رؤية ربهم عز وجل بعد أنْ تغيَّر تكوينهم الأخْروى ، فأصبحوا قادرين على رؤية ما لم يَرَوْه فى الدنيا . وإذا كان البشر الآن بتقدّم العلم يصنعون لضعاف البصر ما يُزيد من بصرهم ورؤيتهم ، فلماذا نستبعد هذا بالنسبة لله تعالى ؟

لذلك ، تجد المسرفين على أنفسهم يجادلونك بما يريحهم ، فتراهم يُنكِرون البعث ، ويُبعدون هذه الفكرة عن أنفسهم ؛ لأنهم يعلمون سوءَ عاقبتهم إنْ أيقنُوا بالبعث واعترفوا به .

ومن المسْرفين على أنفسهم حتى مؤمنون بإله ، يقول أحدهم : ما دام أن الله تعالى قدَّر علىَّ المعصية ، فلماذا يُحاسبنى عليها ؟ ونعجب لأنهم لم يذكروا المقابل ولم يقولوا : ما دام قد قدَّر علينا الطاعة ، فلماذا يثيبنا عليها ؟ إذن : لم يقفوا الوقفة العقلية السليمة ؛ لأن الأولى ستجرُّ عليهم الشر فذكروها ، أما الأخرى فخير يُساق إليهم ؛ لذلك غفلوا عن ذكْرها .

وقولهم : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا .. (٢١) ﴾ [الفرقان]
وهذا يدلّ على تكبُّرهم واعتراضهم على كَوْن الرسول بَشَراً ، وفى موضع آخر قالوا : ﴿ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا .. (٦) ﴾ [التغابن]

إذن : كل ما يغيظهم أن يكون الرسول بشراً ، وهذا الاستدراك يدلُّ على غبائهم ، فلو جاء الرسول ملَكاً ما صَحَّ أن يكون لهم قدوة ، وما جاء الرسول إلا ليكون قُدْوةً ومُعلِّماً للمنهج وأُسْوة سلوك ، ولو جاء ملكاً لأمكنه نعم أنْ يُعلِّمنا منهج الله ، لكن لا يصح أنْ يكون لنا أُسْوة سلوك ، فلو أمرك بشيء وهو ملَك لكان لك أنْ تعترض عليه تقول : أنت ملَكٌ تقدر على ذلك ، أمَّا أنا فبشر لا أقدر عليه .

فالحق سبحانه يقول : لاحظوا أن للرسل مهمتين : مهمةَ البلاغ ، ومهمة الأُسْوة السلوكية ، فلو أنهم كانوا من غير طبيعة البشر لتأتّى لهم البلاغ ، لكن لا يتأتى لهم أن يكونوا قُدْوة ونموذجاً يُحتذى .

ولو جاء الرسول ملَكاً على حقيقته ما رأيتموه ، ولاحتجتم له على صورة بشرية ، وساعتها لن تعرفوا أهو ملَك أم بشر ، إذن ، لا بُدَّ أن تعود المسألة إلى أن يكون بشراً ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]

ومسألة نزول الملائكة مع الرسول من الاقتراحات التى اقترحها الكفار على رسول الله ليطلبها من ربه ، وهذا يعنى أنهم يريدون دليلَ تصديق على نبوة محمد ﷺ ، وسبق أنْ جاءهم رسول الله بمعجزة من جنس ما نبغُوا فيه وعجزوا أنْ يُجاروه فيها ، ليثبت أن ذلك جاء من عند ربهم القوى ، ومعنى هذه المعجزة أنها تقوم مقام قوله : صدق عبدى فى كل ما يُبلِّغ عنى . وما دامت المعجزة قد جاءتْ بتصديق الرسول ، فهل هناك معجزة أَوْلَى من معجزة ؟

لقد كانت معجزة القرآن كافيةً لتقوم دليلاً على صدْق الرسول فى البلاغ عن الله ، وأيضاً جاءكم بغيبيّات لا يمكن أن يطلع عليها إنسان ، لا فى القديم الذى حدث قبل أنْ يُولَد ، ولا فى الحديث الذى سيكون بعد أنْ يُولد .

إذن : فدليل صدق الرسول قائم ، فما الذى دعاكم إلى اقتراح معجزات أخرى ؟

وقولهم : ﴿أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا .. (٢١)﴾ [الفرقان] والله ، لو كانِ إله يُرَى لكم ما صَحَّ أن يكون إلهاً ؛ لأن المرئى مُحَاطٌ بحدقة الرائى ، وما دام أحاط به فهو - إذن - محدود ، ومحدوديته تنافى ألوهيته .

وإلاَّ فالمعانى التى تختلج بها النفس الإنسانية مثل الحق والعدل الذى يتحدث عنه الناس وينشدونه ويتعصَّبون له ، ويتهافتون عليه لحلِّ مشاكلهم وتيسير حياتهم : أتدرك هذه المعانى وأمثالها بالحواس ؟ كيف تطلب أن تدرك خالقها عز وجل بالحواسّ ؟

لذلك يختم الحق سبحانه هذه المسألة بقوله : ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا (٢١)﴾ [الفرقان] استكبر وتكبَّر : حاول أن يجعل نفسه فوق قَدْره ، وكلُّ إنسان مِنّا له قَدْر محدود .

ومن هنا جاء القول المأثور : « رَحِمَ الله امرءً عرف قدر نفسه » . فلماذا إذن يتكبَّر الإنسان ؟ لو أنكَ إنسان سوىّ فإنك تسعد حين نمنع عنك مَنْ يسرقك ، أو ينظر إلى محارمك أو يعتدى عليك ، فلماذا تغضب حينما نمنعك عن مثل هذا ؟

النظرة العقلية أن تقارن بين مَا لك ومَا عليك ، لقد منعنا يدك - وهى واحدة - أنْ تسرق ، ومقابل ذلك منعنا عنك جميع أيدى الناس

أن تسـرق منك ، منعنا عينك أن تمـتد إلى مـحارم الآخـرين ، ومنعنا جميـع الأَعْيُن أنْ تمتدّ إلى مـحارمك ، فلماذا إذن تفرح لهـذه وتغضب من هذه ؟ كـان يـجب عليك أن تحكم بـنفس المنطق ، فـإنْ أحـببتَ ما كان لك وكرهتَ ما كان لغيرك فقد جانبتَ الصواب وخالفتَ العدالة .

ومن استكبارهم مواجهـتهم لرسول الله في بداية دعوته وقولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخـرف] إذن : القرآن لا غبارَ عليـه ، وهذا حكم واقعى منهم ؛ لأنهم أمة بلاغة وفصاحة ، والقرآن فى أرْقَى مراتب الفـصاحة والبيان ، إنما الذى وقف فى حلُوقهم أن يكون الرسول رجلاً من عامة الناس ، يريدونه عظيماً فى نظرهم ، حتى إذا ما اتبعوه كان له حيثية تدعو إلى اتباعه .

إذن : الاسـتكبـار أن تسـتكبـر أن تكون تابعـاً لمنْ تراه دونك ، ونحن ننكر هذا ؛ لأنك لم تَرَ مـحمـداً ﷺ قبل أن يقوم بالـرسالة أنه دونك ، بل كنت تضعه فى المكان الأعلى ، وتُسمِّـيه الصادق الأمين ، فمتى إذن جعلْتَه دونك ؟ إنها الهـبة التى وهبه الله ، إنها الرسالة التى جعلتك تأخذ منه ما كنتَ تعطيه قبل أن يكون رسـولاً .

وهل سبق لكم أنْ سمعتم عن رسول جاء معه ربه عَزَّ وجَلَّ يقول لقومه : هذا رسولى ؟ وما دام أن الله تعالى سيواجهكم هذه المواجهة فلا داعىَ إذن للرسول ؛ لأن الله تعـالى سيخاطبكم بالتكليف مـباشرة وتنتهى المسـألة . ومعلوم أن هذا الأمر لم يحدث ، فأنتم تطلبون شيئاً لم تسمعوا به ، وهذا دليل على تلكؤكم واسـتكباركم عن قبول الإيمان فجئتم بشىء مستحيل .

إذن : المـسألة من الكفـار تلكؤٌ وعناد واستكبـار عن قبـول الحق الواضح ، وقد سـبق أن اقترحوا مـثل هذه الآيات والمعجـزات ، فلما

أجابهم الله كذَّبوا ، مع أن الآيات والمعجزات ليست باقتراح المرسل إليهم ، إنما تفضُّل من الله تعالى واهب هذه الرسالة .

والاستكبار مادته الكاف والباء والراء . وتأتى بمعان عدَّة : تقول كَبَرَ يكْبَر أى : فى عمره وحجمه ، وكَبُر يكبُر أى : عَظُمَ فى ذاته ، ومنها قوله تعالى : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ .. ۝٥﴾ [الكهف]

وتكبَّر : أظهر صفة الكبرياء للناس ، واستكبر : إذا لم يكُنْ عنده مؤهلات الكِبر ، ومع ذلك يطلب أن يكون كبيراً .

فالمعنى ﴿اسْتَكْبَرُوا .. ۝٢١﴾ [الفرقان] ليس فى حقيقة تكوينهم إنما ﴿اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ .. ۝٢١﴾ [الفرقان] فى أنهم يتبعُون الرسول ، أى : أنها كبيرة عليهم أن يكونوا تابعين لرجل يروْنَ غيره أغنى منه أو أحسن منه (على زعمهم) .

ونرى مثلاً أحد الفتوات الذى يخضع له الجميع إذا ما رأى مَنْ هو أقوى منه انكمشَ أمامه وتواضع ؛ لأنه يستكبر بلا رصيد وبشىء ليس ذاتياً فيه .. إذن : المتكبر بلا رصيد غافل عن كبرياء ربه ، ولو استشعر كبرياء الله عَزَّ وجَل لاستحَى أنْ يتكبَّر .

لذلك نرى أهل الطاعة والمعرفة دائماً منكسرين ، لماذا ؟ لأنهم دائماً مستشعرون كبرياءَ الله ، والإنسان (لا يتفرعن) إلا إذا رأى الجميع دونه ، وليس هناك مَنْ هو أكبر منه . فينبغى ألا يَتكبَّر الإنسان إلا بشىء ذاتى فيه لا يُسلَب منه ، فإن استكبرت بغنَاك فربما افتقرتَ ، وإن استكبرتَ بقوتك فربَّما أصابك المرض ، وإن استكبرتَ بعلمك لا تأمنْ أن يُسلبَ منك لكى لا يعلم من بعد علم شيئاً .

ومن لُطْف الله بالخَلْق ورحمته بهم أنْ يكون له وحده الكبرياء ،

وله وحده سبحانه التكبُّر والعظمة ، ويعلنها الحق تبارك وتعالى : « الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، فمن نازعنى واحداً منهما أدخلته جهنم »[1] .

والحق - تبارك وتعالى - لا يجعلها جبروتاً على خَلْقه ، إنما يجعلها لهم رحمة ؛ لأن الخَلْق منهم الأقوياء والفُتوات والأغنياء .. حين يعلمون أن الله تعالى الكبرياء المطلق يعرف كل منهم قدره (ويرعى مساوى) ، فالله هو المتكبر الوحيد ، ونحن جميعاً سواء .

لذلك يقول أهل الريف (اللى ملوش كبير يشترى له كبير) وحين يكون فى البلد كبير يخاف منه الجميع لا يجرؤ أحد أنْ يعتدىَ على أحد فى وجوده ، إنما إنْ فُقِد هذا الكبير فإن القوى يأكل الضعيف . إذن : فالكبرياء من صفات الجَلال لله تعالى أنْ جعلها الله لنفع الخَلْق .

ولو تصورنا التكبر ممَّنْ يملك مؤهلاته ، كأن يكون قوياً ، أو يكون غنياً .. إلخ فلا نتصور الكِبر من الضعيف أو من الفقير ؛ لذلك جاء فى الحديث : « أبغض ثلاثاً وبغضى لثلاث أشد ، أبغض الغنى المتكبر وبُغْضى للفقير المتكبر أشدّ ، وأبغض الفقير البخيل وبغضى للغنى البخيل أشدّ ، وأبغض الشاب العاصى وبغضى للشيخ العاصى أشد »[2].

وقوله تعالى ﴿ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً (٢١) ﴾ [الفرقان] عتوا : بالغوا فى الظلم والتحدى وتجاوزوا الحدود ، وكأن هذا غير كاف فى وصفهم ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٧٦ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ، ٤٤٢) وأبو داود فى سننه (٤٠٩٠) وابن ماجة فى سننه (٤١٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يحب ثلاثة ويبغض ثلاثة ، يبغض الشيخ الزانى والفقير المختال والمكثر البخيل ، ويحب ثلاثة : رجل كان فى كتيبة فكمن حتى يحميهم حتى قتل أو فتح الله عليه ، ورجل كان فى قوم فادلجوا فنزلوا من آخر الليل .. » الحديث أخرجه أحمد فى مسنده ، وابن حبان . ذكره المتقى الهندى فى منتخب الكنز (٦/٣٨٧) .

فأكّد العُتُو بالمصدر (عتواً) ثم وصف المصدر أيضاً ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان] لماذا كل هذه المبالغة في التعبير ؟ قالوا : لأنهم ما عَتَوْا بعضهم على بعض ، إنما يتعاتون على رسول الله ، بل وعلى الله عز وجل ؛ لذلك استحقُّوا هذا الوصف وهذه المبالغة .

والعاتي الذي بلغ في الظُّلم الحدَّ مثل الطاغوت الذي إنْ خاف الناس منه انتفش ، وتمادى وازداد قوة .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ [مريم] ومعلوم أن الكِبَر ضعف ، كما قال سبحانه : ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً .. ﴿٥٤﴾﴾ [الروم] فكيف - إذن - يصف الكبر بأنه عَاتٍ ؟ قالوا : العاتي هو القوي الجبار الذي لا يقدر أحد على صَدِّه أو رَفْع رأسه أمامه ، وكذلك الكِبَر على ضَعْفه ، إلا أنه لا توجد قوة تطغى عليه فتمنعه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾

يتحدث الحق - تبارك وتعالى - عن هؤلاء الذين اقترحوا على رسول الله الآيات وطلبوا أن تنزل معه الملائكة فيرونها ، وتشهد لهم بصدقه ﷺ ، فيقول لهم سبحانه : أنتم تشتهون أنْ تروْا الملائكة ، فسوف ترونْها لكن في مَوقف آخر ، ليس موقف البُشْريات والخيرات ، إنما في موقف الخزي والندامة والعذاب :

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان]

فسوف ترونهم رؤيا الفزع والخوف عندما يأتون لقبْض أرواحكم ، أو سترونَهم يوم القيامة يوم يُبشِّرونكم بالعذاب .

يوم يستقبلون المؤمنين : ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (١٢)﴾ [الحديد] فيستشرف الكفار لسماع هذه الكلمة لكن هيهات ﴿لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ .. (٢٢)﴾ [الفرقان] فيمنعون عنهم هذه الكلمة المحبَّبة التى ينتظرونها ، ويقابلونهم بكلمة أخرى تناسبهم .

يقولون لهم : ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا (٢٢)﴾ [الفرقان] والحِجْر : المنع ، ومنه : نحجر على فلان يعنى : نمنعه من التصرُّف . وقديماً كانوا يقولون فى دفع الشر : حِجْراً محجوراً يعنى : منعاً ، ومثل ذلك ما نسمعهم يقولون إذا ذُكِر الجن : حابس حابس يعنى : ابتعد عنى لا تقربنى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)﴾

حين تنظر فى غير المؤمنين تجد من بينهم أهلاً للخير وعمل المعروف ، ومنهم أصحاب مَلَكات طيِّبة ، كالذين اجتمعوا فى حلف الفضول لنصْرة المظلوم ، وكأهل الكرم وإطعام الطعام ، ومنهم مَنْ كانت له قدْر عظيمة استظلّ رسول الله فى ظلها يوم حر قائظ ، وهذا يعنى أنها كانت كبيرة واسعة منصوبة وثابتة كالبناء ، كان يُطْعم منها الفقراء والمساكين ، وحتى الطير والوحوش ، وما زِلْنا حتى الآن

نضرب المثل فى الكرم بحاتم الطائى . وكان منهم مَنْ يصل الرحم ويغيث الملهوف .. الخ .

لكن هؤلاء وأمثالهم عملوا لجاه الدنيا ، ولم يكُنْ فى بالهم إله يبتغون مرضاته ، والعامل يأخذ أجْره ممَّنْ عمل له ، كما جاء فى الحديث القدسى : « فعلت ليقال ، وقد قيل »(١) .

والحق - تبارك وتعالى - يُوضِّح هذه المسألة في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

وقال تعالى أيضاً : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

فقد عمل هؤلاء أعمالَ خير كثيرة ، لكن لم يكُنْ فى بالهم الله ، إنما عملوا للإنسانية وللشهرة وليُقال عنهم ؛ لذلك نراهم فى رفاهية من العيش وسَعة مُمتَّعين بألوان النعيم ، لماذا ؟ لأنهم أخذوا الأسباب المخلوقة لله تعالى ، ونفّذوها بدقة ، والله - تبارك وتعالى - لا يحرم عبده ثمرةَ مجهوده ، وإنْ كان كافراً ، فإنْ ترك العبدُ الأسبابَ وتكاسل حرَمه الله وإنْ كان مؤمناً . وفَرْق بين عطاءات الربوبية التى تشمل المؤمن والكافر والطائع والعاصى ، وبين عطاءات الألوهية .

فمن الكفار مَنْ أحسن الأَخْذ بالأسباب ، فاخترعوا أشياء نفعتْ الإنسانية ، وأدوية عالجتْ كثيراً من الأمراض . ولا بُدَّ أن يكون لهم

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣٢٢/٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٩٠٥) والنسائى فى سننه (٢٣/٦ ، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ولكنك قاتلت لأن يُقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقى فى النار » الحديث بطوله .

جزاء على هذا الخير ، وجزاؤهم أخذوه في الدنيا ذكْراً وتكريماً وتخليداً لذكْراهم ، وصُنعت لهم التماثيل وأُعْطوا النياشين ، وأُلِّفتْ في سيرتهم الكتب ، كأن الله تعالى لم يجحدهم عملهم ، ولم يبخسهم حقهم .

ألاَ ترى أن أبا لهب الذي وقف من رسول الله موقفَ العداء حتى نزل فيه قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ [المسد] ومع ذلك يُخفِّف الله عنه العذاب ؛ لأنه أعتقَ جاريته ثويبة حينما بشَّرته بميلاد محمد بن عبد الله ؛ لأنه فرح بهذه البُشْرى وأسعده هذا الخبر(١) .

ومن العجيب أن هؤلاء يقفون عند صناعات البشر التي لا تعدو أن تكون تَرَفاً في الحياة ، فيُؤرِّخون لها ولأصحابها ، وينسون خالق الضروريات التي أعانتهم على الترقِّي في كماليات الحياة وترفها .

وكلمة ﴿هَبَاءً .. ۝٢٣﴾ [الفرقان] : الأشياء تتبين للإنسان ، إما لأن حجمها كبير أو لأنها قريبة ، فإنْ كانت صغيرة الحجم عزَّتْ رؤيتها ، فمثلاً يمكنك رؤية طائر أو عصفور إنْ طار أمامك أو حتى دبور أو نحلة ، لكن لو طارتْ أمامك بعوضة لا تستطيع رؤيتها .

إذن : الشيء يختفي عن النظر لأنه صغير التكوين ، لا تستطيع العين إدراكه ؛ لذلك اخترعوا المجاهر والتليسكوب .

وقد يكون الشيء بعيداً عنك فلا تراه لبُعده عن مخروطية

(١) قال الحافظ ابن حجر في « الإصابة في تمييز الصحابة » (٣٦/٨) : « قال ابن سعد : أخبرنا الواقدي عن غير واحد من أهل العلم قالوا : كانت ثويبة مرضعة رسول الله ﷺ يصلها وهو بمكة وكانت خديجة تكرمها وهي على ملك أبي لهب وسألته أن يبيعها لها فامتنع فلما هاجر رسول الله ﷺ أعتقها أبو لهب وكان رسول الله ﷺ يبعث إليها بصلة وبكسوة حتى جاء الخبر أنها ماتت سنة سبع مرجعه من خيبر » .

الضـوء ؛ لأن الضوء يـبدأ من نقطة ، ثم يـتسع تدريجـيـاً على شكل مخروط ، كـما لو نظرتَ من ثُقْب الباب الذى قُطْره سنتـيمتر فـيمكن رؤية مساحة أوسع منه بكثير .

إذن : إنْ أردتَ أن ترى الصغير تُكبِّره ، وإنْ أردتَ أنْ ترى البعيد تُقرِّبه .

والهباء : هـو الذرّات التى تراها فى المخروط الضوئى حـين ينفذ إلى حجرتك ، ولا تراها بالعين المجرَّدة لدقّتها ، وهذا الهباء الذى تراه فى الضوء ﴿هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان] يعنى : لا تستطيع أنْ تجمِّعه ؛ لأنه منتشر وغيـر ثابت ، فمهما أوقفتَ حركـة الهواء تجدْه فى الضوء يتحرك لصِغَر حجمه .

فـإنْ قلتَ : نراهم الآن يصنعـون (فـلاترَ) لحـجز هذا الـهبـاء فتُجمِّعه وتُنقِّى الهواء منه ، وهى علـى شكل مَسامّ اسفنجية يعْلَق بها الهباء ، فيمكن تجميعه .

نقول : حتى مع وجـود هذه الفلاتر ، فإنها تجـمع على قَدْر دقّة المـسامّ ، وتحـجـز على قَدْرها ، وعـلى فَرْض أنك جـمـعتَـه فى هذا الفلتر ، ثم أفرغته وقُلْت لى : هذا هـو الهباء ، نقول لك : أتستطيع أنْ ترد كل ذرة منها إلى أصلها الذى طارتْ منه ؟

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (٢٤)﴾

بعـد أن وصف الحـق ـ تبـارك وتعـالى ـ مـا يؤول إلـيـه عـمل الكافرين أراد سبحانه أنْ يُحـدِّثنا عن جزاء المؤمنين على عادة القرآن فى ذكـر المتـقابلات التى يظهـر كل منهـا الآخر ، وهذه الطريقـة فى

التعبير كثيرة في كتاب الله منها : ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .. ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة]

ومنها أيضاً قول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار]

وهكذا ، ينقلك القرآن من الشيء إلى ضده لتميز بينهما ، فالمؤمن في النعيم ينظر إلى النار وحرِّها ، فيحمد الله الذي نجاه منها ، وهذه نعمة أخرى أعظم من الأولى . والكافر حين ينظر إلى نعيم الجنة يتحسَّر ويعلم عاقبةَ الكفر الذي حرمه من هذا النعيم ، فيكون هذا أبلغَ في النكاية وأشد في العذاب ؛ لذلك قالوا : وبضدِّها تتميز الأشياء .

وقوله سبحانه : ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَراً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان] صاحب الشيء : المرافق له عن حُبٍّ ، فكأن الجنةَ تعشَق أهلها وهم يعشقونها ، فقد نشأت بينهما محبة وصُحْبة ، فكما تحب أنت المكان يحبك المكان ، وأيضاً كما تبغضه يبغضك . ومنه قولهم : نَبَا به المكان يعني : كَرِهه المكان .

وكلمة ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان] تدل أيضاً على الملكية ؛ لأنهم لن يخرجوا منها ، وهي لن تزول ولن تنتهي .

وكلمة ﴿خَيْرٌ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان] قلنا : إنها تُستعمل استعمالين : خير يقابله شرّ ، كما في قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة] وقوله تعالى : ﴿أُوْلَـٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة] .... ﴿أُوْلَـٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة]

وهناك أيضاً خير يقابله خير ، لكن أقلّ منه ، كما لو قلت : هذا خير من هذا ، وكما في الحديث الشريف : « المؤمن القوى خير

وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير »(١) .

وفى بعض الأساليب لا نكتفى بصيغة (خير) للتمييز بين شيئين ، فنقول بصيغة أفعل التفضيل : هذا أخْير من هذا .

وكلمة ﴿ مُسْتَقَرًّا .. (٢٤) ﴾ [الفرقان] المستقر : المكان الذى تستقر أنت فيه ، والإنسان لا يُؤْثِر الاستقرار فى مكان عن مكان آخر ، إلا إذا كان المكان الذى استقر فيه أكثرَ راحةً لنفسه من غيره ، كما نترك الغرفة مثلاً فى الحرِّ ، ونجلس فى الحديقة أو الشُّرْفة .

ومن ذلك نقول : إذا ضاقتْ بك أرض فاتركها إلى غيرها ، على حَدِّ قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا(٢) كَثِيرًا .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

ويقول الشاعر :

لَعَمْرُكَ مَا ضَاقَتْ بِلاَدٌ بِأَهْلِهَا ... وَلَكِنَّ أخْلاقَ الرجَالِ تَضِيقُ

ومعنى ﴿ وَأَحْسَنُ مَقِيلاً (٢٤) ﴾ [الفرقان] المقيل : هو المكان الذى كانت تقضى فيه العرب وقت القيلولة ، وهى ساعة الظهيرة حين تشتدّ حرارة الشمس ، ونسميها فى العامية (القيالة) ويقولون لمن لا يستريح فى هذه الساعة : العفاريت مقيِّلة !!

لكن أفِى الجنة قيلولة وليس فيها حَرٌّ ، ولا برد ، ولا زمهرير ؟

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٢/٣٦٦ ، ٣٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) وابن ماجة فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أى : يجد مكاناً متسعاً يراغم فيه القوم الذين راغموه واضطروه إلى الهجرة ، أو يجد مكاناً يصلح لمراغمة أعدائه أو اتقاء شره . [القاموس القويم ١/٢٧٠] .

قالوا : القيلولة تعنى محلّ فراغ الإنسان لخاصة نفسه ، ألا ترى أن الحق - تبارك وتعالى - حينما ذكر أوقات الاستئذان فى سورة النور جعل منها هذا الوقت ، فقال سبحانه : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [النور] فأمر الصغار أن يستأذنوا علينا فى هذا الوقت ؛ لأنه من أوقات العورة .

إذن : المستقر شىء ، والمقيل للراحة النفسية الشخصية شىء آخر ، لأنك قد تستقر فى مكان ومعك غيرك ، أمَّا المقيل فمكان خاصّ بك ، إذن : لك فى الجنة مكانان : عام وخاص ؛ لذلك قالوا فى قول الله تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن] قالوا : جنة عامة وجنة خاصة ، كما يكون لك مكان لاستقبال الضيوف ، ومكان لخاصّة نفسك وأهلك .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾

وقد سبق منهم أنْ طلبوا من الله أنْ ينزل عليهم ملائكة ، فها هى الملائكة تنزل عليهم كما يريدون ، لكن فى غير مسرّة لكم ، ولا إجابة لسؤال منكم .

والسماء : هى السقف المرفوع فوقنا المحفوظ الذى ننظر إليه ، فلا نرى فيه فطوراً[1] ولا شروخاً ، ولك أن تنظر إلى السماء حال صفائها ، وسوف تراها ملساء لا نتوءَ فيها ، ولا اعوجاج على اتساعها هذا وقيامها هكذا بلا عَمَد .

(١) الفطور : الشقوق والصدوع . وتفطّر الشىء : تشقّق . والفَطْر : الشق وجمعه فطور . [لسان العرب - مادة : فطر] .

لذلك يدعوك الحق ـ تبارك وتعالى ـ إلى النظر والتأمل ، يقول لك : لن نغشك .. انظر فى السماء وتأمل : ﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④﴾ [الملك]

والسماء التى تراها فوقك على هذه القوة والتماسك لا يُمسكها فوقك إلا الله ، كما يقول سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. ④١﴾ [فاطر]

ويقول تعالى : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ.. ٦٥﴾ [الحج] إذن : هناك إذْن للسماء أن تقع على الأرض ، وأنْ تتشقق وتتبدل ، كما قال سبحانه : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ .. ٤٨﴾ [إبراهيم]

ويقول تعالى عن تشقُّق السماء فى الآخرة : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ②﴾ [الانشقاق]

معنى : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا .. ②﴾ [الانشقاق] يعنى : استمعتْ وأطاعتْ بمجرد الاستماع .

وهنا يقول تعالى : ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ .. ٢٥﴾ [الفرقان] أى : تنشقّ وينزل من الشقوق الغمام ، وقد ذُكر الغمام أيضاً فى قوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ.. ٢١٠﴾ [البقرة]

وقوله تعالى : ﴿وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ٢٥﴾ [الفرقان] يدل على قوة النزول ليباشروا عملية الفصل فى موقف القيامة .

﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ ﴾

إنْ كانت الدنيا يُملِّك اللهُ فيها بعض خَلْقه بعض خَلْقه ، كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران] وقلنا : فَرْق بين المِلْك والمُلْك : المِلْك كل ما تملك ولو كان حتى ثوبك الذى ترتديه فهو ملك ، أمّا المُلْك فهو أن تملك مَنْ يملك ، وهذا يعطيه الله تعالى ، ويهبه لمن يشاء من باطن مُلْكه تعالى ، كما أعطاه للذى حاجّ خليلَه إبراهيم عليه السلام : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ[1] إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ .. ﴿٢٥٨﴾ ﴾ [البقرة]

هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فلا مِلْك ولا مُلْك لأحد ، فقد سلب هذا كله ، والملْك اليوم لله وحده : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

إذن : فما فى يدك من مُلْك الدنيا مُلْك غير مستقر ، سرعان ما يُسلَب منك ؛ لذلك يقول أحد العارفين للخليفة : لو دام الملْك لغيرك ما وصل إليك . فالمسألة ليست ذاتيةً فيك ، فمُلْكك من باطن مُلْك الله تعالى صاحب الملك ، وهو الملك الحق ، فمُلْكه تعالى ثابت مستقر ، لا ينتقل ولا يزول .

وإن انتقلتْ الملكية فى الدنيا من شخص لآخر فإنها تُجمَع يوم القيامة فى يده تعالى ، وتجمّع الملْك والسلطة فى يد واحدة إنْ كانت ممقوتة عندنا فى الدنيا ، حيث نذُره الاحتكار والدكتاتورية التى تجعل

(١) حاجّه : نازعه الحجة فهى مفاعلة من الجانبين ، أى : قدّم كل منهما حجته ليغلب بها الآخر . [القاموس القويم ١/١٤٣] .

السلطة والقهر فى يد واحدة ، إنْ كانت هذه مذمومة فى البشر فهى محمودة عند الله تعالى ؛ لأنها تتركز فى الدنيا فى يد واحد صاحب هوى .

أما فى الآخرة فهى فى يده تعالى ، فالرحمة فى الدنيا أن يوزع الملْك والسلطان ، والرحمة فى الآخرة أن تُجمع فى يده تعالى : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ .. (٢٦) ﴾ [الفرقان] إذن : اجتماع الملْك يوم القيامة لله تعالى من مظاهر الرحمة بنا ، فلا تأخذها على أنها احتكار أو جبروت ؛ لأنها فى يد الرحمن الرحيم .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يُطمئنك : لا تقلق ، فالملْك يوم القيامة ليس لأحد تخاف أن تقع تحت سطوته ، إنما الملك يومئذ الحق للرحمن .

والحق : الشيء الثابت الذى لا يتغير ، وما دام ثابتاً لا يتغير فهو لا يتناقض ولا يتعارض ، فالرجل إذا كلّمك بكلام له واقع فى الحياة وطلبتَ منه أن يعيده لك أعاده ألف مرة ، دون أن يُغيِّر منه شيئاً ، لماذا ؟ لأنه يقول من خلال ما يستوحى من الحقيقة التى شاهدها ، أمّا إنْ كان كاذباً فإنه لا يستوحى شيئاً ؛ لذلك لا بُدَّ أن يختلف قوله فى كل مرة عن الأخرى ؛ لذلك قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً .

ومن رحمانيته تعالى أن يقول سبحانه : ﴿ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦) ﴾ [الفرقان] فينبهنا إلى الخطر قبل الوقوع فيه ، وهذه رحمة بنا أن ينصحنا ربنا ويعدل لنا ، وإلا لو فاجأنا بالعقوبة لكان الأمر صعباً .

فإن ذكرت المقابل تقول إنه يسير على المؤمنين ، فاحرص أيها الإنسان أن تكون من الميسّر لهم لا من المعسّر عليهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ ﴾

هذه عدّة أيام ذكرتها هذه الآيات : ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [الفرقان] ، ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفرقان] ، ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الفرقان] ، ﴿ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الفرقان] فيوم القيامة جامع لهذا كله .

وقلنا : إن الظالم : الذى يأخذ حَقَّ غيره ، والحق - تبارك وتعالى - يُوضِّح هذا الظلم بقوله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [البقرة]

لأنهم لا يقدرون على ظُلْم الله تعالى ، ولا على ظُلْم النبى ﷺ ، فكلمة الله ورسوله هى العُلْيا ، وسينتصر دين الله فى نهاية المطاف . ومع ذلك يعاقبهم الله تعالى على ظلمهم لأنفسهم ، فنِعْم الإله إله يفعل هذا مع مَنْ عصاه .

والكافر حتى فى مظهرية ظُلْمه للغير يظلم نفسه ؛ لأنه يضعها فى موضع المسئولية عن هذه المظالم . إذن : لو حقَّق الإنسان الظلم لوجده لا يعود إلا على الظالم نفسه .

وحين يرى الظالمُ عاقبةَ ظُلْمه ، ويعاين جزاء فعْله يعضُّ على يديْه ندماً وحَسْرة . والعَضُّ : انطباق الفكيْن الأعلىَ والأسفل على شيء ، وللعضِّ مراحل تتناسب مع المُفْزِع الذى يُلجِيء الإنسانَ له ، وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ .. ﴿١١٩﴾ ﴾ [آل عمران]

والأنامل : أطراف الأصابع وعَضُّها من الغيظ عادة معروفة حينما يتعرَّض الإنسان لموقف يصعُب عليه التصرف فيه فيعضُّ على أنامله عَضّاً يناسب الموقف والحدث ، فإنْ كان الحدث أعظمَ ناسبه أنْ يعضّ يده لا مجرد أصابعه ، فإنْ عظم عَضَّ على يديْه معاً كما يحدث لهم فى الآية التى معنا : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ .. (٢٧)﴾ [الفرقان] لأنه فى موقف حسرة وندم على الفرصة التى فاتته ولن تعود ، والخطأ الذى لا يمكن تداركه ؛ لذلك يُعذِّب نفسه قبل أن يأتيه العذاب .

فيعضُّ على يديْه معاً ، فكأن الأمر المُفْزِع الذى يعاينه بلغ الغاية ؛ لذلك عضَّ على يديه ليبلغ الغاية فى المعضوض ، وهو العاضّ والمعضوض ، ولا يُعذِّب نفسه بهذه الطريقة إلا مَنْ يئس من النجاة .

ثم يُبيِّن علة ذلك : ﴿يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧)﴾ [الفرقان] وإنْ كانت هذه الآية قد نزلت فى حدث مخصوص وفى شخص بعينه ، فإنها تعمّ كل مَنْ فعل هذا ، فالعبرة ـ كما يقولون ـ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهذا جزاء كل ظالم حَادَ عن الجادة .

وهذه الآية نزلت فى حدث خاص باثنين(١) : عقبة بن أبى معيط ، وكان رجلاً كريماً يُطعم الطعام ، وقد دعا مرة رسول الله ﷺ إلى طعامه ، لكن رسول الله اعتذر له وقال : لا أستطيع أن أحضر طعامك إلا أنْ تشهد أن : لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فلما شهد

---

(١) أورده الواحدى النيسابورى فى أسباب النزول (ص ١٩١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣١٧) : « سواء كان سبب نزولها فى عقبة بن أبى معيط أو غيره من الأشقياء فإنها عامة فى كل ظالم » .

الرجل الشهادتين زاره رسول الله وأكل من طعامه ، فأغضب ذلك أمية ابن خلف صاحب عقبة فقال له : لقد صبوتَ يا عقبة ، فقال عقبة : والله ما قلتُ ذلك إلا لأننى أحببتُ أن يأكلَ محمد عندى كما يأكل الناس ، فقال أمية : فلا يبرئك منى إلا أنْ تذهب إلى محمد فى دار الندوة فتطأ عنقه وتبصق .. إلخ ، وفعل عقبة ما أشار عليه به صاحبه[1] فنزلت الآية : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) ﴾ [الفرقان] والمراد بالسبيل قوله : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

ثم يقول :

﴿ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) ﴾

الويل : الهلاك ، فهو يدعو الهلاك ويناديه أنْ يحلّ به ، والإنسان لا يطلب الهلاك لنفسه إلا إذا تعرّض لعذاب أشدّ من الهلاك ، كما قال أحدهم :

* أَشَدُّ من السّقم الذى يُذهِب السّقما *

وقول الشاعر :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى المَوْتَ شَافِياً وَحَسْبُ المنَايَا أَنْ يكُنَّ أَمَانِيَا[2]

فلما كانت المسألةُ أكبر منه وفوق احتماله نادى يا ويلتى احضرى ، فهذا أوانك لتُخلِّصينى مما أنا فيه من العذاب .

---

(١) قال الضحاك : لما بزق عقبة فى وجه رسول الله ﷺ عاد بزاقه فى وجهه فتشعب شعبتين ، فأحرق خديه ، وكان أثر ذلك فيه حتى الموت . نقله الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٢) .

(٢) البيت بيت مشهور للمتنبى (ديوانه ٤/٢٨١) وأورده شهاب الدين محمود الحلبى فى كتاب « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » (٢٥٢) فى فصل « حسن الابتداءات » .

وقوله ﴿لَيْتَنِى .. (٢٨)﴾ [الفرقان] تَمَنٍّ ، والتمنّى طلب أمر محبوب لا سبيلَ إلى حصوله ، كما قال الشاعر فى التمنى :

لَيْتَ الكَواكِبَ تَدْنُو لِى فَأنظِمَهَا　　عُقودَ مَدْحٍ فَمَا أرْضَى لكُمْ كَلمِى

وهذا أمر لا يمكن أنْ يُنال .

وآخر يقول :

فيا لَيْتَ الشَّبابَ يَعُودُ يَوْماً　　فَأُخبِرَه بِمَا فعَل المشيبُ

فقصارى ما يعطيه أسلوب التمنى أنه يدلّ على أمر محبوب ، كنت أحب أن يحدث ، لكن أيحدث بالفعل ؟ لا .

وكلمة (فلان) تقولها كناية عن شخص لا تحب حتى ذكْر اسمه ، فعقبة (ابن أبى مُعيط) لم يقل : ليتنى لم أتخذ أمية (بن خلف) خليلاً إنما قال (فلاناً) لأنه كاره له يبغض حتى ذكر اسمه .

والخليل : من الخُلَّة والمخالَّة يعنى : الصداقة المتداخلة المتبادلة وفى ذلك يقول الشاعر :

وَلَمَّا التقَيْنَا قَرَّبَ الشَّوْقُ جَهْده　　خَليلَيْنِ ذَابَا لَوْعَةً وعِتَابَا

كأنَّ خَليلاً فى خِلاَلِ خَليله　　تَسرَّب أثْنَاءَ العِنَاقِ وغَابَا

ثم يذكر علة ذلك :

﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا (٢٩)﴾

﴿خَذُولاً (٢٩)﴾ [الفرقان] صيغة مبالغة من الخذلان ، نقول : خاذل وخذول ، ومعنى خذلك أى : تخلّى عنك فى الأمر بعد أنْ مدَّ لك حبالَ الأمل ، فإذا ما جاء وقت الحاجة إليه تخلّى عنك وتركك ، كذلك

الشيطان يفعل بأوليائه ، كما جاء فى آيات أخرى : ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)﴾ [الحشر] وفى آية أخرى : ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ .. (٤٨)﴾ [الأنفال]

وفى موضع آخر يقول لأتباعه : ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ(١) وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

فحين يقولون له : لقد أغويتنا وأضللْتنا يقول لهم : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] لا سلطانَ حجة أقنعكم به ولا سلطان قهر أحملكم به وأقهركم على طاعتى ، بل كنتم على (تشويرة) : ﴿إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢)﴾ [إبراهيم]

ثم يقول الحق سبحانه عن رسوله محمد ﷺ :

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورًا (٣٠)﴾

القوم : قوْم الرجل : أهله وعشيرته والمقيمون معه ويجمعهم : إما أرض ، وإما دين . وسُمُّوا قَوْماً لأنهم هم الذين يقومون على أمر الأشياء ، فهم الرجال خاصة ؛ لأن النساء المفروض فيهن السكن والقرار فى البيوت .

والحق - تبارك وتعالى - يوضح لنا هذا الفرق فى قوله تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا

(١) المصرخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . واستصرخه : استغاث به . والصريخ : الاستغاثة والمستغيث والمغيث . [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. ﴿١١﴾ [الحجرات] إذن : فالقوم هم الرجال خاصة .

ومن ذلك أيضاً قول الشاعر(١) :

وَمَا أدرى ولَسْتُ إخَالُ أدْرِى ... أقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نِسَاءُ(٢)

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان] أضاف القوم إليه - ﷺ - لأنه منهم يعرفونه ويعرفون أصله ، وقد شهدوا له بالصدق والأمانة ومكارم الأخلاق قبل أن يُبعثَ ، وكان عندهم مؤتمناً على نفائس أموالهم ؛ لذلك خاطبهم الحق تبارك وتعالى بقوله : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]

إذن : فالرسول ليس بعيداً عنكم ، ولا مجهولاً لكم ، فمَنْ لم يؤمن به كرسول ينبغى أنْ يؤمن به كأسْوة وقدوة سلوك لسابق تاريخه فيكم .

لذلك نرى أن سيدنا أبا بكر ما انتظر من رسول الله دعوةً ، ولا أنْ يقرأ له قرآناً ، أو يُظهر له معجزة ، إنما آمن وصدَّق بمجرد أن قال رسول الله ، فما دام قد قال فقد صدق ، ليس بمعجزة رآها أبو بكر ، إنما برصيده القديم فى معرفة رسول الله فى سلوكه وخُلُقه ، فما كان رسول الله ﷺ ليَدع الكذب على الخَلْق ، ويكذب على الخالق .

(١) الشاعر هو : زهير بن أبى سلمى ، حكيم الشعراء فى الجاهلية ، كان أبوه وخاله وأخته سلمى وابناه كعب وبجير وأخته الخنساء شعراء ، ولد فى بلاد « مزينة » بنواحى المدينة ، من أشهر شعره معلقته ، توفى عام ١٣ ق. هـ . [الأعلام للزركلى ٣/٥٢] .

(٢) ديوان زهير بن أبى سلمى ٧٣ ، وحسن التوسل صفحة ٢٣١ .

وكذلك السيدة خديجة : هل انتظرت من رسول الله ما يُثبت نبوته ؟ إنها بمجرد أن قال رسول الله صدَّقتْ به ، ووقفت بجانبه وثبَّتته وهدَّأتْ من روعه ، وقالت له : « والله لا يُسلمك الله أبداً ، إنك لتصلُ الرحم ، وتحمل الكلَّ(١) ، وتعين على نوائب الدهر »(٢) .

ومعنى : ﴿مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾﴾ [الفرقان] من الهجر وهو قَطْع الصلة ، فإنْ كانت من جانب واحد فهى هَجْر ، وإن كانت من الجانبين فهى (هاجراً) . والمعنى : أنهم هجروا القرآن ، وقطعوا الصلة بينهم وبينه ، وهذا يعنى أنهم انقطعوا عن الألوهية وانقطعوا عن الرسالة المحمدية ، فلم يأخذوا أدلة اليقين العقدية ، وانقطعوا عن الرسالة المحمدية حينما كذَّبوا بها ، وانقطعوا عن الأحكام حينما عَصَوْها ، وبذلك اتخذوا هذا القرآن مهجوراً فى كل هذه المسائل : العقائد والعبادات والتصديق بالرسول .

مع أن العرب لو فهموا قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف] لمجّدوا القرآن وتمسَّكوا به ، فهو الذى عصمهم وعصم لغتهم ، وأعلَى ذكْرهم بين الأمم ، ولو أن كل أمة من الأمم المعاصرة أخذتْ لهجتها الخاصة الوطنية ، وجعلت منها لغةً لتلاشت العربية كلغة .

وفى كثير من بلدان الوطن العربى لو حدَّثوك بلهجتهم الخاصة لا تفهم منها شيئاً ، ولولا أن الفُصْحى لغة القرآن تربط بين هذه اللهجات لأصبحتْ كلٌّ منها لغةً خاصة ، كما حدث فى اللغات اللاتينية

(١) تحمل الكل : أى تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال انظر شرح النووى على مسلم (٢/٥٦١) ، وفتح البارى للعسقلانى (١/٢٤) .
(٢) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

التى تولدت منها الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية ، ولكل منها أسسها وقواعدها الخاصة بها ، وكانت فى الأصل لغة واحدة ، إلا أنها لا رابطَ لها من كتاب مقدس .

فالحق - تبارك وتعالى - يُنبِّههم إلى أن القرآن فيه ذِكْرهم وشرفهم وعزتهم ، وفيه شهرتهم وصِيتهم ، فالقرآن جعل العربَ على كل لسان ، ولولاه لذابوا بين الأمم كما ذابتْ قبلهم أمم وحضارات لم يسمع عنها أحد .

لذلك يقول لهم النبى ﷺ : « إنْ تؤمنوا بما جئت به يكُنْ حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوا علىَّ قولى صبرتُ حتى يحكم الله بينى وبينكم»(١) .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾

وإذا لم يكُنْ للرسول أعداء ، فلماذا جاء ؟ لو انتظرنا من الجميع ساعةَ يأتى الرسول أنْ يُصدقوه ويؤمنوا به إذن : فلماذا جاء الرسول ؟ لا يأتى الرسول إلا إذا طَمَّ الفساد وعَمّ ، كما أننا لا نأتى بالطبيب إلا إذا حدث مرض أو وباء .

وهؤلاء القوم كانت لهم سيادة ومكانة ، وقد جاء الإسلام ليُسوِّى بين الناس ، ويسلب هؤلاء سيادتهم ، فلا بُدَّ أن يقفوا منه موقف العداء ، وهذا العداء هو حيثية وجود الرسول فيهم . وليس النبى ﷺ

(١) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (٢٩٦/١) ضمن حديث وفد كفار قريش إلى رسول الله ﷺ .

بدْعاً فى ذلك ، فما من نبى إلا وكان له أعداء ، مع أن الأنبياء السابقين كان النبى منهم فى فترة زمنية محدودة وفى مكان محدود .

أما رسالة محمد ﷺ فكانت رسالة عامة فى الزمان وفى المكان ، ولا بُدَّ أنْ يتناسب العداء ـ إذن ـ مع انتشار الرسالة وعمومها فى الزمان والمكان إلى قيام الساعة وعلى النبى ﷺ أن يُوطِّن نفسه على ذلك .

وكلمة (عدو) من الكلمات التى تُطلق مفردة ، وتشمل المثنى والجمع ، ومن ذلك قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الشعراء]

وفى سورة الكهف : ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف] ولم يقل : أعداء .

وفى بعض الآيات تأتى بصيغة الجمع كما فى قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [آل عمران] فلو كانت قضية لغوية لجاءتْ بصيغة المفرد فى كل الآيات .

لكن لماذا عدلَ القرآن هنا عن صيغة المفرد إلى صيغة الجمع ؟

قالوا : إنْ كانت العداوة من المفرد والمثنى والجمع عداوة واحدة قال (عدو) بصيغة المفرد لاتحاد سبب العداوة ، فإنْ كانت العداوات مختلفة : هذا يعاديك لشرفك ، وهذا يعاديك لعلمك ، وهذا يعاديك لمالك ، فتعددت أسباب العداوة قال (أعداء) أما فى مسألة الإيمان واليقين بالنسبة للكافرين فالعداوة واحدة ، لكن فى أمور الدنيا العداوات متعددة : هذا يعاديك لكذا ، وهذا يعاديك لكذا ؛ لأنه مخالف لهواه .

وحينما تحدثنا عن قوله تعالى : ﴿ وَلاَ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور] كلها بصيغة الجمع إلا فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ .. (٦١) ﴾ [النور] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ لأن صداقة المؤمنين ينبغى ألاَّ تكون إلا لمعنى واحد ، هو الحب لله ، وفى الله ، لا ينبغى أن يكون لك صديق لكذا وصديق لكذا .

وفى ذلك يقول النبى ﷺ : « ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأنْ يحبَّ المرءَ لا يُحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يُقذف فى النار »[1] .

فإذا كان أصدقاؤك يحبونك لله ، فهم جميعاً كصديق واحد .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ ..(٣١) ﴾ [الفرقان] يعنى : كأعدائك الذين اتخذوا القرآن مهجوراً ، والذين وقفوا منك موقف التعنت والإيذاء والسخرية .

﴿ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ..(٣١) ﴾ [الفرقان] أى : الذين يُجرمون يعنى : يرتكبون الجرائم ، وهى المعاصى والذنوب حَسْب مدلولاتها .

الحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يكشف لرسوله ﷺ حقيقة أعدائه ، وأنهم كثيرون ، وأنهم مجرمون إنما ليوطِّن نفسه على ذلك ، فلا يُفَاجأ به ، ويتحمل أذاهم إنْ أصابوه بسوء . وهذه المسألة كالمصْل والتحصين الذى يعطونه للناس لمواجهة المرض قبل حدوثه ، فالحق سبحانه يعطى رسوله المناعة اللازمة لمواجهة أعداء الدعوة .

---

(١) حديث متفق عليه ، أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦) وكذا مسلم فى صحيحه (٤٣) كلاهما فى كتاب الإيمان من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

لذلك نجد « تشرشل » القائد البريطانى الذى ساس الحرب العالمية الثانية كان يواجه جنوده بالحقائق أفظع مما هى فى الواقع ليُوطِّن شعبه على قوة التحمل ، وعلى التصدِّى للصعوبات الشديدة ، ومهما واجههم من مصاعب قال لهم ما زال هناك المزيد منها ، حتى إذا ما حدث ذلك كانوا على استعداد له .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الفرقان] أى : أن الله تعالى سيهديك إلى الطريق الذى بمقتضاه تنتصر على هؤلاء جميعاً . وسبق أن ذكرنا عن الفاروق عمر - رضى الله عنه - أنه حينما نزل قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] قال : أىُّ جمع هذا ؟ يعنى تعجب كيف سنهزم هؤلاء ونحن الآن عاجزون حتى عن حماية أنفسنا ؟ ولا نبيت إلا فى السلاح ، ولا نصبح إلا فى السلاح نخاف أن يتخطفنا الناس ، فلما وقعتْ بدر وهُزِم المشركون وحُصِدت أرواح صناديدهم قال : صدق الله : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر][1] .

كيف حدث هذا ؟ حدث من هداية الله لرسوله ﷺ إلى أسباب النصر ، والحق - تبارك وتعالى - ينصر بالشىء وينصر بضده ، وقد اجتمع فى بدر سادات قريش وأقوياؤها وأغنياؤها وصناديد الكفر بها ، حتى قال رسول الله ﷺ : « هذه مكة ، قد ألقت إليكم أفلاذ[2] كبدها»[3] ،

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٢٦٦/٤) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يهزم ؟ أى : أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ » .

(٢) الفِلْذة : القطعة من الكبد واللحم والمال والذهب والفضة . والجمع أفلاذ . وفى حديث بدرٍ : « هذه مكة قد رمتكم بأفلاذ كبدها » أراد صميم قريش ولبابها وأشرافها ، كما يقال : فلان قلب عشيرته ؛ لأن الكبد من أشرف الأعضاء » [لسان العرب - مادة : فلذ] .

(٣) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٤٣/٣) ، وأورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٦١٧/٢) عن عروة بن الزبير .

وقد خرجوا جميعاً على حال الاستعداد للحرب ، أما المؤمنون فقد كانوا قلّة مستضعفين على غير استعداد للحرب ، ومع ذلك نصرهم الله .

والحق سبحانه يُطمئن رسوله ﷺ والمؤمنين معه : ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ .. (٢٤٩) ﴾ [البقرة]

وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

وقال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد] أى : ننقص من أرض الكفر ، ونزيد فى أرض الإيمان ، والحق سبحانه أخبرنا بقضايا ، يجب أن تُوجَد أحداث فى الحياة والواقع خادمة لتصديق هذه القضايا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) ﴾

هذا أيضاً أحد الأمور التى يتعلقون بها كى لا يؤمنوا ، وكيف يطلبون أن ينزل القرآن جملة واحدة ، وهم لا يطيقون منه آية واحدة ؟ لكنه الجدل والسفسطة والإفلاس فى الحجة ، فاعتراضهم على نزول القرآن مُنَجّماً[1]

إذن : لا غضاضة عندهم فى القرآن ، وعَيْبه فى نظرهم أنه نزل على محمد بالذات ، وأنه ينزل مُنجّماً لا جملة واحدة ، وكأن طاقة الإيمان عندهم تناسب نزول القرآن جملة واحدة !!

(١) مُنجماً : أى : مُفرّقاً مقطعاً على حسب الأحداث وأسباب نزول الآيات آية آية . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣١٨) : « روى النسائى بإسناده عن ابن عباس قال : أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة » .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ .. ㉜ ﴾ [الفرقان] يعنى : أنزلناه كذلك مُنجَّماً حَسْب الأحوال ، والحكمة من ذلك ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ .. ㉜ ﴾ [الفرقان] لأنك ستتعرض على مدى ثلاث وعشرين سنة لمواقف تزلزل ، فكلما تعرضْتَ لموقف من هذه المواقف نزل القرآن تسليةً لك وتثبيتاً وَصلةً بالسماء لا تنقطع . ولو نزل القرآن مرة واحدة لكان التثبيت مرة واحدة ، ثم تأتى بقية الأحداث بدون تثبيت ، ولا شكَّ أن الصلة بالسماء تُقوِّى المنهج وتُقوِّى الإيمان .

كما أن القرآن لو نزل مرة واحدة ، كيف يتسنى لهم أنْ يسألوا عما سألوا عنه مما حكاه القرآن : يسألونك عن كذا ، يسألونك عن كذا .. إلخ . إذن : نزوله مُنجَّماً اقتضاء لحكمة الحق سبحانه ليُعدِّدَ مواقف تثبيتك ، لتعدد مواقف الإيذاء لك .

ومعنى : ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ㉜ ﴾ [الفرقان] أى : أنزلناه مُنجّماً حَسْب الأحوال ، فكلما نزل نجم تمكنتم من حفْظه وتكراره فى الصلاة .

﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ㉝ ﴾

المثَل مثل قولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. ㉜ ﴾ [الفرقان] أو قولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ㉛ ﴾ [الزخرف] والمثل : الأشياء العجيبة التى طلبوها .

ولو أجابهم الله لما قالوا لأنكروا قولهم وتنصّلوا منه ، كما قال تعالى عن اليهود : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. ⑭② ﴾ [البقرة] ومع ذلك قالوا ما حكاه القرآن عنهم . أمَا كان فيهم رجل يتنبه لقول القرآن ، فيحذرهم من هذا القول ليُوقِع

رسول الله فى حرج ، ويُظهر القرآن على أنه كذب ؛ ويقول كلاماً يخالف الحقيقة ، وعندها ، لهم أنْ يقولوا : لقد قال القرآن كذا وكذا ولم يحدث منا هذا ؟

﴿ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ ﴾

﴿ الَّذِينَ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [الفرقان] إجمال لأشخاص معروفين بذواتهم ، وقفوا من الرسول موقف العداء ، ومنهم مَنْ سبق أن قال : ﴿ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفرقان]

والحشر : الجمع للحساب ، لكن سيُحشَرون على وجوههم ؛ لذلك لما نزلت هذه الآية سألوا رسول الله : كيف يمشُون على وجوههم ، قال ﷺ : « الذى أمشاهم على أرجلهم ، قادر أن يُمشيهم على وجوههم »(١) .

فالذى يمشى على وجهه كالذى يمشى على بطنه ، ولعله يُجَر جراً ، سواء أكان على وجهه أو على أى شيء آخر ، ثم إن الإنسان لا ينبغى له أن يسأل عن أمور هى مناط القدرة المطلقة .

والحق - تبارك وتعالى - يُوضِّح هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي

(١) عن أنس بن مالك أن رجلاً قال : يا نبى الله يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ قال : « أليس الذى أمشاه على الرِّجْلين فى الدنيا قادراً على أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٦٠ ، ٦٥٢٣) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨٠٦) كتاب صفات المنافقين .

عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)﴾ [النور]

إذن : المشْى لا ينحصر فى الحالات التى نعرفها فقط ، إنما هى طلاقة القدرة التى تفعل ما تشاء .

لكن ، لماذا لم يذكر القرآن أسماء هؤلاء الأشخاص الظالمين المعاندين للإسلام ؟ قالوا : هذا من باب إرخاء العِنَان للخَصْم ، وكلمة (العنان) تأتى بكسر العين وفتحها ، واللغويون يقولون : هى على وزن ما هى بمعناه ، فإن قصدتَ بها عَنان السماء فهى على وزن سَحَاب ، وإن أردتَ بها عِنان الفرس ، فهى على وزن لِجَام .

وراكب الدابة إنْ أرخى لها العنان تركها تسير كما تشاء ، كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُرخِى للخصم العِنان ليقول كل ما عنده ، وليأخذه إلى جانبه ، لا بما يكره ، بل بما يحب . وقد علَّم الله تعالى رسوله ﷺ كيف يردُّ عليهم ويجادلهم الجدل الهادىء بالتى هى أحسن ، فحين قالوا عنه مفتر ، وعن القرآن مُفترىً ومكذوب ردَّ عليهم : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ .. (٣٨)﴾ [يونس]

ثم يترقَّى فى جدالهم : ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ (٣٥)﴾ [هود] وفى آية أخرى يرد عليهم : ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾ [سبأ]

وهل النبى ﷺ لا يعرف مَنْ على الهدى ومَنْ على الضلال ؟ لا شكَّ أنه إرخاء العنان للخصم ، يقول لهم : أنا وأنتم على طَرَفى نقيض : أنا أقول بإلهٍ واحد وأنتم تُكذِّبون قولى ، فأنا متناقض معكم فى هذه القضية ، والقضية لا بُدَّ أن تأتى على شكل واحد ، فإمَّا أنا على الهدى ، وإمَّا أنتم ، وأنا لا أدَّعى الحق لنفسى .

إذن : المطلوبُ أنْ تُعملوا عقولكم لتُميِّزوا مَنْ منّا على الهدى ومَنْ منّا على الضلال ، وكان رسول الله يرتضى حكومتهم فى هذه المسألة ، وما ترك لهم رسول الله الحكمَ إلا وهو واثق أنهم لو تجردوا من الهوى لعرفوا أن الحق معه ، وأنه على الهدى ، وأنهم على الضلال .

إذن : عندما تكلم القرآن عن كفار قريش الذين تعنتوا فى اقتراحاتهم ، وعاندوا وآذوا رسول الله بكل أنواع الإيذاء ، ومع ذلك حينما تكلم عنهم جاء بأسلوب عام فقال : (الذين) ولم يقل هؤلاء ، بل جاء بالقضية العامة ولم يُواجههم بالجزاء مما يدلّ على التلطف فى أمر الدعوة ، وهذا نوع من استمالة الخَصْم لنقطع منه شراسة العداء والعناد .

لذلك يخاطب الحق - تبارك وتعالى - رسوله ﷺ : ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران] كأنك لم تَلِنْ لهم بطبْعك ؛ لأن عنادهم وأذاهم كان سيُرغم طبْعك على أن تكون قاسياً معهم ولكن رحمة الله شملتْك فلِنْتَ لهم ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ .. (١٥٩)﴾ [آل عمران]

هذا يعنى أن الداعية لا بُدَّ أن يكون رَحْب الصدر ، رَحْب الساحة ، ذلك لأنه يُخرِج أهل الضلال عما ألفوه إلى شىء يكرهونه ، فلا تُخرجهم من ذلك بأسلوب يكرهونه ، فتجمع عليهم شدتين ، إنما تلطَّفْ معهم ، كما قال عز وجل لموسى وهارون عندما أمرهما بدعوة فرعون : ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤)﴾ [طه]

لأن الذى بلغ من عناده أنْ يتكبّر لا على المخلوقين أمثاله ، إنما يتكبّر على الخالق فيدّعى الألوهية لا بُدَّ أنْ تأتيه بأسلوب ليِّن لطيف .

وفى آية أخرى يُعلِّم الحق سبحانه رسوله ﷺ كيف يجادل المشركين ، فيقول سبحانه : ﴿قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. (٢٥)﴾ [سبأ]

وهل يُتصوَّر الإجرام من رسول الله ؟! وفى المقابل : ﴿وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [سبأ] مع أن منطق الجدل هنا أن يقول : ولا نُسأل عما تُجرمون ، لكنه نسب الإجرام لنفسه ، ولم يذكره فى حَقِّ الآخرين ، فهلَ هناك تلطُّفٌ وترقيق للقلوب فوق هذا ؟

الحق - تبارك وتعالى - يعرض لكل هذه المسائل ليثبت أن رسوله ﷺ كان حريصاً على إيمان قومه ، وأنه لم يدّخرْ وُسْعاً فى سبيل هدايتهم وجَذْبهم إليه ؛ لدرجة أنه حمّل نفسه فوقَ ما يطلبه الله منه ، حتى قال له ربه : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ [الكهف]

وقال : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [الشعراء]

يعنى : مُهلكٌ نفسك من أجل هدايتهم ، وما عليك إلا البلاغ ، ولا يقول له ربه هذا الكلام إلا إذا كان قد علِم منه حِرْصاً ورغبة أكيدة فى هداية قومه .

ومعنى : ﴿أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾﴾ [الفرقان] قوله تعالى ﴿شَرٌّ .. ﴿٣٤﴾﴾ [الفرقان] ولم يقُلْ أشر ؛ لأن معناها : أن الجهة الثانية فيها شر ، وهذا أيضاً من إرخاء العنان للخصم .

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن أقوام الرسل السابقين :

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا[1] ﴿٣٥﴾﴾

(١) الوزير : المعين والمساعد . قال فى [لسان العرب - مادة : وزر] : « الوزير فى اللغة اشتقاقه من الوَزَر ، والوزر : الحبل الذى يعتصم به ليُنجى من الهلاك ، وكذلك وزير الخليفة معناه الذى يعتمد على رأيه فى أموره ويلتجىء إليه » .

سبق قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ .. (٣١) ﴾ [الفرقان] فلا بُدَّ أن يكون لكل نبى أعداء ؛ لأنه جاء ليعدل ميزان المكارم الذى تحكم فيه ناس مُستبدون فى شراسة، وأهلُ فساد سيُحْرمون من ثمرة هذا الفساد ، فطبيعى أنْ يقفوا فى وجه الدعوة .

لذلك يضرب الحق سبحانه لرسوله ﷺ بعض الأمثال من موكب الرسالات ، فيقول : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا (٣٥) ﴾ [الفرقان]

كأن الحق سبحانه يقول لرسوله : لقد تعرضتَ لمشقة دعوة أناس لا يؤمنون بالإله ، أمّا موسى فقد تعرض لدعوة مَن ادعى أنه إله ، إذن : هناك مَنْ تحمل كثيراً من المشقات فى سبيل الدعوة ، لدرجة أن موسى عليه السلام رأى نفسه لن يستطيع القيام بهذه المهمة وحده .

فنراه وهو النبى الرسول الذى اختاره الله - يقول : ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي .. (٣٤) ﴾ [القصص] وهذا يعنى أن موسى - عليه السلام - يعلم مدى المشقة ، وحجم المهمة التى سيقوم بها .

فالرسالات السابقة كان الرسول يُبعَث إلى أمته المحدودة فى الزمان وفى المكان ، ومع ذلك لاقوا المشقات ، أما أنت يا محمد فقد أُرسلتَ برسالة عامة فى الزمان وفى المكان إلى أنْ تقوم الساعة ، فلا بُدَّ أن تكون متاعبك مثل متاعب مَنْ سبقوك جميعاً .

﴿ فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) ﴾

الخطاب فى ﴿ اذْهَبَا .. (٣٦) ﴾ [الفرقان] للرسول موسى ، وللوزير هارون وقال : ﴿ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا .. (٣٦) ﴾ [الفرقان] مع أن فيهم مَن ادعى الألوهية استمراراً لإرخاء العِنَان للخَصْم ، فقد كذّب فرعون بأن من آيات الله أن يؤمن بإله واحد .

ثم كانت النهاية ﴿ فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً (٣٦) ﴾ [الفرقان] لأنهم وقفوا من موسى وهارون موقفَ العداء ، وقامت بينهما معركة تدخل فيها الحق سبحانه ، ودمرهم تدميراً ، كأن الحق سبحانه يقول لرسوله : اطمئن فإنْ حادوا عن جادة الحق وأبَوْا إنْ يأتوك طائعين ، فسوف تكون نهايتهم كنهاية هؤلاء .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً (٣٧) ﴾

ذكر الحق - تبارك وتعالى - نوحاً بعد موسى عليهما السلام ؛ لأن كلاً منهما تميَّز فى دعوته بشىء ، وتحمَّل كل منهما ألواناً من المشقة ، فموسى واجه مَن ادعى الألوهية ، ونوح أخذ سُلْطة زمنية واسعة انتظمتْ كل الموجودين على الأرض فى وقته - ولا يعنى هذا أنه - عليه السلام - أُرسل إلى الناس كلهم ، إنما كان قومه هم الموجودون على الأرض فى هذا الوقت - فقد لَبِثَ فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً .

واقرأ قصته - عليه السلام - فى سورة نوح لتقف على مدى معاناته فى دعوة قومه طوال هذه الفترة ، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل ، وكانت الغَلَبة له فى النهاية .

وأيضاً لأنه - عليه السلام - تعرّض لأمر يتعلق بالبنوة ، بُنوّة فى المنهج ، وبُنوة فى النسب ، فقد كان ابنه - نسباً - كافراً ، ولم يتمكن من هدايته ، ولما قال لربه عز وجل ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. (٤٥)﴾ [هود] قال له : ﴿يَـٰنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

فجعل حيثية النفى ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود] فالنسب هنا عمل وطاعة ، فكان البنوة للأنبياء بنوة عمل ، لا بنوة نسب ، فابنك الحق مَنْ سار على منهجك ، وإنْ لم يكُنْ من دمك .

مسألة أخرى نلحظها فى الجمع بين موسى ونوح عليهما السلام فى مقام تسلية رسول الله ﷺ ، فهما يشتركان فى ظاهرة كونية تستحق التأمل والنظر ، فكل مظاهر الكون التى أمامنا لو حققنا فى كل مظهر من مظاهرها بعقل وتُؤدَة ويقين لأمكَنَنا أن نستنبط منها ما يُثرى حياتنا ويُترفها ويُسعدها .

لذلك الحق - تبارك وتعالى - ينعى على الذين يُعرضون عن النظر في آياته ، فيقول : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾ [يوسف]

وسبق أن قلنا : إن كل المخترعات التى رفَّهتْ حياة الناس وأسعدتهم ، وقلّلت مجهوداتهم ، وقصّرت الوقت عليهم ، كانت نتيجة الملاحظة والتأمل فى مظاهر الكون كالذى اخترع العجلة والبخار .. إلخ .

وهنا نلاحظ أن العلاقة بين موسى ونوح - عليهما السلام - أن الله تعالى يُهلك ويُنجى بالشيء الواحد ، فالماء الذى نجَّى موسى هو الماء الذى أغرق فرعون ، والماء الذى نجَّى نوحاً هو الماء الذى أغرق

الكافرين من قومه . فهذا تسلية لرسول الله ﷺ ، فالله تعالى إنْ أراد الإنجاء يُنجِّى ، وإنْ أراد الإهلاك يُهلك ، ولو بالشيء الواحد .

ألاَ ترى أن أصحاب موسى حينما رأوا البحر من أمامهم ، وفرعون من خلفهم قالوا ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء] فهذه حقيقة وقضية كونية مَنْ يملك ردَّها ؟ إنما ردها موسى فقال (كَلاَّ) لن نُدرَك ، قالها بملء فيه ، لا ببشريته ، إنما بالربوبية التى يثق فى أنها لن تسلمه ، ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء]

وكذلك كانت مسألة نوح عليه السلام ، لكن بطريقة أخرى ، هى السفينة ، وفكرة السفينة لم تكُنْ موجودة قبل نوح عليه السلام ، ألم يصادف واحد شجرة مُلْقاة فى الماء تطفو على سطحه ، ففكَّر فى ظاهرة الطفو هذه ، وكيف أن الشجرة لم تغطس فى الماء ؛ لقد كان النجارون الماهرون يقيسون كثافة الخشب بأن يُلْقوه فى الماء ، ثم ينظروا مقدار الغاطس منه فى الماء ، وعليه يعرفون كثافته .

هذه الظاهرة التى تنبه لها أرشميدس وبنَى عليها نظرية الأجسام الطافية والماء المُزَاح ، وتوصَّل من خلالها إلى النقائض ، فبها تطفو الأشياء أو تغوص فى الماء ، إنْ زادت الكثافة يثقل الشيء ويغوص فى الماء ، وإنْ قلَّتْ الكثافة يطفو .

وتلاحظ ذلك إذا رميتَ قطعة نقود مثلاً ، فإنها تغطس فى الماء ، فإنْ طرقتَها حتى جعلتها واسعةَ الرقعة رقيقة ، فإنها تطفو مع أن الكتلة واحدة ، نعم الكتلة واحدة ، لكن الماء المُزَاح فى الحالة الثانية أكثر ، فيساعد على طفْوها .

وقد أراد الحق - تبارك وتعالى - أن يُنبِّه الإنسان إلى هذه الظواهر ، ويهديه إلى صناعة السفن التى تحمله فى الماء ؛ لأن ثلاثة

أرباع الكرة الأرضية مياه ، وقد جعل الله لك وسائل مواصلات فى الربع ، ألاَ يجعل لك مواصلات فى الثلاثة أرباع ؛ فتأخذ خيرات البحر ، كما أخذت خيرات البرّ ؟

وتأمل أسلوب القرآن : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ .. (٣٧)﴾ [الفرقان] ومعلوم أنهم كذَّبوا رسولهم نوحاً لا جميع الرسل ، قالوا : لأن النبوة لا تأتى بمتعارضات ، إنما تأتى بأمور مُتفق عليها ؛ لذلك جعل تكذيبَ رسول واحد كتكذيب جميع الرسل .

ثم ذكر عاقبة ذلك : ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً .. (٣٧)﴾ [الفرقان] وكلمة ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ .. (٣٧)﴾ [الفرقان] تعنى : أن الذى أغرق المكذبين نَجَّى المؤمنين ، وإغراق المكذبين أول عملية تردٌّ على سخريتهم من نوح ، حينما مرُّوا عليه وهو يصنع السفينة : ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨)﴾ [هود]

ولم يكن الغرق نهاية الجزاء ، إنما هو بدايته ، فهناك العذاب الذى ينتظرهم فى الآخرة : ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧)﴾ [الفرقان] وهكذا جمع الله عليهم الغرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة .

ثم يضرب الحق ـ تبارك وتعالى ـ لرسوله مثلاً آخر :

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ
وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨)﴾

إنها نماذج من المتاعب التى لاقاها الرسل من أممهم ، كما قال فى موضع آخر : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥)﴾ [الأعراف] . ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. (٧٣)﴾ [الأعراف]

وكانت النهاية أن نصر الله أولياءه ورسله ، ودحر خصومهم والمكذِّبين بهم ، كل ذلك ليقول لرسوله ﷺ : يا محمد لست بدعاً من الرسل ، فإنْ وقف منك قومك موقفَ العناد والتكذيب ، فكُنْ على يقين وعلى ثقة من نصر الله لك كما قال :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إنها قضية يطلقها الحق - تبارك وتعالى - لا للتأريخ فقط ، ولكن لتربية النفس البشرية ، فإنْ أردتَ الغلبة فكُنْ فى جند الله وتحت حزبه ، ولن تُهزَم أبداً ، إلا إذا اختلَّتْ فيك هذه الجندية ، ولا تنْسَ أن أول شىء فى هذه الجندية الطاعة والانضباط ، فإذا هُزِمْتَ فى معركة فعليك أن تنظر عن أىٍّ منهما تخليْتَ .

لذلك رأينا فى غزوة أحد أن مخالفة الرماة لأمر رسول الله قائد المعركة كانت هى سبب الهزيمة[1] ، وماذا لو انتصروا مع مخالفتهم لأمر الرسول ؟ لو انتصروا لَفهموا أنه ليس من الضرورى الطاعة والانقياد لأمر رسول الله . إذن : هذا دليل على وجوب الطاعة ، وألاَّ يخرجوا عن جندية الإيمان أبداً خضوعاً وطاعة ، ولا تقولوا : إن الرسول بيننا فهو يُربيكم ؛ لأنه لن يخلد فيكم .

(١) أمَّر رسول الله ﷺ على الرماة عبد الله بن جبير ، والرماة خمسون رجلاً ، فقال له ﷺ : « انضح عنا الخيل بالنبل لا يأتوننا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك » [دلائل النبوة ٣/٢٢٧] وفى رواية أخرى (٣/٢٢٩) : أن النبى ﷺ قال لهم : « إذا رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم . ثم لاحت لهم الغنائم ، فقال الرماة : الغنيمة ، ظهر أصحابكم فما تنتظرون ؟ قال عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة ، فأتوهم فصرفت وجوههم ، فأقبلوا منهزمين » .

وقوله تعالى : ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ .. (٣٨)﴾ [الفرقان] الرسّ : هو البئر أو الحفرة ، وكانت فى اليمامة ، ويُسمُّونها الأخدود ، وقد ورد ذكرها فى سورة البروج .

وقد قال سبحانه هنا : ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا (٣٨)﴾ [الفرقان] لم يُرِد الحق سبحانه أنْ يُعدِّد كل الأمم السابقة ، واكتفى بذكْر نماذج منها ، وفى مواضع أخرى يجمعهم جملةً ، فيقول تعالى : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا[١] وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. (٤٠)﴾ [العنكبوت]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)﴾

﴿وَكُلًّا .. (٣٩)﴾ [الفرقان] أى : كُلٌّ من المتقدمين ﴿ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ .. (٣٩)﴾ [الفرقان] يَعنى : لم أدع رسولاً إلا وجئتُ له بالعبرة برسول قبله ، أقول له : انظر فيمَنْ سبقك كيف كذَّبه قومه ؟ وكيف عاندوه ووقفوا منه هذا الموقف ، ومع ذلك كانت له الغلبة عليهم ؛ ذلك ليأخذ كُلٌّ نبى شحنةً مناعة وطاقة يصمد بها أمام شدائد الدعوة ، فلا يلين ، ولا ييأس ، ولْيكُنْ على يقين أن النهاية له وفى صالحه .

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩)﴾ [الفرقان] أى : أهلكنا ودمرنا كل من كذَّب الرسل بأنواع مختلفة ومتعددة من ألوان العذاب ، فعوقب بعضهم بالصيحة أو الخسف أو الإغراق أو بالريح الصرصر العاتية .

---

(١) حصبه : قذفه بالحصى . والحاصب : إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم والرياح العاصفة تفعل أكثر من ذلك . [القاموس القويم ١/١٥٦] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا(١) عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (٤٠) ﴾

هذه المشاهد لم تكن مجرد تاريخ يحكيه القرآن ، إنما مشاهد ومَرَاء رآها كفار مكة فى رحلة الصيف يمرون على هذه الديار ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات] إذن : فهذا التاريخ له واقع يسانده ، وآثار تدل عليه .

والقرية التى أُمطرتْ مطر السَّوْء هى سدوم قرية قوم لوط ﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا .. (٤٠) ﴾ [الفرقان] ألم يشاهدوها فى أسفارهم .

﴿ بَلْ كَانُوا لا يَرْجُونَ نُشُوراً (٤٠) ﴾ [الفرقان] كلمة (بَلْ) للإضراب ، فهى تنفى ما قبلها ، وتُثبت ما بعدها ، فالمعنى : أنهم مَرُّوا عليها وشاهدوها ، ويَعْرفونها تمام المعرفة ، لكنهم لا يرجُونَ نُشُوراً يعنى : لا ينتظرون البعث ، ولا يؤمنون به ، ولا يعترفون بالوقوف بين يدى الله للحساب ، ألم يقولوا : ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) ﴾ [المؤمنون]

وعجيبٌ ألاَّ يؤمنَ هؤلاء بالبعْث والحساب ، وهم أنفسهم كانوا إذا رأَوْا ظالماً وقفوا فى وجهه ومنعوه من الظلم ، كما كان فى حِلْف

(١) المقصود بهم مشركو قريش ، فقد كانوا فى الصيف يمرون على قرية قوم لوط فى رحلتهم إلى الشام فى الصيف .

الفضول مثلاً ، فيأخذون الظالم ويعاقبونه حتى يرجع عن ظُلْمه ، ثم يردُّون للمظلوم حَقّه ، لكن ألم ينظروا فى حال الظالمين الذين مرُّوا فى الدنيا دون عقاب ، ودون قصاص ؟ أليس من العدل أن تكون لهم دَارٌ أخرى يُحاسبون فيها ؟

لذلك كنا نردُّ على الشيوعيين بهذه المسألة ، نقول لهم : لقد عذبتُّمْ أعداءكم من الإقطاعيين والرأسماليين ، وانتقمتُّم منهم فما بال الذين سبقوكم ولم تدركوهم ؟ أليس من العدل أنْ تعترفوا بيوم جامع يُحاسب فيه هؤلاء ؟

ولما قال القائل : لن يموت ظلوم حتى ينتقم الله منه ، قالوا له : إن فلاناً الظالم قد مات ، ولم نَرَ فيه شيئاً ، فقال : إن وراء هذه الدار داراً يُجازى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

وبعد أن عرض الحق ـ تبارك وتعالى ـ بعض النماذج من موكب النبوات تسليةً لرسوله ﷺ يُبيِّن أن الأمر مع هؤلاء الكفار لن يتوقف عند العنَاد والتعنّت بمطالب سخيفة ، إنما يتعدَّى ذلك إلى محاولة الاستهزاء به والسخرية منه ، فقال سبحانه :

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾

(إنْ) نافية بمعنى : ما يتخذونك إلا هُزُواً ، ثم ذكر صيغة الاستهزاء : ﴿ أَهَٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ ﴾ [الفرقان] وفى موضع آخر قالوا : ﴿ أَهَٰذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأنبياء] كأنه ﷺ دون هذه المنزلة ، وما دام الرسول فى نظرهم دون هذه المنزلة

فإنهم يريدون شخصاً على مستوى المنزلة ، كما قالوا : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

ومعنى هذا أنهم مؤمنون بضرورة وجود إله ورسول ومنهج ، وكل اعتراضهم أن تكون الرسالة فى محمد بالذات .

ثم يتناقضون مع أنفسهم ، فيقولون :

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾

فكيف تستهزئون به وترَوْنه دون مستوى الرسالة ، ثم تقولون إنه كاد أنْ يُضلكم عن آلهتكم يعنى : قَرُبَ أنْ يُضلّكم عن آلهتكم ، مع ما أنتم عليه من التعنّت والعناد ؟ هذا دليل وشهادة لرسول الله أنه قوىٌّ وأنه على مستوى الرسالة ، وأنه لم يدخر وُسْعاً فى دعوتكم ، حتى كاد أنْ يصرفكم عن آلهتكم .

والدليل على أنهم كانوا يخافون من تأثير رسول الله عليهم قولهم لأتباعهم إذا رأوهم يستمعون للقرآن : ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت] إذن : يريدون أنْ يُشوِّشوا على القرآن لما يعلمون من تأثيره فى النفوس ، وهم أمة فصاحة وبلاغة ، فإنْ سمعوا القرآن فلا بُدَّ أن يُؤثّر فى قلوبهم ويجذبهم إليه .

ألا ترى قصة إسلام عمر ـ رضى الله عنه ـ وكيف كان قبل الإسلام شديداً جباراً ؟ فلما تهيأت له الفرصة فاستمع للقرآن وصادف منه ملكةً سليمة وفطرة نقية ، حيث أعاده حادث ضَرْبه

لأخته وشَجِّه لها ، أعاده إلى سلامة الفطرة والطويّة ، فلما سمع منها القرآن وصادف منه قلباً نقياً وفطرة سليمة تأثر به ، فأسرع إلى رسول الله يعلن إسلامه .

إذن : فقولكم : ﴿ إن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا .. (٤٢) ﴾ [الفرقان] دليل على أنه كُفْء للمهمة التى بعث بها ، وهذا يناقض قولكم سخريةً منه واستهزاءً : ﴿ أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً (٤١) ﴾ [الفرقان]

وقولهم : ﴿ لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا .. (٤٢) ﴾ [الفرقان] يدل على أنه ﷺ فعل معهم أفعالاً اقتضتْ منهم أنْ يصبروا[1] على الضلال ﴿ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً (٤٢) ﴾ [الفرقان] سيعرفون ذلك ، لكن بعد فوات الأوان ، وبعد ألاَّ تنفعهم هذه المعرفة .

﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يضع لرسوله ﷺ قضية ، هى أن الدين إنما جاء ليعصم الناس من أهواء الناس ، فلكُلِّ نفس بشرية هَوىً ، وكل إنسان يعجبه هواه ، وما دام الأمر كذلك فلن ينقاد لغيره ؛ لأن غيره أيضاً له هوىً ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١) ﴾ [المؤمنون]

لكن ، لماذا تختلف الأهواء ؟ قالوا : لأن طبيعة الحياة تتطلب أن تكون الأهواءُ مختلفةً ؛ لأن مجالات الحياة متعددة ، فهذا هواه فى كذا ، وهذا هواه فى كذا . فترى الصّديقَيْن يلازم أحدهما الآخر ، ويشاركه طعامه وشرابه ، فلا يفرقهما شىء ، فإذا ما ذهبا لشراء

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٩١١/٧) : « أى : حبسنا أنفسنا على عبادتها » .

شيء ما تباينتْ أهواؤهما ، كما أن هوىً مختلفاً يخدم هوىً مختلفاً ، فالذين اختلفوا مثلاً في تصميم الأشياء يخدمون اختلاف الأذواق والأهواء ، لذلك يقولون : خلاف هو عَيْن الوفاق ، ووفاق هو عَيْن الخلاف .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بسيطاً : هَبْ أنك دخلتَ مطعماً ، وأنت تفضل مثلاً ورك الدجاجة وغيرك كذلك يفضله ، وصادف أن في المطعم (وركاً) واحداً ، فلا شكَّ أنكما ستختلفان عليه . إذن : اتفقتما في الأول لتختلفا في الآخر ، لكن إن اختلفتْ رغباتكما ، فسوف ينتج عن هذا الاختلاف اتفاقٌ في النهاية ، فأنت ستأخذ الورك ، وغيرك سيأخذ الصدر ، فهذا - إذن - خلاف يؤدي إلى وفاق ، ووفاق يؤدي إلى خلاف .

هنا يقول الحق سبحانه : ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ .. ﴿٤٣﴾﴾ [الفرقان] الهَوَى . أن تكون هناك قضية ظاهرٌ فيها وَجْه الحق ، إلا أنك تميلُ عنه وأنت تعرفه ، لا أنك تجهله .

لذلك يقول العلماء : آفةُ الرأي الهوى . فالرأي قد يكون صائباً ، لكن يميل به الهوى حيث يريد الإنسان ، وقلنا : لا أدلّ على ذلك من أن الرجل منهم كان يسير فيجد حجراً أجمل من حَجره الذي يعبده ، فيلْقي الإله الذي يعبده ليأخذ هذا الذي هو أجمل منه فيتخذه إلهاً ، إذن : هواه في جمال الحجر غلب أنه إله .

وقد وقف المستشرقون عند قوله تعالى في حَقِّ النبي ﷺ : ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ [النجم]

يقولون : كيف يحكم الله بأن رسوله لم ينطق عن الهوى ، وقد عدَّل الله له بعض ما نطق به ، مثل قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ

تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. ⟨١⟩ ﴾ [التحريم]

وقال تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ .. ⟨٤٣⟩ ﴾ [التوبة]

ولا بُدَّ أن نُحدِّد مفهوم الهوى أولاً : أنت مدرك أن لديه قضيتين : الحق واضح فى إحداهما ، إلا أن هواه يميل إلى غير الحق . إنه ﷺ نطق لأنه لم تكن هناك قضية واقعة ، وهو يعرف وجه الحق فيها ، فهو - إذن - لم يَسِرْ على الهوى ، إنما على ما انتهى إليه اجتهاده .

ألاَ ترى قوله تعالى لرسوله ﷺ فى مسألة تبنِّيه لزيد بن حارثة ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ .. ⟨٥⟩ ﴾ [الأحزاب] فمعنى أن نسبته لأبيه أقسط أن رسول الله لم يكُنْ جائراً ، فما فعله قِسْط ، لكن فِعْل الله أقسط منه .

فالحق - تبارك وتعالى - لم يُخطِّىء رسوله ﷺ ، وسمَّى فعْله عدلاً ، وهو عَدْل بشرى يناسب ما كان من تمسُّك زيد برسول الله ، وتفضيله له على أهله ، فلم يجد رسول الله أفضلَ من أنْ يتبنَّاه مكافأةً له .

ثم يقول سبحانه : ﴿ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ⟨٤٣⟩ ﴾ [الفرقان] وكيلاً يتولَّى توجيهه ، ليترك هواه ويتبع الحق ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ⟨٢٢⟩ ﴾ [الغاشية] وقال : ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ⟨٩٩⟩ ﴾ [يونس] وقال : ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ .. ⟨٤٨⟩ ﴾ [الشورى]

فالذى اتبع هواه حتى جعله إلهاً له لا يمكن أنْ تحمله على أنْ

يعدل عن هواه ؛ لأن الأهواء مختلفة ، فالبعض يريد أنْ يتمتع بجهد غيره ، فيضع يده فى جيوب الآخرين ليسرقهم ، لكن أيسرُّه أن يفعل الناسُ معه مثلَ فعْله معهم ؟ إذن : هوى صادمَ هوى ، فأيُّهما يغلب ؟ يغلب مَنْ يحكم بلا هوى ، لا لك ولا عليك ، وقضية الحق فى ذاتها لا توجد إلا من الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾

﴿ يَسْمَعُونَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] أى : سماع تعقُّل وتدبُّر ، فلو سَمِعُوا وعَقلوا ما وصلتْ بهم المسائل إلى هذا الحدِّ ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] مع أن الأنعام مُسخَّرة وتُؤدِّى مهمتها ولم تمتنع عن شىء خُلقَتْ له ، فقد شبَّههم الله بالأنعام ؛ لأن الأنعام لا يُطلب منها أن تسمع الهداية لأنها مُسخَّرة ، والذى يُطلب منه السماع والهداية هو المخيَّر بين أن يفعل أو لا يفعل .

كأن الحق سبحانه يقول : أتظن أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ؟ وكلمة ﴿ أَكْثَرَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] تدل على أن بعضهم يسمع ويعقل ، وهذا من قانون الاحتمال ، فكثير من كفار قريش ناصبوا رسول الله العداء ، وانتهى الأمر بهم إلى أنْ أسلموا وحَسُن إسلامهم ، إذن : كان فيهم مَنْ يسمع ، ومَنْ يفكر ويعقل ؛ لذلك قال ﴿ أَكْثَرَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الفرقان] ليحمى هذا الحكم ، وليحتاط لما سيقع من إيمان هؤلاء البعض ، هذا دِقّة فى تحرِّى الحقيقة .

وسبق أنْ ذكرنا ما كان من أسف المؤمنين حين يفوتهم قَتْل أحد صناديد الكفر فى المعركة ، فكانوا يألمون لذلك أشدَّ الألم ، وهم لا يدرون أن حكمة الله كانت تدخرهم للإيمان فيما بعد ، ومنهم خالد ابن الوليد الذى أصبح بعد ذلك سيف الله المسلول .

والأنعام قُلْنا : لا دخلَ لها فى مسألة الهداية أو الضلال ؛ لأنها مُسخَّرة لا اختيارَ لها ؛ لذلك ضرب الله بها المثل لليهود : ﴿ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ۝ ﴾ [الجمعة] فالحمار مهمته أنْ يحمل فحسب ، أمَّا انت أيها اليهودى فمهمتك أن تحمل وتطبق ، الحمار لا يطبق ؛ لأنه لم يُطلب منه ذلك ، مع أن الحيوان يعرف صاحبه ويعرف طعامه ومكان شرابه ، ويعرف طريقه ومكان مبيته ، حتى أن أحدهم مات على ظهر جواده ، فسار به الجواد إلى بيته .

إذن : فالأنعام تفهم وتعقل فى حدود المهمة التى خلقها الله لها ، ولا تُقصِّر فى مهمتها ، أما المهمة الدينية فتعلمها فى باطن الأمر ، لكن لا يُطلَب منها شىء الآن ؛ لأنها انتهتْ من هذه المسألة أولاً ، كما قال سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ۝ ﴾ [الأحزاب]

فاختاروا أن يكونوا مُسيَّرين بالغريزة محكومين بها ، إذن : فلهم اختيار ، لكن نفَّذوا اختيارهم جملةً واحدة من أول الأمر .

خُذْ مثلاً الهدهد وهو من المملوكات التى سخَّرها الله لسليمان ـ عليه السلام ـ يقول له : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝ ﴾ [النمل] أىُّ ديمقراطية هذه التى تمتَّع بها الهدهد مع سليمان .؟! إذن : فحتى الحيوانات تعرف هذه القضية ، وإنْ لم يُطلَب

منهـا شيء ، والحيوانـات لا يمكن أنْ تفعل شـيئاً إلا إذا كـان منوطاً بغرائزها وفى مقدورها .

وسـبق أنْ ضربنا مـثلاً بالحـمار ، إذا أردتَ منه أن يقـفز فـوق جدول ماء فإنه ينظر إليه ، فإنْ كان فى مقدوره قفزَ ، وإنْ كان فوق مقدوره تراجَع ، ولا يمكن أنْ يُـقدم مهما ضربتـه ؛ لأنه علم بغريزته أنه فوق إمكاناته ، أمـا الإنسان فقَـد يُقدِم على مثل هذا دون حـساب للإمكانات ، فيُوقع نفسه فيما لا تُحمد عقباه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾

الحق ـ سبحانه وتعالى ـ وهو خـالق الآيات فى الكون يُنبِّه إليها الخلْق ، وكان من المفروض مـمَّن يرى الآيات أنْ يتنبه إليها بدون أنْ يُنبه ، فـإذا رأى عجيبـة من عجائب الكون تأملها ، وسـبق أنْ ضربنا لذلك مثلاً بمَن انقطعت به السُّبل فى صحراء شاسعة ، ليس بها أنيس ولا حيـاة ، وقد بلغ به الجـهد حتى نـام ، فلما استـيقظ وجـد مائدة عليها أطايـب الطعام أو الشراب ، بالله قبل أنْ تمتـدَّ يده إلى الطعام ، أليس من المفروض أنْ يفكر فى هذا الطعام ، مَنْ أتى به ؟ وأعدَّه على هذه الصورة ؟

إذن : فى الكون آياتٌ كان يجب أنْ تشدَّ انتباهك لتبحث فيها وفى آثار وجودها وكلها آيات عالية عنّا وفـوق إمكاناتنا : الشمس والقمر ، الهـواء والمطر .. إلخ . ومع ذلك لم يتـركك الله ؛ لأن تتنبـه أنت ، بل نبَّهك ولفتك وجذب انتباهك لهذه ولهذه .

وهنا ، الحق - تبارك وتعالى - يعرض الآيات والكونيات التى يراها الإنسان برتابة كل يوم ، يراها الفيلسوف كما يراها راعى الشاة ، يراها الكبير كما يراها الصغير كل يوم على نظام واحد ، لا يكاد يلتفت إليها .

يقول سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ .. ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان] أى : ألم تعلم ، أو ألم تنظر إلى صَنْعة ربك ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ[1] سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾﴾ [الفرقان] نعم نرى الظل ، فما هو ؟ الظل أنْ يَحْجب شىء كثيف على الأرض - مثل جبل أو بناء أو شجرة أو نحوه - ضوءَ الشمس ، فتظهر منطقة الظل فى المكان المُشْمس ، فالمسألة - إذن - متعلقة بالشمس ، وبالأرض التى نعيش عليها .

وقد علمنا أن الأرض كرة تواجه الشمس ، فالجهة المواجهة منها للشمس تكون مُضَاءة ، والأخرى تكون ظلاماً لا نقول - ظلاً ، فما الفرق بين الظلِّ والظلام ؟ قالوا : إذا كان الحاجبُ لضوء الشمس من نفس الأرض فهى ظُلْمة ، وإنْ كان الحاجب شيئاً على الأرض فهو ظل .

والظل نراه فى كل وقت ، وقد ورد فى عدة مواضع من كتاب الله ، فقال سبحانه : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾ [المرسلات]

وقال : ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴿٥٧﴾﴾ [النساء]

وقال : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ .. ﴿٤٨﴾﴾ [النحل]

ينبهنا ربنا - تبارك وتعالى - إلى مهمة أخرى من مهام الظل ، وهى أنه يحمينا من وَخْزة الشمس وحرارتها ، ويرتقى الإنسان فى استخدام الظل فيجعله كما قال تعالى ﴿ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴿٥٧﴾﴾ [النساء] أى :

(١) أى : دائماً مستقراً لا تنسخه الشمس . قاله القرطبى فى تفسيره (٧/٤٩١٤) .

أن الظل نفسه مُظلَّل ، فيجعلون الخيمة مثلاً لها سقفان منفصلان حتى لا يتأثر داخلُ الخيمة بالحرارة خارجها .

لذلك تجد ظل الشجرة ألطفَ من ظلِّ الحائط مثلاً أو المظلة ؛ لأن أوراق الشجرة يُظلِّل بعضها بعضاً ، فالظل يأتيك من مُظلل آخر ، فتشعر تحت ظل الشجرة وكأنك فى (تكييف) ؛ لأن الأوراق تَحجب عنك حرارة الشمس ، فى حين تسمح بمرور الهواء ، كما قال الشاعر فى وصف دوحة :

يصدُّ الشمسَ أنَّى وَاجَهتْنَا   فَيحْجُبُها وَيَأذَنُ للنَّسِيمِ

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا(1) الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. (١٧١) ﴾ [الأعراف]

وحين تتأمل هذه الظاهرة ساعةَ طلوع الشمس ترى الشىء الكثيف الذى يحجب ضوء الشمس يطول ظلُّه إلى نهاية الأفق ، ثم يأخذ فى القصر كلما ارتفعتْ الشمس إلى أنْ يصير فى زوال ، ثم ينعكس الظلّ مع ميل الشمس ناحية الغرب فيطول إلى نهاية الأفق .

والحق - تبارك وتعالى - يريد منا أن نلاحظ هذه الظاهرة ، وأنْ نتأملها ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ .. (٤٥) ﴾ [الفرقان] أى : ساعة طلوع الشمس ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا .. (٤٥) ﴾ [الفرقان] لأن مشيئة الله تستطيع أن تخلق الشىء ونقيضه ، فإنْ شاءَ مَدَّ الظل ، وإنْ شاء أمسكه .

---

(1) نتقه نتقاً : رفعه من مكانه وحركه وجذبه . [القاموس القويم ٢/٢٥٢] . قال ابن عباس : رفعته الملائكة فوق رؤوسهم . وذكر سنيد بن داود فى تفسيره أن الله أوحى إلى الجبل فانقلع فارتفع فى السماء حتى إذا كان بين رؤوسهم وبين السماء قال لهم موسى : ألا ترون ما يقول ربى عز وجل ، لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الخيط . [تفسير ابن كثير ٢/٢٦١] .

ولكنه يتـغـيـر : ينقص فـى أول النهـار ، ويزيد فى آخره وكل ما يقـبل الزيادة يقبل النقص ، والنقص أو الزيـادة حركة ، وللحـركة نوعان : حركة قَفْزية كحركة عـقرب الدقائق فى الساعة ، فهو يتحرك بحركـة قفزية ، وهى أنْ يمرَّ على المـتحرك وقت ساكن ثم يـتحرك ، إنما أتدرك ذلك فى حـركة عقـرب الساعـات ؟ لا ؛ لأنه يسير بحـركة انسيابية ، بحيث توزع أجزاء الحركة على أجزاء الزمن .

ومثَّلْنا هذه الحركة بنمو الطفل الصغير الذى لا تدرك حركة نموه حالَ نظرك له منذ ولادته ، إنمـا إنْ غـبْتَ عنه فتـرة أمكنك أنْ تلاحظ أنه يكبـر ويتـغيـر شكله ؛ لأن نموه مُـوزَّع على فتـرات الزمن ، لا يكبر هكـذا مرة واحدة . فـهى مجمـوعات كِبَـر تجمعتْ فـى أوقات متـعددة ، وليس لديك المقياس الدقيق الذى تلاحظ به كبر الطفل فى فترة قصيرة .

وإذا كنا نستطيع إجـراء هذه الحركة فى السـاعات مثـلاً ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يُحدثهـا فى حركة الظل وينسبها لعظمـها إلى نفسه تعالى ؛ لأن الظل لا يَسـير بحركة مـيكانيكية كالتى تراها فى السـاعة إنما يسير بقدرة الله .

والحق سبحانه يلفتنا إلى هذه الظاهرة ، لا لأنهـا مجرد ظاهرة كونية نراها ونتعجب منها ، إنما لأننا سنستغلها وننتفع بها فى أشياء كثيرة .

فقدماء المـصريين أقاموا المسلات ليـضبطوا بها الزمن عن طريق الظل ، وصنع العـرب المـسلمـون المزْولـة لضبط الوقـت مع حركـة الشمس ، ونرى الفـلاح البسيط الآن ينظـر إلى ظل شىء ويقول لك : الساعة الآن كذا ؛ لأنه تعـوَّد أن يقيس الوقت بالظل ، مع أن مثل هذا التقـدير يكون غيـر دقيق ؛ لأن للشمس مطالعَ مـتعـددة على مرِّ أيام العـام ؛ لذلك فى أحد مـعـابد الفراعنة مـعـبد به ٣٦٥ طاقـة ، تدخل الشمس كل يوم واحدة منها .

إذن : أفادنا الظل فى المسلات والمزاول ، ومنها انتقل المسلمون إلى عمل الساعات ، وأولها الساعة الدقاقة التى كانت تعمل بالماء ، وقد أهدوا شارلمان ملك فرنسا واحدة منها فقال : إن فيها شيطاناً ، هكذا كان المسلمون الأوائل .

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ ﴾ [الفرقان] أى : أن الضوء هو الذى يدل على الظلّ .

﴿ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يُبيِّن الحركة البطيئة للظل فيقول : ﴿ قَبْضًا يَسِيراً ﴿٤٦﴾ ﴾ [الفرقان] لا تدركه أنت أبداً ؛ لأن فى كل لحظة من لحظات الزمن حركة فلا يخلو الوقت مهما قلَّ من الحركة ، لكن ليس لديك المقياس الذى تدرك به بُطْءَ هذه الحركة .

وقوله : ﴿ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا.. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الفرقان] دليل على أن المسألة ليست ميكانيكا ، إنما هى بقيومية الله تعالى ؛ لذلك فكأن الحق سبحانه يقول : يا عبادى ناموا ملْءَ جفونكم ، فربُّكم قيُّوم على مصالحكم لا ينام .

وأهل المعرفة يستنبطون من ظاهرة الظل أسراراً ، فيروْنَ أن ظلَّ الأشياء الشاهقة المتعالية يخضع لله تعالى ، ويسجد على الأرض ، رغم أنه مُتعال شامخ ، كما جاء فى قوله سبحانه : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿١٥﴾ ﴾ [الرعد]

وقال سبحانه : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور] فللظل حركة بطيئة لا يعلمها إلا الله ؛ لأنك لا تدرك مدى صغرها ؛ لذلك قُلْنا فى الهباء : إنه نهاية ما يمكن أن يكون من التفتيت المنظور .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾

﴿ اللَّيْلَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : الظلْمة لا الظل ، فالظلمة هى التى منعتْ النور ، وإياك أن تظن أن الظلمة ضد النور ، وتحاول أنت أن تنسخ الظلمة بنور من عندك ، وهذه آفة الحضارة الآن أنْ جعلتَ الليل نهاراً .

وقد تنبه العلماء أخيراً إلى مدى ضرر الأشعة على صحة الإنسان ، لذلك جاء فى الحديث الشريف : « أطفئوا المصابيح إذا رقدتم »[1] فالشعاع له عمل وقت حركتك ، لكن ساعة نومك وراحتك ليس له مهمة ، بل هو ضار فى هذا الوقت .

والحق - تبارك وتعالى - يمتنُّ علينا بالليل والنهار ، فيقول :
﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [القصص]

إذن : فلليل مهمة ، وللنهار مهمة يُوضِّحها هنا الحق سبحانه بقوله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان] أى : ساتراً ،

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٦٢٤) ، وأحمد فى مسنده (٣/٣٨٨) عن جابر بن عبد الله واللفظ للبخارى .

(٢) السرمد : الدائم الذى لا ينقطع . والسرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . [لسان العرب - مادة : سرمد] .

كما أن اللباس يستر الجسم ، والنوم ردع ذاتى يقهر الكائن الحى ، وليس ردعاً اختيارياً .

لذلك تلاحظ أنك إنْ أردت أنْ تنامَ فى غير وقت النوم تتعب وترهق ، أمّا إنْ أتاك النوم فتسكن وتهدأ ، ومن هنا قالوا : النوم ضيف ثقيل إنْ طلبته أعْنَتكَ ، وإنْ طلبك أراحك .

لذلك ساعة يطلبك النوم تنام ملْء جفونك ، ولو على الحصى يغلبك النوم فتنام ، وكأن النوم يقولَ لك : اهمد واسترح ، فلم تَعُدْ صالحاً للحركة ، أما مَنْ غالب هذه الطبيعة فأخذ مثلاً حبوباً تساعده على السهر ، فإنْ سهر ليلة نام بعدها ليلتين ، كما أن الذى يغالب النوم تأتى حركته مضطربة غير متوازنة .

فعليك - إذن - أن تخضع لهذه الطبيعة التى خلقك الله عليها وتستسلم للنوم إنْ ألحَّ عليك ، ولا تكابر لتقوم فى الصباح نشيطاً وتستأنف حركة حياتك قوياً صالحاً للعمل وللعطاء .

وللصوفية فى النوم ملْحظ دقيق يُبْنَى على أن الكون كله غير المختار مُسبِّح لربه ، كما قال تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النور] وعليه ، فذرات الكافر فى ذاتها مؤمنة ، يؤلمها ويغيظها أن صاحبها عَاص أو كافر فتطيعه ، وهى كارهة لفعله بدليل أنها ستشهد عليه يوم القيامة ، فإنْ كانت مُسخَّرة لمراداته فى الدنيا فإنها ستتحرر من هذه الإرادة فى الآخرة .

فاللسان مُسخَّر لصاحبه ، إنْ شاء نطق به الشهادتين ، وإنْ شاء نطق به كلمة الكفر ؛ لأنه مقهور لإرادته ، أما فى القيامة فلا إرادة إلا للحق تبارك وتعالى .

وفى النوم ترتاح هذه الجوارح وهذه الذرات من سيئات صاحبها ومن ذنوبه ، تستريح من نكده وإكراهه لها على معصية الله . فالنوم

رَدْع طاقيّ ، فلم يَعُد الإنسان صالحاً للحركة ، ولا للتعايش السالم مع جوارحه ، لقد كثُرتْ ذنوبه ومعاصيه حتى ضاقتْ بها الجوارح ، فيأتي النوم ليريحها .

وهذه الظاهرة نشاهدها مثلاً في موسم الحج ، يقول لك الحاج : يكفيني أنْ أنامَ في اليوم ساعة أو ساعتين لماذا ؟ لأن السيئات في هذا المكان قليلة ، فجوارحك في راحة وانسجام معك فلا تحملك على النوم ، أمّا العاصي فلا يكفيه أن ينام عشر ساعات ؛ لأن جوارحه وأعضاءه مُتْعَبة متضايقة من أفعاله .

وهذه نُفسِّر بها أن رسول الله ﷺ كانت تنام عيناه ولا ينام قلبه[1] ذلك لأن جوارحه ﷺ تصحبه خير صُحْبة ، فهي في طاعة دائمة مستمرة ، فكيف تحمله على أنْ ينام ؟

والخالق - عز وجل - يعامل الناس على المعنى العام ، فالنفوس دائماً ميَّالة للشر جانحة للسوء ؛ لذلك تتعب الطاقة وتتعب الجوارح ، وكأن الله تعالى يريد إحداث هُدْنة للتعايش بينك وبين جوارحك ، نَمْ لتصبح نشيطاً .

ومعنى ﴿ وَالنَّوْمَ سُبَاتًا .. (٤٧) ﴾ [الفرقان] السّبْت أي : القطْع . فمعنى ﴿ سُبَاتًا .. (٤٧) ﴾ [الفرقان] يعني : قاطعاً للحركة ، لا انقطاعاً نهائياً ، إنما انقطاعاً مُسْتأنفاً لحركة أفضل ، وبدن أقوى وأصحّ ، فالذي يقضي ليله ساهراً يقوم من نومه مُتْعباً مُضطرباً ، على خلاف مَنْ جعل وقت النوم للنوم ؛ لأن الخالق عز وجل جعل نومك بالليل على قَدْر ما تتحرك بالنهار ، فإنْ أردتَ حركة مُتزنة نشيطة وقوية فنَمْ على مقدار هذه الحركة .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (٣٥٦٩) ، وكذا مسلم في صحيحه (٧٣٨) كتاب صلاة المسافرين . أن رسول الله ﷺ قال : « يا عائشة ، إن عينيَّ تنامان ، ولا ينام قلبي » .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً ﴿٤٧﴾ ﴾ [الفرقان] النشور مثل الشكور : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ﴿٩﴾ ﴾ [الإنسان] أى : شكر ، وكذلك النشور أى نشر ، والنشر يعنى الانطلاق فى الأرض بالحركة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ ﴾

قلنا : إن الرياح إذا جاءت هكذا بصيغة الجمع دلَّتْ على الخير ، وإنْ جاءتْ مفردة فهى آتية بالشر ، وإذا نظرتَ إلى الجبال العالية وإلى ناطحات السحاب تقول : ما الذى يقيم هذه المبانى العالية ، فلا تميل ؟ الذى يمسكها هو الهواء الذى يحيط بها من كل ناحية ، ولو فرَّغْتَ الهواء من أحد نواحيها تنهار فوراً .

إذن : فالريح من هنا ، ومن هنا ، ومن هنا ، فهى رياح متعددة تُصلح ولا تُفسد ، وتُحدث هذا التوازن الذى نراه فى الكون ، أمّا الريح التى تأتى من ناحية واحدة فهى مدمرة مهلكة ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ[1] عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ ﴾ [الحاقة]

وقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأحقاف]

ومعنى ﴿ بُشْراً .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الفرقان] بسكون الشين ، مع أنها فى

(١) الريح الصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . [لسان العرب ـ مادة : صرر] .

الأصل بُشُراً مثل رُسُل ، فلما خُفِّفَتْ صارت بُشْراً ، والبُشْرى هى الإخبار بما يسرُّ قبل زمنه ، فلا تقول يبشرّ إلا فى الخير ، وكان العربى ساعة تمر عليه الرياح يعرف كم بينه وبين المطر ، فيحكم على مجىء المطر بحركة الرياح الطرية التى تداعب خدّه .

وقوله سبحانه : ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ .. ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان] يقال : بين يديك يعنى : أمامك . والمراد هنا المطر الذى يسبق رحمة الله .

ثم يقول تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان] السماء لها معنى لُغوى ، ومعنى شرعى . فهى لغةً : كل ما علاك ، وشرعاً : هى هذه السماء العالية والتى تتكون من سبع سموات ، لكن أينزل المطر من السماء أم من جهة السماء ؟

المطر ينزل من الغمام من جهة السماء ، والغمام أصله من الأرض نتيجة عملية البخر الذى يتجمع فى طبقات الجو ، كما قال سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي[1] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ[2] يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ .. ﴿٤٣﴾﴾ [النور]

إذن : فرحمة الله هى الماء الذى خلق الله منه كلّ شىء حىٍّ .

---

(١) أزجى الشىء : يسوقه برفق ، فيزجى سحاباً : أى يسوقه إلى حيث يشاء . [القاموس القويم ١/٢٨٤ ، تفسير القرطبى ٦/٤٨٢٥] .

(٢) فى الودق قولان :

الأول : أنه البرق . قاله أبو الأشهب العقيلى .

الثانى : أنه المطر . قاله الجمهور . [تفسير القرطبى ٦/٤٨٢٦] وقد ذكر السيوطى القولين أيضاً فى [الدر المنثور ٦/٢١١] الأول عن أبى بجيلة وعزاه لابن أبى حاتم ، والثانى عن الضحاك ومجاهد . عند ابن أبى حاتم وابن أبى شيبة .

وقوله تعالى : ﴿مَاءً طَهُوراً ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان] الطَّهور : الماء الطاهر فى ذاته ، المطهِّر لغيره ، فالماء الذى تتوضأ به طاهر ومطهر ، أما بعد أنْ تتوضأ به فهو طاهر فى ذاته غير مُطهِّر لغيره ، وماء السماء طاهر ومُطهر ؛ لأنه مُصفَّى مُقطَّر ، والماء المقطر أنقى ماء .

بالإضافة إلى أن الماء قوَام الحياة ، منه نشرب ونسقى الزرع والحيوان والطير ، فالماء يعطيك الحياة ويعطيك الطهارة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى : ﴿بَلْدَةً مَيْتًا .. ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان] أى : أرض بلدة مَيْت ، وفرْق بين ميْت وميِّت : الميْت هو الذى مات بالفعل ، والميِّت هو الذى يؤول أمره إلى الموت ، وإنْ كان ما يزال على قيد الحياة ، ومن ذلك قوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر]

والأرض الميْتة هى الجرداء الخالية من النبات ، فإذا نزل عليها الماء أحياها بالنبات ، كما فى قوله سبحانه : ﴿وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾﴾ [الحج]

وقوله تعالى : ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان] يُقال سقاه وأسقاه : أسقاه : أعدَّ له ما يستقى منه ، وإنْ لم يشرب الآن ، لكن سقاه يعنى : ناوله ما يشربه ، ومن ذلك قوله سبحانه : ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً ﴿٢١﴾﴾ [الإنسان]

أمّا فى المطر فيقول سبحانه : ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ .. ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر] أىْ : أعددناه لسُقْياكم إنْ أردتم السُّقْيا .

ومعنى ﴿ وَأَنَاسِيَّ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [الفرقان] جمع إنسان ، وأصلها أناسين ، وخُفِّفَتْ إلى أناسيّ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ(١) إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ ﴾

التصريف : التحويل والتغيير ، والمعنى حَوّلناه من هنا إلى هنا . ومع كل هذه العبر والآيات ﴿ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴿٥٠﴾ ﴾ [الفرقان] فالكافرون بآيات الله كثير لا يلتفتون إلى آيات الله ، حتى بعد أنْ تقدَّم العلم وتقدَّمتْ الحضارة الإنسانية ، ووقف الناس على كثير من الآيات .

فالحق - تبارك وتعالى - يُصرِّف المطر إلى بلاد بغزارة ، فإنْ شاء أصابها الجفاف والجدب حتى تموت مزروعاتهم وحيواناتهم . إذنْ : ليست المسألة بيئة باردة أو كثيرة الأمطار ، إنما المسألة مرادات خالق ، ومرادات حق .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ ﴾

يريد الحق - تبارك وتعالى - أن يمتنّ على رسوله ﷺ منّة ،

(١) قال عكرمة : يعني الذين يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، وهذا الذي قاله عكرمة كما صح في الحديث المخرّج في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه يوماً على إثر سماء أصابتهم من الليل : أتدرون ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب » . [تفسير ابن كثير ٣/٣٢١] .

فيقول له : المسألة ليست قلة رسل عندنا حتى نرسل رسولاً للناس كافة وللزمن كله ، ونحن نستطيع أن نُخفِّف عنك ونبعث فى كل قرية رسولاً يُخفِّف عنك عبء الرسالة ، لكنّا نريد لك أنْ تنال شرف الجهاد وشرف المكافحة ، فجمعناها كلها لك إلى أنْ تقوم الساعة .

ونستفيد من هذه المسألة أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يَهَبُ الطاقات لا يعنى هذا أن الطاقة هى التى تحكم قدرته فى الأمر أن يبعث فى كل قرية رسولاً ، إنما يقدر أن يرسل رسولاً ويعطيه طاقة تتحمل هذا كله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾

أى : ما دُمْنا قد جمعنا لك كل القرى ، وحمَّلناك الرسالة العامة فى كل الزمان وفى كل المكان ، فعليك أن تقف الموقف المناسب لهذه المهمة ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان] إنْ لوَّحُوا لك بالملك أو بالمال أو بالجاه والشرف ، واعلم أن ما أعده الله لك وما ادخره لك فوق هذا كله .

وحين يقول سبحانه لرسوله ﷺ ﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الفرقان] فإنه يعذره أمامهم ، فالرسول ينفذ أوامر الله .

وَنَهْي الرسول عن طاعة الكافرين لا يعنى أنه ﷺ يطيعهم ، فهذه كقوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ..﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء] فكيف يطلب الإيمان ممَّنْ ناداهم بالإيمان ؟ إنه تحصيل حاصل . قالوا : المعنى : أنت آمنتَ قبل أن أقول لك هذه الكلمة ، وأقولها لك الآن لتَّواصل

إيماناً جديداً بالإيمـان الأول ، وإياك أنْ ينحلّ عنك الإيمان . إذن : إذا طُلِب الموجود فالمراد استدامة الوجود .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدْهُم بِهِ .. (٥٢) ﴾ [الفرقان] أى : بما جاءك من القرآن ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ﴾ [الفرقان] واعلم أنك غـالب بأمر الله عليهم ، ولا تقُلْ : إن هناك تيارَ إشراك وكفر وإيمان ، وسوف أعطيك مثلاً كونياً فى أهم شىء فى حياتك ، وهو الماء :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ(١) الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ(٢) وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣) ﴾

تأتى هذه الآية استمراراً لذكْر بعض آيات الله فى الكون التى تلفت نظر المكابرين المعاندين لرسول الله ، وسـبق أنْ ذكر سبحانه : الظل والليل والرياح .. الخ إذن : كلما ذكر عنادهم يأتى بآية كونية ليلفتهم إلى أنهم غـفلوا عن آيات الله ، وجدالهم مع رسـول الله يدل على أنهم لم يلتـفـتـوا إلى شىء من هـذا ؛ لذلك ذكـر آية كـونيـة من آيات الله المرئية للجميع ومكررة ، وعليهـا الدليل القائم إلى يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ .. (٥٣) ﴾ [الفرقان]

المَرْج : المـرعى المباح ، أو الكـلأ العام الذى يسوم فـيه الراعى ماشيته تمرح كيف تشاء.

فمعنى ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ .. (٥٣) ﴾ [الفرقان] أى : جعل العَـذْب والمالح يسيران ، كُلٌّ كمـا يشاء ، لذلك تجد البحار والمحيطـات المالحة التى تمثل

(١) مرج : أرسلهـما وأفاض أحدهمـا فى الآخر . قاله مجـاهد . وقال ابن عرفة : أى خلطهـما فهما يلتقيان . وقال الأزهرى : مرج البحرين . خلّى بينهما . [تفسير القرطبى٧/ ٤٩٣٤] .
(٢) الأجاج : الملح الشديد الملوحة . أجَّ الماء : اشتدت ملوحته . [القاموس القويم ١/ ٧] .

ثلاثة أرباع اليابسة ليس لها شكل هندسى منتظم ، بل تجده تعاريج والتواءات ، وانظر مثلاً إلى خليج المكسيك أو خليج العقبة ، وكان الماء يسير على (هواه) ودون نظام ، فلا يشكل مستطيلاً أو مربعاً أو دائرة .

وكذلك الأنهار التى تولدتْ من الأمطار على أعلى الجبال ، فتراها حين تتجمع وتسير تسير كما تشاء ، ملتوية ومُتعرِّجة ؛ لأن الماء يشقُّ مجراه فى الأماكن السهلة ، فإنْ صادفته عقبة بسيطة ينحرف هنا أو هناك ، ليكمل مساره ، وانظر إلى التواء النيل مثلاً عند (قنا) .

إذن : الماء عَذْبٌ أو مالح يسير على هواه ، وليست المسألة (ميكانيكا) ، وليست منتظمة كالتى يشقُّها الإنسان ، فتأتى مستقيمة .

ونلحظ هذه الظاهرة مثلاً حينما يقضى الإنسان حاجته فى الخلاء ، فينزل البول يشقّ له مجرىً فى المكان الذى لا يعوقه ، فإنْ صادفته حصاة مثلاً انحرف عنها كأنه يختار مساره على هواه .

والبحر يقال عادة للمالح وللعذب على سبيل التغليب ، كما نقول الشمسان للشمس والقمر .

ومرْج البحرين آية كونية تدل على قدرة الله ، فالماء مع ما عُرِف عنه من خاصية الاستطراق ـ يعنى : يسير إلى المناطق المنخفضة ، يسير المالح والعذب معاً دون أن يختلط أحدهما بالآخر ، ولو اختلطا لَفَسدا جميعاً ؛ لأن العَذْب إنْ خالطه المالح أصبح غيْرَ صالح للشرب ، وإنْ خالط المالح العذب فسد المالح ، وقد خلقه الله على درجة معينة من الملوحة بحيث تُصلحه فلا يفسد ، وتحفظه أن يكون آسناً .

فالماء العذب حين تحصره فى مكان يأسن[1] ويتغير ، أمَّا البحر

(١) أسن الماء يأسن : تغيرت رائحته فهو آسن . [القاموس القويم ١/ ٢٠] .

فقد أعدَّه الله ليكون مخزن المـاء فى الكون ومصدر البَخْر الذى تتكون منه الأنهـار ؛ لذلك حـفظه ، وجـعل بينه وبين المـاء العذب تـعايشـاً سِلْمياً ، لا يبغى أحدهما على الآخر رغم تجاورهما .

وقوله تعالى : ﴿هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ .. (٥٣)﴾ [الفرقان] أى : مُفرِط فى العذوبـة مستـساغ ، ومن هذه الكلمـة سَمَّـوْا نهر الفـرات لعذوبة مائه ، فلَـيس المراد بالفرات أن المـاء كمـاء نهر الفرات ؛ لأن الـكلمة وُضِـعت أولاً ، ثم سُـمِّىَ بهـا النهـر ، ذلك لأن القـرآن هو كـلام الله الأزلى .

﴿وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ .. (٥٣)﴾ [الفرقان] أى : شديد الملوحة ، ومع ذلك تعيش فيه الأسماك والحيوانات المائية ، وتتغذى عليه كما تتغذى على الماء العَـذْب ، كمـا قال سبـحانه : ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٢)﴾ [فاطر]

ثم يقول سـبحانه : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣)﴾ [الفرقان] البرزخ : شىء بين شيئين ، وأصل كلمة برزخ : اليابسة التى تفصل بين ماءين ، فإن كان الماء بين يابستين فهو خليج .

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا (٥٣)﴾ [الفرقان] الحِجْـر : هو المانع الذى يمنع العَذْب والمالح أنْ يختلطا ، والحِجْر نفسـه محجور ، مبالغة فى المنع من اختـلاط الماءيْن ، كمـا جاء فى قـوله تعالى : ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥)﴾ [الإسراء]

ومثل قوله تعالى : ﴿ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧)﴾ [النساء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ ﴾

وفى آية عامة عن الماء ، قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] يعنى : كل شىء فيه حياة فهو من الماء ، لا أن الماء داخل فى كل شىء ، فالمعني : ﴿ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : كل شىء موصوف بأنه حى ، فالماء - إذن - دليل الحياة ؛ لذلك إذا أراد العلماء أن يقضوا على الميكروبات أو الفيروسات جعلوا لها دواءً يفصل عنها المائيةَ فتموت .

والإنسان الذى كرَّمه الله تعالى وجعله أعلى الأجناس ، خلقه الله من الماء ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الفرقان] وفى موضع آخر قال سبحانه : ﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ[1] ﴿٧﴾ ﴾ [الطارق] وهو ماء له خصوصية ، وهو المنىُّ الذى قال الله فيه : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ ﴾ [القيامة]

والبشر أى : الإنس ﴿ فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الفرقان] فمن الماء خلق الله البشر ، وهم قسمان : ذكور وإناث ، فكلمة (نَسَبًا) تعنى : الذكورة (وَصِهْرًا) تعنى : الأنوثة ؛ لأن النسب يعنى انتقال الأدنى من الأعلى بذكورة ، فيظل الإنسان فلان بن فلان بن فلان..الخ .

---

(١) الترائب : عظام الصدر . [القاموس القويم ١/٩٩] . قال ابن عباس : هذه الترائب . ووضع يده على صدره . وعنه أيضاً : تريبة المرأة موضع القلادة . [تفسير ابن كثير ٤/٤٩٨] .

فالنسب يأتى من ناحية الذكورة ، أما الأنوثة فلا يأتى نسب ، إنما مصاهرة ، حينما يتزوج رجل ابنتى ، أو أتزوج ابنته ، يُسمُّونه صِهْرا .

لذلك قال الشاعر :

وَإنَّـما أُمَّهَاتُ القَوْمِ أَوْعِيـة   مُـسْتحدثَات ولِلأحْسَـابِ آبَاءُ

فمن عظمة الخالق - عز وجل - أن خلق من الماء هذيْن الشيئين ، كما قال فى موضع آخر : ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [القيامة]، وقد توصَّل العلماء مُؤخَّراً إلى أن بويضة الأنثى لا دَخْلَ لها فى نوع الجنين ، وما هى إلا حاضنة للميكروب الذَّكَرى الآتى من منىّ الرجل .

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [القيامة]

فالذكَر والأنثى كلاهما من المنىّ ، والذى يُطلق عليه العلماء الآن (الإكس ، والإكس واى) فالحيوان المنوىّ يخرج من الرجل ، منه ما هو خاص بالذكورة ، ومنه ما هو خاص بالأنوثة ، ثم تتم عملية انتخاب للأقوى الذى يستطيع تلقيح البويضة .

وهذه الظاهرة واضحة فى النحل ، حيث تضع الملكة البيض ، ولا يُخصِّبها إلا الأقوى من الذكور ، لذلك تطير الملِكة على ارتفاعات عالية ، لماذا ؟ لتنتخب الأقوى من الذكور .

كذلك الميكروب ينزل من الرجل ، والأقوى منه هو الذى يستطيع أن يسبق إلى بويضة المرأة ، فإنْ سبق الخاص بالذكورة كان ذكراً ، وإنْ سبق الخاص بالأنوثة كان أنثى ، والحق سبحانه قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى]

وبهذه الآية الكونية فى خَلْق الإنسان نرد على الذين يحلو لهم أن يقولوا : إن الإنسان خُلق صُدْفة ، فإذا كان الإنسان ذكراً وأنثى بينهما مواصفات مشتركة وأجهزة ومُقوِّمات واحدة ، إلا أن الذكَر يختلف فى الجهاز التناسلى وكذلك الأنثى ، فهل يُردّ هذا إلى الصدفة ؟

ومعلوم أن الصُّدْفة من أعدائها الاتفاق ، فإذا جاء الذكَر صدفة ، وجاءت الأنثى كذلك صدفة ، فهل من الصدفة أن يلتقيا على طريقة خاصة ، فيثمر هذا اللقاء أيضاً ذكورة وأنوثة ؟! إذن: المسألة ليست مصادفةً ، إنما هى غاية مقصودة للخالق عزوجل .

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً (٥٤)﴾ [الفرقان] وذكر سبحانه القدرة هنا ؛ لأن هذه مسألة دقيقة لا تحدث إلا بقدرة الله تعالى .

وقد فَطن العرب حتى قبل نزول القرآن إلى هذه العملية بالفطرة ، فهذه زوجةَ أبى حمزة تعاتبه ؛ لأنه تركها وتزوج من أخرى ، لأنها لم تَلدْ له ذَكَراً ، فتقول :

مَا لأبى حَمْزةَ لاَ يَأْتِينَا ... غَضْبان ألاَّ نَلدَ البَنِينَا
تَاللَّه مَا ذَلكَ فى أيْدينا ... فَنَحْنُ كَالأرْض لِغَارِسِينَا
نُعطِى لَهُمْ مِثْلَ الذى أُعْطِينَا

وهذه المسألة التى فَطن إليها العربى القديم لم يعرفها العلم إلا فى القرن العشرين .

وبعد هذه الآية الكونية يعود ـ سبحانه وتعالى ـ إلى خطابهم مرة أخرى لعل قلوبهم ترقّ ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يتعهدهم مرة بالنُّصح ، ومرة بإظهار آياته تعالى فى الكون .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾

يعنى : أيليق بهم بعد أنْ أوضحنا لهم كلَّ هذه الآيات أنْ يلتفتوا إلى غير الله ، ويقصدوه بالعبادة ؟

وقوله تعالى : ﴿ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ.. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الفرقان] البعض يرى أن هذه الآلهة نعم لا تنفع لكنها تضر ، نقول لهم : هى لا تنفع ، ولا تضر ، أمَّا الذى يضر فهو الإله الحق الذى انصرفوا عنه إلى عبادة غيره ، والمعنى هنا : ﴿ مَا لا يَنفَعُهُمْ.. ﴿٥٥﴾ ﴾ [الفرقان] إنْ عبدوه ﴿ وَلا يَضُرُّهُمْ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الفرقان] إنْ كفروا به وتركوه .

والقرآن يُسمِّى فعلهم مع هذه الآلهة عبادة ، وهم أنفسهم يقولون : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ.. ﴿٣﴾ ﴾ [الزمر]

إذن : أثبتوا لهم عبادة ، والعبادة طاعة العابد للمعبود فيما يأمر به ، وفيما ينهى عنه ، فما الذى أمرتْهم به الأصنام ؟ وما الذى نهتْهم عنه ؟ فكلمة عبادة هنا خطأ ، وهم ما عبدوا هذه الآلهة إلا لأنها لا أوامر لها ولا التزام معها ، فتديُّنهم تديُّن (فنطزية) .

وما أسهلَ أن تعبد إلهاً لا يأمرك ولا ينهاك ، والذى يكرهونه فى التديُّن الحقيقى أنه التزام وتكليف : افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لذلك ترى المسرفين على أنفسهم من خَلْق الله يتمنى كلٌّ منهم أن يكون هذا الدين كذباً ، لماذا ؟ ليسيروا على هواهم ، ويعملوا ما يحلو لهم . كذلك رأينا الدجالين الذين ادَّعَوْا النبوة بداية من

مسيلمة وسجاح[1] ، كيف كانوا يجذبون الناسَ إليهم ؟ كانوا يجذبونهم بتخفيف الأوامر وتبسيط الدين ، ولما شقَّتْ الزكاة على البعض أسقطوها من حسابهم ، وأعفَوْا الناس منها .. إلخ .

ولكل زمان دجالون يناسبون العصر الذى يعيشون فيه ، وفى عصرنا الحاضر دجالون يُخفِّفون عنك الدين ويُطوِّعونه لأهواء الناس ورغباتهم ، فلا مانع عندهم من الاختلاط ، ولا بأس فى أن ترتدى المرأة من اللباس ما تشاء .. إلى آخر هذه المسائل .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً ﴿٥٥﴾﴾ [الفرقان]

الظهير : هو المعين ، كما ورد فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ..وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [التحريم]

وكانوا فى الماضى يحملون الأحمال على الظَّهْر قبل اختراع آلات الحمل ، وحتى الآن نرى (الشيالين) يحملون الأثقال على ظهورهم ، ويخيطون لهم (ظهرية) يرتدونها على ظهورهم ؛ لتحميهم ساعة حَمْل الأثقال ، وإذا أراد أحدهم معاونة الآخر يقول له : أعطنى ظهرك ، فكان الظهر إذن بهذا المعنى .

---

(١) هى : سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية ، من بنى يربوع ، أم صادر ، كانت شاعرة أديبة عارفة بالأخبار ، ادعت النبوة بعد وفاة النبى ﷺ وكانت فى بنى تغلب بالجزيرة ، وتبعها جمع من عشيرتها ، فاقبلت تريد غزو أبى بكر ، فالتقت بمسيلمة وتزوج بها ، ثم انصرفت راجعة إلى أخوالها بالجزيرة ، ثم بلغها مقتل مسيلمة ، فأسلمت وهاجرت إلى البصرة وتوفيت فيها ، وصلى عليها سمرة بن جندب والى البصرة لمعاوية . توفيت ٥٥هـ (الأعلام للزركلى ٣/٧٨) .

والظهر أيضاً يقتضي العلو ، ومنه قوله تعالى عن السد الذى بناه ذو القرنين : ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف] يعنى : ما استطاعوا اعتلاءه .

لكن ، كيف يكون الكافر ظهيراً على الله ؟ قالوا : لأنه يفعل المعصية ، ويتخذ أُسْوة فيها يُقلده الناس ، ولو كان طائعاً لكان أُسْوة خير ونموذجَ صلاحٍ ، فالكافر أسوة شر ، وأسوة فساد ، وهو شيطان الإنس الذى يوازى شيطان الجن الذى عصى ربه ، ورفض السجود لآدم .

وتوعَّد ذريته حين قال : ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [الحجر]

وكلٌّ من شياطين الجن وشياطين الإنس يستعين بالنفس فيُسلِّطها على صاحبها حتى تُوقعه ، فالإنسان حينما يستمع لنداء الشيطان ، سواء شيطان الإنس أو شيطان الجن ويطيعه بعمل المخالفة ، فإنه يُعينه على الله ، والمعنى الصحيح : على معصيةِ الله .

كما أن الظهير يُطلق على مَنْ جعلْتَه وراء ظهرك ، لا تأبه به ، ولا تلتفت إليه ، ومنه قول العرب : (لا تجعلنَّ حاجتى منك بظهر) يعنى : اجعلها أمام عينيك لا تطوِها وراء ظهرك[1] .

إذن : فكلاً المعنيين جائز : ظهيراً أى : مُعيناً ، كأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول لنبيه ﷺ : اعلم يا محمد أن الكافر ظهير على الله ، فقِفْ له بالمرصاد ، وجاهده ما استطعتَ ، فكأنه تعالى يُحمِّس

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : ظهر « يُقال للشىء الذى لا يُعنى به : قد جعلت هذا الأمر بظهر ، ورميته بظهر . وقولهم : لا تجعل حاجتى بظهر أى : لا تنسها . ومنه قوله تعالى : ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا .. ﴿٩٢﴾﴾ [هود] وهو استهانتك بحاجة الرجل . وجعلنى بظهر أى : طرحنى » .

رسوله ليقف هذا الموقف ، ويُشجِّعه ليكون من عدوه على حَذَر وعلى يقظة .

أو : ظهيراً لا يُؤبه له ، وهذا طمأنة لرسول الله ، فالكافر هَيِّن على الله ، فلا يهمك كيدهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ ﴾

صحيح أن الله تعالى قال لرسوله ﷺ : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ.. ﴿٧٣﴾ ﴾ [التوبة] لكن لا يعني هذا أن يهلك رسول الله نفسه في دعوتهم ، ويألم أشد الألم لعدم إيمانهم ؛ لأن مهمة الرسول البلاغ ، وقد أسف رسول الله لحال قومه حتى خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

وما أمره الله بجهاد الكفار والمنافقين إلا ليحفزه ، فلا يترك جُهْداً إلا بذله معهم ، وإلاَّ فأنت عندي مُبشِّر ومُنذر ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً.. ﴿٥٦﴾ ﴾ [الفرقان] أي : بالخير قبل أوانه ليتلفت الناس إلى وسائله ﴿ وَنَذِيراً ﴿٥٦﴾ ﴾ [الفرقان] أي : بالشر قبل أوانه ليحذره الناس ، ويجتنبوا أسبابه ووسائله .

ثم يوجه رب العزة نبيه ورسوله ﷺ :

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ ﴾

في آية أخرى يقول تعالى : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور]

يعنى : غير قادرين على دَفْع الثمن ؛ لأنهم بخلاء وعندهم كزازة[1] ؟ أو لا يريدون أنْ يُخرجوا من جيوبهم شيئاً تنتفع أنت به ؟ مع أنك لم تسألْهم أجراً ، فهل يعنى ذلك أن النبى كان من المفروض أن يسألهم أجراً ؟

قالوا : نعم ؛ لأنه إذا قدَّم إنسانٌ لإنسان شيئاً نافعاً ، فعليه أن يدفع له أجراً بمقتضى التبادل والمعاوضة ، وكأنه ﷺ يقول لهم : لقد قدَّمتُ إليكم جميلاً يفترض أن لى عليه أجراً ، لكنى لا أريد منكم أجراً ، والمسألة من عندى تفضُّل .

وما هو الأجر ؟ الأجر : جُعْلٌ يقابل عملاً ، والثمن : جعل يقابل تملُّكاً ، وقيمة هذا الجُعْل تختلف باختلاف مشقة العمل ، وطُول زمنه ، ومهارة العامل فيما يقتضيه العمل ومخاطر ما يقتضيه العمل .

فكل مسألة من هذه ترفع من قيمة الأجر ، فحين تسافر مثلاً تحتاج إلى (شيَّال) يحمل لك الحقائب ، فتعطيه الأجر الذى يتناسب ومجهوده ، فإن استأجرت سيارة وسرْتَ بها مسافة فلا بُدَّ أن الأجر سيزيد ؛ لأنه أخَذ مجهوداً ووقتاً أكثر ، فإن احتجتَ مثلاً سباكاً ليصلح لك شيئاً فسوف ترى ما فى هذا العمل من المشقة ، ولا تبخل عليه بأكثر من سابقيه .

وربما كان العمل فى نظرك بسيطاً لا يستغرق وقتاً ، لكنه يحتاج إلى مهارة ، هذه المهارة ليست وليدة اللحظة ، ولكنها مجهود ونتيجة

(١) الكَزّ : الذى لا ينبسط . ووجه كزٌّ : قبيح . ورجل كز : قليل الخير . والكزازة : اليُبْس والانقباض . [لسان العرب ـ مادة : كزز] .

عوامل من التعلُّم والخِبرة حتى وصل صاحبها إلى هذه المهارة .

فالمهندس مثلاً الذى يُصمِّم لك منزلك فى ساعة أو ساعتين ، ومع ذلك يطلب مبلغاً كبيراً ، لماذا ؟ لأنه لا يتقاضى أجراً على هذا الوقت ، إنما على سنوات طويلة من الدراسة والمجهود والتحصيل ، حتى وصل إلى هذه المهارة .

إذن : كل أجر يُقدَّر بما يقابله من عمل ، ويتناسب مع ما يقتضيه العمل من وقت ومنجهود ومشقة ومخاطرة ومهارة .. إلخ .

وإذا كان الأمر كذلك فانظروا إلى عمل الرسول وإلى مدى إفادتكم من رسالته ، انظروا إلى المنهج الذى جاءكم به ، وكيف أنه يريحكم مع أنفسكم ، ويريحكم مع المجتمع ، ويريحكم مع ربكم عز وجل ، ويريحكم من شرور أنفسكم ، ومن شرور الناس جميعاً .

إذن : للرسول عمل كبير ومجهود عظيم ، لو قدَّرْتَ له أجراً لكان كذلك عظيماً . إن الإنسان إذا أجَّر مثلاً حارساً يحرسه بالليل ، كم يدفع له ؟ فالنبى يأتيك بمنهج يحرسك ويحميك فى نفسك وفى مالك وفى عرْضك وفى كل ما تملك ، ولا يحميك من فئة معينة إنما يحميك من الناس أجمعين .

بل إن حماية منهج الله لك لا تقتصر على الدنيا ، إنما تتعدَّى إلى الآخرة ، فتحميك فيها حماية ممتدة لا نهايةَ لها ، فإنْ قدَّرْت لهذه الحماية أجراً ، فكم يكون ؟

إنما أنا أقول لك : لا أريد أجراً ، لا كراهيةً فى الأجر ، بل لأنك أنت أيها الإنسان لا تستطيع تقدير هذا العمل أو تقييم الأجر عليه ، أمَّا الذى يُقدِّر ذلك فهو ربِّى الذى بعثنى ، وأنت أيها العبد مهما قدَّمْتَ لى من أجر على ذلك فهو قليل .

وحكينا قصة الرجل الطيب الذى قابلناه فى الجزائر ، يقف على الطريق يُلوِّح لسيارة تحمله ، فوقفنا وفتحنا له الباب ليركب معنا ، وقبل أن يركب قال : بكَمْ ؟ يعنى : الأجرة . فقال له صاحبى : لله ، فقال الرجل : إذن فهى غالية جداً . هذا هو المعنى فى قوله تعالى : ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ.. (٢٩) ﴾ [هود]

وفى موضع آخر يقول سبحانه : ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس] فما العلاقة بين الأجر وبين ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٢) ﴾ [يونس] ؟

كأن المسلم ينبغى عليه أن يعمل العمل ، لا لمن يعمل له ، ولكن يعمله لله ليأخذ عليه الأجر الذى يناسب هذا العمل من يده تعالى ، إنما إنْ أخذه من صاحبه فهو كالذى « فعل ليقال وقد قيل » وانتهتْ المسألة ، وربما حتى لا يُشكر على عمله .

لذلك وردتْ هذه العبارة على ألسنة كل الرسل : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ..(١٠٩) ﴾ [الشعراء] وليس هناك آية طلب فيها الأجر الظاهر إلا هذه الآية التى نحن بصددها : ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) ﴾ [الفرقان]

وقوله تعالى : ﴿إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ..(٢٣) ﴾ [الشورى]

ومعنى : ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) ﴾ [الفرقان] أى : سبيلاً للمثوبة ، وسبيلاً للأجر من جهاد فى سبيل الله ، أو صدقة على الفقراء .. إلخ .

وقوله : ﴿إِلاَّ مَن شَاءَ..(٥٧) ﴾ [الفرقان] تدل على التخيير فى دَفْع الأجر ، فالرسول لا يأخذ إلا طواعية ، والأجر : ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً (٥٧) ﴾ [الفرقان] من الجهاد والعمل الصالح ، فكأن أجر الرسول

العمل للغير ، لتأخذ أنت الأجر من الله ، فالرسول لا يأخذ شيئاً لنفسه .

ونلحظ فى آيات الأجْر أنها جاءت مرة ﴿أَجْرًا ..(٩٠)﴾ [الأنعام] ومرة[1] ﴿مِنْ أَجْرٍ ..(٥٧)﴾ [الفرقان] والبعض يرى أن (من) هنا زائدة ، وهذا لا يُقال فى كلام الله ، عَيْب أن نتهم كلام الله بأن فيه زيادة ، فكلُّ حرف فيه له معناه .

وسبق أن ضربنا لمنْ هذه مثلاً بقولنا : ما عندى مال ، وما عندى من مال . فالأولى نفَتْ أنْ يكون عندك مالٌ يُعتدُّ به ، لكن قد يكون عندك القليل منه ، أما القول الثانى فيعنى نَفْى المال مطلقاً بدايةً مِمَّا يقال له مال ، إذن : فأيّهما أبلغ فى النفى ؟ فمِنْ هنا تفيد العموم .

لذلك يقول تعالى : ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ..(٧٢)﴾ [المؤمنون] لماذا ؟ لأنه سيعطيك ويكافئك علىُ قَدْره هو ، وبما يناسب جُودَه تعالى وكرمه الذى لا ينفد ، أما الإنسان فسيعطيك على قَدْره وفى حدود إمكاناته المحدودة .

ملْحظ آخر فى هذه المسألة فى سورة الشعراء ، وهى أحفلُ السُّور بذِكْر مسألة الأجر ، حيث تعرَّضَتْ لموكب الرسل ، فذكرت ثمانية هم : موسى وهارون وإبراهيم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب .

---

(١) – وردت (أجْراً) فى ٦ آيات : (الأنعام : ٩٠) ، (هود : ٥١) ، (يس : ٢١) ، (الشورى : ٢٣) ، (الطور : ٤٠) ، (القلم : ٤٦) .
– ووردت (من أجر) فى ١٠ آيات : (يونس : ٧٢) ، (يوسف : ١٠٤) ، (الفرقان: ٥٧) ، (الشعراء ، ١٠٩ ، ١٢٧ ، ١٤٥ ، ١٦٤ ، ١٨٠) ، (سبأ : ٤٧) ، (ص : ٨٦) .

تلحظ أن كل هؤلاء الرسل[1] قالوا : ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩)﴾ [الشعراء] عدا إبراهيم وموسى عليهما السلام لم يقولا هذه الكلمة ، لماذا ؟

قالوا : لأنك حين تطلب أجراً على عمل قمتَ به لا يكون هناك ما يُوجب عليك أنْ تعمل له مجاناً ، فأنت لا تتقاضى أجراً إنْ عملتَ مثلاً مجاملة لصديق ، وكذلك إبراهيم - عليه السلام - أول ما دعا إلى الإيمان دعا عمه آزر ، ومثل هذا لا يطلب منه أجراً ، وموسى عليه السلام أول ما دعا دعا فرعون الذى احتضنه وربَّاه فى بيته ، ولو طلب منه أجراً لقال له : أىّ أجر وقد ربَّيتك[2] وو .. إلخ .

الآية الأخرى فى الاستثناء هى قوله تعالى : ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ..(٢٣)﴾[الشورى] فكأن المودة فى القربى أجر لرسول الله ﷺ على رسالته ، لكن أىُّ قُرْبى : قُرْبى النبى أم قُرْباكم ؟

لا شكَّ أن النبى الذى يجعل حُبَّ القريب للقريب ورعايته له هو أجره ، يعنى بالقُرْبى قُرْبى المسلمين جميعاً ، كما قال عنه ربُّه عَزَّ وجلَّ : ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ..(٦)﴾ [الأحزاب]

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨)﴾

(١) - قالها نوح فى : (يونس : ٧٢) ، (هود : ٢٩) ، (الشعراء : ١٠٩) .
- وقالها هود فى : (هود : ٥١) ، (الشعراء : ١٢٧) .
- وقالها صالح فى : (الشعراء : ١٤٥) .
- وقالها لوط فى : (الشعراء : ١٦٤) .
- وقالها شعيب فى : (الشعراء : ١٨٠) .

(٢) ورغم أن موسى عليه السلام لم يطلب منه أجراً ، لا مالاً وملكاً ولا غيره إلا أن فرعون امتن عليه بأنه الذى رباه ، فقال : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء] .

الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُطمئن رسوله ﷺ : يا محمد لا تهتم بكثرة الكفار ومكرهم بك وتعاونهم مع شياطين الإنس والجن ؛ لأن هؤلاء سيتساقطون ويموتون ، إما بأيديكم ، أو بعذاب من عند الله ، وعلى فَرْض أنهم عاشوا فلن تغلب قوتُهم وحيلُهم قوة الله تعالى ومكره ، وإنْ توكلوا على أصنام لا تضر ولا تنفع ، فتوكل أنت على الله : ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ.. (٥٨)﴾ [الفرقان]

والعاقل لا يتوكل إلا على مَنْ يثق به ويضمن معاونته ، وأنه سيوافقك فى كل ما تريد ، لكن ما جدوى أنْ تتوكل على أحد ليقضى لك مصلحة ، وفى الصباح تسمع خبر موته ؟

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن ينصح خَلْقه : إنْ أردتَ أنْ تتوكل فتوكل على مَنْ ينفعك ولا يتركك ، على مَنْ يظل على العهد معك لا يتخلى عنك ، على مَنْ لا يُعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء . هذه هى الفطْنة .

لكن ما جدوى أن تتوكل على مَنْ ليس فيه حياة ؟ وعلى فرض أن فيه حياةً دائمة فلا تضمن ألاَّ يتغير قلبه عليك .

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ..(٥٨)﴾ [الفرقان] سبِّح يعنى : نزِّه ، والتنزيه تضعه فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ.. (١١)﴾ [الشورى] فلله وجود ، ولك وجود ، لكن وجوده تعالى ليس كوجودك ، ولله صفة ولك نفس الصفة ، لكن صفته تعالى ليست كصفتك ، ولله تعالى فعل ، ولك فعل ، لكن فعله تعالى ليس كفعلك .

إذن : نزِّه الله فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله عن مشابهة الخَلْق ، وما دام الحق سبحانه مُنزَّهاً فى ذاته ، وفى صفاته ، وفى أفعاله ، فأنت تتوكّل على إله لا تطرأ عليه عوامل التغيير أبداً .

وهذا التنزيه لله تعالى ، وهذه العظمة والكبرياء له سبحانه فى صالحك أنت أيها الإنسان ، من صالحك ألاَّ يوجد لله شبيه ، لا فى وجوده ، ولا فى بقائه ، ولا فى تصرُّفه ، من صالحك أن يعرف كل إنسان أن هناك مَنْ هو أعلى منه ، وأن الخَلْق جميعاً محكومون بقانون الله ، فهذا يضمن لك أن تعيش معهم آمناً ، إذن : من الخير لنا أن يكون الإله ليس كمثله شىء ، وأن يكون سبحانه عالياً فوق كل شىء .

ويجب عليك حين تُنزه الله تعالى ألاَّ تُنزِّهه تنزيهاً مُجرَّداً ، إنما تنزيهاً مقروناً بالحمد ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ..(٥٨)﴾ [الفرقان] فتحمده على أنه واحد لا شريك له ، ولا مثيلَ له ، وليس كمثله شىء ، ففى ظل هذه العقيدة لا يستطيع القوىُّ أن يطغى على الضعيف ، ولا الغنى على الفقير .. إلخ .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً (٥٨)﴾ [الفرقان] نقول : كفاك فلان . يعنى : لا تحتاج لغيره . كقولنا : حَسْبُك الله يعنى : كافيك عن الاحتياج لغيره ؛ لأنه يعطيك كُلَّ ما تحتاج إليه ، ويمنع عنك الشر ، وإنْ كنت تظنه خيراً لك .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يقيم لك (كنترولاً) يضبط حياتك ويضمن لك السلامة ، لذلك حين تدعو الله فلا يستجيب لك ، لا تظن أن الله تعالى موظفٌ عندك ، لا بُدَّ أن يُجيبك لما تريد ، إنما هو ربك ومتولٍّ أمرَك ، فيختار لك ما يصلح لك ، ويُقدِّم لك الجميل وإن كنت تراه غير ذلك .

وقد ضربنا لهذه المسألة مثلاً بالأم التى تكثر الدعاء على ولدها ، فكيف بها إذا استجابَ الله لها ؟ إذن : من رَحمة الله بها أنْ يردَّ

دعاءها ، ويمنع إجابتها ، فمنع الإجابة هنا إجابة .

﴿ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان] المعنى : إذا توكلتَ على الحيِّ الذى لا يموت ، فآثار هذا التوكل أنْ يحميك من ذنوب العباد ، فهو وحده الذى يعلم ذنوبهم ، ويعلم حتى ما يدور فى أنفسهم .

ألم يقُل الحق لرسوله ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ ﴾ [المجادلة]

فما زال القَوْلُ فى أنفسهم لم يخرج ، ومع ذلك أخبره الله به ، وكأن الحق سبحانه يُطمئن رسوله : مهما تآمروا عليك ، ومهما دبّروا لك ، ومهما تكاتف ضدكَ جنودُ الإنس والجن ، فاطمئنْ لأن ربك عليم بالذنوب التى قد لا تدركها أنت ، ولا حيلةَ عندك لردِّها ، فيكفيك أن يعلم اللهُ ذنوبَ أعدائك .

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

والخبير : الذى يعلم خبايا الأمور ، حتى فى مسائل الدنيا الهامة نقول : نستدعى لها الخبير ؛ لأن المختص العادى لا يقدر عليها .

وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

ثم ينقلنا الحق - تبارك وتعالى - إلى آية كونية ، تنضاف إلى الآيات السابقة ، والهدف من ذكر المزيد من الآيات الكونية أنه لعلَّها تصادف رِقَّة قلب واستمالة مواجيد ، فتعطف الخَلْق إلى الخالق ، وتُلفت الأنظار إليه سبحانه .

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ ﴾

البعض يظن أن خَلْق السموات والأرض شيء سهل ، وأعظم منه خَلْق الإنسان ، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

فالإنسان يخلقه الله ، وقد يموت بعد يوم ، أو بعد مائة عام ، وقد تصيبه فى حياته الأمراض ، أمّا السموات والأرض ، فقد خلقها الله تعالى بهندسة دقيقة ، وقوانين لا تتخلف ولا تختل مع ما يمرُّ عليها من أزمنة ، وكأن الحق سبحانه يقول للإنسان : إن السموات والأرض هذه خلْقتى وصَنْعتى ، لو تدبرتَ فيها وتأملتّها لوجدتّها أعظم من خَلْقك أنت .

وقوله تعالى : ﴿ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [الفرقان] سبق أنْ تكلّمنا فى هذه المسألة وقلنا : إن جمهرة آيات القرآن تدل على أن الخَلْق تمَّ فى مدة ستة أيام إلا سورة واحدة تُشعِر آياتها أن الخلق فى ثمانية أيام ، وهى سورة فصلت :

حيث يقول فيها الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ[1] فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي

(١) الدخان : يُطلق على ما يرتفع فوق النار من غازات لم يتم احتراقها ، وقد يطلق على البخار وما يشبهه من الغازات المتصاعدة ، والمقصود أن مواد النجوم كانت فى حالة غازية كالدخان ثم خلق منها السماوات [القاموس القويم ١/ ٢٢٤] .

كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (١٢)﴾ [فصلت]

وجملة هذه ثمانية أيام ، وكل مُجْمل يخضع للتفصيل إلا تفصيل العدد فيرجع للمجمل ، كيف ؟

الحق سبحانه يتكلم هنا عن خَلْق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم تكلَّم عن خَلْق الأرض فى يومين ، وجعل فيها رواسى من فوقها ، وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها فى أربعة أيام ، فالأربعة الأيام هذه تكملة لخلّق الأرض فهى تكملة لليومين ، كأنه قال فى تتمة أربعة أيام ، فالأرض فى يومين والباقى أكمل الأربعة . كما تقول : سرْتُ إلى طنطا فى ساعة ، وإلى الأسكندرية فى ساعتين أى يدخل فيهما الساعة الأولى إلى طنطا ، فاليومان من الأربعة الأيام .

لكن ، كيف نُقدِّر هذا اليوم ؟ الله يخاطبنا باليوم الذى نعرفه ونعرف مدلوله ، فالمعنى : فى ستة أيام من أيامكم التى تعرفونها . وإلاَّ لو كان المراد يوماً لا نعرفه نحن ، فسيكون لا معنى له ؛ لأننا لا نفهمه .

ولقائل أن يقول : كيف يستغرق الخَلْق كل هذه المدة والحق - تبارك وتعالى - يخلق بكُنْ ، وكن لا تحتاج وقتاً ؟ قالوا : فَرْق بين عملية الخَلْق وما يحتاجه المخلوق فى ذاته .

فأنت مثلاً ، إنْ أردتَ أنْ تصنع كوباً من الزبادى تحضر اللبن مثلاً وتضع عليه خميرة الزبادى المعروفة المأخوذة من زبادى دسم سبق صُنْعه ، وتضعه فى درجة حرارة معينة ، بعد هذه العملية تكون قد صنعت الزبادى فعلاً ، لكن هل يمكنك أن تأكل منه فَوْر الانتهاء

من صناعته ؟ لا ، بل لا بُدَّ أن تتركه عدة ساعات لتتفاعل عناصره ، فهل تقول : أنا صنعت الزبادى فى عدة ساعات مثلاً ؟

كذلك ، حين تذهب إلى (الترزى) لتفصيل ثَوْب مثلاً يقول لك : موعدنا بعد شهر ، فهل تستغرق خياطة الثوب شهراً ؟ لا ، إنما مدته عنده شهر .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يفعل ويخلق دون معالجة ، وبالتالى دون زمن ؛ لأنه سبحانه يقول للشىء : كُنْ فيكون .

وقوله سبحانه : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان] سبق أن تكلمنا فى هذه المسألة . فاستوى تعنى : صعد وارتفع وعلا وجلس ، ونحن نُنزِّه الله تعالى عن استواءٍ يشابه استواء خَلْقه .

والاستواء هنا رمزية لتمام الأمر بما نعرفه فى عادة الملوك فى الجلوس على كرسى العرش ، حين يتم لهم الأمر ويستتبّ .

و ﴿الرَّحْمَٰنُ .. ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان] دليل على أن مسألة الخَلْق كلها تدور فى إطار الرحمانية ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان] لأنه سبحانه خلق السموات والأرض وخلقنا ، ومع ذلك لا نعرف : كيف تم هذا الخَلْق ؟ ولن نستطيع أن نقف على تفصيل هذا الخَلْق ، إلا إذا أطلعنَا الخالق عليه ، وإلاَّ فهذا أمر لم نشاهده ، فكيف نحوض فيه ، كمن يقول : إن الأرض كانت قطعةً من الشمس ، ثم انفصلتْ عنها مع دوران الشمس .. إلخ هذه الأقوال .

لذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُحذِّرنا من سماع مثل هذه النظريات ؛ لأن مسألة الخَلْق لا تخضع للعلم التجريبى أبداً ، فيقول

سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] ﴿٥١﴾ ﴾ [الكهف]

إذن : سيوجد في الكون مُضلون يقولون للناس مثل هذه الأقوال في الخَلْق ، ويدَّعُون بها أنهم علماء يعرفون ما لا يعرفه الناس ، فاحذروهم فما شاهدوا عملية الخَلْق ، وما كانوا مساعدين لله تعالى ، فيطلعوا على تفاصيل الخَلْق .

لذلك تقوم هذه الأقوال في خَلْق الإنسان وخَلْق السماء والأرض دليلاً على صِدْق هذه الآية ، فما موقف هذه الآية - إذن - إذا لم تقل هذه الأقوال ؟

ومثال ذلك الذين يحلو لهم التعصب للقرآن الكريم ضد الحديث النبوي يقول لك أحدهم : حدِّثني عن القرآن ، سبحان الله ، أتتعصَّب للقرآن ضد الرسول الذي بلَّغك القرآن ، وما عرفتَ القرآن إلا من طريقه ؟ يعني (الواد ربَّانيّ) لا يعترف إلا بالقرآن . ونقول لمثل هذا الذي يهاجم الحديث النبوي : أنت صليتَ المغرب ثلاث ركعات ، فأين هذا من القرآن ؟

لذلك يقول النبي ﷺ : « يُوشك الرجل يتكيء على أريكته يُحدَّث بحديثي فيقول : بيني وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه ، وما كان حراماً حرَّمْناه ، وإن ما حرَّم رسول الله كما حرَّم الله »[2] .

---

(١) أي : أعواناً مساعدين . وقال تعالى : ﴿ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص] أي : سنقويك به على سبيل المجاز المرسل ، فتقوية العضد تقوية للإنسان كله . [القاموس القويم ١/ ٢٤] .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٣٢) ، والترمذي في سننه (٢٦٦٤) وابن ماجة في سننه (١٢) ، والدارقطني (٤/ ٢٨٦) في سننه ، واللفظ للدارقطني .

لمـاذا ؟ لأنِّي أقـول لكم من باطن قـوْل الله تعـالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا.. (٧) ﴾ [الحشر]

بالله ، لو لم يُوجَد الآن مَنْ يقـول بهذا القـول ، فـماذا سـيكون موقف هذا الحديث ؟ وكيف لنا أن نفهمه ؟ لقد فضحهم هذا الحديث ، وأبان ما عندهم مـن غباء ، فـقد كان بإمكانهم بـعد أنْ عرفـوا حديث رسـول الله أنْ يُمسكوا عـن التعـصب للقـرآن ضد الحـديث النبـوى ، فيكون الحديث ساعتها غير ذى معنى لكن هيهات .

نعـود إلى مـوضوعنا ، ونحن بـصدد الكلام عن خَلْـق السمـوات وخَلْق الأرض ، واسـتـواء الحق ـ تبـارك وتعـالى ـ عـلى العـرش ، وهاتان المسـألتان لا تسـأل فيهـما إلا الله ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) ﴾ [الفرقان] لأنه وحده الذى يعلم خبايا الأمور ، وهذه أمور لم يطّلع عليها أحد فيخبرك بها .

وكلمة : (سأل) الإنسان لا يسأل عن شىء إلا إذا كان يجهله ، والسـؤال له مراحل : فـقد تجـهل الشىء ولا تهـتم به ، ولا تريد أن تعرفـه ، فأنت واحد من ضـمن الذين لا يعرفون ، وقـد تجهل الشىء لكن تهـتم به ، فتـسأل عنه لاهتـمامك به ، فـمرّة نقـول : اسأل به . ومرة نقول : اسأل عنه .

والمعنى : اسأل اهتـماماً به ، أى : بسبب اهتـمامك به اسأل عنه خبيراً ليعطيك ويخبرك بما تريد ، فهو وحده الذى يعرف خبايا الأمور ودقائقـها ، وعنده خبـر خَلْق السموات وخَلْق الأرض ، ويعلم مـسألة الاسـتواء على العـرش ؛ لذلك إنْ سألتَ عـن هاتين المسـألتين ، فـلا تسأل إلا خبيراً .

والذين قالوا فى قـوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩) ﴾ [الفرقان]

أى : ممَّنْ يعلم الكلام عن الله من أهل الكتاب نقول : لا بأسَ ؛ لأنه سيؤول إلى الله تعالى فى النهاية .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ (٦٠) ﴾

نلحظ أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما ذكر الصفة الملزمة لأنْ تخضع له سبحانه لم يَقُلْ مثلاً : اسجدوا لله ، إنما ﴿ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ .. (٦٠) ﴾ [الفرقان] وأتى بالصفة التى تُعدِّى رحمانيته إليك ، فكان من الواجب أنْ تطيع ، وأن تخضع له . كما قُلْنا سابقاً : اجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن مُلْكه .

﴿ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ .. (٦٠) ﴾ [الفرقان] كأنهم لا يعرفون هذه الكلمة ، إنهم لا يعرفون إلا رحمٰن اليمامة .

وقولهم : ﴿ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا .. (٦٠) ﴾ [الفرقان] دليل على أن الامتناع عن السجود ليس للذات المسجود لها ، بل لمن أمر بالسجود ، كما سبق وأنْ قالوا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] فكأنهم إنْ أمرهم الله بالسجود لسجدوا ، لكن كيف يأتى الأمر من الرسول خاصة ؟ وما ميَّزته عليهم حتى يأمرهم ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ وَزَادَهُمْ نُفُورًا (٦٠) ﴾ [الفرقان] والنفور : الانفكاك عن الشىء بكُرْه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا(١) وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) ﴾

(١) البروج : مواقع النجوم بالسماء ومنازلها . [القاموس القويم ١/ ٦١] .

يعود السياق مرة أخرى لذكر آية كونية ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يراوح بين آية تطلب منهم شيئاً ، وأخرى تلفتهم إلى قدرة الله وعظمته ، وهذا يدل على مدى تعنتهم ولجاجتهم وعنادهم ، وحرص الحق ـ سبحانه وتعالى ـ على لَفْتهم إليه ، والأخْذ بأيديهم إلى ساحته تعالى .

ولو شاء سبحانه لَسرَد الآيات الكونية مرة واحدة ، وآيات التكذيب مرة واحدة ، ولكن يُزاوج ـ سبحانه وتعالى ـ بين هذه وهذه لتكون العبرة أنفذ إلى قلوب المؤمنين .

قلنا : ﴿ تَبَارَكَ .. (٦١) ﴾ [الفرقان] يعنى : تنزّه ، وعَلاَ قدره ، وعَظُم خيره وبركته . والبروج : جمع بُرْج ، وهو الحصن الحصين العالى الذى لا يقتحمه أحد ، والآن يُطلقونها على المبانى العالية يقولون : برج المعادى ، برج النيل .. الخ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) ﴾ [البروج]

وقوله سبحانه : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ .. (٧٨) ﴾ [النساء]

والبروج : منازل فى السماء يحسب الناسُ بها الأوقات ، ويربطون بينها وبين الحظوظ ، فترى الواحد منهم أول ما يفتح جريدة الصباح ينظر فى باب « حظك اليوم » ، وقد دلَّتْ الآيات على أن هذه البروج جعلها الله لتُسهِّل على الناس أمور الحساب .

كما قال سبحانه : ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) ﴾ [الرحمن]

وقال تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا .. (٩٦) ﴾ [الأنعام]

يعنى : بها تُحسب المواقيت ، فالشمس تعطيك المواقيت اليومية والليلية ، والقمر يدلُّك على أول كل شهر ؛ لأنه يظهر على جِرْم معين ، وكيفية مخصوصة تُوضّح لك أول الشهر ومنتصفه وآخره ، ثم تعطيك الشمس بالظل حساب جزئيات الزمن .

ومعلوم أن فى السماء اثنىْ عَشَر بُرْجاً جمعها الناظم فى قوله :

حَمَلَ الثَّوْرُ جَوْزَةَ السَّرطَانِ ... وَرَعَى الليْثُ سُنْبُلَ الميزَانِ

عَقْربَ القَوْس جَدْى دَلْو ... وحُوت مَا عَرفنَا من أُمَّة السُّرْيَانِ

فهى : الحمَل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت . فأوّلها الحَمل ، وآخرها الحوت ، وكلُّ بُرْج يبدأ من يوم ٢١ فى الشهر وينتهى يوم ٢٠ .

ثم يقول تعالى : ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١)﴾ [الفرقان] السراج هو المصباح الذى نشعله ليعطى حرارة وضوءاً ذاتياً ، والمراد هنا الشمس ؛ لأن ضوءَها ذاتىٌّ منها ، وكذلك حرارتها ، على خلاف القمر الذى يضيء بواسطة الأشعة المنعكسة على سطحه ، فإضاءته غير ذاتية ؛ لذلك يقولون عن ضوء القمر : الضوء الحليم ؛ لأنه ضوء بلا حرارة .

والعجيب أن سطح القمر ـ كما وجدوه ـ حجارة ، ولما أخذوا منه حجراً ليُجروا عليه بحوثهم فهلْ قَلَّ ضوء القمر ؟ لا لأن دائرته الكاملة هى التى تعكس إلينا ضوء الشمس وحين تأخذ منه حجراً يعكس لك ما تحته أشعة الشمس .

وفى موضع آخر ، يوضح الحق سبحانه هذه المسألة ، فيقول

تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا .. ۝ ﴾ [يونس] فالضياء هو الذى يأتى من الكوكب ذاتياً ، والنور هو انعكاس الضوء على جسم آخر ، فهو غير ذاتى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢ ﴾

عرفنا أن الليل : غياب الشمس عن نصف الكرة الأرضية ، والنهار مواجهة الشمس للنصف الآخر ، والليل والنهار متعاقبان ﴿ خِلْفَةً ۝٦٢ ﴾ [الفرقان] يأتى الليل ثم يعقبه النهار ، كل منهما خَلْف الآخر ، وهذه المسألة واضحة لنا الآن ، لكن كيف كانت البداية عندما خلق الله تعالى الخَلْق الأول ، فساعتها ، هل كانت الشمس مواجهة للأرض أم غائبة عنها ؟

إنْ كان الحق سبحانه خلق الشمس مواجهةً للأرض ، فالنهار هو الأول ، ثم تغيب الشمس ، ويأتى الليل ليخلف النهار ، أما النهار فلم يُسبق بليْل . وكذلك إنْ كانت الشمس عند الخَلْق غير مواجهة للأرض ، فالليل هو الأول ، ولا يسبقه نهار ، وفى كلتا الحالتين يكون أحدهما ليس خِلْفة للآخر ، ونحن نريد أن تصدُقَ الآية على كليْهما .

إذن : لابد أنهما خِلْفة منذ الخَلْق الأول ؛ ذلك لأن الأرض - كما عرفنا ولم يَعُدْ لدينا شكٌ فى هذه المسألة - كروية ، والحق - تبارك وتعالى - حينما خلق الشمس والقمر الخَلق الأول كان المواجه منها للشمس نهاراً ، والمواجه منها للقمر ليلاً ، ثم تدور حركة الكون ، فيخلف أحدهما الآخر منذ البداية .

وهذه النظرية لا تستقيم إلا إذا قُلْنا بكروية الأرض ، وهذه يؤيدها قوله تعالى : ﴿وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ..(٤٠)﴾ [يس]

والمعنى أيضاً : ولا النهار سابق الليل ، لكن ذكر الليلَ ؛ لأنهم كانوا يعتقدون أن الليلَ خُلِق أولاً ، لماذا ؟ لأن الزمن عندهم يثبت بليله ، كما يحدث مثلاً في الصوم ، فهل تصوم أولاً في النهار ثم ترى الهلال بالليل ؟ إنما ترى الهلال بالليل أولاً ، فكأن رمضان يبدأ يومه بليله .

وما دام الأمر كذلك فالليل سابقُ النهار عندهم ، وهذه قضية يعتقدونها ومُسلَّمة عندهم ، وجاء القرآن وخاطبهم على أساس هذا الاعتقاد : أنتم تعتقدون أن الليلَ سابقُ النهارِ يعني : النهار لا يسبق الليل ، نعم لكن : اعلموا أيضاً أن الليل لا يسبق النهار . إذن : المحصلة : لا الليلُ سابقُ النهار ، ولا النهار سابق الليل .

ولو قلنا بأن الأرض مسطوحة لَمَا استقام لنا هذا القول .

لكن أيّ ليل ؟ وأيّ نهار ؟ نهاري أنا ، أم نهار المقابل لي ؟ وكل واحد على مليون من الثانية يولد نهار ويبدأ ليل ؛ لأن الشمس حين تغيب عني تشرق على آخرين ، والظهر عندي يوافقه عصر أو مغرب أو عشاء عند آخرين .

إذن : كل الزمن فيه الزمن ، وهذا الاختلاف في المواقيت يعني أن نغمة الأذان (الله أكبر) شائعة في كل الزمن ، فالله تعالى معبود بكل وقت وفي كل زمن ، فأنت تقول : الله أكبر وغيرك يقول : أشهد أنْ لا إله إلا الله .. وهكذا .

وإنْ كان الحق - تبارك وتعالى - خلق الليل للسُّبات وللراحة ،

والنهار للسعى وللعمل ، فهذه الجمهرة العامة لكنها قضية غير ثابتة ، حيث يوجد من مصالح الناس ما يتعارض وهذه المسألة ، فمن الناس مَنْ تقتضى طبيعة عمله أن يعمل بالليل كالخبازين والحراس والممرضين .. إلخ .

فهؤلاء يُسمح لهم بالعمل بالليل والراحة بالنهار ، ولو لم يكُنْ لهؤلاء منفذ لقلنا : إن هذا الكلام متناقض مع كونيات الخَلْق ؛ لذلك يقول ـ سبحانه وتعالى ـ فى آية أخرى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.. (٢٣)﴾ [الروم] فتراعى هذه الآية ظروف هؤلاء الذين يضطرون للعمل ليلاً ، وللراحة نهاراً .

وقوله تعالى : ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢)﴾ [الفرقان] يعنى : يا مَنْ شغله نهار عمله عن ذكر ربه انتهزْ فرصة الليل ، ويا مَنْ شغله نوم الليل عن ذِكْر ربه انتهز فرصة النهار ، وذلك كقول النبى ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل »(١) .

فمَنْ فاته شىء فى ليله فليتداركه فى نهاره ، ومَنْ فاته شىء فى نهاره فليتداركه في ليله ، وإذا كان الله تعالى يبسط يده بالليل ويبسط يده بالنهار ، وهما مستمران ، فمعنى ذلك أن يده تعالى مبسوطة دائماً .

ومعنى ﴿يَذَّكَّرَ..(٦٢)﴾ [الفرقان] يتمعَّن ويتأمل فى آيات الله ، فى الليل وفى النهار ، كأنه يريد أن يصطاد لله نعماً يشكره عليها ، على خلاف الغافل الذى لا يلتفت إلى شىء مِن هذا ، فمن فضل الله علينا

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه ، وكذا أحمد فى مسنده (٤/٣٩٥ ، ٤٠٤) .

أن يُنبِّهنا إلى هذه النعم ، ويلفت نظرنا إليها ؛ لأننا أهل غفلة .

وقوله : ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان] أي : شكراً ، فهي صيغة مبالغة في الشكر .

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ(١) قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾

يعطينا الحق ـ تبارك وتعالى ـ صورة للعبودية الحقة ، ونموذجاً للذين اتبعوا المنهج ، كأنه ـ سبحانه وتعالى ـ يقول لنا : دَعْكُم من الذين أعرضوا عن منهج الله وكذَّبوا رسوله ، وانظروا إلى أوصاف عبادي الذين آمنوا بي ، ونفَّذوا أحكامي ، وصدَّقوا رسولي .

نقول : عباد وعبيد . والتحقيق أن (عبيد) جمع لعبد ، وأن (عباد) جمع لعابد مثل : رجال جمع راجل : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً .. ﴿٢٧﴾﴾ [الحج] إذن : عبيد غير عباد .

وسبق أن تحدثنا عن الفَرْق بين العبيد والعباد ، فكلنا عبيد لله تعالى : المؤمن والكافر ، والطائع والعاصي ، فما دام يطرأ عليه في حياته ما لا يستطيع أنْ يدفعه مع أنه يكرهه فهو مقهور ، فالعبد الكافر الذي تمرَّد على الإيمان بالله ، وتمرَّد على تصديق الرسول ، وتمرد على أحكام الله فلم يعمل بها .

فهل بعد أن ألفَ التمرد يستطيع أن يتمرد على المرض إنْ أصابه ؟ أو يستطيع التمرد على الموت إنْ حلّ بساحته ؟ إذن : فأنت

---

(١) الجهل : الطيش والسَّفه والتعدي بغير حق . والجهل أيضاً : ضد العلم وهو الخلو من المعرفة . ويتحدد معنى الجهل بما يناسب المقام . والمقصود بالجاهلين هنا : السفهاء . [القاموس القويم ١/١٣٤] .

عبد رغماً عنك ، وكلنا عبيد فيما نحن مقهورون عليه ، ثم لنا بعد ذلك مساحة من الاختيار .

أما المؤمن فقد خرج عن اختياره الذى منحه الله فى أن يؤمن أو يكفر ، وتنازل عنه لمراد ربه ، فاستحق أن يكون من عباد الله ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ ..(٦٣) ﴾ [الفرقان] فنحن وإنْ كنا عبيداً فنحن سادة ؛ لأننا عبيد الرحمن ؛ لذلك كانت حيثية تكريم الله لرسوله ﷺ فى الإسراء هى عبوديته لله تعالى ، حيث قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ ..(١) ﴾ [الإسراء] ، فالعبودية هى علة الارتقاء .

فلما أخلص رسول الله العبودية لله نال هذا القُرْب الذى لم يسبقه إليه بشر .

لذلك وصف الملائكة بأنهم ﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) ﴾[الأنبياء] وباستقراء الآيات لم نجد سوى آية واحدة تخالف فى ظاهر الأمر هذا المعنى الذى قُلْناه في معنى العباد ، وهى قوله تعالى فى الكلام عن الآخرة : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ ..(١٧) ﴾ [الفرقان]

فقال للضالين (عبادى) وهى لا تُقال إلا للطائعين ، لماذا ؟ قالوا : لأن فى القيامة لا اختيارَ لأحد ، فالجميع فى القيامة عباد ، حيث انتفى الاختيار الذى يُميِّزهم .

والعلماء يقولون : إن العباد تُؤخَذ منها العبادية ، وأن العبيد تُؤخَذ منها العبودية : العبادية فى العباد أن يطيع العابد أمر الله ، وينتهى عن نواهيه طمعاً فى ثوابه فى الآخرة ، وخوفاً من عقابه فيها ، إذن : جاءت العبادية لأخذ ثواب الآخرة وتجنّب عقابها .

أما العبودية فلا تنظر إلى الآخرة ، إنما إلى أن الله تعالى تقدّم

بإحسانه على عبيده إيجاداً من عدم ، وإمداداً من عُدْم ، وتربية وتسخيراً للكون ، فالله يستحق بما قدَّم من إحسان أن يُطَاع بصرف النظر عن الجزاء فى الآخرة ثواباً أو عقاباً .

أما العبودة فهى : ألاَّ ينظر العبد إلى ما قدَّم من إحسان ، ولا ما أخَّر من ثواب وعقاب ، وإنما ينظر إلى أن جلال الله يستحق أنْ يُطاع ، وإنْ لم يسبق له الإحسان ، وإنْ لم يأتِ بعد ذلك ثواب وعقاب .

وإن كانت العبودية مكروهة فى البشر كما قال أحد الساسة[1] : متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ ذلك لأن العبودية للبشر يأخذ السيد خيْر عبده ، أما العبودية لله تعالى فعزٌّ وشرف ، حيث يأخذ العبد خَيْر سيده ، فهى عبودية سيادة ، لا عبوديةَ قهر .

فحين تؤمن بالله يعطيك الله الزمام : يقول لك : إنْ أردت أنْ أذكرك فاذكرنى ، وفى الحديث القدسى : « مَنْ ذكرنى فى نفسه ذكرتُه فى نفسى ، ومَنْ ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم »[2] .

وإنْ كان - سبحانه وتعالى - يستدعيك إلى خَمْس صلوات فى اليوم والليلة ، فما ذلك إلا لتأنسَ بربك ، لكن أنت حر تأتيه فى أىِّ وقت تشاء من غير موعد ، وأنت تستطيع أن تحدد بَدْءَ المقابلة

(١) هو : أحمد عرابى بن محمد عرابى ، زعيم مصرى ، ممن تركت لهم الحوادث ذكراً فى تاريخ مصر الحديث ، ولد فى قرية « هرية رزنة » (عام ١٨٤١ م) من قرى الزقازيق بمصر ، جاور فى الأزهر سنتين ، ثم انتظم فى الجيش سنة (١٨٥٥م) وكان عمره ١٤ عاماً حتى بلغ رتبة « أميرالاى » فى أيام الخديوى توفيق . توفى ١٩١١ م عن ٧٠ عاماً . انظر (الأعلام للزركلى ١٦٨/١) .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥١/٢ ، ٣٥٤ ، ٤٠٥) ، والبخارى فى صحيحه (٧٤٠٥ ، ٧٥٠٥ ، ٧٥٣٧) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وقد شرح الشيخ الشعراوى رحمه الله هذا الحديث القدسى فى سلسلة « الأحاديث القدسية » (١٧/١-٢٥) بتحقيقنا .

ونهايتها وموضوعها .. إلخ ، فزمام الأمر فى يدك .

وقد تعلم سيدنا رسول الله خُلق الله ، فكان إذا وضع يده فى يد أحد الصحابة يُسلِّم عليه لا ينزع يده منه حتى يكون هو الذى ينزع يده من يد رسول الله[1] ، وهذا أدب من أدب الحق - تبارك وتعالى - إذن : فالعبودية لله تعالى عبودية لرحمن ، لا عبودية لجبار .

وأول ما نلحظ فى هذه الآية أنه تعالى أضاف العباد إلى الرحمن ، حتى لا نظن أن العبودية لله ذِلَّة ، وأن القرآن كلام رب وُضِع بميزان ، ثم يذكر - سبحانه وتعالى - صفات هؤلاء العباد ، صفاتهم فى ذواتهم ، وصفاتهم مع مجتمعهم ، وصفاتهم مع ربهم ، وصفاتهم فى الارتقاء بالمجتمع إلى الطُّهر والنقاء .

أما فى ذواتهم ، فالإنسان له حالتان هما محلُّ الاهتمام : إما قاعد ، وإما سائر ، ونُخرِج حالة النوم لأنه وقت سكون ، أما حال القعود فالحركة محدودة فى ذاته ، والمهم حال الحركة والمشى ، وهذا هو الحال الذى ينبغى الالتفات إليه .

لذلك يوضح لنا ربنا - عز وجل - كيف نمشى فيقول : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا.. ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان]

يعنى : برفق وفى سكينة ، وبلين دون اختيال ، أو تكبُّر ، أو غطرسة ، لماذا ؟ لأن المشى هو الذى سيُعرِّضك لمقابلة مجتمعات متعددة ، وهذا الأدب الربانى فى المشى يُحدِث فى المجتمع استطراقاً إنسانياً يُسوِّى بين الجميع .

---

(١) أخرج أبو الشيخ الأصبهانى فى كتابه « أخلاق النبى ﷺ وآدابه » - ص ٣٦ طبعة الدار المصرية اللبنانية ١٩٩٣ « عن أنس بن مالك قال : كان ﷺ إذا صافح رجلاً لم ينزع يدع من يده حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده ، ولا يصرف وجهه عنه حتى يكون هو الذى يصرف » .

وفي موضع آخر يقول تعالى في هذه المسألة : ﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا.. ⑱ ﴾ [لقمان] ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ㊲ ﴾ [الإسراء]

وتصعير الخدِّ أنْ تُميله كِبْراً وبَطَراً وأصله (الصعر) مرض في البعير يصيب عنقه فيسير مَائلاً ، ومَنْ أراد أن يسير مُتكبِّراً مختالاً فليتكبر بشيء ذاتي فيه ، وهل لديك شيء ذاتي تستطيع أن تضمنه لنفسك أو تحتفظ به ؟

إنْ كنتَ غنياً فقد تفتقر ، وإنْ كنتَ قوياً صحيحاً قد يصيبك المرض فيُقعدك ، وإنْ كنتَ عزيزاً اليوم فقد تذلّ غداً . إذن : فكل دواعي التكبُّر ليستَ ذاتية عندك ، إنما هي موهوبة من الله ، فعلامَ التكبُّر إذن ؟!

لذلك يقولون في المثل (اللي يخرز يخرز على وركه) إنما يخرز على ورك غيره ؟! وأصل هذا المثل أن صانع السروج كان يأتي بالصبي الذي يعمل تحت يده ، ويجعله يمدّ رجْله ، ويضع السرج على وركه ، ثم يأخذ في خياطته ، فرآه أحدهم فَرَقَّ قلبه للصبي فقال للرجل : إنه ضعيف لا يتحمل هذا ، فإنْ أردتَ فاجعله على وركك أنت . كذلك الحال هنا ، مَنْ أراد أن يتكبّر فليتكبّر بشيء ذاتي فيه ، لا بشيء موهوب له .

والمتكبِّر شخص ضُرب الحجاب على قلبه ، فلم يلتفت إلى ربه الأعلى ، ويرى أنه أفضل منَ خَلْق الله جميعاً ، ولو استحضر كبرياء ربه لاستحى أن يتكبر على خَلْق الله ، فتكبُّره دليل على غفلته عن هذه المسألة .

لذلك يقول الناظم :

فَدَعِ كُلَّ طاغيةٍ للزمَان   فَإنَّ الزمَانَ يُقيم الصَّعَرْ

يعني : سيرَى من الزمان ما يُقوِّم اعوجاجه ، ويُرغِم أنفه .

ومعنى ﴿مَرَحًا..(١٨)﴾ [لقمان] المرح : الفرح ببطر . والبطر : أنْ تأخذ النعمة وتنسى المنعم ، وتتنعّم بها ، وتعصى مَنْ وهبك إياها ، إذن : المنهىّ عنه الفرح المصاحب للبطر ، وإنكار فضل المنعم ، أما الفرح المصاحب للشكر فمحمود ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا..(٥٨)﴾ [يونس]

وفي موضع آخر يُعلِّمنا أدب المشى ، فيقول : ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ.. (١٩)﴾ [لقمان]

وقالوا : إن المراد بالمشى الهَوْن ، هو الذى يسير فيه الإنسان على سجيته دون افتعال للعظمة أو الكِبْر ، لكن دون انكسار وذلّة ، وسيدنا عمر - رضى الله عنه - حينما رأى رجلاً يسير متماوتاً ضربه ، ونهاه عن الانكسار والتماوت فى المشية ، وهكذا فمشْية المؤمن وَسَط ، لا متكبر ولا متماوت متهالك .

ثم تتحدث الآية بعد ذلك عن صفات عباد الرحمن وعلاقتهم بالناس : ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا..(٦٣)﴾ [الفرقان] والجاهل : هو السَّفيه الذى لا يزن الكلام ، ولا يضع الكلمة فى موضعها ، ولا يدرك مقاييس الأمور ، لا فى الخُلُق ولا فى الأدب .

وسبق أن فرَّقْنا بين الجاهل والأمىّ : الأمىّ هو خالى الذهن ، ليس عنده معلومة يؤمن بها ، وهذا من السهل إقناعه بالصواب . أما الجاهل فعنده معلومة مخالفة للواقع ؛ لذلك يأخذ منك مجهوداً فى إقناعه ؛ لأنه يحتاج أولاً لأن تُخرِج من ذهنه الخطأ ، ثم تُدخِل فى قلبه الصواب .

والمعنى : إذا خاطبك الجاهل ، فحذار أن تكون مثله فى الردّ عليه فتَسفْه عليه كما سَفهَ عليك ، بل قرِّعه بأدب وقُلْ ﴿سَلَامًا (٦٣)﴾ [الفرقان] لتُشعِره بالفرقِ بينكما .

والحق - تبارك وتعالى - يُوضِّح فى آية أخرى ثمرة هذا الأدب ، فيقول : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت]

وما أجملَ ما قاله الإمام الشافعى[1] فى هذا المعنى :

إذَا نَطَقَ السَّفِيهُ فَلا تُجِبْهُ ... فَخَيْر منْ إجَابتِه السُّكُوتُ[2]

فإنْ كلَّمتَه فرجتَ عَنْه ... وَإنْ خلَّيْته كَمَدًا يمُوتُ

فإن اشتد السفيه سفاهة ، وطغى عليك وتجبر ، فلا بُدَّ لك من رَدِّ العدوان بمثله ؛ لأنك حلُمتَ عليه ، فلم يتواضع لك ، وظنَّ حلْمك ضعفاً ، وهنا عليك أن تُريه الفرق بين الضعف وكرم الخُلق ، كالشاعر[3] الذى قال :

صَفَحْنَا عَنْ بنى ذُهْل ... وَقُلْنَا القَوْمُ إخْوَانُ

عَسَى الأيامُ أنْ يُرْ ... جِعْنَ قَوْماً كالذى كَانُوا

فلما صرَّح الشَّر فَأمْـ ... سَى وَهْو عُرْيَانُ

ولم يَبقَ سوَى العُدْوا ... ن دنَّاهُمْ كمَا دَانُوا

مشَيْنا مَشْية الليْث ... غَدا والليثُ غَضْبانُ

---

(١) هو : محمد بن إدريس الشافعى المطلبى ، أبو عبد الله ، أحد الأئمة الأربعة ، صاحب المذهب الشافعى ، وإليه نسبة الشافعية ، ولد فى غزة بفلسطين (عام ١٥٠ هـ) . زار بغداد مرتين ، وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ فتوفى بها (عام ٢٠٤ هـ) عن ٥٤ عاماً ، وقبره معروف بالقاهرة . [الأعلام للزركلى ٦/٢٦] .

(٢) هذا البيت ذكره أبو الحسن الماوردى فى « أدب الدنيا والدين » (ص ٢٢٦) ، ولكن عزاه لعمرو ابن علي . وانظر : ديوان الإمام الشافعى - طبعة مكتبة ابن سينا ١٩٨٨ ص ٣٨ ، فقد ورد فيه هذان البيتان .

(٣) هو : شهل بن شيبان بن زمَّان الحنفى ، الشهير بالفِنْد الزِّمَّانى ، من بنى بكر بن وائل ، شاعر جاهلى ، كان سيد بكر فى زمانه ، وفارسها وهو من أهل اليمامة . شهد حرب بكر وتغلب وقد ناهز عمره المئة . توفى نحو ٧٠ ق هـ . وسُمِّى الفند لعظم خِلْقته . (الأعلام ٣/١٧٩) .

بضَرْبٍ فيه توهينٌ وتخضيعٌ وإقْرانُ
وطَعْنٍ كفم الزِّقِّ[1] غدا والزِّق مَلآنُ
وفى الشرِّ نجاةٌ حينَ لاَ يُنجيك إحْسَانُ
وبعْضُ الحِلْم عِنْد الجهْلِ للذِّلَّة إذْعَانُ

وللإمام على كرَّم الله وجهه :

إذَا كُنْتُ مُحتاجاً إلى الحِلْم إنَّنى إلى الجْهلِ فى بَعْضِ الأحَايين أحْوجُ
ولِي فَرسٌ للحِلْم بالحِلْم مُلجَمٌ ولِى فَرَسٌ للجَهْلِ بالجهْلِ مُسْرَجُ
فَمَنْ رَامَ تَقْويمى فَإنِّى مُقَوَّمٌ ومَنْ رَامَ تَعْويجى فَإنِّى مُعَوَّجُ

ومعنى : ﴿قَالُوا سَلامًا (٦٣)﴾ [الفرقان] قالوا : المراد هنا سلام المتاركة ، لا سلام الأمان الذى نقوله فى التحية (السلام عليكم) فحين تتعرَّض لمن يؤذيك بالقول ، ويتعدى عليك باللسان تقول له سلام يعنى : سلام المتاركة .

وبعض العلماء يرى أن كلمة ﴿قَالُوا سَلامًا (٦٣)﴾ [الفرقان] هنا تعنى المعنيين : سلام المتاركة ، وسلام التحية والأمان ، فحين تحلُم على السَّفيه فلا تُجَاريه تقول له : لو تماديتُ معك سأوذيك ، وأفعل بك كذا وكذا ، فأنت بذلك خرجتَ من سلام المتاركة إلى سلام التحية والأمان .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)﴾ [القصص]

ألم يقُلْ إبراهيم ـ عليه السلام ـ لعمه آزر لما أصرَّ على كُفْره :

(١) الزق : السقاء . وهو كل وعاء اتخذ لشراب ونحوه . وهو من الجلد . [لسان العرب ـ مادة : زقق] .

﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي.. (٤٧) ﴾ [مريم]

والمعنى : لو وقفتُ أمامك لربما اعتديتُ عليك ، وتفاقمتْ بيننا المشكلة .

وبعد أن تناولتْ الآيات حال عباد الرحمن فى ذواتهم ، وحالهم مع الناس ، تتحدث الآن عن حالهم مع ربهم :

﴿ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) ﴾

والبيتوتة تكون بالليل ، حين يأوى الإنسان إلى بيته بعد عناء اليوم وسَعْيه ، وبعد أن تقلَّب فى ألوان شتَّى من نِعَم الله عليه ، فحين يأوى إلى مبيته يتذكر نِعَم الله التى تجلَّتْ عليه فى ذلك اليوم ، وهى نِعَم ليست ذاتية فيه ، إنما موهوبة له من الله ؛ لذلك يتوجَّه إليه سبحانه بالشكر عليها ، فيبيت لله ساجداً وقائماً .

كما قال سبحانه : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ.. (٩) ﴾ [الزمر]

وقال سبحانه : ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ[1] هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) ﴾ [الذاريات]

لكن ، أيطلبُ اللهُ تعالى منَّا ألاَّ نهجعَ بالليل ، وقد قال فى آية أخرى : ﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) ﴾ [النبأ]

قالوا : ليس المراد قيام الليل كله ، إنما جزء منه حين تجد عندك النشاط للعبادة ، كما قال الحق سبحانه وتعالى فى خطاب النبى ﷺ :

---

(١) الأسحار : جمع سَحَر ، وهو الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر . [القاموس القويم ١/٣٠٥] .

﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ② نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ④﴾ [المزمل]

حتى قال ابن عباس : مَنْ صلّى بعد العشاء ركعتين فأكثر كان كَمَنْ بَاتَ لله ساجداً وقائماً[1] ، فربُّك يريد منك أن تذكره قبل أن تنام ، وأن تتأمل نِعَمه عليك فتشكره عليها .

وذكر سبحانه حالتي السجود والقيام ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا ⑥④﴾ [الفرقان] لأن بعض الناس يصعُب عليهم أنْ يسجدوا ، وآخرين يسهل عليهم السجود ، ويصعب عليهم القيام ، فذكَر الله سبحانه الحالتين ليعدل فيهما .

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ⑥⑤﴾

هذا القول يناسب عباد الرحمن الذين يُفعلون الخيرات ، طمعاً فى الثواب ، وخوفاً من العقاب ، فهم الذين يقولون ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ⑥⑤﴾ [الفرقان] كلمة (غرام) نقولها بمعنى الحب والهُيَام والعِشق ، ومعناها : اللزوم ، أى لازم لهم لا ينفك عنهم فى النار أبداً ؛ لأن العاقبة إما جنة أبداً ، أو نار أبداً .

فمعنى ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ⑥⑤﴾ [الفرقان] أى : لازماً دائماً ، ليس مرة واحدة وتنتهى المسألة .

ومنه كلمة (الغريم) ، وهو الذى يلازم المدين ليأخذ منه دَيْنه .

---

(١) عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ عن النبى ﷺ قال : « مَنْ صلى العشاء الآخرة فى جماعة ، وصلى أربع ركعات قبل أن يخرج من المسجد كان كعدل ليلة القدر » أورده المنذرى فى « الترغيب والترهيب » (١/٢٠٥) وعزاه للطبرانى فى « المعجم الكبير » .

وكلمة ﴿ اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ .. (٦٥) ﴾ [الفرقان] كأنهم متصورون أن جهنم ستسعى إليهم ، وأن بينها وبينهم لدداً ، بدليل أنها ستقول : ﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

ثم تذكر الآيات سبب هذه المقولة :

﴿ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) ﴾

ساء الشيء أي : قَبُحَ ، وضده حَسُنَ ؛ لذلك قال تعالى عن الجنة في مقابل هذه الآية : ﴿ حسنت مستقراً ومقاما (٧٦) ﴾ [الفرقان] وهكذا السوء يلازمه القُبْح ، والحُسْن يلازمه الحُسْن .

وقال : ﴿ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) ﴾ [الفرقان] حتى لا يظنوا أن النار فترة وتنتهي ، ثم يخرجون منها ، فهي مستقرهم الدائم ، ومُقامهم الذي لا يفارقونه .

أو أن الحق - سبحانه وتعالى - أراد بهذا نوعين من الناس : مؤمن أسرف في بعض السيئات ولم يتُبْ ، أو لم يتقبل الله منه توبته ، فهو في النار لحين ، والمستقر هنا بمعنى المكان المؤقت ، أما المقام فهو الطويل .

إذن : النار ساءتْ مستقراً لمن أسرف على نفسه ولم يتُبْ ، أو لم يتقبل الله توبته ، إنما ليست إقامة دائمة ، والمقام يكون للخالدين فيها أبداً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) ﴾

الإسراف : تبديد ما تملك فيما عنه غَنَاء ، فلا نقول (مسرف) مثلاً للذي يأكل ليحفظ حياته ؛ لذلك يقول سيدنا عمر - رضي الله

عنه ـ لولده عاصم[1]: كُلْ نصف بطنك ، ولا تطرح ثوباً إلا إذا استخلقْتَه[2] ، ولا تجعل كل رزقك فى بطنك وعلى جسدك[3] .

والإسراف أن تنفق فى غير حِلٍّ ، فلا سرف فى حلٍّ ، حتى إنْ أسرف الإنسان فى شىء من الترف المباح ، فإنه يؤدى لنفسه بعض الكماليات ، فى حين يؤدى للمجتمع أشياء ضرورية ، فالذى لا يرتدى الثوب إلا (مكْوياً) كان بإمكانه أن يرتديه دون كَيٍّ ، فكَيُّ الثوب فى حقه نوع من الترف ، لكنه ضرورة بالنسبة (للمكوجى) حيث يسَّر له أكل العيش .

والذى يستقل سيارة أجرة وهو قادر على السير ، أو يجلس على (القهوة) كل يوم ليمسح حذاءه وهو قادر على أن يمسحه بنفسه ، هذه كلها ألوان من الترف بالنسبة لك ، لكنها ضرورة لغيرك ، فلا يُسمَّى هذا إسرافاً.

وقوله تعالى : ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان] أى : بين الإسراف والتقتير ﴿قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان] يعنى : وسطاً أى : أن الإنفاق وسط بين طرفين ، وقوام الشىء : ما به يقوم ، والحياة كلها تقوم على عملية التوسُّط بين الإسراف والتقتير .

---

(١) هو : عاصم بن عمر بن الخطاب القرشى العدوى : شاعر ، كان من أحسن الناس خلقاً ، وكان طويلاً جسيماً ، وهو جد عمر بن عبد العزيز لأمه . ولد ٦ هـ ، وتوفى بالربذة عام ٧٠ هـ عن ٦٥ عاماً . (الأعلام للزركلى ٣/٢٤٨) .

(٢) خَلُق الثوب خُلوقاً : بَلِىَ . وشىء خَلَق : بَال . [لسان العرب ـ مادة : خلق] . ومقصود عمر رضى الله عنه أن لا يطرح ابنه ثوباً إلا إذا أصبح قديماً بالياً .

(٣) ذكره القرطبى فى تفسيره (٧/٤٩٥١) ، وفيه « ولا تكن من قوم يجعلون ما رزقهم الله فى بطونهم وعلى ظهورهم » وقد كان عمر بن الخطاب قدوة لابنه فى هذا ، فقد أخرج أبو نعيم فى الحلية (١/٥٣) أن الحسن البصرى قال : خطب عمر بن الخطاب وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتى عشرة رقعة .

وأذكر ونحن تلاميذ كانوا يُعلِّموننا نظرية الروافع ، وكيف نُوسِّط مركزاً على عصا من الخشب ، بحيث يتساوى الذراعان ، ويكونان سواء ، لا تميل إحداهما بالأخرى ، وإذا أرادتْ إحداهما أن تميل قاومتْها الأخرى ، كأنها تقول لها : نحن هنا . فإذا ما علقتَ ثقلاً بأحد الذراعين لزمك أن تطيل الأخرى لتقاوم هذا الثقل .

ويروى أن عبد الملك بن مروان[1] لما أراد أن يُزوِّج ابنته فاطمة من عمر بن عبد العزيز اختبره بهذا السؤال ليعرف ميزانه في الحياة : يا عمر ، ما نفقتك ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، نفقتي حسنة بين سيئتين[2]، ثم تلا هذه الآية : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان]

فعلم الخليفة أن زوج ابنته يسير سَيْراً يضمن له ولزوجته مُقوِّمات الحياة ، ويضمن كذلك المقومات العليا للنفس وللمجتمع .

وسبق أن ذكرنا أن الإنسان الذي ينفق كل دَخْله لا يستطيع أن يرتقي بحياته وحياة أولاده ؛ لأنه أسرف في الإنفاق ، ولم يدخر شيئاً ليبني مثلاً بيتاً ، أو يشتري سيارة .. الخ .

ومصيبة المجتمع أعظم في حال التقتير ، فمصلحة المجتمع أنْ تُنفق ، وأن تدخر ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ .. ﴿٢٩﴾﴾ [الإسراء]

---

(١) هو : أبو الوليد الأموي ، من أعاظم الخلفاء ودهاتهم ، ولد في المدينة ٢٦ هـ ونشأ بها فقيهاً واسع العلم متعبداً ، استعمله معاوية على المدينة وهو ابن ١٦ سنة ، عُرِّبت في أيامه الدواوين ، وضبطت الحروف بالنقط والحركات وهو أول من صك الدنانير في الإسلام ونقش بالعربية عليها . توفي ٨٦ هـ عن ٦١ عاماً . (الأعلام ٤/١٦٥) .

(٢) ذكره القرطبي في تفسيره (٧/٤٩٥١) .

وهكذا جعل الله لنا ميزاناً بين الإسراف والتقتير ؛ ذلك لأن المال قِوَام الحياة ، والذى يُقتِّر يُقتِّر على نفسه وعلى الناس ، فليست له مطلوبات يشتريها ، ويشارك بها فى حركة الحياة ، وينتفع بها غيره ، فهذه السلع وهذه الصناعات وهؤلاء العمال ، وأهل الحِرَف من أين يرتزقون إذن وليس هناك استهلاك ورواج لسلعهم ؟ لا شَكَّ أن التقتير يُحدِث كساداً ، ويُحدِث بطالة ، وهما من أشد الأمراض فتكاً بالمجتمع .

ولو نظرتَ إلى رغيف العيش ، وهو أبسط ضروريات الحياة ، كم وراءه من عمال وصُنَّاع وزُرَّاع ومهندسين ومطاحن ومخازن ومصانع وأفران ، وهَبْ أنك أحجمت مثلاً عنه ، ماذا يحدث ؟

إذن : ربك يريدك أن تنفق شيئاً ، وتدخر شيئاً يتيح لك تحقيق ارتقاءات حياتك وطموحاتها ؛ لذلك خُتِمتْ الآية السابقة بقوله تعالى :
﴿ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) ﴾ [الإسراء]

ملومَ النفس لما بددتَ من أموال لم ينتفع بها عيالك ، ومحسوراً حينما ترى غيرك ارتقى فى حياته وأنت لم تفعل شيئاً . إذن : فالإنسان ملومٌ إنْ أسرف ، محسورٌ إنْ قتّر ، والقوام فى التوسُّط بين الأمرين ، وبالحسنة بين السيئتين ، كما قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، ولذلك قالوا : خير الأمور الوسط .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

---

(١) **سبب نزول الآية** : عن عبد الله بن مسعود قال : سئل رسول الله ﷺ : أى الذنب أكبر ؟ قال : أن تجعل لله نداً وهو خلقك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك . قال : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك . قال عبد الله : وأنزل الله تصديق ذلك : ﴿ وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. (٦٨) ﴾ [الفرقان] . أورده ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٢٦) ، والقرطبى فى تفسيره (٧/٤٩٥٢) ، والواحدى فى أسباب النزول (ص ١٩٢) . والحديث فى الصحيحين البخارى ومسلم وأصحاب السنن .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ ﴾

وهنا قد يسأل سائل : أبعد كل هذه الصفات لعباد الرحمن ننفى عنهم هذه الصفة ﴿ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـهًا آخَرَ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان] وهم مَا اتصفوا بالصفات السابقة إلا لأنهم مؤمنون بالإله الواحد سبحانه ؟ قالوا : هذه المسألة عقيدة وأساس لا بُدَّ للقرآن أن يكررها ، ويهتم بالتأكيد عليها .

ومعنى : ﴿ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـهًا آخَرَ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان] أى : لا يدعون أصحاب الأسباب لمسبِّباتهم ، وهذا هو الشرك الخفىّ . ومنه قولهم : توكلتُ على الله وعليك . فنقول له ، انتبه ليس علىَّ شىء ، الأمر كله على الله . فقُلْ : توكلت على الله . وإنْ أردتَ فقُلْ : ثُمَّ عليك(١).

ونسمع آخر يقول للأمر الهام : هذا علىَّ ، والباقى على الله ، فجعل الأصل المهم لنفسه ، وأسند الباقى لله ، أيليق هذا والمسألة كلها أصلها وفروعها على الله ؟

إذن : يمكن أن تكون هذه الآية للمفتونين فى الأسباب الذين ينتظرون منها العطاء ، وينسوْنَ المسبِّب سبحانه ، وهذا هو الشرك الخفى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الفرقان] سبق أنْ تحدثنا عن الفرق بين الموت والقتل ، وقلنا :

---

(١) أخرج ابن ماجة فى سننه (٢١١٧) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما قال قال ﷺ : « إذا حلف أحدكم فلا يقل : ما شاء الله وشئت ، ولكن ليقل : ما شاء الله ثم شئت » .

إن كليهما تذهب به الحياة ، لكن في الموت تذهب الحياة أولاً ، ثم تُنقض البنية بعد ذلك ، أما في حالة القتل فتُنقض البنية أولاً ، ثم يتبعها خروج الروح . فالموت - إذن - بيد الله عز وجل ، أما القتل فقد يكون بيد البشر .

وهنا نَهْي صريح عن هذه الجريمة ؛ لأنه « ملعون مَنْ يهدم بنيان الله » ويقضي على الحياة التي وهبها الله تعالى لعباده .

وقوله تعالى : ﴿إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٦٨)﴾ [الفرقان] أي : حق يبيح القتل كرَجْم الزاني حتى الموت ، وكالقصاص من القاتل ، وكقتْل المرتد عن دينه ، فإنْ قتلْنا هؤلاء فقتلُهم بناء على حَقٍّ استوجب قتلهم .

فإن قال قائل : فأين حرية الدين إذن ؟ نقول : أنت حر في أن تؤمن أو لا تؤمن ، لكن اعلم أولاً أنك إنْ ارتددتَ عن إيمانك قتلناك ، فإياك أنْ تدخل في ديننا إلا بعد اقتناع تام حتى لا تُعرِّض نفسك لهذه العاقبة .

وهذا الشرط يمثِّل عقبة وحاجزاً أمام مَنْ أراد الإيمان ويجعله يُفكِّر ملياً قبل أنْ ينطق بكلمة الإيمان ويحتاط لنفسه ، إذن : فربُّكَ عز وجل يُنبِّهك أولاً ، ويشترط عليك ، وليس لأحد بعد ذلك أن يقول : أين حرية الدين ؟

وقوله تعالى :﴿وَلا يَزْنُونَ .. (٦٨)﴾ [الفرقان] تحدثنا عن هذه المسألة في أول سورة النور وقلنا : إن الإنسان الذي كرَّمه الله وجعله خليفةً له في أرضه أراد له الطُّهْر والكرامة ، وأنْ يسكن الدنيا على مقتضى قانون الله ، فلا يُدخل في عنصر الخلافة شيئاً يخالف هذا القانون ؛ لأن الله تعالى يريد أنْ يبني المجتمع المؤمن على الطُّهْر ويبنيه على عناية المربِّي بالمربَّى .

لذلك تجد الرجل يعتنى بولده مطْعماً ومشرباً وملبساً ويفديه بنفسه ، لماذا ؟ لأنه ولده من صُلْبه ومحسوب عليه ، أمّا إنْ شكَّ فى نسب ولده إليه فإنه يُهمله ، وربما فكّر فى الخلاص منه ، وإنْ رُبِّى مثل هذا رُبِّى لقيطاً لا أصلَ له ، وهذا لا يصلح لخلافة الله فى أرضه ، ولا لأن يحمل هذا الشرف .

وهذا يدل على أن الفطرة السليمة تأبى أنْ يوجد فى كون الله شخص غير منسوب لأبيه الحق ، من هنا نهى الإسلام عن الزنا ، وجعل من صفات عباد الرحمن أنهم لا يزنون .

﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) ﴾ [الفرقان] أثاماً مثل : نكالاً وَزْناً ومعنىً ، والآثام : عقوبة الإثم والجزاء عليه .

﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا (٦٩) ﴾

كيف نفهم مضاعفة العذاب فى هذه الآية مع قوله تعالى فى آية أخرى :﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى]

ويقول سبحانه : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦٠) ﴾ [الأنعام]

الحقيقة لا يُوجد تناقض بين آيات القرآن الكريم ، فالذى يرتكب هذه الفعْلة يكون أسْوة فى المجتمع تُجرِّىء الغير على ارتكاب هذه الجريمة ؛ لذلك عليه وزْره كفاعل أولاً ، وعليه وِزْر مَن اقتدى به .

كما جاء فى قوله تعالى حكايةً عن الكافرين : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا

عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف] إذن : فوجود الآباء كقدوة للشر يزيد من شرِّ الأبناء ، فكأنهم شركاء فيه .

لذلك يقول تعالى فى موضع آخر : ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥) ﴾ [النحل]

وقال : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. (١٣) ﴾ [العنكبوت]

فالوِزْر الأول لضلالهم فى ذاته ، والوِزْر الآخر ؛ لأنهم أضلّوا غيرهم ، هذا هو المراد بمضاعفة العذاب .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) ﴾ [الفرقان] معنى (مُهَانًا) : حينما وصف القرآن العذاب وصفه مرةً بأنه أليم ، ومرةً عظيم ، ومرة مُهين . فالذى ينظر إلى إيلام الجوارح يقول : هذا عذاب أليم ؛ لأنه يُؤلم كل جارحة فيه ، فالعذاب أمر حِسىّ ، أما الإهانة فأمر معنوى ، ومن الناس مَنْ تؤلمه كلمة تنال من كرامته ، ومنهم مَنْ يُضرب فلا يؤثر فيه .

والخالق - عز وجل - خلق الناس وعلم أزلاً أنهم أبناء أغيار ، ليس معصوماً منهم إلا الرسل ، إذن : فالسيئة مُحْتملة منهم .

ومن تمام رحمته تعالى بربوبيته أنْ فتح باب التوبة لعباده ، لمن أسرف منهم على نفسه فى شىء ؛ لأن صاحب السيئة إنْ يئس من المغفرة استشرى خطره وزاد فساده ، لكن إنْ فتحتَ له باب التوبة والمغفرة عاد إلى الجادة ، واستقام على الطاعة ، وفى هذا رحمة بالمجتمع كله .

يقول تعالى :

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾

فربُّكم كريم ورحيم ، إنْ تُبتُم تاب عليكم وقَبِلكم ، فإنْ قدَّمْتُم العمل الصالح واشتدّ ندمكم على ما فات منكم من معصية يُبدِّل سيئاتكم حسنات.

وللتوبة أمران : مشروعيتها من الله أولاً ، وقبولها من صاحبها ثانياً ، فتشريعها فَضْل ، وقبولها فَضْل آخر ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة] والمعنى : تاب عليهم بأنْ شرَّع لهم التوبة حتى لا يستحُوا من الرجوع إلى الله .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان] تاب وآمن لمن عمل معصية تُخرجه عن الإيمان ، فالعاصى لم يقارف المعصية إلا فى غفلة عن إيمانه ، كما جاء فى الحديث الشريف : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[1].

ولو استحضر العاصى جلالَ ربه ما عصاه ، ولتضخمتْ عنده المعصية فانصرف عنها ، وما دام قد غاب عنه إيمانه فلا بُدَّ له من تجديده ، ثم بعد ذلك يُوظِّف هذا الإيمان فى العمل الصالح .

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان] فالجزاء

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. ⑦⓪ ﴾ [الفرقان] وليس المراد أن السيئة تُبدَّل فتصير حسنة مباشرة ، إنما يرفع العبد السيئة ويحل محلها التوبة ، وبعد التوبة يضع الله له الحسنة .

وقد أطمعتْ رحمة الله ومغفرته بعض الناس ، حتى قال الشاعر :

مَوْلاَى إنِّى قَدْ عصيتُكَ عَامـداً ... لأراكَ أجملَ ما تكُون غَفُوراً

وَلَقَدْ جنيْتُ مِنَ الذُّنُوبِ كبَارَهَا ... ضَنّاً بعفْوك أنْ يكُونَ صَغيراً

حتى وصل الحال ببعضهم أنْ يستكثر من السيئة طمعاً فى أن تُبدَّل حسنات ، لكن مَنْ يضمن له أن يعيش إلى أنْ يتوب ، أو أنه إنْ تاب قَبِل الله منه ؟

والعلة النفسية التى تكلَّم عنها العلماء فى هذه المسألة أن الذى ابتعد عن المعصية فلم يقع فى شراكها لم يدرك لذة الشهوة ، فلا تأْتى على باله ، أمّا مَنْ خاض فيها ، وذاق لذتها ، وأسرف فيها على نفسه فيعانى كثيراً حينما يحجز نفسه وينأى بها عن معصية الله ، فهذه المعاناة هى التى جعلتْ له هذه المنزلة .

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ⑦① ﴾

معنى ﴿ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ⑦① ﴾ [الفرقان] يعنى : توبة نصوحاً ، لا عودة بعدها إلى المعصية ، لا يرجع فى توبته كالمستهزئ بربه ، يقول : أفعل كذا ثم أتوب . وكلمة ﴿ مَتَابًا ⑦① ﴾ [الفرقان] تعنى : العزم ساعةَ أنْ يتوبَ ألاَّ يعود ، والخطر فى أن يُقدم العبد على الذنب لوجود التوبة ، فقد يُقبض فى حال المعصية ، وقبل أنْ يُمكنه التوبة[1] .

(١) قال القفال : يحتمل أن تكون الآية الأولى فيمن تاب من المشركين ، ولهذا قال ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ .. ⑦⓪ ﴾ [الفرقان] ثم عطف عليه من تاب من المسلمين وأتبع توبته عملاً صالحاً ، فله حكم التائبين أيضاً . [تفسير القرطبى ٤٩٥٦/٧] .

ثم تذكر الآيات خصلة أخرى من خصال عباد الرحمن :

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾

الزُّور : الشيء الكذب ، ويُزوِّر في الشهادة . أي : يُثبت الحق لغير صاحبه ، لكن نلاحظ أن الآية لم تقُلْ : والذين لا يشهدون بالزور ، مما يدلّ على أن للآية معنى أوسع من النطق بقول الزور في مجال التقاضي ، حيث تقول عند القاضي : فلان فعل وهو لم يفعل .

فللشهادة معنى آخر : أي : لا يحضرون الزور ، والزور كلُّ مَا خالف الحق ، ومنه قوله تعالى في شهر رمضان : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ .. ﴿١٨٥﴾ ﴾ [البقرة]

فمعنى ﴿لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الفرقان] أي : لا يحضرون الباطل في أيّ لون من ألوانه قولاً أو فعلاً أو إقراراً ، وكل ما خالف الحق .

لذلك يقول الحق سبحانه في موضع آخر : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴿٥٥﴾ ﴾ [القصص]

ويقول سبحانه : ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأنعام]

وقال تعالى : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ..﴿١٤٠﴾ ﴾ [النساء]

ومعلوم أن قَوْل الزور والشهادة بغير حق تقلب الحقائق وتضرُّ بالمجتمع ؛ لأنك حين تشهد بالزُّور تأخذ الحق من صاحبه وتعطيه لغيره ، وهذا يؤدى إلى تعطل حركة الحياة ، وتجعل الإنسان لا يأمن على ثمار تعبه وعرقه ، فيحجم الناس عن السعى والعمل ما دامت المسألة زوراً فى النهاية .

لذلك قال النبى ﷺ : « ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر ؟ الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وشهادة الزور ، وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت »[1]

لماذا ؟ لأن شهادة الزُّور تهدم كُلَّ قضايا الحق فى المجتمع .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾ [الفرقان] اللغو : هو الذى يجب فى عُرْف العاقل أنْ يُلْغى ويُتْرك ، وهو الهُرَاء الذى لا فائدة منه ؛ لذلك قال فيمن يتركه ﴿ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) ﴾ [الفرقان] والكرام يقابلها اللئام ، فكأن المعنى : لا تدخل مع اللئام مجالَ اللغو والكلام الباطل الذى يُصادم الحق ليصرف الناس عنه .

ومن ذلك ما حكاه القرآن عن الكفار ليصرفوا الناس عن الاستماع لآيات الذكر : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦) ﴾ [فصلت]

يعنى : شوِّشوا عليه حتى لا يتمكّن الناس من سماعه ، وهذه شهادة منهم بأنهم لو تركوا آذان الناس على طبيعتها وسجيتها فسمعت القرآن ، فلا بُدَّ أن ينفعلوا به ، وأن يؤمنوا به ، ولو لم يكُنْ للقرآن أثر فى النفوس ما قالوا هذه المقولة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٨٧) كتاب الإيمان ، وأحمد فى مسنده (٥/٣٧) ، والترمذى فى سننه (٣٠١٩) من حديث أبى بكرة نفيع بن الحارث ، قال الترمذى : هذا حديث حسن غريب صحيح .

وقولهم : ﴿ وَالْغَوْا فِيهِ .. ٢٦ ﴾ [فصلت] يعنى : وإنْ سمعتموه يُقرأ فالْغوْا فيه ، وشوِّشوا عليه ، حتى لا يصل إلى الآذان ، لماذا ؟ ألم يؤمن سيدنا عمر لما سمع آيات منه فى بيت أخته فاطمة ؟ لكن لماذا أثَّر القرآن فى عمر هذه المرة بالذات ، وقد سمعه كثيراً فلم يتأثر به ؟

قالوا : لأن اللجج والعناد يجعل الإنسان يسمع غير سامع ، أما سماع عمر هذه المرة ، فكان بعد أن ضرب أخته فشجَّها ، وسال منها الدم ، فحرَّك فيه عاطفة الأخوة وحنانها ، ونفض عنه الكبرياء والعناد واللجاج ، فصادف القرآنُ منه نفساً صافية ، وقلباً خالياً من اللدد للإسلام فأسلم .

ألاَ ترى الكفار يقول بعضهم لبعض عند سماع القرآن ـ كما حكاه القرآن : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. ١٦ ﴾ [محمد]

يعنى : ما معنى ما يقول ، أو : ما الجديد الذى جاء به ، وهذا على وجه التعجُّب منهم . فيردّ القرآن : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ٤٤ ﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن واحد ، لكن المُستقبِل له مختلف : هذا استقبله بنفس صافية راضية ، وهذا استقبله بلَدد[1] وقلب مُغْلق ، فكأنه لم يسمع ، فالمسألة مسألة فِعْل وقابل للفعْل ، وسبق أن مثَّلنا لذلك بمَنْ ينفخ فى يده أيام البرد والشتاء بقصد التدفئة ، وينفخ فى كوب الشاى مثلاً بقصد التبريد ، فالفعل واحد ، لكن المستقبل مختلف .

---

(١) اللدد : الخصومة الشديدة والألد : الشديد الخصومة الجَدِل . [لسان العرب ـ مادة : لدد] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ ذُكِّرُوا .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الفرقان] لا تُقال إلا إذا كان المقابل لك الذى تذكره عنده إلْفٌ بالذكْر ، وعنده علْم به ، والآيات التى تُذكِّر بها لها قدوم أول ، ولها قدوم ثان : القدوم الأول : هو الإعلان الأول بها ، والقدوم الثانى : حين تنسى تُذكِّرك بها .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الآيات تُطلَق على معَانٍ ثلاثة : إمّا آيات كونية تُلفت النظر إلى قدرة الله تعالى ، وأنه صانع حكيم .. الخ ، وإمّا آيات معجزات جاءت لتأييد الرسل وإثبات صدْقهم فى البلاغ عن الله ، وإمّا آيات الذكْر الحكيم ، والتى تُسمَّى حَامِلة الأحكام ، وهى تُنبِّه من الغفلة ، وتُذكِّر الناس .

فالمعنى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الفرقان] أى : فى القرآن الكريم : ﴿ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [الفرقان] لم يخروا : الخرّ : هو السقوط بلا نظام وبلا ترتيب .

كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [النحل] فالسقف إنْ خَرّ يخرّ بلا نظام وبلا ترتيب .

ومنه قوله تعالى فى صفات المؤمنين : ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الإسراء] لأنهم يخرّون بانفعال قَسْرِىّ ، ينشأ من سماع القرآن .

إذن : حين يُذكَّرون بآيات الله لم يخرّوا عليها صُمّاً وعمياناً ، إنما يخِرُّون وهم مُصغون تمام الإصغاء ، ومبصرون تمام الإبصار .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾

هذه صفة أخرى من صفات عباد الرحمن ، يطلبون فيها أمرين ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان] والذرية لا تأتى إلا بعد الزواج ؛ لذلك جاء الدعاء للأزواج ، ثم للذرية .

وكلمة ﴿ قُرَّةَ .. ﴿٧٤﴾ ﴾ [الفرقان] تُستعمل بمعنيين ، وفى اللغة شىء يسمونه (عامل اشتقاق) يعنى : يشتق اللفظ من معنى عام ، وقد يختلف معناه ، لكن فى النهاية يلتقيان على معنى واحد .

وكلمة (قُرَّة) تأتى بمعنى اللزوم والثبات ، من قَرَّ فى المكان يعنى : لزمه وثبت فيه ، وتأتى بمعنى السرور ؛ والقُرُّ يعنى أيضاً : شدة البرودة ، كما جاء فى قول الشاعر :

أَوْقِدْ فَإِنَّ اللَّيْلَ لَيْلٌ قُرّ ... والريحَ يَا غُلامُ ريحٌ صُرّ
عَلَّ أنْ يَرى نَارك مَنْ يمرُّ ... إنْ جلبتْ ضَيْفاً فأنتَ حُرّ

فالقُر : البرد ، والقرور : السُّكون ، والعين الباردة : دليل السرور ، والعين الساخنة دليل الحزن والألم ، على حَدِّ قول الشاعر :

فَأمَّا قُلوبُ العَاشقِينَ فأُسخنَتْ ... وأمَّا قُلوبُ العَازلين(١) فقرَّت

(١) عزل الشىء يعزله فاعتزله : نحّاه جانباً فتنحّى . [لسان العرب ـ مادة : عزل] أى : أنهم عزلوا قلوبهم عن العشق والحب والوصال فاستراحت واستقرت قلوبهم .

لذلك يكنُّون ببرودة العين عن السرور ، وبسخونتها عن الحزن ، يقولون : رزقنى الله ولداً قرَّتْ به عينى ، ويقولون : أسخن الله عين فلان يعنى : أصابه بحُزْن تغلى منه عينه .

ولأن العين جوهرة غالية فى جسم الإنسان فقد أحاطها الخالق - عز وجل - بعناية خاصة ، وحفظ لها فى الجسم حرارةً مناسبة تختلف عن حرارة الجسم التى تعتدل عند ٣٧°، فلو أخذتْ العينُ هذه الدرجة لانفجرتْ.

ومن عجيب قدرة الله تعالى أن تكون حرارة العين تسع درجات ، وحرارة الكبد أربعين ، وهما فى جسم واحد .

فالمعنى ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. (٧٤)﴾ [الفرقان] يعنى : اجعل لنا من أزواجنا ما نُسَرُّ به ، كما جاء فى الحديث الشريف عن صفات الزوجة الصالحة : « ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله خيراً له من زوجة صالحة : إنْ أمرها أطاعته ، وإن نظر إليها سرَّته ، وإن أقسم عليها أبرَّته ، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله »(١)

وهَبْ لنا من ذرياتنا أولاداً ملتزمين بمنهج الله ، لا يحيدون عنه ، ولا يُكلِّفوننا فوق ما نطيق فى قول أو فعل ؛ لأن الولد إنْ جاء على خلاف هذه الصورة كان مصيبة كبرى لوالديه ، بدليل أن الرجل قد يسرف على نفسه بأنواع المعاصى ، وقد يُقصِّر فى حق الله ، لكن يحزن إنْ فعل ولده مثل فعْله .

(١) أخرجه ابن ماجة فى سننه (١٨٥٧) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، قال البوصيرى فى زوائده : « فى إسناده على بن يزيد . قال البخارى : منكر الحديث . وعثمان ابن أبى العاتكة مختلف فيه . والحديث رواه النسائى من حديث أبى هريرة وسكت عليه . وله شاهد من حديث ابن عمر » .

فالأب قد لا يصلى ، لكن يحثُّ ولده على الصلاة ، ويفرح له إنْ صلى واستقام ، لماذا ؟ لأنه يريد أن يرى وأن يُعوِّض ما فاته من الخير والجمال فى ابنه ، ولا يحب الإنسان أن يرى غيره أحسن منه إلا ولده ؛ لأنه امتداده وعوَضه فيما فات .

وإنْ أخذنا ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ .. ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان] على أنها بمعنى الاستقرار والثبات ، فالمعنى أن تكون الزوجة على خُلُق وأدب وجمال ، بحيث تُرضى الزوج ، فلا تمتد عينه إلى غيرها ، وتسكن عندها لأنها استوفت كل الشروط ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ .. ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر]

وكذلك إنْ وجد صفات الخير والأدب والجمال فى أولاد بحيث لا تمتد عينه إلى أكثر من ذلك ؛ لأنه يرى فى أولاده كُلَّ تطلعاته ، وكل ما يتمناه ، فلا يتطلع إلى غيرهم ؛ لذلك حين يمدحون . يقولون : فلان لم يَعُدْ عنده تطلعات ، لماذا ؟ لأنه حقَّق كل ما يريد .

ويقولون فى المدح أيضاً : فلان هذا قَيْد النظر ، يعنى : حين تراه تسكن عنده عينك ، ولا تتحول عنه لجماله وكمال صفاته .

والولد حين يكون على هذه الصورة ، يريح والديه فى الدنيا وفى الآخرة ؛ لأنه ولد صالح لا ينقطع برّه بوالديه لموتهما ، إنما يظل باراً بهما حتى بعد الموت فيدعو لهما . وفى الآخرة يجمعهم الله جميعاً فى مستقر رحمته : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ .. ﴿٢١﴾﴾ [الطور]

وهكذا كله فى الأزواج وفى الأولاد هبة ومنحة من الله .

ونلحظ أن بعض الأزواج يعيشون مع أزواجهم على مَضَض، وربما على كُرْه تحملهم عليه ظروف الحياة والأولاد واستقرار الأسرة، فإنْ قلتَ للزوج: إن زوجتك ستكون معك في الجنة يقول: كيف، حتى في الآخرة ؟! وهو لا يعلم أن الله تعالى سيُطهِّرها من الصفات التي كرهها منها في الدنيا.

قال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ [1] .. (١٥)﴾ [آل عمران]

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦)﴾ [يس]

وقوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤)﴾ [الفرقان] نلحظ أن الدعوة هنا جماعية، ومع ذلك لم يقُلْ أئمة، وذكر إماماً بصيغة المفرد، فلماذا ؟

قالوا: لأنه تعالى يُنبِّهنا إلى أنّ الإمام هو الذي يسير على وَفْق منهج الله ولا يحيد عنه؛ لذلك إنْ تعددتْ الأئمة فهُمْ جميعاً في حُكْم إمام واحد؛ لأنهم يصدرون عن رب واحد، وعن منهج واحد لا تحكمهم الأهواء فتُفرِّقهم كالأمراء مثلاً. فجمعهم في القول من كل منهم على حدة ووحدهم في الإمامة.

(١) قال ابن كثير في تفسيره (١/٣٥٢) : « أي مطهرة من الدنس والخبث والأذى والحيض والنفاس وغير ذلك مما يعترى نساء الدنيا » . ونقل ابن منظور في لسان العرب (مادة : طهر) قول أبي إسحاق في معنى هذه الكلمة في الآية : « معناه أنهن لا يحتجن إلى ما يحتاج إليه نساء أهل الدنيا بعد الأكل والشرب ، ولا يحضن ولا يحتجن إلى ما يُتطهر به ، وهن مع ذلك طاهرات طهارة الأخلاق والعفة ، فمطهرة تجمع الطهارة كلها لأن مطهرة أبلغ في الكلام من طاهرة » .

ثم يقول الحق سبحانه عن جزاء عباد الرحمن :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ[1] بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ ﴾

﴿ أُوْلَـٰئِكَ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان] خبر عن عباد الرحمن الذين تقدمتْ أوصافهم ، فجزاؤهم ﴿ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان] وجاءت الغرفة مفردةً مع أنهم متعددون ، يحتاج كل منهم إلى غرفة خاصة به .

قالوا ؛ لأن الغرفة هنا معناها المكان العالي الذي يشتمل على غرفات ، كما قال تعالى : ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سبأ]

وهذا الجزاء نتيجة ﴿ بِمَا صَبَرُوا .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الفرقان] صبروا على مشاقِّ الطاعات ، وقد أوضح النبي ﷺ هذه المسألة بقوله : « حُفَّتْ الجنة بالمكاره ، وحُفَّتْ النار بالشهوات »[2].

فالجنة تستلزم أن أصبر على مشاقِّ الطاعات ، وأن أُقدِّر الجزاء على العمل ، وأستحضره في الآخرة ، فإنْ ضِقْتَ بالطاعات وكذَّبْتَ بجزاء الآخرة ، فلِمَ العمل إذن ؟

ومثَّلْنا لذلك بالتلميذ الذي يجدّ ويجتهد في دروسه ، لأنه يستحضر يوم الامتحان ونتيجته ، وكيف سيكون موقفه في هذا اليوم ، إذن : لو استحضر الإنسانُ الثوابَ على الطاعة لَسهُلَتْ عليه وهانتْ عليه متاعبها ، ولو استحضر عاقبة المعصية وما ينتظره من جزائها لابتعد عنها .

---

(١) الغرفة : الدرجة الرفيعة ، وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها ، كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا . حكاه ابن شجرة . وقال الضحاك : الغرفة الجنة . [ذكره القرطبي ٤٩٦١/٧] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٣/٣ ، ٢٥٤) ، ومسلم في صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذي في سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس رضي الله عنه .

فالتكاليف الشرعية تستلزم الصبر ، كما قال تعالى : ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة]

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد منَّا ألاَّ نعزل التكاليف عن جزائها ، بل ضَعِ الجزاء نُصْب عينيك قبل أنْ تُقدم على العمل .

لذلك النبى ﷺ يسأل أحد صحابته : « كيف أصبحتَ يا حارثة[1] » فيقول : أصبحتُ مؤمناً حقاً ، فقال : « إنَّ لكل حقّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك » ؟

قال : عزفتْ نفسى عن الدنيا ، حتى استوى عندى ذهبها ومدرها[2] ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون .

فالمسألة ـ إذن ـ فى نظرهم لم تكُنْ غيباً ، إنما مشاهدة ، كأنهم يرونها من شدة يقينهم بها ؛ لذلك قال له النبى ﷺ : « عرفتَ فالزم »[3]

والإمام على ـ كرَّم الله وجهه ـ يقول : لو كُشف عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً . لماذا ؟ لأنه بلغ من اليقين فى الغيب إلى حَدِّ العلم والمشاهدة .

ثم يقول تعالى : ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ۝٧٥﴾ [الفرقان]

التحية : أن نقول له : إننا نُحيِّيك يعنى : نريد حياتك بأُنْسك بنَا ، والسلام : الأمان والرحمة ، لكن ممَّنْ يكون السلام ؟ وردُّ السلام فى

---

(١) هو : الحارث بن مالك الأنصارى . انظر ترجمته فى كتاب « الإصابة فى تمييز الصحابة ـ ١٤٧٥) لابن حجر العسقلانى ، وقد ذكر روايات كثيرة لحديثه هذا .

(٢) المدر : قطع الطين اليابس . [لسان العرب ـ مادة : مدر] .

(٣) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥٧/١) وعزاه للطبرانى فى الكبير ، وقال : « فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » .

القرآن الكريم بمعان ثلاثة : سلام من الله ، كما فى قوله تعالى : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

وسلام من الملائكة :﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

وسلام من أهل الأعراف ، وهم قوم استوتْ حسناتهم وسيئاتهم ، فلم يدخلوا الجنة ، ولم يدخلوا النار ، وهؤلاء يقولون : ﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾ [الأعراف]

إذن : فعباد الرحمن يُلَقَّوْن فى الجنة سلاماً من الله ، وسلاماً من الملائكة ، وسلاماً من أهل الأعراف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) ﴾

وسبق أنْ قال تعالى عن النار ﴿ سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) ﴾ [الفرقان] لأنها قبيحة ، ومقابلها هنا ﴿ حَسُنَتْ .. (٧٦) ﴾ [الفرقان] والمستقر : مكان الإقامة العابرة غير الدائمة ، والمقام : مكان الإقامة الدائمة ، ومعلوم أن مَنْ يدخل الجنة يقيم فيها إقامة أبدية دائمة ، أما مَنْ يدخل النار فقد يخرج منها ، إنْ كان مؤمناً . فكيف قال عن كل منهما : مُستقراً ومُقَاماً ؟

قالوا : لأنهم ساعةَ يأتيهم نعيم وجزاء نقول لهم : ليس هذا هو النعيم الدائم ، فالمستقر فى نعمة واحدة ، إنما المقام فى نِعَم أخرى كثيرة مُترقية مُستعلية ، لدرجة أن الكمالات فى عطاء الله لا تتناهى .

ثم يُنهى الحق سبحانه سورة الفرقان بقوله تعالى :

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾

بعد أن تحدث الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن عباد الرحمن ، وذكر أوصافهم وجزاءهم توجّه إلى الآخرين الذين لم يتصفوا بهذه الصفات ، ولن ينالهم شيء من هذا النعيم ، يقول لهم : إياكم أنْ تظنوا أن الله تعالى سيبالى بكم ، أو يهتم ، أو يكون فى معونتكم ؛ لأن الله تعالى لا يبالى إلا بعباده الذين عبدوه حَقَّ العبادة ، وأطاعوه حَقَّ الطاعة ، وأنتم خالفتُمْ الأصل الأصيل من إيجاد الخَلْق ، ولم تحققوا معنى الاستخلاف فى الأرض الذى خلقكم الله تعالى من أجله .

فكما أنكم انصرفتم عن منهج الله ولم تَعْبئوا به ولم تعبدوه ، ولم يكُنْ على بالكم ، فكذلك لا يعبأ الله بكم ، ولن تكونوا على ذِكْر منه سبحانه ، وسوف يهملكم .

وقوله تعالى : ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : لولا عبادتكم ، حيث إنها لم تقع ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان] أى : بالأصل الأصيل ، وهو أنكم مخلوقون للعبادة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾ ﴾ [الفرقان] كما لازمتم أنتم الكفر بى ولم تعبدونى وأصررتُم على الكفر ، كذلك يكون الجزاء من جنس العمل لِزاماً لكم ، فلا يُفارقكم أبداً .

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

سورة الشعراء(١)



﴿طسٓمٓ ①﴾ [الشعراء]

سبق أن تكلمنا عن الحروف المقطعة فى أوائل السور ، وقلنا : فَرْق بين اسم الحرف ومُسمّى الحرف ، مُسمّى الباء مثلاً : بَا أو بُو أو بِى أو إبْ فى حالة السكون ، إنما اسمها : باءٌ مفتوحة ، أو مضمومة ، أو ساكنة ، لكن حين تنطق هذا الحرف فى كَتَب ـ مثلاً ـ تقول : كَتَبَ فتنطق مُسمَّى الحرف لا اسمه .

وقُلْنا : فى هذه المسألة معانٍ كثيرة ، أيسرها : أن القرآن ، وهو كلام الله المعجز مُنزَّل من حُروف مثل حروفكم التى تتكلمون

(١) سورة الشعراء هى السورة رقم (٢٦) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٢٢٧ آية ، وهى سورة مكية فى قول الجمهور ، وهى السورة رقم ٤٦ فى ترتيب النزول نزلت بعد سورة الواقعة وقبل سورة النمل [انظر : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١/٢٧] . وقد استثنى ابن عباس وقتادة أربع آيات منها نزلت بالمدينة من قوله ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾ [الشعراء] إلى آخر السورة . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٧/٤٩٦٥] .

بـهـا ، وكلمات مـثل التى فى لغـتكم ، لكن مـا الذى جعـله متـميـزاً بالإعـجاز عن كـلامكم ؟ نقول : لأنه كـلام الله ، هذا هو الفَرْق ، أمّـا الحروف فواحدة .

ولو تأملتَ لوجدتَ أن الحروف المقطعة فى أوائل السور مجموعها أربعة عشر حرفاً[1] ، هى نصف الحروف الهجـائية ، مرة يأتى حرف واحد ، ومرة حرفان ، ومرة ثلاثة أحرف ، ومرة أربعة أحرف ، ومرة خـمسـة أحـرف . وهذا يدلُّنا على أن القـرآن مُعْـجِـز ، مع أنه بنفس حروفكم ، وبنفس كلماتكم .

وسبق أن ضربنا لتوضيح هـذه المسألة مثلاً : هَبْ أنك أردت أن تختبر جماعة فى إجادة النسج مثلاً ، فأعطيت أحدهم صوفاً ، وللثانى حريراً ، وللثـالث قطناً ، وللرابع كتـاناً ، فهل تسـتطيع أن تحكم على دقّـة نَسْج كل منهم وأيهـمـا أرقّ وأجـمل ؟ بالطبع لا تسـتطيع ؛ لأن الحـرير أنعم وأرقّ من القطن ، والقطن أرقّ من الـصوف ، والصـوف أرقّ من الكتـان ، فإنْ أردتَ تمـييـز الدقة والمـهارة فى هذه الصنـعة فعليك أنْ تُوحِّد النوع .

إذن : سِرّ الإعـجاز فى القـرآن أن تكون مـادته ومادة غيـره من الكلام واحدة ، حـروفاً وكلمات ؛ لذلك كـثيراً ما يقـول الحق ـ تبارك وتعالى ـ بعد الحروف المقطعة :

(١) هذه الحروف الأربعة عـشرة يجمعهـا قولنا : نص حكيم قاطع له سر . قال الزمـخشرى : هذه الحروف الأربعـة عشرة مـشتملة على أصناف أجناس الحـروف يعنى : من المهمـوسة والمـجـهورة ، ومن الرخـوة والشـديدة ، ومن المطبـقـة والمـفتـوحـة ، ومن المسـتـعلـية والمنخفـضة ، ومن حروف القلقلة ، فسـبحان الذى دقت فى كل شىء حكمتـه . [قاله ابن كثير فى تفسيره ١/٣٧] .

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝٢ ﴾

أى : أن الكتاب المبين مُكوَّن من مثل هذه الحروف ، ولله تعالى معَانٍ أخرى ، فيها مرادات له سبحانه ، لعلّ الزمن يكشف لنا عنها .. والقرآن كلام الله ، وصفاته لا تتناهى فى الكمال ، فإنِ استطعتَ أن تصف الأشياء ، هذا كذا ، وهذا كذا فهذه طاقة البشر والعقل البشرى . أمّا آيات الله فى كتابه المبين فهى الآيات الفاصلة التى لها بَدْء ولها نهاية ، وتتكوّن منها سور القرآن .

ومعنى ﴿ الْمُبِينِ ۝٢ ﴾ [الشعراء] الواضح المحيط بكل شىء ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ۝٣٨ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾

هذه هى التسلية لرسول الله ﷺ ؛ لأنه حمَّل نفسه فى تبليغ الرسالة فوق ما يُطيق ، وفوق ما يطلبه الله منه حرْصاً منه على هداية الناس ، وإرجاعهم إلى منهج الله ؛ ليستحقوا الخلافة فى الأرض ، ولأن من شروط الإيمان أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك[1] .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ يُسلِّى رسوله ﷺ ، كما قال له فى سورة الكهف : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾ [الكهف]

---

(١) عن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره ـ أو قال : لأخيه ـ ما يحب لنفسه » . حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان .

كأنْ ترى ولدك يُرهق نفسه فى المذاكرة ، فتشفق عليه أنْ يُهلك نفسه ، فأنت تعتب عليه لصالحه ، كذلك الحق - تبارك وتعالى - يعتب على رسوله شفقةً وخوفاً عليه أنْ يُهلك نفسه .

ومعنى ﴿بَاخِعٌ .. ③﴾ [الشعراء] البخع : الذَّبْح الذى لا يقتصر على قَطْع المرىء والودجين[1] ، إنما يبالغ فيه حتى يفصل الفقرات ، ويخرج النخاع من بينها ، والمعنى : تحزن حزناً عميقاً يستولى على نفسك حتى تهلك ، وهذا يدل على المشقة التى كان يعانيها الرسول ﷺ من تكذيب قومه له .

وفى موضع آخر ، يقول سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ .. ⑧﴾ [فاطر] فهذا أمر نهائى واضح ، ونَهْى صريح ، بعد أنْ لفتَ نظره بالإنكار ، فقال : ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ .. ③﴾ [الشعراء]

وقد نبَّه الله تعالى رسوله فى عدّة مواضع حتى لا يُحمِّل نفسه فوق طاقتها ، فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ④⓪﴾ [الرعد]

وقال : ﴿لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ②②﴾ [الغاشية]

وقال : ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ .. ④⑤﴾ [ق]

فالحق - تبارك وتعالى - يقول لرسوله : يسِّر على نفسك ، ولا تُكلِّفها تكليفاً شاقاً مُضْنياً ، والعتاب هنا لصالح الرسول ، لا عليه .

---

(١) الودجان : عرقان متصلان من الرأس إلى السَّحْر . والجمع أوداج . وهى عروق تكتنف الحلقوم فإذا فُصد وَدَّج . [لسان العرب - مادة : ودج] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤ ﴾

والآية هنا ليست آيةَ إقناع للعقول ، إنما آية تُرْغمهم وتُخضع رقابهم ، وتُخضع البنية والقالب ، وهذا ليس كلاماً نظرياً يُقال للمكذبين ، إنما حقائق وقعتْ بالفعل في بني إسرائيل . واقرأ إنْ شئت قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ .. ۝١٧١ ﴾ [الأعراف]

فأخذوا ما آتيناهم بقوة ، لماذا ؟ بالآية التي أرغمتهم وأخضعتْ قوالبهم ، لكن الحق - تبارك وتعالى - كما قلنا - لا يريد بالإيمان أنْ يُخضع القوالب ، إنما يريد أن يُخضع القلوب باليقين والاتباع .

فلو شاء ربك لآمن مَنْ في الأرض كلهم جميعاً ، لا يتخلف منهم أحد ، بدليل أنه سبحانه خلق الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، وبدليل أنه سبحانه بعث رسلاً وعصمهم ، ولم يجعل للشيطان سبيلاً عليهم ، وبدليل أن الشيطان بعد أن تعهّد أن يُغوي بني آدم ليكونوا معه سواء في المعصية قال له : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ .. ۝٤٢ ﴾ [الحجر]

والشيطان نفسه يقول : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٨٣ ﴾ [ص]

إذن : لو أراد سبحانه لجعلَ الناس جميعاً مؤمنين وما عَزَّ عليه ذلك ، لكنه أراد سبحانه أن يكون الإيمان باختيار المؤمن ، فيأتي ربه طواعية مختاراً .

حتى فى أمور الدنيا وأهلها ، قد ترى جباراً يضرب الناس ، ويُخضعهم لأمره ونهيه ، فيطيعونه طاعةَ قوالب ، إنما أيستطيع أنْ يُخضِع بجبروته قلوبهم ؟!

وقال : ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④﴾ [الشعراء] خَصَّ الأعناق ؛ لأنها مظهر الخضوع ، فأول الخضوع أنْ تلوى الأعناق ، أو الأعناق تُطلَق عند العرب على وجوه القوم وأعيانهم ؛ لذلك يقولون فى التهديد : هذه مسألة تضيع فيها رقاب .

والمراد : الرقاب الكبيرة ذات الشأن ، لا رقاب لمامة القوم ، والضعفاء ، أو العاجزين . ومثلها كلمة صدور القوم يعنى : أعيانهم والمقدَّمين منهم الذين يملأون العيون .

والمعنى : فأنت لا تُخضع الناس ؛ لأنى لو أردتُ أنْ أُخضعهم لأخضعتُهم ؛ لذلك يقول تعالى فى آية أخرى : ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ⑨⑨﴾[يونس]

فإذا كان ربك لا يُكره الناسَ على الإيمان ، أفتُكرههم أنت ؟ ولماذا الإكراه فى دين الله ؟ إن الحق - تبارك وتعالى - يوالى تنزيل القرآن عليهم - آية بعد آية - فلعل نجماً من نجومه يصادف فراغاً ، وقلباً صافياً من الموجدة على رسول الله فيؤمن .

لكن هيهات لمثل هؤلاء الذين طُبعوا على اللدد والعناد والجحود أن يؤمنوا ؛ لذلك يقول الله عنهم : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ⑭﴾ [النمل]

وقال عنهم :

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ ﴾

قوله ﴿ مُحْدَثٍ .. ۝٥ ﴾ [الشعراء] يعنى : جديد على أذهانهم ؛ لأننا لا نلفتهم بآية واحدة ، بل بآيات الواحدة تلو الأخرى : ﴿ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ ﴾ [الشعراء]

فكلما جاءتهم آية كذَّبوها ، وهذا دليل على اللدد والعداوة التى لا تفارق قلوبهم لرسول الله ﷺ ، بحيث لا يصادف نجم من القرآن قلوباً خالية ، فكأن عداوتهم لك يا محمد منعتْهم من الإيمان بالقرآن ، فهم مستعدون للإيمان بالقرآن إنْ جاء من غيرك .

أليسوا هم القائلين : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝٣١ ﴾ [الزخرف]

إذن : فاللدَد والخصومة ليستْ فى منهج الله ، إنما فى شخص رسول الله ؛ لذلك ربُّك يُعزِّيك ويحرص عليك : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ .. ۝٣٣ ﴾ [الأنعام] مرة ساحر ، ومرة مجنون .. إلخ . انظر إلى التسلية : ﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ ..۝٣٣ ﴾ [الأنعام] فأنت عندهم صادق وأمين ﴿ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝٣٣ ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۝٥ ﴾ [الشعراء] أى : فى غباء ولَدَد ، وهل هناك أشدّ لَدَداً من قولهم : ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢ ﴾ [الأنفال]

بدل أن يقولوا : اهدنا إليه !!

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾

أى : كلما جاءهم ذكْر من الرحمن ، وآية من آياته أصرُّوا على تكذيبها ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾ [الشعراء]

كما جاء فى آيات أخرى : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنقَلَبٍ[1] يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾ [الشعراء]

وقال : ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ۝٨٨﴾ [ص]

يعنى : غداً تعلمون عاقبة تكذيبكم ، فآيات الله تسير أمامكم ، فكلُّ يوم يزداد المؤمنون بمحمد ، ويتناقص عدد الكافرين ، كل يوم تزداد أرض الإيمان ، وتتراجع أرض الكفر .

ألم يقُل الحق سبحانه وتعالى لهم : ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. ۝٤٤﴾ [الأنبياء]

فهذه ـ إذن ـ مقدمات ترونْها بأعينكم ، وكان ينبغى عليكم أن تأخذوا منها عبرةً وعظة ، فبوادر نجاح الدعوة وظهور الدين واضحة، هذا معنى : ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾ [الشعراء]

فليتهم اقتصروا على التكذيب والإصرار عليه ، إنما تعدَّى الأمر منهم إلى الاستهزاء بالرسل وبكلام الله ، ألم يقولوا على سبيل الاستهزاء : ﴿أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ۝٤١﴾ [الفرقان]

---

(١) المنقلب : مصدر ميمى بمعنى الانقلاب . والانقلاب إلى الله : المصير إليه والتحول . والمنقلب : مصير العباد إلى الآخرة . [لسان العرب ـ مادة : قلب] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾

لَمَّا لم يفلح الذكر المُحْدث والآيات المتجددة مع هؤلاء المعاندين فلم يَرْعَوُوا . ردَّهم الله تعالى إلى الآيات الكونية الظاهرة لهم والتى سبقتهم فى الوجود ، آيات فى السماء : الشمس والقمر والنجوم ، وآيات فى الأرض : البحار والقفار والجبال والنبات والحيوان .

وكلها آيات كونية لم يدَّعها أحد منهم ، بل جاء الإنسان إلى الوجود وطرأ عليها ، وقد سبقتْه هذه الآيات التى يراها : الكبير والصغير ، والرجل والمرأة ، والعاقل وغير العاقل ، ألاَ ينظرون فيها نظرةَ اعتبار ، فيسألون عن مبدعها ؟

ضربنا لذلك مثلاً بالإنسان الذى انقطعتْ به السُّبُل فى صحراء جرداء حتى أشرف على الهلاك ، فأخذته سِنَة فنام ، ولما استيقظ وجد فى هذا المكان المنقطع مائدةً ، عليها أطايب الطعام والشراب ، ألا ينبغى عليه قبل أنْ تمتدَّ يده إلى هذا الطعام أن يسأل نفسه من الذى أعده له ؟

كذلك الإنسان طرأ على كَوْن مُعَدٍّ لاستقباله ، وعلى وجود لا تتناوله قدرته ، ولا سلطانَ له عليه ، فهو لا يتناول الشمس مثلاً ليُوقدها ولم يدَّعِ هذه الآيات الكونية أحد ، ألاَ يدلّ ذلك على الخالق - عز وجل - ويُوجب علينا الإيمان به ؟

لذلك يقول سبحانه ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان]

وقال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

ولو تأمل الإنسان فى (اللمبة) الصغيرة التى تضىء غرفة ، ولها عمر افتراضى لا يتعدَّى عدة أشهر وهى عُرْضَة للكسر وللأعطال ، ومع ذلك تكاتف فى صناعتها فريق من المهندسين والعمال والفنيين ، وكثير من الآلات والعدَد ، ومع ذلك نُؤرِّخ لمخترع المصباح ، ونعرف تاريخه ، وكيفية صنعه .. إلخ . نعرف مخترع (التليفون والراديو) و ..

أليس من الأوْلَى أن ننظر ونتأمل فى خَلْق الشمس ، هذا الكوكب العظيم الذى يضىء الدنيا كلها ، دون وقود ، أو قطعة غيار ، أو عُطْل طوال هذه المدَد المتعاقبة ؟

فإذا ما جاء رسول ، وقطع على الناس هذه الغفلة ، وقال لهم : ألاَ أنبِّئكم بمَنْ خلق كل هذا ؟ إنه الله . كان يجب عليهم أنْ يُعيروه آذانهم ويؤمنوا .

هنا يقول تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [الشعراء] وهى آية ظاهرة أمام أعينهم ، يرونَها هامدة جرداء مُقْفرة ، فإذا نزل عليها الماء أحياها الله بالنبات ، ألم ينظروا إلى الجبال والصحراء بعد نزول المطر ، وكيف تكتسى ثوباً بديعاً من النبات بعد فَصْل الشتاء .

ألم يسألوا أنفسهم : مَنْ نقل هذه البذور وبذرها فى الجبال ؛ لذلك يقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج]

وقوله تعالى هنا : ﴿كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ⑦﴾ [الشعراء] كم : خبرية تفيد الكثرة ، جاءت بصيغة الاستفهام للتقرير ، كما تقول لصاحبك : كم أحسنتُ إليك ، بدل أنْ تُعدِّد مظاهر إحسانك إليه ، فتسأله لأنك واثق أن الإجابة فى صالحك ، فالكلام بالإخبار دَعْوى منك ، لكن الإجابة على سؤال إقرار منه . فالمعنى : أن نبات الأرض كثير يفوق الحصر .

والزوج : الصنف ، والزوج أيضاً الذكر أو الأنثى ، والبعض من العامة يظن أن الزوج يعنى الاثنين وهذا خطأ ، فالزوج واحد معه مثله ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ⑭③ وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ.. ⑭④﴾ [الأنعام]

فهذه أربعة أصناف ، فيها ثمانية أزواج ، فالزوج فرد واحد معه مثله ، فلا تقول زوج أحذية . بل زَوْجَا أحذية . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ④⑤﴾ [النجم]

وكذلك النبات لا بُدَّ فيه من ذكورة وأنوثة ، وإنْ كانت غير واضحة فيه كله كما هى واضحة مثلاً فى النخل ، ففيه ذكر تُلقَّح منه الأنثى لتثمر ، وكذلك شجرة الجميز منها ذكر وأنثى . لكن لم نَرَ ذكورة وأنوثة فى الجوافة مثلاً أو فى الليمون ، لماذا ؟

قالوا : مرة توجد الذكورة والأنوثة فى الشىء الواحد كعود الذرة مثلاً ، قبل أنْ يُخرج ثمرته تخرج سنبلة فى أعلاه تحمل لقاح الذكورة ، وحينما يهزها الريح يقع اللقاح على شُرَابة (كوز) الذرة ، وتتم عملية التلقيح . وقد تكون الذكورة والأنوثة فى شىء لا تعرفه أنت كالمانجو والتفاح مثلاً ، فلم نعلم لها ذكراً وأنثى .

لكن الحق تعالى قال : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢)﴾ [الحجر]

وقال : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. (٤٩)﴾ [الذاريات]

ثم وصف الزوج بأنه ﴿كَرِيمٍ (٧)﴾ [الشعراء] فماذا يعنى الكرم هنا ؟ قالوا : لأنك إذا أخذتَ الثمرة الواحدة ونظرتَ وتأملتَ فيها لوجدتَ لها صفات متعددة ونعَماً كثيرة ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] وهى نعمة واحدة بصيغة المفرد ولم يقل نعم الله .

قالوا : لأن الحق - عزّ وجلّ - يريد أن يلفتنا إلى أن كل نعمة واحدة لو استقصيتَ عناصرها وتكوينها لوجدتَ فى طياتها نِعَماً لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى .

فمعنى ﴿كَرِيمٍ (٧)﴾ [الشعراء] يعنى : كثير العطاء وكثير الخيرات.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨)﴾

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. (٨)﴾ [الشعراء] أى : فى آية الإنبات ، وكل زوج كريم يخرج من الأرض ﴿لَآيَةً .. (٨)﴾ [الشعراء] شىء عجيب ودلالة واضحة على مكوِّن حكيم يعمل الشىء بقصد ونظام ، ينبغى أن تلفتنا إلى قدرة الخالق - عز وجل - .

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (٨)﴾ [الشعراء] يعنى : مع كل هذه الآيات لم يؤمنوا ، إلا القليل منهم كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)﴾ [يوسف] مع أنك لو تأملتَ آية واحدة لكانت كافية لأنْ تلفتك إلى الله .

وَفِى كُلِّ شَىْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدلُّ عَلَى أنَّه الوَاحِدُ

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾

جاء الحق تبارك وتعالى هنا بصفة ﴿ الْعَزِيزُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الشعراء] بعد أن قال ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الشعراء] لنعلم أن الذين كفروا لم يكفروا رَغْماً عن الله ، إنما كفروا بما أودع الله فيهم من الاختيار .

فهو سبحانه الذى أعانهم عليه لَمَّا أحبوه وأصروا عليه ؛ لأنه تعالى ربُّهم ، بدليل أنه تعالى لو تركهم مجبرين مرغمين ما فعلوا شيئاً يخالف منهج الله أبداً ، وبدليل أنهم مجبرون الآن على أشياء ومقهورون فى حياتهم فى مسائل كثيرة ، ومع ذلك لا يستطيع أحد منهم أن يخرج على شىء من ذلك .

فمع إلْفهم العناد والتمرد على منهج الله ، أيستطيع أحدهم أنْ يتأبَّى على المرض ، أو على الموت ، أو على الأقدار التى تنزل به ؟ أيختار أحد منهم يوم مولده مثلاً ، أو يوم وفاته ؟ أيختار طوله أو قوته أو ذكاءه ؟

لكن لما أعطاهم الله الصلاحية والاختيار اختاروا الكفر ، فأعانهم الله على ما أحبُّوا ، وختم على قلوبهم حتى لا يخرج منها كفر ، ولا يدخلها إيمان .

وكلمة ﴿ الْعَزِيزُ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الشعراء] تعنى : الذى لا يُغلَب ولا يُقْهر ، لكن هذه الصفة لا تكفى فى حقِّه تعالى ؛ لأنها تفيد المساواة للمقابل ، فلا بُدَّ أنْ نزيد عليها أنه سبحانه هو الغالب أيضاً .

لذلك يقـول سبـحانه وتعـالى : ﴿وَاللَّهُ غَـالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ .. ﴿٢١﴾﴾ [يوسف] فالله تعالى عزيز يَغْلِب ولا يُغْلَب .

ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿يُطْعِمُ وَلا يُطْعَمُ .. ﴿١٤﴾﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ .. ﴿٨٨﴾﴾ [المؤمنون]

ثم يذكر سـبحانه بعدها صـفة الرحمة ، فـهو سبحـانه مع عزته رحيم ، إنه تعالى رحيم حين يَغْلِب ، ألم يتابع لهم الآيات ويَدْعُهم إلى النظر والتأمل ، لعلَّهم يثوبون إلى رُشْدهم فيؤمنوا ؟ فلما أصرُّوا على الكفـر أمهلهم ، ولـم يأخذهم بعـذاب الاستـئـصال ، كـما أخـذ الأمم الأخرى حين كذَّبتْ رسلها .

كان الرسل قبل محمد ﷺ يُبلِّغـون الدعوة ، ويُظهرون المعجزة ، فمَنْ لم يؤمن بعد ذلك يعـاقبه الله ، كما قال سـبحانه : ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]

أمَّا أمـة محمـد ﷺ فقد قـال تعالى فى شـأنها : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال]

وقال هنا : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشـعراء] فالحق - تبـارك وتعـالى - فى كل هذه الآيات يُسلِّى رسـوله ﷺ ، ويعطيـه عبرةً من الرسل الذين سبقوه ، فليس محمد بِدْعاً[1] فى ذلك ، ألم يقل

(١) بِدْع : بديع أو عجيب . يُقال : فلان بِدْع فى الأمر . أى : أول مَنْ فعله . قال تعالى : ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ .. ﴿٩﴾﴾ [الأحقاف] أى : ما كنت غريباً ولا عـجيباً ولا كنت على غير مثال سابق ، فأنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ١/٥٧] .

له ربه : ﴿ يَـٰحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يس] فالمسألة - إذن - قديمة - قدَم الرسالات .

لذلك ، يأخذنا السياق بعد ذلك إلى موكب النبوات ، فيذكر الحق سبحانه لرسوله ﷺ طرفاً من قصة نبى الله موسى :

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

الحق - تبارك وتعالى - يقصُّ علي رسوله قصص الأنبياء ، وهو أحسن القصص لحكمة : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴿١٢٠﴾ ﴾ [هود]

لأن رسول الله ﷺ مرَّ بمعارك كثيرة مع الكفر ، فكان يحتاج إلى تثبيت مستمر كلما تعرض لشدة ؛ لذلك تكرر القصص القرآنى لرسول الله على مدى عمر الدعوة ، والقصص القرآنى لا يراد به التأريخ لحياة الرسل السابقين ، إنما إعطاء النبى محمد ﷺ عبرةً وعظة بمَنْ سبقه من إخوانه الرسل ؛ لذلك كانت القصة تأتى فى عدة مواضع ، وفى كل موضع لقطة معينة تناسب الحدث الذى نزلت فيه .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : اذكر يا محمد ، إذ نادى ربك موسى أى : دعاه . لكن لماذا بدأ بقصة موسى عليه السلام بالذات ؟

قالوا : لأن كفار مكة كفروا بك أنت ، فلا تحزن ؛ لأن غيرهم كان أفظع منهم ، حيث ادعى الألوهية ، وقال : ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [القصص]

والسياق هنا لم يذكر : أين ناداه ربه ، ولا متى ناداه ، وبدأ الحوار معه مباشرة ، لكن فى مواضع أخرى جاء تفصيل هذا كله .

ثم يأتى الأمر المباشر من الله تعالى لنبيه موسى : ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٠﴾ [الشعراء] أى : الذين ظلموا أنفسهم ، بأنْ جعلوا لله تعالى شريكاً ، والشرك قِمَّة الظلم ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان]

ولم يُبيِّن القرآن مَنْ هم هؤلاء الظالمون ؛ لأنهم معروفون مشهورون ، فهم فى مجال الشرك أغنياء عن التعريف ، بحيث إذا قلنا ﴿الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٠﴾ [الشعراء] انصرف الذِّهْن إليهم ، إلى فرعون وقومه ؛ لأنه الوحيد الذى تجرّأ على ادعاء الألوهية ، وبعد أنْ ذكرهم بالوصف يُعيِّنهم :

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾

أى : قُلْ لهم يا موسى ألا تتقون ربكم ؟ واعرض عليهم هذا العرض ؛ لأن الطلب يأتى مرة بالأمر الصريح : افعل كذا ، ومرة يتحنّن إليك بأسلوب العرض ، ألا تفعل كذا ؟ على سبيل الاستفهام والعرض والحضّ .

والمعنى : ألا يتقون الله فى ظلمهم لأنفسهم باتخاذهم مع الله شريكاً ولا إله غيره ، وظلموا بنى إسرائيل فى أنهم يُذبِّحونَ أبناءهم ويستحيُون نساءهم .

لكن ، لماذا تكلم عن قوم فرعون أولاً ، ولم يعرض عليه هو أولاً ، وهو رأس الفساد فى القوم ؟

ويجيب على هذا السؤال المثل القائل (يا فرعون ماذا فرعنك ؟ قال : لأننى لم أجد أحداً يردنى) فلو وقف له قومه وردَعوه لارتدع ، لكنهم تركوه ، بل ساروا فى رَكْبه إلى أنْ صار طاغية ، وأعانوه حتى أصبح طاغوتاً .

فقال موسى :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾

لما دعا الحق - تبارك وتعالى - نبيه موسى - عليه السلام - لأنْ يذهب إلى قوم فرعون لم يبادر بالذهاب ، إنما أبدى لربه هواجس نفسه وخلجاتها ؛ لأنه يعلم مُقدَّماً مشقة هذه المهمة ، فقد عاش مع فرعون ويعلم طبيعته ، فقال : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الشعراء] وكيف لمن يدّعى الألوهية أنْ يسمع لرسول ؟

ويُرْوَى أنه فى عهد الخليفة المأمون[1] ادَّعَى أحدهم النبوة ، فحبسوه ، ثم ادعاها آخر فقال : اجمعوا بينهما حتى يواجه أحدهما الآخر ، فلما حضرا قالوا : يا هذا إن هذا الرجل يدَّعى النبوة ، فقال : كذب ، أنا لم أرسِل أحداً . وهكذا جعل من نفسه إلهاً بعد أن كان نبياً .

ويواصل موسى الحديث عن مخاوفه :

﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

يضيق صدرى ساعةَ يكذّبوننى ، وضيق الصدر ينتج عنه أن أتلجلج وأتعصب ، فلا أستطيع أن أتكلم الكلام المُقْنع ؛ ذلك لأننى

(١) هو : عبد الله بن هارون الرشيد ، أبو العباس ، سابع الخلفاء من بنى العباس فى العراق ، وأحد أعاظم الملوك ، ولد عام ١٧٠ هـ اهتم بترجمة كتب الفلسفة إلى العربية . وأطلق حرية الكلام للباحثين وأهل الجدل والفلسفة ، لولا المحنة بخلق القرآن فى السنة الأخيرة من حياته ، توفى عام ٢١٨ هـ عن ٤٨ عاماً . (الأعلام ١٤٢/٤) .

سأشاهد باطلاً واضحاً يُجابه حقاً واضحاً ، ولا بُدَّ أنْ يضيق صدرى بذلك ، خاصة وأن لموسى عليه السلام سابقة فى مسألة الكلام .

لذلك قال : ﴿ فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ⑬ ﴾ [الشعراء] وفى آية أخرى : ﴿ وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا[1] يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ⑭ ﴾ [القصص]

يعنى : مساعداً لى يتكلم بدلاً عنى ، إنْ عجز لسانى عن الكلام ، وهذا يدل على حرصه ـ عليه السلام ـ على تبليغ دعوة ربه إلى فرعون وقومه .

وعليه ، فقد كان موسى وهارون كلاهما رسول ، إلا أن القرآن قال مرة عنهما : ﴿ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑯ ﴾ [الشعراء] بصيغة المفرد ، وقال مرة أخرى : ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ .. ㊼ ﴾ [طه] بصيغة المثنى .

• الرسول : هو المرسل من شخص لآخر ، سواء كان واحداً أو مُثنى أو جمعاً .

ومعلوم أن الإنسان يحتاج لاستبقاء حياته طعاماً وشراباً ، وقبل ذلك وأهمّ منه يحتاج لاستبقاء نفسه ، ألاَ تراه يصبر على الطعام ، ويصبر على الشراب ، لكنه لا يصبر بحال على الهواء ، فإنْ حُبِس عنه شهيق أو زفير فارق الحياة ؟

وسبق أن قلنا : إن من رحمة الله تعالى بنا أنْ يُملِّك الطعام كثيراً ، وقليلاً ما يُملِّك الماء ، لكن الهواء لا يُملِّكه الله لأحد ، لماذا ؟ لأنه لو ملَّك عدوك الهواء فمنعه عنك ، فسوف تموت قبل أنْ يرضى عنك ، بالإضافة إلى أن الهواء هو العنصر الأساسى فى الحياة ، وعليه تقوم حركتها .

(١) ردأه : قوَّاه وأعانه . والرِّدْء : المعين والناصر . [القاموس القويم ١/٢٦٠] .

ونلحظ أن الإنسان إذا صعد مكاناً عالياً (ينهج) ، وتزداد ضربات قلبه وحركة تنفسه ، لماذا ؟ لأن الحركة تحتاج لكثير من الهواء ، فإنْ قلَّ الهواء يضيق الصدر ؛ لأنه يكفى فقط لاستبقاء الحياة ، لكنه لا يكفى الحركة الخارجية للإنسان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ[1] فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾

وليت المسألة تقف بين نبى الله موسى وبين قومه عند مسألة الكلام ، إنما لهم عنده ثأرٌ قديم ؛ لأنه قتل منهم واحداً ، وإنْ كان عَنْ غير قصد ، كما قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص] فأخاف أنْ يقتلونى به .

فيقول الحق سبحانه لموسى وهارون :

﴿ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

(كَلاَّ) تفيد نَفْى ما قبلها ، وقبلها مسائل ثلاث : ﴿ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الشعراء] ، ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الشعراء] ، ﴿ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشعراء] فعلى أىٍّ منها ينصَبُّ هذا النفى ؟

النفى هنا يتوجَّه إلى ما يتعلق بموسى - عليه السلام - لا بما يتعلق بالقوم من تكذيبهم إياه ، يقول له ربه : اطمئن ، فلن يحدث شىء من هذا كله . ولا ينصبُّ النفى على تكذيبهم له ؛ لأنه سيُكذَّب ؛

---

(١) الذنب هنا قتل القبطى واسمه فاثور . قال قتادة : أراد القبطى أن يسخر الإسرائيلى ليحمل حطباً لمطبخ فرعون فأبى عليه ، فاستغاث بموسى . ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [القصص] أى : دفعه بكفه . فعل موسى عليه السلام ذلك وهو لا يريد قتله ، إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه . [تفسير القرطبى ٥١٤٦/٧ ، ٥١٤٧] .

لذلك نرى دقة الأداء القرآنى حيث جاءت ﴿أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ⦗١٢⦘﴾ [الشعراء] فى نهاية الآية ، وبعدها كلام جديد ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي .. ⦗١٣⦘﴾ [الشعراء] وهو المقصود بالنفى .

وقد بيَّنَتْ سورة الفجر معنى (كلا) بوضوح فى قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ⦗١٥⦘ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ[1] رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ⦗١٦⦘﴾ [الفجر]

فيقول تعالى بعدها رداً عليها ﴿كَلاَّ .. ⦗١٧⦘﴾ [الفجر] يعنى : ليس الإعطاء دليلَ إكرام ، ولا المنعُ دليلَ إهانة ، إنما المراد الابتلاء بالنعمة وبالنقمة .

وكيف يكون الأمر كما تظنون ، وقد أعطاكم الله فبخلتُم ، وأحببتم المال حُبّاً جماً ، فلم تنفقوا منه على اليتيم أو المسكين ، بل تنافستُم فى جَمْعه حتى أكلتم الميراث ، وأخذتم أموال الناس .

إذن : فالمال الذى أكرمكم الله به لم يكُنْ نعمة لكم ؛ لأنكم جعلتموه نقمة ووبالاً ، حين أُعطيتم فمنعتم .

وكلمة (كَلاَّ) هذه أصبح لها تاريخ مع موسى - عليه السلام - فقد تعلَّمها من ربه ، ووعى درسها جيداً ، فلما حُوصِر هو وأتباعه بين البحر من أمامهم ، وفرعون وجنوده من خلفهم ، حتى أيقن أتباعه أنهم مُدْركون هالكون ، قالها موسى عليه السلام بملء فيه ﴿قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ⦗٦٢⦘﴾ [الشعراء]

وقوله تعالى : ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا .. ⦗١٥⦘﴾ [الشعراء] الآيات هنا يُقصَد بها المعجزات الدالة على صدْقهما فى البلاغ عن الله ، وهى هنا العصا

---

(١) قَدَّر الله الرزق : جعله ضيقاً على قدر الحاجة لا يزيد عن ضرورة الحياة . [القاموس القويم ٢/١٠٢] .

﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ⑮﴾ [الشعراء] كما قال لهما فى موضع آخر : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ㊻﴾ [طه]

فمرّة يأتى بالسمع فقط ، ومرّة بالسمع والرؤية ، لماذا ؟ لأن موقفه مع فرعون فى المقام الأول سيكون جدلاً ونقاشاً ، وهذا يناسبه السمع ، وبعد ذلك ستحدث مقامات فى (فعل) و (عمل) فى مسألة السحر وإلقاء العصا ، وهذا يحتاج إلى سمع وإلى بصر ؛ لأن الإيذاء قد يكون من السمع فقط فى أول اللقاء ، وقد يكون من السمع والعين فيما بعد .

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ⑯﴾

وسبق أن قال سبحانه : ﴿أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ⑩ قَوْمَ فِرْعَوْنَ .. ⑪﴾ [الشعراء] فذكر قومَ فرعون أولاً ؛ لأنهم سبب فرعنته ، حين سمعوا كلامه وأعانوه عليه ، وهنا يُذكّره ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ.. ⑯﴾ [الشعراء] لأنه حين يُهزَم فرعون يُهزَم قومه الذين أيَّدوه ، فالكلام هنا مع قمة الكفر مع فرعون .

﴿فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑯﴾ [الشعراء] إنَّا : جمع يُقَال للمثنى ، ومع ذلك جاءت رسول بصيغة الإفراد ، ولم يقُل : رسُولا ؛ لأن الرسول واسطة بين المرسِل والمرسَل إليه ، سواء أكان مفرداً أو مُثنًى أو جمعاً .

وكلمة ﴿إِنَّا .. ⑯﴾ [الشعراء] سيقولها موسى وهارون فى نَفَس واحد ؟ لا ، إنما سيتكلم المقدَّم منهما ، وينصت الآخر ، فيكون كمنْ يُؤمِّن على كلام صاحبه . ألاَ ترى القرآن الكريم حينما عرض قضية موسى وقومه يوضح أن فرعون علا فى الأرض واستكبر .. إلخ .

حتى دعا عليهم : ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس]

هذا كلام موسى ـ عليه السلام ـ فردَّ الله عليه : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا .. ﴿٨٩﴾﴾ [يونس] بالمثنى مع أن المتكلم واحد . قالوا[1] : لأن موسى كان يدعو ، وهارون يُؤَمِّن على دعائه ، والمؤمِّن أحد الداعيين ، وشريك في الدعوة .

فما مطلوبك يا رسول رب العالمين ؟

﴿أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٧﴾﴾

فالأصل في لقاء موسى بفرعون أن ينقذ بني إسرائيل من العذاب ، ثم يُبلِّغهم منهج الله ، ويأخذ بأيديهم إليه ، وجاءت دعوة فرعون للإيمان ونقاشه في ادعائه الألوهية تابعة لهذا الأصل .

وفي موضع آخر : ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ .. ﴿٤٧﴾﴾ [طه]

إذن : فتلوين الأساليب في القصص القرآني يشرح لقطات مختلفة من القصة ، ويُوضِّح بعض جوانبها ، وإنْ بدا هذا تكراراً في المعنى الإجمالي ، وهذا واضح في قوله تعالى في أول قصة موسى عليه السلام : ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ﴿٨﴾﴾ [القصص]

وفي آية أخرى يقول تعالى على لسان امرأة فرعون : ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ

---

(١) أخرج أبو الشيخ عن أبي هريرة قال : كان موسى إذا دعا أمَّن هارون على دعائه يقول : آمين . وأخرج أيضاً عن ابن عباس : دعا موسى وأمَّن هارون . وقاله عكرمة أيضاً فيما أخرجه عنه عبد الرزاق وابن جرير وأبو الشيخ . [نقل السيوطي هذه الآثار في الدر المنثور ٤/٣٨٥] .

لِي وَلَكَ .. (٩)﴾ [القصص] وكأن الله تعالى يقول : ستأخذونه ليكون قُرَّة عين لكم ، إنما هو سيكون عدواً .

والله تعالى يقول : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[1] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال] ففرعون فى حين كان يقتل الأطفال من بنى إسرائيل ، ويستحيي البنات ، جاءه هذا الطفل بهذه الطريقة اللافتة للنظر ، فكان عليهم أنْ يفهموا أن مَنْ أُلقى فى التابوت وفى اليمِّ بافتعال ، هو بهدف نجاته من القتل ، فلو كان فرعون إلهاً ، فكيف مرّت عليه هذه الحيلة وجازتْ عليه ؟

وهذا يدل على أن الله تعالى إذا أراد إنفاذ أمر سلب من ذوى العقول عقولهم ، وحال بين المرء وقلبه ، ويدل على غباء قومه ؛ لأنهم لو تأملوا هذه المسألة لظهر لهم كذب فرعون فى ادعائه الألوهية .

فكان ردّ فرعون على موسى عليه السلام :

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾

يريد فرعون أنْ يُذكِّر موسى بما كان من أمر تربيته فى بيته لعدة سنوات ، حتى شَبَّ وكبر ، وكأنه يُوبِّخه كيف يقف منه هذا الموقف العدائى بعدما كان منه .

﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء] ويقال : إن موسى لبث فى بيت فرعون حتى سنِّ الثامنة عشرة ، أو سنِّ الثلاثين ، فالمعنى أنه ربَّاه ولبث معه أيضاً عدة سنوات .

---

(١) أى : أن الله يملك أن يصرف قلب الإنسان ويغيّر نيته كما يريد ، فالمرء لا يملك قلبه وإنما الله هو الذى يملكه .

والمتأمل في هذه الحجة التي يظنها فرعون لصالحه يجد أنها ضده ، وأنها تكشف عن غبائه ، فلو كان إلهاً كما يدعي لعرف أن هلاكه سيكون على يدي هذا الطفل الذي ضَمَّه إليه ورعاه .

﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

والمراد بالفَعْلة قتل موسى عليه السلام للرجل الذي وكزه فمات ﴿ وأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الشعراء] يصح من الكافرين بألوهية فرعون ، أو من الجاحدين لنعمنا عليك وتربيتنا لك[1] .

لذلك العقلاء يروْنَ أن الإنسان حين يربي الأولاد ويراهم كما يحب ، فليعلم أنه توفيق وعناية من الله تعالى ، بدليل أن الأبناء يُربَّون في بيئة واحدة ، وربما كانا توأمين ، ومع ذلك ترى أحدهما صالحاً والآخر طالحاً ، فالمسألة عناية إلهية عليا ، وقد التقط أحد الشعراء هذا المعنى فقال :

إذَا لَمْ تُصَادِفْ في بَنِيكَ عِنَايَةٌ ... فقَدْ كذَبَ الراجي وخَابَ المؤَمِّلُ
فمُوسى الذِي رَبَّاهُ جِبْرِيلُ كَافِرٌ ... ومُوسَى الذي رَبَّاهُ فِرْعَونُ مُرْسَلُ

والمراد موسى السامري صاحب العجل ، وقد وضعته أمه في صحراء وماتت ، فأرسل الله إليه جبريل عليه السلام يرعاه ويُربِّيه . ولا تأتي هذه المفارقات إلا بعناية الله سبحانه .

---

(١) ورد في تفسير هذه الكلمة ﴿ وأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [الشعراء] عدة أقوال :
– أي : في قتلك القبطي ، إذ هو نفس لا يحل قتله . قاله الضحاك .
– أي : بنعمتي التي كانت لنا عليك من التربية والإحسان إليك . قاله ابن زيد .
– في أنّي إلهك . قاله الحسن .
– من الكافرين بالله ، لأنك كنت معنا على ديننا هذا الذي تعيبه قاله السدي .
أورد القرطبي هذه الأقوال في تفسيره (٧/٤٩٧٣) .

﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝٢٠ ﴾

يقول موسى عليه السلام : أنا لا أنكر أننى قتلتُ ، لكننى قتلتُ وأنا من الضالين . يعنى : الجاهلين بما يترتب على عملية القتل ، وما كنت أعتقدُ أبداً أن هذه الوكْزة ستقضى على الرجل .

فكلمة ﴿ الضَّالِّينَ ۝٢٠ ﴾ [الشعراء] هنا لا تعنى عدم الهدى ، فمن هذا المعنى للضلال قولهم : ضَلَّ الطريق ، وهو لم يتعمد أن يضل ، إنما تاه رَغْماً عنه .

ومنه قوله تعالى فى الشهادة : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ .. ۝٢٨٢ ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ۝٧ ﴾ [الضحى] أى : متحيراً بين الباطل الذى يمارسه قومه ، وبين الحق الذى لا يجد له بينة .

﴿ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ(١) ۝٢١ ﴾

﴿ حُكْمًا .. ۝٢١ ﴾ [الشعراء] أى : فى أنْ أضع الأشياء فى مواضعها ، وجاءت هذه الكلمة بعد ﴿ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ۝٢٠ ﴾ [الشعراء] كأنه يقول : أنا وكزتُ الرجل ، هذا صحيح ، فمات ، وهذا خطأ غير مقصود وإننى مظلوم فيه ؛ لأن الله قد أعطانى حكماً وقدرة لأضع الأشياء فى محلها .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٩٧٣/٧) : « كان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطى وبين رجوعه نبياً أحد عشر عاماً غير أشهر » .

ليس هذا فحسب ، إنما أيضاً :

﴿ وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) ﴾ [الشعراء]

﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢) ﴾

يعنى : ما منَّ به فرعون على موسى من قوله :

﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ .. (١٩) ﴾ [الشعراء]

كأنه يقول له : أتمُنُّ عليَّ بهذه الأشياء ، وتذكر هذه الحسنة ، وهى لا تساوى شيئاً لو قارنتَها بما حدث منك من استعباد بنى إسرائيل وتذبيح أبنائهم[1] واستحياء نسائهم ، وتسخيرهم فى خدمتك .

وقتل الذُّكْران واستحياء الإناث ، لا يعنى الرأفة بهن ، إنما يعنى لَهُنَّ الذلة والهوان ، حيث لا تجد المرأة من محارمها مَنْ يحميها أو يدافع عنها ، فتبقى بعد الرجال فى هوان وذِلَّة فى خدمة فرعون .

ثم يقول الحق سبحانه :[2]

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) ﴾

يعنى : مسألة جديدة هذه التى جئتَ بها يا موسى ، فمن رَبُّ العالمين الذى تتحدث عنه ؟

---

(١) قال الضحاك : إن الكلام خرج مخرج التبكيت ، والتبكيت يكون باستفهام وبغير استفهام ، والمعنى : لو لم تقتل بنى إسرائيل لربانى أبواى ، فأىُّ نعمة لك علىَّ ، فأنت تمنُّ علىَّ بما لا يجب أن تمن به . نقله القرطبى فى تفسيره (٧/ ٤٩٧٤) .

(٢) استفهمه بـ « ما » استفهاماً عن مجهول من الأشياء . قال مكى وغيره : كما يستفهم عن الأجناس فلذلك استفهم بـ « ما » . وقد ورد استفهام بـ « من » فى موضع آخر ، ويشبه أنها مواطن . [قاله القرطبى فى تفسيره ٧/٤٩٧٦] .

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

لأن السماوات بما فيها من كواكب ونجوم وشمس وقمر وأفلاك وأبراج ، والأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال وقفَار ونبات وحيوان وإنسان . قد وُجدتْ قبل أن توجد أنت أيها الإله الفرعون !!

إذن : رَدَّ عليه بشيء ثبت في الكون قبل مجيئه ، وقبل مولده . وكأن المعنى المراد لموسى عليه السلام : أخبرني يا فرعون ، يا مَنْ تدعى الألوهية ، ما الذي زاد في الكون بألوهيتك له ؟ وإنْ كان هذا الكون كله بسمائه وأرضه لله رب العالمين ، فماذا فعلتَ أنت ؟

ولم يقتصر على السماوات والأرض ، وإنما ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشعراء] أي : من هواء وطير يَسْبح في الفضاء ، وكانوا لا يعرفون ما نعرفه الآن من أسرار الهواء ، وانتقال الصوت والصورة من خلاله ، ففي جَوِّ السماء فيما بين السماء والأرض من الأسرار ما يستحق التأمل .

ثم يتلطف معهم فيقول : ﴿ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشعراء] يعني : إنْ كنتم موقنين بأن هذه الأشياء لم يخلقها إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه ذاكراً جدال فرعون ، فقال :

﴿ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

يقول فرعون لمن حوله من أتباعه الذين أقروا له بالألوهية : ألا تستمعون لما يقول ؟ يعني : موسى عليه السلام . وهذه الكلمة لا يقولها فرعون إلا إذا أحسَّ من قومه ارتياحاً لما قاله موسى من

نَفْى الربوبية والألوهية عن فرعون ونسبتها لله تعالى ، خالق السموات والأرض .

وكان فرعون ينتظر من قومه أنْ يتصدَّوْا لما يقوله موسى ، فينهروه ويُسْكتوه ، لكن لم يحدث شيء من هذا ، مما يدل على أنهم كانوا يتمنوْنَ أن ينتصر موسى ، وأن يندحر فرعون ؛ لأنه كبت حرياتهم وآراءهم ، كما كانوا يعرفون كذبه وينتظرون الخلاص منه .

بدليل ما حكاه القرآن عن الرجل المؤمن[1] الذى كان يكتم إيمانه من آل فرعون ، وبدليل الذين أتوا فيما بعد وحَسَّنوا له مسألة السحرة وهم يريدون أن يُهزَم .

وقبل أنْ يردَّ أحد من قوم فرعون بادرهم موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

هنا ينقل موسى عليه السلام فرعونَ من الجو الكونى المحيط به فى السماء والأرض وما بينهما إلى ذات نفسه ، يقول له : إنَّ لك آباء قبل أنْ تُولد ، وقبل أن تدعى الألوهية ، فمن كان ربهم ؟

فلما ضَيَّق موسى عليه السلام الخناق على فرعون ، أراد أنْ يخرج من هذا الجدل وهذه المناظرة الخاسرة فقال محاولاً إنقاذ موقفه :

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [غافر] وما بعدها من آيات .

وهذه العبارة من فرعون تفضح المتكلِّم بها ، فقد شهد لموسى بأنه رسول ، وخانه لفظه من حيث لا يدرى .

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يرد موسى عليه السلام بحجة أخرى ، لكن يختمها هذه المرة بقوله ﴿ إن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء] وقد قال فى سابقتها ﴿ إن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الشعراء] كأنه يقول لفرعون : ما دام قد وصل بك الأمر لأنْ تتهمنى بالجنون فلن أقول إنْ كنتم موقنين ، إنما إنْ كنتم تعقلون ، فجاء بمقابل الجنون .

فيُنهى فرعون هذا النقاش ، ويأتى بخلاصة الأمر كما يرى ، فيقول :

﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ(١) ﴿٢٩﴾ ﴾

وهذا من فرعون إفلاس فى الحجة ، ولو كان عنده ردٌّ لما يقوله موسى لردَّ عليه ، ولَقرع الحجة بالحجة ، لكنه تقوَّى على خَصْمه بأن هدده بالسجن والإبعاد ، وكان المسجون عندهم يظل فى السجن حتى الموت .

ولم يُراع فرعون فى هذه المسألة الناس من حوله ، أن يكتشفوا هذا الإفلاس ، وهذا الحمق فى ردِّه .

---

(١) قال ﴿ لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الشعراء] ولم يقل : لأسجننك ، مع أنه أخصر منه . لم ؟ قال أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٩٩ . « لإرادة تعريف العهد ، أى : لأجعلنك ممن عُرفت حالهم فى سجنى ، وكان إذا سجن إنساناً طرحه فى هوة عميقة مظلمة ، لا يُبصر فيها ولا يسمع » .

ويُؤخِّر موسى عليه السلام ما معه من الآيات ، ويستمر في الجدل وإظهار الحجة :

﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

يعني : إذا لم تقتنع بكل الحجج السابقة ، فهل لو جئتك بآية واضحة دالة على صدق رسالتي ، أتجعلني أيضاً من المسجونين ؟

﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

انظر إلى تعارض فرعون مع نفسه ، فكان عليه ساعةَ أنْ يسمع من موسى هذا الكلام أنْ يُصر على سجنه ، لكن الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يُظهر حجته ، فيجعل فرعون هو الذي يطلبها بنفسه ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الشعراء] وما كان لموسى أنْ يأتي بآية إلا أنْ يطلبها منه فرعون .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ ﴾

إلقاء العصا له في القرآن ثلاث مراحل : الأولى : هي التي واكبتْ اختيار الله لموسى ليكون رسولاً ، حين قال له : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه] وقلنا : إن موسى عليه السلام أطال في إجابة هذا السؤال لحرصه على إطالة مدة الأُنْس بالله - عز وجل - فقال : ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ[1] بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه]

(١) هش الشجر يهشه : ضربه بعصاً ليسقط ورقه لتأكله الماشية . والمعنى أي : أسقط بعصاي أوراق الأشجار على غنمي لتأكلها [القاموس القويم ٢/٣٠٣] .

فالعصا فى نظر موسى ـ عليه السلام ـ عود من الخشب قريب عهد بأصله ، كغصن فى شجرة ، لكنها عند الله لها قصة أخرى :

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (٢٠)﴾ [طه]

وما صارت العصا عصاً إلا بعد أنْ قُطعت من شجرتها ، وفقدت الحياة النباتية ، وتحولت إلى جماد ، فلو عادت إلى أصلها وصارت شجرةً من جديد لكان الأمر معقولاً ، لكنها تجاوزتْ مرتبة النباتية ، وتحولت إلى الحيوانية ، وهى المرتبة الأعلى ؛ لذلك فزع منها موسى وخاف فطمأنه ربه :

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (٢١)﴾ [طه]

وكانت هذه المرة بمثابة تدريب لموسى عليه السلام ؛ ليألف العصا على هذه الحالة ، وكأن الله تعالى أراد لموسى أنْ يُجرى هذه التجربة أمامه ، ليكون على ثقة من صدْق هذه الآية ، فإذا ما جاء لقاء فرعون ألقاها دون خوف ، وهو واثق من نجاحه فى هذه الجولة .

إذن : كان الإلقاء الثانى للعصا أمام فرعون وخاصته ، ثم كان الإلقاء للمرة الثالثة أمام السحرة .

ومعنى ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢)﴾ [الشعراء] يعنى : بيِّن الثعبانية ، فيه حياة وحركة ، وقال ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢)﴾ [الشعراء] يعنى : واضح للجميع ؛ لأنهم كانوا يُجيدون هذه المسألة ويُخيِّلون للناس مثل هذه الأشياء ، ويجعلونها تسعى وتتحرك ، ولم تكن عصا موسى كذلك ، إنما كانت ثعباناً مبيناً واضحاً وحقيقياً لا يشكُّ فى حقيقته أحد .

والمتتبع للقطات المختلفة لهذه الحادثة فى القرآن الكريم يجد

السياق يُسمِّيها مرة ثعباناً ، ومرة حية ، ومرة جاناً[1] ، لماذا ؟ قالوا : لأنها جمعت كل هذه الصفات : فهى فى خفة حركتها كأنها جان ، وفى شكلها المرعب كأنها حية ، وفى التلوِّى كأنها ثعبان . والجان : فرخ الحية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

هنا يتكلم عن نزع اليد ؛ لأنه قال فى آية أخرى : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ[2] تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [القصص]

وهكذا تتكامل لقطات القصة الواحدة ، والتى يظنها البعض تكراراً ، وليست هى كذلك .

﴿ وَنَزَعَ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : أخرج يده ﴿ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشعراء] مع أن موسى عليه السلام كان آدم اللون يعنى فيه سُمْرة ، ومع ذلك خرجتْ يده بُيضاء ، لها شعاع وبريق يأخذ بالأبصار .

وبمقارنة هذه الآية بآية سورة القصص نجد أنه حذف من آية سورة الشعراء الجيب ، وهو فتحة الثوب من أعلى ، لا الجيب المتعارف عليه ، والذى نضع فيه النقود مثلاً ، وكانوا فى الماضى

(١) وصفها بأنها : - ثعبان فى آيتين : (الأعراف ١٠٧) ، (الشعراء ٣٢) .
- حية فى آية واحدة : (طه ٢٠) .
- جان فى آيتين : (النمل ١٠) ، (القصص ٣١) .

(٢) جيب القميص : ما يفتح منه على الصدر . أى : من أعلى الثوب وجمعه جيوب . [القاموس القويم ١/١٣٨] . فكانت يده تخرج تتلألأ كأنها قطعة قمر فى لمعان البرق ؛ من غير برص . وهو مرض جلدى .

يجعلون الجيب بداخل ملابس الإنسان ، ليكون فى مأمن ، فإذا أراد الإنسان شيئاً فيه مَدَّ يده من خلال الفتحة العليا للثوب ، فسُمِّيتْ جيباً .

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

الملأ : هم علْية القوم ، الذين يملأون العيون ، ويتصدَّرون المجالس ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الشعراء] فاتهمه بالسحر ليخرج من ورطته وقال : ساحر لأن موسى لم يمارس هذه المسألة إلا مرة واحدة هى التى أجراها أمام فرعون ، لكن الملأ على علم بالسحر وإلْف له ، وعندهم سحارون كثيرون .

وفَرْق بين ساحر وسحَّار : ساحر لمن مارس هذه العملية مرة واحدة ، إنما سحَّار مبالغة تدل على أنها أصبحت حِرْفته ، مثل ناجر ونجّار ، وخائط وخيّاط .

و ﴿عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [الشعراء] أى : بسحره .

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

هنا يستعدى فرعون قومه على موسى ، ويُحذرهم أنه سيفسد العامة والدهماء ، وتكون له الأغلبية ، وتكون له شيعة يناصرونه عليكم حتى يُخرِجكم من أرضكم ، وهذا أقلّ ما يُنتظر منه ، يريد أن يهيج عليه الملأ من قومه ؛ ليكونوا أعداء له يقفون فى صَفِّ فرعون .

وعجيب أنْ يقول الفرعون الإله ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الشعراء] فهذه هى الألوهية الكاذبة التى انحدرتْ إلى مرتبة العبيد ، ومتى يأخذ

الإله رأى عبيده ، ويطلب منهم المعونة والمشورة ؟ ولو كان إلهاً بحق لكان عنده الحل ولديه الردّ .

فلما نزل فرعون من منزلة الألوهية ، وطلب الاستعانة بالملأ من قومه التفتوا إلى كذبه ، ووجدوا الفرصة مواتية للخلاص منه ، مما يدل على أن أكثرهم وجمهرتهم كانوا يجارونه على مضض ، وينتظرون لحظة الخلاص من قَهْره وكذبه ؛ لذلك قالوا :

﴿ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ ﴾

﴿ أَرْجِهْ .. ٣٦ ﴾ [الشعراء] من الإرجاء وهو التأخير ، أى : أخّره وأخاه لمدة ﴿ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ٣٦ ﴾ [الشعراء] ابعث رسلك يجمعون السَّحارين من أنحاء البلاد ، ليقابلوا بسحرهم موسى وهارون . والمدائن : جمع مدينة .

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ٣٧ ﴾

وقال ﴿ سَحَّارٍ.. ٣٧ ﴾ [الشعراء] بصيغة المبالغة ﴿ عَلِيمٍ ٣٧ ﴾ [الشعراء] أى : بفنون السِّحْر وألاعيب السَّحَرة .

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ٣٨ ﴾

الميقات : أى الوقت المعلوم ، وفى آية أخرى : ﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ .. ٥٩ ﴾ [طه] وكان يوماً مشهوداً عندهم ، ترتدى فيه الفتيات أبهى حُللها ، وكان يوم عيد يختارون فيه عروس النيل التى سيُلْقونها فيه ، فحدد اليوم ، ثم لم يترك اليوم على إطلاقه ، إنما حدد من اليوم وقت الضحى[1] ﴿ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ٥٩ ﴾ [طه]

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/١٥٦) : « أى : ضحوة من النهار ليكون أظهر وأجلى وأبين وأوضح » .

وفى لقطة أخرى حدد المكان ، فقال : ﴿مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ [طه] يعنى : فيه سوائية ، إما باستواء المكان حتى يتمكّن الجميع من رؤية هذه المباراة السحرية ، بحيث تكون فى ساحة مستوية الأرض ، أو يكون مكاناً سواسية متوسطاً بين المدائن التى سيجمع منها السحرة ، بحيث لا يكون متطرفاً ، يشقّ على بعضهم حضوره .

وهكذا تتكاتف اللقطات المختلفة لترسم الصورة الكاملة للقصة .

ونرى فى هذه المشورة حرْصَ الملأ على إتمام هذا اللقاء ، وأن يكون على رؤوس الأشهاد ، لأنهم يعلمون أنها ستكون لصالح موسى ، وسوف يفضح هذا اللقاءُ كذبَ فرعون فى ادعائه الألوهية .

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾
لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾

أى : أخذوا يدعُون الناس ، وكأنهم فى حملة دعاية وتأييد ، إما لموسى من أنصاره الكارهين لفرعون فى الخفاء ، وإما لفرعون ، فكان هؤلاء وهؤلاء حريصين على حضور هذه المباراة .

إننا نشاهد الجمع الغفير من الجماهير يتجمع لمشاهدة مباراة فى كرة القدم مثلاً ، فما بالك بمباراة بين سحرة مَنْ يدّعى الألوهية وموسى الذى جاء برسالة جديدة يقول : إن له إلهاً غير هذا الإله ؟ إنه حَدَثٌ هَزَّ الدنيا كلها ، وجذب الجميع لمشاهدته .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا
إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾﴾

فانظر إلى مسيرة الإله فرعون فى رعيته ، فالإله الحق يُطْعِم ولا يُطْعَم ، ويجير ولا يُجَار عليه ، الإله الحق يُعطى ولا يأخذ ، ولما اجتمع السحرة وهم أبطال هذه المباراة ، ويعلمون مدى حاجة فرعون إليهم فى هذا الموقف ؛ لذلك بادروا بالاتفاق معه والاشتراط عليه : إنْ كنت تُسخِّر الناس فى خدمتك دون أجر ، فهذه المسألة تختلف ، ولن تمر هكذا دون أجر .

وهذا دليل على معرفتهم بفرعون ، وأنه رجل (أكَلْتى) ، لذلك اشترطوا عليه أجراً إنْ كانوا هم الغالبين ، ولا ندرى فربما جاء آخر يهدد هذه الألوهية ، فنحن ندخركم لمثل هذا الموقف .

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

هنا يتنازل فرعون عن تعاليه وكبريائه ويذعن لشروط سَحرته ، بل ويزيدهم فوق ما طلبوا ﴿ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشعراء] فسوف تكونون من خاصتنا ، نستعين بكم فى مثل هذه الأمور ، ولا نستغنى عنكم ؛ لأنكم الذين حافظتم على باطل ألوهيتنا .

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

هنا كلام محذوف ، نعرفه من سياق القصة ؛ لأن الآية السابقة كان الكلام ما يزال بين فرعون والسحرة ، والقرآن يحذف بعض الأحداث اعتماداً على فطْنة السامع أو القارئ ، كما قلنا فى قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، حيث قال له : ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [النمل]

ثم قال بعدها : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ[(١)] ۝٢٩ ﴾ [النمل] وحذف ما بين هذين الحدثين مما نعلمه نحن من السياق .

وقوله : ﴿ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ۝٤٣ ﴾ [الشعراء] هذه هى الغاية التى انتهى إليها بعد المحاورة مع السحرة .

﴿ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ۝٤٤ ﴾

فكانت العصىّ والحبال هى آلات سحرهم ﴿ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ۝٤٤ ﴾ [الشعراء] بعزة فرعون : هذا قسمهم ، وما أخيبه من قسم ؛ لأن فرعون لا يُغلَب ولا يُقهر فى نظرهم ، وسبق أن أوضحنا أن العزة تعنى عدم القهر وعدم الغلبة ، لكن عزة فرعون عزة كاذبة وأنفة وكبرياء بلا رصيد من حق ، وعزة بالإثم كالتى قال الله عنها : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ .. ۝٢٠٦ ﴾ [البقرة]

وقال تعالى : ﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ ﴾ [ص] أى : عزة بإثم ، وعزة بباطل .

ومنه أيضاً قوله تعالى عن المنافقين : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ .. ۝٨ ﴾ [المنافقون] فصدّق القرآن على قولهم

---

(١) تعنى بكرمه : ما رأته من عجيب أمره كون طائر جاء به فألقاه إليها ثم تولى عنها أدباً وهذا أمر لا يقدر عليه أحد من الملوك . [تفسير ابن كثير ٣٦١/٣] ، وقال القرطبى فى تفسيره (٥٠٧٤/٧) : « وصفته بذلك لما تضمن من لين القول والموعظة فى الدعاء إلى عبادة الله عز وجل وحسن الاستعطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً ولا ما يغير النفس ، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق على عادة الرسل فى الدعاء إلى الله » .

بأن الأعزَّ سيُخرج الأذلّ ، لكن ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .. ⑧﴾ [المنافقون]

وما دام الأمر كذلك فأنتم الأذلّة ، وأنتم الخارجون ، وقد كان .

ويقال : إن أدوات سحرهم وهى العصىّ والحبال كانت مُجوفة وقد ملئوها بالزئبق ، فلما ألقوها فى ضوء الشمس وحرارتها أخذتْ تتلاعب ، كأنها تتحرك ، وهذا من حيل السَّحَرة وألاعيبهم التى تُخيِّل للأعين وهى غير حقيقية ، فحقيقة الشىء ثابتة ، أمّا المسحور فيخيل إليه أنها تتحرك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولم يأت إلقاء موسى عليه السلام لعصاه مباشرة بعد أن ألقى السحرة ، إنما هنا أحداث ذُكرتْ فى آيات أخرى ، وفى لقطات أخرى للقصة ، يقول تعالى : ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ⑥⑥﴾ [طه]

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ⑥⑦ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ⑥⑧ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا .. ⑥⑨﴾ [طه]

هكذا كانت الصورة ، فلما خاف موسى ثبَّته ربه ، وأيّده بالحق وبالحجة ، وتابعه فيما يفعل لحظةً بلحظة ؛ ليوجهه وليُعدِّل سلوكه ، ويشدّ على قلبه ، وما كان الحق - تبارك وتعالى - ليرسله ثم يتخلى عنه ، وقد قال له ربه قبل ذلك : ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ③⑨﴾ [طه] وقال : ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ④⑥﴾ [طه] فالحق سبحانه يعطى نبيه موسى الأوامر ، ويعطيه الحجة لتنفيذها ، ثم يتابعه بعنايته ورعايته .

ومن ذلك قوله تعالى لنبيه نوح : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود]

فحينما تجمع هذه اللقطات تجدها تستوعب الحدث ، ويُكمِّل بعضها بعضاً ، وهذا يظنه البعض تكراراً ، وليس هو كذلك .

إذن : جاء إلقاء موسى لعصاه بعد توجيه جديد من الله أثناء المعركة : ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ .. (٦٩) ﴾ [طه] وهنا : ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) ﴾ [الشعراء] ومعنى ﴿ تَلْقَفُ .. (٤٥) ﴾ [الشعراء] تبتلع وتلتهم في سرعة وقوة ، أما السرعة واختصار الزمن والقوة ، فتدل على الأخذ بشدة وعُنْف ، وفي هذا دليل على أنه خاض المعركة بقوة ، فلم تضعف قوته لما رأى من ألاعيب السَّحَرة .

ومعنى ﴿ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) ﴾ [الشعراء] من الإفك يعني : قلْب الحقائق ؛ لذلك سَمَّوْا الكذب إفْكاً ؛ لأنه يقلب الحقيقة ويُغير الواقع .

ومنها ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم] وهي القرى[1] الظالمة التي أهلكها الله ، فجعل عاليها سافلها .

وسبق أن أوضحنا أن الكذب وقَلْب الحقائق يأتي من أنك حين تتكلم ، فللكلام نسَبٌ ثلاث : نسبة في الذِّهْن ، ونسبة على اللسان ، ونسبة في الواقع . فإنْ طابقتْ النسبةُ الكلامية الواقع ، فأنت صادق ، وإنْ خالفتْه فأنت كاذب .

---

(١) يعني : مدائن قوم لوط قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود . قال قتادة : كان في مدائن قوم لوط أربعة آلاف ألف إنسان (يعني ٤ ملايين) فانضرم عليهم الوادي شيئاً من نار ونفط وقطران كفم الأتون . [تفسير ابن كثير ٢٥٩/٤] .

وسَمَّى ما يفعله السحرة إفكاً ؛ لأنهم يُغَيِّرون الحقيقة ، ويُخيِّلون للناس غيرها .

﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

لم يقُل الحق سبحانه : فسجد السحرة ، إنما ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الشعراء] والإلقاء يدل على سرعة الاستجابة ، وأن السجود تَمَّ منهم دون تفكير ؛ لأنه أمر فوق إرادتهم ، وكأن جلال الموقف وهيبته وروعة ما رأوْا ألقاهم على الأرض ساجدين لله ، صاحب هذه الآية الباهرة ؛ لذلك لم يقولوا عندها آمنَّا بربِّ موسى وهارون ، إنما قالوا :

﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

وحين نتأمل ردَّ فعْل السحرة هنا نجد أنهم خرُّوا لله ساجدين أولاً ، ثم أعلنوا إيمانهم ثانياً ، ومعلوم أن الإيمان يسبق العمل ، وأن السجود لا يتأتى إلا بعد إيمان ، فكيف ذلك ؟

قالوا : هناك فَرْق بين وقوع الإيمان ، وبين أنْ تخبر أنت عن الإيمان ، فالمتأخر منهم ليس الإيمان بل الإخبار به ؛ لأنهم ما سجدوا إلا عن إيمان واثق ينجلي معه كل شكٍّ ، إيمان خطف ألبابهم وألقاهم على الأرض ساجدين لله ، حتى لم يمهلهم إلى أنْ يعلنوا عنه ، لقد أعادهم إلى الفطرة الإيمانية في النفس البشرية ، والمسائل الفطرية لا علاجَ للفكر فيها .

وكأن سائلاً سألهم : لمَ تسجدون ؟ قالوا : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨)﴾ [الشعراء]

وقالوا : ربِّ موسى وهارون بعد رب العالمين ، ليقطعوا الطريق على فرعون وأتباعه أن يقول مثلاً : أنا رب العالمين . فأزالوا هذا اللبْس بقولهم ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨)﴾ [الشعراء]

ومثال ذلك قول بلقيس عندما رأت عرشها عند سليمان - عليه السلام - لم تقل : أسلمت لسليمان ، إنما قالت : ﴿أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل] فأنا وأنت مسلمان لإله واحد هو الله رب العالمين ، وهكذا يكون إسلام الملوك ، وحتى لا يظن أحد أنها إنما خضعتْ لسليمان ؛ لذلك احتاطتْ فى لفظها لتزيل هذا الشك .

﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) ﴾

إذن : فهو لا يشك فى أن ما رآه السحرة موجب للإيمان ، ولا يُشكّك فى ذلك ، لكن المسألة كلها ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .. (٤٩)﴾ [الشعراء] فما يزال حريصاً على ألوهيته وجبروته ، حتى بعد أن كُشف أمره وظهر كذبه ، وآمن الملأ بالإله الحق .

ثم أراد أنْ يبرر موقفه بين دهماء العامة حتى لا يقول أحد : إنه هزم وضاعت هيبته ، فقال : ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .. (٤٩)﴾ [الشعراء] فى حين أن القوم يعلمون أن موسى عليه السلام لم يجلس طيلة عمره إلى ساحر ، لكن فرعون يأخذها ذريعة ، لينقذ ما يمكن إنقاذه من مركزه الذى تهدّم ، وألوهيته التى ضاعت .

ثم يُهدِّدهم بأسلوب ينمّ عن اضطرابه ، وأنه فقد توازنه ، واختلّ حتى فى تعبيره ، حيث يقول ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .. ﴿٤٩﴾﴾ [الشعراء] وسوف تدل على المستقبل مع أنه لم يُؤخّر تهديده لهم بدليل أنه قال بعدها : ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشعراء] ﴿مِّنْ خِلافٍ .. ﴿٤٩﴾﴾ [الشعراء] يعنى : اليد اليمنى مع الرِّجْل اليُسْرى ، أو اليد اليسرى مع الرِّجْل اليمنى .

وقوله : ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ .. ﴿٤٩﴾﴾ [الشعراء] أوضحه فى آية أخرى : ﴿وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. ﴿٧١﴾﴾ [طه]

فماذا كان جواب المؤمنين برب العالمين ؟

﴿قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾

أى : لا ضررَ علينا إنْ قتلتنا ؛ لأن مصير الجميع إلى الموت ، لكن إنْ كانت نهايتنا على يديك فسوف نسعد نحن بلقاء ربنا ، وتَشْقى أنت بجزاء ربك . كالطاغية الذى قال لعدوه : لأقتلنك فضحك ، فقال له : أتسخر منى وتضحك ؟ قال : وكيف لا أضحك من أمر تفعله بى يُسعدنى الله به ، وتشقى به أنت ؟

إذن : لا ضررَ علينا إنْ قُتِلْنا ؛ لأننا سنرجع إلى الله ربنا ، وسنخرج من ألوهية باطلة إلى لقاء الألوهية الحقة ، فكأنك فعلتَ فينا جميلاً ، وأسديتَ لنا معروفاً إذْ أسرعتَ بنا إلى هذا اللقاء ، وما تظنه فى حقنا شَرٌّ هو عين الخير ، لذلك فَهِم الشاعر هذا المعنى ، فقال عنه :

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِماً   على أىِّ جَنْبٍ كانَ فى اللهِ مَصْرعى

يعنى : ما دُمْتُ قد مُتُّ فى سبيل الإسلام ، فلا يُهم بعد ذلك ، ولا أبالى أىّ موتة هى .

والمؤمنون هنا حريصون على أمرين : الأول : نَفْى الضرر ؛ لأن دَرْء المفسدة مُقدَّم على جَلْب المصلحة ، والثانى : التأكيد على النفع الذى سينالونه من هذا القتل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

لأنك أكرهتنا على السحر ، وحملْتنا على الكذب ، ومكثنا عمراً نعتقد أنك إله ، فلعلَّ مبادرتنا إلى الإيمان وكوْننا أولَ المؤمنين يشفع لنا عند ربنا ، فيغفر لنا خطايانا ، وفي موضع آخر : ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ .. ﴿٧٣﴾﴾ [طه]

فذكر هناك مسألة الإكراه ، وذكر هنا العلة : ﴿أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء]

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ[1] بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

قلنا : الوحى لغةً : إعلام بخفاء ، وشرعاً : إعلام من الله لرسول من رسله بمنهج خير لخلْقه .

---

(١) سرى يسرى : سار ليلاً . وأسرى به : جعله يسرى أو حمله على السير ليلاً . [القاموس القويم ١/٣١٢] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٣٥) : « كان خروجه بهم فيما ذكره غير واحد من المفسرين وقت طلوع القمر ، وذكر مجاهد رحمه الله أنه كُسِف القمر تلك الليلة فالله أعلم » .

ومن الوحى المطلق قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل]

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ﴿٧﴾ ﴾[القصص]

فالوحى العام إذن لا نسأل عن الموحِى ، أو الموحَى إليه ، أو موضوع الوحى ، فقد يكون الوحى من الشيطان ، والموحَى إليه قد يكون الأرض أو الملائكة أو الحيوان ، على خلاف الوحى الشرعى ، فهو محدد ومعلوم .

لقد قام فرعون بحملة دعاية لهذه المعركة مع موسى - عليه السلام - وحشد الناس لمشاهدة هذه المباراة ، وهذا دليل على أنه قدَّر أنه سيغلِب ، لكن خيَّب الله ظنه ، وكانت الجولة لمصلحة موسى عليه السلام ، فآمن السحرة بالله تعالى رب موسى وهارون ، فأخذ يهددهم ويتوعدهم ، وهو يعلم أنَّ ما رأوْه من الآيات الباهرات يستوجب الإيمان .

ومع ذلك لما غُلِب فرعون وضاعتْ هيبته وجبِاريته وقاهريته سكت جمهور الناس ، فلم ينادوا بسقوطه ، واكتفوا بسماع أخبار موسى ، وظل هذا الوضع لمدة طويلة من الزمن حدث فيها الآيات التسع التى أنزلها الله ببنى إسرائيل .

ومن غباء فرعون أن ينصرف عن موسى بعد أن أصبح له أتباع وأنصار ، ولم يحاول التخلص منه حتى لا يزداد أتباعه وتقوى

شوكته ، فكأن مسألة الآيات التسع التى أرسلها الله عليهم قد هَدَّتْ كيانه وشغلته عن التفكير فى أمر موسى عليه السلام .

وهكذا استشرى أمر موسى وأصبحت له أغلبية وشعبية ، حتى إن الأقباط[1] أتباع فرعون كانوا يعطفون على أمر موسى وقومه ؛ لذلك استعاروا من القبط حُلىَّ النساء قبل الخروج مع موسى ، ومن هذه الحلى صنع السامرى العجل الذى عبدوه فيما بعد .

وهنا يقول تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) ﴾ [الشعراء] وقبل ذلك نبَّهه ربه للخروج بعد أن قتل الرجل : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) ﴾ [القصص]

أما الآن ، فالمؤامرة عليه وعلى مَنْ معه من المؤمنين .

ومعنى ﴿ أَسْرِ .. (٥٢) ﴾ [الشعراء] الإسراء : المشى ليلاً ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) ﴾ [الشعراء] يعنى : سيتبعكم جنود فرعون ويسيرون خلفكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى الْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ (٥٣)
إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ[2] قَلِيلُونَ (٥٤)
وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ (٥٥) ﴾

(١) القبط : جيل بمصر . وقيل : هم أهل مصر وبُنْكها (أصلها) ورجل قبطى . والقُبْطِيَّة : ثياب كتان بيض رقاق تُعمل بمصر وهى منسوبة إلى القبط . [لسان العرب - مادة : قبط] فالقبط هم أهل مصر من قبل موسى عليه السلام ومن قبل أن تدخل مصر فى المسيحية ، فالقبط جنس ليس مرتبطاً بالديانة .

(٢) الشرذمة : الجماعة القليلة من الناس [لسان العرب - مادة : شرذم] . قال القرطبى فى تفسيره (٤٩٧٩/٧) : « روى أن بنى إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً والله أعلم بصحته » .

الفاء هنا للتعقيب ، فوَحْى الله لموسى أن يَسْرى ببنى إسرئيل تَمَّ قبل أن يبعثَ فرعون فى المدائن حاشرين ، وكأن الله تعالى يحتاط لنبيه موسى ليخرج قبل أن يهيج فرعونُ الناسَ ، ويجمعهم ضد موسى ويُجرى لهم ما نسميه نحن الآن (غسيل مخ) ، أو يعلن على موسى وقومه حرب الأعصاب التى تؤثر على خروجهم .

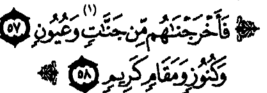
و ﴿حَاشِرِينَ ۝٥٣﴾ [الشعراء] من الحشر أى : الجمع ، لكن جمع هذه المرة للجنود لا للسحرة ، لأنهم هُزِموا فى مُباراة السحرة ، فأرادوا أنْ يستخدموا سلاحاً آخر هو سلاح الجبروت والتسلُّط والحرب العسكرية ، فإنْ فشلت الأولى فلعلّ الأخرى تفلح ، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ أخبر نبيه موسى بما يُدبَّر له وأمره بالخروج ببنى إسرائيل .

وقَوْل فرعون عن أتباع موسى : ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤﴾ [الشعراء] يريد أن يُهوِّن من شأنهم ويُغرى قومه بهم ، ويُشجِّعهم على مواجهتهم ، لكن مع ذلك يُحذِّرهم من خطرهم ، فيقول ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥﴾ [الشعراء] فأعِدُّوا لهم العدة ، ولا تستهينوا بأمرهم .

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾

يعنى : لا بُدَّ أن نأخذ حذرنا ونحتاط للأمر.

ثم يقول الحق سبحانه :



(1) عن عبد الله بن عمرو قال : كانت الجنات بحافتى النيل فى الشقتين جميعاً من أسوان إلى رشيد ، وبين الجنات زروع . [تفسير القرطبى ٧/٤٩٨] .

أى : لم ينفعه احتياطه ، ولم يُجْد حذره ، فلا يمنع حَذَر من قَدَر ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ .. (٥٧) ﴾ [الشعراء] أى : بساتين وحدائق ﴿ وَعُيُونٍ (٥٧) ﴾ [الشعراء] أى : عيون تجرى بالماء ﴿ وَكُنُوزٍ .. (٥٨) ﴾ [الشعراء] كانت عندهم ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) ﴾ [الشعراء] يعنى : عيشة مُتْرفة فى سَعَة ورَغَد من الحياة ، وخَدَم وحَشَم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) ﴾

﴿ كَذَٰلِكَ .. (٥٩) ﴾ [الشعراء] أى : الأمر كما أقول لكم وكما وصفتُ ﴿ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) ﴾ [الشعراء] أى : أورثنا هذا النعيم من بعدهم لبنى إسرائيل ، وهنا قد يسأل سائل : كيف وقد ترك بنو إسرائيل مصر وخرجوا منها ، ولم يأخذوا شيئاً من هذا النعيم ؟

قالوا : المعنى أورثهم الله أرضاً مثلها ، قد وعدهم بها فى الشام[1].

﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) ﴾

أى : عند الشروق ، وعادةً ما تكون الغارة على الجيش عند الصباح ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات]

وعادةً ما يقوم الإنسان من النوم كسولاً غير نشيط ، فكيف بمَنْ هذه حاله إن التقى بعدوه ؟

---

(١) قال القرطبى فى تفسير هذه الآية (٤٩٨٤/٧) : « يريد أن جميع ما ذكره الله تعالى من الجنات والعيون والكنوز والمقام الكريم أورثه الله بنى إسرائيل . قال الحسن وغيره : رجع بنو إسرائيل إلى مصر بعد هلاك فرعون وقومه . وقيل : أراد بالوراثة هنا ما استعاروه من حلى آل فرعون بأمر الله تعالى » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

معنى ﴿ تَرَاءَى الْجَمْعَانِ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] أى : صار كل منهما يرى الآخر ، وحدثتْ بينهما المواجهة ، وعندها ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] فالحال أن البحر من أمامهم وجنود فرعون من خلفهم ، فلا مناصَ ولا مهرب ، لكن موسى - عليه السلام - وقد سبق أن تعلم كلمة (كلا) من ربه تعالى ، حينما قال : ﴿ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الشعراء] فردّ عليه ربه : ﴿ كَلاَّ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] عندها تعلَّمها موسى ، وعرف كيف ومتى يقولها قَوْلةَ الواثق بها .

﴿ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾

لكن كيف يقول موسى عليه السلام هذه الكلمة (كلا) بملء فيه ، والأمر بقانون الماديات أنه عُرْضة لأنْ يُدْرَك قبل أن يكملها ؟

والإجابة فى بقية الآية : ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] فلم يقُلْ موسى : كَلاَّ اعتماداً على قوته واحتياطه للأمر ، إنما قالها اعتماداً على ربه الذى يكلؤه بعينه ، ويحرسه بعنايته .

فالواقع أننى لا أعرف ماذا أفعل ، ولا كيف أتصرف ، لكن الشىء الذى أثق منه ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء] لذلك يأتى الفرج والخلاص من هذا المأزق مباشرة :

﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾

ذلك لأن البحر هو عائقهم من أمامهم ، والبحر مياه لها قانونها الخاص من الاستطراق والسيولة ، فلما ضرب موسى بعصاه البحر انفلق وانحصر الماء على الجانبين ، كل فِرْقٍ - أى : كل جانب - كالطوْد يعنى الجبل العظيم .

لكن بعد أن صار الماء إلى ضدِّه وتجمَّد كالجبل ، وصنع بين الجبلين طريقاً ، أليس فى قاع البحرَ بعد انحسار الماء طين ورواسب وأوحال وطمى يغوص فيها الإنسان ؟

إننا نشاهد الإنسان لا يكاد يستطيع أن ينقل قدماً إذا سار فى وحل إلى ركبتيه مثلاً ، فما بالك بوحْل البحر ؟

لذلك قال له ربه : ﴿ لاَّ تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ ﴾ [طه]

فالذى جعلَ لك الماء جبلاً ، سيجعل لك الطريق يابساً .

والحق - تبارك وتعالى - لم يُبيِّن لنا فى انفلاق البحر ، إلى كَمْ فلقة انفلق ، لكن العلماء يقولون : إنه انفلق إلى اثنتى عشرة فلقة بعدد الأسباط[1] ، بحيث يمر كل سِبْط من طريق .

وفى لقطة أخرى من القصة أراد موسى - عليه السلام - أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى طبيعته ، فيسدُّ الطريق فى وجه فرعون وجنوده علىَ حَدِّ تفكيره كبشر ، لكن الحق - تبارك وتعالى - نهاه عن ذلك : ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا[2] إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان]

---

(١) قاله ابن عباس فيما نقله عنه ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٣٦) ، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٠٣ ، ٣٠٤) ضمن أثر طويل عزاه لابن عبد الحكم فى « فتوح مصر » من طريق الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس .

(٢) أى : اترك البحر ساكنة أمواجه ليغتروا فينزلوا فيه ، أو كن ساكن النفس هادئاً مطمئناً إلى النجاة . [القاموس القويم ١/٢٧٩ بتصرف]

اتركه على حاله ليُغرى الطريق اليابس فرعون وجنوده ، لذلك قال سبحانه :

﴿ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

أى : قرّبناهم من منتصف البحر ، ثم أطبقه الله عليهم حين أمر الماء أن يعود إلى سيولته وقانون استطراقه ، وهكذا يُنجِّى الله ويُهلك بالشيء الواحد و ﴿ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : قوم فرعون ، و ﴿ ثَمَّ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [الشعراء] أى : هناك وسط البحر .

وللعصا مع موسى ـ عليه السلام ـ تاريخ طويل منذ أن سأله ربه ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ [طه] فأخبر بما يعرفه عنها ﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ﴿١٨﴾ ﴾ [طه]

وقوله ﴿ أَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي .. ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] لا تعنى كما يظن البعض أنها مجرد الإشارة بها إلى الغنم أو ضربها ، فأهشُّ تعنى أضرب بها أوراقَ الشجر لتتساقط ، فتأكلها الأغنام الصغار التى لا تطول أوراقَ الشجر ، أو الكبار التى أكلتْ ما طالته أعناقها وتحتاج المزيد .

ولما وجد موسى نفسه قد أطال فى هذا المقام قال ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه] كأنْ أدافع بها عن نفسى ليلاً ، إنْ تعرَّض لى كلب أو ذئب مثلاً ، أو أغرسها فى الأرض وألقى عليها بثوبى لأستظلَّ به وقت القيلولة ، أو أجعلها على كتفى وأعلِّق عليها متاعى حين أسير .. إلخ .

هذه مهمة العصا كما يراها موسى ـ عليه السلام ـ لكن للعصا مهمة أخرى لا يعلمها ، فهى حُجَّته وآية من الآيات التى أعطاه الله ،

فبها انتصر فى معركة الحجة مع السَّحَرة ، وبها انتصر فى معركة السلاح حين ضرب بها البحر فانفلق .

ومن العجيب فى أمر العصا أن يضرب بها البحر ، فيصير جبلاً ، ويضرب بها الحجر فينفجر بالماء ، وهذه آيات باهرات لا يقدر عليها إلا الله عز وجل .

لذلك جعلوا عصا موسى حجةً ودليلاً وعلَماً على الانتصار فى كل شيء ، فلما كان الخصيب[1] والياً على مصر ، وتمرد عليه بعض قُطَّاع الطرق ، وكانت لديه القوة التى قهرهم بها ، لذلك قال :

فَإِنْ يَكُ بَاقٍ إفْكُ فِرْعَوْنَ فيكُمْ　　　فَإنَّ عَصَا مُوسَى بكَفِّ خَصِيبِ

وفى هذا المعنى يقول شاعر آخر :

إذَا جَاءَ مُوسَى وَألْقَى العَصَا　　　فَقَدْ بَطَلَ السِّحْرُ والسَّاحِرُ

إذن : صارتْ عصا موسى عليه السلام مثَلاً وعلَماً للغلبة فى أىِّ مجال من مجالات الحياة .

﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾

فقد حُسِمتْ هذه المعركة لصالح موسى ومَنْ معه دون إراقة دماء ، ودون خسارة جندى واحد ، فى حين أن المعارك على فرض الانتصار فيها لا بُدَّ أن تكون لها نسبة خسائر فى الأرواح وفى العَتَاد ، أما هذه فلا .

﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

---

(١) جاء فى لسان العرب ـ مادة : خصب : « الخصيب لقب رجل من العرب» .

أى : بنفس السبب الذى أنجى الله به موسى وقومَه أهلك فرعون وقومه ؛ لأنه وحده سبحانه القادر على أن يُنجِى ، وأنْ يُهلِك بالشىء الواحد .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

قوله سبحانه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الشعراء] أى : فيما حدث ﴿ لَآيَةً .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الشعراء] وهى الأمر العجيب الذى يخرج عن المألوف وعن العادة ، فيثير إعجاب الناس، ويستوجب الالتفات إليه والنظر فيه، والآية تُقنِع العقل بأن الله هو مُجْرِيها على يَدَىْ موسى ، وتدل على صِدْق رسالته وبلاغه عن الله ، وإلا فهى مسألة فوق طاقة البشر .

ومع ذلك ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الشعراء] أى : أن المحصلة النهائية للذين آمنوا كانوا هم القلة[1] مع هذه الآيات ، حتى الذين آمنوا مع موسى عليه السلام واتبعوه وأنجاهم الله من آل فرعون ومن الغرق ، سرعان ما تراجعوا وانتكسوا ، كما يحكى القرآن عنهم :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأعراف]

سبحان الله ، لقد كفروا بالله ، وما تزال أقدامهم مُبتلّة من عبور البحر ، وما زالوا فى نَشوة النصر وفرحة الغلبة !!

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾

أى : بعد ما مَرّ من حيثيات فإن الله تعالى هو العزيز ، أى : الذى

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤٩٨٦/٧) : « لأنه لم يؤمن من قوم فرعون إلا مؤمن آل فرعون واسمه حزقيل ، وابنته آسية امرأة فرعون ، ومريم بنت ذا موسى العجوز التى دلّتْ على قبر يوسف الصِّدّيق عليه السلام » .

لا يُغلَب ولا يُقهَر ، إنما هو الغالب وهو القاهر ، فهو سبحانه يغلب ولا يُغلب ، ويُطعِم ولا يُطعَم ، ويُجير ولا يُجار عليه . ومع عزته سبحانه وقوته بحيث يغلب ولا يُغلب هو أيضاً ﴿الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء] لأنه رب الخَلْق أجمعين ، يرحمهم إنْ تابوا ، ويقبلُهم إنْ رجعوا إلى ساحته ، كما جاء في الحديث الشريف :

« لله أفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها ، قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح »[1] .

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾

جاءت هذه الآية بعد الانتهاء في إيجاز مُبسَّط لقصة موسى عليه السلام مع فرعون ، وخُتمت بقوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ [الشعراء]

ثم تكلم الحق سبحانه عن نبيه إبراهيم عليه السلام ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الشعراء] مما يدل على أن المسألة في القرآن ليست سَرْداً للتاريخ ، فإبراهيم كان قبل موسى ، ولو أردنا التاريخ لجاءت قصة إبراهيم أولاً ، إنما الهدف من القصص في القرآن التقاط مواضع العِبْرة والعظة واتخاذ الأُسْوة من تاريخ الرسل ، ليُثبِّت الله بها فؤاد رسوله ﷺ حينما يواجه الأحداث الشاقة والعصيبة .

والمتأمل في رسالة موسى ورسالة إبراهيم عليهما السلام

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

يجد أن موسى جاء ليعالج مسألة هى قمة العقيدة ، ويواجه مَنِ ادّعى الألوهية وقال : إنى إله من دون الله ، أما إبراهيم فقد عالج مسألة الشرك مع الله وعبادة الأصنام ، فعندهم طَرَف من إيمان ، بدليل أنهم إذا ضيّقنا عليهم الخناق قالوا : ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. ③﴾ [الزمر]

لذلك كانت قصة موسى أَوْلَى بالتقديم هنا .

ومعنى : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ .. ⑥⑨﴾ [الشعراء] أى : اقرأ ، أو وضِّح ، أو عبِّر ، ونقول للقراءة (تلاوة) لأنه لا يُتلَى إلا المكتوب المعلوم المفهوم ﴿عَلَيْهِمْ .. ⑥⑨﴾ [الشعراء] على أمة الدعوة كلها ، أَمْ على المكذبين خاصة ؟

قالوا : على المكذِّبين خاصة ؛ لأن المصدِّقين برسول الله لا يحتاجون هذه التلاوة ، وإنْ تُلِيَتْ عليهم فإنما التلاوة للتذكرة أو لعلم التاريخ . إذن : المراد هنا المكذِّبون المنكرون ليعلموا أن نهاية كل رسل الله فى دعوتهم النصر والغلبة ، وأن نهاية المكذبين المخالفين الهزيمة والاندحار .

فكأن القرآن يقول لهم : لا تغتروا بقوتكم ، ولا بجاهكم ، ولا تنخدعوا بسيادتكم على العرب ، ومعلوم أن مكانة قريش بين العرب إنما أخذوها من خدمة بيت الله الحرام ، وما أَمِنُوا فى طرق تجارتهم إلاَّ بقداسة بيت الله وحُرْمته .

ولولا البيت ما كان لقريش كل هذه المكانة ، بدليل قوله تعالى : ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ ① إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ②﴾ [قريش]

ولو انهدم البيت فى قصة الفيل ما كان لقريش سيادة ولا سيطرة

على الجزيرة العربية ، وما دام أن الله تعالى فعل معهم هذا ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ④ ﴾ [قريش]

ومعنى ﴿ نَبَأَ .. ⑥⑨ ﴾ [الشعراء] أى : الخبر الهام الذى يجب أنْ يُقال ، ويجب أنْ يُنصتَ له ، وأنْ تُؤخَذ منه عِبْرة وعظة ، فلا يُقال (نبأ) للخبر العادى الذى لا يُؤبَهُ له .

ولو تتبعتَ كلمة (نبأ) فى القرآن لوجدتها لا تُقَال إلا للأمر الهام ، كما فى قوله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ② ﴾ [النبأ]

وقوله تعالى فى قصة سليمان عليه السلام والهدهد : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ②② ﴾ [النمل]

إذن : ﴿ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ⑥⑨ ﴾ [الشعراء] يعنى : الخبر الهام عنه ، وإبراهيم هو أبو الأنبياء الذى مدحه ربه مدحاً عظيماً فى مواضع عدة من القرآن ، فقال الحق سبحانه عنه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا[1] لِّلَّهِ حَنِيفًا .. ①②⓪ ﴾ [النحل]

والأمة لا تُطلَق إلا على جماعة تنتسب إلى شىء خاص ، ويجمعهم مكان وزمان وحال . كذلك رسول الله ﷺ ، فقد أضفى الله عليه كمالات من صفات كماله لا يستطيع بشر أن يتحملها .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « الخير فِىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[2] .

---

(١) القنوت : الطاعة . وقال تعالى ﴿ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ ②⑥ ﴾ [الروم] أى : خاضعون معترفون بالوهيته مطيعون [القاموس القويم ٢/١٣٤] .

(٢) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) : « قال فى المقاصد : قال شيخنا : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح ، يعنى فى حديث : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة . وقال ابن حجر المكى فى الفتاوى الحديثية : لم يرد بهذا اللفظ » .

الخير فىَّ حصراً ، الخير على عمومه ، وفى كل جوانب شخصيته : داعيةً وأباً وزوجاً .. الخ وخصال الخير من شجاعة ، وحِلْم ، وعِلْم ، وكرم .. إلخ . وكذلك الخير فى أمتى منثورٌ بين أفرادها ، يأخذ كل منهم من الخير بطرف ، وله منه نصيب ، لكن لا أحدَ يستطيع أن يجمع الكمال المحمدى أبداً ، ولا أن يتصف به .

كذلك كان سيدنا إبراهيم عليه السلام (أمة) ؛ لأن خصال الخير تُوزَّع على أفراد الأمة : هذا ذكى ، وهذا حليم ، وهذا عالم ، وهذا حكيم .. الخ أما إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقد جمع من الخير ما فى أمة بأكملها ، وهذا ليس كلاماً يُقَال فى مدح نبى الله إبراهيم ، إنما من واقع حياته العملية .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى عن إبراهيم : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

وحَسْب إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الخير هذه الدعوة : ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ .. (١٢٩)﴾ [البقرة]

فكان محمد ﷺ دعوة أبيه إبراهيم .

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ٧٠﴾

فأول دعوته كانت لأبيه ، وأقرب الناس إليه لا للغريب ، والدعوة التى توجه أولاً للقريب لا بُدَّ أنها دعوة حَقٍّ ودعوة خير ؛ لأن الإنسان يحب الخير أولاً لنفسه ، ثم لأقرب الناس إليه ، ولو كانت فى خيريتها شكٌّ لقصد بها الغرباء والأباعد عنه .

والمراد بأبيه هو (آزر) الذى ورد ذكره فى موضع آخر .

وسؤاله لأبيه وقومه ﴿مَا تَعْبُدُونَ ⟨٧٠⟩﴾ [الشعراء] سؤال استهجان واستنكار ، وسؤال استدلال ليظهر لهم بطلان هذه العبادة ؛ لأن العبادة أنْ يطيعَ العابدُ المعبودَ فيما أمر وفيما نهى ، فالذين يعبدون الأصنام بماذا أمرتهم وعمَّ نهتهم ؟

إذن : فهى آلهة دون منهج ، وما أسهلَ أن يعبد الإنسان مثل هذا الإله الذى لا يأمره بشىء ، ولا ينهاه عن شىء ، وكذلك هى آلهة دون جزاء ودون حساب ؛ لأنها لا تثيب مَنْ أطاعها ، ولا تعاقب مَنْ عصاها .

إذن : فكلمة عبادة هنا خطأ ، ومع ذلك يُسمِّيها الناس آلهة ، لماذا ؟ لأن الإله الحق له أوامر لا بُدَّ أن تُنفَّذ ، وإنْ كانت شاقة على النفس ، وله نواه لا بُدَّ أن تترك وإنْ كانت النفس تشتهيها ، فهى عبادة شاقة ، أمَّا عبادة الأصنام فما أسهلها ، فليس عندها أمْر ولا نَهْى ، وليس عندها منهج يُنظِّم لهم حركة الحياة ؛ لذلك تمسَّك هؤلاء بعبادة الأصنام ، وسمَّوْها آلهة ، وهذا خبل واضح .

كما أن الإنسان فى مجال العبادة إذا عزَّتْ عليه أسباب الحياة وأعْيَتْه الحيل ، أو خرجت عن طاقته ، عندها يجد له رباً يلجأ إليه ، ويستعين به فيقول : يا رب . فماذا عن عابد الأصنام إذا تعرَّض لمثل هذه المسائل ؟ هل يتوجه إليها بالدعاء ؟ وهَبْ أنه يدعو إنساناً مثله يمكن أنْ يسمعهَ أيستجيبُ له ؟

لذلك يقول سبحانه : ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ⟨٧١⟩ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ⟨٧٢⟩ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ⟨٧٣⟩﴾ [الشعراء]

إذن : فعبادة غير الله حُمْق وغباء .

لكن هذا البحث من إبراهيم ، وهذا الجدل مع أبيه وقومه ، أكان بعد الرسالة أم قبلها ؟ قالوا : إن إبراهيم - عليه السلام - كان ناضجاً مُتفتِّحاً منذ صغَره ، وكان مُنكراً لهذه العبادة قبل أن يُرسَل ، لذلك قال الله عنه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الأنبياء]

وكذلك كان نبينا محمد ﷺ قبل بعثته كارهاً للأصنام ، معترضاً على عبادتها ، يتعجب حين يرى قومه يعبدونها ، وقد رأى ﷺ أحد الآلهة وقد كُسر ذراعه فاستعانوا بمَنْ يُصلح ذراع الإله ، فضحك رسول الله ﷺ وتعجَّب لما يرى : العابد يصلح المعبود ؟ بعدها اعتزلهم رسول الله ، ولجأ إلى الغار يفكر في الإله الحق والمعبود الحق .

فكأن أيَّ دين يأمر الله به لو تفكَّر فيه الإنسان برشد لانتهى إلى الحق بدون رسول ؛ لأن دين الله هو دين الفطرة السليمة ، فإنْ توفَّرت لدى الإنسان هذه الفطرة اهتدى بها إلى الحق .

بدليل ما كان يحدث من عمر - رضي الله عنه - وكان يُحدث رسول الله بالأمر ، فتتنزل به الآيات من عند الله ، وقد وافقتْ الآيات رأيه في أكثر من موقف[1] ، وقد أقرَّ رسول الله ﷺ ذلك ليبين لنا أن العقل السليم والفطرة المستقيمة يمكن أنْ ينتهيا إلى قضايا الدين دون رسول .

---

(١) من هذه المواقف أنه لما كان يوم بدر قال ﷺ : ما تقولون في هؤلاء الأسرى ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله قومك وأهلك استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم . وقال عمر : يا رسول الله كذَّبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم . فأخذ رسول الله ﷺ برأي أبي بكر بالفداء ، ولكن نزل قول الله ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنفال] . انظر تفسير ابن كثير (٣٢٥/٢) .

وتستطيع أنت أنْ تعرض أىَّ قضية من قضايا الدين على العقل السليم ، وسوف تجد أنها طيبة وجميلة توافق الذَّوْق السليم والتفكير السوىّ ، فالكذب مثلاً خُلُق يأباه العقل ويأباه الدين ، وكذلك الرشوة ؛ لأنك بها تأخذ ما ليس لك ، وقد يُسلِّط عليك رَاشٍ ، فيأخذ منك حقك ، كما أخذتَ أنت حقوق الناس .

ولو تأمل العقل مثلاً تحريم النظر إلى المحرمات ، لوجد أن الدين قيَّد نظرك وأنت فرد ، وقيَّد من أجلك نظر الناس جميعاً ، فكما طلب منك طلب لك ، وكذلك الأمر فى تحريم السرقة والقتل .. إلخ .

وقد سُئِلْنا فى إحدى الرحلات عن قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة] ومرة يقول: ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [التوبة] ومرة يقول : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة]

يقولون : وبعد أربعة عشر قرناً ، والمسلمون فى الكون أقلية ، ولم يظهر الدين على الدين كله ، فكيف - إذن - نفهم هذه الآية ؟

فقلتُ للسائل : لو فهمتَ الآية السابقة لعرفتَ الجواب : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة]

فالمعنى : أن الدين سيظهر فى وجود الأديان الأخرى ، وليس المراد أن هذه الأديان ستزول ، ولن يكون لها وجود ، بل هى موجودة ، لكن يظهر عليها الإسلام ظهور حجة ، بدليل ما نراه من هجمات على الإسلام وأحكامه وتشريعاته ، كما فى مسألة الطلاق مثلاً ، أو مسألة تعدُّد الزوجات وغيرها . وبعد ذلك تُلجئهم الحياة الاجتماعية إلى هذه التشريعات ، ولا يجدون غيرها لحل مشاكلهم .

ولما قامت الثورة الشيوعية فى روسيا سنة ١٩١٧ أول ما شرَّعوا منعوا الربا الذى كان جائزاً عندهم ، لقد منعوا الربا مع أنهم غير مسلمين ، لكن مصالحهم فى ذلك ، فهذه وأمثالها غلبة لدين الله وظهور له على كل الأديان .

وليس معنى ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه .. (٣٣)﴾ [التوبة] أن يصير الناس جميعاً مؤمنين ، لا ، إنما يظل كُلٌّ على دينه وعلى شِرْكه أو كفره ، لكن لا يجد حلاً لقضاياه إلا فى الإسلام ، وهذا أوقع فى ظهور الدين .

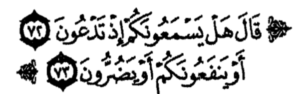
ثم يقول الحق سبحانه عن قوم إبراهيم فى ردِّهم على إبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) ﴾

إذن : شهد شاهد من أهلها ، وقالوا بأنفسهم ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا .. (٧١)﴾ [الشعراء] والعبادة طاعة ، فماذا قالت لهم الأصنام ؟ وبماذا أمرتهم ؟ طبعاً ، ليس عندهم جواب .

وليت الأمر يقف عند العبادة ، إنما ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١)﴾ [الشعراء] أى : قائمين على عبادته ليلَ نهار ، نعم ولكم حق ؛ لأنها آلهة دون تكليف ، وعبادة بلا مشقة وبلا التزام ، إنها بلطجة تأخذون فيها حظَّ أنفسكم ، وتفعلون معها ما تريدون .

لكن ، كيف جادلهم إبراهيم عليه السلام ؟ وبم ردَّ عليهم ؟



فالأصنام لا تسمع مَنْ توجّه إليها بالدعاء ، ولا تنفع مَنْ عبدها ، ولا تضر مَنْ كفر بها ؛ لذلك لم يجدوا ردّاً ، وحاروا جواباً ، ولم يجدوا حُجّة إلا أنْ قالوا :

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) ﴾

إذن : أنتم لم تُحكّموا عقولكم في هذه المسألة ، كما قالوا في موضع آخر : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) ﴾ [الزخرف]

ونقول لهم : ومتى ظللتم على تقليد آبائكم فيما يفعلون ؟ إنكم لو أقمتّم على تقليد الآباء ما ارتقيتم في حياتكم أبداً ، فلماذا إذن تحرصون على التقليد في هذه المسألة بالذات دون غيرها .

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥)
أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦)
فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) ﴾

يقول إبراهيم عليه السلام : لا تلقوا بالمسألة على الآباء ، ولا تُعلّقوا عليهم أخطاءكم ، ثم يعلنها صريحة متحدية كأنه يقول لهم : الحمرة في خيلكم اركبوها .

﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي .. (٧٧) ﴾ [الشعراء] وكلمة عدو جاءت مفردة مع أنها مسبوقة بضمير جمع وتعود على جمع ﴿ فَإِنَّهُمْ .. (٧٧) ﴾ [الشعراء] ومع ذلك لم يقل : أعداء لي . قالوا : لأن العداوة في أمر الدين واحدة على خلاف العداوة في أمر الدنيا ؛ لأنها متعددة الأسباب ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ .. (١٠٣) ﴾ [آل عمران]

فجاءت : ﴿ أَعْدَاءً .. (١٠٣) ﴾ [آل عمران] هنا جمع ؛ لأنها تعود على

عداوة الدنيا ، وهى متعددة الأسباب ، أمّا العداوة فى الدين فواحدة على قلب رجل واحد .

ومن ذلك ما قلناه فى سورة النور عند قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور]

كلها بصيغة الجمع إلا فى ﴿صَدِيقِكُمْ .. (٦١)﴾ [النور] جاءت بصيغة المفرد ؛ لأن الصداقة الحقة هى ما كانت لله غير متعددة الأغراض ، فهى إذن لا تتعدد .

وفى إعلان إبراهيم لعداوته لهذه الأصنام تحدٍّ لهم : فها أنا ذا أعلن عداوتى لهم ، فإنْ كانوا يقدرون على مضرّتى فليفعلوا . وبعد أن أعلن إبراهيم - عليه السلام - عداوته للأصنام نجحت دعوته ، وظل إبراهيم هو إبراهيم لم يُصبْه شىء .

﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)
وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ (٧٩)
وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)﴾

كأن الحق - تبارك وتعالى - يقول لهم : يا أغبياء ، اعلموا أن للعبادة أسباباً وحيثيات . ويوضح إبراهيم عليه السلام حيثيات عبادة ربه - عزَّ وجل - فيقول : ﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ [الشعراء] أى : خلقنى من عدم ، وأمدَّنى من عُدْم ، وجعل لى قانون صيانة يحفظ حياتى ، ويضمن سلامتى حين كلَّفنى بشرعه : افعل كذا ولا تفعل كذا ، وهو سبحانه لا ينتفع بشىء من هذا ، بل النفع يعود علينا نحن ، وهل فعلتْ الأصنام لكم شيئاً من هذا ؟ إذن : فهو وحده المستحق للعبادة .

وقوله سبحانه ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء] أى : بقانون الصيانة الذى يشبه (الكتالوج) الذى يجعله البشر لصناعاتهم ؛ ليضمنوا سلامتها وأداءها لمهمتها على أكمل وجه ، ولا بُدَّ أن يحدِّد لها المهمة قبل أنْ يَشرَع فى صناعتها ، وهل رأينا آلةً صنعها صاحبها ، ثم قال لنا : انظروا فى أىِّ شىء تستخدم هذه ، (بوتاجاز) أو ثلاجة مثلاً ؟

فإذا ما حدث خلل فى هذه الآلة ، فعليك بالنظر فى هذا (الكتالوج) أو أن تذهب بها إلى المهندس المختص بها ؛ لذلك إذا أردتَ أن تأخذ قانون صيانتك ، فلا تأخذه إلا من صانعك وخالقك ـ عز وجل ـ ولا يجوز أن يخلق الله تعالى وتضع أنت لخلْقة الله قانون صيانتها ، فهذا مثْل : أن تقول للجزار مثلاً : اعمل لى قانون صيانة (التليفزيون) .

ثم يذكر بعد ذلك مُقوِّمات استبقاء الحياة ، فيقول : ﴿وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء]

ونقف هنا عند الضمير المنفصل (هو) الذى جاء للتوكيد ، والتوكيد لا يأتى ابتداءً ، إنما يكون على درجات الإنكار ، وقد أكّد الحق ـ تبارك وتعالى ـ نسبة الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء إليه تعالى ؛ لأن هذه المسائل الأربع قد يدعيها غيره تعالى ، وقد يظن البعض أن الطبيب هو الشافى أو أن الأب مثلاً هو الرازق ؛ لأنه الجالب له والمناول .

والهداية قد يدّعيها واضعو القوانين من البشر ، وقد رأينا الشيوعية والرأسمالية والوجودية والبعثية وغيرها ، وكلها تدّعى أنها لصالح البشر ، وأنها طريق هدايتهم ؛ لذلك أكد الله تعالى لنفسه هذه المسألة ﴿الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾﴾ [الشعراء] فالهداية لا تكون إلا من الله ، وفى شرْعته تعالى .

وقد تسأل فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء] ولماذا نذهب إلى الطبيب إذن ؟ نقول : الطبيب يعالج ، وهو سبب للشفاء ، أمّا الشفاء فمن الله ، بدليل أن الطبيب ربما يمرض ، ويعجز هو عن شفاء نفسه ، وقد يعطى المريض حقنة ويكون فيها حَتْفه .

وحين نُعرب : ﴿ مَرِضْتُ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء] نقول : مرض فعل ماض والتاء فاعل ، فهل أنا الذى فعلتُ المرض ؟ وهذا مثْل أن تقول : ماتَ فلان ، ففلان فاعل مع أنه لم يحدث الموت ؛ لذلك يجب أن نتنبه إلى أن الفاعل يعنى مَنْ فعل الفعل ، أو اتصف به ، والفاعل هنا لم يفعل الفعل وإنما اتصف به . وقال ﴿ مَرِضْتُ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء] تأدباً مع الله تعالى ، فلم يقل : أمرضنى ونسب المرض الظاهر إلى نفسه .

أما فى المسائل التى لا يدَّعيها أحد ، فتأتى بالفعل دون توكيد ، كما فى الآية بعدها :

﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾

فلم يقُلْ هنا : هو يميتنى أو هو يُحيينى ؛ لأن الحياة والموت بيده تعالى لا يدَّعيها أحد ، فإنْ قُلْتَ : وماذا عن قتْل الإنسان لغيره ألاَ يُعَدُّ موتاً ؟ وقد سبق أنْ أوضحنا الفرق بين الموت والقتل ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران]

فالموت أن تخرج الروح ، والجسم سليم الأجزاء كامل الأعضاء ، وبعد خروج الروح تُنقض البنية ، أما القتل فيكون بنقْض البنية نَقْضاً يترتب عليه خروج الروح .

إذن : الموت لم يدَّعه أحدٌ لنفسه ، ولما ادعاه النمرود جادله إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى ذلك ، وكشف زيف هذا الادعاء ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ .. (٢٥٨)﴾[البقرة]

ولم يفعل إلا أنْ جاء برجل فأمر بقتله ، ثم عفا عنه ؛ لذلك رأى إبراهيم عليه السلام أنْ يقطع عليه هذا الطريق ، فقال : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. (٢٥٨)﴾ [البقرة]

وهكذا أنهى هذه السفسطة ، وكشف حقيقة هذا المكابر المعاند .

وتأمل حرف العطف ﴿يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)﴾ [الشعراء] و(ثم) تفيد العطف مع التراخى ، ولم يقل : ويحيين ؛ لأن الواو تفيد مُطلَق العطف ، وبين الموت والإحياء الآخر مسافة طويلة ، ألا ترى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢)﴾ [عبس]

﴿وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى[1] يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)﴾

عجيب أن يصدر هذا الدعاء من إبراهيم ، وما أدراك ما إبراهيم ؟

إنه أبو الأنبياء الذى وصفه ربه بأنه أمة قانتاً لله ، ولم يكن من المشركين ، إبراهيم الذى ابتلاه ربه بكلمات فأتمهن ، ومع هذا كله

---

(١) قرأ الحسن وابن أبى إسحاق « خطاياى » وقال : ليست خطيئة واحدة . قال مجاهد : يعنى بخطيئته قوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا .. (٦٣)﴾ [الأنبياء] ، وقوله ﴿إِنِّى سَقِيمٌ (٨٩)﴾ [الصافات] وقوله : إن سارة أخته . زاد الحسن وقوله للكوكب ﴿هَٰذَا رَبِّى .. (٧٧)﴾ [الأنعام] وقال الزجاج : الأنبياء بشر فيجوز أن تقع منهم الخطيئة ، نعم لا تجوز عليهم الكبائر لأنهم معصومون عنها . [تفسير القرطبى ٤٩٩١/٧] .

يقول : ﴿أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء]

إنه أدب عالٍ مع الله وهضم لعمله ؛ لأن الإنسان مهما قدَّم من الخير فهو دون ما يستحق الله تعالى من العبادة ؛ لذلك كان طلب المغفرة من الطمع .

ويجب أن ننظر هنا : متى دعا إبراهيم ربه ومتى تضرع إليه ؟ بعد أن ذكر حيثيات الألوهية ، واعترف لله بالنعم السابقة وأقرَّ بها ، فقد خلقه من عدم ، وأمدَّه من عُدْم ، وووفَّر له كل مقومات الحياة .

وإقرار العبد بنعم الله عليه يقضي على كبرياء نفسه ، ويُصفِّي روحه وأجهزته ، فيصير أهلاً لمناجاة الله ، وأهلاً للدعاء ، فإن اعترفتَ لله بالنعم السابقة أجابك فيما تطلب من النعم اللاحقة ، على خلاف مَنْ لا يذكر لله نعمة ، ولا يقرّ له سبحانه بسابقة خير ، فكيف يقبل منه دعاء ؟ وبأيِّ وجه يطلب من الله المزيد ؟

إذن : لا تَدْعُ ربك إلا بعد صفاء نفس وإخلاص عبودية ؛ لذلك ورد في حديث رسول الله ﷺ : « مَنْ عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم »[1] .

ويقول سبحانه : ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا .. ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال] يقول لك ربك : أنت مأمون على ما علمتَ ، عامل به ، فخُذ المزيد من هدايتي ونوري وتوفيقي ، خُذ المزيد لما عندك من رصيد إيماني وصفاء روحي ، جعلك أهلاً للمناجاة والدعاء .

فإبراهيم - عليه السلام - وهو أبو الأنبياء لم يجترئ على الدعاء

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٥/١٠) من حديث أنس رضي الله عنه ، ضعَّفه الشوكاني في « الفوائد المجموعة » (ص ٢٨٦) .

بشىء آت إلا بعد أنْ ذكر لله النعم السابقة ، وشكره عليها ، فوافق قوله تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. ۝٧ ﴾ [إبراهيم]

لذلك فإن أهل المعرفة يقولون : إن العبد مهما اجتهد فى الدعاء ، فإنه يدعو بالخير على حسْب فهمه ومنطقه وبمقدار علمه ولو أنه ذكر النعيم الأول لله تعالى ، وأقرَّ له بالفضل ، ثم ترك المسألة له تعالى يعطيه ويختار له لكان خيراً له ؛ لأن ربه عز وجل يعطيه على حَسْب قدرته تعالى وحكمته .

وهذا المعنى واضح فى الحديث القدسى : « مَنْ شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين »[1] .

فعطاء الله لا شكَّ أوسع ، واختياره لعبده أفضل من اختيار العبد لنفسه ، كما لو ذهبتَ فى رحلة مثلاً وقلت لولدك : ماذا تريد أنْ أحضر لك من البلد الفلانى ؟ فإنْ قال : أريد كذا وكذا فقد ضيَّق على نفسه، وإنْ ترك لك الاختيار جاء اختيارك له خيراً من اختياره لنفسه .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ۝٨٣ ﴾

نلحظ أنه لم يدْعُ بشىء من الدنيا ، ومعنى ﴿ حُكْمًا .. ۝٨٣ ﴾ [الشعراء] فرق بين الحكم والحكمة : الحكمة أن تضع الشىء فى موضعه ، أما الحكم فأنْ تعلم الخير أولاً ، ثم تعمل بما علمت ثانياً .

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٩٢٦) من حديث أبى سعيد الخدرى وقال : هذا حديث حسن غريب ، وكذا أخرجه أبو نعيم فى الحلية (١٠٦/٥) ، وكذا الدارمى فى سننه (٤٤١/٢) بلفظ « من شغله قراءة القرآن عن مسألتى وذكرى أعطيته أفضل ثواب السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه » قال ابن حجر فى فتح البارى (٦٦/٩) : « رجاله ثقات إلا عطية العوفى ففيه ضعف » . وقد شرح فضيلة الشيخ الشعراوى رحمه الله هذا الحديث مفصلاً فى كتاب « الأحاديث القدسية » (٤٩١/١ - ٥١٤) .

وقال فى دعائه : ﴿هَبْ لِى .. ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء] لأن الهبة عطاء دون مقابل ، فكأنه قال : يا رب أنا لا أستحق ، فاجعلها لى هبةً من عندك ﴿وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء] أى : ألحقنى بهم فى العمل والأسْوة لأنالَ بعدها الجزاء ، وليس المراد : ألحقنى بهم فى الجزاء ، إنما فى العمل .

وقد أجابه الله تعالى فى هذه الدعوة ، فقال سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام]

والملكوت : المخلوقات غير المحسَّة ، أطلعه الله عليها ؛ لأنه عمل بما علم من الملك المحسّ ، وكذلك قال : ﴿وَإِنَّهُ فِى الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة] فأجابه فى الدعوة الأخرى .

﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾

نعرف أن اللسان وسيلة التعبير ، ومعنى ﴿لِسَانَ صِدْقٍ .. ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء] يعنى : ذكراً حسناً يذكر بحق ، ويذكر بصدق ، لا كما نفعل الآن حين نقيم ذكرى لأحد الأشخاص ، فنظل نكيل له المدائح ونُثنى عليه بالصِّدْق وبالكذب ، وبما فعل وبما لم يفعل ، فهذا ذكر ، لكنه ذكر غير صادق ومخالف للحقيقة وللواقع .

وسبق أن أوضحنا أن الصدق هو الكلام المطابق للواقع ، وقد ورد هذا المعنى فى الأمهات الخمس فى القرآن الكريم ، فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ.. ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء].

يعنى : أدخلنى بصدق - لا بغشٍّ يعنى - مدخلاً أستطيع منه الخروج ، وكذلك أخرجنى مُخرج صدق .

وفى قوله تعالى : ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ [القمر]

وفى قوله تعالى : ﴿وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)﴾ [الاحقاف] هذه المواضع الخمس لكلمة الصدق[1] .

ومعنى : ﴿فِي الآخِرِينَ (٨٤)﴾ [الشعراء] يعنى : يتعدى الذِّكْر الحسن مدة حياتى إلى مَنْ بعدى ، فاجعل لى لسان صدق فى المعاصرين ، وفيمن يأتى بعدى أترك أثراً طيباً يُذكَر من بعدى ؛ لأن لى نصيباً من الخير والثواب فى كل مَن اقتدى بى ، وجعلنى أُسْوة .

وقد أجابه الله فى هذه ، فقال سبحانه : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩)﴾ [الصافات]

﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥)﴾

بعد أن دعا لأمر فى الدنيا ، ثم لأمر بعد موته دعا لنفسه بجنة النعيم الدائم فى الآخرة ، ولا شك أن ربه ـ عز وجل ـ قد أجابه إلى هذه ، فهو من ورثة جنة النعيم ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠)﴾ [البقرة]

---

(١) تحقيق الأمر أن كلمة الصدق وردت فى القرآن عشر مرات :
١ - لسان صدق : مرتان (مريم : ٥٠) ، (الشعراء : ٨٤) .
٢ - مدخل صدق : مرة واحدة (الإسراء : ٨٠) .
٣ - مخرج صدق : مرة واحدة (الإسراء : ٨٠)
٤ - وعد الصدق : مرة واحدة (الاحقاف : ١٦) .
٥ - مقعد صدق : مرة واحدة (القمر : ٥٥) .
وبالإضافة إلى هذا :
- قدم صدق : مرة واحدة (يونس : ٢) .
- مبوأ صدق : مرة واحدة (يونس : ٩٣) .
- الصدق : مرتان (الزمر : ٣٢) ، (الزمر : ٣٣) والله تعالى أعلى وأعلم .

وكلمة ميراث الجنة وردتْ فى القرآن أيضاً فى قوله تعالى :

﴿ أُوْلَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المؤمنون]

والميراث أنْ تأخذ ملكاً من آخر بعد موته ، فكيف تكون الجنة ميراثاً ؟

قال العلماء : إن الخالق - عز وجل - لم يخلق الجنة على قدر أهلها وكذلك النار ، إنما خلق الجنة تتسع للناس جميعاً ، إنْ آمنوا ، وخلق النار تتسع للناس جميعاً إنْ كفروا ؛ ذلك لأنه سبحانه خلق الخَلْق مختارين ، مَنْ شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليكفر . وعليه ، فميراث الجنة يعنى أنْ يرث المؤمنون أماكن الذين كفروا فى الجنة ، يتقاسمونها فيما بينهم .

والوارث يرث مال غيره وثمرة سعيه ، لكن لا يسأل عنها ، إنما يأخذها طيبة حتى إنْ جمعها صاحبها من الحرام ، إلا إنْ أراد الوارث أن يبرىء ذمة المورِّث ، فيردّ المظالم إلى أهلها .

إذن : الوارث يأخذ الميراث دون مقابل فكأنه هبة ، وعلى هذا المعنى يكون المراد بميراث الجنة أن الله تعالى أعطى عباده الطائعين الجنة هبةً منه سبحانه ، وتفضّلاً عليهم ، وليس بعملهم ، فالجنة جاءتهم كما يأتى الميراث لأهله دون تعب منهم ودون سَعْى .

وهذا تصديق لقول رسول الله ﷺ فى الحديث النبوى : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى[(١)] الله برحمته »[(٢)] .

---

(١) تغمَّده الله برحمته : أدخله فيها وغمره بها . قال أبو عبيد : قوله « يتغمدنى » : يُلبسنى ويتغشّانى ويسترنى . [لسان العرب - مادة : غمد] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

قالوا : فالجنة ميراث ؛ لأن الأصل أنك لا تُجازَى على الخير الذى قدمتـه ؛ لأنه تكليف من الله تعالى يعود خيره عـليك فى الدنيا ، حيث تستقيم به حياتك وتسـعد بها ، وما دام التكليف فى صالحك ، فكيف تأخذ أجـراً عليه ؟ كـالوالد حين يحثّ ولـده على المذاكرة والـجد فى دروسه ، فهذا يعود نفعه على الولد ، لا على الوالد .

وكأن ربك ـ عز وجل ـ يـقول لك : ما دُمْتَ قد احتـرمتَ تكليفى لك ، وأطعـتنى فيـما ينفـعك أنت ، ولا يعـود علىَّ منه شىء ، فحـين أعطيك الجنة أعطيك بفـضلى وهبَة منى ، أو أننا نأخذ الـجنة بالعمل ، والمنازل بالفضل .

إذن : لا غنَى لأحد منّا عن فَضْل الله .

لذلك يقول سبحانه : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يونس]

هذا هو المعنى المراد بميراث الجنة ، وينبغى ألاَّ تعوِّل على عملك وطاعتك واجـتهادك فى العـبادة ، واعلم أن النجاة لا تكون إلا برحـمة الله وفضل منه سبحانه .

ثم ترك الدعاء لذاته وانتقل لمن رباه فقال :

﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾

لم ينْسَ إبراهيم ـ عليـه السلام ـ فى دعائه أن يـدعو لمن رباه ؛ لأن الحق ـ تبـارك وتعـالى ـ هو الخـالق ، إنمـا جـعل الوالدين همـا السبب المـباشر فى الخلْـق والإيجاد ؛ لذلك جعلهـما أصحـاب الفضل والأحق بالطاعة بعده تعالى ، لكن قـد ينجب الوالدان ويهملان ولدهما فيربيه غـيرهما ؛ لذلك يأخذ المنزلة الثالثـة ، فعندنا ربوبية خَلَقَت من عدم ، وأبوة جاءت بأسباب الإيجاد ، وأبوة أخرى ربّت واعتنتْ .

وهذا المعنى واضح فى قوله سبحانه : ﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء] فحيثية الدعاء بالرحمة هنا ، لا لأنهما أبوان وهما سبب الإيجاد ، إنما لأنهما ربَّيانى صغيراً ، إذن : لو ربَّانى غير والدىَّ لأخذوا هذه المنزلة واستحقوا منى هذا الدعاء .

لكن لم يُستجَبْ لإبراهيم عليه السلام فى هذه ، لأنه سأل الله لأبيه قبل أن يعرف أنه عدو لله ، يقول تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ .. ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ[1] ﴿٨٧﴾﴾

بأىِّ شىء يكون الخزى فى الآخرة ؟ الخزى يكون حين يعاتبك ربك يوم القيامة على رؤوس الأشهاد على ما فَرَط منك من تقصير ؛ لذلك الحساب اليسير ما كان بين العبد وربه ، وقد أُجيب إبراهيم عليه السلام فى هذه الدعوة بقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة]

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾

إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾

(١) أخرج البخارى فى صحيحه والنسائى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصينى ؟ فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم : رب إنك وعدتنى أن لا تخزينى يوم يبعثون ، فأىُّ خزى أخزى من أبى الأبعد ؟ فيقول الله : إنى حرمت الجنة على الكافرين . ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى فى النار » . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٠٧) .

قوله : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الشعراء] فأتى بالمسألة التى تشغل الناس جميعاً ، فكل إنسان يريد أن يكون غنياً صاحب مال وأولاد وعِزْوة ، ومَنْ حُرِم واحدة منهما حَزن وألم أشدّ الألم .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [الكهف]

ويقول سبحانه : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران]

نعم ، هى زينة الحياة الدنيا . ومعنى الزينة : الحُسْن غير الذاتى ، فالحُسْن قد يكون ذاتياً فى الجوهر كالمرأة التى تكون جميلة بطبيعتها التى خلقها الله عليها ، دون أنْ تتكلَّف الجمال ، أو الزينة الظاهرة من مساحيق أو ذهب أو خلافه ، لذلك سمَّوْها فى اللغة (الغانية) وهى التى استغنتْ بجمالها الطبيعى الذاتى عن أنْ تتزيّن بأىِّ شىء آخر .

وقوله : ﴿ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : مع أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا ، فهذا لا يمنع نفعهما لصاحبهما إنْ أحسن التصرُّف فى ماله ، فأنفقه فى الخير ، وأحسن تربية أولاده التربية الصالحة ، لكن هذه أيضاً لا تصفو له ولا تستقيم إلا إذا ﴿ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء]

يعنى : توفَّر له الإخلاص فى هذا كله ، وإلاَّ فالرياء يُحبط العمل ، ويجعله هباءً منثوراً ، إنْ كنتَ تفعل الخير فى الدنيا ولا تؤمن بالله ولا تُنزهه سبحانه عن الشريك ، فلن ينفعك عملك ، ولن يكون لك منه نصيب فى ثواب الآخرة .

كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان]

وفى الحديث القدسى : « ... فعلت ليقال وقد قيل ... »[(١)] .

فعلتَ ليُقام لك حفل تكريم وقد أقيم لك ، فعلتَ لتأخذ نيشاناً وقد أخذتَه ، فعلتَ ليُكتب اسمك على باب المسجد وقد كُتِب ، إذن : انتهت المسألة .

فقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الشعراء] لا ينفى نفع المال والبنين ، فهى نافعة شريطة أنْ تأتى اللهَ بقلب سليم ، والسلامة هنا تعنى : أن يظلَّ الشيء على حاله وعلى صلاحه الذى خلقه الله عليه لا يصيبه عطب فى ذاته ، فيؤدى مهمته كما ينبغى .

فكأن السلامة تُوجد أولاً ، ونحن الذين نُفسِد هذه السلامة .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لاَّ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [البقرة]

لذلك لو تأمَّل الناس فيما يُتعبهم فى الحياة لوجدوا أنه ثمرة إفسادهم فى الكون المنظم الذى خلقه الله على مقتضى حكمته تعالى ، بدليل أن كل حركة فى الكون لا يتدخل فيها الإنسان تراها مُستقيمة منتظمة لا تتخلف ، فإنْ تدخَّل الإنسان وُجِد الفساد ووُجِد الظلم للغير ، حتى للنبات وللجماد وللحيوان ، وقد نهانا الشارع الحكيم عن هذا كله .

هذا إنْ تدخَّل الإنسان فى الكون على غير مقتضى منهج ربه ، فإنْ تدخَّل على هُدًى من منهج الله استقامتْ الأمور وتحققتْ السلامة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٢) والترمذى فى سننه (٢٣٨٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن غريب . وهو حديث طويل شرحه الشيخ رحمه الله فى « الأحاديث القدسية » (١/١٣٥ – ١٥١) .

ألا ترى قوله تعالى فى سورة الرحمن :

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝﴾ [الرحمن]

لذلك تجد كل شىء فى الكون موزوناً بقدر وبحكمة : الشمس والقمر والنجوم والهواء والماء .. الخ وكل عناصر الكون هذه تسير مستقيمة فى منظومة الكون المتكاملة ، لماذا ؟ لأنه لا دَخْلَ للإنسان فيها .

فمعنى القلب السليم : القلب الذى لا يعمُر إلا بما أراد الله أنْ يعمُرَ به ، وقد ورد فى الحديث القدسى : « ما وسعتنى أرضى ولا سمائى ، ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن »[1] .

إذن : لا تزحم قلبك بما يَشْغَله من أمور الدنيا ، واجعله خالياً لله مُنْشغلاً به ، فهذه هى سلامة القلب ؛ لأن القلب مفطور على هذا ، مطبوع عليه .. ساعة خلقه الله خلقه صافياً سليماً من المشاغل ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ..۝﴾ [النحل] لماذا ؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ۝﴾ [النحل]

إذن : لا تأخذ المال والبنين منفصليْن عن سلامة القلب ؛ لأن ربك يقول : ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً ۝﴾ [الكهف]

(١) قال الملا على القارى فى « الأسرار المرفوعة فى الأخبار الموضوعة » (ص ٢٠٦) دار الكتب العلمية بيروت : « ذكره فى الإحياء ، وقال العراقى : لم أر له أصلاً . وقال ابن تيمية : هو مذكور فى الإسرائيليات وليس له إسناد معروف عن النبى ﷺ : وفى « الذيل » وهو كما قال . ومعناه : وسع قلبُه الإيمان بى وبمحبتى ، وإلا فالقول بالحلول كفر . وقال الزركشى : وضعه الملاحدة » . وانظر : كشف الخفاء ٢/٢٧٣ والدرر المنتثرة للسيوطى ص ٣٦٦ .

وفى آية : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ .. ⁽١٤⁾﴾ [آل عمران] ختمها الحق سبحانه بقوله : ﴿ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ⁽١٤⁾﴾ [آل عمران]

ومن سلامة القلب أن يخلو من الشرك ، وأن يخلو من النفاق ؛ لأن المنافق يؤمن بلسانه ، ولا يؤمن بقلبه ، فقلبه لا يوافق لسانه ؛ لذلك هو غير سليم القلب ، فكان أشد إثماً من الكافر ، وجعله الله فى الدَّرْك الأسفل من النار .

المنافق أشد تعذيباً من الكافرِ ؛ لأن الكافر مع كُفْره هو منطقىّ مع نفسه ، حيث كفر بقلبه وبلسانه ، ونطق بما يعتقده ، أما المنافق فقد غشَّنا وحُسِب علينا ظاهراً ، ومنهم مَنْ كان يصلى خلف رسول الله ﷺ فى الصف الأول ، وهو فى حقيقة الأمر من الطابور الخامس داخل صفوف المسلمين .

وكذلك الرياء ينافى سلامة القلب ، فالمرائى يعمل للناس ولا يعمل لله ، ونعجب حين نرى مَنْ يُقدِّم الجميل رياءً وسُمْعة ، ثم يتهم مَنْ أسدى إليه الجميل بأنه ناكر للجميل ، نقول له : لماذا تتهمه وقد سبقته فأنكرتَ جميل الله ، حيث لم تجعله على بالك حين فعلتَ الخير .

إذن : فهذا جزاؤك جزاءً وفاقاً ، لأنك ما فعلتَ الخير لله ، إنما فعلته للعبد فانتظر منه الجزاء . وصَفْقَة المرائى خاسرة ، وتجارته بائرة ؛ لأنه حين يعطى رياءً يستفيد منه الآخذ ويخرج هو صُفْر اليدين ، كما قال سبحانه : ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا .. ⁽٢٦٤⁾﴾ [البقرة]

وبعد ذلك ترى الناس تكره المرائى ، ويُنكرون جميله فى بناء مسجد أو مستشفى أو مدرسة مثلاً ، ولو عمل ذلك لله لأبقى الله

ذِكْره بين الناس ، فحفظوا جميله ، وأثنَوْا عليه بالخير .

ويُرْوى أن السيدة فاطمة الزهراء دخل عليها سيدنا رسول الله ﷺ فوجدها تجلو درهماً فى يدها ، فلما سألها عنه قالت : لأنّى قد نويتُ أنْ أتصدّق به ، فقال لها : تصدَّقى به وهو على حاله ، فقالت : أنا أعلم أنه يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد الفقير ، والله طيب لا يقبل إلا طيباً .

ثم يذكر الحق - تبارك وتعالى - نتيجة سلامة القلب وثمرة الإخلاص فى العمل ، فيقول :

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

﴿ أُزْلِفَتِ.. ﴿٩٠﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : قرِّبت ، لكن كيف تقرب منهم وهم بداخلها ؟ قالوا : تُقرَّب منهم قبل أن يدخلوها ، وهم ما زالوا فى شدة الموقف وهول القيامة والحساب ، فتُقرَّب منهم الجنة ليطمئنوا بها ، ويهون عليهم هذا الموقف الصعب .

وفى آية أخرى : ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [ق] يعنى : يروْنها عياناً ، ويعرفون أنها النعيم الذى ينتظرهم ، وسوف يباشرونه عن قريب ، كما لو دُعيتَ إلى مائدة أحد العظماء ، وقد أُعدَّتْ على أتمِّ وجه ، فإن من النعيم أن تمر بها وتشاهد ما عليها من أطايب الطعام قبل أن يحين وقت الاجتماع عليه .

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

وهذه لمن أتى الله بقلب غير سليم ، قلب خالطه شرك أو نفاق أو رياء ، وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا .. ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم]

والورود لا يعني دخول النار ، إنما رؤيتها والمرور بها ؛ لأن الصراط مضروب على مَتْن جهنم ، فالورود شيء والدخول شيء آخر ، ومن ذلك قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ (٢٣) ﴾ [القصص] مع أن موسى - عليه السلام - ورد الماء يعني : مكان الماء ، ولم يشرب منه .

والحكمة من ورود النار بهذا المعنى أنْ يعرف المؤمن فَضْل الإيمان عليه ، وأنه سبب نجاته من هذه النار التي يراها ، وهذه أعظم نعمة عليه ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

ومعنى ﴿ لِلْغَاوِينَ (٩١) ﴾ [الشعراء] جمع غَاوٍ ، وهو إما أنْ يكون غاوياً في نفسه ، أو أغوى غيره ، فتطلق على الغاوي ، وعلى الذي يُغوِي غيره .

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ (٩٣) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) ﴾ [الشعراء] أرونا مَنْ أشركتموهم مع الله ، أين هم الآن ؟

وفي موضع آخر : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) ﴾ [الصافات]

لقد ضلوا عنكم ، وتركوكم ، بل وتبرأوا منكم : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) ﴾ [البقرة]

ثم يأتي الذين اتبعوا فيقولون : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ

وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت]

نعم ، إنها معركة ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف]

وقوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : لا يستطيعون نصركم ، أو الدفاع عنكم ، ولا حتى نَصْر أنفسهم ، فإنْ كان نصرهم لأنفسهم ممنوعاً فلغيرهم من باب أَوْلَى ، ففى الآية تقريع لهم ولمن عبدوهم من دون الله ، وتحقير لشأنهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾

الفعل كَبْكب ، يعنى : كبّوا مرة بعد أخرى على وجوههم ، فهى تعنى تكرار الكَبِّ ، فكلما قام كُبَّ على وجهه مرة أخرى ، وهى على وزن فعللة الدال على التكرار كما تقول : زقزقة العصافير ، ونقنقة الضفادع . والمراد هنا الأصنام تكبّ على وجوهها ، وتسبق مَنْ عبدها إلى النار ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ[1] جَهَنَّمَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

وقال : ﴿ هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الشعراء] فالغاوون يسبقون مَنْ أغْوَوْهم وأضلوهم ؛ ليقطع أمل التابعين لهم فى النجاة ، فلو دخل التابعون أولاً لقالوا : سيأتى منْ عبدناهم لينقذونا ، لكن يجدونهم أمامهم قد سبقوهم ، كما قال تعالى عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ[2] قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود]

(١) الحصب : كل ما يُلْقى فى النار لتسعَّر به . [القاموس القويم ١/١٥٥] .

(٢) أى : يقودهم ويسير أمامهم إلى جهنم . [القاموس القويم ٢/١٠٥] .

﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ٩٥ ﴾

ولإبليس جنودٌ من الجن ، وجنود من الإنس ، سيجتمعون جميعاً في النار .

﴿ قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ٩٦ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٩٨ ﴾

هذه لقطة من ساحة القيامة ، حيث يختصم أهل الضلال مع مَنْ أضلوهم ، ويُلْقِى كل منهم بالتبعة على الآخر .

وهذه الخصومة وردتْ فى قوله تعالى على لسان الشيطان : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. ٢٢ ﴾ [إبراهيم] والمعنى : لم يكُنْ لى عليكم سلطانٌ قَهْر أحملكم به على طاعتى ، ولا سلطان حجة أقنعكم به .

ثم يعترف أهل الضلال بضلالهم ويقسمون ﴿ تَاللَّه .. ٩٧ ﴾ [الشعراء] يعنى : والله ﴿ إِن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ٩٧ ﴾ [الشعراء] يعنى : ظاهر ومحيط بنا من كل ناحية ، فأين كانت عقولنا ﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ٩٨ ﴾ [الشعراء] أى : فى الحب ، وفى الطاعة ، وفى العبادة .

كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ .. ١٦٥ ﴾ [البقرة]

﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ٩٩ ﴾

يعنى : يا رب أرنا هؤلاء المجرمين ، ومكِّنّا منهم لننتقم لأنفسنا ،

ونجعلهم تحت أقدامنا ، وهكذا أخرجوا كل سُمِّهم فى هؤلاء المجرمين ، وألقوا عليهم بتبعة ما هم فيه .

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾

الشافع من الشَّفْع أى : الاثنين ، والشافع هو الذى يضمُّ صوته إلى صوتك فى أمر لا تستطيع أن تناله بذاتك ، فيتوسط لك عند مَنْ لديه هذا الأمر ، والشفاعة فى الآخرة لا تكون إلا لمن أذن الله له ، يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء]

ويقول سبحانه :

﴿ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ .. ﴿٢٥٥﴾ ﴾ [البقرة]

إذن : ليس كل أحد صالحاً للشفاعة مُعداً لها ، وكذلك فى الشفاعة فى الدنيا فلا يشفع لك إلا صاحب منزلة ومكانة ، وله عند الناس أيَادٍ تحملهم على احترامه وقبول وساطته ، فهى شفاعة مدفوعة الثمن ، فللشافع رصيد من الجميل وسوابق الخير تزيد عما يطلب للمشفوع له .

لذلك نرى فى الريف مثلاً رجلاً له جاه ومنزلة بين الناس ، فيحكم فى النزاعات ويفصل فى الدم ، فحين يتدخَّل بين خصمَيْن ترى الجميع ينصاع له ويذعن لحكومته .

ومن ذلك ما عرفناه فى الشرع من شركة الوجوه[1] ، ومعلوم أن

---

(١) قال موفق الدين ابن قدامة (ت ٦٣٠ هـ) فى كتابه « المغنى » (٥/١٢٢) : « أما شركة الوجوه فهو أن يشترك اثنان فيما يشتريان بجاههما وثقة التجار بهما من غير أن يكون لهما رأس مال ، على أن ما اشتريا بينهما نصفين أو أثلاثاً أو أرباعاً أو نحو ذلك ويبيعان ذلك ، فما قسم الله تعالى فهو بينهما فهى جائزة » .

الشركة تحتاج إلى مال أو عمل ، لكن قد يوجد شخص ليس لديه مال ولا يستطيع العمل ، لكن يتمتع بوجاهة ومنزلة بين الناس ، فنأخذه شريكاً معنا بما لديه من هذه الميزة .

والحقيقة أن وجاهته ومنزلته بين الناس قُوِّمت بالمال ؛ لأنه ما نالها من فراغ ، إنما جاءت نتيجة جَهْد وعمل ومجاملات للناس ، احترموه لأجلها ، فلما زال عنه المال وأنفقه فى الخير بَقِى له رصيد من الحب والمكانة بين الناس .. ومن ذلك أيضاً شراء العلامة التجارية .

ومعنى ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ۝١٠١﴾ [الشعراء] فرْق بين الشافع والصديق ، فالشافع لا بُدَّ أن تطلب منه أن يشفع لك ، أما الصديق وخاصة الحميم لا ينتظر أن تطلب منه ، إنما يبادرك بالمساعدة ، ووصف الصديق بأنه حميم ؛ لأن الصداقة وحدها فى هذا الموقف لا تنفع حيث كل إنسان مشغول بنفسه .

فإذا لم تكُنْ الصداقة داخلة في الحميمية ، فلن يسأل صديق عن صديقه ، كما قال تعالى : ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس]

وقد أثارت مسألة الشفاعة لغطاً كثيراً من المستشرقين الذين يريدون تصيُّد المآخذ على القرآن الكريم ، فجاء أحدهم يقول : تقولون إن القرآن معجزة فى البلاغة ، ونحن نرى فيه المعنى الواحد يأتى فى أسلوبين ، فإنْ كان الأول بليغاً فالآخر غير بليغ ، وإنْ كان الثانى بليغاً فالأول غير بليغ ، ثم يقول عن مثل هذه الآيات : إنها تكرار لا فائدة منه .

ونقول له : أنت تنظر إلى المعنى فى إجماله ، وليس لديك الملكة العربيــة التى تستقــبل بها كلام الله ، ولو كانت عـندك هذه الملكة لما اتهمتَ القرآن ، فكل آية ممـا تظنه تكراراً إنما هى تأسيس فى مكانها لا تصلح إلا له .

والآيتــان محــل الكلام عن الشــفاعــة فى ســورة البـقرة ، وهمــا متفقتان فى الصدر مختلفتان فى العَجُز ، أحدهما :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. (٤٨)﴾ [البقرة]

والأخرى :

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا .. (١٢٣)﴾ [البقرة]

إذن : فصــدْر الآيتين متـفق ، أما عَـجُز الأولى : ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ..(٤٨)﴾ [البقرة]

وعَجُز الأخرى : ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ .. (١٢٣)﴾ [البقرة] فهما مختلفتان .

وحين تتأمل صَدْرَىْ الآيتين الذى تظنه واحداً فى الآيتين تجد أنه مختلف أيضــاً ، نعم هو مُتحد فى ظاهره ، لكن حـين تتأمله تجد أن الضمير فيهما : إما يعود على الشافع ، وإما يعود على المشفوع له ، فإنْ عـاد الضمـير على المـشفوع لــه نقول له : لا نأخذ مـنك عدلاً ، ولا تنفعك شفـاعة ، وإنْ عاد الضمير على الشــافع نقول له : لا نقبل منك شفاعة ـ ونُقدِّم الشفاعة أولاً ـ ولا نأخذ منك عدلاً .

إذن : ليس فى الآيتين تكرار كما تظنون ، فكلٌّ منهما يحمل معنى لا تؤديه الآية الأخرى .

وقد أوضــحنا هذه المســألة أيضاً فى قــوله تعالى : ﴿وَلا تَقْتُلُوا

أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

والأخرى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

فصدْرا الآيتين مختلف ، وكذلك العَجُز مختلف ، فعَجُز الأولى :
﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ..(٣١) ﴾ [الإسراء]

وعَجُز الأخرى : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ..(١٥١) ﴾ [الأنعام]

وحين نتأمل الآيتين نجد أن لكل منهما معناها الخاص بها ، وليس فيهما تكرار كما يظن البعض .

ففى الآية الأولى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١) ﴾ [الإسراء] إذن : فالفقر غير موجود ، والأب يخاف أن يأتى الفقر بسبب الأولاد ، فهو مشغول برزق الولد ، لا برزقه هو ؛ لأنه غنى غير محتاج ؛ لذلك قدَّم الأولاد فى عَجُز الآية ، كأنه يقول للأب : اطمئن فسوف نرزق هؤلاء الأولاد أولاً ، وسوف تُرزَق أنت أيضاً معهم .

أما فى الآية الأخرى : ﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فالفقر فى هذه الحالة موجود فعلاً ، وشُغل الأب برزق نفسه أَوْلى من شغله برزق ولده ؛ لذلك قال فى عَجُز الآية : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام] فقدَّمهم على الأولاد .

إذن : لكل آية معناها الذى لا تؤديه عنها الآية الأخرى .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم أنهم قالوا :

﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) ﴾

معنى : ﴿ كَرَّةً.. (١٠٢) ﴾ [الشعراء] أى : عودة إلى الدنيا ورجعة ﴿ فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) ﴾ [الشعراء] أى : نستأنف حياة جديدة ،

فنؤمن بالله ونطيعه ، ونستقيم على منهجه ، ولا نقف هذا الموقف .

وفى آيات أخرى شرحت هذه المسألة ، يقول تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)﴾ [المؤمنون]

يعنى ﴿كَلَّا .. (١٠٠)﴾ [المؤمنون] لن يعودوا مرة أخرى ، وما هى إلا كلمة يقولونها بألسنتهم يريدون النجاة بها ، لكن هيهات فبينهم وبين الدنيا برزخٌ يعزلهم عنها ، ويمنعهم العودة إليها ، وسوف يظل هذا البرزخ إلى يوم يُبعثون .

وفى آية أخرى حول هذا المعنى يُرقِّى الحق - تبارك وتعالى - المسألة من موقف الموت إلى موقف القيامة ، فيقول سبحانه : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)﴾ [الأنعام]

وهذا كَذِب منهم وقَوْل باللسان لا يوافقه العمل ؛ لذلك ردَّ الحق - تبارك وتعالى - عليهم بقوله : ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾

الآية : هى الأمر العجيب الملفت للنظر ، وما كان ينبغى أنْ يمرَّ على العقول بدون تأمّل واعتبار ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾ [الشعراء] رغم أن هذه الآيات ظاهرة واضحة ، ومع ذلك كان أكثرهم غير مؤمنين .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤) ﴾

أى : مع كونهم لم يؤمن أكثرهم ، فالله تعالى هو العزيز الذى لا يُغلَب ، إنما يغلِب ، ومع عِزّته تعالى فهو رحيم بعباده يفتح باب التوبة لمن تاب .

ثم ينتقل السياق القرآنى من قصة سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى قصة أخرى من ركْب الأنبياء ومواكب الرسل هى قصة نوح عليه السلام :

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) ﴾

القوم : هم الرجال خاصة ، وسُمُّوا قوماً ؛ لأنهم هم الذين يقومون بأهم الأشياء ، ويقابل القوم النساء ، كما جاء شرح هذا المعنى فى قوله سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

فالرجال هم القوم ؛ لأنهم يقومون بأهم الأمور ، وعليهم مدار حركة الحياة ، والنساء يستقبلْنَ ثمار هذه الحركة ، فينفقونها بأمانة ويُوجِّهونها التوجيه السليم .

والشاعر العربى أوضح هذا المعنى بقوله :

وَمَا أَدْرِى ولسْتُ إِخَالُ أَدْرِى   أَقومٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِساءُ[1]

ونفهم أيضاً هذه القِوامة للرجل من قَوْل الله تعالى حينما وعظ

(١) هو قول زهير بن أبى سلمى ، شاعر جاهلى . قال ابن الأثير : القوم فى الأصل مصدر قام ثم غلب على الرجال دون النساء ، ولذلك قابلهن به ، وسموا بذلك لأنهم قوّامون على النساء بالأمور التى ليس للنساء أن يقمن بها . وقال الجوهرى : ربما دخل النساء فيه على سبيل التبع لأن قوم كل نبى رجال ونساء . [لسان العرب ـ مادة : قوم] .

آدم وحذَّره من الشيطان : ﴿إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ .. (١١٧)﴾ [طه] وحسب القاعدة نقول : فتشقيا .

لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : ﴿فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾ [طه] أنت يا آدم وحدك فى حركة الحياة ، فالرجل يتحمل هذه المشقة ويكرم المرأة أن تُهَان أو تشقى ، لكن ماذا نفعل وهى تريد أن تُشقِى نفسها ؟!

ونلحظ أن الآية تقول : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥)﴾ [الشعراء] كيف وهم ما كذَّبوا إلا رسولهم نوحاً عليه السلام ؟ وكانوا مؤمنين قبله بآدم وإبراهيم مثلاً .

قالوا : لأن الرسل عن الله إنما جاءوا فى أصول ثابتة فى العقيدة وفى الأخلاق لا تتغير فى أى دين ؛ لذلك فمن كذَّب رسوله فكأنه كذَّب كل الرسل ، ألاَ ترى أن من أقوال المؤمنين أن يقولوا :

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤)﴾ [آل عمران]

وقال تعالى : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ .. (٢٨٥)﴾ [البقرة]

فإنْ قُلْتَ : فماذا عن اختلاف المناهج والشرائع من نبى لآخر ؟ نقول : هذه اختلافات فى مسائل تقتضيها تطورات المجتمعات ، وهى فرعيات لا تتصل بأصل العقائد والأخلاق الكريمة .

لذلك نجد هذه لازمة فى كُلِّ مواكب الرسالات ، يقول : المرسلِين ، المرسَلين ؛ لأن الذى يُكذِّب رسوله فيما اتفق فيه الأجيال

من عقائد وأخلاق ، فكأنه كذَّب جميع المرسلين .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) ﴾ [الشعراء] يريد أن يُحنِّن قلوبهم عليه بكلمة ﴿ أَخُوهُمْ .. (١٠٦) ﴾ [الشعراء] التى تعنى أنه منهم وقريب الصِّلة بهم ، ليس أجنبياً عنهم ، فهم يعرفون أصله ونشأته ، ويعلمون صفاته وأخلاقه .

لذلك لما بُعث النبى ﷺ وأبلغ الناس برسالته بادر إلى الإيمان به أقرب الناس إليه ، وهى السيدة خديجة دون أنْ تسمع منه آية واحدة ، وكذلك الصِّديق أبو بكر وغيرهما من المؤمنين الأوائل ، لماذا ؟

لأنهم بَنَوْا على تاريخه السابق ، واعتمدوا على سيرته فيهم قبل الرسالة ، فعلموا أن الذى لا يكذب على الناس مستحيل أن يكذب على رب الناس .

والسيدة خديجة رضوان الله عليها تعتبر أول فقيهة ، وأول عالمة أصول فى الإسلام ، حينما جاءها رسول الله ﷺ يشكو ما يعانى ، ويخشى أن يكون ما يأتيه من الوحى رئياً من الجن أو توهمات تفسد عليه عقله وتفكيره ، قالت له - انظر إلى العظمة - « والله إنك لتصل الرحم ، وتَقْرى الضيف ، وتحمل الكلَّ ، وتُعين على نوائب الدهر ، والله لا يخزيك الله أبداً »[(١)] .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها . ومعنى « تحمل الكل » أى : تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال . و « تكسب المعدوم » أى : تستفيد المال المعدوم وقد كان النبى ﷺ محظوظاً فى تجارته . « تقرى الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » حادثات الأيام . انظر : شرح النووى على مسلم (٥٦١/٢) وفتح البارى للعسقلانى (١٢٤/١) .

ولما علم الصِّدِّيق بحادثة الإسراء والمعراج بادر بالتصديق ، ولم يتردد ، ولما سُئل عن ذلك قال : إننا نصدقه فى الأمر يأتى من السماء فكيف لا نصدقه فى هذه ، فإنْ كان قال فقد صدق .

إذن : فمقياس الصدق لديه أن يقول رسول الله ؛ لذلك استحق الصِّديق هذا اللقب عن جدارة ، حتى إن رسول الله ﷺ ليقول فى حقه : « كنتُ أنا وأبو بكر فى الجاهلية كفرسى رهان ـ يعنى : فى خصال الخير ـ فسبقتُه إلى النبوة فاتبعنى ، ولو سبقنى لاتبعته » .

هذه كلها معانٍ نفهمها من قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ .. (١٠٦)﴾ [الشعراء]

وهذا معنى قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨)﴾ [التوبة] فهذه من حكمة الله فى الرسل ، وعجيب أن يقول أهل العناد من القوم : نريد ملكاً رسولاً ، وأن يقفوا من رسول الله موقف العداء ، وكان يجب عليهم على الأقل أن يُمكِّنوه من دعوته ، ويُمكِّنوا عقولهم من أنْ تفهم لا أن تدخل فى الأمر على هوى سابق .

فالذى يتعب الناس فى استقبال الحق أن تكون قلوبهم مشغولة بباطل ، والحق لا يجتمع مع الباطل ولا يضمهما محلٌّ واحد ؛ لذلك إذا أردت أن تبحث فى مسألة ، فعليك أنْ تُخرِج من قلبك الباطل أولاً ، ثم حكِّم عقلك فى الأمر ، واستفتِ قلبك فما سمح به فأدخله .

وهذه نراها حتى فى الماديات ، فالحيز الواحد لا يسع شيئين أبداً ، يقولون : عدم تداخل ، كما لو ملأت قارورة بالماء مثلاً ، فقبل أن يدخل الماء لا بُدَّ أنْ يخرج الهواء ، فنراه على شكل فقاعات .

لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١) ﴾ [المؤمنون]

ولك أن تلاحظ مثلاً زجاجة (الكولونيا) ذات الثُّقْب الضيق إذا وضعْتها فى الماء ، لا يمكن أن يدخلها الماء ، لماذا ؟ لأن ثقبها ضيق ، لا يسمح بخروج الهواء أو دخول الماء .

ولأمر ما سُمِّى الهوى من الهواء ، فكما أن الهواء الذى نُحسُّه لو أتى من ناحية واحدة لمبنى أو جبل مثلاً لانهدم إلى الناحية الأخرى ، لماذا ؟ لأن الهواء هو الذى يتولَّى حفْظ توازن هذه المبانى العالية وناطحات السحاب التى نراها ، يحفظ توازنها حين يحيط بها من كل جهاتها ، فإنْ فرّغتَ الهواء من إحدى الجهات انهدم المبنى فى نفس هذه الجهة .

والهواء من القوى العظيمة التى يستخدمها الإنسان ويُحوِّلها إلى طاقة ، وانظر مثلاً إلى قوة تفريغ الهواء وما تُحدِثه من هزة عنيفة ، أو إلى الحاويات والشاحنات العملاقة التى تسير على الهواء فى عجلاتها ، وكذلك الهوى إنْ كان فى الباطل كان قوياً ومدمراً ، ومن هذا المعنى سُمِّى السقوط هويّا ، تقول : هَوَى الشىء يعنى : سقط .

وقوله : ﴿ أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦) ﴾ [الشعراء] هذه الكلمة جاءت على لسان كل الرسل أو يقولها الرسول أوّلَ ما يبعث ، ومعناها : اتقوا الله و (ألاَ) أداة للحضِّ والحثِّ على الفعل . كما تقول للولد المهمل : ألاَ تذاكر أو هَلاَّ تذاكر .

وحين نحلل أسلوب الحضِّ أو الحثِّ نجد أنه يأتى على صورة التعجب من نفى الفعل ، كما تقول للولد الذى لا يصلى وتريد أن تحثَّه على الصلاة : ألا تصلى ؟ استفهام بالنفى وعندها يستحى الولد أن يقولها ، لكن حين تستفهم بالإثبات : أتصلى ؟ يقولها بفخر : نعم .

إذن : معنى الحثّ : تعجُّب من ترْك الفعل وإنكار يحمل معنى الأمر .

فمعنى : ﴿أَلا تَتَّقُونَ (١٠٦)﴾ [الشعراء] أنكِر عليكم ألاَّ تكونوا متقين ، والمراد : أطلب منكم أن تكونوا متقين ، وما دُمْت قد أنكرت النفى فلا بُدَّ أنك تريد الإثبات .

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧)﴾

وقوله تعالى : ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧)﴾ [الشعراء] فإنْ كانت عندكم غفلة فقد رَحم الله غفلتكم ، ونبَّهكم برسول أمين يَعظكم ويعلّمكم ويُبلّغكم منهج الله ، وهو أمين لن يغشّكم فى شىء حتى لا تقولوا : إنَّا كنَّا غافلين .

وما دُمْت أنا مرسلاً من الله إليكم ، وأميناً عليكم وعلى دعوتى ، فاسمعوا منى ؛ لذلك كرَّر الأمر بالتقوى :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨)﴾

وكأنه يتصالح معهم ، فيُخفف من أسلوب النُّصْح ، ويأتى بالأمر صريحاً بعد أن أتى به فى صورة إنكار ألاَّ يكونوا متقين . وثمرة التقوى طاعة الأوامر واجتناب النواهى ، وهذه لا نعرفها إلا من الرسول حامل المنهج ومُبلِّغ الدعوة والأمين عليها .

وقد ترددتْ هذه الآية على السنة كثير من رسل[1] الله : ﴿إِنِّي

(١) وردت هذه الآية ٦ مرات ، خمس منها فى سورة الشعراء : (آية ١٠٧ فى حق نوح) (آية ١٢٥ فى حق هود) ، (آية ١٤٣ فى حق صالح) ، (آية ١٦٢ فى حق لوط) ، (آية ١٧٨ فى حق شعيب) ، والآية السادسة فى سورة الدخان (آية ١٨ فى حق موسى) .

لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) ﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) ﴾

هذه العبارة ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ .. (١٠٩) ﴾ [الشعراء] لم نسمعها على لسان إبراهيم عليه السلام ، ولا على لسان موسى عليه السلام ، فأول مَنْ قالها نوح عليه السلام ، وكوْنك تقول لآخر : أنا لا أسألك أجْراً على هذا العمل ، فهذا يعنى أنك تستحق أجراً على هذا العمل ، وأنت غير زاهد فى الأجر ، إنما إنْ أخذته من المنتفع بعملك ، فسوف يُقوِّمه لك بمقاييسه البشرية ؛ لذلك من الأفضل أن تأخذ أجرك من الله .

فكأن نوحاً عليه السلام يقول : أنتم أيها البشر لا تستطيعون أن تُقوِّموا ما أقوم به من أجلكم ؛ لأننى جئتكم بمنهج هداية يُسعدكم فى الدنيا ، ويُنجيكم فى الآخرة ، وأنتم لن تُقوِّموا هذا العمل ، وأجرى فيه على الله ؛ لأنكم تُعطون على قَدْر إمكاناتكم وعلمكم .

وسبق أنْ حكيْنَا لكم قصة الرجل الذى قابلناه فى الجزائر ، وكان رجلاً تبدو عليه علامات الصلاح ، وقد أشار لنا لنقف بسيارتنا ونحمله معنا ، فلما توقفنا ليركب معنا مالَ إلى السائق ، وقال (على كم) يعنى : الأجرة فقال له الرجل ، وكان المحافظ : نُوصلك لله ، فقال (غلّتها يا شيخ) . نعم ، إنْ كان الأجر على الله فهو غَالٍ .

وفى آية أخرى يقول تعالى : ﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) ﴾ [الطور]

ثم يقول : ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠٩﴾ [الشعراء] إنْ هنا بمعنى ما النافية ؛ لأنه تعالى القادر على أن يُكافئنى على دعوتى ، فهو الذى أرسلنى بها ، وهو سبحانه رب العالمين الذى تبرع بالخَلْق من عدم ، وبالإمداد من عدم ، وخلق لى ولكم الأرزاق ، وهذا كله لصالحكم ؛ لأنه سبحانه لا ينتفع من هذا بشىء .

والربوبية تقتضى عناية ، وتقتضى نفقة وخلقاً وإمداداً ، فصاحب كل هذه الأفضال والنعم هو الذى يعطينى أجرى .

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠﴾

بعد أن بيَّن لهم كرم الربوبية فى مسألة الأجر على الدعوة وأعطاهم ما يشجعهم على التقوى وعلى الطاعة ؛ لأنهم سينتفعون برسالة الرسول دون أجر منهم . ومعنى ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١١٠﴾ [الشعراء] أى : ليست لى طاعة ذاتية ، إنما أطيعونى ؛ لأنى رسول من قِبَل الله تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه حاكياً ردَّهم على نوح عليه السلام :

﴿۞ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ۝١١١﴾

الأَرْذَلُونَ : جمع أرذل ، وهو الردىء من الشىء . ورُذَال الفاكهة : المعطوب منها وما نسميه (نقاضة) والاستفهام هنا للتعجب : كيف نؤمن لك ونحن السادة ، والمؤمنون بك هم الأرذلون ؟

يقصدون الفقراء وأصحاب الحِرَف والذين لا يُؤْبَه بهم ، وهؤلاء عادة هم جنود الرسالة ؛ لأنهم هم المطحونون من المجتمع الفاسد ، وطبيعى أن يتلقفوا مَنْ يعدل ميزان المجتمع .

وفى آية أخرى : ﴿مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا .. (٢٧)﴾ [هود]

وقولهم : ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ .. (١١١)﴾ [الشعراء] دليل على عدم فهمهم لحقيقة الإيمان ؛ لأنه لم يقُلْ لهم : آمنوا بى ، إنما آمنوا بالله .

أو : أن المعنى ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ .. (١١١)﴾ [الشعراء] أى : نُصدِّقك فمن معانى آمن أى : صدَّق ، كما فى قوله تعالى : ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ .. (٨٣)﴾ [يونس] أى : صَدَّق به ، وآمن تكون بمعنى صَدَّق إذا جاءت بعدها اللام ، فإنْ جاء بعدها الباء فهى بمعنى الإيمان[1] .

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ[2] (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣)﴾

يعنى : ما دام الحساب على ربى وهم يريدون الإيمان ، فلا بُدَّ أنْ يأخذوا جزاءهم وافياً ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ[3] (١١٣)﴾ [الشعراء]

---

(١) قال تعالى ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣)﴾ [الزمر] وقال : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦)﴾ [الليل] .

(٢) أى : لم أكلَّف العلم بأعمالهم ، إنما كُلِّفت أن أدعوهم إلى الإيمان ، والاعتبار بالإيمان لا بالحرف والصنائع ، وكأنهم قالوا : إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً فى العزة والمال ، فقال : إنى لم أقف على باطن أمرهم وإنما إلىَّ ظاهرهم . [تفسير القرطبى ٧/ ٥٠٠٠] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٠٠٠) : « قراءة العامة « تشعرون » بالتاء على المخاطبة للكافر وهو الظاهر . وقرأ ابن أبى عبلة ومحمد بن السميقع « لو يشعرون » بالياء كأنه خبر عن الكفار وترك الخطاب لهم » .

﴿ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٤ ﴾

وقد طلبوا منه أن يطرد هؤلاء المؤمنين من مجلسه ليُجلسهم هم ، وفى آية أخرى قال سبحانه لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ٥٢ ﴾[الانعام]

﴿ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١١٥ ﴾

فمَنْ يسمع إنذارى ، ويسمع بشارتى ، ويأتى مجلسى ، فعلى عينى أرافقه . فالله ما أرسلنى لأخص ذوى الغنى دون الفقراء بمجلسى ، إنما أرسلنى لأبلغكم ما أرسلت به ، فمن أطاعنى فذلك السعيد عند الله ، وإن كان فقيراً .

﴿ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ(١) ١١٦ ﴾

وهكذا أعلنوا الحرب على نبى الله نوح ، يقولون : لا فائدةَ من تحذيرك ، وما زلْتَ مُصراً على دعوتك ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ .. ١١٦ ﴾ [الشعراء] عما تدعيه من الرسالة ، وما تقول به من تقوى الله وطاعته ، وما تفعله من تقريب الأرذلين إلى مجلسك ، لتكوِّن جمهوراً من صغار الناس .

---

(١) الرجم : القتل . وأصله الرمى بالحجارة . والرجم : اللعن والشتم والسب . [لسان العرب ـ مادة : رجم] . قال الثمالى : كل مرجومين فى القرآن فهو القتل إلا فى سورة مريم ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ .. ٤٦ ﴾ [مريم] أى : لأسبنك . وقيل : (من المرجومين) من المشتومين قاله السدى . [تفسير القرطبى ٧/٥٠٠١] .

﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦)﴾ [الشعراء] أي : إذا لم تنته فسوف نرجمك ، إنه تهديد صريح للرسول الذي جاءهم من عند الله يدعوهم إلى الخير في الدنيا والآخرة .

كما قال سبحانه : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

وهذا التهديد منهم لرسول الله يدلُّ على أنهم كانوا أقوياء ، وأصحابَ جاه وبطْش .

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾

تأمل هنا أدب نوح ـ عليه السلام ـ حين يشكو قومه إلى الله ويرفع إليه ما حدث منهم ، كل ما قاله ﴿إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧)﴾ [الشعراء] ولم يذكر شيئاً عن التهديد له بالرجم ، وإعلان الحرب على دعوته ، لماذا ؟ لأن ما يهمه في المقام الأول أن يُصدِّقه قومه ، فهذا هو الأصل في دعوته .

وقوله : ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا .. (١١٨)﴾ [الشعراء] الفتح في الشيء إما : حسياً وإما معنوياً ، فمثلاً الباب المغلَق بقُفْل نقول : نفتح الباب : أي نزيل أغلاقه .

فإنْ كان الشيء مربوطاً نزيل الأشكال ونفكّ الأربطة .

ومن ذلك قوله تعالى في قصة يوسف : ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ .. (٦٥)﴾ [يوسف] أي : أزالوا الرباط عن متاعهم ، هذا هو الفتح الحسيّ .

أما الفتح المعنوى فتنْزيل الأغلاق والأشكال المعنوية ليأتى الخير وتأتى البركة ، كما فى قوله سبحانه : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. (٩٦)﴾ [الأعراف]

وفى آية أخرى : ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ .. (٢)﴾ [فاطر]

والخير الذى يفتح الله به على الناس قد يكون خيراً مادياً ، وقد يكون علْماً ، كما فى قوله تعالى : ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ .. (٧٦)﴾ [البقرة]

أى : من العلم فى التوراة ، يخافون أن يأخذه المؤمنون ، ويجعلوه حجة على أهل التوراة إذا ما كان لهم الفتح والغَلَبة ، فمعنى : ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .. (٧٦)﴾ [البقرة] أى : بما علَّمكم من علم لم يعلموه هم .

وقد يكون الفتح بمعنى الحكم ، مثل قوله سبحانه : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩)﴾ [الأعراف]

ويكون الفتح بمعنى النصر ، كما فى قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١)﴾ [النصر]

ثم يقول نوح عليه السلام : ﴿وَنَجِّنِي .. (١١٨)﴾ [الشعراء] من كيدهم وما يُهدِّدوننى به من الرَّجْم ﴿وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨)﴾ [الشعراء] لأن الإيذاء قد يتعدّاه إلى المؤمنين معه ، وتأتى الإجابة سريعة :

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١١٩)﴾

وقد وردتْ قصة السفينة فى الأعراف ، وفى هود ، ولنوح عليه السلام سورة خاصة هى سورة نوح مثل سورة محمد ؛ ذلك لأن له فى تاريخ الرسالات ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ويستحق أنْ يخصَّه الله تعالى بسورة باسمه .

لذلك عندما يكرر أحد الناس لك الكلام ، ويُعيده عليك ، تقول له (هيَّه سورة) ، فكلام العامة والأميين له أصلٌ من استعمال اللغة .

وفى موضع آخر ذكر الحق - تبارك وتعالى - قصة صُنْع السفينة فى قوله تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ.. (٣٨) ﴾ [هود] وهذا دليل على أنها كانت أول سفينة يصنعها الإنسان ، وقد صنع نوح سفينته بأمر الله ووحيه وتحت عينه تعالى ، وفى رعايته : ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود]

وما كان الله تعالى ليُكلِّفه بصُنْع السفينة ثم يتركه ، إنما تابعه ، حتى إذا ما حدث خطأ نبَّهه إليه من البداية ، كما قال تعالى لسيدنا موسى : ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

وبمثل هذه الآيات نردُّ على الذين يقولون : إن الله تعالى زاول سلطانه فى مُلْكه مرة واحدة فخلق الخَلْق ، ثم ترك القوانين تسيره ، ولو كان الأمر كذلك لوجدنا العالم كله يسير بحركة (ميكانيكية) ، لكن ظواهر الكون وما فيه من معجزات تدلُّ على قيوميته تعالى على خَلْقه.

لذلك يقول لهم : ناموا ملء جفونكم ، فإن لكم رباً لا ينام ، كيف لا وأنت إذا استأجرتَ حارساً لمنزلك مثلاً تنام مطمئناً اعتماداً على أنه يَقظ ؟ وكيف إذا حرسك ربُّك عز وجل الذى لا تأخذه سِنَة ولا نَوْمٌ ؟ وألاَ يدلُّ ذلك على قيوميته تعَالى ؟

هذه القيومية التى تنقضُ العزائم ، وتفسَخ القوانين ، قيومية تقول للنار كونى برداً وسلاماً فتكون ، وتقول للماء : تجمَّد حتى تكون جبلاً فيتجمد ، تقول للحجر : انفلق فينفلق .. ولو كان الأمر (ميكانيكيا) كما يقولون لما حدث هذا ، ولما تخلَّف قانون واحد من قوانين الكون .

والمشحون : الذى امتلأ ، ولم يَبْقَ به مكان خَال ، فكانت السفينة مشحونة بما حمل فيها ، لأنها صُنعَتْ بحساب دقَيق ، لا يتسع إلا لمن كُلِّف نوح بحملهم فى سفينته ، وكانوا ثمانين رجلاً وثمانين امرأة[1] ومن كل حيوان زوجين اثنين .

والفلك المشحون يُطلَق ويُراد به الواحدة ، ويُطلَق ويراد به الجماعة كما فى قوله سبحانه : ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم.. (٢٢)﴾ [يونس]

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ (١٢٠)﴾

وهم الكافرون الذين لم يركبوا معه ، و ﴿بَعْدُ .. (١٢٠)﴾ [الشعراء] أى : بعد ما ركب من ركب ، وبعد ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)﴾ [القمر]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٢١)﴾

والآية : الأمر العجيب الذى يجب الالتفات إليه والاعتبار به ، لكن مَنْ سيعتبر بعد أنْ غرق الباقون ؟ سيعتبر بهذه الآية المؤمنون الذين ركبوا السفينة حين يرونَ نتيجة التكذيب ، ومصير المكذِّبين الكافرين .

---

(١) عن ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم . وعن كعب الأحبار : كانوا اثنين وسبعين نفساً . وقيل : كانوا عشرة . [قاله ابن كثير فى تفسيره ٢/٤٤٥] .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ ﴾

أى : ورغم كُفْرهم وتكذيبهم ، ورغم أنه ما كان أكثرهم مؤمنين ، فالله تعالى هو العزيز الذى يَغْلب ولا يُغْلَب ، وهو سبحانه الرحيم بعباده الذى يتوب على مَنْ تاب منهم .

ثم ينتقل السياق إلى قصة أخرى فى موكب الأمم المكذِّبة :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

وقال هنا أيضاً ﴿الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء] لأن تكذيب رسول واحد تكذيبٌ لكل الرسل ؛ لأنهم جميعاً جاءوا بقواعد وأصول واحدة فى العقائد وفى الأخلاق .

وعاد : اسم للقبيلة ، وكانت القبائل تُنسَب إلى الأب الأكبر فيها ، ولصاحب الشهرة والنباهة بين قومه ، فعاد هو أبو هذه القبيلة ، وقد يُطلَق عليهم بنو فلان أو آل فلان ، ثم يذكر لنا قصتهم ، ومتى كان منهم هذا التكذيب :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

قلنا : إن (ألاَ) للحثِّ والحضِّ ، وحين يُنكِّر النفى ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الشعراء] فإنه يريد الإثبات فكأنه قال : اتقوا . وقال ﴿أَخُوهُمْ .. ﴿١٢٤﴾﴾ [الشعراء] ليرقق قلوبهم ويُحنِّنهم إليه ، وليعرفوا أنه واحد منهم ليس غريباً عنهم ، فهو أخوهم ، والأخ من دأبه النُّصْح والشفقة والرحمة ، وهذا إيناس للخَلْق .

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ ﴾

وهذه المقولة لازمة من لوازم الرسُل فى دعوتهم ، سبق أنْ قالها نوح عليه السلام .

﴿ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

قلنا : إن هذه العبارة أول مَنْ قالها نوح - عليه السلام - ثم سيقولها الأنبياء من بعده . لكن : لماذا لم يقل هذه العبارة إبراهيم ؟ ولم يقُلْها موسى ؟

قالوا : لأن إبراهيم - عليه السلام - أول ما دعا دعا عمه آزر ، فكيف يطلب منه أجْراً ؟ وكذلك موسى - عليه السلام - أول دعوته دعا فرعون الذى ربَّاه فى بيته ، وله عليه فضل وجميل ، فكيف يطلب منه أجراً ، وقد قال له : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء]

لذلك لم تأت هذه المقولة على لسان أحد منهما .

وقال : ﴿ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [الشعراء] لأن الربَّ هو الذى يتولَّى الخَلْق بالبذْل والعطايا والإمداد . وقلنا : إن عدم أخذ الأجر ليس زُهْداً فيه ، إنما طمعاً فى أنْ يأخذ أجره من الله ، لا من الناس .

ثم يتوجّه إليهم ليُصحِّح بعض المسائل الخاصة بهم :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

وهذه خصوصية من خصوصيات قوم هود ، والرِّيع : هو المكان المرتفع ، لذلك بعض الناس يقولون : كم رِيع بنائك ؟ يعنى : ارتفاعه

كم متراً ، فكأن الارتفاع يُثمِّن البقعة ، ويُطلق الريع على الارتفاع فى كل شىء[1] .

وكلمة ﴿آيَةً .. (١٢٨)﴾ [الشعراء] بعد ﴿أَتَبْنُونَ .. (١٢٨)﴾ [الشعراء] تعنى : القصور العالية التى تعتبر آيةً فى الإبداع وجمال العمارة والزخرفة والفخامة والاتساع والرِّفْعة فى العُلُو .

وقال ﴿تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾ [الشعراء] لأنهم لن يخلُدوا فى هذه القصور ، ومع ذلك يُشيِّدونها لتبقى أجيالاً من بعدهم ، فعدّ هذا عبثاً منهم ؛ لأن الإنسان يكفيه أقلّ بناء ليأويه فترة حياته .

أو ﴿تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾ [الشعراء] لأنهم كانوا يجلسون فى شُرفات هذه القصور يصدُّون الناس ، ويصرفونهم عن هود وسماع كلامه ودعوته التى تَلْفتهم إلى منهج الحق .

ونحن لم نَرَ حضارة عاد ، ولم نَرَ آثارهم ، كما رأينا مثلاً آثار الفراعنة فى مصر ؛ لأن حضارة عاد طمرتْها الرمال ، وكانوا بالجزيرة العربية فى منطقة تُسمَّى الآن بالرُّبْع الخالى ؛ لأنها منطقة من الرمال الناعمة التى يصعب السير أو المعيشة بها ، لكن لكى نعرف هذه الحضارة نقرأ قوله تعالى فى سورة الفجر :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨)﴾ [الفجر]

---

(١) فى كلمة الريع أقوال :

– ما ارتفع من الأرض فى قول ابن عباس وغيره .

– الريع : الطريق ، قاله قتادة والضحاك والكلبى ومقاتل والسدى ، وابن عباس أيضاً .

– الريع : الفج بين الجبلين . قاله مجاهد .

– الريع : بنيان الحمام ، دليله « تعبثون » أى : تلعبون ، أى : تبنون بكل مكان مرتفع آية علماً تلعبون بها على معنى أبنية الحمام وبروجها . [تفسير القرطبى ٥٠٠٢/٧ ، ٥٠٠٣] .

وما دامت لم يُخلَق مثلها فى البلاد ، فهى أعظم من حضارة الفراعنة التى نشاهدها الآن ، ويفد إليها الناس من كل أنحاء العالم ليشاهدوا الأهرام مثلاً ، وقد بنيت لتكون مجرد مقابر ، ومع تقدُّم العلم فى عصر الحضارة والتكنولوجيا ، ما زال هذا البناء مُحيِّراً للعلماء ، لم يستطيعوا حتى الآن معرفةَ الكثير من أسراره .

ومن هذه الأسرار التى اهتدَوْا إليها حديثاً كيفية بناء أحجار الأهرام دون ملاط[1] مع ضخامتها ، وقد توصَّلوا إلى أنها بُنيَتْ بطريقة تفريغ الهواء مما بين الأحجار ، وهذه النظرية تستطيع ملاحظتها حين تضع كوباً مُبلّلاً بالماء على المنضدة مثلاً ، ثم تتركه فترةً حتى يتبخر الماء من تحته ، فإذا أردتَ أن ترفعه من مكانه تجده قد لصق بالمنضدة .

وليس عجيباً أنْ تختفى حضارةٌ ، كانت أعظم حضارات الدنيا تحت طبقات الرمال ، فالرمال حين تثور تبتلع كل ما أمامها ، حتى إنها طمرتْ قبيلة كاملة بجمالها ورجالها ، وهذه هبة واحدة ، فما بالك بثورة الرمال ، وما تسفوه الريح طوال آلاف السنين ؟

وأنا واثق من أنهم إذا ما نبشوا هذه الرمال وأزاحوها لوجدوا تحتها أرضاً خصبة وآثاراً عظيمة ، كما نرى الاكتشافات الأثرية الآن كلها تحت الأرض ، وفى فيينا أثناء حفر أحد خطوط المجارى هناك وجدوا آثاراً لقصور ملوك سابقين .

وطالما أن الله تعالى قال عن عاد : ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨)﴾ [الشعراء] فلا بُدَّ أن هناك قصوراً ومبانىَ مطمورة تحت هذه الرمال .

---

(١) ملط الحائط : طلاه . والملاط : الطين الذى يُجعل بين سافَى البناء ويُملط به الحائط . [لسان العرب ـ مادة : ملط] .

﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

المصانع تُطلَق على موارد الماء ، وتطلق على الحصون ، لماذا ؟

قالوا : لأن الحصون لا تُبنَى للإيواء فقط ؛ لأن الإيواء يمنع الإنسان من هوام الحياة العادية ، أمّا الحصون فتمنعه أيضاً من الأعداء الشرسين الذين يتربصون به ، فكأنهم جعلوها صنعة مثمرة ، لماذا ؟

﴿ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : أتبنون هذه الحصون هذا البناء القوى المسلح تريدون الخلود ؟ وهل أنتم مُخلَّدون فى الحياة ؟ إن فترة مُكْث الإنسان فى الدنيا يسيرة لا تحتاج كل هذا التحصين ، فهى كظلٍّ شجرة ، سرعان ما يزول .

﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

والبَطْش : الأَخْذُ بشدة وبعنف ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [البروج] ويقول : ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [القمر]

لأن الأَخْذ يأخذ صُوراً متعددة : تأخذه بلين وبعطف وشفقة ، أو تأخذه بعنف .

ثم يزيدهم صفة أخرى تؤكد بَطْشهم ﴿ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الشعراء]

لأنك قد تأخذ عدوك بعنف ، لكن بعد ذلك يرقُّ له قلبك ، فترحم ذلَّته لك ، فتُهوِّن عليه وترحمه ، لكن هؤلاء جبارون لا ترقّ قلوبهم .

وهذه الصفات الثلاثة السابقة لقوم هود : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الشعراء]

هذه الصفات تخدم صفة التعالى ، وتسعى إلى الوصول إليه وكأنهم يريدون صفة العُلُو التى تُقرِّبهم من الألوهية ؛ لأنه لا أحدَ أعلى من الحق سبحانه ، ثم يريدون أيضاً استدامة هذه الصفة واستبقاء الألوهية : ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ١٢٩﴾ [الشعراء]

وفى صفة البَطْش الشديد والجبارية يريدون التفرُّد على الغير ، والقرآن يقول : ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا .. ٨٣﴾ [القصص]

فإنْ كنتَ تريد أداء الخدمة المنوطة بك فى الحياة ، فعليك أنْ تؤديها ، لا للتَّعالى ؛ لأنك حينئذ ستأخذ حظك من العُلُو والغَلَبة فى دار الدنيا وتنتهى المسألة ، أمَّا إنْ فعلتَ وفى بالك ربُّك ، وفى بالك أنْ تُيسِّر للناس مصالح الحياة ، فإنك تُرقِّى عملك وتُثمِّره ، ويظل لك أجره ، طالما وجد العمل ينتفع الناس به إلى أنْ تقوم الساعة ، وهذا أعظم تصعيد لعمل الإنسان .

ولم يفعل قوم عاد شيئاً من هذا ، إنما طلبوا العُلُو فى الأرض ، وبطشوا فيها جبارين ، لكن أيتركهم ربهم عز وجل يستمرون على هذه الحال ؟

إن من رحمة الله تعالى بعباده أنْ يُذكِّرهم كلما نَسُوا ، ويُوقظهم كلما غفلوا ، فيرسل لهم الرسل المتوالين ؛ لأن الناس كثيراً ما تغفل عن العهد القديم الذى أخذوه على أنفسهم : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ ١٧٢ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ١٧٣﴾ [الأعراف]

وقلنا : إن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يضع المناعة فى خليفته فى

الأرض ، ويعطيه المنهج الذى يصلحه ، لكنه قد يغفل عن هذا المنهج أو تغلبه نفسه ، فينحرف عنه ، والإنسان بطبيعته يحمل مناعةً من الحق ضد الباطل وضد الشر ، فإنْ فسدَتْ فيه هذه المناعة فعلى الآخر أن يُذكِّره ويُوقظ فيه دواعي الخير . ومن هنا كان قوله تعالى : ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾ [العصر]

فإنْ وجدتَ أخاك على باطل فخُذْ بيده إلى الحق .

ومعنى ﴿ وَتَوَاصَوْا .. ۝٣ ﴾ [العصر] أى : تبادلوا التوصية ، فكل منكم عُرْضة للغفلة ، وعُرْضة للانحراف عن المنهج ، فإنْ غفلتُ أنا توصينى ، وإنْ غفلتَ أنت أوصيك ، وهذه المناعة ليست فى الذات الآن ، إنما فى المجتمع المؤمن ، فمنْ رأى فيه اعوجاجاً قوَّمه .

لكن ما الحال إنْ فسدت المناعة فى الفرد وفسدَتْ فى المجتمع ، فصار الناس لا يعرفون معروفاً ، ولا يُنكِرون منكراً ، كما قال تعالى عن بنى إسرائيل :

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ .. ۝٧٩ ﴾ [المائدة]

وعندها لا بد أن يرسل رب العزة سبحانه برسول جديد ، ومعجزة جديدة تُوقظ الناس ، وتعيدهم إلى جادة ربهم .

ومن شرف أمة محمد ﷺ أن الله تعالى جعل المناعة فى ذات نفوسها ، فجعلهم الله توابين ، إنْ فعل أحدهم الذنب تاب ورجع ، وإنْ لم يرجع وتمادى ردَّه المجتمع الإيمانى وذكَّره .

وهذه الصفة ملازمة لهذه الأمة إلى قيام الساعة ، كما ورد فى الحديث : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1] .

---

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) : « قال (السخاوى) فى المقاصد (الحسنة) : قال شيخنا (ابن حجر العسقلانى) : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . يعنى فى حديث : لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق إلى أن تقوم الساعة . وقال ابن حجر المكى فى الفتاوى الحديثية : لم يرد بهذا اللفظ » .

لذلك لن يأتى فيها رسول بعد رسول الله ﷺ ؛ لأن المناعة ملازمة لها فى الذات ، وفى النفس اللوامة ، وفى المجتمع الإيمانى الذى لا يُعدم فيه الخير أبداً .

لذلك يقول سبحانه : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ .. (١١٠)﴾ [آل عمران]

وهذه صفة تفردتْ بها هذه الأمة عن باقى الأمم ؛ لذلك يقول هود ـ عليه السلام ـ مُذكّراً لقومه ومُوقظاً لهم :

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١)﴾

أى : أن ربكم ـ عز وجل ـ لم يتركك على ما أنتم عليه من الضلال تعبثون بالآيات ، وتتخذون مصانع تطلبون الخلود ، وأنكم بطشتم جبارين ، وها هو يدعوكم : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١)﴾ [الشعراء] فتقوى الله تعالى وطاعته كفيلة أنْ تُذهب ماضيكم وتمحو ذنوبكم ، بل وتُبدّله خيراً وصلاحاً ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤)﴾ [هود]

وأنا حين أوصيكم بتقوى الله وطاعته ، لا أوصيكم بهذا لصالحى أنا ، فلا أقول لكم : اتقونى أو أطيعونى ولن أنتفع من طاعتكم بشىء . كذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ غنى عنكم وعن طاعتكم ؛ لأن له سبحانه صفات الكمال المطلق قبل أن يخلق الخَلْق ، فهو سبحانه متصف بالخَلْق قبل أن يخلق ، وبالقدرة قبل أن يُوجَد المقدور عليه .. إلخ .

إذن : فوجودكم لم يَزِدْ شيئاً فى صفاته تعالى ، وما كانت الرسالات إلا لمصلحتكم أنتم ، فإذا لم تطيعوا أوامر الله ، وتأخذوا منهجه ، لأنه يفيدكم فأطيعوه جزاءَ ما أنعم عليكم من نِعَم لا تُعدُّ ولا تُحصَى ، فالإنسان طرأ على كون أُعِدَّ لاستقباله وهُيِّىء لمعيشته ،

وخلق له الكون كله : سماءً ، فيها الشمس والقمر والنجوم والسحاب والمطر ، وأرضاً فيها الخصب والماء والهواء . هذا كله قبل أن تُوجَد أنت ، فطاعتك لله - إذن - ليست تفضُّلاً منك ، إنما جزاء ما قدَّم لك من نِعَم .

وعجيب أن ترىٰ هذه المخلوقات التي جُعلَتْ لخدمتك أطول عمراً منك ، فالإنسان قد يموت يوم مولده ، وقد يعيش عدة أيام أو عدة سنوات ، أمّا الشمس مثلاً فعمرها ملايين السنين ، وهى تخدمك دون سلطان لك عليها ، ودون أن تتدخل أنت فى حركتها .

ثم يقول تعالى :

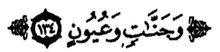
﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

لم تعدد الآية ما أمدنا الله به ، وتركتْ لنا أن نُعدِّده نحن ؛ لأننا نعرفه جيداً ونعيشه ، وندركه بكل حواسِّنا ومداركنا ، فما من آلة عندك إلا وتحت إدراكها نعمة لله ، بل عدة نِعَم ، فالعين ترى المناظر ، والأذن تسمع الأصوات ، والأنف يشم الروائح ، واليد تبطش .. إلخ .

﴿ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الشعراء] فقولوا أنتم واشهدوا على انفسكم وعَدِّدوا نِعَم ربكم عليكم .

﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

المراد بالأنعام : الضأن والماعز والإبل والبقر ، ثمانية أزواج .


﴿ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾

فإنْ قلت : فنحن نمرُّ بديارهم ، فلا نرى إلا خلاءً تسفُو فيه الرياح ، نعم لقد كانت لهم جنات وعيون هى الآن تحت أطباق التراب ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[1] ﴿٩٨﴾ ﴾ [مريم]

﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ ﴾

أى : أن تقوى الله وطاعته لا تعَدُّ شكراً على نعمه فحسب ، إنما أيضاً تكون لكم وقاية من عذاب الآخرة ، فلا تظنوا أنكم أخذتُم نعَم الله ، ثم بإمكانكم الانفلات منه أو الهرب من لقائه ، فلقاؤه حق لا مفرَّ منه ، ولا مهرب ، فإنْ لم تَخَفْ السابق من النعم ، فخَفِ اللاحق من النِّقَم .

فماذا كان ردّهم على مقالة نبيِّهم وموعظته لهم ؟

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

وقولهم ﴿ أَوَعَظْتَ .. ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الشعراء] دليل على أن الحق لا بُدَّ أن يظهر ، ولو على ألسنة المكابرين ، ولا يكون الوعظ إلا لمَنْ علم حكماً ، ثم تركه ، فيأتى الواعظ ليُذكِّره به ، فهو - إذن - مرحلة ثانية بعد التعليم ، فهذا القول منهم اعتراف ودليل أنهم علموا المطلوب منهم ، ثم غفلوا عنه .

وهؤلاء يقولون لنبيهم ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : أرح نفسك ، فسواء علينا وعظُك وعدم وعظِك ، ونلحظ أنهم قالوا : ﴿ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [الشعراء]

---

(١) الركز : الصوت الخفى . [القاموس القويم ١/٢٧٥] . والركز : صوت الإنسان تسمعه من بعيد نحو : ركز الصائد إذا ناجى كلابه . [لسان العرب - مادة : ركز] .

ولم يقولوا مثلاً : سواء علينا أوعظتَ أم لم تَعِظْ ؛ لأن نفى الوَعْظ يُثبت له القدرة عليه .

إنما ﴿لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ (١٣٦)﴾ [الشعراء] يعنى : امتنع منك الوعظ نهائياً ، وكأنهم لا يريدون مسألة الوعظ هذه أبداً ، حتى فى المستقبل لن يسمعوا له .

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ (١٣٧)﴾

إنْ : بمعنى ما النافية ، يعنى : ما هذا الذى جئتَ به إلا ﴿خُلُقُ..(١٣٧)﴾ [الشعراء] الأولين يعنى : عادة مَنْ سبقوك واختلاقهم ، يقصدون الرسل السابقين ، كما قالوا : ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)﴾ [النمل]

وقالوا : ﴿مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥)﴾ [يس]

فوصفوا نبيهم ، ومَنْ سبقوه من الرسل بالكذب والاختلاق وإيجاد شىء لم يكن موجوداً .

والخُلُق : صفة ترسخ فى النفس تصدر عنها الأفعال بيُسْر وسهولة ، والصفات التى يكتسبها الإنسان لا تعطى مهارة من أول الأمر ، بل تعطى مهارة بعد الدُّرْبة عليها ، فتصير عند صاحبها كالحركة الآلية لا تحتاج منه إلى مجهود أو معاناة .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالصبى الذى يتعلم مثلاً الحياكة ، وكم يعانى ويضربه معلمه فى سبيل تعلُّم لضم الخيط فى الإبرة ، حتى إذا ما تعلمها الصبى وأجادها تراه فعل ذلك تلقائياً ، ودون مجهود وربما وهو مُغْمض العينين .

وأنت حينما تتعلم قيادة السيارة مثلاً لأول مرة ، كم تعانى وتقع فى أخطاء وأخطار ؟ لكن بعد التدريب والدُّرْبة تستطيع قيادتها بمهارة ، وكأنها مسألة آلية ، وكذلك الخُلُق المعنوى ، مثل هذه الدُّرْبة والآلية فى الماديات .

إذن : ﴿خُلُقُ الأَوَّلِينَ (١٣٧)﴾ [الشعراء] يعنى : دعوى ادعوْهَا جميعاً - أى : الرسل .

وفى قراءة أخرى[1] تُوجه للمرسل إليهم بفتح الخاء وسكون اللام (خَلْق) أى : اختلاق والمعنى : نحن كمن سبقونا من الأمم لا نختلف عنهم : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣)﴾ [الزخرف]

وهؤلاء السابقون قالوا : ﴿مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤)﴾ [الجاثية]

فهذه الصفة أصبحت عندنا ثابتة متأصِّلة فى النفس ، فلا تحاول زحزحتنا عنها ، فالمراد : نحن مثل السابقين لا نؤمن بمسألة البعث ، فأرح نفسك ، فلن يجدىَ معنا وعْظُك .

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (١٣٨)﴾

يقولونها صريحة ردّاً على قوله : ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾

---

(١) هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو والكسائى . وقال الهروى : أى اختلاقهم وكذبهم . والعرب تقول : حدثنا فلان بأحاديث الخَلْق أى بالخرافات والأحاديث المفتعلة . [تفسير القرطبى ٥٠٠٥/٧] .

وكانت السماء قبل محمد ﷺ تجعل الرسول يُدلى بمعجزته ، أو يقول بمنهجه ، لكن لا تطلب منه أن يُؤدِّب المعاندين والمعارضين له إنما تتولَّى السماء عنه هذه المهمة فتُوقع بالمكذبين عذابَ الاستئصال .

وقد أمنَتْ أمة محمد ﷺ من عذاب الاستئصال ، فمَنْ كفر برسالة محمد ﷺ لا يأخذه الله كما أخذ المكذِّبين من الأمم السابقة ، إنما يقول سبحانه : ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ .. (١٤) ﴾ [التوبة]

وكلمة ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ .. (١٣٩) ﴾ [الشعراء] كلمة صادقة ، لها دليل فى الوجود نراه شاخصاً ، كما يقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) ﴾ [الفجر]

نعم ، كانت لهم حضارة بلغتْ القمة ، ولم يكُنْ لها مثيل ، ومع هذا كله ما استطاعت أنْ تصون نفسها ، وأخذها الله أَخْذ عزيز مقتدر.

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا .. (٥٢) ﴾ [النمل]

أى : أنها شاخصة أمامكم تروْنها وتمرُّون عليها ، وأنتم لم تبلغوا مبلغَ هذه الحضارة ، فإذا كانت حضارتهم لم تمنعهم من أَخْذ الله العزيز المقتدر ، فينبغى عليكم أنْ تتنبهوا إلى أنكم أضعف منهم ، وأن ما حاق بالكافرين وما نزل بالمكذِّبين ليس ببعيد عن أمثالهم من الأمم الأخرى .

لذلك تجد الحضارات التى تُتوَارث فى الكون كلها آلتْ إلى زوال ،

ولم نجد منهـا حضارة بـقيتْ من البداية إلى النهـاية ، ولو بُنِيَتْ هذه الحضـارات على قيم ثابتة لكان فيها المناعة ضِد الزوال .

وقـوله تعـالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً .. (١٣٩)﴾ [الشـعـراء] أى : فى إهلاك هذه الحـضــارة لأمـر عظيم ، يَلفت الأنظار ، ويدعـو للتـأمل : ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٣٩)﴾ [الشعراء]

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)﴾

قال ﴿رَبَّكَ .. (١٤٠)﴾ [الشعراء] ولم يقُلْ ربهم ؛ لأن منزلة المربِّى تعظم فى التربية بـمقدار كمال المربِّى ، فكـأنه تعالى يقول : أنا ربُّك الذى أكملت تربيتك على أحسن حال ، فَمَنْ أراد أنْ يرى قدرة الربوبية فليرها فى تربيـتك أنت ، والمربِّى يبلغ القـمة فى التربيـة إنْ كان مَنْ ربَّاه عظيماً .

لذلك يقول ﷺ : « أدَّبنى ربى فأحسن تأديبى »[(١)] .

إذن : فمن عظمة الحق ـ تبارك وتعـالى ـ أنْ يُعطى نموذجاً لدقَّة تربيته تـعالى ولعظمة تكوينه ، ولما يصنعـه على عَيْنه تعالى بمـحمد ﷺ ، فكأنه ﷺ أكرمُ مخلـوق مُربًّى فى الأرض ؛ لذلك قال ﴿رَبَّكَ .. (١٤٠)﴾ [الشعراء] ولم يقل : ربهم مع أن الكلام ما يزال مُتعلقاً بهم .

وقوله تعالى : ﴿لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٤٠)﴾ [الشعراء] العزيز قلنا : هو الذى يَغْلب ولا يُغْلَب ، لكن لا تظن أن فى هذه الـصفة جـبروتاً ؛ لأنه تعالـى أيضاً رحيم ، ومن عظمـة الأسلوب القرآنى أن يجـمع بين هاتين الصفتين : عزيز ورحيم وكأنه يشير لنا إلى مبدأ إسلامى يُربِّى

(١) قال العجلونى فى كشف الخفاء (١/٧٢) : « قـال ابن تيمية : لا يُعرف له إسناد ثابت ، لكن قال (السيـوطى) فى الدرر : صححه أبو الفضل بن ناصر . وقـال (السيوطى) فى اللآلىء : معناه صحيح لكن لم يأت من طريق صحيح » .

الإسلام عليه اتباعه ، ألا وهو الاعتدال فلا تطغى عليك خصلة أو طبْع أو خُلُق ، والزم الوسط ؛ لأن كل طبْع فى الإنسان له مهمة .

وتأمل قول الله تعالى فى صفات المؤمنين :

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. (٥٤)﴾ [المائدة]

فالمسلم ليس مجبولاً على الذلّة ولا على العزة ، إنما الموقف هو الذى يجعله ذليلاً ، أو يجعله عزيزاً ، فالمؤمن يتصف بالذلّة والخضوع للمؤمنين ، ويتصف بالعزّة على الكافرين .

ومن ذلك أيضاً : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩)﴾ [الفتح]

ومعلوم أن الرحمة فى غير موضعها ضَعْف وخَوَر ، فمثلاً الوالد الذى يرفض أن يُجرى لولده جراحة خطرة فيها نجاته وسلامته خوفاً عليه ، نقول له : إنها رحمة حمقاء وعطف فى غير محلّه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١)﴾

بعد أن ذكر طرفاً من قصة إبراهيم وموسى ونوح وهود عليهم السلام ذكر قصة ثمود قوم صالح عليه السلام ، وقد تكررتْ هذه اللقطات فى عدة مواضع من كتاب الله ؛ ذلك لأن القرآن فى علاجه لا يعالج أمةً واحدة فى بيئة واحدة بخُلق واحد ، إنما يعالج عالماً مختلف البيئات ومختلف الداءات ومختلف المواهب والميول .

فلا بُدَّ أن يجمع الله له الرسل كلهم ، ليأخذ من كل واحد منهم لقطة ؛ لأنه سيكون منهجاً للناس جميعاً فى كُلِّ زمان وفى كُلِّ مكان ،

أمّا هؤلاء الرسل الذين جمعهم الله فى سياق واحد فلم يكونوا للناس كافة ، إنما كل واحد منهم لأمة بعينها ، ولقابل واحد فى زمن مخصوص ، ومكان مخصوص .

لقد بُعث محمد ﷺ ليكون رسولاً يجمع الدنيا كلها على نظام واحد ، وخُلق واحد ، ومنهج واحد ، مع تباين بيئاتهم ، وتباين داءاتهم ومواهبهم . إذن : لا بُدَّ أن يذكر الحق - تبارك وتعالى - لرسوله ﷺ طرفاً من سيرة كل نبى سبقه .

لذلك قال سبحانه : ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠)﴾ [هود]

ورسول الله ﷺ لم يكُنْ فى حاجة لأن يُثبِّت الله فؤاده مرة واحدة ، إنما كلّما تعرّض لموقف احتاج إلى تثبيت ، فيُثبّته الله ، يقول له : تذكّر ما كان من أمر إبراهيم ، وما كان من أمر نوح وهود ... إلخ فكان تكرار القصص لتكرار التثبيت ، فالقصة فى القرآن وإنْ كانت فى مجموعها مكررة ، إنما لقطاتها مختلفة تؤدى كُلٌّ منها معنى لا تؤديه الأخرى .

وهنا يقول سبحانه كما قال عن الأمم السابقة : ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١)﴾ [الشعراء] لأن الرسل جميعاً إنما جاءوا بعقيدة واحدة ، لا يختلف فيها رسول عن الآخر ، وصدروا من مصدر واحد ، هو الحق تبارك وتعالى ، ولا يختلف الرسل إلا فى المسائل الاجتماعية والبيئية التى تناسب كلاً منهم .

لذلك يقول تعالى : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ .. (١٦٣)﴾ [النساء]

وقال تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا

إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تتفرَّقُوا فِيهِ .. ﴿١٣﴾ [الشورى]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ ﴾

قال هنا أيضاً : ﴿ أَخُوهُمْ .. ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الشعراء] ليرقِّق قلوبهم ويُحنِّنها على نبيهم ﴿ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الشعراء] قلنا : إنها استفهام إنكارى . تعنى : اتقوا الله ، ففيها حَثٌّ وحَضٌ على التقوى ، فحين تُنكر النفى ، فإنك تريد الإثبات .

ولما كانت التقوى تقتضى وجود منهج نتقى الله به ، قال : ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الشعراء] وما دُمْتُ أنا رسول أمين لن أغشّكم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الشعراء] وكرر الأمر بالتقوى مرة أخرى ، وقرنها بالطاعة .

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

فكأن العمل الذى أقدمه من أجلكم ـ فى عُرْف العقلاء ـ يستحق أجراً ، فالعامل الذى يعمل لكم شيئاً جزئياً من مسائل الدنيا يزول وينتهى يأخذ أجراً عليه ، أما أنا فأقدِّم لكم عملاً يتعدَّى الدنيا إلى الآخرة ، ويمدّ حياتك بالسعادة فى الدنيا والآخرة ، فأجْرى ـ إذن ـ كبير ؛ لذلك لا أطلبه منكم إنما من الله .

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

يريد أن يُوبِّخهم : أتظنون أنكم ستخلُدون فى هذا النعيم ، وأنتم آمنون ، أو أنكم تأخذون نِعَم الله ، ثم تفرُّون من حسابه ، كما قال سبحانه :

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [المؤمنون]

.فمَنْ ظن ذلك فهو مخطىء قاصر الفهم ؛ لأن الأشياء التى تخدمك فى الحياة لا تخدمك بقدرة منك عليها ، فأنت لا تقدر على الشمس فتأمرها أنْ تشرق كل يوم ، ولا تقدر على السحاب أن ينزل المطر ، ولا تقدر على الأرض أن تعطيها الخصوبة لتنبت ، ولا تقدر على الهواء الذى تتنفسه .. إلخ وهذه من مُقوِّمات حياتك التى لا تستطيع البقاء بدونها .

وكان من الواجب عليك أن تتأمل وتفكر : مَن الذى سخَّرها لك ، وأقدرك عليها ؟ كالرجل الذى انقطع فى الصحراء وفقد دابته وعليها طعامه وشرابه حتى أشرف على الهلاك ، ثم أخذته سِنَة أفاق منها على مائدة عليها أطايب الطعام والشراب ، بالله ، أليس عليه قبل أنْ تمتد يده إليها أنْ يسأل نفسه : مَنْ أعدَّ لى هذه المائدة فى هذا المكان ؟

كذلك أنت طرأتَ على هذا الكون وقد أُعدَّ لك فيه كل هذا الخير ، فكان عليك أن تنظر فيه ، وفيمَنْ أعدّه لك . فإذا جاءك رسول من عند الله ليحلَّ لك هذا اللغز ، ويخبرك بأن الذى فعل كل هذا هو الله ، وأن من صفات كماله كذا وكذا ، فعليك أن تُصدِّقه .

لأنه إما أن يكون صادقاً يهديك إلى حَلّ لغز حار فيه عقلك ، وإما هو كاذب ـ والعياذ بالله وحاشا لله أن يكذب رسول الله على الله

- فإن صاحب هذا الخلق عليه أن يقوم ويدافع عن خَلْقه .

ويقول : هذا الرسول مُدَّعٍ وكاذب ، وهذا الخَلْق لى . فإذا لم يقُمْ للخَلْق مُدَّعٍ فقد ثبتتْ القضية لله تعالى إلى أنْ يظهر مَنْ يدَّعيها لنفسه .

﴿ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الشعراء] امتداد للآية السابقة ، يعنى : لا تظنوا أن هذا يدوم لكم . و (جنات) : جمع جنة ، وهى المكان الملىء بالخيرات ، وكل ما يحتاجه الإنسان ، أو هى المكان الذى إنْ سار فيه الإنسان سترتْه الأشجار ؛ لأن جنَّ يعنى ستر . كما فى قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [الأنعام] أى : ستره .

ومنه الجنون . ويعنى : ستْر العقل . وكذلك الجنة ، فهى تستر عن الوجود كله ، وتُغنيك عن الخروج منها إلى غيرها ، ففيها كل ما تتطلبه نفسك ، وكل ما تحتاجه فى حياتك .

ومن ذلك ما نسميه الآن (قصراً) لأن فيه كل ما تحتاجه بحيث يقصرك عن المجتمع البعيد .

وقال بعدها : ﴿ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الشعراء] لأن الجنة تحتاج دائماً إلى الماء ، فقال ﴿ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [الشعراء] ليضمن بقاءها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ ﴾

النخل من الزروع ، لكن خصَّ النخل بالذِّكْر ، لأن رسول الله ﷺ اهتم به ، وشبَّهه بالمؤمن فى الحديث : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها »[1] قال الراوى : فوقع الناس فى شجر البوادى ،

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١ ، ٩ مواضع أخرى) وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١١) كتاب صفات المنافقين ، وأحمد فى مسنده (٢/٦١ ، ١٢٣) من حديث عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما .

ولم يهتدوا إليها ، فلما خرج عمر وابنه عبد الله قال : يا أبى ، لقد وقع فى ظنى أنها النخلة ؛ لأنها مثل المؤمن كل ما فيه خير .

نعم لو تأملتَ النخلة لوجدتَ أن كل شيء فيها نافع ، وله مهمة ، وينتفع الزارع به ، ولا يُلْقَى منها شيء مهما كان بسيطاً . فالجذوع تُصنع منها السوارى والأعمدة ، وتُسقف بها البيوت قبل ظهور الخرسانة ، ومن الجريد يصنعون الأقفاص ، والجزء المفلطح من الجريدة ويسمى (القحف) والذى لا يصلح للأقفاص كانوا يجعلونه على شكل معين ، فيصير (مقشّة) يكنسون بها المنازل .

ومن الليف يصنعون الحبال ، ويجعلونه فى تنجيد الكراسى وغيرها ، حتى الأشواك التى تراها فى جريد النخل خلقه الله لحكمة وبقدَر ؛ لأنها تحمى النخلة من الفئران أثناء إثمارها ، والليف الذى ينمو بين أصول الجريد جعله الله حماية للنخلة ، وهى فى طور النمو ، وما تزال غَضَّة طرية ، فلا يحمى بعضها على بعض .

إذن : هى شجرة خيِّرة كالمؤمن ، وقد تم أخيراً فى أحد البحوث أن أخذوا الجزء الذى يسمى بالقحف ، وجعلوه فى تربة مناسبة ، فأنبتوا منه نخلة جديدة .

لذلك لما قال ابن عمر : إنها النخلة . ذهب عمر إلى رسول الله ، وحكى له مقالة ولده ، فقال ﷺ : « صدق ولدك » فقال عمر : (فوالله ما يسرنى أن فَطِن ولدى إليها أن لى حمر النعم)[1] .

---

(١) قال ابن عمر لأبيه عمر : ذكرت ذلك لعمر ، قال : « لأن تكون قلت : هى النخلة ، أحبّ إلىّ من كذا وكذا » وهو لفظ مسلم ، وفى رواية عند أحمد (١٢٣/٢) أن عمر قال لابنه : « يا بنى ، ما منعك أن تتكلم ، فو الله لأن تكون قلت ذلك أحب إلىّ من أن يكون لى كذا وكذا » .

والذين يزرعون النخيل يروْنَ فيه آيات وعجائب دالّة على قدرة الله تعالى .

ومعنى ﴿طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الشعراء] الطَّلْع : هو الكوز الذى تخرج منه الشماريخ فى الأُنْثى ويخرج منه المادة المخصبة فى الذكر ، والتى قال الله عنها : ﴿قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ .. ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام]

وفى الذَّكر يخرج من الكوز المادة المخصِّبة للنخلة ، وللقنْوان أو الشماريخ أطوار فى النمو يُسمُّونه (الخلا) ، فيظل ينمو ويكبر إلى أنْ يصل إلى نهايته حَدّاً حيث يجمد على هذه الحالة ، ويكتمل نموه الحجمى ، ثم تبدأ مرحلة اللون .

يقولون (عفَّر) النخل : يعنى شاب خضرته حمرة أو صفرة(١) . فإذا اكتمل احمرار الأحمر واصفرار الأصفر ، يسمى (بُسْر) ثم يتحول البُسْر إلى (الرطب) حيث تلين ثمرته وتنفصل قشْرته ، فإنْ كان الجو جافاً فإنَّ الرُّطَب يَيْبس ، ويتحول إلى (التمر) حيث تتبخَّر مائيته ، وتتماسك قشْرته ، وتلتصق به .

ومعنى ﴿هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [الشعراء] يعنى : غَضٌّ ورَطْب طرىٌّ ، وهذا يدل على خصوبة الأرض ، ومنه هضم الطعام حتى يصير ليِّناً مُسْتساغاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ(٢) ﴿١٤٩﴾﴾

---

(١) العَفار : تلقيح النخل وإصلاحه ، وعفَّر النخل : فرغ من تلقيحه . [لسان العرب - مادة : عفر] .

(٢) هذه الكلمة فيها قراءتان :

- فرهين : بغير ألف ، قراءة ابن كثير وأبى عمرو ونافع .
- فارهين . بألف . وهى قراءة الباقين . قاله القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٠٩) . قال أبو عبيد وغيره : وهما بمعنى واحد . وقال الفراء : معنى فارهين : حاذقين . والفره : النشيط الأشر . والفراهة : النشاط . [انظر لسان العرب - مادة : فره] .

وحين تذهب إلى مدائن صالح تجد البيوت منحوتة فى الجبال كما ينحتون الآن الأنفاق مثلاً ، لا يبنونها كما نبنى بيوتنا ، ومعنى ﴿ فَارِهِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الشعراء] الفاره : النشط القوى ظاهر الموهبة ، يقولون : فلان فاره فى كذا يعني ؛ ماهر فيه ، نشط فى ممارسته .

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

المسرف : هو الذى يتجاوز الحدّ ، وتجاوز الحدّ له مراحل ؛ لأن الله تعالى أحلّ أشياء ، وحرّم أشياء ، وجعل لكل منهما حدوداً مرسومة ، فالسَّرَف فيما شرع الله أن تتجاوز الحلال ، فتُدخل فيه الحرام .

أو : يأتى الإسراف فى الكَسْب فيدخل فى كَسْبه الحرام . وقد يُلزم الإنسان نفسه بالحلال فى الكسب ، لكن يأتى الإسراف فى الإنفاق فينفق فيما حرّمه الله . إذن : يأتى الإسراف فى صور ثلاثة : إما فى الأصل ، وإما فى الكسب ، وإما فى الإنفاق .

ونلحظ أن الحق - تبارك وتعالى - حينما يكلمنا عن الحلال ، يقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [البقرة]

أما فى المحرمات فيقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة] أى : ابتعد عنها ؛ لأنك لا تأمن الوقوع فيها ، ومَنْ حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه . فلم يقل الحق سبحانه مثلاً : لا تُصلُّوا وأنتم سكارى . إنما قال : ﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء]

والمعنى : خُذ الحلال كله ، لكن لا تتعداه إلى المحرَّم ، أما المحرَّم فاحذر مجردَ الاقتراب منه ؛ لأن له دواعى ستجذبك إليه .

ونقف عند قوله تعالى : ﴿ وَلا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الشعراء] حيث لم يقل : ولا تسرفوا ، وكان ربنا - عزّ وجلّ - يريد

أنْ يُوقظ غفلتنا ويُنبِّهنا ويُحذِّرنا من دعاة الباطل الذين يُزيِّنون لنا الإسرافَ فى أمور حياتنا ، ويُهوِّنون علينا الحرام يقولون : لا بأس فى هذا ، ولا مانع من هذا ، وهذا ليس بحرام . ربنا يعطينا المناعة اللازمة ضد هؤلاء حتى لا ننساق لضلالاتهم .

لذلك جاء فى الحديث الشريف : « استفت قلبك ، واستفتِ نفسك ، وإنْ أفتوك ، وإنْ أفتوك ، وإنْ أفتوك »(١) .

وفى هذا دليل على أنه سيأتى أناس يُفتون بغير علم ، ويُزيِّنون للناس الباطل ، ويُقنعونهم به . والفتوى من الفُتوة والقوة ، ومنه قوله تعالى : ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ۝١٣﴾ [الكهف]

كذلك الفتوى تعنى : القوة فى أمر الدين والتمكُّن من مسائله وقضاياه ، وإنْ كانت القوة المادية فى أمر الدنيا لها حَدٌّ تنتهى عنده فإنّ القوة فى أمر الدين لا تنتهى إلى حَدٍّ ، لأن الدين أمدُه واسع ، وبحره لا ساحلَ له . والقوة نعرفها فى أى ناحية من النواحى ، لكن قوة القوى هى القوة فى أمر الدين .

نقول : فلان فتىٌّ يعنى : قوىٌّ بذاته ، وأفتاه فلان أى : أعطاه القوة ، كأنه كان ضعيفاً فى حُكم من أحكام الشرع ، فذهب إلى المفتى فأفتاه يعنى : أعطاه فتوة فى أمر الدين . مثل قولنا : غَنِىَ فلان أى : بذاته ، وأغناه أى : غيره ، كما يقول سبحانه : ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ .. ۝٧٤﴾ [التوبة]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٢٢٧، ٢٢٨) والدارمى فى سننه (٢/٢٤٦) من حديث وابصة بن معبد الأسدى ، وتمامه أن رسول الله ﷺ قال : « يا وابصة ، استفت نفسك ، البر ما اطمأن إليه القلب ، واطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر ، وإن أفتاك الناس . قال سفيان : وأفتوك » .

إذن : فمهمة المفتى أن يُقوِّى عقيدتى ، لا أن يسرف لى فى أمر من أمور الدين ، أو يُهوِّن علىَّ ما حرّم الله فيُجرِّئنى عليه . وعلى المفتى أن يتحرَّى الدقة فى فتواه خاصة فى المسائل الخلافية التى يقول البعض بحلِّها ، والبعض بحرمتها ، يقف عند هذه المسائل وينظر فيها رأى الإسلام المتمثل فى الحديث الشريف :

« الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مُشْتبهات ، فمن ترك ما شُبِّه له ـ لا من فعل ما شُبِّه له يعنى على الأقل نترك ما فيه شبهة ـ فقد استبرأ لدينه ـ إن كان متديناً ـ وعِرْضه ـ إن لم يكُنْ متديناً »[1] .

إذن : مَنْ لم يقف هذا الموقف ويترك ما فيه شبهة لم يستبرىء لدينه ولا لعرْضه . ومَنْ لم يُفْتِ على هذا الأساس من العلماء فإنما يُضعِف أمر الدين لا يُقوِّيه ، وبدلَ أن نقول : أفتاه . نقول : أضعفه .

﴿ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (١٥٢)

فوصف المسرفين بأنهم مفسدون فى الأرض غير مصلحين ، كأن الأرض خلقها الخالق ـ عز وجل ـ على هيئة الصلاح فى كل شىء ، لكن يفسدها الإنسان بتدخّله فى أمورها ؛ لذلك سبق أن قلنا : إنك لو نظرتَ إلى الكون من حولك لوجدته على أحسن حال ، وفى منتهى الاستقامة ، طالما لا تتناوله يد الإنسان ، فإنْ تدخّل الإنسان فى شىء ظهرتْ فيه علامات الفساد .

ولا يعنى هذا ألاَّ يتدخل الإنسان فى الكون ، لا إنما يتدخل على

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير .

منهج مَنْ خَلَقَ فيزيد الصالح صلاحاً ، أو على الأقل يتركه على صلاحه لا يفسده ، فإن تدخَّل على غير هذا المنهج فلا بُدَّ له أن يفسد .

فحين تمر مثلاً ببئر ماء يشرب منه الناس ، فإما أنْ تُصلح من حاله وتزيده ميزة وتُيسِّر استخدامه على الناس ، كأن تبنى له حافّة ، أو تجعل عليه آلة رَفْع تساعد الناس ، أو على الأقل تتركه على حاله لا تفسده ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ (٢٠٥) ﴾ [البقرة]

أما هؤلاء القوم فلم يكتَفِ القرآن بوصفهم بالفساد وحسب ، إنما أيضاً هم ﴿ وَلا يُصْلِحُونَ (١٥٢) ﴾ [الشعراء] ذلك لأن الإنسان قد يُفسد فى شىء ، ويُصلح فى شىء ، إنما هؤلاء دأبهم الفساد ، ولا يأتى منهم الصلاح أبداً .

ونكبة الوجود من الذين يصنعون أشياء يرونْها فى ظاهرها صلاحاً ، وهى عَيْن الفساد ؛ لأنهم لم يأخذوها بكل تقنيناتها القيمية ، وانظر مثلاً إلى المبيدات الحشرية التى ابتكروها وقالوا : إنها فتح علمى ، وسيكون لها دور كبير فى القضاء على دودة القطن وآفات الزرع ، وبمرور الزمن أصبحت هذه المبيدات وبالاً على البشرية كلها ، حيث تسمَّم الزرع وتسمَّم الحيوان ، وبالتالى الإنسان ، حتى الماء والتُّرْبة والطيور ، لدرجة أنك تستطيع القول أنها أفسدت الطبيعة التى خلقها الله .

وفى هؤلاء قال تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

﴿ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الشعراء] جمع مُسحَّر ، وهى صيغة مبالغة تدلُّ على وقوع السحر عليه أكثر من مرة ، نقول : مسحور يعنى : مرة واحدة ومُسَحَّر يعنى عدة مرات ، ومن ذلك قوله تعالى عن ملأ فرعون أنهم قالوا له : ﴿ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشعراء]

ولم يقل : بكل ساحر ، إنما سحَّار يعنى : هذه مهنته ، وكما تقول : ناجر ونجار ، وخائط وخياط .

وإنْ كان بعضهم قال عن نبيهم : ﴿ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً ﴿٤٧﴾ ﴾ [الإسراء] فهؤلاء يقولون لنبيهم ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الشعراء] وعجيب أمر أهل الباطل ؛ لأنهم يتخبطون فى هجومهم على الأنبياء ، فمرَّة يقولون : ساحر . ومرة يقولون : مسحور ، كيف والساحر لا يكون مسحوراً ؛ لأنه على الأقل يستطيع أن يحمى نفسه من السحر . قالوا : بل المراد بالمسحور اختلاط عقله ، حتى إنه لا يدرى ما يقول .

ثم إن نبيكم صالحاً ـ عليه السلام ـ إنْ كان مسحوراً فمَنْ سحره ؟ أنتم أم أتباعه ؟ إنْ كان سحره منكم فأنتم تقدرون على كَفِّ سحركم عنه ، حتى يعود إلى طبيعته ، وترونه على حقيقته ، وإنْ كان من أتباعه ، لا بُدَّ أنهم سيحاولون أنْ يعينوه على مهمته ، لا أن يُقعدوه عنها .

إذن : فقولهم لنبيهم : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الشعراء]

يريدون أن يخلُصُوا إلى عدم اتباعه هو بالذات ، فهم يريدون تديُّنًا على حسب أهوائهم ، يريدون عبادة إله لا تكليفَ له ولا منهج . كالذين يعبدون الأصنام وهم سعداء بهذه العبادة ، لماذا ؟

لأن آلهتهم لا تأمرهم بشيء ولا تنهاهم عن شيء . لذلك ، فكل الدجالين ومُدَّعُو النبوة رأيناهم يُخفِّفون التكاليف عن أتباعهم ، فقديماً أسقطوا عن الناس الزكاة ، وحديثًا أباحوا لهم الاختلاط ، فلا مانع لديهم من الالتقاء بالمرأة والجلوس معها ومخاطبتها والخَلْوة بها والرقص معها ، وماذا في ذلك ونحن في القرن الحادى والعشرين ؟

فإنْ قالوا : ساحر ، نردُّ عليهم : نعم هو ساحر ، قد سحر مَنْ آمنوا به ، فلماذا لم يسحركم أنتم وتنتهى هذه المسألة ؟ إذن : هذه تُهَم لا تستقيم ، لا هو ساحر ، ولا هو مسحور ، إنه مجرد كذب وافتراء على أنبياء الله ، وعلى دعاة الخير فى كل زمان ومكان .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ
إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

وقولهم : ﴿ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [الشعراء] إذن : فوجه اعتراضهم أن يكون النبى بَشَرًا ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ولو بعث الله لهم ملَكًا لجاءهم على صورة بشر ، وستظل الشُّبْهة قائمة ، فمن يدريكم أن هذا البشر أصله ملك ؟ ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا

لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]

فالمعنى : ما دام أن الرسول بشر ، لا يمتاز علينا فى شىء فنريد منه أنْ يأتينا بآية يعنى : معجزة تُثبت لنا صِدْقه فى البلاغ عن ربه ﴿إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) ﴾ [الشعراء]

ونلحظ أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ ينتهز فرصة طلبهم لآية ومعجزة ، فأسرع إليهم بما طلبوا ، ليقيم عليهم الحُجة ، فقال بعدها :

﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) ﴾

هذا إجابة لهم ؛ لأنهم طلبوا من نبيهم أنْ يُخرج لهم من الصخرة[1] ناقة تلد سَقْباً لا يكون صغيراً كولد الناقة ، إنما تلد سَقْباً فى نفس حجمها ، فأجابهم ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ .. (١٥٥) ﴾ [الشعراء] يعنى : يوم تشرب فيه ، لا يشاركها فى شُرْبها شىء من مواشيكم .

﴿وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (١٥٥) ﴾ [الشعراء] أى : تشربون فيه أنتم ، وكانت الناقة تشرب من الماء فى يومها ما تشربه كلّ مواشيهم فى يومهم ، وهذه معجزة فى حَدِّ ذاتها .

---

(١) كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيَّنوها بأنفسهم وهى صخرة منفردة فى ناحية الحجر يقال لها الكاتبة ، فطلبوا منه أن تخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبهم ليؤمنن به وليتبعنه ، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح إلى صلاته ودعا الله فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها . [تفسير ابن كثير ٢٢٨/٢] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾

يخبر الحق سبحانه رسوله بما سيكون ، وأن القوم لن يتركوا هذه الآية ، إنما سيتعرضون لها بالإيذاء ، فقال : ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ .. ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الشعراء] لكنهم تعدَّوْا مجرد الإيذاء والإساءة فعقروها .

ثم يتوعدهم : ﴿ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

قال(عقروها) بصيغة الجمع ، فهل اشتركتْ كل القبيلة في عَقْرها ؟ لا بل عقرها واحد منهم ، هو قدار بن سالف[1] ، لكن وافقه الجميع على ذلك ، وساعدوه[2] ، وارتضوا هذا الفعل ، فكأنهم فعلوا جميعاً ؛ لأنه استشارهم فوافقوا .

﴿ فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [الشعراء] وقال العلماء : الندم مقدمة التوبة.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

---

(١) كان رجلاً أحمر أزرق قصيراً ، يزعمون أنه كان ولد زنية ، وأنه لم يكن من أبيه الذى ينسب إليه ، وهو سالف ، وإنما هو من رجل يقال له ضيان ، ولكن ولد على فراش سالف . [ابن كثير فى تفسيره ٢/٢٢٨] .

(٢) انطلق قدار بن سالف ومصدع بن مهرج فاستغووه غواة من ثمود ، فاتبعهما سبعة نَفَر ، فصاروا تسعة رهط ، وهم الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل] .

فإنْ قُلْتَ : كيف يأخذهم العذاب وقد ندموا ، والندم من مقدمات التوبة ؟

نعم ، الندم من مقدمات التوبة ، لكن توبة هؤلاء من التوبة التى قال الله عنها : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ .. (١٨) ﴾ [النساء]

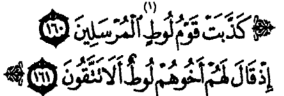
إذن : ندموا وتابوا فى غير أوان التوبة ، أو : أنهم أصبحوا نادمين لا ندمَ توبة من الذنب ، إنما نادمون ؛ لأنهم يخافون العذاب الذى هددهم الله به إنْ فعلوا .

ثم تُختم هذه القصة بهذا التذييل الذى عرفناه من قبل مع أمم أخرى مُكذِّبة :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩) ﴾

عزيز : يَغلِب ولا يُغْلَب ، ومع ذلك هو رحيم فى غَلَبه .

ثم ينتقل الحق سبحانه إلى قصة أخرى من مواكب الأنبياء والرسل :



فقال هنا أيضاً ﴿ أَخُوهُمْ .. (١٦١) ﴾ [الشعراء] لأنه منهم ليس غريباً

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٤) : « هو لوط بن هاران بن آزر ، وهو ابن أخى إبراهيم الخليل عليه السلام ، وكان الله تعالى قد بعثه إلى أمة عظيمة فى حياة إبراهيم عليه السلام ، وكانوا يسكنون سدوم وأعمالها ، التى أهلكها الله بها وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة وهى مشهورة ببلاد الغور بناحية حيال بيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك » .

عنهم ، وليُحنِّن قلوبهم عليه ﴿أَلا تَتَّقُونَ (١٦١)﴾ [الشعراء] إنكار لعدم التقوى ، وإنكار النفى يطلب الإثبات فكأنه قال : اتقوا الله .

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٦٣)
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤)﴾

وهكذا كانت مقالة لوط عليه السلام كما قال إخوانه السابقون من الرسل ؛ لأنهم يصدُرون جميعاً عن مصدر واحد .

ثم يخصُّ الحق سبحانه قوم لوط لما اشتُهروا به وكان سبباً فى إهلاكهم :

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥)﴾

فكأنها مسألة وخصلة تفردوا بها دون العالم كله .

لذلك قال فى موضع آخر : ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠)﴾ [الأعراف]

أى : أن هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستقذرة ؛ لأن الرجل إنما يأتى الرجل فى محل القذارة ، ولكنهم فعلوها ، فوَصْفه لها بأنها لم يأتها أحد من العالمين جعلها مسألة فظيعة للغاية .

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم
مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)﴾

يعنى : كان عندكم مندوحة عن هذه الفعلة النكراء بما خلق الله لكم من أزواجكم من النساء ، فتصرفون هذه الغريزة فى محلها ، ولا تنقلونها إلى الغير .

أو ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم .. (١٦٦) ﴾ [الشعراء] أى : أنهم كانوا يباشرون هذه المسألة أيضاً مع النساء فى غير محلّ الاستنبات ، فقوله تعالى : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. (٢٢٣) ﴾ [البقرة]

البعض يظنها على عمومها وأن ﴿ أَنَّىٰ شِئْتُمْ .. (٢٢٣) ﴾ [البقرة] تعطيهم الحرية فى هذه المسألة ، إنما الآية محددة بمكان الحَرْث واستنبات الولد ، وهذا محله الأمام لا الخلف .

لذلك قال بعدها : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴾ [الشعراء] والعادى هو الذى شُرع له شىء يقضى فيه إربته ، فتجاوزه إلى شىء آخر حرّمه الشرع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) ﴾

أى : إن لم تنته عن ملامنا ومعارضتنا فيما نفعله من هذه العملية ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) ﴾ [الشعراء] كما قالوا فى آية أخرى : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ .. (٥٦) ﴾ [النمل] أى : لا مكان لهم بيننا ، لكن لماذا ؟ ﴿ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٥٦) ﴾ [النمل] سبحان الله جريمتهم أنهم يتطهرون ، ولا مكان للطُّهْر بين هؤلاء القوم الأراذل .

ثم يقول الحق سبحانه عن لوط :

﴿ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

وفرْقٌ بين كونى لا أعمل العمل ، وكونى أكره مَنْ يعمله ، فالمعنى : أنا لا أعمل هذا العمل ، إنما أيضاً أكره مَنْ يعمله ، وهذا مبالغة فى إنكاره عليهم .

ثم يقول لوط :

﴿ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾

لم يملك لوط عليه السلام أمام عناد قومه وإصرارهم على هذه الفاحشة إلا أنْ يدعو ربَّه بالنجاة له ولأهله ، فأجابه الله تعالى ﴿ إِلاَّ عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ [الشعراء]

والمراد : امرأته التي قال الله فى حقها : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [التحريم]

فجعلها الله ـ عز وجل ـ مثالاً للكفر والعياذ بالله ؛ لذلك لم تكُنْ من الناجين ، ولم تشملها دعوة لوط عليه السلام ، وكانت من الغابرين[1] . يعنى : الهالكين .

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

﴿ الآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الشعراء] أى : الذين لم يؤمنوا بدعوته ، ولم

---

(١) عن قتادة قال : غبرت فى عذاب الله . أى : بقيت [تفسير القرطبى ٥٠١٣/٧] .

ينتهوا عن هذه الفاحشة ، ثم بيَّن نوعية هذا التدمير ، فقال ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الشعراء] ولما كان المطر من أسباب الخير وعلامات الرحمة ، حيث ينزل الماء من السماء ، فيُحيي الأرض بعد موتها ، وصف الله هذا المطر بأنه ﴿ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الشعراء] فهو ليس مطرَ خَيْر ورحمة ، إنما مطر عذاب ونقمة .

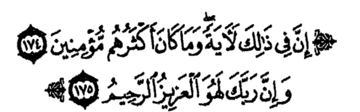
كما جاء في آية أخرى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحقاف]

وهذا يُسمُّونه (يأس بعد إطماع) ، وهو أبلغ في العذاب والإيلام ، حين تستشرف للخير فيُفاجئك الشر ، وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بالسجين الذي يطلب من الحارس شَرْبة ماء ، ليروي بها عطشه ، فلو حرمه الحارس من البداية لكانَ الأمر هيِّناً لكنه يحضر له كوب الماء ، حتى إذا جعله على فيه أراقه على الأرض ، فهذا أشد وأنكى ؛ لأنه حرمه بعد أن أطمعه ، وهذا عذاب آخر فوق عذاب العطش .

وفي لقطة أخرى بيَّن ماهية هذا المطر ، فقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود]

فالحجارة من ﴿ سِجِّيلٍ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [هود] أي : طين حُرق حتى تحجَّر وهي ﴿ مُّسَوَّمَةً .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [هود] يعني : مُعلَّمة بأسماء أصحابها ، تنزل عليهم بانتظام ، كل حجر منها على صاحبه .

وبجمع اللقطات المتفرقة تتبين معالم القصة كاملة .



وتُختم القصة بنفس الآيات التى خُتِمتْ بها القصص السابقة من قصص المكذِّبين المعاندين .

ثم ينقلنا الحق سبحانه إلى قوم آخرين كذبوا رسولهم شعيباً :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ (١) ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾

الأيكة : هى المكان الخصْب الذى بلغ من خصوبته أنْ تلتفّ أشجاره ، وتتشابك أغصانها ، وقال هنا أيضاً ﴿ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الشعراء] مع أنهم ما كذَّبوا إلا رسولهم ؛ لأن تكذيب رسول واحد كتكذيب كُلِّ الرسل ؛ لأنهم جميعاً جاءوا بمنهج واحد فى العقيدة والأخلاق .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ (٢) أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

---

(١) ذهب ابن كثير فى تفسيره (٣٤٥/٣) أن أصحاب الأيكة ، وأصحاب الرس ، وأهل مدين أمة واحدة بُعث لها رسول واحد هو شعيب عليه السلام ، قال : « من الناس من لم يفطن لهذه النكتة ، فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين فزعم أن شعيباً بعثه الله إلى أمتين ومنهم من قال ثلاث أمم » ثم قال « والصحيح أنهم أمة واحدة وُصفوا فى كل مقام بشىء ، ولهذا وعظ هؤلاء وأمرهم بوفاء المكيال والميزان كما فى قصة مدين سواء بسواء ، فدلّ ذلك على أنهما أمة واحدة » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣٤٥/٣) : « إنما لم يقل ههنا أخوهم شعيب لأنهم نسبوا إلى عبادة الأيكة وهى شجرة .. فقطع نسب الأخوة بينهم للمعنى الذى نسبوا إليه وإن كان أخاهم نسباً » أما رأى القرطبى فهو مبنى على أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين ، فليسوا أمة واحدة ، فقال : « لم يقل أخوهم شعيب ، لأنه لم يكن أخاً لأصحاب الأيكة فى النسب » [تفسير القرطبى ٥٠١٥/٧] .

نلحظ اختلاف الأسلوب هنا ، مما يدل على دقّة الأداء القرآني ، فلم يقل : أخوهم شعيب ، كما قال في نوح وهود وصالح ولوط ، ذلك لأن شعيباً عليه السلام لم يكن من أصحاب الأيكة ، إنما كان غريباً عنهم .

وباقي الآيات متفقة تماماً مع مَنْ سبقه من إخوانه الرسل ؛ لأن الوحدة في المنهج العقدي أنتجتْ الوحدة في علاج المنهج ؛ لذلك قرأنا هذه الآيات عند كل الرسل الذين سبق ذكرهم .

ثم يأخذ في تفصيل الأمر الخاص بهم ؛ لأن كل أمة من الأمم التي جاءها رسول من عند الله إنما جاء ليعالج داءً خاصاً تفشّى بها ، وكانت الأمم من قبل منعزلةً ، بعضها عن بعض ، ولا يوجد بينها وسائل اتصال تنقل هذه الداءات من أمة لأخرى .

فهؤلاء قوم عاد ، وكان داءَهم التفاخُرُ بالبناء والتعالي على الناس ، فجاء هود ـ عليه السلام ـ ليقول لهم :

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠)﴾ [الشعراء]

وثمود كان داءهم الغفلةُ والانصراف بالنعمة عن المُنْعِم ، فجاء صالح ـ عليه السلام ـ يقول لهم : ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩)﴾ [الشعراء]

أما قوم لوط ـ عليه السلام ـ فقد تفرَّدوا بفاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين ، وهي إتيان الذكْران ، فجاء لوط ـ عليه السلام ـ ليمنعهم ويدعوهم إلى التوبة والإقلاع :

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦) ﴾ [الشعراء]

أما أصحاب الأيكة ، فكان داءهم أنْ يُطفِّفوا المكيال والميزان ، فجاء شعيب - عليه السلام - ليقول لهم :

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) ﴾

الكيل : آلة تُقدَّر بها الأشياء التى تُكال ، ووحدته : كَيْلة أو قَدح أو أردب . والميزان كذلك : آلة يُقدَّر بها ما يُوزَن .

ومعنى ﴿ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) ﴾ [الشعراء] المخسر : هو الذى يتسبب فى خسارة الطرف الآخر فى مسألة الكيل ، بأن يأخذ بالزيادة ، وإنْ أعطى يُعطِى بالنقصان ، وفى الوزن قال ﴿ بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ .. (١٨٢) ﴾ [الشعراء]

والقسطاس : يعنى العدل المطلق فى قدرة البشر وإمكاناتهم فى تحرِّى الدِّقّة فى الوزن ، مع مراعاة اختلاف الموزونات ، فوزن الذهب غير وزن التفاح مثلاً ، غير وزن العدس أو السمسم ، فعليك أنْ تتحرَّى الدقة قَدْر إمكانك ، لتحقق هذا القسطاس المستقيم .

لكن ، لماذا خصَّ الكيل والوزن من وسائل التقدير والتقييم ، ولم يذكر مثلاً القياس فى المساحات والمسافات بالمتر أو بالذراع ؟

قالوا : لأن الناس قديماً - وكانت أمماً بدائية - لا تتعامل فيما يُقاس ، فلا يشترون القماش مثلاً ؛ لأنه كان يُغزل ، تغزله النساء

ويغزله الرجال ، ولم يكُنْ أحد يغزل لأحد أو يبيع له ، فهذه صورة حضارية رأيناها فيما بعد .

وقديماً ، كان الناس يتعاملون بالتبادل والمقايضة ، وفى هذه الحالة لا يوجد بائع على حدَة ولا مُشْتر على حدَة ، فلا يتفرد البائع بالبيع ، والمشترى بالشراء ، إلا فى حالَة مبادلةَ السلعة بثمن ، كما قال تعالى : ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ .. (٢٠)﴾ [يوسف] أى : باعوه .

أما فى حالة المقايضة ، فأنت تأخذ القمح تأكله ، وأنا آخذ التمر آكله ، فالانتفاع هنا انتفاع مباشر بالسلعة ، فإنْ قدَّرْتَ أن كل واحد فى الصفقة بائع ومشتر . تقول : شَرَى وباع . وإنْ قدَّرْت الأثمان التى لا ينتفع بها انتفاعاً مباشراً كالذهب والفضة ، أو أى معدن آخر ، وهذه الأشياء لا تؤكل فهى ثمن ، أمّا الأشياء الأخرى فصالحة أنْ تكون سلعة ، وصالحة لأنْ تكون ثمناً .

وقد أفرد القرآن الكريم سورة مخصوصة لمسألة الكيل والميزان هى « سورة المطففين » ، يقول سبحانه : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)﴾ [المطففين]

نقول : كال له يعنى : أعطاه ، واكتال عليه يعنى : أخذ منه . فإن أخذ أخذ وافياً ، وإنْ أعطى أعطى بالنقص والخسارة . والقرآن لا ينعى عليه أن يستوفى حقّه ، لكن ينعى عليه أن ينقص من حَقِّ الآخرين ، ولو شيئاً يسيراً .

فمعنى (المطففين) من الشىء الطفيف اليسير ، فإذا كان الويل لمن يظلم فى الشىء الطفيف ، فما بال مَنْ يظلم فى الكل ؟

فاللوم هنا لمَنْ يجمع بين هذين الأمرين : يأخذ بالزيادة ويُعطى بالنقص ، أما مَنْ يعطى بالزيادة فلا بأس ، وجزاؤه على الله ، وهو من المحسنين الذين قال الله فيهم : ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ .. ﴿٩١﴾﴾ [التوبة]

ومع تطور المجتمعات بدأ الناس يهتمُّون بقياس دقة آلات الكيل والوزن والقياس ، فَوُجدت هيئات متخصصة فى معايرتها والتفتيش عليها ومتابعة دقّتها ؛ لأنها مع مرور الزمن عُرْضة للنقص أو الزيادة ، فمثلاً سَنجة الحديد ـ التى نزن بها قد تزيد إنْ كانت فى مكان بحيث تتراكم عليها الزيوت والتراب ، وقد تنقص بالحركة مع مرور الوقت ، كما تنقص مثلاً أكرة الباب من كثرة الاستعمال ، فتراها لامعة ، ولمعانها دليل النقص ، وإنْ كان يسيراً .

وفى فرنسا ، نموذج للياردة وللمتر من معدن لا يتآكل ، جُعلَتْ كمرجع يُقاس عليه ، وتُضبط عليه آلات القياس .

ورأينا الآن آلات دقيقة جداً للوزن وللقياس ، تضمن لك منتهى الدقة ، خاصة فى وَزن الأشياء الثمينة ؛ لذلك نراهم يضعون الميزان الدقيق فى صندوق من الزجاج ، حتى لا تُؤثّر فيه حركة الهواء من حوله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا(١) فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

البخس : النقص ، ومعنى ﴿أَشْيَاءَهُمْ .. ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء] حقوقهم

(١) عَثَا عثواً : أفسد أشد الإفساد . [القاموس القويم ٢/٧] .

إذن ، فالنقص من حَقِّ الغير ذنب ، وقد يكون البخس بأخْذ الشيء كله غَصْباً ، أو بالتصرف فيه دون أمر صاحبه ، أو على وجه لا يرضاه .

وهذا كله داخل في ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. (١٨٣)﴾ [الشعراء] كل ما ينقص الحق بأخذه بإنقاص . أو غَصْب أو تصرّف على غير إرادة صاحبه فهو بَخْسٌ للشيء .

فكل ما ثبت أنه حق لغيرك إياك أنْ تعتدى عليه ، فالزكاة مثلاً حينما يقول ربك - عزّ وجلّ - : ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥)﴾ [المعارج]

فما دام قد قيَّده الشرع ، فلا تبخس أنت حَقَّ الفقير ، لأنك حين تتأمل هذا الحق المعلوم الذى جعله الله من مالك للفقير ، تجد أنه وُضِع بحكمة تُراعى مدى حركة المموِّل ، وما بذل من جهد ونفقات في سبيل تنمية ماله ، حتى وجبتْ فيه الزكاة .

فكلما زادتْ حركتك قَلَّ مقدار الزكاة في مالك ، فمثلاً الأرض التى تُسْقَى بماء المطر فيها العُشْر ، والتى تُسْقَى بآلة ونفقات فيها نصف العشر ، وفى عروض التجارة وتحتاج إلى حركة أكثر قال رُبْع العُشْر ، ذلك لأن الشارع الحكيم يريد للناس الحركة والسعى وتثمير الأموال ، حتى لا يأتى مَنْ يقول : كيف أسعى ويأخذ غيرى ثمرة سعيى ؟

والشارع حين كفل هذا الحق للفقراء ، فإنما يحمى به الفقراء والأغنياء على حَدٍّ سواء . وقد حدَّد الشارع هذا الحق ، حتى لا تزهد في العطاء ، خاصة فى الزكاة .

إن منهج الله يريد أنْ يُصوِّب حركة الحياة من الأحياء ، يريد ألاَّ يجرى دم فى جسد إلا بخروج عَرَق من هذا الجسد ، وألا يدخل دم

فى جسد من عرق سواه ، وإلاَّ فسد المجتمع ، وضَنَّ كل قادر على الحركة بحركته ؛ لأنه لا يطمئن إلى ثمار حركته أنها لا تعود عليه ، أو أن غيره سيغتصبها منه بأىِّ لون من ألوان الاغتصاب .

عندها يفسد المجتمع ؛ لأن القوى القادر سيزهد فى الحركة فيقعد ، والآخذ سيتعوَّد البطالة والكسل والخمول ، ولماذا يعمل وما يجرى فى عروقه من دماء من عمل غيره ، وبمرور الوقت يصعب عليه العمل ، وتثقُل عليه الحركة ، فيركَنُ إلى ما نُسمِّيه (بلطجى) فى الحياة ، يعيش عالة على غيره .

إذن : الحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أن يُطمئِن كل إنسان على حركته فى الحياة وثمرة سَعْيه ، فلا يتلصص أحد على ثمرة حياة الآخر ؛ لأنه إنْ كان عاجزاً عن الحركة فقد ضمن له ربُّه حقاً فى حركة الآخرين تأتيه إلى باب بيته ، سواء أكانت زكاةً أم كانت صدقة ؛ وبذلك تسلَم حركة الحياة للجميع .

لذلك أراد ـ سبحانه وتعالى ـ أن يُعطينا الموازين الدقيقة التى تحفظ سلامة التعامل بين الناس : فإنْ كِلْتَ لغيرك فوفِّ الكيل ، وإنْ وزنتَ فوَفِّ الميزان ، واجعله بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخس الناس حقوقهم بأى صورة من الصور .

ولا يقتصر الأمر على هذه المسائل فحسب ، إنما هى نماذج للتعامل ، تستطيع القياس عليها فى كل أمور الحياة فيما يُقَاس وفيما يُعَدُّ ، فى الأعمال وفى الصناعات .. إلخ .

إذن : فاحذر أنْ تتلصَّص على حقوق الآخرين ، أو أن تبخسها ، بأىِّ نوع من أنواع التسلُّط : غَصْباً أو اختطافاً أو سرقةً أو اختلاساً أو رِشْوة .. إلخ .

وقلنا : إن السرقة أن تأخذ شيئاً من حرْزه فى غير وجود صاحبه ، والخطف يكون صاحب الشىء موجوداً ، لكنك تأخذه خَطْفاً وتفرّ به قبل أن يُمسك بك ، فإنْ امسك بك فغالبْتَه وأخذتها رَغماً عنه فهى غَصْب ، أما الاختلاس فأنْ تأخذ من مالٍ أنت مؤتمَنٌ عليه ، ما لا يحقّ لك أخْذه .

فإذا علم كُلٌّ متحرك فى الحياة أن ثمرة حركته تعود عليه ، وعلم كل غير متحرك أنه يموت جوعاً إنْ لم يعمل وهو قادر دبَّتْ الحركة فى كل الأحياء ، وهذا ما يريده الله تعالى لخليفته فى الأرض خاصة ، وقد خلق لنا سبحانه العقل الذى نفكر به ، والطاقة التى نعمل بها ، والمادة التى نستعين بها ، فكلٌّ ما علينا أن نُوظّف هذه الإمكانات التى خلقها الله توظيفاً مثمراً .

ثم إنْ كانت الزكاة كحقٍّ معلومة محددة ، فهناك حَقٌّ آخر غير مُحدَّد ، فى قوله سبحانه : ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات] ولم يقل (معلوم) ؛ لأن المراد هنا الصدقة المطلقة ، وقد تركها الحق - تبارك وتعالى - ولم يُقيِّدها ليترك الباب مفتوحاً أمام أريحية المعطى ، ومدى كرمه وإحسانه ؛ لذلك جاءت هذه الآية فى سياق الحديث عن صفات المحسنين :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ ﴾ [الذاريات]

ولأن الحق هنا تفضُّل وزيادة تركه الشارع الحكيم دون تحديد .

وعجيب أن نرى أصحاب الأموال حين يُخرِج أحدهم رُبْع العشر

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . والتهجاع : النومة الخفيفة . [لسان العرب - مادة : هجع] .

مثلاً من مـاله ، لا ينظر إلى ما تبقَّى له من رأس المـال ، وهى نسبة ٩٧,٥٪ ، وينظر إلى حَقِّ الفقير وهو يسير ٢,٥٪ .

فنراه يحتـال عليه فيُؤثر به أقـاربه أو معارفه ، أو يضعـه بحيث يعفيه من حق آخر ، كالذى يعطى زكاته للخـادمة مثلاً ، ليُرضى أمها حـتى لا تأخـذهـا من يده ، ومنهم مَنْ يضع أمـوال الـزكـاة فى بناء مسجد أو مدرسة أو مسـتشفى ؛ وهذا كله لا يجوز ؛ لأن مال الزكاة حَقٌّ للمسـتحقين المعـروفين نصاً فى كتـاب الله ، ولا يصح أنْ يُوجَّه مال الزكاة لشىء ينتفع به الغنى أبداً .

ثم يقـول سـبحـانه : ﴿وَلا تَعْثَـوْا فِي الأَرْضِ مُـفْسِـدِينَ (١٨٣)﴾ [الشعراء] عثـا : أى أفسد . فـالمعنى : لا تُفسـدوا فى الأرض ، فلماذا كرَّر الإفـساد مرة أخرى فـقال ﴿مُفْسِدِينَ (١٨٣)﴾ [الشعراء] ؟ قالوا : المـراد : لا تعثَـوْا فى الأرض حالةَ كـونكم مفـسدين ، أو فى نيـتكم الإفسـاد .

وليس فى الآية تكرار ؛ لأنه فرَّق بين إفساد شىء وأنت لا تقصد إفساده ، إنمـا حركتك فى الحيـاة أفسدتْه ، وبين أنْ تُفسـد عن قصد وعَمْـد للإفـسـاد ، حتـى لا نمنع العقـول أن تفكر وتُجرِّب لتـصلَ إلى الأفضل ، وتُثرى حـركة الحياة ، فـما دُمْتَ قد قصـدتَ الصلاح ، فلا عليك إنْ أخطأتَ ؛ لأن ربك - عَزَّ وجَلَّ - يتـولى تصحيح هذا الخطأ ، بل ويُعوِّضك عنه ، فمَنِ اجتهد فـأخطأ فله أجر ، ومَنِ اجتهد فأصاب فله أجران[1]

(١) عن عمـرو بن العاص أن رسـول الله ﷺ قال : « إذا حكم الحـاكم فاجـتهد ثم أصـاب فله أجران ، وإذا حكم فـاجتهـد ثم أخطأ فله أجر » أخـرجه البخـارى فى صحيـحه (٧٣٥٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٧١٦) كتاب الأقضية .

إذن : المعنى : لا تُفسدوا فى الأرض وأنتم تقصدون الإفساد ، لكن فكيف نُفسد الأرض ؟ إن إفساد الأرض يعنى إفسادَ المتحرك عليها ؛ لأن الأرض خُلقتْ للإنسان ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن]

وقد خلقها الله تعالى على هيئة الصلاح ، والإنسان هو الذى يُفسدها ، بدليل أنك لا تجد الفساد إلا فيما للإنسان دَخْل فيه ، أما مَا لا تطوله يده ، فيظل على صلاحه ، وعلى استقامته وسلامته .

والإنسان الذى خلقه الله وجعله خليفة له فى أرضه طُلب منه عمارة هذه الأرض وزيادة صلاحها ، تحقيقاً لقول ربه عَزَّ وجلَّ : ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ[1] فِيهَا .. (٦١) ﴾ [هود]

ولا يصلح أن نستعمر الأرض وهى خراب ، فإذا ما كَثُر النسل لا يقابل زيادة فى استثمار الأرض ، فتحدث الأزمات ، ولو أن استثمار الأرض وإصلاحها سار مع زيادة النسل فى خطين متوازيين لما شعر الناس بالحاجة والضيق ، ولما أحاطت بهم الأزمات .

والآن حين تسير فى الطريق الصحراوى مثلاً تجد المزارع فى الصحراء ، وتجد القرى الجديدة تحولت فيها الأرض الجرداء إلى خضرة ونماء ، فأين كانت هذه الثورة ؟ لقد كنا كُسالى وفى غفلة حتى عَضَّنا الجوع ، وضاقتْ بنا الأرض الخضراء فى الوادى والدلتا .

وإذا لم يُصلح الإنسان فى الأرض فلا أقلَّ من أنْ يتركها على حالها الذى خلقها الله عليه . لكن رأينا الإنسان يُفسد الماء ويُلوثه

---

(١) أى : أذن لكم فى عمارتها واستخراج قوتكم منها وجعلكم عُمَّارها . وأعمره المكان واستعمره فيه : جعله يعمره . [لسان العرب ـ مادة : عمر] .

حين يصرف فيه مُخلَّفاته ويُفسد الهواء بعادم السيارات والمصانع ، ويُفسد التربة بالكيماويات والمبيدات ، وكل هذا الإفساد خروج عن الطبيعة الصافية التى خلقها الله لنا ؛ ذلك لأننا نظرنا إلى النفع العاجل ، وأغفلنا الضرر الآجل .

لقد خلق الله لنا وسائل الركوب والانتقال ، وجعلها آمنة لا ضررَ منها : ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً .. ⑧ ﴾ [النحل]

وقال : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ.. ⑦ ﴾ [النحل] نعم ، وسائل النقل الحديث أسرع ، وأراحتْ هذه المواشى ، لكنها أتعبتْ الإنسان الذى خلق الله الكون كله لراحته . فترى الرجل يركب سيارته وكل هَمِّه أنْ يُسرِع بها دون أنْ يهتم بضبطها وصيانتها ، فينطلق بها مُخلِّفاً سحابة من الدخان السَّام الذى يؤذى الناس ، أما هو فغير مكترث بشىء ؛ لأن الدخان خلفه لا يشعر به .

لكن ، احذر جيداً ، إن ربك - عز وجل - قيوم لا يغفل ولا ينام ، وكما تدين تُدان فى نفسك ، أو فى أولادك .

كذلك قبل أن نركب السيارات ونُسرِع بها يجب أنْ نُمهِّد لها الطرق حتى لا تثير الغبار فى وجوه الناس ، وتؤذى تنفسهم ، بل وتؤذى الزرع أيضاً ، كل هذه وُجوه للإفساد فى الأرض ؛ لأننا ندرس عاجلَ النفع ولا ندرس آجل الضرر .

وعليك حين تجتهد أنْ تجتهد بمقدِّمات سليمة ، لتصل إلى النتائج السليمة ، ولا تكُنْ من المفسدين فى الأرض .

ومن الإفساد فى الأرض قَطْع الطريق ، وهو أن المتلصِّص يقيم فى مكانه يرصُد ضحيته إلى أن تمر به ، والإغارة وهى أنْ يذهب المغير إلى المغَار عليه فى مَأمنه ، فيسلبه ماله .

ومن الإفساد فى الأرض الرِّشْوة ، وهى من أنكَى النكبات التى بُلِى بها المجتمع ، وهى تُولِّد التسيُّب وعدم الانضباط ، فحين ترى غيرك يستغلك ، ويستحلّ مالك دون حق ، تعامله وتعامل غيره نفس المعاملة ، فتصير الأمور فى الأجهزة والمصالح إلى فوضى لا يعلم مداها إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ(١) الأَوَّلِينَ (١٨٤) ﴾

فإياك أن تظن أن الله تعالى خلقنا عبثاً ، أو يتركنا هملاً ، إنما خلقنا لمهمة فى الكون ، وجعلنا جميعاً عبيداً بالنسبة له سواء ، فلم يُحَابِ منا أحداً على أحد ، وليس عنده سبحانه مراكز قوى ؛ لذلك لم يتخذ صاحبة ولا ولداً .

ولأننا جميعاً أمامه سبحانه سواء وهو خالقنا ، فقد تكفَّل لنا بالرزق ورعاية المصالح ، فَمن ابتلاه الله بالعجز عن الحركة فتحركْتَ أنت لقضاء مصالحه ، لا بُدَّ أن ينظر الله إليك بعين البركة والمضاعفة .

فالمعوَّق والفقير بحقٍّ - لا الذى يتخذها مهنة وحرفة يرتزق بها - هذا الفقير وهذا المعوَّق هم خَلْق الله وأهل بلائه ، فحين تعطيه من

---

(١) قال مجاهد : الجبلة هى الخليقة . وجُبل فلان على كذا أى خُلِق . قال الهروى : هو الجمع ذو العدد الكثير من الناس . [تفسير القرطبى ٥٠١٦/٧] .

ثمرة حركتك أنت ، وتذهب إليه وهو مطمئن فى بيته ، أنت بهذا العمل إنما تستر على الله بلاءه ، وتكون يد الله التى يرزق بها هؤلاء ، وعندها لا بُدَّ أن يحبك الفقير ، وأنْ يدعو لك بالخير والبركة والزيادة والأجْر والعافية والثواب ، ويعلم أن الله خلقه ولم يُسلمه .

أمّا إنْ ضَنَّ الغنىُّ الواجد على الفقير المعدَم ، وتخلى عن أهل البلاء ، فلا بُدَّ أنْ يسخط الفقير على الغنى ، بل يسخط على الله ـ والعياذ بالله ـ لأنه ما ذنبه أن يكون فقيراً ، وغيره غنىٌّ فى مجتمع لا يرحم .

وعجيب أن نرى مُبتلىً يُظهر بلواه للناس ، بل ويستغلها فى ابتزازهم ، فيُظهر لهم إعاقته ، كأنه يشكو الخالق للخَلْق ، ولو أنه ستر على الله بلاءه وعلم أنه نعمة أنعم الله بها عليه لَسخَّر الله له عافية غير المبتلى ، ولجاءه رزقه على باب بيته ، فلو رَضِى أهل البلاء لأعطاهم الله على قَدْر ما ابتلاهم .

فمعنى : ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ .. ﴿١٨٤﴾ ﴾ [الشعراء] أى : احذروا جبروته ؛ لأنه خلقكم ، وضمن لكم الأرزاق ، وضمن لكم قضاء الحاجات ، حتى العاجز عن الحركة سخَّر له القادر ، وجعل للغنى شرطاً فى إيمانه أنْ يُعطى جزْءاً من سَعْيه للفقير ، ويُوصِّله إليه وهو مطمئن .

ومعنى : ﴿ وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ ﴾ [الشعراء] الجبلة من الجبَل ، وكان له دور فى حياة العربى ، وعليه تدور الكثير من تعبيراتهم ، ففيه صفات الفخامة والعظمة والرسوخ والثبات ، فاشتقوا من الجبل (الجبِلّة) وتعنى الملازمة والثبات على الشىء .

ومن ذلك نقول : فلان مجبول على الخير يعنى : ملازم له لا يفارقه ، وفلان كالجبل لا تزحزحه الأحداث ، والعامة تقول : فلان

جبلّة يعنى : ثقيل على النفس ، وقد يزيد فيقول : (مال جبلّتك وارمة) مبالغة فى الوصف .

حتى أن بعض الشعراء يمدح ممدوحه بأنه ثابت كالجبل ، حتى بعد موته ، فيقول عن ممدوحه وقد حملوه فى نعشه :

مَا كنتُ أحْسَبُ قَبْل نَعْشكَ أنْ أرَى رَضْوى[1] علَى أيدى الرجَالِ يَسِير

ورَضْوى جبل اشْتُهر بين العرب بضخامته .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً..(٦٢)﴾ [يس]

ومعنى : ﴿وَالْجِبِلَّةَ الأَوَّلِينَ (١٨٤)﴾ [الشعراء] أى : الناس السابقين الذين جُبلوا على العناد وتكذيب الرسُل ، فالله خلقكم وخلقهم ، وقد رأيتم ما فعل الله بهم لما كذَّبوا رسُله ، لقد كتب الله النصر لرسله والهزيمة لمن كذَّبهم ، فهؤلاء الذين سبقوكم من الأمم جُبلوا على التكذيب ، وكانوا ثابتين عليه لم يُزحزحهم عن التكذيب شيء ، فاحذروا أن تكونوا مثلهم فينزل بكم ما نزل بهم . فماذا كان ردّهم ؟

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ١٨٥ ﴾

قلنا : إن مُسحَّر : أى سحَّره غيره ، وهى صيغة مبالغة للدلالة على حدوث السحر ووقوعه عليه أكثر من مرة ، فلو سُحر مرة واحدة لَقُلْنا : مسحور والمعنى : أنك مخْتَلُّ العقل والتفكير ، مجنون ، لن نسمع لك .

﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ١٨٦ ﴾

---

(١) رضوى : جبل بالمدينة . [لسان العرب ـ مادة : رضى] .

وما دُمْت أنت بشراً مثلنا ، ولم تتميز عنَّا بشىء ، فكيف تكون رسولاً ؟ ثم ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦)﴾ [الشعراء] أى : وما نظنك إلا كذاباً ، كالذين سبقوك .

﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا(١) مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧)﴾

أى : إنْ كنتَ صادقاً ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (١٨٧)﴾ [الشعراء] يطلبون العذاب ويستعجلونه ، كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا(٢) عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢)﴾ [الأحقاف]

ومن العجيب حين ينزل بهم العذاب يقولون انظرنا ، كيف وأنتم الذين استعجلتم العذاب ؟

ومعنى ﴿كِسَفًا .. (١٨٧)﴾ [الشعراء] مفردها كِسْفة ، مثل قِطَع وقطعة ، وقد وردتْ هذه الكلمة على ألسنة كثير من المكذِّبين ، وقالها الكفار للنبى محمد ﷺ : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢)﴾ [الإسراء]

---

(١) أى : جانباً من السماء وقطعة منها ، فننظر إليه . قال الجوهرى : الكسفة القطعة من الشىء [تفسير القرطبى ٥٠١٦/٧] .

(٢) أى : أجئتنا لتصرفنا وتصدنا . والأفَّاك : الذى يأفك الناس أى : يصدهم عن الحق بباطله . [لسان العرب ـ مادة : أفك] .

وقالوا ﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

وكان عليهم أن يقولوا : اللهم إنْ كان هذا هو الحقّ من عندك فاهْدنا إليه ، وهذا يدلُّك على حُمْقهم وعنادهم .

﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ (١٨٨) ﴾

فهو سبحانه العليم بكم : إنْ كنتم أهلاً للتوبة والندم والأمل ، أنْ تتوبوا فلن يصيبكم العذاب ، أو كنتم مُصرِّين على العصيان والتكذيب ، فسوف يصيبكم عذاب الهلاك والاستئصال ، فأنا لن أحكمَ عليكم بشيء ؛ لأنني بشر مثلكم لا أعرف ما في نياتكم ؛ لذلك سأكلُ أمركم إلى ربكم ـ عز وجل ـ الذي يعلم أمري وأمركم ، وسرِّي وسرِّكم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) ﴾

فكيف يُكذِّبونه ، وهو لم ينسب الأمر لنفسه ، ووكلهم إلى ربهم إذن : فهم لا يُكذِّبونه إنما يُكذِّبون الله ؛ لذلك يأتي الجزاء : ﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ .. (١٨٩) ﴾ [الشعراء]

وهو عذاب يوم مشهود ، حيث سلط الله عليهم الحرارة الشديدة سبعة أيام ، عاشوها في قيظ شديد ، وقد حجز الله عنهم الريح إلا بمقدار ما يُبقي رَمَق الحياة فيهم ، حتى اشتد عليهم الأمر وحميَتْ من تحتهم الرمال ، فراحوا يلتمسون شيئاً يُروِّح عنهم ، فرأوا غمامة

قادمة فى جو السماء فاستشرفوا لها وظنوها تخفف عنهم حرارة الشمس ، وتُروِّح عن نفوسهم ، فلما استظلُّوا بها ينتظرون الراحة والطمأنينة عاجلتهم بالنار تسقط عليهم كالمطر .

على حَدِّ قوْل الشاعر :

كَمَا أمطَرتْ يَوْماً ظماءً غمامةٌ   فلمَّا رأوْهَا أقشعَتْ وتجلَّت[1]

ويا ليت هذه السحابة أقشعت وتركتهم على حالهم ، إنما قذفتهم بالنار والحُمَم من فوقهم ، فزادتهم عذاباً على عذابهم .

كما قال سبحانه فى آية أخرى :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا[2] مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ .. (٢٥) ﴾ [الأحقاف]

لذلك وصف الله عذاب هذا اليوم بأنه ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) ﴾ [الشعراء] فما وَجْه عظمته وهو عذاب ؟ قالوا : لأنه جاء بعد استبشار واسترواح وأمل فى الراحة ، ففاجأهم ما زادهم عذاباً ، وهذا ما نسميه « يأس بعد إطماع » وهو أنكَى فى التعذيب وأشقّ على النفوس .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ .. (١٩٠) ﴾ [الشعراء] أى : فما حدثتكم به ﴿ لَآيَةً .. (١٩٠) ﴾ [الشعراء] يعنى : عبرة ، وسُمِّيَتْ كذلك لأنها تعبر

(١) انقشع السحاب وتقشَّع : ذهب عن وجه السماء . وانقشع الغيم وتقشَّع وقشعته الريح ، أى : كشفته فانقشع . [لسان العرب ـ مادة : قشع] .

(٢) العارض : السحابة إذا كانت فى ناحية من السماء ، والعارض يكون أبيض اللون . [لسان العرب ـ مادة : عرض] .

بصاحبها من حال إلى حال ، فإنْ كان مُكذباً آمن وصدق ، وإن كان معانداً لأنَ للحق وأطاع .

وما قصصتُه عليكم من مواكب الرسل وأقوامهم ، وهذا الموكب يضم سبعة من رسل الله مع أممهم : موسى ، وإبراهيم ، ونوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب عليهم جميعاً وعلى نبينا السلام ، وقد مضى هذا الموكب على سنة لله ثابتة لا تتخلف ، هى : أن ينصر الله - عز وجل - رسله والمؤمنين معهم ، ويخذل الكافرين المكذِّبين .

فلتأخذوا يا آل محمد من هذا الموكب عبرة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً .. (١٩٠)﴾ [الشعراء] يعنى عبرةً لكم ، وسُمِّيتْ عبرة ؛ لأنها تعبر بصاحبها من حال إلى حال ، فإنْ كان مُكذِّباً آمن وصدَّق ، وإنْ كان معانداً لأنَ للحق وأطاع ، وقد رأيتم أننا لم نُسْلِم رسولاً من رسلنا للمكذبين به ، وكانت سنتنا فى الرسل أن ننصرهم .

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢)﴾ [الصافات]

وقال : ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

ومن العبرة نقول : عبر الطريق يعنى : انتقل من جانب إلى جانب ، والعبرة هنا أن ننتقل من التكذيب واللدد والجحود والكبرياء إلى الإيمان والتصديق والطاعة ، حتى العَبرة (الدَّمْعة) مأخوذة من هذا المعنى .

وفى قوله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ (١٩٠)﴾ [الشعراء] حماية واحتراس حتى لا نهضم حق القلَّة التى آمنت[١] .

(١) قيل : آمن بشعيب من الفئتين (أهل مدين ، أصحاب الأيكة) تسعمائة نفر . [نقله القرطبى فى تفسيره ٥٠١٨/٧] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾

ربك : الرب هو المتولِّى الرعاية والتربية . وبهذه الخاتمة خُتمتْ جميع القصص السابقة ، ومع ما حدث منهم من تكذيب تُختم بهذه الخاتمة الدَّالة على العزة والرحمة .

ثم ينتقل السياق إلى خاتم المرسلين سيدنا محمد ﷺ بعد أنْ قدَّم لنا العبرة والعظة فى موكب الرسل السابقين ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾

﴿ وَإِنَّهُ .. ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الشعراء] على أىِّ شىء يعود هذا الضمير ؟ المفروض أن يسبقه مرجع يرجع إليه هذا الضمير وهو لم يُسبَق بشىء . تقول : جاءنى رجل فأكرمتُه فيعود ضمير الغائب فى أكرمته على (رجل)

وكما فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص] فالضمير هنا يعود على لفظ الجلالة ، مع أنه متأخر عنه ، ذلك لاستحضار عظمته تعالى فى النفس فلا تغيب .

كذلك ﴿ إِنَّهُ .. ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الشعراء] أى : القرآن الكريم وعرفناه من قوله سبحانه : ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الشعراء] وقُدِّم الضمير على مرجعه لشهرته وعدم انصراف الذِّهْن إلا إليه ، فحين تقول ﴿ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص] لا ينصرف إلا إلى الله ، ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ ﴾ [الشعراء] لا ينصرف إلا إلى القرآن الكريم(١) .

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٧) : « (وَإِنَّهُ) أى القرآن الذى تقدم ذكره فى أول السورة فى قوله ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الشعراء] » .

وقال ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢)﴾ [الشعراء]

أى : أنه كلام الله لم أقلْهُ من عندى ، خاصة وأن رسول الله ﷺ لم يسبق له أنْ وقف خطيباً فى قومه ، ولم يُعرف عنه قبل الرسالة أنه خطيب أو صاحب قَوْل .

إذن : فهو بمقاييس الدنيا دونكم فى هذه المسألة ، فإذا كان ما جاء به من عنده فلماذا لم تأتُوا بمثله ؟ وأنتم أصحاب تجربة فى القول والخطابة فى عكاظ وذى المجاز وذى المجنة ، فإن كان محمد قد افترى القرآن فأنتم أقدر على الافتراء ؛ لأنكم أهل دُرْبة فى هذه المسألة .

و ﴿الْعَالَمِينَ (١٩٢)﴾ [الشعراء] : كل ما سوى الله عزَّ وجلَّ ؛ لذلك كان ﷺ رحمة للعالمين للإنس وللجن وللملائكة وغيرها من العوالم .

لذلك لما نزلت : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ [الأنبياء] سأل سيدنا رسول الله جبريل عليه السلام : « أما لك من هذه الرحمة شىء يا أخى يا جبريل ؟» فقال : نعم ، كنت أخشى سوء العاقبة كإبليس ، فلما أنزل الله عليك قوله : ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠)﴾ [التكوير] أمنْتُ العاقبة ، فتلك هى الرحمة التى نالتنى .

وليس القرآن وحده تنزيلَ رب العالمين ، إنما كل الكتب السابقة السماوية كانت تنزيلَ رب العالمين ، لكن الفرق بين القرآن والكتب السابقة أنها كانت تأتى بمنهج الرسول فقط ، ثم تكون له معجزة فى أمر آخر تثبت صِدْقه فى البلاغ عن الله .

فموسى عليه السلام كان كتابه التوراة ، ومعجزته العصا ، وعيسى عليه السلام كان كتابه الإنجيل ، ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله ، أما محمد ﷺ فكان كتابه ومنهجه القرآن ومعجزته أيضاً ، فالمعجزة هى عَيْن المنهج . فلماذا ؟

قالوا : لأن القرآن جاء منهجاً للناس كافّة فى الزمان وفى المكان فلا بد - إذن - أن يكون المنهج هو عَيْن المعجزة ، والمعجزة هى عَيْن المنهج ، وما دام الأمر كذلك فلا يصنع هذه المعجزة إلا الله ، فهو تنزيل رب العالمين .

أما الكتب السابقة فقد كانت لأمة بعينها فى فترة محددة من الزمن ، وقد نزلتْ هذه الكتب بمعناها لا بنصِّها ؛ لذلك عيسى - عليه السلام - يقول : « سأجعل كلامى فى فمه »[(1)] أى : أن كلام الله سيكون فى فم الرسول بنصِّه ومعناه من عند الله ، وما دام بنصِّه من عند الله فهو تنزيل رب العالمين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾

كان من الممكن أن يكون الوحى من عند الله إلهاماً أو نَفْثاً فى الرَّوْع ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء] إذن : الأمر ليس نَفْثاً فى رَوْع رسول الله بحكم ما ، إنما يأتيه روح القُدُس وأمين الوحى يقول له : قال الله كذا وكذا .

(١) أصل هذه البشارة برسول الله ﷺ فى التوراة (العهد القديم) المنزَّل على موسى : « أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ، ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه » [سفر التثنية - الأصحاح ١٨ - عدد ١٨ ، ١٩] . قال رحمت الله الهندى فى « إظهار الحق » ص ٥١٠ « هو إشارة إلى أن ذلك النبى سينزل عليه الكتاب ، وإلى أنه سيكون أمياً حافظاً للكلام » .

لذلك لم يثبت القرآن إلا بطريق الوحى ، بواسطة جبريل عليه السلام ، فيأتيه الملك ؛ ولذلك علامات يعرفها ويحسّها ، ويتفصّد جبينه منه عرقاً ، ثم يُسرَّى عنه ، وهذه كلها علامات حضور الملك ومباشرته لرسول الله ، هذا هو الوحى ، أمَّا مجرد الإلهام أو النَّفْث فى الرَّوْع فلا يثبت به وَحْى .

لذلك كان جلساء رسول الله يعرفونه ساعة يأتيه الوحى ، وكانوا يسمعون فوق رأسه ﷺ كدوىّ النحل[1] أثناء نزول القرآن عليه ، وكان الأمر يثقل على رسول الله ، حتى إنه إنْ أسند فَخذه على أحد الصحابة أثناء الوحى يشعر الصحابى بثقلها كأنها جبل[2] ، وإذا نزل الوحى ورسول الله على دابته يثقل عليها حتى تنخّ به[3] ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝﴾ [المزمل]

ولم تهدأ مشقَّة الوحى على رسول الله إلا بعد أنْ فتَر عنه الوحى ، وانقطع فترة حتى تشوَّق له رسول الله ﷺ وانتظره ، وبعدها نزل عليه قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝﴾ [الشرح]

---

(١) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه كان يقول : « كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحى يُسمع عند وجهه دوىّ كدوىّ النحل » . أخرجه أحمد فى مسنده (١/٣٤) .

(٢) ذكر البخارى فى صحيحه ـ كتاب الصلاة ، باب ما يذكر فى الفخذ (١٢) قول زيد بن ثابت كاتب الوحى رضى الله عنه موقوفاً عليه : أنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذى ، فثقلت علىَّ حتى خفت أن تُرضّ فخذى (فتح البارى ٤٧٨/١) . وقال ابن حجر : هو طرف من حديث موصول عند البخارى فى تفسير سورة النساء فى نزول قوله تعالى : ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ .. ۝﴾ [النساء] (أخرجه البخارى فى صحيحه ـ ٤٥٩٢) .

(٣) عن أسماء بنت يزيد قالت : « إنى لآخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله إذ أنزلت عليه (سورة المائدة كلها ، فكادت من ثقلها تدق بعضد الناقة » أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٤٥٥) .

ونزلت عليه : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ ﴾ [الضحى]

يعنى : سيعاودك الوحى فى سهولة ودون مشقَّة ، ولن تتعب فى تلقيه ، كما كنتَ تعانى من قبل .

وقوله تعالى ﴿ نَزَلَ .. ۝١٩٣ ﴾ [الشعراء] تفيد العلو ، وأن القرآن نزل من أعلى من عند الله ، ليس من وضع بشر يخطىء ويصيب ويجهل المصلحة ، كما نرى فى القوانين الوضعية التى تُعدَّل كل يوم ، ولا تتناسب ومقتضيات التطور ، والتى يظهر عُوَارها يوماً بعد يوم .

ولأن القرآن نزل من أعلى فيجب علينا أن نستقبله استقبالَ الواثق فيه المطمئن به ، لا نعانده ، ولا نتكبر عليه ؛ لأنك تتكبر على مساوٍ لك ، أمّا ما جاءك من أعلى فيلزمك الانقياد له ، عن اقتناع .

وفى الريف نسمعهم يقولون (اللى الشرع يقطع صباعه ميخرش دم) لماذا ؟ لأنه قُطِع بأمر الأعلى منك ، بأمر الله ، لا بأمر واحد مثلك .

وحين نتأمل قوله تعالى فى التشريع لحكم من الأحكام : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. ۝١٥١ ﴾ [الأنعام]

كلمة (تعالوا) تعنى : اتركوا حضيض تشريع الأرض ، وأقْبلوا على رِفْعة تشريع السماء ، فتعالوا أىْ : تعلُّوا وارتفعوا ، لا تهبطوا إلى مستوى الأرض ، وإلا تعبتُم وعضَّتكم الأحداث ؛ لأن الذى يُشرِّع لكم بشر أمثالكم وإنْ كانوا حتى حَسَنِى النية ، فهم لا يعلمون حقائق الأمور ، فإنْ أصابوا فى شىء أخطأوا فى أشياء ، وسوف تُضطرون

لتغيير هذه التشريعات وتعديلها . إذن : فالأسلم لكم أنْ تأخذوا من الأعلى ؛ لأنه سبحانه العليم بما يُصلحكم .

إذن : ﴿ نَزَلَ .. ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء] تفيد أنه من الأعلى من مصدر الخير ، حتى الحديد وهو من نعَم الله ، لما تكلم عنه قال سبحانه : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

ولم يَقُلْ مثلاً : أنزلنا الألماظ أو الألماس ، أو غيره من المعادن النفيسة ، لماذا ؟ لأن الحديد أداة من أدوات نُصْرة الدعوة وإعلاء كلمة الله .

وسُمِّى جبريل ـ عليه السلام ـ الروح ؛ لأن الروح بها الحياة ، والملائكة أحياء لكن ليس لهم مادة ، فكأنهم أرواح مطلقة ، أما البشر فمادة فيها روح .

كما أن كلمة الروح استُعملَتْ عدة استعمالات منها ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [الإسراء] والمراد الروح التى نحيا بها .

وسُمِّى القرآن رُوحاً : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى] إذن : فالقرآن روح ، والملك الذى نزل به روح ، فإنْ قلتَ : فما حاجتى إلى الروح وفىَّ روح ؟

نقول لك : هذه الروح التى تحيا بها مادتك ، والتى تفارقك حين تموت وتنتهى المسألة ، أمَّا الروح التى تأتيك فى القرآن فهى روح باقية خالدة ، إنها منهج الله الذى يعطيك الحياة الأبدية التى لا تنتهى .

لذلك ، فالروح التى تحيا بها المادة للمؤمن وللكافر على حَدٍّ

سواء ، أمَّا الروح التى تأتيك من كتاب الله وفى منهجه ، فهى للمؤمن خاصة ، وهى باقية ، وبها تستأنف حياة جديدة خالدة بعد حياة المادة الفانية .

واقرأ إن شئت قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

كيف وها نحن أحياء ؟ نعم ، نحن أحياء بالروح الأولى روح المادة الفانية ، أمَّا رسول الله فهو يدعونا للحياة الباقية ، وكأنه - عز وجل - يشير إلى أن هذه الحياة التى نحياها ليست هى الحياة الحقيقية ؛ لأنها ستنتهى ، وهناك حياة أخرى باقية دائمة .

حتى مجرد قولنا نحن أحياء فيه تجاوز ؛ لأن الأحياء هم الذين لا يموتون ، وهذه الحياة لا تأتى إلا بمنهج الله ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] فالحيوان مبالغة فى الحياة ، أى : الحياة الحقيقية ، أما حياة المادة فأىّ حياة هذه التى يموت فيها المرء يوم مولده ، أو حتى بعد مائة عام ؟!

ثم يَصف الحق - سبحانه وتعالى - الروح بأنه ﴿ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] أى : على الوحى ، القرآن - إذن - مَصُون عند الله ، مصون عند الروح الأمين الذى نزل به ، مَصُون عند النبى الأمين الذى نزل عليه .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ (٤٤) لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ[1] (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) ﴾ [الحاقة]

---

(١) الوتين : عرْق فى القلب إذا قُطع مات صاحبه ، وهو الشريان الرئيسى الهام الذى يغذى الجسم بالدم النقى الخارج من القلب ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) ﴾ [الحاقة] أى : أمتناه عاجلاً وأهلكناه سريعاً إذا خالف أمرنا أىّ مخالفة . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ[1] ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [التكوير]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾

نزل القرآن على أذن رسول الله ، أم على قلبه ؟ الأذن هى : أداة السمع ، لكن قال تعالى ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ .. ﴿١٩٤﴾ ﴾ [الشعراء] لأن الأذن وسيلة عبور للقلب ، لأنه محلُّ التلقِّى ، وهو (دينامو) الحركة فى جسم الإنسان ، فبالدم الذى يضخُّه فى أعضاء الجسم وأجهزته تتولَّد الطاقات والقدرة على الحركة وأداء الوظائف .

لذلك نرى المريض مثلاً يأخذ الدواء عن طريق الفم ، فيدور الدواء دورة الطعام ، ويُمتصُّ ببطء . فإنْ أردتَ سرعة وصول الدواء للجسم تعطيه حقنة فى العضل ، لكن الأسرع من هذا أن تعطيه حقنة فى الوريد ، فتختلط بالدم مباشرة ، وتُحدث أثرها فى الجسم بسرعة ، فالدم هو وسيلة الحياة فى النفس البشرية .

إذن : فالقلب هو محلُّ الاعتبار والتأمل ، وليس لسماع الأذن قيمة إذا لم يَعِ القلب ما تسمع الأذن ؛ لذلك يقول سبحانه فى موضع آخر : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ .. ﴿٩٧﴾ ﴾ [البقرة]

فالمعنى : نزَّله على قلبك مباشرة ، كأنه لم يمرّ بالأذن ؛ لأن الله تعالى اصطفى لذلك رسولاً صنعه على عينه ، وأزال عنه العقبات البشرية التى تعوق هذه المباشرة ، فكأن قلبه ﷺ أصبح منتبهاً لتلقِّى

---

(١) الضنين : البخيل . فهو سبحانه لا يكتم غيباً عن رسول الله ، بل يبلغه كل ما أوحاه الله إليه من خبر السماء [القاموس القويم ١/٣٩٦] .

كـلام الله ؛ لأنه مصنوع على عَـيْن الله ، أمـا الذين سمـعوا كـلام الله بآذانهم فلم يتجاوبوا معه ، فكانت قلوبهم مغلقة قاسية فلم تفهم .

والقلب محل التكاليف ، ومُستقرّ العقائد ، وإليه تنتهى مُحصِّلة وسائل الإدراك كلها ، فالعيْن ترى ، والأذن تسمع ، والأنف يشمّ ، والأيدى تلمس .. ثم يُعرض هذا كله على العقل ليختار بين البدائل ، فإذا اختار العقل واطمأن إلى قضية ينقلها إلى القلب لتستقر به ؛ لذلك نسميها عقيدة يعنى : أمْر عقد القلب عليه ، فلم يَعُدْ يطفو إلى العقل ليبحث من جديد ، لقد ترسَّخ فى القلب ، وأصبح عقيدة ثابتة .

وفى آيات كثيرة نجد المعوّل والنظر إلى القلب ، يقول تعالى : ﴿ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [الحج]

وفى آية أخرى يُبيِّن أن التقوى محلُّها القلب : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج]

وفى الشهادة يقول تعالى : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ .. ﴿٢٨٣﴾ ﴾ [البقرة] مع أن الشهادة باللسان ، لا بالقلب .

لذلك يقول النبى ﷺ فى الحديث الذى رواه النعمان بن بشير : « ألا إن فى الجسد مُضْغة ، إذا صلُحتْ صلُحَ الجسد كله ، وإذا فسدتْ فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب »[1] .

ويُحدِّثنا صحابة النبى ﷺ أنه كان ينزل عليه الوحى بآيات كثيرة بما يوازى رُبْعين أو ثلاثة أرباع مرة واحدة ، فإذا ما سُرِّى عنه ﷺ قال : اكتبوا ، ثم يقرؤها عليهم مع وَضْع كل آية فى مكانها من

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٠٥١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) ، وأحمد فى مسنده (٤/٢٧٠ ، ٢٧٤) من حديث النعمان بن بشير ، وأوله : « إن الحلال بيِّن ، وإن الحرام بيِّن » .

سورتها ، ثم يقرؤها ﷺ في الصلاة ، فتكون هي هي كما أملاها عليهم ؛ ذلك لأن القرآن باشر قلبه لا أذنه .

وكان ﷺ لحرصه على حفظ القرآن يُردِّده خلف جبريل ويكرره حتى لا ينساه ، فأنزل الله عليه[1] : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦﴾ [الأعلى]

وقال في موضع آخر : ﴿وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ۝١١٤﴾ [طه]

وقال تعالى : ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩﴾ [القيامة]

ومن عجيب أمر القرآن أنك لا تجد شخصاً يُلقى كلمة لمدة خمس دقائق مثلاً ، ثم يعيدها عليك كما قالها نَصّاً ، أمّا النبي ﷺ فكانت تُلْقَى عليه السورة ، فيعيدها كما هي ، ذلك من قوله تعالى : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦﴾ [الأعلى]

وقوله سبحانه : ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝١٩٤﴾ [الشعراء] المنذر : الذي يُحذِّر من الشر قبل وقوعه ليحتاط السامع فلا يقع في دواعي الشر ، ولا يكون الإنذار ساعةَ وقوع الشر ، لأنه في هذه الحالة لا يُجْدي ، وكذلك البشارة بالخير تكون قبل حدوثه لتحثَّ السامع على الخير ، وتحفزه إليه .

ويقول سبحانه في آية أخرى : ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ .. ۝٦﴾ [يس]

(١) عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ إذا أتاه جبريل بالوحي لم يفرغ حتى يزمل من الوحي يتكلم النبي ﷺ بأوله مخافة أن يُغْشى عليه ، فقال له جبريل ، لم تفعل ذلك ؟ قال : مخافة أن أنسى . فأنزل الله عز وجل ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ۝٦﴾ [الأعلى] . أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (١٢٦٤٩) وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٦/٧) وقال « فيه جويبر وهو ضعيف » وكذا ضعَّفه السيوطي في أسباب النزول (ص ٢٩٦) .

فكما أنذر الرسلُ السابقون أقوامهم ، أنْذِر أنت قومك ، وانضمّ إلى موكب الرسالات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء] فإنْ كان القرآن قد نزل على قلبك ، فكيف يسمعونه ؟ وكيف يكتبونه ؟ ويحفظونه ؟ يأتى هنا دَوْر اللسان العربى الذى يُخرِج القرآن إلى الناس . إذن : فمنطق رسول الله بعد نزوله على القلب ، ويُؤخِّر اللسان ؛ لأنه وسيلة الحفظ والصيانة والقراءة .

ومعنى ﴿ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ [الشعراء] أى : واضح ظاهر ، محيط بكل أقضية الحياة ، لكن يأتى مَنْ يقول : إنْ كان القرآن نزل بلسان عربى ، فما بال الكلمات غير العربية التى نطق بها ؟ فكلمة قسطاس رومية[١] ، وآمين حبشية ، وسجيل فارسية[٢] .

ونقول : معنى اللسان العربى ما نطق به العرب ، ودار على ألسنتهم ؛ لأنه أصبح من لغتهم وصار عربياً ، وإنْ كان من لغات أخرى ، والمراد أنه لم يَأْتِ بكلام جديد لم تعرفه العرب ، فقبل أنْ ينزل القرآن كانت هذه الكلمةَ شائعة فى اللسان العربى .

ونزل القرآن باللسان العربى خاصةً ؛ لأن العرب هم أمة استقبال

---

(١) أخرج الفريابى عن مجاهد ، قال : القسطاس : العدل بالرومية . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : القسطاس بلغة الروم : الميزان [الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١١٥/٢] .

(٢) أخرج الفريابى عن مجاهد ، قال : سجيل بالفارسية . أولها حجارة وآخرها طين . [الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١١٢/٢] .

الدعوة وحاملوها إلى باقى الأمم ، فلا بُدَّ أنْ يفهموا عن القرآن . فإنْ قُلْتَ : فالأمم الأخرى غير العربية مخاطبةٌ أيضاً بهذا القرآن العربى ، فكيف يستقبلونه ويفهمون عنه ؟ نقول : مَنْ سمعه من العرب عليه أن يُبلغه بلسان القوم الذين يدعوهم ، وهذه مهمتنا نحن العرب تجاه كتاب الله .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ ﴾

الضمير فى ﴿إِنَّهُ .. ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء] يصح أنْ يعود على القرآن كسابقه ، ويصح أنْ يعود على رسول الله ، ومعنى ﴿زُبُرِ .. ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء] جمع زبور يعني : مكتوب مسطور ، ولو أن العقول التى عارضتْ رسول الله ، وأنكرتْ عليه رسالته ، وأنكرتْ عليه معجزته فَطنوا إلى الرسالات السابقة عليه مباشرة ، وهى : اليهودية والنصرانية فى التوراة والإنجيل لوجبَ عليهم أنْ يُصدِّقوه ؛ لأنه مذكور فى كتب الأولين .

كما قال سبحانه في موضع آخر : ﴿إِنَّ هَـٰذَا لَفِى الصُّحُفِ الأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى]

فالمبادىء العامة من العقائد والأخلاق والعدل الإلهى وقصص الأنبياء كلها أمور ثابتة فى كل الكتب وعند جميع الأنبياء ، ولا يتغير الأ الأحكام من كتاب لآخر ، لتناسب العصر والأوان الذى جاءتْ فيه .

وحين تقرأ قوله تعالى : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. ﴿١٣﴾﴾ [الشورى]

تقول : ولماذا ـ إذن ـ نزل القرآن ؟ ولماذا لم يَقُل وصَّينا به محمداً ؟

قالوا : لأن الأحكام ستتغير ؛ لتناسب كل العصور التى نزل

القرآن لهدايتها ، ولكل الأماكن ، ولتناسب عمومية الإسلام .

لذلك رُوى عن عبد الله بن سلام(١) وآخر اسمه ابن يامين ، وكانوا من أهل الكتاب ، وشهد كلاهمــا أنه رأى ذكر محمد ﷺ فى التوراة ، وفى الإنجيل . والقرآن يقول عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾ [البقرة]

ولما سمعها ابن سلام قال : ربنا تساهل معنا فى هذه المسألة ، فوالله إنى لأعرفه كمعرفتى لولدى ، ومعرفتى لمحمد أشد(٢) .

ويقول تعــالى فى هذا المعنى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ .. (١٥٧) ﴾ [الأعراف]

ويقول سبحـانه على لسان عيسى عليه السلام حـين يقف خطيباً فى قومه : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ .. (٦) ﴾[الصف]

إذن : ﴿ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الأَوَّلِينَ (١٩٦) ﴾ [الشـعراء] أى : محـمد ﷺ أو هو القـرآن الكريم ، فكـلاهما صـحـيح ؛ لأن صـفـة رسـول الله ﷺ مـوجودة فى هذه الكتب ، أو الـقرآن فى عـموم مـبـادئه فى العقـائد والأخلاق والبعث وسير الأنبياء .

فكان الواجب على الذين جاءهم القرآن أنْ يؤمنوا به ، خاصة وأن رسول الله كـان أمياً لم يجلس إلى مـعلم ، وتاريخه فى ذلك مـعروف لهم ، حيث لم يسبق له أن قرأ أو كتب شيئاً .

---

(١) هو : عـبد الله بن سـلام بن الحارث الإسـرائيلى ، أبو يوسف ، صـحابى أسلم عند قـدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمـه الحصين ، فسماه رسول الله ﷺ عبـد الله ، وشهد مع عمر فتح بيت المقدس ، أقام بالمدينة إلى أن توفى عام ٤٣ هـ (الأعلام للزركلى ٤/ ٩٠) .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٩٤) : « قـال القرطبى : يُروى عن عمر أنه قال لعبد الله ابن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف ولدك ؟ قال : نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته ، وإنى لا أدرى ما كان من أمه » .

والقرآن يؤكد هذه المسألة ، فيقول تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨) ﴾ [العنكبوت]

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا[١] فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) ﴾ [القصص]

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ .. (٤٤) ﴾ [القصص]

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. (٤٤) ﴾ [آل عمران]

فكل هذه الآيات وغيرها دليل على أنه ﷺ لا علْمَ له بها إلا بواسطة الوَحْى المباشر فى القرآن الكريم ، وكان على القوم أن يؤمنوا به أول ما سمعوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ[٢] بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) ﴾

آية : أى دليلاً وعلامةً على أن القرآن من عند الله ؛ لأن علماء بنى إسرائيل كانوا يستفتحون به على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، أو لم يقولوا للأوْس والخزرج فى المدينة : لقد أظلَّ زمان نبىٍّ يأتى سنتبعه ونقتلكم به أيها المشركون قَتْل عاد وإرم[٣] ، ومع ذلك لما بُعث النبى ﷺ أنكروه وكفروا به ، وهم يعرفون أنه حق ، لماذا ؟

(١) ثوى بالمكان : حلَّه وأقام فيه واستقر به . والمعنى : ما كنت مقيماً عندهم . [القاموس القويم ١/١١٣] .

(٢) أخرج ابن سعد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عطية العوفى : كانوا خمسة : أسد ، وأسيد ، وابن يامين ، وثعلبة ، وعبد الله بن سلام . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٣٢٣] .

(٣) عن أشياخ من الأنصار قالوا : كنا قد علوناهم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون : إن نبياً سيُبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/١٢٤) نقلاً عن ابن إسحاق .

قالوا : لأنهم تنبَّهوا إلى أنه سيسلبهم القيادة ، وكانوا في المدينة أهل علم ، وأهل كتاب ، وأهل بصر ، وأهل حروب .. إلخ . وليلةَ هاجر النبي ﷺ إلى المدينة كانوا يستعدون لتتويج عبد الله بن أُبيٍّ ملكاً عليها ، فلما جاءها النبي ﷺ أفسد عليهم هذه المسألة ؛ لذلك حسدوه على هذه المكانة ، فقد أخذ منهم السُّلْطة الزمنية والتي كانت لهم .

وقال ﴿ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧) ﴾ [الشعراء] لأنهم كانوا يعرفون صِدْق رسول الله ، ولأنه ﷺ جاء بأشياء لا يعرفها إلا هم ، وقد اشتهر منهم خمسة ، هم : عبد الله بن سلام ، وأسد ، وأسيد ، وثعلبة ، وابن يامين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) ﴾

لقد أنزلنا القرآن بلسان عربي على أمة عربية ، ولو أنزلناه على الأعاجم ما فهموه[1] .

وقال الحق وسبحانه وتعالى في موضع آخر : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤) ﴾ [فصلت]

(١) قال قتادة : يقول : لو نزلنا هذا القرآن على بعض الأعجمين لكانت العرب أشد الناس فيه ، لا يفهمونه ولا يدرون ما هو ؟ أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم .
– وقال قتادة أيضاً : لو أنزله الله عجمياً لكانوا أخسر الناس به لأنهم لا يعرفون العجمية . أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير . [ذكرهما السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٢٣] .

لماذا ؟ لأن المستقبل مقفول ، فإنْ أردتَ استقبال أىّ قضية فعليك أنْ تُخرج من قلبك أىّ قضية أخرى معارضة لها ، ثم بعد ذلك لك أنْ تدرس القضيتين ، فما وافق الحق فأدخلْه .

لذلك يقول تعالى : ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ .. ④﴾ [الأحزاب] فهو قلب واحد ، لذلك أخرج منه كل قضية سابقة ، وها هو القرآن واحد ، وقائله واحد ، ومُبلِّغه واحد ، ولسانه عربى .

يقول تعالى فى وصفهم حالَ سماع القرآن : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ[1] إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ⑫⑦﴾ [التوبة] أى : يريدون التسلُّل والخروج .

ويقول تعالى فى آية أخرى : ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا .. ⑫④﴾ [التوبة] أى : ماذا أفادتكم ؟ وماذا زادتْ فى إيمانكم ؟

ويقول سبحانه : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا[2] لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ⑯﴾ [محمد] يعنى : ما الجديد الذى جاء به ؟

ويقول عن الذين آمنوا : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ⑰﴾ [محمد]

---

(١) قال ابن عباس فيما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم : هم المنافقون . (أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤/٣٢٦) .

(٢) عن ابن جريج قال : كان المؤمنون والمنافقون يجتمعون إلى النبى ﷺ فيستمع المؤمنون منه ما يقول ويعونه ، ويسمعه المنافقون فلا يعونه ، فإذا خرجوا سألوا المؤمنين : ماذا قال آنفاً ؟ فنزلت ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ .. ⑯﴾ [محمد] . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٧/٤٦٦) وعزاه لابن المنذر .

و ﴿ الأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾ [الشعراء] جمع : أعجمى ، والأعجم هو الذى لا يُحسن الكلام العربى ، وإنْ كان ينطق به ، والعجمىّ ضد العربىّ والعجمَ غير العرب . فالمعنى ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ .. ﴿١٩٨﴾ ﴾ [الشعراء] أى : القرآن العربى على بعض الأعجمين ما فهمه ، وقال ﴿ بَعْضِ .. ﴿١٩٨﴾ ﴾ [الشعراء] لمراعاة الاحتمال ، فمن العجم مَنْ تعلَّم العربية وأجادها ويستطيع فَهْم القرآن .

وقوله تعالى : ﴿ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ ﴾ [الشعراء] لأنهم لم يفهموا منه شيئاً ، فكذلك أنتم مثل هؤلاء العجم فى تلقِّى واستقبال كلام الله ، لم تفهموا منه شيئاً .

ذلك لأنهم أحبوا الكفر والعناد وأصرُّوا عليه ، واستراحتْ إليه قلوبهم حتى عَشقوه ، فأعانهم الله عليه ، وختم على قلوبهم ، فلا يدخلها إيمانٌ ، ولا يخرج منها كفر .

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ ﴾

معنى ﴿ سَلَكْنَاهُ .. ﴿٢٠٠﴾ ﴾ [الشعراء] أدخلناه فى قلوب المجرمين ، كأنهم عجم لا يفهمون منه شيئاً ، لذلك ﴿ لا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [الشعراء] وما داموا لن يؤمنوا به حتى يروا العذاب الأليم فلن يُقبلَ منهم إيمان .

ومعنى ﴿ بَغْتَةً .. ﴿٢٠٢﴾ ﴾ [الشعراء] أى : فجأة ، ومن حيث لا يشعرون .

لذلك لما نزل القرآن وآمن برسول الله بعض الصحابة اضْطهد رسول الله وصحابته ، وأوذوا حتى صاروا لا يأمنون على أنفسهم من بَطْش الكفار ، حتى كانوا يبيتون فى السلاح ، ويستيقظون فى السلاح ، لا يجدون مَنْ يحميه .

وفى هذه الحالة نزل قوله تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] فتعجب عمر رضى الله عنه : أىُّ جمع هذا الذى سيُهزم ، والمسلمون على هذه الحال ؟ فلما شهد بدراً وما كان فيها من قتْل المشركين ونُصْرة دين الله ، قال : نعم صدق الله ، سيُهزم الجمع ويُولُّون الدبر[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) ﴾

أى : انظرونا وتمهَّلوا علينا ، وأخِّروا عنَّا العذاب ، سبحان الله ألم تستعجلوه[2] ؟ وهذه طبيعة أهل العناد والكفر إنْ تركناهم طلبوا أنْ ينزل عليهم ، وإنْ نزل بهم العذاب قالوا : انظرونا وتمهَّلوا علينا .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٢٦٦/٤) وعزاه لابن أبى حاتم عن عكرمة قال : « لما نزلت ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى أىّ جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيُهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ .

(٢) يقول تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) ﴾ [ص] أى : عجِّل لنا العذاب . وقال تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) ﴾ [العنكبوت] .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ[1] ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾

﴿ أَفَرَأَيْتَ .. ﴿٢٠٥﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : أخبرنى ﴿ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ ﴾ [الشعراء] ومع طول المدة، إلا أن الغاية واحدة[2] ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [الشعراء]

﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾

كما قال سبحانه فى آية أخرى : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾ [الأنعام] ، فقد جاءهم رسول يُعلِّمهم وينذرهم ؛ ليقيم عليهم الحجة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء]

هذا كله ﴿ ذِكْرَىٰ .. ﴿٢٠٩﴾ ﴾ [الشعراء] تعنى : نذكره لنُوقظ غفلتكم ﴿ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾ [الشعراء] فأنتم الذين فعلتم هذا بأنفسكم ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٢١) : « المراد أهل مكة فى قول الضحاك وغيره » .

(٢) أى : لو أخرناهم وأنظرناهم وأملينا لهم برهة من الدهر وحيناً من الزمان وإن طال ثم جاءهم أمر الله ، أىّ شىء يجدى عنهم ما كانوا فيه من النعيم [تفسير ابن كثير ٣/٣٤٨].

ثم يقول الحق سبحانه عن القرآن :

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) ﴾

لأنهم قالوا : إنما تنزَّلت الشياطين على محمد بالقرآن ، وكانوا يقولون ذلك لكل شاعر ماهر بشعره عندهم ، فلكل شاعر شيطان يُمليه الشِّعْر ، وعندهم واد يُسمَّى وادى « عبقر » هو وادى الجن ، فيقولون : فلان عبقرى أى : موصول بالجن فى هذا الوادى .

لكن ، كيف والكتاب الذى نزل على محمد عدو للشياطين ، يلعنهم فى كل مناسبة ، ويُحذِّر أتباعه منهم : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ .. (٢٦٨) ﴾ [البقرة] ويقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾ [فاطر]

فكيف - إذن - يمده الشيطان ويُمليه عليه ، وهو عدوه ؟ ولماذا لم يأتكم وأنتم أحباؤه ؟ هذه واحدة .

الأخرى : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) ﴾ [الشعراء] إن الله جعل القرآن مُعْجزاً ومنهجاً ، والمعجزة لا يتسلَّط عليها إنس ولا جن فيفسدها ، لذلك قال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

أما الكتب السابقة فقد طلبتْ من المؤمنين بها أنْ يحفظوها ، وفَرْق بين الحفظ منى ، وطلب الحفظ منكم ؛ لأن الطلب تكليف وهو عُرْضة لأنْ يُطاع ولأنْ يُعصَى ، وقد جربنا حفظ البشر فلم يحافظوا على كتبهم السابقة ؛ لذلك تولّى الحق - سبحانه وتعالى - حفْظ قرآنه

بنفسه ، ولم يكِلْه إلى أحد من خَلْقه .

لذلك تجد فى هذا المجال كثيراً من العجائب والمفارقات ، فمع تقدُّم الزمن وطغيان الحضارات المعادية للإسلام ، والتى تُمطرنا كل يوم بوابل من الانحرافات والخروج عن تعاليم الدين ، ومنَّا مَنْ ينساق خلفهم ، وهذا كله ينقص من الأحكام المطبَّقة من الإسلام .

لكن مع هذا كله تجد القرآن يزداد توثيقاً ، ويزداد حفظاً ، ويتبارى حتى غير المسلمين فى حفْظ كتاب الله وتوثيقه ، والتجديد فى طباعته ، حتى رأينا مصحفاً فى ورقة واحدة ، ومصحفاً فى حجم عقلة الإصبع ، ويفخر بعضهم الآن بأنه يملك أصغر مصحف فى العالم .. إلخ بصرف النظر عن دوافعهم مِنْ وراء هذا .

المهم أن الله تعالى يُسخِّر حتى أعداء القرآن لحفْظ القرآن ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (٣١)﴾ [المدثر]

أليس من وسائل نَشْر القرآن والمحافظة عليه آلات التسجيل وآلات تكبير الصوت التى تنشر كلام الله فى كل مكان ؟ ولم يَلْق شىءٌ من الكتب السابقة مثل هذه العناية .

إذن : فالعناية بالقرآن كنصٍّ لا تتناسب مع النقص فى أحكامه وانصراف أهله عنها ، وكأن الله ـ عز وجل ـ يقول لنا : سأحفظ هذا النصَّ بغير المؤمنين به ، وسأجعلهم يُوثِّقونه ويهتمون به ؛ ليكون ذلك حجة عليكم .

لذلك كان عند الألمان قبل الحرب العالمية خزانة بها أدراج ، فى كل درج منها آية من القرآن ، يُحفظ به كل ما كُتب عن هذه الآية بدايةً من تفسير ابن عباس إلى وقتها ، وهذا دليل على أنهم مُسخَّرون بقوة خفية لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر]

وسبق أن قلنا : إن بعض النساء يَسرْنَ فى الشوارع كاشفات عن صدورهن ، ومع ذلك تتحلَّى بمصحف على صدرها ، وليتها تستر صدرها ولا تُعلِّق المصحف .

فكيف تقولون تنزلت به الشياطين ، وقد جاء القرآن ليعلن لأهله عداءه لهم والحذر منهم ؟ كيف والشياطين لا تتنزل إلا على كل كفَّار أثيم ، وأنتم أوْلَى بأن تتنزَّل عليكم ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام]

ومعنى : ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾ [الشعراء] أن هذه المسألة فوق قدراتهم ؛ لأن الحق تبارك وتعالى قال :

﴿ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾

وقد شرح الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ(1) فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ ﴾ [الجن]

وبعد ذلك يتكلم عن استقبال المنهج من الرسول ومن آله وأتباعه ، ومن المؤمنين جميعاً :

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال ﷺ : « إذا قضى الله الأمر فى السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدَّد بين أصابعه – فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧٠١ ، ٤٨٠٠) وابن ماجة فى سننه (١٩٤) .

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾

خاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿ فَلا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ .. ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء] فهل كان ﷺ مظنة أن يدعو مع الله إلهاً آخر ؟ قالوا : لا ، إنما المراد ابتداء توجيه ، وابتداء تكليف ، كأنه يقول له : اجعل عندك مبدءًا ، أنك لا تتخذ مع الله إلهاً آخر ، لا أن الرسول اتخذ إلهاً ، فجاء الوحى لينهاه ، إنما هو بداية تشريع وتكليف ، وإذا كان العظيم المرسل ﷺ يتوعده الله إنْ أراد أن يتخذ إلهاً آخر ، فما بالك بمَنْ هو دونه ؟

فساعةَ يسمع الناس هذا الخطاب مُوجّهاً إلى النبى المرسل إليهم ، فلا بُدَّ أنْ يصغوا إليه ، ويحذروا ما فيه من تحذير ، كما لو وجَّه رئيس الدولة أمراً إلى رئيس الوزراء مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ وحذَّره من عاقبة مخالفته ، فلا شكَّ أن مَنْ دونه من الموظفين سيكون أطوع منه لهذا الأمر .

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾

وهكذا نقل الأمر من رسول الله إلى أهله وعشيرته الأقربين ، ذلك ليطمئن الآخرون من قومه ، فهو يأمرهم بأمر ليس بنجْوة عنه ، فأول ما ألزم به ألزم نفسه ثم عشيرته ، وهذا أدْعى للطاعة وللقبول ، فأنت تردُّ أمرى إذا كنتُ آمرك به ولا أفعله ، لكنى آمرك وأسبقك إلى الفعل .

لذلك سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ وكان على المنبر يخطب فى الناس ، ويقول : أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا ، فقام أعرابى وقال : لا سمعَ لك ولا طاعة ، انظر إلى هذه الجرأة على مَنْ ؟ على عمر وهو على المنبر ـ فقال له عمر : ولِمَ ؟

قال : لأن ثيابك أطول من ثيابنا - وكان القماش يُوزَّع بين المسلمين بالتساوى لا فَرْقَ بين طويل وقصير - فقال عمر لابنه عبد الله : قُم يا عبد الله لتُرِى الناس ، فقام عبد الله فقال : إن أبى رجل طوَال - مبالغة فى الطول - وثوبه فى المسلمين لم يكْفه ، فأعطيته ثوبى فوصله بثوبه ، وها أنذا بمُرقَّعتى بينكم ، عندها قال الأعرابى : إذنْ نسمع ونطيع(١) .

لكن أين القدوة فى دوائرنا ومصالحنا الحكومية الآن ؟ وأين هو رئيس المصلحة الذى يحضر ، ويجلس على مكتبه فى الثامنة صباحاً ليكون قدوة لمرؤوسيه ؟ وإن من أشد ما ابتُلينا به أن نفقد القدوة فى الرؤساء والمسئولين . لذلك أول ما وُجِّه التشريع والتكليف وُجِّه إلى رسول الله ، وإلى أقرب الناس إليه وهم عشيرته الأقربون ؛ لأن الفساد يأتى أول ما يأتى من دوائر القُرْبى والحاشية التى تحيط بالإنسان ، وقد يكون الرئيس أو الحاكم بخير ، لكن حاشيته هى سبب الفساد ، حيث تستغل اسمه فى فسادها أو تُضلّله وتُعمِّى عليه الحقائق .. إلخ .

لذلك كان سيدنا عمر - رضى الله عنه - ساعة يريد أن يُقرِّر شيئاً للأمة ، ويعلم أنه قَاسٍ عليهم يجمع أهله أولاً ويقول لهم : لقد شاء الله أن أقرر كذا وكذا ، فمَنْ خالفنى منكم فى شىء من هذا جعلته نكالاً لعامة المسلمين ، وهكذا يضمن أهله وأقاربه أولاً ، ويبدأ بهم تنفيذ ما أراده للمسلمين .

---

(١) عن الحسن ، قال : خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة . وعن أنس قال : كان بين كتفى عمر ثلاث رقاع . [أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة ١٤٧/١] .

وتأمل ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء] والإنذار كما ذكرنا التحذير من الشرِّ قبل أوانه ، فلم يقُلْ : بشِّر عشيرتك ، كأنه يقول له : إياك أنْ يأخذك به لين ورأفة ، أو عطف لقرابتهم لك ، بل بهم فابدأ .

وقد امتثل رسول الله ﷺ لهذا التوجيه ، فكان ﷺ يقول لقرابته : « يا عباس يا عم رسول الله ، يا صفية عمة رسول الله ، يا فاطمة بنت محمد ، اعملوا فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً ، ولا يأتيني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم »[(١)] .

وفي الوقت الذي يدعوه إلى إنذار عشيرته الأقربين يقول في مقابلها :

﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (٢١٥) ﴾

بعد أن أمره بالشدة على أهله وقرابته يأمره باللين ، وخَفْض الجناح لباقي المؤمنين به ، وخَفْض الجناح كناية عن اللُّطْف واللين في المعاملة ، وقد أُخذ هذا المعنى من الطائر حين يحنو على فراخه ، ويضمهم بجناحه .

وخَفْض الجناح دليل الحنان ، لا الذلّة والانكسار ، وفي المقابل نقول (فلان فارد أجنحته) إذا تكبَّر وتجبَّر ، وتقول (فلان مجنح لي) إذا عصا أوامرك .

وفي موضع آخر : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الحجر]

---

(١) عن أبي هريرة قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء] قال : يا معشر قريش ـ أو كلمة نحوها ـ اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئاً . يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً » أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٥٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٠٦) .

وقال فى حَقِّ الوالدين : ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ .. (٢٤)﴾ [الإسراء] فلا نقول : كُنْ ذليلاً لهم ، إنما كُنْ رحيماً بهم ، حَنُوناً عليهم ، ففى هذا عِزّك ونجاتك .

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)﴾

فإنْ عصاك الأقارب فلا تتردد فى أنْ تعلنها ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)﴾ [الشعراء] وعندها لا تراعى فيهم حَقَّ الرحم ، ولا حَقَّ القُرْبى ، لأنه لا حَقَّ لهم ؛ لذلك قال ﴿فَقُلْ .. (٢١٦)﴾ [الشعراء] ولم يقل تبرأ منهم ؛ لأنه قد يتبرأ منهم فيما بينه وبينهم .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يعلنها رسول الله على الملأ ليعلمها الجميع ، وربنا يُعلِّمنا هنا درساً حتى لا نحابى أحداً ، أو نجامله لقرابته ، أو لمكانته حتى تستقيم أمور الحياة .

والذى يُفسد حياتنا وينشر فيها الفوضى واللامبالاة أنْ ننافق ونجامل الرؤساء والمسئولين ، ونُغطِّى على تجاوزاتهم ، ونأخذهم بالهوادة والرحمة ، وهذا كله يهدم معنويات المجتمع ، ويدعو للفوضى والتهاون .

لذلك يعلمنا الإسلام أنْ نعلنها صراحة ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦)﴾ [الشعراء] وليأخذ القانون مجراه ، وليتساوى أمامه الجميع ، ولو عرف المخالف أنه سيكون عبرة لغيره لارتدع .

لذلك يُقال عن عمر رضى الله عنه أنه حكم الدنيا كلها ، والحقيقة أنه حكم نفسه أولاً ، فحكمتْ له الدنيا ، وكذلك مَنْ أراد أنْ يحكم الدنيا فى كل زمان ومكان عليه أنْ يحكم نفسه ، فلا يجرؤ أحد من أتباعه أن يخالفه ، وساعة أن يراه الناس قدوة ينصاعون له بالسمع والطاعة .

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾

فقد تقول : إنْ فعلتَ هذا قلَّ أنصارى وتفرَّق الأتباع والحاشية من حولى ، نقول لك : إياك أنْ تظنَّ أنهم يجلبون لك نفعاً ، أو يدفعون عنك ضراً ، فالأمر كله بيده تعالى وبأمره ، فخيرٌ لك أنْ تراعى الله ، وأن تتوكل عليه .

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء] العزيز الذى يَغْلِب ولا يُغلب ، ويَقْهر ولا يُقهر ، ومع ذلك فهو سبحانه رحيم بك وبهم . وصفة الرحمة هنا تنفى ما يظنه البعض أن العزة هنا تقتضى الجبروت أو القهر أو الظلم ، فهو سبحانه فى عِزَّته رحيم ، لأن عزة العزيز على المتكبِّر رحمة بالمتكبَّر عليه .

وكان الحق - سبحانه وتعالى - يُعلِّم خليفته فى أرضه خاصة أُولى الأمر منهم ، يُعلِّمه أن يكون أريباً ناصحاً ، يقول له : إياك أنْ تتوكّل على عبد مثلك إذا عجزتَ عن العمل ؛ لأنه عاجز مثلك ، وما دام الأمر كذلك فتوكّل على العزيز الرحيم ، فعزَّته ورحمته لك أنت .

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ[(١)] ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾

أى : توكل على الذى يحبك ، ويُقدِّر عملك وعبادتك حين تقوم ، والمعنى تقوم له سبحانه بالليل والناس نيام ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء] ونفهم من ذلك أنه يصح أن تقوم وحدك بالليل .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٥٢) : « أى : هو معتن بك » وأورد أقوالاً منها :

« - أى : حين تقوم إلى الصلاة . قاله ابن عباس .
- يرى قيامه وركوعه وسجوده . قاله عكرمة .
- يراك إذا صليت وحدك . قاله الحسن البصرى .
- يراك حين تقوم من فراشك أو مجلسك . قاله الضحاك .
- يراك قائماً وجالساً وعلى حالاتك . قاله قتادة » .

وقوله ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨)﴾ [الشعراء] يرى حالك فى هذا القيام ، وما أنت عليه من الفرح ، وسرعة الاستجابة لنداء الله فى قوله : الله أكبر ، يراك حين تقوم على حالة انشراح القلب والإقبال على الله والنشاط للعبادة ، لا على حال الكسل والتراخى .

وإنْ أقبلتَ على الله أعطاك من الفُيوضات ما يُعوِّضك مكاسب الدنيا وتجارتها ، إنْ تركتها لإجابة النداء ؛ لذلك كان شعار الأذان الذى ارتضاه رسول الله ﷺ (الله أكبر) أى : أكبر من أىِّ شىء غيره ، فإنْ كنتَ فى نوم ، فالله أكبر من النوم ، وإنْ كنتَ فى تجارة ، فالله أكبر من التجارة ، وإنْ كنتَ فى عمل فالله أكبر من العمل.. إلخ .

وعجيب أن نرى مَنْ يُقدِّم العمل على الصلاة بحجة امتداد الوقت ، وإمكانية الصلاة بعد انتهاء العمل ، وهذه حجة واهية ؛ لأن ربك حين يناديك (الله أكبر) يريدك أنْ تستجيب على الفور لا على التراخى ، وإلا كيف تسمى الاستجابة للنداء إذا تأخرت عن وقتها ؟ فطول الوقت خاصة بين الصبح والظهر وبين العشاء والصبح لا يعنى أنْ تصلى فى طول هذا الوقت ؛ لأن النداء يقتضى الإسراع والاستجابة .

ولنا ملحظ فى (الله أكبر) فأكبر أفعل تفضيل تدلُّ على المبالغة ودون أكبر نقول : كبير ، وكأنها إشارة إلى أن العمل والسعى ليس شيئاً هيناً أو تافهاً ، إنما هو كبير ، ينبغى الاهتمام به ؛ لأنه عَصَب الحياة ، ولا تستقيم الأمور فى عمارة الأرض إلا به .

لكن ، إنْ كان العمل كبيراً فالله أكبر ، فربُّك - عز وجل - لا يُزهِّدك فى العمل ، ولا يُزهِّدك فى الدنيا ؛ لأنه خالقها على هذه الصورة وجاعل للعمل فيها دوراً ، وإنْ شئتَ فاقرأ : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ

الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

وقال في موضع آخر : ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا.. (٧٧) ﴾ [القصص] لأن حركة الحياة هي التي تُعينك على أداء الصلاة وعلى عبادة الله ، فبها تقتات ، وبها تتقوَّى ، وبها تستر عورتك ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ومع هذا فدعوة الله لك أوْلَى بالتقديم ، وأوْلَى بالإجابة ؛ لأن الذى خلقك وخلقها ناداك (الله أكبر) .

و ﴿تَقَلُّبَكَ .. (٢١٩) ﴾ [الشعراء] تعنى[1] : القعود والقيام والركوع والسجود ، فربُّك يراك في كل هذه الأحوال ، ويرى سرورك بمقامك بين يديه ، فإذا ما توكلتَ عليه فأنت تستحق أن يكون ربُّك عزيزاً رحيماً من أجلك .

أو : أن المعنى ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) ﴾ [الشعراء] أنه ﷺ كان يرى صحابته وهم يُصلُّون خلفه ، فيرى مَنْ خلفه ، كما يرى مَنْ أمامه ، وكانت هذه من خصائصه ﷺ[2] .

لذلك كان يُحذِّرهم أنْ يسبقوه في الصلاة في ركوع أو سجود ، أو قيام أو قعود . ويحذرهم أنْ يفعلوا في الصلاة خلفه ما لا يصح من المصلى اعتماداً على أنه ﷺ لا يراهم .

---

(١) قال مجاهد وقتادة : وتقلبك في المصلين . وقال ابن عباس : أي في أصلاب الآباء آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبياً . ذكرهما القرطبي في تفسيره (٧/٥٠٢٤) .

(٢) عن أبي هريرة قال : صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً ، ثم انصرف فقال : « يا فلان ألا تحسن صلاتك ؟ ألا ينظر المصلى إذا صلى كيف يصلى ؟ فإنما يصلى لنفسه ، إنى والله لأبصر من ورائى كما أبصر مَنْ بين يديَّ » . أخرجه مسلم في صحيحه (٤٢٣) ، والنسائي في سننه (٢/١١٩) .

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

السميع لما يقال ، العليم بما يجول فى الخواطر .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾
تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

وقد سبق أن قالوا عن القرآن تنزلت به الشياطين ، فيردُّ عليهم : تعالوا أخبركم على مَنْ تتنزل الشياطين ، وأصحح لكم هذه المعلومات الخاطئة : صحيح أن الشياطين تتنزل ، لكن لا تتنزل على محمد ؛ لأنه عدوها ، إنما تتنزل على أوليائها .

قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام]

﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [الشعراء] فهذا الذى يناسب الشياطين ويرضيهم ، والجن قسمان : فمنه الصالح وغير الصالح[(١)] وهذا الذى يسمونه الشياطين .

وكلمة ﴿ أَفَّاكٍ .. ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [الشعراء] مبالغة فى الإفك أى : قلب الحقائق . وكان هؤلاء يخطفون الأخبار فيقولون شيئاً قد يصادف الصدق ، ثم يجعلون معه كثيراً من الكذب .

﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾

السمع مصدر وآلته الأذن ، فالمراد يلقون الأذن للسمع ، كما فى

---

(١) قال تعالى عن الجن أنهم قالوا : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الجن] .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق]

يعنى : ألقى سمعه كى يستمع كمنْ يحرص على السماع من خفيض الصوت ، فيميل نحوه ليسمع منه . وقال ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [الشعراء] لأن بعضهم والقلة منهم قد يصدق ليُغلِّف كذبه ، ويُغطى عليه ، فأنت تأخذ من صدْقه هذه المرة دليلاً على أنه صادق ، وهو يخلط الخبر الصادق بأخبار كثيرة كاذبة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾﴾

الشعراء : جمع شاعر ، وهو مَنْ يقول الشعر ، وهو الكلام الموزون المُقفَّى ، وقد اتهم الكفار رسول الله ﷺ بأنه شاعر ، وردَّ عليهم القرآن الكريم فى عدة مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الحاقة]

وعجيب من كفار مكة ، وهم العرب أهل اللسان والبلاغة والبيان ، وأهل الخبرة فى الكلام الموزون المُقفَّى ، بحيث كانوا يجعلون للشعر أسواقاً فى ذى المجاز وذى المجنَّة وعكاظ ، ويُعلِّقون أجود أشعارهم على أستار الكعبة ، ومع ذلك لا يستطيعون التمييز بين الشعر وأسلوب القرآن الكريم .

إذن : هم يعرفون الفَرْق ، لكن يقصدون بقولهم كما حكاه القرآن : ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور] يقصدون بالشعر الكلام العَذْب الذى يستميل النفس ، ويُؤثّر فى الوجدان ، ولو كان نثراً . وهذه ينادى بها الآن أصحاب الشعر الحر ؛ لأنهم

يقولون شعراً ، لكنه غير موزون ، وغير مُقفَّىً .

ومعنى ﴿الْغَاوُونَ (٢٢٤)﴾ [الشعراء] جمع غاوٍ . وهو الضال ، وهؤلاء يتبعون الشعراء . لأنهم يؤيدون مذهبهم فى الحياة بما يقولون من أشعار ؛ ولأنهم لا يحكم منطقهم مبدأ ولا خُلُق ، بل هواهم هو الذى يحكم المبدأ والخلق ، فإنْ أحبُّوا مدحوا ، وإنْ كرهوا ذَمُّوا .

والدليل على ذلك :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)﴾

الضمير فى ﴿أَنَّهُمْ .. (٢٢٥)﴾ [الشعراء] يعود على الشعراء ، والوادى : هو المنخفض بين جبلين ، وكان محل السير ومحل نمو الأشجار والبساتين واستقرار المياه .

﴿يَهِيمُونَ (٢٢٥)﴾ [الشعراء] نقول : فلان هَامَ على وجهه أى : سار على غير هدى ، وبدون هدف أو مقصد ، فالمعنى ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥)﴾ [الشعراء] أن هذه حال الشعراء ، لأنهم أهل كلام وخيال يمدحك أحدهم إنْ طمع فى خيرك ، فإنْ لم تُعطه كال لك الذم وتفنَّن فى النَّيل منك ، فليس له واد معين يسير فيه ، أو مبدأ يلتزم به ، كالهائم على وجهه فى كل وَادٍ .

فالمتنبى[1] وهو من أعظم شعراء العصر العباسى ويُضرب به المثل فى الحكمة والبلاغة ، من أشهر شعره قوله :

---

(١) هو : أحمد بن الحسين الكندى ، أبو الطيب المتنبى ، ولد بالكوفة فى محلة تسمى « كندة » عام ٣٠٣ هـ ، ونشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس ، ادعى النبوة فى بادية السماوة (بين الكوفة والشام) ، ثم تاب ورجع عن دعواه ، مدح سيف الدولة بن حمدان وكافوراً ثم هجاه لأنه لم يُولِّه ، [انظر الأعلام للزركلى ١/ ١١٥] .

فَالخَيْلُ والليْلُ والبَيْدَاءُ تَعْرِفُنى   والسَّيْفُ والرُّمح والقرْطَاسُ والقلَم

فلما كان فى إحدى رحلاته خرج عليه قُطَّاع الطرق ، فلما أراد أن يفرَّ قال له خادمه : ألست القائل :

فَالخَيْلُ والليْلُ والبَيْدَاءُ تَعْرِفُنى   والسَّيْفُ والرُّمح والقرْطَاسُ والقلَم

فاستحى أنْ يفرَّ ، وثبت أمامهم حتى قتلوه[1] ، فقال قبل أنْ يموت : ما قتلنى إلا هذا العبد ، واشتهر هذا البيت فى الأدب العربى بأنه البيت الذى قتل صاحبه .

ولما جاء المتنبى إلى مصر مدح حاكمها كافور الإخشيدى[2] طمعاً فيه ، وكان كافور رجلاً أسود ؛ لذلك كَنَّوْه بأبى المِسْك ، ولما مدحه المتنبى حالَ الرضا قال فيه :

* أبَا كُلِّ طيبٍ لاَ أبَا المِسْك وَحْدَهُ *

وفى قصيدة أخرى يقول :

قَضَى اللهُ يَا كافُورُ أنَّكَ أوَّلٌ   وليْسَ بِقَاضٍ أنْ يُرَى لَكَ ثَانِ

فلما لم يُعْطه كافور طلبه ، وساءتْ العلاقة بينهما ، قال يهجوه :

أُريك الرضا لو أخْفت النفسُ خافيًا   ومَا أنَا عَنْ نفسى وَلاَ عنْكَ رَاضيا

أمَيْناً[3] وإخْلاَفَاً وغَدْراً وخِسَّةً وجُبْنَا   أشخصاً لُحْتَ لِى أمْ مَخَازِيا

وتُعجِبُنى رِجْلاَكَ فى النَّعْلِ إننى   رأيتُكَ ذَا نَعْلٍ وإنْ كُنْتَ حَافِيا

(١) قُتل المتنبى هو وابنه وغلامه بالنعمانية عام ٣٥٤ هـ حيث عرض له فاتك بن أبى جهل الأسدى فى الطريق بجماعة من أصحابه ، ومع المتنبى جماعة أيضاً ، فاقتتل الفريقان ، فقُتل المتنبى بالقرب من دير العاقول (فى الجانب الغربى من سواد بغداد) وفاتك هذا هو خال ضبة بن يزيد الأسدى العينى ، الذى هجاه المتنبى بقصيدته البائية المعروفة [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

(٢) كافور بن عبد الله الإخشيدى ، أبو المسك ، أمير مشهور ، كان عبداً حبشياً اشتراه الإخشيدى ملك مصر (سنة ٣١٢ هـ) فنُسب إليه ، وأعتقه فترقى عنده . وما زالت همته تصعد به حتى ملك مصر (سنة ٣٥٥ هـ) وقد ولد (عام ٢٩٢ هـ) ، وتوفى بالقاهرة ٣٥٧ هـ عن ٦٥ عاماً [الأعلام للزركلى ٥/٢١٦] .

(٣) المينُ : الكذب .

ومثْلُكَ يُؤتَى منْ بـلادٍ بَعيـدَةٍ   لِيُضحِكَ ربَّاتِ الحِداد البَوَاكِيا
ولَوْلاَ فُضُولُ الناسِ جِئْتُك مَادِحاً   بِما كَنتُ فى نَفْسى به لَكَ هَاجِيا

وقد يكون الشاعر بخيلاً ، ولكنه يمدح الكرم والكريم ، ويرفعه إلى عنان السماء :

متَّى تَأْتِه تَعشُو[١] إلى ضَوْءِ نَارِه   تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدهَا خَيْرُ موقِدِ[٢]

والحطيئة[٣] مع ما عُرِف عنه من البخل يمدح أحدهم ، ويصفه بالكرم النادر ، لدرجة أنْ جعله يهمُّ بذبح ولده لضيفه ؛ لأنه لم يجد ما يذبحه ، وينظم الحطيئة فى الكرم هذه القصيدة أو القصة الشعرية التى تُعَدُّ من عيون الشعر العربى ، ومع ذلك لم يأخذ مما يقول عبرةً ، وظلَّ على إمساكه وبُخْله .

يقول الحطيئة فى وصف الكريم :

وَطَاوٍ ثَلاثاً عَاصِبِ البَطْنِ مُرْمِلٍ   بِبَيْداءَ لم يَعرِف بها ساكِن رَسْما[٤]
أَخِى جَفْوةٍ فيه مِنَ الأُنس وَحْشَةٌ   يرى البُؤْسَ فيها منْ شراسَته نُعْما
وَأفْرَدَ فى شِعْبٍ عَجُوزاً إزَاءَهَا   ثلاثَـةُ أشْـباحٍ تَخَالهوا بُهْما

(١) أعشو : أنظر . يقال : عشوت إلى النار إذا أحددت نظرك إليها . قاله أبو على القالى فى الأمالى (١/١٤٩) . وقال ابن منظور فى اللسان فى معنى البيت « أى متى تأته لا تتبين ناره من ضعف بصرك » .
(٢) أورده أبو على القالى فى « الأمالى » (١/١٤٩) . وكذا ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة : عشا] . وعزاه للحطيئة . وكذا أورده أبو الفرج الأصفهانى فى « الأغانى » (١/٢٣٧) .
(٣) هو : جرول بن أوس بن مالك ، وهو مُخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام ، أسلم ثم ارتد ، لُقّب بالحطيئة لقصره وقربه من الأرض ، كان ذا شر وسفه ، كان ينتمى إلى كل واحدة من قبائل العرب إذا غضب على الأخرى . [الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ١/٢٢٢] .
(٤) الطاوى : الجائع . مُرمل : قد اختلط طعامه بالرمل . الرسم : الأثر .

حُفاةٌ عُراةٌ ما اغتذَوْا خُبْزَ مَلَّة[1] ولاَ عَـرفُوا للبُـرِّ مُذْ خُلِقُـوا طَعْما
رَأى شَبَحاً وَسْط الظَّلام فَرَاعَه[2] فلمَّـا رأى ضَيْـفاً تَشـمَّر واهْتَما
فَقَـالَ ابنُـه لمـا رَآهُ بحيْـرةٍ أيَا أبَـتِ اذْبحْـنى ويَسِّر لَهُ طُعْما
وَلاَ تعتذر بالعُدْم على الذى طَرا يظـنُّ لَنَا مالاً فَيُوسِـعُنا ذَمّـا
فَبَيْنَا هُما عَنَّتْ على البُعْـد عَـانَةٌ قَد انتظمتْ من خَلْفِ مِسْحلها نَظْما[3]
عطَاشاً تريد الماءَ فانسابَ نحوها على أنَّه منْـها إلـى دَمِها أظْمَا
فَأمْهلَها حتَّى تَـروَّتْ عِطَاشُـها وأرسـلَ فِيهَا مِنْ كِنَانـته سَهْـما
فخرَّتْ نَحُوصٌ ذَاتُ جحش سَمِينةٌ قَد اكتنزتْ لَحْماً وقد طُبِّقَتْ شَحْما[4]
فَيَا بِشْرَهُ إذْ جرَّهَا نحـو قَومِه وَيَا بشْرهُمْ لما رَأوْا كَلْمها يَدْمَا[5]
وَبَاتُوا كراماً قَدْ قَضَـوْا حَـقَّ ضَيْفِهِمْ ومَا غَرمُوا غُرْمـاً وقَدْ غَنموا غُنْما
وَباتَ أبُوهـم من بَشَاشَـته أباً لضَيْفِهـمُ والأم مِنْ بِشْـرها أُمّـا

وصدق الله العظيم : ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾ [الشعراء] يصفون الكرم وهم بخلاء ، والشجاعة وهم جبناء ... إلخ .

وفى مرة ، اجتمع عند النبى ﷺ اثنان من الشعراء : الزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وعمرو بن الأهتم فقال أحدهم عبارتين فى مدح أحد الحاضرين بأنه سيد القبيلة . فغضب الممدوح ورأى أن هذا

(١) خبز ملة : هو الخبز يوضع فى الرماد الحار الذى يُحمى ليُدفن فيه الخبز لينضج .
(٢) راعه : أخافه وأفزعه .
(٣) عنَّت : ظهرت . عانة : العنون من الدواب : من حُمُر الوحش . المسحل : قائد القطيع .
(٤) نحوص : سمينة ممتلئة . طبقت شحماً : امتلأت شحماً ولحماً .
(٥) الكَلْم : الجرح . يدما : ينزف دماً . [راجع لسان العرب] .

قليل فى حقِّه ، فقال : والله يا رسول الله ، إنه ليعلم منى فوق الذى قال - يعنى : لم يُوفِّنى حقى - فقال الشاعر : أما والله وقد قال ما قال ، فإنه لضيق العطية ، أحمق الأب ، لئيم العم والخال . سبحان الله فى أول المجلس كان سيد قبيلته ، والآن هو ضيق العطية ، أحمق الأب ، لئيم العم والخال !!

ثم قال : والله يا رسول الله ما كذبتُ فى الأولى ، ولقد صدقتُ فى الثانية - يعنى : أنا مصيب فى القولين - لكنى رضيت فقلت أحسنَ ما علمت ، وغضبت فقلت أسوأ ما علمتُ . عندها قال سيدنا رسول الله « إن من البيان لسحراً »[1] .

ثم يستثنى الحق سبحانه من هؤلاء الغاوين :

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ۗ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

كان بعض شعراء المشركين أمثال عبد الله بن الزبعرى ، ومسافح

---

(١) أخرج هذا الحديث بهذه القصة البيهقى فى دلائل النبوة (٣١٦/٥) بإسنادين الأول منقطع عن محمد بن الزبير الحنظلى ، والثانى موصولاً من حديث ابن عباس قال : جلس إلى رسول الله ﷺ قيس بن عاصم والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم التميميون ، ففخر الزبرقان ، فقال : يا رسول الله أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب أمنعهم من الظلم وآخذ لهم بحقوقهم ، وهذا يعلم ذلك يعنى عمرو بن الأهتم ، فقال عمرو بن الأهتم : إنه لشديد العارضة ، مانع لجانبه ، مطاع فى أذنيه ، فقال الزبرقان بن بدر : والله يا رسول الله لقد علم منى غير ما قال ، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد ، فقال عمرو بن الأهتم : أنا أحسدك ، فوالله إنك لئيم الخال ، حديث المال ، أحمق الولد ، مضيع فى العشيرة ، والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولاً ، وما كذبت فيما قلت آخراً ، ولكنى رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت ، وإذا غضبت قلت أقبح ما وجدت ، ولقد صدقت فى الأولى والأخرى جميعاً ، فقال النبى ﷺ : إن من البيان سحراً ، إن من البيان سحراً .

الجمحي يهجون رسول الله ﷺ ويذمونه ، فيلتف الضالون الغاوون من حولهم ، يشجعونهم ويستزيدونهم من هجاء رسول الله ، وفي هؤلاء نزل قوله تعالى : ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤)﴾ [الشعراء] فأسرع إلى سيدنا رسول الله شعراءُ الإسلام : عبد الله بن رواحة وكعب بن زهير ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، فقالوا : أنحن من هؤلاء يا رسول الله ؟ فقرأ عليهم رسول الله هذه الآية :

﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٢٧)﴾ [الشعراء]

فاستثنى الحق - تبارك وتعالى - من الشعراء مَنْ توفَّرت فيه هذه الخصال الأربع ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. (٢٢٧)﴾ [الشعراء] أي : ذكروا الله في أشعارهم ؛ لينبهوا الناس إلى مواجيد الدين ومواعظ الإيمان ، فيلتفتون إليها ، ثم ينتصرون لرسول الله من الذين هَجَوْه .

وكان هؤلاء الثلاثة ينتصرون للإسلام ولرسول الله ، فكلما هجاه الكفار ردُّوا عليهم ، وأبطلوا حُججهم ، ودافعوا عن رسول الله ، حتى أنه ﷺ نَصَبَ منبراً[1] لحسان بن ثابت ، وكان يقول له : « قل وروح القدس معك ، اهجهم وجبريل معك »[2]

وقال لكعب بن مالك[3] : « اهجهم ، فإن كلامك أشدُّ عليهم من

---

(١) أخرج الحاكم في مستدركه (٣/٤٨٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ ، ويقول ﷺ : « إن الله يؤيد حسان بن ثابت بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله ﷺ » وكذا أخرجه أبو داود في سننه (٥٠٠٥) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢١٣ ، ٦١٥٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٤٨٦) كتاب فضائل الصحابة من حديث البراء بن عازب .

(٣) هو : كعب بن مالك بن عمرو الأنصاري السلمي الخزرجي ، صحابي من أكابر الشعراء من أهل المدينة ، اشتهر في الجاهلية ، وكان في الإسلام من شعراء النبي ﷺ ، عمي في آخر عمره ، وعاش ٧٧ سنة ، توفي ٥٠ هـ . (كتاب الأعلام للزركلي) .

رَشْق النِّبال »[1] كما سمح لهم بإلقاء الشعر في المسجد ؛ لأنهم دخلوا في هذا الاستثناء ، فهم من الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وهم الذين ينتصرون للإسلام ويُمجِّدون رسول الله ، ويدافعون عنه ، ويردُّون عنه ألسنة الكفار .

ومعنى : ﴿وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. (٢٢٧)﴾ [الشعراء] أنهم لم يكونوا سفهاء ، ولم يبدأوا الكفار بالهجاء ، إنما ينتصرون لأنفسهم ، ويدفعون ما وقع على الإسلام من ظلم الكافرين ؛ لذلك لما هجا أبو سفيان رسول الله ﷺ ، قال أحدهم[2] رداً عليهم :

أتهْجُوهُ ولسْتَ لَهُ بكُفْءٍ ... فَشرُّكما لخيركما الفداءُ
فَإنَّ أبى وَوَالده وعرْضى ... لعرْض مُحمد منكمُ وقَاءُ

وقوله تعالى : ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. (٢٢٧)﴾ [الشعراء] ظُلموا ممَّنْ ؟ من الذين وقفوا من الدين ومن الرسول موقفَ العداء ، وتعرَّضوا لرسول الله وللمؤمنين به بالإيذاء والكيد ، ظُلموا من الذين عزلوا رسول الله ، وآله في الشِّعْب حتى أكلوا أوراق الشجر ، من الذين تآمروا على قتله ﷺ إلى أنْ هاجر .

ومن رحمته تعالى وحكمته أنْ أباح للمظلوم أنْ ينتصر لنفسه ، وأنْ يُنفِّس عنها ما يعانيه من وطأة الظلم ، حتى لا تُكبتَ بداخله هذه المشاعر ، ولا بُدَّ لها أن تنفجر ، فقال سبحانه : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦)﴾ [النحل]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٤٩٠) كتاب فضائل الصحابة .

(٢) هو حسان بن ثابت ، كما جاء في صحيح مسلم (٢٤٩٠) كتاب فضائل الصحابة ، وفيه أن أبياته كالتالي :

هَجَوْتَ مُحمداً فَأجبْتُ عَنْهُ ... وعنْد الله في ذَاكَ الجزَاءُ
هَجوْتَ مُحمداً بَرًّا حَنيفاً ... رَسُولَ الله شيمتُه الوَفَاءُ
فَإنَّ أبى وَوَالده وَعِرْضى ... لعرْض مُحمدٍ منكمْ وِقَاءُ

وانظر أيضاً دلائل النبوة للبيهقي (٥/٤٨ ، ٤٩) .

وقال تعالى : ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ .. (١٤٨)﴾ [النساء]

فأباح للمظلوم أنْ يُعبِّر عن نفسه ، وأن يرفض الظلم ، ولا عليه إنْ جهر بكلمة تُخفِّف عنه ما يشعر به من ظلم .

ثم تختم السورة بقوله تعالى : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ [الشعراء] يعنى : غداً سيعلمون مرجعهم ونهايتهم كيف تكون ؟ والمنقلب هو المرجع والمآب ، والمصير الذى ينتظرهم .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يتوعدهم بما يؤذيهم ، وبما يسوؤهم ، فلن تنتهى المسألة بانتصار المسلمين عليهم ، إنما ينتظرهم جزاء آخر فى الآخرة .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور]

لذلك أبهم الله تعالى هذا المنقلب ، وإبهامه للتعظيم والتهويل ، وقد بلغ من العظَم أنه لا يُوصف ولا تؤدى العبارة مؤداه ، كما أبهم العذاب فى قوله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨)﴾ [طه]

يعنى : شىء عظيم لا يُقَال ، والإبهام هنا أبلغ ؛ لأن العقل يذهب فى تصوّره كل مذهب ، وعلى كل كيفية .

والمنقلب أو المرجع لا يُمدح فى ذاته ، ولا يُذمُّ فى ذاته ، فإن انتهى إلى السوء فهو مُنقلب سيء ، وإنِ انتهى إلى خير فهو مُنقلَب حسن ، فالذى نحن بصدده من مُنقلَب الكافرين المعاندين لرسول الله منقلب سيء يُذَم .

أما مُنْقلَب سحرة فرعون مثلاً حين قال لهم : ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ

آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ .. (٧١) ﴾ [طه]

فماذا قالوا ؟ ﴿ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) ﴾ [الشعراء] فهذا مُنقلَب حَسَن يُمدح ويُحمد .

وقد يظن المرء أن مُنقلَبه مُنقلَب خير ، وأنه سينتهي إلى ما يُفرح ، وهو واهم مخدوع في عمله ينتظر الخير ، والله تعالى يُعد له منقلباً آخر ، كالذي أعطاه الله الجنتين من أعناب وحففهما بنخل ، وجعل بينهما زرعاً ، فلما غرَّته نعمة الدنيا ظنَّ أن له مثلها ، أو خيراً منها في الآخرة ، فقال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

والانقلاب والمرجع إلى الله - عز وجل - إنما يفرح به مَنْ آمن بالله وعمل صالحاً ؛ لأنه يعلم أنه سيصير إلى جزاء من الحق - سبحانه وتعالى - مؤكد ؛ لذلك الحق - تبارك وتعالى - يُعلِّمنا حين نركب الدواب التي تحملنا ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ .. (٧) ﴾ [النحل]

علَّمنا أن نذكره سبحانه : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) ﴾ [الزخرف]

إذن : فالدوابّ وما يحلّ محلّها الآن من وسائل المواصلات من أعظم نعَم الله علينا ، ولولا أن الله سخَّرها لنا ما كان لنا قدرة عليها ، ولا طاقة بتسخيرها ؛ لذلك نقول ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) ﴾ [الزخرف]

أى : لا نستطيع ترويضه ، فالصبى الصغير نراه يقود الجمل الضخم ، ويُنيخه ويُحمّله الأثقال وهو طائع منقاد ، لكنه يفزع إنْ رأى ثعباناً صغيراً ، لماذا ؟ لأن الله - سبحانه وتعالى - سخَّر لنا الجمل وذلَّله ، ولم يُسخِّر لنا الثعبان .

وصدق الله العظيم إذ يقول سبحانه : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾ [يس]

ولكن ما علاقة قولنا : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣)﴾ [الزخرف] بقولنا : ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤)﴾ [الزخرف]

قالوا : لأننا سننقلب إلى الله فى الآخرة ، وسنُسأل عن هذا النعيم ، فإنْ شكرنا ربنا على هذه النعمة فقد أدَّيْنا حقها ، ومَنْ شكر الله على نعمة فى الدنيا لا يسأل عنها فى الآخرة ؛ لأنه أدَّى حقَّها .

وقال سبحانه : ﴿وَسَيَعْلَمُ .. (٢٢٧)﴾ [الشعراء] بالسين الدالة على الاستقبال ، لكنها لا تعنى طول الزمن كما يظن البعض ؛ لأن الله تعالى أخفى الموت ميعاداً ، وأخفاه سبباً ومكاناً ، وهذا الإبهام للموت هو عَيْن البيان ، لأنك فى هذه الحالة ستنتظره وتتوقعه فى كل وقت ، ولو علم الإنسانُ موعد موته لقال : أفعل ما أريد ثم أتوب قبل أن أموت .

إذن : الوقت الذى تقتضيه السين هنا لا يطول ، فقد يفاجئك الموت ، وليس بعد الموت عمل أو توبة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾ [النازعات]

وقلنا : إن فى الآية ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ .

[الشعراء] تهديداً ووعيداً ، الحق - تبارك وتعالى - حين يُضخِّم الوعيد إنما يريد الرحمة بخَلْقه ، وهو مُحِبٌّ لهم ، فيهددهم الآن ليَسلموا غداً ، ويُنبِّههم ليعودوا إليه ، فينالوا جزاءه ورحمته .

وكأنه - تبارك وتعالى - يريد من وراء هذا التهديد أنْ يُوزِّع رحمته لا جبروته ، كما تقسو على ولدك ليذاكر وتهدده ليجتهد . إذن : فالوعد بالخير خير ، والوعيد بالشر أيضاً خير ، فكل ما يأتيك من ربك ، فاعلم أنه خير لك ، حتى وإنْ كان تهديداً ووعيداً .

وهكذا قدمتْ لنا سورة الشعراء نموذجاً من تسلية الحق - تبارك وتعالى - لنبيه محمد ﷺ والتخفيف عنه ما يلاقى من حزن وألم على حال قومه وعدم إيمانهم ، وعرضَتْ عليه ﷺ موكب الرسل ، وكيف أن الله أيَّدهم ونصرهم وهزم أعداءهم ودحرهم .

ثم سلاَّه ربه بأنْ رَدَّ على الكفار فى افتراءاتهم ، وأبطل حججهم ، وأبان زَيْف قضاياهم ، ثم تختم هذه التسلية ببيان أن للظالمين عاقبة سيئة تنتظرهم وأبهم هذه العاقبة ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ [الشعراء] ليضخمها .

والشىء إذا حُدِّد إنما يأتى على لَوْن واحد ، وإنْ أبهم كان أبلغ ؛ لأن النفس تذهب فى تصوُّره كل مذْهب ، كما لو تأخَّر مسافر عن موعد عودته فنجلس ننتظره فى قلق تسرَح بنا الظنون فى سبب تأخره ، وفى احتمالات ما يمكن أنْ يحدث ، وتتوارد على خواطرنا الأوهام ، وكل وهم يَرِد فى نفسك بألم ولذعة ، فى حين أن الواقع شىء واحد .


سورة النمل

سورة النمل(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ۝١ ﴾

تكلمنا كثيراً على هذه الحروف المقطّعة فى أوائل السور ، وهنا (طس) وهما حرفان من حروف المعجم ، وهى تُنطق هكذا (طاء) و (سين) لأنها أسماء حروف ، وفَرْق بين اسم الحرف ومُسمَّاه ، فكلٌّ من الأمى والمتعلم يتكلم بحروف يقول مثلاً : كتب محمد الدرس . فإنْ طلبتَ من الأمى أن يتهجى هذه الحروف لا يستطيع لأنه لا يعرف اسم الحرف ، وإنْ كان ينطق بمُسمَّاه ، أمّا المتعلم فيقول : كاف تاء باء .

ورسول الله ﷺ كان أمياً لا يعرف أسماء الحروف ، فهى إذن من

(١) سورة النمل هى السورة رقم (٢٧) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٩٣ آية ، وهى سورة مكية ، قاله ابن عباس فيما أورده السيوطى فى (الدر المنثور ٦/ ٣٤٠) وعزاه لابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل . وقد ذكر القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٠٣٥) الإجماع على أنها مكية كلها ، وقد نزلت بعد سورة الشعراء كما هى فى ترتيب المصحف ، وقبل سورة القصص كذلك . انظر : الإتقان فى علوم القرآن (٢٧/١) .

الله ؛ لذلك كانت مسألة توقيفية ، فالحروف (الـم) نطقنا بها فى أول البقرة بأسماء الحروف (ألف) (لام) (ميم) ، أما فى أول الانشراح فقلنا ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ①﴾ [الشرح] بمسميات الحروف نفسها ، فنقول : ألَم .

و ﴿تِلْكَ .. ①﴾ [النمل] اسم إشارة للآيات الآتية خلال هذه السورة ، وقلنا : إن الآيات لها معَان متعددة ، فقد تعنى الآيات الكونية : كالشمس والقمر ، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. ㊲﴾ [فصلت]

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا .. ㉑﴾ [الروم] وهذه الآيات الكونية هى التى تلفتنا إلى عظمة الخالق - عزَّ وجلّ - وقدرته .

والآيات بمعنى المعجزات المصاحبة للرسل ، والتى تثبت صدْق بلاغهم عن الله ، والآيات بمعنى آيات القرآن الحاملة للأحكام ، وهى المرادة هنا ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ①﴾ [النمل]

وسبق أنْ قال تعالى : ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ①﴾ [الحجر] فمرة يقول ﴿وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ①﴾ [الحجر] ومرة ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ①﴾ [النمل] ويأتى بالكتاب ويعطف عليه القرآن ، أو يأتى بالقرآن ويعطف عليه الكتاب ، مع أنهما شىء واحد ، فكيف إذن يعطف الشىء على نفسه ؟

قالوا : إذا عطف الشىء على نفسه ، فاعلم أنه لزيادة وَصْف الشىء ، تقول : جاءنى زيد الشاعر والخطيب والتاجر ، فلكلٍّ صفة منها إضافة فى ناحية من نواحى الموصوف ، فهو القرآن لأنه يُقرأ فى الصدور ، وهو نفسه الكتاب لأنه مكتوب فى السطور ، وهما معاً

نُسمِّيهم مرة القرآن ومرة الكتاب ، أمّا الوصف فيجعل المغايرة موجودة .

ومعنى ﴿ مُّبِينٍ ۝١ ﴾ [النمل] بيِّن واضح ومحيط بكل شيء من أقضية الحياة وحركتها من أوامر ونواه ، كما قال سبحانه : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ۝٣٨ ﴾ [الأنعام]

وسبق أنْ حكينا ما حدث مع الإمام محمد عبده[1] - رحمه الله - حينما كان فى فرنسا ، وسأله أحد المستشرقين : تقولون إن القرآن أحاط بكل شيء ، فكم رغيفاً فى إردبّ القمح ؟ فدعا الإمام الخباز وسأله فقال : كذا وكذا ، فقال المستشرق : أريدها من القرآن ، قال الإمام : القرآن قال لنا : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ۝٧ ﴾ [الأنبياء]

فهو كما قال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. ۝٣٨ ﴾ [الأنعام]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾

الهدى : يأتى بمعنيين : بمعنى الدلالة على طريق الخير ، وبمعنى المعونة ، فمن ناحية الدلالة هو هُدىً للمؤمن وللكافر على حَدٍّ سواء ؛ لأنه دلَّ الجميع وأرشدهم ، ثم تأتى هداية المعونة على حسب اتباعك لهداية الدلالة .

---

(١) هو : الشيخ محمد عبده بن حسن خير الله من آل التركمانى ، مفتى الديار المصرية ، ومن كبار رجال الإصلاح والتجديد فى الإسلام ، ولد فى قرية شنرا من قرى الغربية بمصر (١٨٤٩ م) نشأ فى محلة نصر بالبحيرة ، تولى منصب القضاء وتوفى بالإسكندرية (١٩٠٥) عن ٥٦ عاماً ، ودفن بالقاهرة . له مؤلفات كثيرة . [الأعلام للزركلى ٦/٢٥٢].

فمَنْ أطاع الله وآمن به وأخذ بدلالته ، فكأن الحق سبحانه يقول له : أنت استأمنتني على حركة حياتك وأطعتني في أمري ونهيي ، فسوف أخفف عنك وأهوِّن عليك أمر العبادة وأُعينك عليها ، وهذه هي هداية المعونة التي قال الله عنها : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

وكذلك الكافر الذي لم يأخذ بهداية الدلالة والإرشاد ، واختار لنفسه طريقاً آخر يُعينه الله عليه ، ويُيسِّر له ما سعى إليه من الكفر ؛ لذلك يختم الله على قلوب الكافرين حتى لا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر .

لكن الهداية هنا : أهي هداية دلالة ، أم هداية معونة ؟

نقول : هي هداية معونة ، بدليل قوله تعالى بعدها ﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النمل] فما كانوا مؤمنين إلا لأنهم مهديون ، والبُشْرى لا تكون إلا للمؤمنين ، إذن : هي معونة للمؤمنين بأنْ يزيدهم هدايةً إلى الطريق السَّوِيّ ، وإلى جنات النعيم ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التحريم]

ولو أن الهداية هنا بمعنى الدلالة التي تأتي للمؤمن والكافر لكانتْ بشرى وإنذاراً ، لكن الآية ﴿ وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [النمل] فتعيَّن أن يكون المعنى هداية المعونة وهداية البشرى .

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾

المؤمنون هم أصحاب عقيدة الإيمان ، وهو أن تؤمن بقضية الحق الواحد الإله المختار الفاعل الذي له صفات الكمال ، تؤمن بها حتى

تصير عقيدة فى نفسك ثابتة لا تتزعزع ، والإيمان اعتقاد بالقلب ، وقَوْل باللسان ، وعمل بالجوارح ، فلا يكفى النطق باللسان ، إنما لابد من أداء تكاليف الإيمان ومطلوباته ، وقمتها إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة وصَوْم رمضان ، والحج .

فالصلاة دعوة من الله لخَلْقه ، دعوة من الصانع للمصنوع ، فربُّك يستدعيك إلى حضرته ، وكيف بالصَّنْعة إذا عُرِضَتْ على صانعها كل يوم خمس مرات ، ومع ذلك نرى مَنْ يُقدِّم العَمل على الصلاة ، وإذا سمع النداء قال عندى أعمال ومشاغل ، إياك أنْ تظن أن الصلاة تعطيل للمصالح ، أو إضاعة للوقت ؛ لأنك فى حركة حياتك مع نِعَم الله وفى الصلاة مع الله .

ونقيس هذه المسألة ـ ولله المثل الأعلى ـ لو أن أباك ناداك فلم تُجبه ، ماذا يفعل بك ؟ فلا يكُنْ ربُّك أهونَ عليك من أبيك ، ربك يناديك : الله أكبر يعنى : أكبر من العمل ، وأكبر من كل شىء يشغلك عن تلبية ندائه .

وفى الصلاة نأخذ شحنة إيمانية تُقوِّينا على حركة حياتنا ، كما لو ذهبتَ ببطارية السيارة مثلاً لجهاز الشحن أتقول : إنك عطلتَ البطارية ؟

ولو حسبنا الوقت الذى تستغرقه الصلوات الخمس لوجدناه لا يتعدَّى ساعة من الأربع والعشرين ساعة ، فلا تضن على نفسك بها لتلتقى بربك ، وتقف بين يديه ، وتعرض نفسك عليه ، فيصلح فيك ما أفسدته حركة الحياة ويعطيك المدد والعون والشحنة الإيمانية التى تدفعك إلى حركة منسجمة مع الحياة والكون من حولك .

وإنْ كان مهندس الآلة يُصلحها بشىء مادى ، فربُّك ـ عز وجل ـ

غَيْب ، فيصلحك بالغيب ، ومن حيث لا تدرى أنت ، لذلك كانت الصلاة فى قمة مطلوبات الإيمان .

فإنْ كانت الصلاة لإصلاح النفس ، فالزكاة لإصلاح المال ؛ لذلك تجد دائماً أن الصلاة مقرونة بالزكاة فى معظم الآيات ، وإنْ كان المال نتيجة العمل ، والعمل فرع الوقت ، فإن الصلاة تأخذ الوقت ، والزكاة تأخذ نتيجة الوقت ، الزكاة تأخذ ٢,٥٪ أمّا الصلاة فتأخذ الوقت نفسه يعنى بنسبة ١٠٠٪ .

ومع ذلك لا نقول : إن الصلاة أضاعتْ الوقت ، لأن الشحنة التى تأخذها فى الصلاة تجعلك تنجز العمل الذى يستغرق عدة ساعات فى نصف ساعة ، فتعطيك بركة فى الوقت .

وسبق أن قلنا : إن نداء الله أكبر يعنى : أن لقاء الله أكبر من أى شىء يشغلك مهما رأيته كبيراً ؛ لأنه سبحانه واهب البركة ، وواهب الطاقة ، وإنْ كان العمل والسَّعْى فى مناكب الأرض مطلوباً ، لكن الصلاة فى وقتها أَوْلَى .

وحين نتأمل أطول الأوقات بين كل صلاتين نجد أنها من الصبح حتى الظهر ، وهو الوقت المناسب للعمل ، ومن العشاء حتى الصبح ، وهو الوقت المناسب للنوم ، وهكذا تُنظِّم لنا الصلاة حياتنا ، فمِنْ صلاة الصبح إلى صلاة الظهر سبع ساعات هى ساعات العمل .

لو أن الأمة الإسلامية تمسَّكتْ بشرعها ومنهج ربها ، وبعد هذه الساعات السبع التى تقضيها فى عملك ، أنت حر بعد صلاة الظهر ، أمّا التخصيص الذى طرأ على حركة الحياة فقد اقتضى أنْ يأتى صلاة الظهر بل والعصر والناس ما يزالون فى أعمالهم .

أما الذين يُؤخرون الصلاة عن وقتها بحجة امتداد الوقت بين الصلاتين ، نعم الوقت ممتدٌّ ، لكن لا يجوز لك تأخير الصلاة ، ولبيان هذه المسألة نقول : هَبْ أن غنياً مستطيعٌ للحج ، ولم يحج متى يأثم ؟

يأثم إذا ما غَرَّه طول الأمل ، ثم عاجله الموت قبل أنْ يحجَّ ، فإنْ أمهله العمر حتى يحج ، فقد سقط عنه هذا الفرض ، لكن مَنْ يضمن له البقاء إلى أنْ يؤدى هذه الفريضة .

لذلك ورد في الحديث : « حُجُّوا قبل ألاَّ تَحجُّوا »[1] .

كذلك الحال فى وقت الصلاة ، فهو ممتد ، لكن مَنْ يضمن لك امتداده ؛ لذلك تارك الصلاة يأثم فى آخر لحظة من حياته ، فإنْ ظلَّ إلى أنْ يصلى فلا شىء عليه .

إذن : لا تتعلَّل بطول الوقت ؛ لأن طول الوقت جعله الله لحكمة ، لا لنأخذه ذريعة لتأخير الصلاة عن وقتها ، طول الوقت بين الصلوات جُعِل للنائم كى يستيقظ ، أو للناسى كى يتذكَّر .

ثم يقول سبحانه ﴿وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ③﴾ [النمل]

فالآية جمعتْ أمر المؤمن كله ، بداية من العقيدة والإيمان بالله ، ثم الصلاة ، فالزكاة وهما المطلبان العمليان بين إيمانين : الإيمان الأول بالله ، والآخر أنْ يؤمن بالآخرة وبالجزاء والمرجع والمصير .

وقوله ﴿يُوقِنُونَ ③﴾ [النمل] الإيقان : الحكم بثبات الشىء بدون توهُّم شكٍّ ؛ لذلك قلنا : إن العلم أنْ تعرف قضية واقعة وتقول ، إنها صدق وتُدلِّل عليها .

---

(١) أخرجه الحاكم فى « مستدركه على الصحيحين » (٤٤٨/١) من حديث الحارث بن سويد رضى الله عنه .

وقلنا : إن اليقين درجات : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحقُّ اليقين ، فمثلاً حين أقول لك : إننى رأيتُ فى أحد البلاد أصبع الموز نصف متر ، وأن تثق فىَّ ولا تكذبنى ، فهذا علم يقين ، فإنْ رأيته ، فهذا عَيْن اليقين ، فإن أخذته وذهبتَ تقطعه مثلاً ، وتوزعه على الحاضرين فهذا حقُّ اليقين . وهذه الدرجة لا يمكن أن يتسرَّب إليها شكٌّ .

لذلك لما سأل النبى ﷺ الصحابى الحارث بن مالك الأنصارى : « كيف أصبحتَ » ؟ قال : أصبحتُ بالله مؤمناً حقاً ، قال « فإنَّ لكل حَقٍّ حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟» قال : عزفَتْ نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى ذهبها ومدرها[1] ، وكأنِّى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون ، فقال له النبى ﷺ : « عرفت فالزم »[2] .

والإمام على ـ رضى الله عنه ـ يعطينا صفة اليقين فى قوله : لو كُشف عنى الحجاب ما ازددتُ يقيناً ؛ لأنى صدقت بما قال الله ، وليستَ عينى أصدق عندى من الله .

ومن هذا اليقين ما ذكرنا فى قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾ [الفيل] مع أن النبى ﷺ وُلد فى هذا العام ، فلم يَرَ هذه الحادثة ، فالمعنى : ألم تعلم ، وعدل عن (تعلم) إلى (ترى) ليقول للنبى ﷺ أن إخبار الله لك أقوى صدْقاً من رؤية عينيك .

---

(١) المدر : قطع الطين اليابس ، وهو الطين المتماسك . [لسان العرب ـ مادة : مدر] .
(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥٧/١) وعزاه للطبرانى فى المعجم الكبير وقال : « فيه ابن لهيعة وفيه من يحتاج إلى الكشف عنه » .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝٤ ﴾

هؤلاء فى مقابل الذين آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعرض الشىء ومقابله لنُجرى نحن مقارنة بين المتقابلات ، وفى هؤلاء يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ .. ④ ﴾ [النمل]

ولم يَنْفِ عنهم إقامة الصلاة أو إيتاء الزكاة ، لماذا ؟ لأنهم أصلاً لا يؤمنون بالله ، ولا بالبعث والحساب ، ولو علموا أنهم سيرجعون إلى الله لآمنوا به ؛ ولَقدَّموا العمل الصالح .

ومعنى ﴿ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ .. ④ ﴾ [النمل] أن الذين لا يؤمنون بالله ، ولا يؤمنون بالآخرة ، ولا يُؤدُّون مطلوبات الإيمان لا عُذْرَ لهم ؛ لأننا حينما عرضنا الإيمان ومطلوباته عرضناه عَرْضاً جيداً مُستميلاً مُشوِّقاً وزيَّناه لكم .

فالصلاة لقاء بينك وبين ربك يعبر عن دوام الولاء ، ويعطيك شحنة إيمانية ، والزكاة تُؤمِّنك حين ضعفك وعدم قدرتك ، فنأخذ منك وأنت غنى لنعطيك إنْ حَلَّ بك الفقر ، ولما نهيناك عن الكذب نهينا الناس جميعاً أن يكذبوا عليك ، ولما حذَّرناك من الرشوة قلنا للآخرين : لا تأكلوا ماله دون وَجْه حقٍّ .. إلخ .

وهكذا شرحنا التكاليف وبيَّنا الحكمة منها ، وحبَّبناها إليكم .

أو : يكون المعنى : زيَّنَّا لهم أعمالهم التى يعملونها ، فلما علم الله عشْقهم للضلال وللانحراف ختم على قلوبهم ، يقول تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا .. ⑧ ﴾ [فاطر]

لكن مَن الذى زيَّن لهم : ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .. (٦٣)﴾ [النحل] فالتزيين يأتى مرة من الشيطان ، ومرة مجهول الفاعل ، ومرة زيَّن الله لهم .

ومن تزيين الله قوله تعالى فى شأن فرعون : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ.. (٨٨)﴾ [يونس] فلما أعطاهم الله النعمة فُتنوا بها .

وإبليس خلقه الله ، وجعل له ذرية تتسلَّط على الناس ، وتُغْويهم ، وما ذلك إلا للاختبار ليرى مَنْ سيقف على هذه الأبواب ، إذن : الحق - تبارك وتعالى - لم يجعل حواجز عن المعصية ، وجعل لكم دوافع على الطاعة ، فالمسألة منك أنتَ ، فإنْ رأيتك مِلْتَ إلى شيء وأحببته أعنْتُكَ عليه .

والذى يموت له عزيز ، أو المرأة التى يموت ولدها ، فتظل حزينة عليه تُكدِّر حياتها وحياة مَنْ حولها - ويا ليت هذا يفيد أو يُعيد الميت - ونقول لمن يستقبل قضاء الله بهذا السُّخْط : إن ربك حين يعلم أنك ألفتَ الحزن وعشقْته وهو رب ، فلا بُدَّ أن يعطيك مطلوبك ، ويفتح عليك كل يوم باباً من أبوابه .

إذن : ينبغى على مَنْ يتعرَّض لمثل هذا البلاء أنْ يستقبله بالرضا ، وأنْ يغلق باب الحزن ، ولا يتركه موارباً .

ومن التزيين قوله سبحانه : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

ومعنى ﴿يَعْمَهُونَ (٤)﴾ [النمل] يتحيرون ويضطربون ، لا يعرفون أين يذهبون ؟

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ ﴾

أى : العذاب السيء ، وهذا فى الآخرة ، فبالإضافة إلى ما حدث لهم من تقتيل فى بدر ، وهزيمة كسرتْ شوكتهم فلم ينته الأمر عند هذا الحد ، إنما هناك خسارة أخرى فى الآخرة ﴿وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾ [النمل]

والأخسر مبالغة فى الخسران ، فلم يَقُلْ : خاسر إنما أخسر ؛ لأنه خسر النعيم ؛ لأنه لم يُقدِّم صالحاً فى الدنيا ، وليته ظل بلا نعيم وتُركَ فى حاله ، إنما يأتيه العذاب الذى يسوؤه ؛ لذلك قال تعالى ﴿هُمُ الأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾ [النمل] لأنهم لم يدخلوا الجنة ، وهذه خسارة ، ثم هم فى النار ، وهذه خسارة أخرى .

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾

يعنى : هذه المسائل والقضايا إنما تأتيك من الله الحكيم الذى يضع الشيء فى نصابه وفى محله ، فإنْ أثاب المحسن أو عاقب المسيء ، فكلٌّ فى محلّه ، وهو سبحانه العليم بما يضع من الجزاءات على الحسنة وعلى السيئة .

ويقصُّ علينا الحق سبحانه قصة موسى عليه السلام :

﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾

ما زِلْنا قريبى عَهْد بذكر طرف من قصة موسى ـ عليه السلام ـ

فى سورة الشعراء ، وهنا يعود السياق إليه مرة أخرى ، لماذا ؟ لأن دعوة موسى ـ عليه السلام ـ أخذت حيِّزاً كبيراً من القرآن الكريم ، ذلك لأنهم أتعبوا أنبياءهم وعاندوهم حتى كَثُر الكلام عنهم .

وعجيب أنهم يفخرون بكثرة أنبيائهم ، وهم لا يعلمون أنها تُحسب عليهم لا لهم ، فالنبى لا يأتى إلا عند شقْوة أصحابه ، وبنو إسرائيل كانوا من الضلال والعناد بحيث لا يكفيهم رسول واحد ، بل يلزمهم (كونسلتو) من الأنبياء ، فهم يعتبرونها مفخرة ، وهى مَنْقصة ومذمّة .

أما تكرار قصة بنى إسرائيل وموسى ـ عليه السلام ـ كثيراً فى القرآن ، فلأن القرآن لا يروى (حدوتة) و ، لا يذكر أحداثاً للتأريخ لها ، إنما يأتى من القصة بما يناسب موطن العبرة والتثبيت لفؤاد رسول الله : ﴿ وَكُلاً نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. (١٢٠) ﴾ [هود]

لأن رسول الله ﷺ تعرَّض فى رحلة الدعوة لكثير من المصاعب والمشاقّ ، ويحتاج لتسلية[1] وتثبيت ، فيأتى له ربُّه بلقطة معينة ، ولكن لا يُورد القصة كاملة ، وهذا ليس عَجْزاً ـ وحاشا لله ـ عن إيراد القصة كاملة مرة واحدة .

وقد أورد سبحانه قصة يوسف ـ عليه السلام ـ كاملة من الألف إلى الياء فى صورة قصة محبوكة على أتمّ ما يكون الفن القصصى ، ومع ذلك لم يأتِ لسيدنا يوسف عليه السلام ذِكْر ـ فى غير هذه القصة ـ إلا فى موضعين :

(١) سلأنى من همى تسلية وأسلانى ، أى : كشفه عنى . وانسلى عنى الهم وتسلّى بمعنىً . أى : انكشف . وقال أبو زيد : معنى سلوت إذا نسى ذكره وذهل عنه . [لسان العرب ـ مادة : سلى] .

أحدهما : فى سورة الأنعام : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ .. (٨٤) ﴾ [الأنعام]

والآخر فى سورة غافر : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً.. (٣٤) ﴾ [غافر]

إذن : ورود القصة فى لقطات مختلفة متفرقة ليس عَجْزاً عن إيرادها مُسْتوفاة كاملة فى سياق واحد ، ولو فعل ذلك لكان التثبيت مرة واحدة .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً .. (٧) ﴾ [النمل] ، وفى موضع آخر يقول : ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً .. (٢٩) ﴾ [القصص] وفى هذه الآية إضافة جديدة ليست فى الأولى .

أما قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ[1] وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً .. (٢٩) ﴾ [القصص] أى : آنس فى ذاته ، أمّا فى الآيتين السابقتين فيخبر بأنه آنسَ ناراً ، إذن : كل آية فى موقف ، وليس فى الأمر تكرار ، كما يتوهّم البعض .

فموسى ـ عليه السلام ـ يسير بأهله فى هذا الطريق الوَعْر ويحلّ عليه الظلام ، ولا يكاد يرى الطريق فيقول لزوجته : ﴿ إِنِّي آنَسْتُ

---

(١) أى الأجل الذى ضربه له شعيب لقاء إنكاحه ابنته ، عندما قال : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ .. (٢٧) ﴾ [القصص] . قال ابن كثير فى تفسيره (٣٨٧/٣) : « قضى موسى أتم الأجلين وأوفاهما وأبرهما وأكملهما وأنقاهما » .

نَارًا .. ⑦﴾ [النمل] يعنى : سأذهب لأقتبسَ منها ، ليهتدوا بها ، أو ليستدفئوا بها .

وطبيعى أنْ تعارضه زوجته : كيف تتركنى فى هذا المكان المُوحِش وحدى ، فيقول لها ﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. ㉙﴾ [القصص] يعنى : ابقىْ هنا مستريحة ، وأنا الذى سأذهب ، فلربما تعرَّضت لمخاطر فكُونى أنت بعيداً عنها ، إذن : هى مواقف جديدة استدعاها الحال ، ليست تكراراً .

كذلك نجد اختلافاً طبيعياً فى قوله : ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ㉙﴾ [القصص] وقوله : ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ⑦﴾ [النمل]

فالأولى ﴿لَعَلِّي .. ㉙﴾ [القصص] فيها رجاء ؛ لأنه مُقبل على شىء يشكُّ فيه ، وغير متأكد منه ، وهو فى هذه الحالة صادق مع خواطر نفسه أمام شىء غائب عنه ، فلما تأكد قال ﴿سَآتِيكُم .. ⑦﴾ [النمل] على وجه اليقين[1] .

وفى هذه المسألة قال مرة : ﴿لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ .. ㉙﴾ [القصص] وهنا قال : ﴿سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ[2] ⑦﴾ [النمل] .

ذلك لأنه لا يدرى حينما يصل إلى النار ، أيجدها مشتعلة لها

---

(١) ذكر أبو يحى زكريا الأنصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص (٣٠٥) : « فإن قلت : كيف قال هنا : ﴿سَآتِيكُم .. ⑦﴾ [النمل] ، وفى ﴿لَعَلِّي آتِيكُم .. ㉙﴾ [القصص] ، وأحدهما قطع ، والآخر ترجٍّ ، والقضية واحدة ؟ قلت : قد يقول الراجى إذا قوى رجاؤه : سأفعل كذا ، وسيكون كذا ، مع تجويزه عدم الجزم » .

(٢) أى : لعلكم تستدفئون من البرد ، يقال : اصطلى يصطلى إذا استدفأ . [تفسير القرطبى ٥٠٣٨/٧] قال الزجاج : جاء فى التفسير أنهم كانوا فى شتاء ؛ فلذلك احتاج إلى الاصطلاء . وصلَّى يده بالنار : سخَّنها . [لسان العرب ـ مادة : صلى] .

لسان يقتبس منه شعلة ، أم يجدها قد هدأتْ ولم يَبْقَ منها إلا جذوة ، وهى القطعة المتوهجة مثل الفحم مثلاً ، فكلٌّ تكرار هنا له موضع ، وله معنى ، ويضيف شيئاً جديداً إلى سياق القصة ، فهو تكامل فى اللقطات تأتى متفرقة حَسْب المراد من العبرة والتثبيت .

ومعنى ﴿لأَهْلِهِ .. ۝٧﴾ [النمل] قالوا : إنها تعنى جماعة بدليل قوله لهم ﴿امْكُثُوا .. ۝٢٩﴾ [القصص] فكانت زوجته ، ومعه أيضاً بعض الرُّعْيان أو الخدم . والإنسان منا يحتاج لأشياء كثيرة تقتضى التعدّد : فهذا يطبخ الطعام ، وهذا للنظافة ، وهذا لكَىِّ الملابس .. إلخ .

لكن هناك شىء واحد لا يستطيع أحد أنْ يقضيَه لك إلا زوجتك ، هى النسْل والمعاشرة الزوجية ، كما يمكن للزوجة وحدها أن تقوم لك بكل هذه الأعمال ، إذن : فهى تُغْنى عن الأهل كلهم ، ونستطيع أن نقول : إنه لم يكُنْ معه إلا زوجته .

وهذه شائعة فى لغتنا : يقول الرجل : الجماعة أو جماعتى أو أهلى ويقصد زوجته ، وفى هذا تقدير من الزوج لمكانة زوجته .

ومعنى ﴿آنَسْتُ .. ۝٧﴾ [النمل] آنس : يعنى شعر وأحسَّ بشىء يُؤنسه ويُطمئنه ، وضده التوجس : أى شعر وأحسَّ بشىء يخيفه ، ومنه قوله تعالى فى شأن موسى أيضاً : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه]

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨﴾

أى : جاء النار فـ ﴿ نُودِيَ .. ﴿٨﴾ ﴾ [النمل] النداء : طلب إقبال ، كما تقول : يا فلان ، فيأتيك فتقول له ما تريد . فالنداء مثلاً فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١١﴾ ﴾ [طه] نداء ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [طه] خطاب وإخبار .

لكن ما معنى ﴿ نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ﴿٨﴾ ﴾ [النمل] ولم يقُلْ : يا موسى فليس هنا نداء ، قالوا : مجرد الخطاب هنا يُراد به النداء ؛ لأنه ما دام يخاطبهُ فكأنه يناديه ، ومثال ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأعراف]

فذكر الخطاب مباشرة دون نداء ؛ لأن النداء هنا مُقدَّر معلوم من سياق الكلام ، ومنه أيضاً : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأعراف]

ومنه أيضاً : ﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [مريم] فجعل الخطاب نفسه هو النداء .

وقوله : ﴿ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ﴿٨﴾ ﴾ [النمل] كلمة بُورك لا تناسب النار ؛ لأن النار تحرق ، وما دام قال ﴿ بُورِكَ مَن فِي النَّارِ .. ﴿٨﴾ ﴾ [النمل] فلا بُدَّ أن مَنْ فى النار خَلْق لا يُحرق ، ولا تؤثر فيه النار ، فمَنْ هم الذين لا تؤثر فيهم النار ، هم الملائكة[1] .

وقد رأى موسى ـ عليه السلام ـ مشهداً عجيباً ، رأى النار تشتعل فى فرعٍ من الشجرة ، فالنار تزداد ، والفرع يزداد خُضْرة ،

(١) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ .. ﴿٨﴾ ﴾ [النمل] يعنى تبارك وتعالى نفسه ، كان نور رب العالمين فى الشجرة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ﴿٨﴾ ﴾ [النمل] . يعنى الملائكة . أورده السيوطى فى (الدر المنثور ٦/٣٤١) .

فلا النار تحرق الخضرة ولا رطوبة الخضرة ومائيتها تطفىء النار[1] ، فمَنْ يقـدر على هذه المسألة ؟ لذلك قـال بعدها : ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑧﴾ [النمل]

ففى مثل هذا الموقف إياك أنْ تقـول : كيف ، بل نزِّه الله عن تصرفاتك أنت ، فهذا عجيب لا يُتصوَّر بالنسبة لك ، أمّا عند الله فأمر يسير .

وقد رأينا مـثل هذه المعجـزة فى قصة إبراهيم ـ عليـه السلام ـ حين نجّـاه ربه من النار ، ولم يكُنْ المقـصود من هذه الحـادثة نجاة إبراهيم فـقط ، فلو أن الله أراد نجـاته فـحـسب لَمَـا أمكنهم منه ، أو لأطفأ النار التى أوقدوها بسحابة ممطرة ، أسباب كثيرة كانت مُمكنة لنجاة سيدنا إبراهيم .

لكن الله تعالى أرادهم أنْ يُمسكوا به ، وأنْ يُلْقوه فى النار ، وهى على حال اشـتعالهـا وتوهّجهـا ، ثم يُلْقونه فى النار بأنفـسهم ، وهم يروْنَ هذا كله عَيَاناً ، ثم لا تؤذيه النار ، كأنه يقول لهم : أنا أريد أن أنجـيه من النار ، رغم قـوة أسـبابكم فى إحـراقـه ، فأنا خـالق النار ومعطيها خاصية الإحراق ، وهى مُؤتمرةٌ بأمرى أقول لها : كُونى بَرْداً وسلاماً تـكون ، فالمسألة ليـست ناموساً وقاعـدة تحكم الكون ، إنما هى قيوميتى على خَلْقى .

إذن : ما رآه مـوسى ـ عليه السلام ـ من النار التى تشـتعل فى خضرة الشـجرة أمر عجـيب عندكم ، وليس عجيبـاً عند مَنْ له طلاقة القدرة التى تخرق النواميس .

(١) قال ابن كثيـر فى تفسيره (٣/٣٥٦) : « فلما أتاها ورأى منظراً هائلاً عظيـماً حيث انتهى إليـها والنار تضطرم فى شـجرة خـضراء .لا تزداد النار إلا توقـداً ، ولا تزداد الشـجرة إلا خضرة ونضرة ، ثم رفع رأسـه فإذا نورها متصل بعنان السماء . قال ابن عـباس وغيره : لم تكن ناراً ، وإنما كانت نوراً يتوهج » .

وبناء الفعل ﴿بُورِكَ .. ⑧﴾ [النمل] للمجهول تعني : أن الله تعالى هو الذي يبارك ، فهذه مسألة لا يقدر عليها إلا الله ﴿مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ⑧﴾ [النمل] يجوز أن يكون الملائكة ، أو : بُوركت الشجرة ذاتها لأنها لا تُحرق ، أو النار لأنها لا تنطفيء فهي مُباركة .

وفي موضع آخر يُوسِّع دائرة البركة ، فيقول سبحانه : ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ[1] الشَّجَرَةِ .. ㉚﴾ [القصص]

ثم يخاطب الحق سبحانه موسى :

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ⑨﴾

جاء هنا النداء على حقيقته بأداة ومنادى ﴿إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ .. ⑨﴾ [النمل] هذا هو الأصل ، وما دُمْتُ أنا الله فلا تتعجَّب مما ترى ، وساعةَ تسمع مَنْ يُكلِّمك دون أن ترى متكلماً من جنسك ، فلا تتعجب ولا تندهش .

﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ⑩﴾

ونلحظ أن هنا تفاصيلَ وأحداث لم تذكرها الآية هنا ، وذُكرَت في موضعٍ آخر في قوله تعالى : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ⑰ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ⑱﴾ [طه]

والأدب يقتضي أن يأتي الجواب على قَدْر السؤال ، لكن موسى ـ

(١) أي : من ناحية الشجرة . وقيل : كانت شجرة العُليق . وقيل : سمرة ، وقيل : عوسج ، ومنها كانت عصا موسى ، ذكره الزمخشري . والعوسج إذا عظم يقال له الغرقد . [القرطبي في تفسيره ٥١٦٨/٧] .

عليه السلام - أراد أنْ يطيل أمد الأُنْس بالله والبقاء فى حضرته تعالى ، ولما أحسَّ موسى أنه أطال فى هذا المقام أجمل ، فقال ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ١٨﴾ [طه] فللعصا مهام أخرى كثيرة فى حياته .

وهنا يقول سبحانه : ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ .. ١٠﴾ [النمل] يعنى : إنْ كانت العصا بالنسبة لك بهذه البساطة ، وهذه مهمتها عندك فلها عندى مهمة أخرى ، فانظر إلى مهمتها عندى ، وإلى ما لا تعرفه عنها .

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ .. ١٠﴾ [النمل] فلمَّا ألقى موسى عصاه وجدها ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ .. ١٠﴾ [النمل] يعنى : حية تسعى وتتحرك ، والعجيب أنها لم تتحول إلى شىء من جنسها ، فالعصا عود من خشب ، كان فرعاً فى شجرة ، فجنسه النبات ولما قُطعت وجفَّتْ صارت جماداً ، فلو عادت إلى النباتية يعنى : إلى الجنس القريب منها واخضرتْ لكانت عجيبة .

أمَّا الحق - تبارك وتعالى - فقد نقلها إلى جنس آخر إلى الحيوانية ، وهذه قفزة كبيرة تدعو إلى الدهشة بل والخوف ، خاصة وهى ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ .. ١٠﴾ [النمل] أى : تتحرك حركة سريعة هنا وهناك .

وطبيعى فى نفسية موسى حين يرى العصا التى فى يده على هذه الصورة أنْ يخاف ويضطرب ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ٦٧ قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ٦٨﴾ [طه]

ومعنى ﴿الأَعْلَىٰ ٦٨﴾ [طه] إشارة إلى أنه تعالى يُعده لمهمة كبرى ، وأن لهذه العصا دوراً مع الخصوم ، وسوف ينتصر عليهم ، ويكون هو الأعلى .

وحين تتتبع اللقطات المختلفة لهذه القصة تجدها مرة (جان) ومرة (حية) ومرة (ثعبان) ، وهى كلها حالات للشىء الواحد ، فالجان فَرْخ الثعبان ، وله من خفة الحركة ما ليس للثعبان ، والحية هى الثعبان الضخم .

وقوله تعالى ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. ⟨١٠⟩﴾ [النمل] يعنى : انصرف عنها وأعطاها ظهره ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ .. ⟨١٠⟩﴾ [النمل] نقول : فلان يُعقِّب يعنى : يدور على عَقبه ويرجع ، والمعنى أنه انصرف عنها ولم يرجع إليها ؛ لذلك ناداه ربه سبحانه وتعالى : ﴿يَـٰمُوسَىٰ لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ⟨١٠⟩﴾ [النمل]

ونلحظ هنا نداءين اثنين يذكر فيهما ، المنادى موسى ـ عليه السلام ـ وكأنهما تعويض للنداء السابق الذى نُودى فيه بالخبر ﴿أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا .. ⟨٨⟩﴾ [النمل]

وعلّة عدم الخوف ﴿لا تَخَفْ .. ⟨١٠⟩﴾ [النمل] ليعلمه أنه سيُضطر إلى معركة ، فليكُنْ ثابتَ الجأش لا يخاف لأنّه لا يحارب شخصاً بمفرده ، إنما جمعاً من السَّحرة جُمعوا من كل أنحاء البلاد ، وسبق أنْ قال له : ﴿إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَىٰ ⟨٦٨⟩﴾ [طه] حتى لا تُرهبه هذه الكثرة .

وهنا قال ﴿إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ⟨١٠⟩﴾ [النمل] والمعنى : لا تخفْ ، لأنى أنا الذى أرسلتُك ، وأنا الذى أتولّى حمايتك وتأييدك ، كما قال الحق سبحانه فى موضع آخر :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ⟨١٧١⟩ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ⟨١٧٢⟩ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ⟨١٧٣⟩﴾ [الصافات]

فأنت معذور فى الخوف ، ، إنْ كنتَ بعيداً عنى ، فكيف وأنت فى جوارى وأنا معك ، وها أنذا أخاطبك ؟

وكان إلقاء العصا من موسى هذه المرة مجرد تجربة (بروفة) ليألف هذه المسألة ويأنس إليها ، وتحدث له دُرْبة ورياضة ، فإذا ما أجرى هذه العملية أمام فرعون والسحرة أجراها بثقة وثبات ويقين من إمكانية انقلاب العصا إلى حية .

وبعد ذلك يأتي بآية تثبت منطقة التكليف في البشر حتى الرسل ، والرسل أيضاً مُكلَّفون ، وكل مُكلَّف يصح أنْ يطيع أو أن يعصي ، لكن الرسلَ معصومون من المعصية ، أما موسى عليه السلام فله حادثة مخصوصة حين وكَز الرجل فسقط ميتاً ، فقال : ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾ [الشعراء]

وفي موضع آخر يُحدِّد هذا الذنب : ﴿قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾ [القصص]

ونضع هذه القصة أمامنا لنفهم :

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾

إذن : فالاستثناء هنا من قوله تعالى ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل] استثنى من ذلك ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ .. ﴿١١﴾﴾ [النمل]

وكأنه ـ عز وجل ـ يُعرِّض بهذه الحادثة الخاصة بموسى عليه السلام : ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ .. ﴿١١﴾﴾ [النمل] أي : حين قتَل القبطي[1] ، لكنْ

(١) القبطي هو المصري من أهل البلد التابع لفرعون وليس المقصود به النصراني المسيحي ، فموسى قبل عيسى بأجيال كثيرة ، وبينهما أنبياء ورسل كثيرون .

موسى ـ عليه السلام ـ اعترف بذنبه واستغفر ربه ، فقال : ﴿ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ .. (١٦) ﴾ [القصص]

ولا كلامَ لأحد بعد مغفرة الله عز وجل للمذنب[1] ؛ لأنه بعد أنْ ظلم ﴿ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ .. (١١) ﴾ [النمل] يعنى : عمل عملاً حسناً بعد الذنب الذى ارتكبه ﴿ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١) ﴾ [النمل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (١٢) ﴾

هذه آية أخرى ومعجزة جديدة ، قال عنها فى موضع آخر : ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ .. (٣٢) ﴾ [القصص]

فما الفرق بين : أَدْخِل يدك ، واسْلُك يدك ؟ قالوا : لأنه ساعة يُدخِل يده فى جيبه يعنى : فى فتحة القميص ، إنْ كانت فتحة القميص مفتوحة أدخل يده بسهولة فيُسمَّى (إدخال) .

فإن كانت مغلقة (فيها أزرار مثلاً) احتاج أنْ يسلك يده يعنى : يُدخلها برفق ويُوسِّع لها مكاناً ، نقول : سلك الشىء يعنى : أدخله بلُطْف ورِفْق ، ومنه السلك الرفيع حين تُدخله فى شىء .

وساعةَ نسمع كلمة الجيب نجد أن لها معنىً عرفياً بين الناس ، ومعنى لُغوياً : فمعناها فى اللغة فتحة القميص العليا ، والتى تكون للرقبة ، وهى فى المعنى العُرْفى فتحة بداخل الثوب يضع فيها

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٠٤٣/٧) : « إذا أحدث المقرب حدثاً فهو وإن غفر له ذلك الحدث فأثر ذلك الحدث باق ، وما دام الأثر والتهمة قائمة فالخوف كائن لا خوف العقوبة ولكن خوف العظمة. ، والمتَّهم عند السلطان يجد للتهمة حزازة تؤديه إلى أن يكدر عليه صفاء الثقة ، وموسى عليه السلام قد كان منه الحدث فى ذلك الفرعونى ، ثم استغفر وأقر بالظلم على نفسه ، ثم غفر له » .

الإنسان نقوده ، يقولون (جيب) والعوام لهم عُذْر فى ذلك ؛ لأنهم اضطروا إلى حفْظ نقودهم داخل الثياب ، حتى لا تكون ظاهرة ، وربما سرقها منهم النشالون والأشقياء .

ولا يزال الفلاحون فى الريف يجعلون الجيب فى (السديرى) الداخلى ؛ لذلك سمعنا الحاوى مثلاً يقول ـ ليُحنِّن الناس عليه ـ بارك الله فيمَنْ يضع يده فى جيبه ـ يعنى : بارك الله فى الذى يعطينى جنيهاً .

وقوله تعالى ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (١٢)﴾ [النمل] أى : وأخرجها تخرج بيضاء ناصعة مُنوَّرة ، ومعلوم أن موسى ـ عليه السلام ـ كان آدمَ اللون يعنى : أسمر ، فحين يروْنَ لونه تغيَّر إلى البياض ، فربما قالوا : إن ذلك مرضٌ كالبرص مثلاً .

لذلك أزال الله هذا الظنَّ بقوله : ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. (١٢)﴾ [النمل] من غير مرض ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ .. (١٢)﴾ [النمل] ليعلم موسى ـ عليه السلام ـ أن هذه الآية واحدة من تسع آيات أخرى يُثبِّته الله بها أمام عدوه فرعون وقومه .

وهذه التسع هى : العصا ولها مهمتان : أن تتحول إلى حية أمام السحرة ، وأنْ يضرب بها البحر أمام جيشه ، حينما يهاجمه فرعون وجنوده .

ثم اليد ، واثنتان هما الجدب ، ونقص الثمرات فى قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ .. (١٣٠)﴾ [الأعراف]

ثم : الطوفان ، والجراد ، والقُمَّل[(١)] ، والضفادع ، والدَّم . هذه

(١) القُمَّل : حشرات صغيرة تؤذى الزرع وتضايق الناس . [القاموس القويم ٢/١٣٤] . قال ابن منظور ـ فى اللسان ـ مادة : قمل « القمل : صغار الذر والدَّبى . وقيل : هو الدَّبى الذى لا أجنحة له . وقال ابن السكيت : القُمَّل شىء يقع فى الزرع ليس بجراد فيأكل السنبلة وهى غضة قبل أن تخرج فيطول الزرع ولا سنبل له . قال الأزهرى : وهذا هو الصحيح » .

تسع آيات . تُثبِّت موسى أمام فرعون وقومه . فهل أرسل موسى - عليه السلام - إلى فرعون خاصة ؟ لا ، إنما أُرسل إلى بنى إسرائيل ، لكنه أراد أنْ يُقنع فرعون بأنه مُرْسَل من عند الله حتى لا يحول بينه وبينهم ، وجاءت مسألة دعوة فرعون إلى الإيمان بالله عَرَضاً فى أحداث القصة ، فليست هى أساس دعوة موسى عليه السلام .

ومعنى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝١٢﴾ [النمل] إشارةً إلى أن الإنسان وإنْ كان كافراً خارجاً عن طاعة الله إلا أنَّ أصله من أصلاب مؤمنة ، والمراد الإيمان الأول فى آدم عليه السلام ، وفى ذريته من بعده ، لكنهم فسقوا أى : خرجوا من غشاء التكليف الذى يُغلِّف حركة حياتهم ، كما نقول : فسقت الرطبة : يعنى خرجت من غلافها ، كذلك فَسَق الإنسان أى : خرج عن حيِّز التكليف الصائن له .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً(١) قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝١٣﴾

الآيات : المعجزات التى تُثبت صدْق الرسول ، والآيات تكون مُبْصَرة بصيغة اسم المفعول ، لكن كيف تكون هى المبصرة بصيغة اسم الفاعل ، وهذه المسألة عرفناها أخيراً ، فكانوا منذ القدم عند اليونان والحضارات القديمة يظنون أن رؤية العين للأشياء تحدث من شعاع يخرج من العين إلى الشىء المرئى ، إلى أن جاء العالم المسلم الحسن بن الهيثم ليثبت خطأ هذه النظرية ويقول بعكسها .

---

(١) مبصرة : أى : واضحة بينة ظاهرة . [تفسير ابن كثير ٣/٣٥٧] . وقال الجوهرى : مبصرة : أى : مضيئة . وقال أبو إسحاق : معنى مبصرة تُبصِّرهم أى تبين لهم . وقال الأخفش : إنها تُبصِّرهم أى تجعلهم بُصراء . [لسان العرب - مادة : بصر] .

فالرؤية تتم بخروج شعاع من الشيء المرئيّ إلى العين ، بدليل أننا لا نرى الشيء إنْ كان في الظلام ، وأنت في النور ، فإنْ كان الشيء في النور وأنت في الظلام تراه .

إذن : فكأن الآيات نفسها هي المبصرة ؛ لأنها هي التي ترسل الأشعة التي تسبب الرؤية . أو : أن الآيات من الوضوح كأنها تُلِحّ على الناس أنْ يروْا وأنْ يتأملوا ، فكأنها أبصرُ منهم للحقائق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾

﴿ وَجَحَدُوا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] أي : باللسان ﴿ بِهَا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] بالآيات ﴿ وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] أي : إيماناً بها ، إذن : المسألة عناد ولَدَد في الخصومة ؛ لذلك قال تعالى بعدها ﴿ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] أي : استكباراً عن الحق ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل] وترْك عاقبتهم مبهمة لتعظيم شأنها وتهويلها .

ثم يترك قصة موسى مع فرعون وما كان من أمرهما لمناسبة أخرى تحتاج إلى تثبيت آخر ، وينتقل إلى قصة أخرى في موكب الأنبياء ، فيها هي الأخرى مواطن للعبْرة وللتثبيت :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

وتسأل : لقد أعطى الله داود وسليمان ـ عليهما السلام ـ نعَماً كثيرة غير العلم ، ألآن لداود الحديد ، وأعطى سليمان مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده ، وسخَّر له الريح والجن ، وعلَّمه منطق الطير .. إلخ ومع ذلك لم يمتنّ عليهما إلا بالعلم وهو منهج الدين ؟

قالوا : لأن العلم هو النعمة الحقيقية التى يجب أن يفرح بها المؤمن ، لا الملْك ولا المال ، ولا الدنيا كلها ، فلم يُعتد بشيء من هذا كله ؛ لذلك حمد الله على أن آتاه الله العلم ؛ لأنه النعمة التى يحتاج إليها كل الخَلْق ، أما المُلْك أو الجاه أو تسخير الكون لخدمته ، فيمكن للإنسان الاستغناء عنها .

والإمام على ـ كرم الله وجهه ـ حينما نُفى أبو ذر ؛ لأنه كان يتكلم عن المال وخطره والأبنية ومسائل الدنيا ، فَنَفَوْه إلى الربذة حتى لا يثير فتنة ، لكنه قبل أن يذهب مرَّ بالإمام على كى يتوسط له ليعفوا عنه ، لكن الإمام علياً ـ رضى الله عنه ـ أراد ألاَّ يتدخل فى هذه المسألة حتى لا يقال : إن علياً سلَّط أبا ذر على معارضة أهل الدنيا ومهاجمتهم ، فقال له : يا أبا ذر إنك قد غضبتَ لله فارْجُ مَنْ غضبتَ له ، فإن القوم خافوك على دُنْياهم ومُلكهم ، وخفْتهم أنت على دينك فاهرب بما خِفْتَهم عليه ـ يعنى : اهرب بدِينك ـ واترك ما خافوك عليه ، فما أحوَجهم إلى ما منعتهم ، وما أغناك عمَّا منعوك[1] .

(١) أورد ابن الجوزى فى صفة الصفوة (١/٣٠٣) : « روى البخارى فى أفراده من حديث زيد بن وهب قال : مررت بالربذة فقلت لأبي ذر : ما أنزلك هنا ؟ قال : كنت بالشام فاختلفت أنا ومعاوية فى هذه الآية ﴿الَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ..(٣٤)﴾ [التوبة] ، فقال : نزلت فى أهل الكتاب . فقلت : فينا وفيهم . فكتب يشكونى إلى عثمان . فكتب عثمان : أقدم المدينة فقدمتُ فكثر الناس علىّ كأنهم لم يرونى قبل ذلك ، فذكر ذلك لعثمان فقال : إن شئت تنحَّيْتَ فكنت قريباً ، فذلك الذى أنزلنى هذا المنزل » فهذه الواقعة كانت فى زمن خلافة عثمان بن عفان ، وقد توفى أبو ذر فى زمن عثمان . وهذا لا يمنع أن يكون أبو ذر قد استشار على بن أبى طالب إذ لم يكن خليفة .

هكذا أزال الإمام هذا الإشكال ، وأظهر أهمية العلم ومنهج الله بحيث لا يستغنى عنه المسلم بحال من الأحوال ، ولا يعيش بدونه ، وبه ينال حياة أخرى رفيعة باقية ، فى حين يستطيع الإنسان أن يعيش بدون المال وبدون الملك .

ولذلك يبعث خليفة المسلمين إلى سيدنا جعفر الصادق : يا ابن بنت محمد ﷺ ما لك لا تغشانا كما يغشانا الناس ؟ أى : تأتينا وتجالسنا وتسمر معنا ، فقال : ليس عندى من الدنيا ما أخافك عليه ـ يعنى : ليس عندى مال تصادره ـ وليس عندك من الآخرة ما أرجوك له . وهذا نفس المنطق الذى تكلم به الإمام على .

وقوله تعالى : ﴿وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٥﴾ [النمل] فالحمد هنا على نعمة العلم وحفظ منهج الله ، وفى الآية مظهر من مظاهر أدب النبوة ، حيث قالا ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ۝١٥﴾ [النمل] فكأن هناك مَنْ هم أفضل منّا ، وليس التفضيل حَجْراً علينا ، وهذا من تواضعهما عليهما السلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ۝١٦﴾

قوله سبحانه ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ .. ۝١٦﴾ [النمل] أى : بقيتْ فيه النبوة وحمل المنهج ، لا الملك لأن الأنبياء لا تورث كما جاء فى الحديث الشريف : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»[1]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٠٣٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧٥٧) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه . أن رسول الله ﷺ قال : « لا نُورث ما تركناه صدقة » .

وهذا يدل على أن سليمان جاء بعد داود ، وقد ورث عنه النبوة مع أنهما متعاصران ، بدليل قوله تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ[1] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) ﴾ [الأنبياء]

إذن : كان سليمان مع داود فى هذه الحكومة وفى العلم ، لكن الحق سبحانه جعل العلم منازل ، بدليل أنه قال : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ.. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] مع أن أباه موجود ، وحكم فى القضية بأن يأخذ صاحبُ الزرع الغنم التى أكلت .

فلما خرجوا من عند داود سألهم سليمان عن حكم أبيه ، فأخبروه بما قال ، فقال سليمان : بل يأخذ صاحب الزرع الغنم ينتفع بها ، ويأخذ صاحب الغنم الزرع يصلحه حتى يعود كما كان ، وعندها يأخذ صاحب الغنم غنمه ، وصاحب الزرع زرعه[2] .

والحق - تبارك وتعالى - يعطينا هذا المثل مع نبى وأبيه ، لا مع نبيين مختلفين بعيدين ، وفى هذا إشارة إلى أن حقّ الأبوة على سليمان لم يمنعه من مخالفة أبيه فى الحكم ؛ لأن الله تعالى قال عنهما ﴿ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا.. (٧٩) ﴾ [الأنبياء] فكلٌّ منهما يحكم على مقتضى علمه الذى منحه الله .

ومن هذه الحادثة أخذنا مشروعية الاستئناف والنقض فى أحكام المحاكم ، فقاضى الاستئناف حينما يُعدِّل فى حكم القاضى الابتدائى لا يُعَدُّ هذا طعْناً فيه ، إنما كل منهما حكم بناءً على علمه ، وعلى

---

(١) نفشت الغنم : انتشرت فى المرعى بغير راعٍ ولا ضابط . [القاموس القويم ٢/٢٧٩] قال ابن منظور فى [اللسان - مادة : نفش] : « نفشت الإبل والغنم : انتشرت ليلاً فرعت ، ولا يكون ذلك بالنهار ، وخصَّ بعضهم به دخول الغنم فى الزرع » .

(٢) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/١٨٦) عن ابن عباس .

ما توفّر له من أدلة ووقائع ، وربمـا فطِن القاضى الثانى لما لم يفطِنْ له القاضى الأول .

إذن : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْـمَـانُ دَاوُدَ .. ⦗١٦⦘ ﴾ [النمل] لا تعنى أنه جـاء بعده ، إنما هما متعاصران ، وورثه فى العلم والنبوة والحكمة ؛ لا فى الملْك والمال ؛ لأن الله تعالى يريد أن يكون الرسول بعيداً فى رسالته وتبليغه عن الله عن أىِّ نفع يجىء له ، أو لذريته .

لذلك كان الفقراء من أهل النبى ﷺ لا يأخذون من زكاة المؤمنين ، لكن أين هذا التـشـريع الحكيم مـمـا يحـدث الآن من الحكام والرؤسـاء والمسئولين ممَّنْ يوالون أقاربهم ، وينهبون البلاد من أجلهم ؟

﴿ وَقَالَ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْـرِ .. ⦗١٦⦘ ﴾ [النمل] فالطير له منطق ولغة ؛ لأنـه كما قـال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. ⦗٣٨⦘ ﴾ [الأنعام] والآن ومع تقدُّم العلم يتحدث العلماء عن لغة للنمل ، ولغة للنحل ، ولغة للسمك .. إلخ .

وهذه المخلوقات تتفاهم بلغاتها بدقَّة تفاهم غريزى ، لكننا لا نفهم هذا المنطـق ، والحق ـ تبـارك وتعـالى ـ يُـعلِّمنا : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ⦗٤٤⦘ ﴾ [الإسراء] فإنْ قلتَ كمَنْ قـالوا : هو تسبيح دلالة لا مـنطقَ ومقال ، نقـول : طالما أن الله تعالى قال ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ⦗٤٤⦘ ﴾ [الإسراء] فلا بُدَّ أنه مقال وكلام ، ولكن أنت لا تفهمه .

وعلماء اللغـة يقولون : إن النطق خاصٌّ بالإنسان ، أمـا ما تُحدثه الحيوانات والطيور فأصـوات تُحدثها فى كل وقت ، مثل مواء القطة ، ونُباح الكلب ، وخُوَار البـقر ونقيق الضفـادع ، لكن هذه الأصوات لها معنى (فنونوة) القطة حين تجوع غير (نونوتها) حين تخاف .

إذن : فهى تُعبِّر ، لكننا لا نعرف هذه التعبيرات ، كيف ونحن البشر لا يعرف بعضنا لغات بعض ؛ لأننا لم نتعلمها ، واللغة ضرورة اجتماعية نتواضع عليها أى : نتفق أن هذا اللفظ يعنى كذا ، فإذا نطقتَ به أفهمك ، وإن نطقتُ به تفهمنى .

واللغة بنت الاستماع ، فاللفظ الذى تسمعه تستطيع نُطْقه ، والذى لم تسمعه لا تستطيع نُطْقه ، حتى لو كان لفظاً عربياً من لغتك ، ولا تعرف أيضاً معناه ، فلو قلت لك : (إنما الحيزبون والدردبيس والطخا والنخالح والعصلبيص) فلا شكَّ أنك لا تعرف لهذا معنى ؛ لأننا لم نتواضع على معناه .

والطفل الذى نشأ فى بيئة عربية يتكلم العربية ؛ لأنه سمعها ولا يتكلم الإنجليزية مثلاً ؛ لأنه لم يسمعها ، ولو وضعتَ نفس الطفل فى بيئة إنجليزية لتكلم الإنجليزية ؛ لأن اللغة لا ترتبط بجنس ولا دم ، اللغة سماع .

ومعنى ﴿ وأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ .. ⦗١٦⦘ ﴾ [النمل] أى : من النِّعَم على الإطلاق ، وبعد قليل سنسمع نفس هذه العبارة يقولها الهدهد عن ملكة سبأ ﴿ وأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ .. ⦗٢٣⦘ ﴾ [النمل] إذن : فهى مثله فيما يناسب أمثالها من الملوك لا فى النبوة وحَمْل المنهج ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ⦗١٦⦘ ﴾ [النمل] الفضل المحيط بكل الفضائل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ⦗١٧⦘ ﴾

حُشِروا : جُمِعوا من كل مكان ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱبْعَثْ فِى

الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ [الشعراء] والحشْر : جَمْع الناس للحساب يوم القيامة .

وسُمِّى الجمع حَشْراً ؛ لأنك تجمع الناس من أماكن متفرقة فى مكان واحد ، حتى يضيق بهم ويزدحم ، وهذا معنى الحشْر المتعارف عليه عندنا ، نقول : نحشرهم على بعض .

ومعنى ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل] يعنى : يُمنعون ، ومنه قوله « إن الله ليزع بالسُّلْطان ما لا يزع بالقرآن » يعنى : أن السلطان والقوة والبطش تمنع ما لا يستطيع القرآن منعه ؛ ذلك لأنهم يستبعدون القيامة والعذاب ، أمّا السلطان فرادع حاضر الآن .

لكن ، ممَّ يمنعون وهم فى موقف الحشر أمام سليمان ؟ قالوا[1]: يُمنعون أن يَسبق بعضهم بعضاً إلى سليمان ، إنما نمنعهم حتى يأتى المتأخر منهم ، ويدخلون جميعاً عليه مرة واحدة ، وفى ذلك إحداثُ توازنٍ بين الرعية كلها .

وقد حدَّثونا أن النبى ﷺ كان من صفاته إذا جلس فى مجلس توزعَتْ نظراته وعينه على كل الجالسين حتى يُسوِّى بينهم ، ولا ينظر لأحد أكثر من الآخر[2] ، ولا يُميز أحداً منهم على أحد ، حتى لا يظن أحدهم أن النبى فضَّله على غيره .

وكان ﷺ لا يُقرِّب إلا أهل الفضل والتقوى الذى يُعرف منهم أنهم لا يستغلون هذه المكانة لنيل سلطة بين الناس ؛ ولذلك كان ﷺ

---

(١) قاله ابن عباس بنحوه : جعل على كل صنف منهم وزعة ترد أولاها على أخراها لئلا يتقدموا فى المسير كما تصنع الملوك . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٤٧) وعزاه لابن جرير الطبرى .

(٢) من أدب النبوة أن رسول الله ﷺ لم يكن أحد يأخذ بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذى يرسله ولم يكن يرى ركبتيه أو ركبته خارجاً عن ركبة جليسه ، ولم يكن أحد يصافحه إلا أقبل عليه بوجهه ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه . رواه البزار والطبرانى فى الأوسط وإسناد الطبرانى حسن . مجمع الزوائد للهيثمى (٩/١٥).

لا يُوطِّن الأمـاكن وينهى عن ذلك[1] على خلاف مـا نراه الآن من بعض المـصلِّين الذين يضعـون سجـادة مثـلاً فى الصف الأول يشغلون بـها المكان ، ثم يذهب ويقضى حاجاته ، ويعود وقد امتـلأ المسجد فيتخطّى رقاب الناس ليصل إلى مكان فى المقدمة ، وهو ليس مكانه عند الله .

فالله تعالى قد وزَّع الأماكن على حَسْب الورود ، فإتيانك إلى بيت الله أولاً يعطيك ثواب الصف الأول ، وإنْ صليت فى الصفِّ الأخير ، وعدم توطين الأماكن ينشر الأُلْفة بين الناس ، ويزيل الفوارق ويساعد على التـعارف ، فكل صـلاة أنت بجانب شـخص جديد تتـعرف علـيه وتعرف أحواله .

وهذا معنى ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [النمل] يمنع السـابق أنْ يسبق حتى يأتى اللاحق ، ليكونوا سواسية فى الدخول على نبى الله سليمان عليه السلام .

لكن فى ضوء هذا المعنى لمادة (وزع) كيف نفهم قوله تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل]

أوزعنى هنا يعنى : أقْدِرنى وامنعنى من الغـفلة عن نعمتك ، لأظلَّ شاكراً لك .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

(١) أخـرج أحمـد فى مسنده (٤٤٧/٥) ، وابـن ماجـه فى سننه (١٤٢٩) ، وأبو داود فى سننه (٨٦٢) من حـديث عـبد الرحـمن بن شـبل قال : « نـهى رسول الله ﷺ عن نقـرة الغراب ، وافـتراش السبع ، وأن يوطن الرجل المكان فى المـسجد كـما يوطن البعيـر » أما الإمام أحمد فقد أخرجه من حديث أبى سلمة الأنصارى .

الضمير فى ﴿أَتَوْا .. ⦗١٨⦘﴾ [النمل] يعود على جنود سليمان من الإنس والجن والطير ، أى : جاءوا جميعاً صفًّا واحداً ومرُّوا ﴿عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ .. ⦗١٨⦘﴾ [النمل] يعنى : قرية النمل[1] ، وقوله ﴿عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ .. ⦗١٨⦘﴾ [النمل] يدلُّ على أنهم جاءوا من أعلى الجبل ، أو أنهم قطعوا الوادى كله ، كما نقول : فلان أتى على الطعام كله .

عندها ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. ⦗١٨⦘﴾ [النمل] لماذا هذا التحذير ؟ ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ .. ⦗١٨⦘﴾ [النمل] ثم احتاطتْ النملة للأمر ، فقالت ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ⦗١٨⦘﴾ [النمل] فما كان سليمان وجنوده ليُحطِّموا بيوت النمل عن قَصْد منهم .

والمعنى : حالة كونهم لا يشعرون بكم ، وهذا من عدالة حكمها ومعرفتها بسليمان ، وأنه ليس جباراً ولا عاتياً . إذن : فالنملة رأتْ عن بُعْد ، ونطقتْ عن حق ، وحكمتْ بعدل ، لهذا كله تبسَّم سليمان ضاحكاً .

وواضح فى هذا القول ما تتميز به مملكة النمل من نظام يعرف فيه كُلٌّ مهمته ، ويؤديها على أكمل وجه ، فهذه النملة لا بُدَّ أنها كانت تقوم بمهمة الحراسة وتقف فى الدَّرَك ، ترقب الجو من حولها ، وكأنها جندى الدورية اليقظ .

وسبق أن قُلْنا : لو أنك جلستَ فى مكان ، وتركتَ فيه بعض فضلات الطعام مثلاً أو الحلوى لرأيتَ بعض النمل يدور حولها دون أنْ يقربها ، ثم انصرفوا عنها ، وبعد مدة ترى جماعة منهم جاءت وحملت هذه القطعة ، وكأن الجماعة الأولى أفراد الاستطلاع الذين

---

(١) قال قتادة : ذُكر لنا أنه واد بأرض الشام . وقال كعب : هو بالطائف . (قاله القرطبى فى تفسيره ٥٠٥١/٧) وقال فى موضع آخر : « قال كعب : مرَّ سليمان عليه السلام بوادى السدير من أودية الطائف » .

يكتشفون أماكن الطعام ، ويُقدِّرون كم نملة تستطيع حمل هذا الشيء.

بدليل أنك لو ضاعفتَ القطعة الملقاة لرأيتَ عدد النمل الذى جاء لحملها قد تضاعف هو أيضاً . ولو قتلتَ النمل الأول الذى جاء للاستطلاع تلاحظ أن النمل امتنع عن هذا المكان ، لماذا ؟ لأن النملة التى نجتْ من القتل ذهبت إلى مملكتها ، وحذَّرتهم من هذا المكان .

وفى مملكة النمل عجائب وآيات ، سبحان خالقها ، وسبحان مَنْ هداها إلى هذه الهندسة المحكومة بالغريزة .

ومن عجائب النمل أنك ترى فى عُشِّ النمل الحبوب مفلوقة إلى نصفين حتى لا تنبت ، وتهدم عليهم عُشَّهم ، لكن حبَّة الكُسْبرة مثلاً تنبت حتى لو انفلقتْ نصفين ، حيث ينبت كل نصف على حِدَة ، لذلك لاحظوا أن النمل يفلق هذه الحبة بالذات إلى أربعة أقسام .

كما لاحظ المهتمون بدراسة النمل وجود حبات بيضاء صغيرة مثل رأس الدبوس أمام أعشاش النمل ، وبفحصها تبيَّن أنها زريعة النبات التى تحمل خلايا الإنبات أخرجوها كى لا تنبت .

وصدق الله العظيم : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. (٣٨)﴾ [الأنعام]

وقد سمَّى الله تعالى ما قالت النملة قولاً ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ .. (١٨)﴾ [النمل] ولا بُدَّ أن هذا التحذير ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨)﴾ [النمل] جاء قبل أنْ يأتى سليمان وجنوده ، وهم على مشارف الوادى .

وكلمة ﴿مَسَاكِنَكُمْ .. (١٨)﴾ [النمل] تدل على أن لهم بُيوتاً ومساكنَ ، ومجالَ معيشة ، وكسْبَ أرزاق ، كما نقول (بيلقّطوا رزقهم) من هنا ومن هناك ؛ لذلك تجده يتتبع مواضع الطعام

والفضلات ، ويدخل إليها من أضيق الأماكن ، لكن نرى مثلاً محلات الحلوى مليئة بالسكر الذى يعشقه النمل ، ومع ذلك لا نجد فى هذه المحلات نملة واحدة ، لماذا ؟ لما تتبَّعوا هذه الظاهرة بالدراسة وجدوا أن النمل لا يدخل المكان إذا كان به سِمْسم ، وهذه من عجائب النمل أيضاً .

وقوله تعالى : ﴿لا يَحْطِمَنَّكُمْ .. (١٨)﴾ [النمل] الحَطْم هو التكسير ، ومنه قوله سبحانه عن النار : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ (٥)﴾ [الهمزة] لأنها تحطم ما يُلْقى فيها .

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾

تبسَّم سليمان - عليه السلام - بالبسمة التى تتصل بالضحك ، لماذا ؟ لأنه سمعها قبل أنْ يصل إليها ، ولأنها رأتْ قبل أن يأتى المرئى ، وقد تكلم البعض فى هذه المسألة فقالوا : إن الريح نقلتْ إليه مقالة النملة ، وهو ما يزال بعيداً عنها ، وهذا الكلام يُقبل لو أن المسألة (ميكانيكا) إنما هى عمل رب وقدرة خالق مُنعم ينعم بما يشاء .

ونطق قائلاً ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي .. (١٩)﴾ [النمل] أى : امنعنى أنْ أغفل ، أو أنْ أنسى هذه النِّعم ، فأظل شاكراً حامداً لك على الدوام ؛ لأن هذه النعَم فاقتْ ما أنعمت به على عامة الخَلْق ، وفوق ما أنعمتُ به على إخوانى من الأنبياء السابقين ، وعلى كل ملوك الدنيا ؛ لأنه عليه السلام جمع بين الملْك والنُّبوة ، وإنْ كان سيدنا رسول الله ﷺ

عرض عليه الملْك فرفضه ، وآثر أن يكون عبداً رسولاً .

لذلك وجب على كل صاحب نعمة أنْ يستقبلها بحمد الله وشكْره ، وسبق أنْ قُلْنا فى قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ⑧﴾ [التكاثر] أن حق النعمة أن تحمد المنعم عليها ، فلا تُسأل عنها يوم القيامة .

وما أشبه الحمد على النعمة بما يُسمُّونه عندنا فى الريف (الرقوبة) ، وهى بيضة تضعها ربَّة المنزل فى مكان أمين يصلح عُشًّا يبيض فيه الدجاج ، فإذا رأتْ الدجاجة هذه البيضة جاءتْ فباضتْ عليها ، وهكذا شكر الله وحمده على النعم هو النواة التى يتجمع عليها المزيد من نِعَم الله .

وقد شُرح هذا المعنى فى قوله سبحانه : ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ.. ⑦﴾ [إبراهيم] ألاَ ترى أن مَنْ علم علماً فعمل به أورثه الله علم ما لم يعلم ؟ لماذا ؟ لأنه ما دام عمل بعلمه ، فهو مُؤْتمن على العلم ؛ لذلك يزيده الله منه ويفتح له مغاليقه ، على خلاف مَنْ علم علماً ولم يعمل به ، فإنَّ الله يسلبه نور العلم ، فيغلق عليه ، وتصدأ ذاكرته ، وينسى ما تعلَّمه .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ..⑫﴾ [لقمان] أى : تعود عليه ثمرة شُكْره ؛ لأنه إنْ شكر الله بالحمد شكره الله بالزيادة ؛ لذلك من أسمائه تعالى (الشكور) .

وقوله : ﴿عَلَيَّ .. ⑲﴾ [النمل] هذه خصوصية ﴿وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. ⑲﴾ [النمل] لأنه ورث عنهما الملْك والنبوة ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ .. ⑲﴾ [النمل] وهذا ثمن النعمة أن أؤدى خدمات الصلاح فى المجتمع لأكون مُؤْتمناً على النعمة أهْلاً للمزيد منها .

والحق - تبارك وتعالى - يريد منّا أنْ نُوسِّع دائرة الصلاح ودائرة المعروف في المجتمع ، ألاَ ترى إلى قوله سبحانه : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

فسمَّى الخير الذى تقدمه قَرْضاً ، مع أنه سبحانه واهب كل النِّعم ، وذلك ليُحنِّن قلوب العباد بعضهم على بعض ؛ لأنه تعالى خالقهم ، وهو سبحانه المتكفِّل برزقهم .

ثم يقول : ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)﴾ [النمل] وذكر الرحمة والفضل ؛ لأنهما وسيلة النجاة ، وبهما ندخل الجنة ، وبدونهما لن ينجو أحد ، واقرأ قول رسول الله ﷺ : « لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ﷺ ؟ قال : ولا أنا إلا أنْ يتغمّدنى الله برحمته »[1] .

ويقول سبحانه فى هذا المعنى : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. (٥٨)﴾ [يونس] فالمؤمن الحق لا يفرح بعمله ، إنما يفرح إنْ نال فَضْلَ الله ورحمته ، كأنه يقول لربه : لن أتكل يا رب على عملى ، بل فضلك ورحمتك هما المتكل ، لأننى لو قارنتُ العبادة التى كلفتنى بها بما أسديْتَ إلىَّ من نِعَم وآلاء لَقَصُرَتْ عبادتى عن أداء حقِّك علىَّ ، فإنْ أكرمتنى بالجنة فبفضلك .

والبعض يقولون : كيف يعاملنا ربنا بالفضل والزيادة ، ويُحرِّم علينا التعامل بالربا ؟ أليست الحسنة عنده بعشرة أمثالها أو يزيد ؟ نقول : نعم ، لكن الزيادة هنا منه سبحانه وتعالى وليستْ من مُسَاوٍ ، إنها زيادة ربٍّ لعبيد .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقوله ﴿فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ١٩﴾ [النمل] دليل على تواضع سيدنا سليمان - عليه السلام - فمع مكانته ومنزلته يطلب أنْ يُدخله الله فى الصالحين ، وأن يجعله فى زمرتهم ، فلم يجعل لنفسه مَيْزة ولا صدارة ولا ادَّعى خيرية على غيره من عباد الله ، مع ما أعطاه الله من المُلْك الذى لا ينبغى لأحد من بعده .

وأعطاه النبوة وحمَّله المنهج ، فلم يُورثه شىء من هذا غروراً ولا تعالياً ، وها هو يطلب من ربه أن يكون ضمن عباده الصالحين ، كما نقول (زقنى مع الجماعة دول) ، حين تكون السيارة مثلاً كاملة العدد ، وليس لى مقعد أجلس عليه .

مَنْ يقول هذا الكلام ؟ إنه سليمان بن داود - عليهما السلام - الذى آتاه الله مُلْكاً ، لا ينبغى لأحد من بعده ، ومع ذلك كان يُؤثِر عبيده وجنوده على نفسه ، وكان يأكل (الردة) من الدقيق ، ويترك النقى منه لرعيته .

إذن : لم ينتفع من هذا المُلْك بشىء ، ولم يصنع لنفسه شيئاً من مظاهر هذا الملك ، إنما صنعه له ربه لأنه كان فى عَوْن عباد الله ، فكان الله فى عَوْنه ، وأنت حين تُعين أخاك تُعينه بقدرتك وإمكاناتك المحدودة ، أما معونة الله تعالى فتأتى على قَدْر قوته تعالى ، وقدرته وإمكاناته التى لا حدودَ لها ، إذن : فأنت الرابح فى هذه الصفقة .

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ٢٠﴾

مادة : فقد الفاء والقاف والدال ، وكل ما يُشتقّ منها تأتى بمعنى ضاع منه الشىء ، ومنه قوله تعالى فى قصة إخوة يوسف : ﴿قَالُوا

وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ (٧١)﴾ [يوسف] ، فإنْ جاءت بصيغة (تفقَّد) بالتضعيف دلَّتْ على أن الشيء موجود وأنا أبحث عنه في مظانّه .

فمعنى ﴿تَفَقَّدَ الطَّيْرَ .. (٢٠)﴾ [النمل] أن الرئيس أو المهيمن على شيء لا بُدَّ له من متابعته ، وسليمان ـ عليه السلام ـ ساعةَ جلس فى مجلس العلم أو مجلس القضاء نظر للحاضرين من مملكته ، كأنه القائد يستعرض جنوده ، وفى هذا إشارة إلى أنه ـ عليه السلام ـ مع أن هذا ملكه ومُسخَّر له ومُنقَاد لأمره ، إلا أنه لم يتركه هَمَلاً دون متابعة .

لكن ، لماذا تفقَّد الطير بالذات ؟ قالوا : لأنه أراد أنْ يقوم برحلة فى الصحراء ، والهدهد هو الخبير بهذه المسألة ؛ لأنه يعلم مجاهلها ، ويرى حتى الماء فى باطن الأرض[1] ، يقولون : كما يرى أحدكم الزيت فى وعائه .

لذلك نرى أن من مميزات الهدهد أن الله تعالى جعل له منقاراً طويلاً ؛ لأنه لا يأكل مما على سطح الأرض ، إنما ينبش بمنقاره ليُخرج طعامه من تحت الأرض .

ألاَ تراه حين كلَّم سليمان فى دقائق العقيدة والإيمان بالله يقول عن أهل سبأ : ﴿أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ[2] فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٥)﴾ [النمل] فاختار هذه المسألة بالذات ؛ لأنه الخبير بها ورزقه منها .

ولما لم يجد الهدهد فى الحاضرين قال ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لا أَرَى

(١) أخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة رضى الله عنه فى الآية قال : ذُكر لنا أن سليمان أراد أن يأخذ مفازة فدعا بالهدهد وكان سيد الهداهد ليعلم مسافة الماء ، وكان قد أعطى من البصر بذلك شيئاً لم يُعْطه شيء من الطير ، لقد ذكر لنا : أنه كان يبصر الماء فى الأرض كما يبصر أحدكم الخيال من وراء الزجاجة ، أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٣٤٩) .

(٢) الخبأ : الشيء المخبوء . والخبء كل ما غاب ، وكل شيء غائب مستور . [لسان العرب ـ مادة : خبأ] .

الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ⓴ ﴾ [النمل] فساعةً يستفهم الإنسان عن شيء يعلم حقيقته ، فإنه لا يقصد الاستفهام ، إنما هو يستبعد أنْ يتخلَّف الهدهد عن مجلسه .

لذلك قال ﴿ مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ .. ⓴ ﴾ [النمل] يعني : ربما هو موجود ، لكنِّي لا أراه لعلّة عندي أنا ، فلما دَقّق النظر وتأكد من خُلوِّ مكانه بين الطيور ، قال ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ⓴ ﴾ [النمل] إذن : لا بد من معاقبته :

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ㉑ ﴾

ومعاقبة المخالف أمر ضروري ؛ لأن أيَّ مخالفة لا تُقابل بالجزاء المناسب لا بُدَّ أن تثمر مخالفات أخرى متعددة أعظم منها ، فحين نرى موظفاً مُقصِّراً في عمله لا يحاسبه أحد ، فسوف نكون مثله ، وتنتشر بيننا الفوضى والتكاسل واللامبالاة ، وتحدث الطَّامة حينما يُثاب المقصر ويُرَقى مَنْ لا يستحق .

لذلك توعَّد سليمان الهدهد : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ .. ㉑ ﴾ [النمل]

وقد تكلَّم العلماء في كيفية تعذيب الهدهد ، فقالوا : بنتف ريشه الجميل الذي يزهو به بين الطيور ، حتى يصير لحماً ثم يُسلط عليه النمل فيلدغه[1] ، أو بجعْله مع غير بني جنسه ، فلا يجد لها إلفاً

---

(١) قال ابن عباس : قوله ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا .. ㉑ ﴾ [النمل] يعني : نتف ريشه . وقال عبد الله بن شداد : نتف ريشه وتشميسه . قال ابن كثير في تفسيره (٣/٣٦٠) : « وكذا قال غير واحد من السلف ؛ إنه نتف ريشه وتركه مُلْقىً يأكله الذر والنمل » .

ولا مشابهاً له فى حركته ونظامه ، أو : أنْ يُكلِّفه بخدمة أقرانه من الهداهد التى لم تخالف ، أو : أجمعه مع أضداده ، وبعض الطيور إذا اجتمعتْ تنافرتْ وتشاجرتْ ، ونتف بعضها ريش بعض ؛ لأنهم أضداد ؛ لذلك قالوا : أضيق من السجن عِشْرة الأضداد .

والشاعر[1] يقول :

وَمِنْ نكَدِ الدُّنْيا علىَ المرْءِ أنْ يرى عَدُواً لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِه بُدُّ

ثم رقَّى الأمر من العذاب الشديد إلى الذبح ، وهذه المسألة أثار حولها المتمردون على منهج الله والذين يريدون أنْ يُعدِّلوا على الله أحكامه ، أثاروا إشكالاً حول قوله تعالى فى حَدِّ الزنا : ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِى فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ .. ②﴾ [النور] أما الرَّجْم فلم يَرِدْ فيه شىء ، فمن أين أتيتم به ؟

نقول : أتينا به أيضاً من كتاب الله ، حيث قال سبحانه فى جَلْد الأَمَة إنْ زنتْ وهى غير محْصنة : ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ .. ㉕﴾ [النساء] فقالوا : وكيف نُنصِّف حدَّ الرجم ؟ وهذا القول منهم دليل على عدم فهمهم لأحكام الله .

فالمعنى ﴿فَعَلَيْهِنَّ .. ㉕﴾ [النساء] أى : على الإماء الجوارى ﴿نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ .. ㉕﴾ [النساء] الحرائر ، ولم يسكت إنما خصص التنصيف هنا بالجَلْد ، فقال : ﴿مِنَ الْعَذَابِ .. ㉕﴾ [النساء] فتجلد الأمَة خمسين جلدة ، وهذا التخصيص يدلُّ على أن هناك عقوبة أخرى لا تُنصف هى الرجْم .

(١) الشاعر هو : أبو الطيب المتنبى أحمد بن الحسين ، شاعر حكيم ، وأحد مفاخر الأدب العربى ، ولد بالكوفة (٣٠٣ هـ) ، ونشأ بالشام وتنبأ فى بادية السماوة ، ثم تاب ورجع عن دعواه . قُتل ٣٥٤ هـ ، بأن عرض له فاتك بن أبى جهل الأسدى . [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

وينتهى تهديد سليمان للهدهد بقوله ﴿أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١)﴾ [النمل] أى : حجة واضحة تبرر غيابه ، فنفهم من الآية أن المرؤوس يجوز له أنْ يتصرف برأيه ، دون أن يأخذ الإذن من رئيسه إنْ رأى مصلحة للجماعة لا تستدعى التأخير .

وعلى الرئيس عندها أن يُقدِّر لمرؤوسيه اجتهاده ، ويلتمس له عذراً ، فلعله عنده حجة أحمده عليها بل وأكافئه ؛ لأن وقت فراغه منى كان فى مصلحة عامة ، كما نقول فى العامية (الغايب حجته معاه)

إذن : المرؤوس إنْ رأى خيراً يخدم الفكر العام ، ووجد أن فرصته ضيقة يسمح له بالتصرف دون إذن ، وفى الحرب العالمية الأولى تصرّف أحد القادة الألمان تصرُّفاً يخالف القواعد الحربية ، لكنه كان سبباً فى النصر ؛ لذلك أعطوه وسام النصر ولم ينسُوا أنْ يُعاقبوه على مخالفة القواعد والقانون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ
وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾

معنى ﴿فَمَكَثَ .. (٢٢)﴾ [النمل] أقام واستقر ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ .. (٢٢)﴾ [النمل] مدة يسيرة ، فلم يتأخر كثيراً ؛ لأنه يعلم أنه تخلّف عن مجلس سليمان ، وذهب بدون إذنه ؛ لذلك تعجّل العودة ، وما إنْ وصل إليه إلا وبادره ﴿فَقَالَ .. (٢٢)﴾ [النمل] بالفاء الدالة على التعقيب ؛ لأنه رأى سليمان غاضباً مُتحفِّزاً لمعاقبته .

لذلك بادره قبل أنْ ينطق ، وقبل أنْ ينهره ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ.. (٢٢)﴾ [النمل] أى : عرفتُ ما لم تعرف - هذا الكلام مُوجَّه إلى سليمان الذى ملك الدنيا كلها ، وسخَّر الله له كل شىء ؛ لذلك ذُهل سليمان من مقالة الهدهد وتشوَّق إلى ما عنده من أخبار لا يعرفها هو .

ثم يستمر الهدهد : ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢)﴾ [النمل]

أولاً : نقف عند جمال التعبير فى سبأ ونبأ ، فبينهما جناس ناقص ، وهو من المحسِّنات البديعية فى لغتنا ، ويعطى للعبارة نغمة جميلة تتوافق مع المعنى المراد ، والجناس أن تتفق الكلمتان فى الحروف ، وتختلفا فى المعنى ، كما فى قول الشاعر

رَحلْتُ عَنِ الدِّيَارِ لكُم أَسِيرٌ وَقَلْبى فى محبتكُمْ أسير

وقَوْل الآخر :

لَمْ يَقْضِ مِنْ حقِّكم علَىَّ بَعْضَ الذى يَجِبُ
قَلْبٌ متَى مَا جَـرَت ذِكْرَاكُمُ يَجِبُ

ومن الجناس التام فى القرآن الكريم : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ .. (٥٥)﴾ [الروم]

فالتعبير القرآنى ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ .. (٢٢)﴾ [النمل] تعبير جميل لفظاً ، دقيق مَعنىً ، ألاَ تراه لو قال (وجئتك من سبأ بخبر) لاختلَّ اللفظ والمعنى معاً ؛ لأن الخبر يُرَاد به مُطْلق الخبر ، أمَّا النبأ فلا تُقال إلا للخبر العجيب الهام الملفت للنظر ، كما فى قوله تعالى : ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ (١) عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ (٢)﴾ [النبأ]

والجناس لا يكون جميلاً مؤثراً إلا إذا جاء طبيعياً غير مُتكلَّف ،

ومثال ذلك هذا الجناس الناقص فى قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ[١] لُمَزَةٍ (١) ﴾ [الهمزة] فقد ورد اللفظ المناسب مُعبِّراً عن المعنى المراد دون تكلّف ، فالهُمَزة هو الذى يعيب بالقول . واللمزة : الذى يعيب بالفعل ، فالقرآن لا يتصيَّد لفظاً ليُحدِث جناساً ، إنما يأتى الجناس فيه طبيعياً يقتضيه المعنى .

ومن ذلك فى الحديث الشريف : « الخيْلُ معقود بنواصيها الخير »[٢] فبيْن الخيل والخير جناس ناقص ، مُحسِّناً للفظ ، مؤدّياً للمعنى .

وقد يأتى المحسِّن البديعى مُضطرباً مُتكلّفاً ، يتصيده صاحبه ، كقول أحدهم ينحت الكلام نحتاً فيأتى بسجع ركيك : فى أثناء ما كنا نسير نزل المطر كأفواه القِرَب ، فوقع رجل كان يحمل العنب .

ومعنى ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ.. (٢٢) ﴾ [النمل] الإحاطة : إدراك المعلوم من كل جوانبه ، ومنه البحر المحيط لاتساعه ، ويقول سبحانه : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (١٢٦) ﴾ [النساء] ومنه : الحائط يجعلونه حول البستان ليحميه ويُحدِّده ، ومنه : يحتاط للأمر .

ومحيط الدائرة الذى يحيط بالمركز من كل ناحية إحاطة مستوية بأنصاف الأقطار .

لكن أيُعَدُّ قول الهدهد لسليمان ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ.. (٢٢) ﴾ [النمل] نقصاً فى سليمان عليه السلام ؟ لا ، إنما يُعَدُّ تكريماً له ؛ لأن

---

(١) الهمزة : كثير الهمز واللمز والغمز واغتياب الناس وعَيْبهم . [القاموس القويم ٢/٣٠٧] . وقيل : الهمز واللمز معناهما واحد . وقيل : الهمز فى القفا والسر . واللمز : عيب فى الوجه فى العلانية .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٤٩ ، ٢٨٥٠ ، ٢٨٥٢) من حديث ابن عمر وعروة بن الجعد وعروة البارقى ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٨٧٣) من حديث عروة البارقى ، ونحوه عن عروة بن الجعد .

ربه ـ عز وجل ـ سخَّر له مَنْ يخدمه ، وفَرْق بين أن تفعل أنت الشيء وبين أن يُفعل لك ، فحين يفعل لك ، فهذه زيادة سيادة ، وعُلُو مكانة .

كما أن الله تعالى يُعلِّمنا الاَّ نكتم مواهب التابعين ، وأن نعطى لهم الفرصة ، ونُفسح لهم المجال ليُخرجوا مواهبهم ، وأن يقول كل منهم ما عنده حتى لو لم نكُنْ نعرفها ؛ لأنها خدمة لى .

أليس من الكرامة أن يُحضر سليمان عرش بلقيس وهو في مكانه ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ﴿٤٠﴾﴾ [النمل]

ونلحظ أن الهدهد لم يُعرِّف سبأ ما هى ، وهذا دليل على أن سليمان ـ عليه السلام ـ يعرف سبأ ، وما فيها من ملك ، إنما لا يعرف أنه بهذه الفخامة وهذه العظمة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

وقوله ﴿تَمْلِكُهُمْ .. ﴿٢٣﴾﴾ [النمل] يعنى : تحكمهم امرأة ، ورأينا نساءً كثيرات نابهات حكمْن الدول فى وجود الرجال .

ثم يذكر من صفاتها ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ..﴿٢٣﴾﴾ [النمل] وكأنها إشارة إلى ما سبق أنْ قاله سليمان عليه السلام ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ.. ﴿١٦﴾﴾ [النمل] فهى كذلك أُوتيتْ من كل شىء بالنسبة لأقرانها ، وإلا فسليمان أُوتى من الملْك ومن النبوة ما لم تُؤْتَهُ ملكة سبأ .

﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل] العرش مكان جلوس الملك ، وكان العرش عادةً يتوافق مع عظمة الملك ، فمثلاً (شيخ الغفر) أو العمدة

أو المحافظ .. إلخ لكل منهم كـرسىٌّ يجلس عليه يناسب مكانته ، إذن: العرش هو جِلْسة المتمكّن الذى يتولّى تَدبير الأمور .

ووصْف العرش بأنه عظيم مع أن هذا الوصف لعرش الله تعالى ، فكيف ؟ قـالوا : عظيم بالنسـبة لأمـثالهـا من الملوك ، أمّا عـرْش الله فعظيم بالنسبة لكل الخَلْق عظمةً مُطْلقة .

هكذا حدَّث الهدهُد سليمانَ فيـما يخصُّ ملكة سبأ من حيث الملك الذى تشبـه فيه سليـمان كملـك ، ثم يُحدِّثه بعد ذلك عن مـسألة تتعـلق بالنبوة والإيمان بالله ، وهذه المسألة التى غار عليها سليمان ، وثار من أجلها :

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

ذلك لأنه لما طاف حـول قصر بلقـيس وجد فيه كُـوَّة تدخل منها الشمس ، كما نرى فى معابد الفـراعنة ، ففى أحد هذه المعابد طاقات بعدد أيام السنة ، بحيث تدخل الشـمس فى كل يوم من واحدة بعينها لا تدخل من الأخرى . وكـذلك كان عند بلقيـس مثل هذه الكُوَّة تدخل منها الشمس فتتنبه لها وتستقبلها .

لذلك لما ذهب إليـها بكتاب سليمـان وقف على هذه الكُوَّة وسدَّها بجناحه ، فلم تدخل الشمس فـى موعدها كما اعتـادت الملكة ، فقامت حتى وصلتْ إلى هذه الكُوَّة فرمى عندها الكتاب[1] .

---

(١) ذكر نحـوه السيـوطى فى « الدر المنثور فى التـفسيـر بالمأثور » (٦/٣٥٣) عن قـتادة وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

فالهدهد - إذن - مؤمن عارف بقضية العقيدة والإيمان بالله يَغار عليها ويستنكر مخالفتها ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ.. (٢٤)﴾ [النمل] فهو يعرف أن الله هو المعبود بحقٍّ ، بل ويعلم أيضاً قضية الشيطان ، وأنه سبب الانصراف عن عبادة الله .

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ (٢٤)﴾ [النمل] فالقضية عنده كاملة بكل تفاصيلها ، ولا تتعجب من مقالة الهدهد واقرأ : ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

إنها موعظة بليغة من واعظ مُتمكِّن يفهم عن الله ، ويعلم منهجه ويدعو إليه ، بل ويعزّ عليه ويحزّ فى نفسه أن ينصرف العباد عن الله المنْعِم :

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)﴾

﴿أَلاَّ .. (٢٥)﴾ [النمل] مكوَّنة من أنْ ، لا ، وعند إدغامهما تُقلَبُ النون لاَماً فتصير : ألاَّ ، فالمعنى : وزيَّن لهم الشيطان أعمالهم ، لماذا ؟ لألاَّ يسْجدوا ، فهنا حرفُ جر محذوف كما تقول : عجبتُ من أن يَقْدم علينا فلان ، أو عجبت أن يقدم علينا فلان .

وفى قراءة أخرى[1] : (ألاَ) للحثِّ والحضِّ[2] .

(١) هى قراءة الزهرى والكسائى وغيرهما ، بمعنى : ألا يا هؤلاء اسجدوا [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥٠٦٨/٧] قال الكسائى : ما كنت أسمع الأشياخ يقرءونها إلا بالتخفيف على نية الأمر .

(٢) قال الزمخشرى : فإن قلت : أسجدة التلاوة واجبة فى القراءتين جميعاً أم فى إحداهما ؟ قلت : هى واجبة فيهما جميعاً ؛ لأن مواضع السجدة إما أمر بها ، أو مدح لمن أتى بها ، أو ذم لمن تركها ، وإحدى القراءتين أمر بالسجود ، والأخرى ذم للتارك . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥٠٦٩/٧] .

وقلنا : إنه اختار هذه الصفة بالذات ﴿الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٢٥)﴾ [النمل] لأنه خبير في هذه المسألة ، حيث يرى الماء في باطن الأرض ، كما يرى أحدكم الزيت في إنائه .

والمراد بالخبْء في السموات : المطر ، والخبْء في الأرض . النبات ، ومنهما تأتي مُقوِّمات الحياة ، فمن ماء المطر وخصوبة الأرض يأتي النبات ، وعلى النبات يتغذَّى الحيوان ، ويتغذَّى الإنسان .

بل إن الحق سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥)﴾ [النمل] ، كما قال في آية أخرى : ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨)﴾ [إبراهيم] ، وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ..(٢٩)﴾ [آل عمران]

﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۩ (٢٦)﴾

لما تكلَّم عن عرش بلقيس قال ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣)﴾ [النمل] يعني : بالنسبة لأمثالها من الملوك ولأهل زمانها . فإذا عُرِّف ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)﴾ [النمل] فإنه لا ينصرف إلا إلى عرشه تعالى ، فله العظمة المطلقة عند كل الخلْق .

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧)﴾

﴿قَالَ سَنَنظُرُ .. (٢٧)﴾ [النمل] والنظر محلُّه العين ، لكن هل يُعرف الصدق والكذب بالعين ؟ لا ، فالكلمة انتقلت من النظر بالعين إلى العلم بالحجة ، فهي بمعنى نعلم ، ونقول : هذا الأمر فيه نظر يعني : يحتاج إلى دراسة وتمحيص .

وفى الآية مظهر من مظاهر أدب سليمان ـ عليه السلام ـ وتلطُّفه مع رعيته[1] ، فهو السيد المطاع ، ومع ذلك يقول للهدهد : ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل] والصِّدْق يقابله الكذب ، لكن سليمان ـ عليه السلام ـ يأبى عليه أدب النبوة أن يتهم أحد جنوده بالكذب فقال : ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل]

يعنى : حتى لو وقع منك الكذب فلست فذًّا فيه ، فكثير من الخَلْق يكذبون ، أو : من الكاذبين مَيْلاً لهم وقُرْباً منهم ، مما يدلُّ على أنه بإلهاماته كنبى يعرف أنه صادق ، إنما ما دام الأمر محلَّ نظر فلا بُدَّ أن نتأكد ، ولن أجامل جندياً من جنودى .

(٢)
﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

هذا هو النظر الذى ارتآه سليمان ليتأكد من صدْق الهدهد : أنْ يرسله بكتاب منه إلى هؤلاء القوم ، وهنا مظهر من مظاهر الإيجاز البليغ فى القرآن الكريم ، فبعد أن قال سليمان ﴿ سَنَنظُرُ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل] قال ﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [النمل]

فهل كان الكتاب مُعَدّاً وجاهزاً ؟ لا ، إنما التقدير : قال سننظر

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٠٧١/٧) : « فى قوله ﴿ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [النمل] دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته ، ويدرأ العقوبة عنهم فى ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم ؛ لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه ، وإنما صار صدق الهدهد عذراً لأنه أخبر بما يقتضى الجهاد » .

(٢) قال وهب (بن منبه) وابن زيد : كانت لها كوة مستقبلة مطلع الشمس فإذا طلعت سجدت ، فسدَّها الهدهد بجناحه ، فارتفعت الشمس ولم تعلم ، فلما استبطأت الشمس قامت تنظر فرمى الصحيفة إليها ، فلما رأت الخاتم ارتعدت وخضعت ؛ لأن ملك سليمان عليه السلام كان فى خاتمه ، فقرأته فجمعت الملأ من قومها فخاطبتهم بما يأتى بعد . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥٠٧٣/٧) .

أصدقتَ أم كنت من الكاذبين ، فكتب إليها كتاباً فيه كذا وكذا ثم قال للهدهد : ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا .. (٢٨)﴾ [النمل] وقد حُذِف هذا للعلم به من سياق القصة .

وقوله : ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ .. (٢٨)﴾ [النمل] يعني : ابتعدْ قليلاً ، وحاول أنْ تعرف ﴿مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [النمل] يعني : يراجع بعضهم بعضاً ، ويتناقشون فيما في الكتاب ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا (٨٩)﴾ [طه]

والسياق يقتضي أن نقول : فذهب الهدهد بالكتاب ، وألقاه عند بلقيس فقرأتْه واستشارتْ فيه أتباعها وخاصتها ، ثم قالت :

﴿قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَـٰبٌ كَرِيمٌ (٢٩)﴾

نلحظ هنا سرعة جواب الأمر ﴿اذْهَب.. (٢٨)﴾ [النمل] فبعده مباشرة قالت ملكة سبأ : ﴿قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩)﴾ [النمل] وهذا يدل على أن أوامر سليمان كانت محوطة بالتنفيذ العاجل ؛ لذلك حذف السياق كل التفاصيل بين الأمر ﴿اذْهَب.. (٢٨)﴾ [النمل] والجواب ﴿قَالَتْ .. (٢٩)﴾ [النمل] هكذا على وجه السرعة .

ومعنى ﴿الْمَلأُ .. (٢٩)﴾ [النمل] هم أعيان القوم وأشرافهم والمستشارون والخاصة ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩)﴾ [النمل] فوصفتْ الكتاب بأنه كريم[1] إما لأنها سمعتْ عن سليمان ـ عليه

(١) وقد ورد في معنى كريم هنا أقوال وآثار ، منها :
– حسن ما فيه : قاله قتادة ، فيما أخرجه عنه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم .
– مختوم : قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن مردويه . [أوردهما السيوطي في الدر المنثور ٣٥٣/٦] .

السلام - وعظمة مُلْكه ، أو : لأن الكتاب سُطِّر على ورق راقٍ وبخط جميل ، وبعد ذلك هو ممهور بخاتمه الرسمى ، مما يدل على أنه كتاب هام ينبغى دراسته وأخْذ الرأى فيه(١) .

﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ ﴾

إذن : فهى تعرف سليمان ، وتعرف نُبوّته وصفاته ، وأنه يكاتبهم باسْم الله ويَصْدُر فى دعوتهم عن أوامر الله ، وكان مجمل الكتاب بعد بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

إنها برقية موجزة فى أبلغ ما يكون الإيجاز ﴿أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ.. ﴿٣١﴾﴾ [النمل] العلو هنا بمعنى الغطرسة والزَّهْو الذى يعتاده الملوك خاصة ، وهى مثله ، ملكة لها عَرْش عظيم ، وأُوتيتْ من كل شىء وكونه يخاطبها بهذه اللهجة المختصرة البعيدة عن النقاش والجدال ، هذا أمر يحتاج منها إلى نظر وإلى أَنَاة .

لذلك بعد أن أخبرتْ مستشاريها بأمر الكتاب ، وما ورد فيه طلبتْ منهم الرأى والمشورة :

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ ﴾

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥٠٧٤) : « وصفته بأنه كريم ، لما تضمن من لين القول والموعظة فى الدعاء إلى عبادة الله عز وجل وحسن الاستعطاف والاستلطاف من غير أن يتضمن سباً ولا لعناً ، ولا ما يغير النفس ، ومن غير كلام نازل ولا مستغلق ، على عادة الرسل فى الدعاء إلى الله عز وجل » .

سبق أن تكلمنا فى معنى الفتوى ، وأنها من الفُتوة أى : القوة ، وهى مثل : غَنِيَ فلان أى : صار غنياً بذاته ، وأغناه غيره أمدَّه بالغنى ، كذلك أفتاه يعنى : أعطاه قوة فى الحكم والحجة .

وقالت : ﴿فِي أَمْرِي .. (٣٢)﴾ [النمل] مع أن الأمر خاصٌّ بالدولة كلها ، لا بها وحدها ؛ لأنها رمز للدولة وللملْك ، وإنْ تعرض لها سليمان فسوف يُخدش مُلْكها أولاً ، ويُنال من هيبتها قبل رعيتها .

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢)﴾ [النمل] يعنى : لا أَبُتُّ فى أمر إلا فى حضوركم ، وبعد استشارتكم . وهذا يدل على أنها كانت تأخذ بمبدأ الشورى رغم ما كان لها من الملْك والسيطرة والهيمنة .

فردَّ عليها الملأ من قومها :

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ[(١)] وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) ﴾

يعنى : نحن أصحاب قوة فى أجسامنا ، وأصحاب شجاعة وبأس أى جيوش فيها عَدَد وعُدة ﴿وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ .. (٣٣)﴾ [النمل] أى : إنْ رأيت الحرب ، فنحن على أُهْبة الاستعداد ، فهم يعرضون عليها رأيهم دون أنْ يُلزموها به ، فهو رأى سياسى لا رأى حربى ، فهى صاحبة قرار الحرب إنْ أرادتْ ﴿فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣)﴾ [النمل] يعنى : نحن على استعداد للسِّلْم وللحرب ، وننتظر أمرك .

---

(١) قال قتادة : ذُكر لنا أنه كان أولو مشورتها ثلاثمائة واثنى عشر رجلاً ، كل رجل منهم على عشرة آلاف من الرجال . أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٥٧) ، والقرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٧٧) .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

وتعرض بلقيس رأيها ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل] ، ذلك لأنهم يريدون مُلْكاً ، فينهبون كل ما يمرُّون به بل ويُخربون ويفسدون لماذا ؟ لأنهم ساعةَ يصل الملك المغير لا يضمن النصر ؛ لذلك يُخرِّب كل شيء ، حتى إذا ما عرفَ أنه انتصر ، وأن الأمور قد استقرتْ له يحافظ على الأشياء ولا يُخربها .

﴿ وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل] لأن الملْك يقوم على أنقاض مُلْك قديم ، فيكون أصحاب العزة والسيادة هم أول مَنْ يُبدأ بهم ؛ لأن الأمر أُخذ من أيديهم ، وسوف يسعَوْن لاستعادته ، ولا بُدَّ أنْ يكون عندهم غَيْظ ولَدَد في الخصومة .

أما قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل] فللعلماء فيه كلام : قالوا[1] إنه من كلام بلقيس ، وكأنه تذييل لكلامها السابق ، لكن ماذا يضيف ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل] بعد أن قالت ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [النمل]

فالرأى الصواب أن هذه العبارة من الحق[2] ـ سبحانه وتعالى ـ ليُصدِّق على كلامها ، وأنها أصابت فى رأيها ، فكذلك يفعل الملوك إذا

(١) قاله ابن شجرة فيما نقله عنه القرطبى فى تفسيره (٥٠٧٨/٧) وقال : « قيل : هو من قول بلقيس تأكيداً للمعنى الذى أرادته » .

(٢) قاله ابن عباس ، قال : هو من قول الله عز وجل معرفاً لمحمد ﷺ وأمته بذلك ومخبراً به . نقله القرطبى فى تفسيره (٥٠٧٨/٧) ، وذكر نحوه السيوطى فى « الدر المنثور » (٣٥٧/٦) وعزاه لابن أبى حاتم .

دخلوا قرية ، مما يدل على أن الحق سبحانه رب الخلْق أجمعين ، إذا سمع من عبد من عبيده كلمة حق يؤيده فيها ، لا يتعصب ضده ، ولا يهضمه حقه .

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾ (١)

بعد أنْ ترك لها المستشارون الأمر والتدبير أخذتْ تُعمل عقلها ، وتستخدم فطنتها وخبرتها بحياة الملوك ، فقالت : إنْ كَان سليمان ملكاً فسوف يطمع فى خيرنا ، وإنْ كان نبياً فلن يهتم بشىء منه ، فقَررتْ أنْ تُرسل له هدية تناسب مكانته كملك ومكانتها هى أيضاً ، لتثبت له أنها على جانب كبير من الثراء والغنى .

ولا بد أنها كانت ثمينة لتستميل الملك ، أو كما نقول (تلوحه أو تلويه) .

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾ [النمل] فإنْ كان ملكاً قَبلها ، وعرفنا أن علاجه فى بعض الخراج والأموال تُساق إليه كل عام ، وإنْ كان نبياً فلن يقبل منها شيئاً ، وهذا رأى جميل من بلقيس يدل على فطْنتها وذكائها وحصافتها ، حيث جنَّبتْ قومها ويلات الحرب والمواجهة .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٠٨١/٧) : « كان النبى ﷺ يقبل الهدية ويثيب عليها ولا يقبل الصدقة ، وكذلك كان سليمان عليه السلام وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، وإنما جعلت بلقيس قبول الهدية أو ردها علامة على ما فى نفسها ، على ما ذكرناه من كون سليمان ملكاً أو نبياً ، لأنه قال لها فى كتابه ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۝٣١﴾ [النمل] وهذا لا تُقبل فيه فدية ، ولا يؤخذ عنه هدية » .

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

أي : فلما جاء رسول بلقيس إلى سليمان بالهدية ﴿ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل] فأيُّ هدية هذه ، وأنا أملك مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعدي[1] ؟ ﴿ بَلْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل] يعني : اضرب عن الكلام السابق ﴿ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾[النمل]

أضاف الهدية إليهم ، لا إليه هو ، والإضافة تأتي إما بمعنى اللام مثل : قلم زيد يعني لزيد ، أو : بمعنى من مثل : إردب قمح يعني : من قمح ، أو : بمعنى في مثل : مكر الليل يعني : في الليل .

فقوله ﴿ بِهَدِيَّتِكُمْ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل] إما أن يكون المراد : هدية لكم . أي : فأنتم تفرحون إنْ جاءتكم هدية من أحد ، أو لأنني سأردُّها إليكم فتفرحوا بردِّها كمَنْ يقول (بركة يا جامع) أو : هدية منكم . أي : أنكم تفرحون إنْ أهديتم لي هدية فقبلتُها منكم .

فهذه معانٍ ثلاثة لقوله : ﴿ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النمل]

﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

نذكر أن الملكة قالت ﴿ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [النمل] فكأنه يستشعر نصَّ ما قالت ، وينطق عن إشراقات النبوة فيه ،

(١) أي : فما أعطاني من الإسلام والملك والنبوة خير مما أعطاكم ، فلا أفرح بالمال . (قاله القرطبي في تفسيره ٧/٥٠٨٤) .

فيقول ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا .. (٣٧) ﴾ [النمل]

وهكذا دخلتْ المسألة فى طَوْر المواجهة ؛ لأن كلامنا كلامُ النبوة التى لا تقبل المساومة ، لا كلام الملك الذى يسعى لحطام الدنيا .

﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾ [النمل] وكأنه يكشف لهم عن قَوْل ملكتهم : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً .. (٣٤) ﴾ [النمل] وهذه أيضاً من إشراقات النبوة .

ومعنى ﴿ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا .. (٣٧) ﴾ [النمل] تقول : لا قِبَل لى بكذا . يعنى : لا أستطيع مقابلته ، وأنا أضعف من أنْ أقابله ، أو لا طاقة لى به ﴿ وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً .. (٣٧) ﴾ [النمل] لأنه سيسلب مُلْكهم ، فبعد أنْ كانوا ملوكاً صاروا عبيداً . ثم يزيد فى حِدَّته عليهم ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾ [النمل] لأنهم قد يقبلون حالة العبودية وعيشة الرعية ، فزاد ﴿ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧) ﴾ [النمل] لأن الصَّغَار لا يكون إلا بالقَتْل والأسْر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا
قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾

الملأ : أشراف القوم وسادتهم وأصحاب الرأى فيهم ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾ [النمل] هنا أيضاً مظهر من إشراقات النبوة عند سليمان ، فهو يعلم ما سيحدث عندهم حينما تعود إليهم هديتهم ، وأنهم سيسارعون إلى الإسلام ، فردُّ الهدية يعنى أننا أصحاب كلمة ورسالة ومبدأ ندافع عنه لا أصحاب مصلحة .

ولما علم أنهم سيأتون مسلمين طلب من جنوده أنْ يأتوه بعرشها ، وحدَّد زمن الإتيان بهذا العرش ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ (٣٨)﴾ [النمل]

إذن : لا بُدَّ من الذهاب إلى مملكة سبأ وفكِّ العرش ، وحَمْله إلى مملكة سليمان ، ثم إعادة تركيبه عنده ، وهذه مهمة بالطبع فوق قدرة البشر ؛ لذلك لم يتكلم منهم أحد ، حتى الجن العادى لم يعرض على سليمان استعداده للقيام بهذه المهمة :

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ(١) مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ(٢) وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ (٣٩)﴾

والجن فى القدرة والمهارة مثل الإنس ، منهم القوى الماهر ، ومنهم العَيىّ الذى لا يجيد شيئاً . نقول (لبخة) وكلمة عفريت من تعفير التراب ، وكانوا حينما يتسابقون فى العَدْو بالخيل أو غيرها ، فمَنْ يسبق منهم يُثير الغبار فى وجه الآخر فيُعطِّله عن السَّبْق . فقالوا : عفريت يعنى عفَّر من وراءه . أو : المعنى أنه يُعفِّر وجه مَنْ عارضه بالتراب فسُمِّى عفريتاً .

إذن : فالعفريت هو الخبيث الماكر من الجنّ ، وصاحب القوة الخارقة فيهم ، وهو الذى تعرَّض لهذه المهمة ، وقال ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩)﴾ [النمل]

وهذا كلام مُجْمل ؛ لأن مقام سليمان بين رعيته للحكم أو

(١) العفريت : هو النافذ فى الأمر المبالغ فيه مع خبث ودهاء . [لسان العرب – مادة : عفر] .
(٢) قال السدى وغيره : كان سليمان يجلس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس . [تفسير ابن كثير ٣/٣٦٣] .

للمدارسة سوف يستغرق وقتاً : ساعة أو ساعتين مثلاً ، وقد تعهَّد العفريت أنْ يأتى بالعرش فى هذا الوقت يعنى : لن يُؤخِّره إلى جلسة أخرى .

وقوله : ﴿ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النمل] يدل على أن هذا العفريت يعلم فخامة هذا العرش وضخامته ، وأنه شىء نفيس يستحق الاعتناء به ، خاصة فى عملية نقله ؛ لذلك قال من ناحية كبره وضخامته « فأنا عليه قوى » قادر على حَمْله ، ومن ناحية نفاسته وفخامته ، فأنا عليه أمين لن أُبدِّد منه شيئاً .

ثم تكلَّم آخر لم يُحدِّده القرآن إلا بالوصف[1] :

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾

الطرف : الجِفْن الأعلى للعين .

تكلم العلماء فى هذه الآية : أولاً : قالوا ﴿ الْكِتَابِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل] يُراد به اللوح المحفوظ ، يُعلم الله تعالى بعض خَلْقه أسراراً من اللوح

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥٠٨٧/٧) : « أكثر المفسرين على أن الذى عنده علم من الكتاب آصف بن برخيا وهو من بنى إسرائيل ، وكان صدِّيقاً يحفظ اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أعطى ، وإذا دُعى به أجاب » . وانظر (تفسير ابن كثير ٣/ ٣٦٤) ، (والدر المنثور للسيوطى ٦/ ٣٦٠) .

المحفوظ ، أما الذى عنده علم من الكتاب فقالوا[1] : هو آصف بن برخيا ، وكان رجلاً صالحاً أطلعه الله على أسرار الكون .

وقال آخرون[2] : بل هو سليمان عليه السلام ، لما قال له العفريت ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ.. (٣٩)﴾ [النمل] قال هو : ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠)﴾ [النمل] لأنه لو كان شخصاً آخر لكان له تفوّق على سليمان فى معرفة الكتاب .

لكن ردُّوا عليهم بأن من عظمة سليمان أنْ يعلمَ أحد رعيته هذا العلم ، فمَنْ عنده علم من الكتاب بحيث يأتى بالعرش قبل طَرْفة عين هو خادم فى مملكة سليمان ومُسخر له ، كما أن المزايا لا تقتضى الأفضلية ، وليس شرْطاً فى الملك أنْ يعرف كل شىء ، وإلا لَقُلْنا للملك : تَعَال أصلح لنا دورة المياه .

أما نحن فنميل إلى أنه سليمان عليه السلام .

وفَرْق كبير فى القدرات بين مَنْ يأتى بالعرش قبل أن يقوم الملك من مجلسه ، وبين مَنْ يأتى به فى طَرْفة عين ، ونَقْل العرش من مملكة بلقيس إلى مملكة سليمان يحتاج إلى وقت وإلى قوة .

والزمن يتناسب مع القوة تناسباً عكسياً : فكلما زادت القوة قلَّ الزمن ، فمثلاً حين تُكلِّف الطفل الصغير بنقل شىء من مكانه إلى مكان ما ، فإنه يذهب إليه ببُطْء ويحمله ببُطء حتى يضعه فى مكانه ، أما الرجل فبيده وفى سرعة ينقله ، وهذه المسألة نلاحظها فى وسائل

---

(١) قاله ابن عباس ، ويزيد بن رومان ، وقتادة . انظر تفسير ابن كثير (٣٦٤/٣) وقاله الحسن أيضاً (الدر المنثور ٣٦٠/٦) .

(٢) قال ابن عطية : قالت فرقة هو سليمان عليه السلام . نقله القرطبى فى تفسيره (٥٠٨٧/٧) ولكنه قال قبله : « لا يصح فى سياق الكلام مثل هذا التأويل » .

المواصلات ، ففرْق بين السفر بالسيارة ، والسفر بالطائرة ، والسفر بالصاروخ مثلاً .

وهذه تكلّمنا عنها فى قصة « الإسراء والمعراج » فقد أسْرى برسول الله ﷺ بهذه السرعة ؛ لأن الله تعالى أسْرى به ، ونقله من مكان إلى مكان ؛ لذلك جاءت الرحلة فى سرعة فوق تصوُّر البشر .

وما دام الزمن يتناسب مع القوة ، فلا تنسب الحدث إلى رسول الله ، إنما إلى الله ، إلى قوة القوى التى لا تحتاج إلى زمن أصلاً ، فإنْ قلتَ : فلماذا استغرقتْ الرحلة ليلةً وأخذت وقتاً ؟ نقول : لأنه ﷺ مرَّ بأشياء ، ورأى أشياء ، وقال ، وسأل ، وسمع ، فهو الذى شغل هذا الوقت ، أمّا الإسراء نفسه فلا زمنَ له .

لذلك قبل أن يخبرنا الحق - تبارك وتعالى - بهذه الحادثة العجيبة قال : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ① ﴾ [الإسراء] أى : نزِّهه عن مشابهة غيره ، كذلك مسألة نَقْل العرش فى طرْفة عين لا بُدَّ أن مَنْ فعلها فعلها بعون من الله وبعلم أطلعه الله عليه ، فنقله بكُنْ التى لا تحتاج وقتاً ولا قوة ، وما دام الأمر بإرادة الله وقوته وإلهامه فلا نقول إلا : آمين .

وفى قوله للجن : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. ④⓪ ﴾ [النمل] تحدٍّ لعفريت الجن ، حتى لا يظن أنه أقوى من الإنسان ، فإنْ أراد الله منحنى من القوة ما أتفوّق عليك به ، بل وأسخِّرك بها لخدمتى .

ومن ذلك قوله سبحانه عن تسخير الجن : ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ[1] وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ .. ①③ ﴾ [سبأ]

(١) الجفان : جمع جَفْنَة ، وهى القصعة الكبيرة جداً . والجواب جمع جابية ، وهى الحوض الذى يُجبى فيه الماء . وقال ابن عباس : أى كالجوبة من الأرض . وقال العوفى عنه : كالحياض. وكذا قال مجاهد والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم . [تفسير ابن كثير٣/٥٢٨] .

وليعلموا أنهم جهلاء ، ظلُّوا يعملون لسليمان وهو ميت ومُتكىء على عصاه أمامهم ، وهم مرعوبون خائفون منه .

والتحدى قد يكون بالعُلُوِّ ، وقد يكون بالدُّنُو ، كالذى قال لصاحبه : أنا دارس باريس دراسة دقيقة ، وأستطيع أنْ أركب معك السيارة وأقول لك : أين نحن منها ، وأمام أىّ محل ، وأنا مُغْمض العينين ، فقال الآخر : وأنا أستطيع أن أخبرك بذلك بدون أن أُغمض عَيْنىّ .

وقوله : ﴿فَلَمَّا رَآهُ .. ۝٤٠﴾ [النمل] أى : العرش ﴿مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى .. ۝٤٠﴾ [النمل] إما لأنه أقدره على الإتيان به بنفسه ، أو سخّر له مَنْ عنده علم من الكتاب ، فأتاه به ، فهذه أو ذاك فضل من الله .

﴿لِيَبْلُوَنِى .. ۝٤٠﴾ [النمل] يختبرنى ﴿أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ .. ۝٤٠﴾ [النمل] يعنى : أشكر الله فأُوفَّق فى هذا الاُختبار ؟ أم أكفر بنعمة الله فأخفق فيه ؟ لأن الاختبار إنما يكون بنتيجته .

والشكر بأن ينسب النعمة إلى المنعم وألاَّ يلهيه جمال النعمة عن جلال واهِبها ومُسْديها ، فيقول مثلاً : إنما أوتيته على علم عندى .

وقوله : ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ .. ۝٤٠﴾ [النمل] أى : أن الله تعالى لا يزيده شُكْرنا شيئاً ، فله ـ سبحانه وتعالى ـ صفات الكمال المطلق قبل أنْ يشكره أحد ، فمَنْ يشكر فإنما يعود عليه ، وهو ثمرة شُكْره .

﴿وَمَن كَفَرَ .. ۝٤٠﴾ [النمل] يعنى : جحد النعمة ولم يشكر المنعم ﴿فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ .. ۝٤٠﴾ [النمل] أى : عن شكره ﴿كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ [النمل]

أى : يعطى عبده رغم ما كان منه من جحود وكفر بالنعمة ؛ لأن نعمه تعالى كثيرة لا تُعَدُّ ، وهذا من حلمه تعالى ورأفته بخَلْقه .

لذلك لما نتأمل قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] وقد تكررت هذه العبارة بنصِّها فى آيتين من كتاب الله ، مما جعل البعض يرى فيها تكراراً لا فائدة منه ، لكن لو نظرنا إلى عَجُز كل منهما لوجدناه مختلفاً :

فالأولى تُختتم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم]

والأخرى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

إذن : فهما متكاملتان ، لكلٍّ منهما معناها الخاص ، فالأولى تبين ظلم الإنسان حين يكفر بنعمة الله عليه ويجحدها ، وتضيف الأخرى أن الله تعالى مع ذلك غفور لعبده رحيم به .

كما نلحظ فى الآية : ﴿وَإِن تَعُدُّوا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] استخدم (إنْ) الدالة على الشك ؛ لأن أحداً لا يجرؤ على عَدِّ نعَم الله فى الكون ، فهى فوق الحصر ؛ لذلك لم يُقْدم على هذه المسألةَ أحد ، مع أنهم بوسائلهم الحديثة أحصَوا كلَّ شىء إلا نعم الله لم يتصَدَّ لإحصائها أحد فى معهد أو جامعة ممن تخصصت فى الإحصاء .

وهذا دليل على أنها مقطوع بالعجز عنها ، كما لم نجد مثلاً مَنْ تصدّى لإحصاء عدد الرمل فى الصحراء . كما نقف عند قوله سبحانه : ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] ولم يقُلْ : نعَم الله ، فالعجز عن الإحصاء أمام نعمة واحدة ؛ لأن تحتها نِعَم كثِيرة لو تتبعتها لوجدتها فوق الحصر .

ثم لما جاءته بلقيس أراد أن يُجرى لها اختبارَ عقلٍ ، واختبارَ إيمان :

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ (١)

قوله : ﴿ نكِّروا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النمل] ضده عرِّفوا ؛ لأنه جاء بالعرش على هيئته كما كان عندها فى سبأ ، ولو رأتْه على حالته الأولى لقالتْ هو هو ، ولم يظهر له ذكاؤها ؛ لذلك قال ﴿ نكِّروا لَهَا عَرْشَهَا .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النمل] يعنى : غيِّروا بعض معالمه ، ومنه شخص متنكر حين يُغيِّر ملامحه وزيَّه حتى لا يعرفه مَنْ حوله .

﴿ نَنظُرْ أَتَهْتَدِى أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [النمل] تهتدى إيماناً إلى الإسلام ، أو تهتدى عقلياً إلى الجواب فى مسألة العرش .

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

جاء السؤال بهذه الصيغة ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [النمل] ليُعمِّى عليها أمر العرش ، وليختبر دقة ملاحظتها ، فلو قال لها : أهذا عرشك ؟ لكان إيحاءً لها بالجواب إنما ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [النمل] كأنه يقول : ليس هذا عرشك ، فلما نظرتْ إليه إجمالاً عرفتْ أنه عرشها ، فلما رأتْ ما فيه من تغيير وتنكير ظنتْ أنه غيره ؛ لذلك اختارتْ جواباً دبلوماسياً يحتمل هذه وهذه ، فقالت ﴿ كَأَنَّهُ هُوَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾

(١) قال ابن عباس : نزع منه فصوصه ومرافقه . وقال مجاهد : أمر به فغُيِّر ما كان فيه أحمر جُعل أصفر ، وما كان أصفر جُعل أحمر ، وما كان أخضر جُعل أحمر غيِّر كل شىء عن حاله . وقال عكرمة : زادوا فيه ونقصوا . وقال قتادة : جعل أسفله أعلاه ومقدمه مؤخره وزادوا فيه ونقصوا . [تفسير ابن كثير ٣/٣٦٤] .

[النمل] وعندها فهم سليمان أنها على قَدْر كبير من الذكاء والفطنة وحصافة الرأى .

وكذلك كلام السَّاسة والدبلوماسيين تجده كلاماً يصلح لكل الاحتمالات ولأىٍّ واقع بعده ، فإذا جاء الأمر على خلاف ما قال لك يسبقك بالقول : ألم أقُلْ لك كذا وكذا .

ومن ذلك ما قاله معاوية بن أبى سفيان للأحنف بن قيس(١) : يا أحنف لماذا لا تسبّ علياً على المنبر كما يسبّه الناس ؟ فقال الأحنف : اعفنى يا أمير المؤمنين ، فقال معاوية : عزمتُ عليك إلاَّ فعلْتَ ، فقال : أما وقد عزمت علىَّ فسأصعد المنبر ، ولكنى سأقول للناس : إن أمير المؤمنين معاوية أمرنى أنْ ألعنَ علياً ، فقولوا معى : لعنه الله . عندها قال معاوية : لا يا أحنفُ ، لا تقل شيئاً .

لماذا ؟ لأن اللعن فى هذه الحالة سيعود على مَنْ ؟ على معاوية أو علَى علىّ ؟

وتُحكَى قصة الخيّاط الأعور الذى خاط لأحد الشعراء جُبَّة ، فجاءت وأحَد الكُمَّيْن أطول من الآخر ، فلم يستطع لبسها ، فلما سألوه عن عدم لُبْس الجبة الجديدة أخبرهم بما حدث من الخياط فقالوا : أهْجه ، فقال :

قُلْتُ شعْراً لَيْس يُدْرَى ... أمديحٌ أمْ هجَاءُ
خَاطَ لِى عَمْرو قُبَاء ... لَيْتَ عينيه سَوَاءُ

فالكلام يحتمل المعنيين : الدعاء له ، والدعاء عليه . هذا هو الرد الدبلوماسى الذى يهرب به صاحبه من المواجهة .

---

(١) هو : أبو بحر ، سيد تميم ، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء ، يُضرب به المثل فى الحلْم ، وُلد فى البصرة (٣ ق هـ) ، وأدرك النبى ﷺ ولم يره ، شهد الفتوح فى خراسان ، واعتزل الفتنة يوم الجمل ، ثم شهد صفين مع على . توفى بالكوفة عام (٧٢ هـ) عن ٦٩ عاماً . [الأعلام للزركلى ١/٢٧٦] .

وكذلك قالتْ بلقيس جواباً دبلوماسياً ﴿كَأَنَّهُ هُوَ .. (٤٢)﴾ [النمل] أما ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)﴾ [النمل] فيحتمل أنْ يكون امتداداً لقوْل بلقيس ، يعني : أوتينا العلم من قبل هذه الحادثة ، وعرفنا أنك نبيٌّ لما رددتَ إلينا الهدية ، وقلت ما قلت ، فلم نكُنْ في حاجة إلى مثل هذه الحادثة لنعلم نُبوّتك .

ويُحتمل أنها من كلام سليمان عليه السلام .

﴿وَصَدَّهَا(١) مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣)﴾

المعنى : صدَّها ما فعل سليمان من أحداث ، وما أظهر لها من آيات ، صدَّها عن الكفر الذي ألفتْه ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣)﴾ [النمل] فصدَّها سليمان بما فعل عما كانت تعبد من دون الله .

﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً(٢) وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ(٣) مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٣٦٥) : « هذا من تمام كلام سليمان عليه السلام في قول مجاهد وسعيد بن جبير ، أي قال سليمان ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)﴾ [النمل] وهي كانت قد صدَّها أي منعها من عبادة الله وحده ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ (٤٣)﴾ [النمل] » .

(٢) أي : حسبته ماء . ولُجة الماء : معظمه ، وخصَّ بعضهم به معظم البحر [بتصرف من تفسير القرطبي ٧/٥٠٩٢ ، اللسان ـ مادة : لجج] .

(٣) الصرح : قال الزجاج : الصرح في اللغة : القصر والصَّحْن . يُقال : هذه صرحة الدار وقارعتها أي : ساحتها وعرصتها . وقال بعض المفسرين : الصَّرْح : بلاط اتخذ لها من قوارير . والصرح : الأرض المملسة . [لسان العرب ـ مادة : صرح] والقوارير : جمع قارورة ، وهي لا تكون إلا من الزجاج .

الصَّرْح : إما أن يكون القصر المشيد الفخم ، وإما أن يكون البهو الكبير الذى يجلس فيه الملوك مثل : إيوان كسرى مثلاً ، فلما دخلتْ ﴿حَسِبَتْهُ لُجَّةً .. (٤٤)﴾ [النمل] ظنَّته ماءً ، والإنسان إذا رأى أمامه ماءً أو بَلَلاً يرفع ثيابه بعملية آلية قَسْرية حتى لا يصيبه البلَل ؛ لذلك كشفتْ بلقيس عن ساقيها يعنى : رفعتْ ذَيْل ثوبها .

وهنا نبَّهها سليمان ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ .. (٤٤)﴾ [النمل] يعنى : ادخلى لا تخافى بللاً ، فهذا ليس لُجةَ ماء ، إنما صَرْح ممرد من قوارير يعنى : مبنىٌّ من الزجاج والبللور أو الكريستال ، بحيث يتموج الماء من تحته بما فيه من أسماك .

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي .. (٤٤)﴾ [النمل] بالكفر أولاً ، وبظنٌ السوء فى سليمان ، وأنه يريد أنْ يُغرقنى فى لجة الماء ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾ [النمل] ويبدو أنها لم تنطق بكلمة الإسلام صريحة إلا هذه المرة ، وأن القوُل السابق ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢)﴾ [النمل] كان من كلام سليمان عليه السلام .

وقولها ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ .. (٤٤)﴾ [النمل] مثل قول سَحَرة فرعون لما رأوا المعجزة : ﴿آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠)﴾ [طه] لأن الإيمان إنما يكون بالله والرسول دال على الله ، لذلك قالت : ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ .. (٤٤)﴾ [النمل] ولم تقُلْ : أسلمتُ لسليمان ، نعم لقد دانتْ له ، واقتنعتْ بنبوته ، لكن كبرياء الملك فيها جعلها لا تخضع له ، وتعلن إسلامها لله مع سليمان ؛ لأنه السبب فى ذلك ، وكأنها تقول له : لا تظن أنِّى أسلمتُ لك ، إنما أسلمتُ معك ، إذن : أنا وأنت سواء ، لا يتعالى أحد منا على الآخر ، فكلانا عبد لله .

وقد دخل هذه القصة بعض الإسرائيليات ، منها أن سليمان - عليه السلام - جعل الصرح على هذه الصورة لتكشف بلقيس عن ساقيها ؛ لأنه بلغه أنها مُشْعِرة الساقين ، إلى غير هذا من الافتراءات التى لا تليق بمقام النبوة[1] .

ثم يأتى بنا الحق سبحانه إلى نبى آخر فى موكب الأنبياء :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

مرَّتْ بنا قصة نبى الله صالح - عليه السلام - مع قومه ثمود فى سورة الشعراء ، وأُعيد ذكرها هنا ؛ لأن القرآن يقصُّ على رسول الله من موكب الأنبياء ما يُثبِّت به فؤاده ، كلّما تعرض لأحداث تُزلزل الفؤاد ، يعطيه الله النَّجْم من القرآن بما يناسب الظروف التى يمرُّ بها ، وهذا ليس تكراراً للأحداث ، إنما توزيع للقطات ، بحيث إذا تجمعتْ تكاملتْ فى بناء القصة .

وقوله سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النمل] لا بُدَّ أنه أُرسل بشىء ما هو ؟ ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النمل] لذلك سُمِّيت (أنْ) التفسيرية ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص] ماذا ؟ ﴿ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [القصص]

وقد يأتى التفسير بجملة ، كما فى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ..

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٦٥) هذه القصة ، وعزاه لمحمد بن كعب القرظى وابن عباس ومجاهد وعكرمة والسدى وابن جريج . وقد ذكرها الدكتور محمد أبو شهبة فى كتابه « الإسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير » (ص ٣٤٨) .

(١٢٠)﴾ [طه] بأى شيء ؟ ﴿قَالَ يَـٰآدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠)﴾ [طه]

فشرح الوسوسة وهى شيء عام بقوله : ﴿قَالَ يَـٰآدَمُ .. (١٢٠)﴾ [طه] فرسالتنا إلى ثمود ملخصها ومؤداها ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٤٥)﴾ [النمل]

والعبادة كما ذكرنا أن نطيع الله بفعل ما أمر ، وبترْك ما نهى عنه وزَجر ، أما ما لم يردْ فيه أمر ولا نَهْى فهو من المباحات إنْ شئتَ فعلتها ، وإنْ شئت تركتها ، وإذا ما استعرضنا حركة الأحياء والخلفاء فى الأرض وجدنا أن ٥٪ من حركتهم تدخّل فيها الشارع بافعل ولا تفعل ، أما الباقى فهو مُباح .

إذن : فالتكليف منُوط بأشياء يجب أنْ تفعلها ؛ لأن فيها صلاحَ مجتمعك ، أو أشياء يجب أن تتركها ؛ لأن فيها فساد مجتمعك .

فماذا كانت النتيجة ؟

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥)﴾ [النمل]

والاختصام أنْ يقف فريق منهم ضد الآخر ، والمراد أن فريقاً منهم عبدوا الله وأطاعوا ، والفريق الآخر عارض وكفر بالله .

وقد وقف عند هذه الآية بعض الذين يحبون أنْ يتهجَّموا على الإسلام وعلى أسلوب القرآن ، وهم يفتقدون الملكة العربية التى تساعدهم على فَهْم كلام الله ، وإنْ تعلَّموها فنفوسهم غير صافية لاستقبال كلام الله ، وفيهم خُبْث وسُوء نية .

واعتراضهم أن ﴿فَرِيقَانِ .. (٤٥)﴾ [النمل] مثنى و ﴿يَخْتَصِمُونَ (٤٥)﴾ [النمل] دالة على الجمع ، فلماذا لم يَقُلْ : يختصمان ؟ وهذه لغة القرآن فى مواضع عدة .

ومنها قوله تعالى : ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. ⑨﴾ [الحجرات]

والقياس يقتضى أن يقول : اقتتلتا . لكن حين نتدبَّر المعنى نجد أن الطائفة جماعة مقابل جماعة أخرى ، فإنْ حدث قتالٌ حمل كُلٌّ منهم السلاح ، لا أن تتقدم الطائفة بسيف واحد ، فهم فى حال القتال جماعة .

لذلك قال (اقتتلوا) بصيغة الجمع ، أما فى البداية وعند تقرير القتال فلكُلٍّ طائفة منهما رأىٌ واحد يعبر عنه قائدها ، إذن : فهما فى هذه الحالة مثنى .

كما أن الطائفة وإنْ كانت مفردة لفظاً إلا أنها لا تُطلَق إلا على جماعة ، فيقف كل واحد من الجماعة بسيفه فى مواجهة آخر من الطائفة الأخرى .

وهنا أيضاً ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ .. ⑮﴾ [النمل] أى : مؤمنون وكافرون ﴿يَخْتَصِمُونَ ⑮﴾ [النمل] لأن كل فرد فى هذه الجماعة يقف فى مواجهة فرد من الجماعة الأخرى .

وفى موضع آخر ، شرح لنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ هذه المسألة ، فقال سبحانه : ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ⑲ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ⑳ وَلَهُم مَّقَامِعُ[1] من

(١) المقامع : جمع مقمعة ، وهى خشبة أو حديدة يُقمع بها الحيوان ليُذلَّ ويطيع . وقوله ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ㉑﴾ [الحج] أى : يُضربون بها ، كلما أرادوا الخروج من النار أعيدوا فيها بالضرب بالمقامع إذلالاً لهم . [القاموس القويم ٢/١٣٤] .

حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحج]

أما الفريق الآخر : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحج]

فبيَّن لنا الحق ـ سبحانه ـ كل فريق منهما ، وبيَّن مصيره وجزاءه .

ونلحظ هنا ﴿ فَإِذَا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النمل] يسمُّونها الفجائية ، ويُمثِّلون لها بقولهم : خرجتُ فإذا أسَدٌ بالباب ، والمعنى : أنك فُوجِئْت بشيء لم تكُنْ تتوقعه ، كذلك حدث من الكافرين من قوم ثمود حين قال لهم نبيهم ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النمل] لكن يفاجئوننا بأنهم فريقان : مؤمنون وكافرون .

ومنطق العقل والحق والفطرة السليمة يقتضى أنْ يستقبلوا هذا الأمر بالطاعة والتسليم ، ولا يختلفوا فيه هذا الاختلاف : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]

وقالوا : إن الله تعالى لا يرسل الرسل إلا على فساد فى المجتمع ، الخالق عز وجل خلق فى الإنسان النفس اللوامة التى تردُّه إلى رُشْده وتنهاه ، والنفس المطمئنة التى اطمأنتْ بالإيمان ، وأمنت الله على الحكم فى افعل ولا تفعل ، والنفس الأمَّارة بالسوء ، وهى التى لا تعرف معروفاً ، ولا تنكر مُنكَراً ، ولا تدعو صاحبها إلا إلى السوء .

والله ـ عزَّ وجلَّ ـ رب ، ومن عادة الرب أنْ يتعهَّد المربَّى ليؤدى

غايتـه على الوجه الأكمل ، أرأيتم أباً يُربِّى أبناءه إلا لغـاية ؟ وما دام هو سبـحانه ربى فلا يأمـرنى إلا لصالحى ، وصالح مـجتمـعى ، فلا شىء من طاعتنا يعـود عليه بالنفع ولا شىء من معاصيـنا يعود عليه بالضرر ؛ لأنه سبحانه خلق الكون كله بصفات الكمال المطلق . إذن : كانت الفطرة السليمة تقتضى استقبال أوامر الله بالقبول والتسليم .

وهذه الخـصومـة تجمـع المؤمنين فى جـهـة ؛ لأنهم اتفقـوا على الإيمان . والكافـرين فى جهـة ؛ لأنهم اتفقـوا على الكفر . لكن يمـتاز المؤمنون بأن يظل وفـاقهم إلى نهاية العمر ، بل وعـند لقاء الله تعالى فى الجنة ؛ لأنهم اتفـقـوا فى الدنيا فى خـطة العمل وفى الآخـرة فى غاية الجزاء ، كما يقول تعالى : ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧)﴾ [الزخرف]

أما الكفـار فسوف تقـوم بينهم الخصـومات يوم القيـامة ، ويلعن بعـضهم بعـضاً ، ويتـبرأ بعـضـهم من بعض ، والقـرآن حين يُصوِّر تخاصم أهل النار يقول بعد أنْ ذكر نعيم أهل الجنة :

﴿هَـٰذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ[1] وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا

(١) الحميم من ألفاظ الأضداد ، يكون الماء البارد ، ويكون الماء الحار . والحميم : العَرَق . [لسان العرب ـ مادة : حمم] والغسـاق : ما يغسق ويسيل من جلود أهل النار وصديدهم من قيح ونحوه . [اللسان ـ مادة : غسق] .

ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾ [ص]

إذن : فالخصومة فى الدنيا بين مؤمن وكافر ، أما فى الآخرة فبين الكافرين بعضهم البعض ، بين الذين أَضلُّوا والذين أُضِلُّوا ، بين الذين اتَّبعُوا ، والذين اتُّبعوا .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ (١) لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

لما ذُكِرت قصة ثمود فى الشعراء ، لم تذكر شيئاً عن استعجال السيئة ، فما هى السيئة التى استعجلوها وربهم عز وجل يلومهم عليها ؟ هى قولهم: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأعراف]

وعجيب أمْر هؤلاء القوم ، ماذا يفعلون لو نزل بهم ؟ قالوا معاً : حينما تأتينا السيئة نستغفر ونتوب يظنون أن الاستغفار والتوبة تُقبل منهم فى هذا الوقت .

والحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء]

---

(١) قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة ، وقال القرطبى : المعنى : لم تؤخرون الإيمان الذى يجلب إليكم الثواب ، وتقدمون الكفر الذى يُوجب العقاب ؟ [تفسير القرطبى ٥٠٩٧/٧] .

فلماذا تستعجلون السيئة والعذاب ، وكان عليكم أن تستعجلوا الحسنة ، واستعجالكم السيئة يحول بينكم وبين الحسنة ؛ لأنها لن تُقبل منكم ﴿لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [النمل]

﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾

اطيَّر : استعمل الطير ، وهذه عملية كانوا يلجئون إليها عند قضاء مصالحهم أو عند سفرهم مثلاً ، فكان الواحد منهم يُمسك بالطائر ثم يرسله ، فإنْ طار ناحية اليمين تفاءل وأقبل على العمل ، وإنْ طار ناحية الشمال تشاءم ، وامتنع عما هو قادم عليه ، يُسمُّونها السانحات والبارحات[1] . فالمعنى : تشاءمنا منك ، وممَّنْ اتبعك .

﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ .. ﴿٤٧﴾﴾ [النمل] يعنى : قضاء مقضىٌّ عليكم ، وليس للطير دَخْل فى أقداركم ، وما يجرى عليكم من أحكام ، فكيف تأخذون من حركته مُنطلقاً لحركتكم ؟ إنما طائركم وما يُقدَّر لكم من عند الله قضاء يقضيه .

وفى آية يس : ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ .. ﴿١٩﴾﴾ [يس] يعنى : تشاؤمكم هو كفركم الذى تمسكتم به .

لكن ، لماذا جاء التشاؤم هنا ، ونبيهم يدعوهم إلى الله ؟ قالوا : لأنه بمجرد أنْ جاءهم عارضوه ، فأصابهم قحْط شديد ، وضنَّتْ عليهم السماء بالمطر فقالوا : هو الذى جرَّ علينا القَحْط والخراب .

---

(١) السانح : ما أتاك عن يمينك من ظبى أو طائر أو غير ذلك . والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك [لسان العرب ـ مادة : سنح] .

وقوله : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النمل] الفتنة : إما بمعنى الاختبار والابتلاء ، وإما بمعنى فتنة الذهب فى النار .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ(١) يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

وهذه المسألة أيضاً لقطة جديدة من القصة لم تُذكَر فى الشعراء ، وهكذا كل القَصَص القرآنى لو تدبَّره الإنسان لوجده لقطات متفرقة ، كلٌّ منها يضيف جديداً ، ويعالج أمراً يناسب النجْم القرآنيَّ الذى نزل فيه لتثبيت رسول الله ﷺ .

والرَّهْط : اسم جمع ، لا واحدَ له من لفظه ، ويدل على العدد من الثلاثة إلى العشرة ، فمعنى ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل] كأنهم كانوا قبائل أو أسراً أو فصائل ، قبيلة فلان وقبيلة فلان .. إلخ .

﴿ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل] فلماذا قال بعدها : ﴿ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النمل] ؟ قالوا : لأن الإنسان قد يُفسد فى شىء ، ويُصلح فى آخر ، كالذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وهؤلاء عسى الله أنْ يتوبَ عليهم .

أما هؤلاء القوم ، فكانوا أهل فساد مَحْض لا يعرفون الصلاح ، فإنْ رأوْه عمدوا إليه فأفسدوه ، فكأنهم مُصِرُّون على الإفساد ، وللإفساد قوم ينتفعون به ، لذلك يدافعون عنه ويعارضون فى سبيله أهل الإصلاح والخير ؛ لأنهم يُعطِّلون عليهم هذه المنفعة .

(١) ذكر ابن عباس أسماء هؤلاء التسعة ، فقال : كان أسماؤهم زعمى وزعيم وهرمى وهريم وداب وهواب ورياب وسيطع ، وقدار بن سالف عاقر الناقة . (نقله السيوطى فى الدر المنثور ٦/٣٧٠) .

وقلنا : إن صاحب الدين والخلق والمبادئ في أيِّ مصلحة تراه مكروهاً من هذه الفئة التي تنتفع من الفساد ، يهاجمونه ويتتبعونه بالهَمْز واللمز ، يقولون : حنبلي ، وربما يهزأون به .. إلخ ؛ لذلك لم يقف في وجه الرسل إلا هذه الطائفة المنتفعة بالفساد .

﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

﴿قَالُوا .. ﴿٤٩﴾﴾ [النمل] أي : الرهط ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ .. ﴿٤٩﴾﴾ [النمل] انظر إلى هذه البجاحة وقلة العقل وتفاهة التفكير : إنهم يتعاهدون ويُقسمون بالله أنْ يقتلوا رسول الله ، وهذا دليل غبائهم ، وكأن الحق - تبارك وتعالى - يجعل لهم منافذ يظهر منها حُمْقهم وقلّة عقولهم .

ومعنى ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ .. ﴿٤٩﴾﴾ [النمل] نُبيِّته : نجعله ينام بالليل ، والبيتوتة أن ينقطع الإنسان عن الحركة حالَ نومه ، ثم يعاود الحركة بالاستيقاظ في الصباح ، لكن هؤلاء يريدون أنْ يُبيِّتوه بيتوتة لا قيامَ منها . والمعنى : نقتله .

فإذا ما جاء أولياء الدم يطالبوننا بدمه ﴿لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ .. ﴿٤٩﴾﴾ [النمل] أي : وليّ الدم من عُصْبته ورحمه ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النمل] أي : ما شهدنا مقتل أهله ، فمن باب أَوْلَى ما شهدنا مقْتله ، ولا نعرف عنه شيئاً .

هذا ما دبره القوم لنبي الله صالح - عليه السلام - يظنون أن الله يُسْلِم رسوله ، أو يُمكِّنهم من قتله ، فحاكوا هذه المؤامرة ولم يفتهم تجهيز الدفاع عن أنفسهم حين المساءلة ، هذا مكرهم وتدبيرهم .

﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) ﴾

معنى ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا .. (٥٠)﴾ [النمل] أى : ما دبّروه لقتل نبى الله ورسوله إليهم ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا .. (٥٠)﴾ [النمل] وفَرْق بين مكر الله عز وجل ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ [آل عمران] وبين مكْر الكافرين ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ .. (٤٣)﴾ [فاطر]

إذن : حين تمكر بخير ، فلا يُعَدُّ مكْراً ، إنما إبطال لمكْر العدو ، فلا يجوز لك أنْ تتركه يُدبِّر لك ويمكُر بك ، وأنت لا تتحرك ؛ لذلك قال تعالى ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ [الأنفال] لأنهم يمكرون بشرٍّ ، ونحن نمكر لدفع هذا الشر لِنُصْرة رسولنا ، ونجاته من تدبيركم .

والمكْر : مأخوذ من قولهم : شجرة ممكورة ، وهذا فى الشجر رفيع السَّاق المتسلق حين تلتفُّ سيقانه وأغصانه ، بعضها على بعض ، فلا تستطيع أن تُميِّزها من بعضها ، فكُلٌّ منها ممكور فى الآخر مستتر فيه ، وكذلك المكر أن تصنع شيئاً تداريه عن الخصم .

وقوله تعالى : ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٥٠)﴾ [النمل] أى : أنه مكْر محبوك ومحكم ، بحيث لا يدرى به الممكور به ، وإلا لا يكون مكْراً .

وحين نتأمل : ﴿وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ .. (٤٣)﴾ [فاطر] و ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ [آل عمران] نعلم أن المكر لا يُمدح ولا يُذَمُّ لذاته ، إنما بالغاية من ورائه ، كما فى قوله تعالى عن الظن : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ .. (١٢)﴾ [الحجرات] فالظن منه الخيِّر ومنه السيىء .

ونسمع الآن تعبيراً جديداً يعبر عما يدور فى المجتمع من انتشار المكر وسوء الظن ، يقولون : الصراحة مكر القرن العشرين ، فالذى يمكر بالناس يظن أنهم جميعاً ماكرون فلا يصدق كلامهم ، ويحتاط له حتى إنْ كان صدقاً ، فأصبح المكر وسوء الظن هو القاعدة ، فإنْ صارحتَ الماكر لا يُصدقك ويقول فى نفسه : إنه يُعمى علىَّ أو يُضلِّلنى .

﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

أى : تأمل ما حاق بهم لما مكروا بنبى الله ، واتفقوا على التبييت له وقَتْله ، يُرْوى أنهم لما دخلوا عليه أُلْقى على كل واحد منهم حجر لا يدرى من أين أتاه ، فهلكوا جميعاً ، فقد سخَّر الله له ملائكة تولَّتْ حمايته والدفاع عنه[1] .

أو : أن الله تعالى صنع له حيلة خرج بها وذهب إلى حضرموت ، وهناك مات عليه السلام ، فَسُمِّيت حضرموت[2] . وآخرون قالوا : بل ذهبوا ينتظرونه فى سفح جبل ، واستتروا خلف صخرة ليُوقعوا به فسقطت عليهم الصخرة فماتوا جميعاً .

المهم ، أن الله دمرهم بأىٍّ وسيلة من هذه ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [المدثر] لقد أرادوا أنْ يقتلوه وأهلَه ، فأهلكهم الله .

---

(١) قال ابن عباس : أرسل الله تعالى الملائكة تلك الليلة ، فامتلأت بهم دار صالح ، فأتى التسعة دار صالح شاهرين سيوفهم ، فقتلتهم الملائكة رضخاً بالحجارة ، فيرون الحجارة ولا يرون من يرميها . [تفسير القرطبى ٧/٥١٠٠] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٠٢) : « خرج صالح بمن آمن معه إلى حضرموت ، فلما دخلها مات صالح ، فسميت حضرموت » .

﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً .. (٥٢) ﴾ [النمل] دليل على أن الله أهلكهم فلم يُبْقِ منهم أحداً ، وتُركَتْ بيوتهم خاوية بسبب ظلمهم ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً .. (٥٢) ﴾ [النمل] عبرة وعظة ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) ﴾ [النمل]

وفى مقابل إهلاك الكافرين : (١)

﴿ وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣) ﴾

فمن آمن واتقى من قوم صالح نجّاه الله عز وجل من العذاب الذى نزل بقومهم قوم ثمود .

انتهى الكلام هنا عن قصة ثمود ، وحين نقارن الأحداث هنا بما ورد فى سورة الشعراء نجد أحداثاً جديدة لم تُذكَر هناك ، كما لم يذكر هنا شيئاً عن قصة الناقة التى وردتْ هناك ، مما يدلُّ على تكامل لقطات القصة فى السور المختلفة .

ثم يقصُّ علينا طرفاً من قصة نبى آخر ، وهو لوط عليه السلام :

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) ﴾

---

(١) قيل : آمن بصالح قدر أربعة آلاف رجل ، أما الباقون فقد خرج بأبدانهم ـ فى قول مقاتل وغيره ـ خُرَّاج مثل الحمص ، وكان فى اليوم الأول أحمر ، ثم صار من الغد أصفر ، ثم صار فى الثالث أسود .

(لُوطاً) جاءت منصوبة على أنها مفعول به ، والتقدير : أرسلنا لوطاً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النمل]

وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النمل] فذكر الداء الذى استشرى فيهم . وفى سورة الشعراء قال سبحانه ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأعراف] وهنا قال : ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النمل] أى : تتعالمون بها وتتجاهرون بها ، فدلَّ على أنهم أجمعوا عليها وارتضوْهَا ، وأنه لم يَعُدْ عندهم حياء من ممارستها .

أو : يكون المعنى : وأنتم تبصرون ما حلَّ بأصحاب الفساد قبلكم من أقضية الله عليهم .

﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

هذا بيان وتفصيل للداء وللفاحشة التى انتشرت بينهم ، ومعنى : ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النمل] الآية فى ظاهرها أنها تتعارض مع ﴿ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النمل] لكن المعنى ﴿ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [النمل] الجهل هنا ليس هو ضد العلم ، إنما الجهل بمعنى السَّفه .

والبعض يظن أن الجهل ألاَّ تعلم ، لا إنما الأمية هى ألاَّ تعلم ، أمَّا الجهل فأنْ تعلم قضية مخالفة للواقع ؛ لذلك الأميُّ أسهل فى الإقناع ؛ لأنه خالى الذِّهْن ، أمَّا الجاهل فلديه قضية خاطئة ، فيستدعى الأمر أن تنزع منه قضية الباطل ، ثم تُدخِل قضية الحق ، فالجهل ـ إذن ـ أشقُّ على الدعاة من الأمية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾

عجيبٌ أمر هؤلاء ، فعلَّة الإخراج عندهم وحيثيته ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل] سبحان الله ، ومتى كان الطُّهْر ذنباً وجريمة تستوجب أنْ يخرج صاحبها من بلده ؟ إنها نغمة نسمعها دائماً من أهل الباطل فى كل زمان ومكان حينما يهاجمون أهل الحق ، ويَسْعَوْن لإبعادهم من الساحة لتخلو لباطلهم .

ومن عَدْل الله تعالى أن يظهر فى منطقهم دليل إدانتهم وخُبْث طباعهم ، فكلمة ﴿يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [النمل] التى نطقوا بها تعنى : أنهم أنفسهم أنجاسٌ تزعجهم الطهارة ، وما أحلَّ الله من الطيبات ، وكأن الله تعالى يجعل فى كلامهم منافذ لإدانتهم ، وليحكموا بها على أنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى : من المُهْلَكين مع قومها ، فقد كانت تدل قومها على ضيفان لوط ؛ ليأتوا إليهم ليفعلوا معهم الفاحشة ، لذلك أصابها من العذاب مثلما أصاب قومها .

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

أى : قَبُح هذا المطر ، وإنْ أبهم المطر هنا فقد وضَّحه الحق - تبارك وتعالى - فى آيات أخرى فقال : من طين ، ومن سجِّيل ، وهو الطين إذا حُرِق ، فصار فخَّاراً ؛ وهذه الحجارة منظمة مُسوَّمة[1] صنعها الله لهم بحساب دقيق ، فلكُلٍّ واحد منهم حَجَره المسمَّى باسمه ، والذى لا يُخطئه إلى غيره .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

نعرف أن الله تعالى يُحمد على النعمة ؛ لكن هناك ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النمل] جاءت بعد نقمة وعذاب وأخْذ للمكذِّبين . قالوا[2] : الخطاب هنا مُوجَّه لرسول الله ﷺ ، وفيه إشارة إلى أن جُنْد الله هم الغالبون ، وأن العاقبة لهم ليطمئن رسول الله ، كما أن تطهير الكون من المفسدين فيه ، وحين تستريح منهم البلاد والعباد ، هذه نعمة تستوجب ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النمل]

وفى إهلاك الكافرين والمكذِّبين عبرة ودرسٌ لغيرهم ، حتى لا يتورطوا فى أسباب الهلاك ، وهذه نعمة أخرى تستحق الحمد .

لذلك أمرنا ربنا - تبارك وتعالى - أن نحمده إنْ رأينا خيراً نزل

(١) سوَّم الشىء : علَّمه بعلامة . والسُّومة : العلامة والسيمة والسِّيماء بكسر السين : العلامة . [القاموس القويم ١/٣٣٧] .

(٢) قاله ابن عباس ، وسفيان الثورى فيما نقله عنهما السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٧٠) وقال النحاس : هذا أوْلَى ، لأن القرآن مُنزَّل على النبى ﷺ ، وكل ما فيه فهو مخاطب به عليه السلام إلا ما لا يصح معناه إلا لغيره . [نقله القرطبى فى تفسيره ٧/٥١٠٣] .

بالأخيار ، أو شراً حلَّ بالأشرار . فالمعنى ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٥٩)﴾ [النمل] أن الرسل انتصروا وغلبوا ، وأن المفسدين انهزموا واندحروا .

ألاَ ترى قَوْلَ أهل الجنة : ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ[1] مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ .. (٧٤)﴾ [الزمر]

كذلك حين نرى الشرير الذى شاع شرُّه وكثُرَ فساده حين ينزل به ما يستحق من عقاب الله نقول جميعاً ساعة نسمع خبره : الحمد لله ، هكذا بعملية لا شعورية عند الجميع أنْ تلهج ألسنتُهم بالحمد عند نزول النعمة على أصحابها ، والنقمة على مَنْ يستحقها .

ويقول تعالى عن أهل الشر والفساد : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)﴾ [الأنعام]

فبعد أنْ قطع الله دابر الظالمين قال : الحمد لله رب العالمين ، ونلحظ هنا الفرق بين فتح لك ، وفتح عليك ؛ فتح لك يعنى : فتح فى صالحك ، ومنه : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١)﴾ [الفتح]

أما فتح عليهم يعنى : بالسوء نكايةً فيهم ، فمعنى ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ .. (٤٤)﴾ [الأنعام]

أعطاهم الخير ليهلكهم به ، وهم فى حال نعمة ومكانة ، حتى إذا أخذهم الله كان أَخْذه أليماً شديداً .

---

(١) بوأه : أسكنه ، وبوأه فى الأرض : مكَّن له فيها . وتبوأت المنزل : اتخذته سكناً . [القاموس القويم ١/٨٨] .

وفي قصة نوح عليه السلام : ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨)﴾ [المؤمنون]

فحَمْد الله هنا على أمرين : الحمد لله لأنه أغرق الكافرين الظالمين وخلَّصنا منهم ، والحمد لله لأنه نجَّى المؤمنين .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ .. (٥٩)﴾ [النمل] وهم المؤمنون الذين نصرهم الله ، وجعل العاقبة لهم ، والسلام عليهم بعدما لاقوه من عَنَت الكفار وعنادهم ، فالحمد لله الذى أهلك المفسدين ، وأتى بالسلام على المهتدين .

ثم يطرح الحق سبحانه قضية ، ويأتى بها فى صورة سؤال واستفهام ؛ لتكون أبلغ فى النفس من مجرد الإخبار بها : ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾ [النمل]

ولو أن الآية قالت : قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى لأن الله خير وما يشركون به شرٌّ لكان الكلامُ خبراً ، والخبر فى ذاته وبصرف النظر عن قائله يحتمل الصدق أو الكذب .

أمَّا حين تُعرض هذه القضية فى صورة الاستفهام ، فقد جعلتَ مخاطبك هو الذى ينطق بها ، كما لو أنكر أحد الأصدقاء جميلك وأياديك عليه ، فبدل أن تخبر أنت : فعلتُ لك كذا وكذا تدَعْه هو الذى يُخبر فتقول : ألم أفعل لك كذا وكذا ؟ ولا يقول هذا إلا واثقٌ ومعتقدٌ أن الإجابة ستكون فى صالحه .

فالمعنى : ﴿آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩)﴾ [النمل] قولوا لنا أنتم ونحن نرتضى حكمكم بعدما رأيتُم وسمعتم من هذه القصة : آالله خير أم الذين أشركوا به خير ؟ ولابد أن تأتى الإجابة : الله خير ؛ لذلك

لما نزلت هذه الآية انفعل لها رسول الله ﷺ وأسرع بالجواب : « بل الله خير وأبقى وأجلُّ وأكرم »(١) .

مما يدل على أن الانفعال بالقرآن واجب ونقصد الانفعال بمعانيه ، لا الانفعال بالصوت والنغمات كالذى نسمعه من هؤلاء (الذكّيرة) الذين يُشجِّعون المقرئين بالصياح والضجيج الذى لا يتناسب وجلال الآيات ، وهم مع ذلك لا يفهمون المعانى ولا يتأثرون بها ، لدرجة أن منهم مَنْ يسمع آيات العذاب فيقول بأعلى صوته : اللهم زِدْنا .

وقد كان الكتبة من الصحابة ينفعلون بالآيات معنىً ، حتى إن أحدهم ليكمل الآية ويختمها بما يناسبها قبل أن تُملَى عليه ، لماذا ؟ لأنهم فهموا عن الله وتأثروا بالمعنى ، مما يدل على أن القرآن جاء موافقاً للفطرة السليمة ، ومن هذا التوافق قول أحد الصحابة(٢) ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[المؤمنون] فنزل بها القرآن كما قالها .

والنبى ﷺ يقول عن سورة الرحمن « لقد قرأتُ سورة الرحمن على إخوانكم الجن ، فكانوا أحسن استجابة منكم ، فكانوا كلما قلت ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرحمن]

قالوا : لا بشىء من نعمائك ربنا نكذب فلكَ الحمد(٣).

إذن : حين نسمع كلام الله علينا أن ننفعل به ، وأنْ نتجاوبَ معه

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٧/٥١٠٥) أن النبى ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية يقول : « بل الله خير وأبقى ، وأجل وأكرم » ، وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٧٠) وعزاه لعبد بن حميد عن قتادة « أنه كان إذا قرأ » ولم يذكر رفعه للنبى ﷺ .

(٢) هو : عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قال : وافقت ربى ووافقنى فى أربع ، نزلت هذه الآية ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [المؤمنون] ، قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين ، فنزلت ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون] ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٤١) وعزاه لابن أبى حاتم .

(٣) أورده السيوطى فى « الدر المنثور » (٧/٦٩٠) وعزاه للترمذى وابن المنذر وأبى الشيخ فى العظمة والحاكم وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

تجاوباً واعياً ، فعند آية التسبيح نُسبِّح ، وعند آية الحمد نحمد الله ، وعند آية الدعاء نقول : آمين ، هذه مواجيد انفعالية لسماع القرآن والتجاوب معه ، لا أنْ نسمعه أو نهذه كهذ[1] الشِّعْر . .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

﴿ أَمَّنْ . . ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] هذا استفهام آخر ، وكان الحق - تبارك وتعالى - بعد أن كتب الهزيمة على الكافرين والنصر للمؤمنين أراد أنْ يُربِّب فى النفس الإيمان بالله ، وأن تأخذ من نصر الله تعالى للمؤمنين خميرة إيمانية ، ومواجيد جديدة تظل شحنة قوية تدفعهم بحيث يكونون هم أنفسهم على استعداد للتصدى لأعداء الدعوة والمناهضين لها .

يقول سبحانه :

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ . . ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل]

إذن : المسألة لا تقف عند معركة انتصر فيها المؤمنون على الكافرين ، فهناك فى خلق الله ما هو أعظم من ذلك ، فلو سألتهم : مَنْ خلق السموات والأرض يقولون : الله ولئن سألتهم : مَنْ خلقهم يقولون : الله ، فهذه مسائل لا يستطيعون إنكارها ، فكأن الحق -

(١) الهذ (بالذال) : سرعة القراءة . وفى حديث ابن عباس قال له رجل : قرأت المفصَّل الليلة، فقال : أهذاً كهذ الشعر ؟ أراد أتهذ القرآن هذاً فتسرع فيه كما تسرع فى قراءة الشعر . [لسان العرب - مادة : هذذ] .

تبارك وتعالى - يقول لهم : آلله الذى خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء .. أم ما تشركون ؟

وما دام أن الله تعالى ادَّعى مسألة الخَلْق لنفسه سبحانه ، ولم يَقُمْ لهذه الدعوى منازع ، فقد ثبتتْ له سبحانه إلى أنْ يدَّعيها غيره ﴿ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النمل] فإنْ كان هناك إله آخر خلق الخَلْق فأين هو : إما أنه لم يَدْرِ بهذه الدعوى ، أو دَرَى بها وجَبُن عن المواجهة ، وفى كلتا الحالتين لا يصلح إلهاً ، وإلا فليأتِ هو الآخر بخَلْق ومعجزات أعظم مما رأينا .

فإذا قال الله تعالى أنا الله ، ولا إله غيرى ، والخَلْق كله بسمائه وأرضه صنعتى ، ولم يوجد معارض ، فقد ثبتت له القضية ؛ لذلك يقول سبحانه :
﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ ..﴿١٨﴾ ﴾ [آل عمران]

فقضية الوحدانية شهد الله أولاً بها لنفسه ، ثم شهد بها الملائكة وأولو العلم من الخَلْق .

ويقول سبحانه فى تأكيد هذا المعنى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لاَّبْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : لاجتمع هؤلاء الآلهة ، وثاروا على الإله الذى أخذ منهم مُلْكهم ، وادعاه لنفسه ، أو لذهبوا إليه ليتقرَّبوا منه ويتودَّدوا إليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴿٦٠﴾ ﴾[النمل] السماء : كلُّ ما علاك فأظلَّك ، والماء معروف أنه ينزل من السحاب وهو مما علانا ، أو أن الإنزال يعنى إرادة الكون ، وإرادة الكون فى كل كائن تكون من السماء ، ألاَ ترى قوله تعالى :﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

وقوله تعالى:﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ..﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد] ومعلوم أن الحديد يأتى من الأرض ، لكن إرادة كونه تأتى من السماء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ..(٦٠) ﴾[النمل] للماء فوائد كثيرة فى حياتنا ، بل هو قِوَام الحياة ؛ لذلك اقتصرتْ الآية على ذكْر الحدائق ؛ لأنها قوام حياة الإنسان فى الأكل والشرب .

فإنْ قُلْتَ : نحن نعتبر الآن الحدائق الجميلة من باب الكماليات ، وليس بها مُقوِّمات حياتنا . نقول : نعم هى كذلك الآن ، لكن فى الماضى كانوا يسمون كل أرض زراعية محوطة بسور : حديقة ، أو حائط .

وقال ﴿ ذَاتَ بَهْجَةٍ .. (٦٠) ﴾ [النمل] مع أنك لو نظرتَ إلى القمح مثلاً وهو عَصَب القوت لوجدته أقل جمالاً من الورد والياسمين والفُل مثلاً ، وكأن ربك - عز وجل - يقول لك : لقد تكفلتُ لك بالكماليات وبالجماليات ، فمن باب أَوْلَى أوفر لك الضروريات .

والحق - تبارك وتعالى - يريد أن يرتقى بذوْق عباده وبمشاعرهم ، واقرأ مثلاً قوله تعالى :﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ[1] ..(٩٩) ﴾ [الأنعام] يعنى : قبل أن تأكل من هذه الثمار تأمل فى جمالها ومنظرها البديع ، وكأنها دعوة للرقى بالذوق العام والتأمل فى بديع صُنْع الله .

ألاَ ترى أن الله تعالى أباح لك النظر إلى كل الثمار لتشاهد جمالها ، ولم يُبِحْ لك الأكل إلاّ مما تملك ؟ لذلك قال : ﴿ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ ..(٩٩) ﴾ [الأنعام] فإنْ لم تكونوا تملكونه ، فكفاكم التمتُّع بالنظر إليه .

ومن هذا الارتقاء الجمالي قوله تعالي بعد أنْ حدَّثنا عن الضروريات فى الأنعام :﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(٦) ﴾ [النحل]

(١) أينع الثمر يينع : أدرك ونضج وحان قطافه . [القاموس القويم ٢/٣٧٣] .

وقال :﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ..(٨) ﴾ [النحل]

فأعطانا ربنا - عز وجل - ضروريات الحياة ، وأعطانا كمالياتها وجمالياتها . وتأمل دقة الأسلوب في ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ..(٦٠) ﴾ [النمل] فالضمير فى ﴿ خَلَقَ ﴾ ضمير الغائب (هو) يعود على الله عز وجل ، وكذلك فى (وَأَنزَلَ) اما فى (فَأَنبَتْنَا) فقد عدل عن ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم (نحن) الدال على التعظيم ، فلماذا ؟

قالوا : لأن نعمَ الله فيها أشياء لا دخْل للإنسان فيها كالخَلْق وإنزال المطر ، ومثل هذه المسائل لا شبهةَ لاشتراك الإنسان فيها ، وهناك أشياء للإنسان دَخْلٌ فيها كالزرع والإنبات ، فهو الذى يحرث ويزرع ويسقى .. الخ مما يُوحِى بأن الإنسان هو الذى يُنبت النبات ، فأراد سبحانه أنْ يُزيل هذا التوهم ، فنسب الإنبات صراحة إليه - عز وجل - ليزيل هذه الشبهة .

وربك - سبحانه وتعالى - يحترم فعْلك ، ويذكر لك سَعْيك ، فيقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة] نعم لك عمل وسعى فى هذه المسألة ، لكنك استخدمتَ الأرض المخلوقة لله ، وآلة الحديد المخلوقة لله ، والبذور المخلوقة لله ، والماء المخلوق لله ، أما مسألة الإنبات نفسها فلا دَخْلَ لك بها ، فلا تَقُلْ زرعت ؛ لأننا نحن الزارعون حقيقة ، لكن قُلْ : حرثتُ وسقيتُ .

لذلك تجد الرد فى آخر الآية نافياً لأىِّ شبهة فى أن لك دَخْلاً فى مسألة الزرع :﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] وأكّد الفعل بلام التوكيد لينفى هذه الشبهة .

على خلاف الكلام عن الماء ، حيث لا شبهة لك فيه ، فيأتى نفس الفعل ، لكن بدون لام التوكيد :﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ

أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا[1] فَلَوْلا تَشْكُرُونَ (٧٠) ﴾ [الواقعة]

ومعنى :﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾ [النمل] العدل معلوم أنه صفة مدح فساعة تسمع ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾ [النمل] قد تظن أنها صفة طيبة فيهم ، لكن لابدَّ فى مثل هذا اللفظ من تدقيق ؛ لأنه يحمل معانى كثيرة . نقول : عدلَ فى كذا يعنى : أنصف ، وعدل إلى كذا يعنى : مال إليه ، وعدل عن كذا : يعنى : تركه وانصرف عنه ، وعدل بكذا ، يعنى : سوَّى .

فالمعنى هنا ﴿ يَعْدِلُونَ (٦٠) ﴾ [النمل] عنه ، ويا ليتهم يعدلون عنه فحسب ، إنما يعدلون عنه إلى غيره ، ويسوّون به غيره ، كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١) ﴾ [الأنعام]

أى : يسوُّونه سبحانه بغيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) ﴾

لما تكلم الحق سبحانه فى الآية السابقة عن السموات والأرض أتى بأشياء مشتركة بينهما ، فالسماء ينزل منها الماء ، والأرض تستقبل الماء ، وتنبت لنا الحدائق ذات البهجة .

---

(١) الأجاج : الملح الشديد الملوحة . أج الماء يؤج : اشتدت ملوحته . [القاموس القويم ١/٧] .

أما فى هذه الآية ، فالكلام عن الأرض ، لذلك ذكر لنا مسائل من خصوصيات الأرض ، ﴿ أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النمل] معنى : قراراً أى استقراراً ، حيث خلقها سبحانه على هيئة مريحة تصلح لأنْ يستقرَّ عليها الإنسان .

﴿ وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ﴿٦١﴾ ﴾ [النمل]. الماء ينزل من السماء وينتفع به مَنْ سقط عليه مباشرة ، أما ما ينزل على الجبال فيتجمع فى الوديان وتُصنع له السدود لينتفع الناس به عند القحط ، ومن ماء المطر ما ينساب فى مَجَارٍ تُسمَّى الأنهار .

وتستطيع أنْ تُفرِّق بين النهر والقناة الصناعية ، فالنهر ينساب الماء فيه من أعالى الجبال ، ومن أماكن متفرقة تتتبع المنخفضات والسهل من الأرض الذى يستطيع الماء أنْ يشقَّ مجراه فيه فتراه ملتوياً متعرجاً ، يدور حول الجبال أو الصخور ليشقَّ مجراه .

أما القناة الصناعية ، فتراها على هيئة الاستقامة ، إلا إذا اعترض طريق حفرها مثلاً أحد أصحاب النفوذ ، فيحملهم على تغيير المسار والانحراف به ليتفادى المرور بأرضه .

وتستطيع أنْ تلاحظ هذه الظاهرة إذا تبولْتَ فى أرض رملية ونظرتَ إلى مجرى البول ، فتراه يسير متعرجاً حسب طبيعة الأرض التى يمرُّ بها .

﴿ وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النمل] الرواسى : هى الجبال الثابتة الراسية ، وفى موضع آخر بيَّن سبحانه الحكمة من هذه الجبال فقال : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴿١٥﴾ ﴾ [النحل]

فالحكمة من خَلْق الجبال تثبيت الأرض حتى لا تضطرب ،

ولو أنها خُلِقَتْ على هيئة الثبات والاستقرار لما احتاجتْ إلى الجبال ، إذن : هى مخلوقة على هيئة الحركة ، ولا بُدَّ لها من مُثقِّلات .

ولا تقتصر الحكمة من خَلْق الجبال على تثبيت الأرض ، إنما لها مهمة أخرى فى قوله تعالى : ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ(٣٣)﴾ [النازعات]

فكيف تكون الجبال متاعاً للإنسان وللحيوان ؟

نعم ، هى متاع ؛ لأنها مخزن مياه ، حينما ينقطع المطر نجد المياه التى تساقطت على الجبال ، إما فى الأنهار ، وإما فى الشلالات ، وخلف السدود بين الوديان ، أو فى العيون والآبار مما امتصته الأرض .

وكما أن الجبال هى مخازن للمياه ، هى أيضاً مخازن للخصوبة التى تمدُّ الأرض الزراعية عاماً بعد عام بقدر ، بحيث تستمر خصوبة الأرض ، وسبق أنْ تكلمنا عن ظاهرة التعرية التى تُفتِّت الطبقة العليا من الصخور ، فتنزل إلى الوديان مع ماء المطر ، وتختلط بالتربة الزراعية فتزيد من خصوبتها .

ولولا صلابة الجبال وتماسك صخورها لتفتتتْ فى عدة سنوات ، ولفقدنا مصدر الخصوبة بعد ذلك ، فهذه الظاهرة من علامات رحمة الله بخَلْقه ؛ لأنها تتناسب مع الزيادة السكانية بحيث كلما زاد السكان زادتْ الرقعة الخصبة الصالحة للزراعة .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك حين تتأمل وضع الجبال مع الوديان تجد أن الجبل مُثلث قاعدته إلى أسفل ، وقمته إلى أعلى ، أما الوديان فعلى عكس الجبال ، فهى مثلث قاعدته إلى أعلى وقمته إلى أسفل ، وهكذا

نرى أن كل زيادة من طَمْى الجبل والغرْين[1] الذى يتفتت منه يزيد فى مساحة الوادى ، فتزداد الرقعة الخصبة كل عام مع زيادة السكان .

لذلك يقول تعالى عن الجبال : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. ﴿١٠﴾﴾ [فصلت]

فجعل الجبال الرواسى هى مخازن القوت من طعام وشراب ، ولك أن تتأمل نيل مصر وواديه ، كيف تكوَّن من الطمى الذى حملتْه المياه من أعالى الجبال فى إفريقيا ، ليُكَوِّن هذه المنطقة الخِصْبة فى مصر .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ﴿٦١﴾﴾ [النمل]

البحرين : أى العَذْب والمالح لأن الماء : منه العَذْب ، ومنه المالح ، ومن قدرته تعالى وحكمته أنْ يحجز بينهما ، وإنْ كان الماء المالح هو مصدر الماء العَذْب ، لذلك جعل الله تعالى مساحة السطح للماء المالح ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وكلما اتسع سطح الماء اتسع البَخْر الذى يكوِّن السحاب ، بحيث يسقط المطر الكافى لمعيشة أهل الأرض .

وما أجملَ قول الشاعر المادح :

أهدى لمجلسه الكريم وإنَّما ... أهدى لَهُ مَا حُزْتَ مَن نَعْمائه
كَالبَحْرِ يُمطِرهُ السَّحابُ ومَا لَهُ ... فَضْلٌ عليْه لأنَّه مِنْ مَائه

ولكى تعلم فضل الله علينا فى إنزال المطر وتوفير الماء العَذْب ،

---

(١) الغرين : الطين الذى يحمله السيل فيبقى على وجه الأرض رطباً أو يابساً . وقال الأصمعى : الغرين أن يجىء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جَفَّ رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب ـ مادة : غرن] .

انظر إلى التكلفة والمشقة التى تعانيها لتقطير عدة سنتيمترات من الماء ، فى حين أنك لا تدرى بعملية التقطير الواسعة التى تسقى البلاد والعباد فى كل أنحاء الدنيا .

وقد مثَّلْنا لمسألة اتساع رقعة البَحْر بكوب الماء إذا أرقْتَه على الأرض ، فإنه يجفُّ فى عدة دقائق ، أمَّا لو تركت الماء فى الكوب لعدة أيام ، فإنه لا ينقص منه إلا القليل .

ومن الماء العَذْب ما سلكه الله تعالى ينابيع فى الأرض ليخرجه الإنسان إذا أعوزه الماء على السطح ، أو سلكه ينابيع فى الأرض بمعنى أن يسير العَذْب بجوار المالح ، لا يختلط أحدهما بالآخر مع ما عُرِف عن الماء من خاصية الاستطراق .

وهذه من عجائب قدرة الله الخالق ، فمنْ قَعْر البحر المالح تخرج عيون الماء العَذْب ؛ لأن لكل منهما طريقاً ومسلكاً وشعيرات يسير فيها بحيث لا يبغى أحدهما على الآخر ، كما قال تعالى :

﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ [الرحمن]

وكما أن الماء العَذْب يتسرب إلى باطن الأرض ليكوِّن الآبار والعيون ، فكذلك الماء المالح يتسرب فى باطن الأرض ليكوِّن من تفاعلاته الأحجار الكريمة ، كالمرمر ، والمعادن كالحديد والمنجنيز والجرانيت .. الخ

وبعد أن ذكر لنا هذه الآيات الخاصة بالأرض جاء بهذا الاستفهام ﴿أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. ﴿٦٠﴾﴾ [النمل] يعنى خلق هذه الأشياء ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ .. ﴿٦١﴾﴾ [النمل] والذين لا يعلمون أعلمناهم ، وقطعنا حُجَّتهم بعدم العلم .

ولو نظرنا إلى الأرض لوجدنا فيها آيات أخرى غير أنها مُستقرٌ وسكَنٌ ، فالأرض كثيفة ، وفيها غبرة ليست صافية البياض ؛ ذلك لأن الله تعالى يريد لها أنْ تستقبل حرارة الشمس وضوءها ليستفيد منها النبات ، ولو أن الأرض كانت شفافة تعكس الضوء والحرارة لما استفاد منها النبات ؛ لذلك نجد بعض المشروعات تنمو فى الصيف ، وأخرى فى الشتاء .

ولما أجرَوْا بعض التجارب على النبات ، فوضعوه فى مكان مظلم ، ثم جعلوا ثُقْباً فى ناحية بحيث يدخل الضوء وجدوا أن النَّبْتة بما أودع الخالق فيها من غريزة تتجه ناحية الضوء لتأخذ حظها من النور والدفء ، فسبحان الذى خلق فسوّى ، والذى قدّر فهدى .

ومن آيات الله فى خَلْق الأرض أنْ جعلها على هيئة الحركة والدوران ، لتأخذ كل مناطقها حظها من الحرارة ومن البرودة ، ويتنوع فيها المناخ بين صيف وشتاء ، وخريف وربيع ، إنها أدوار تتطلبها مُقوِّمات الحياة .

لذلك تجد علماء النبات يُقسِّمون المناطق الزراعية على الأرض يقولون : هذا حزام القمح مثلاً ، وهذا حزام الموز ، وهذا حزام البطاطس ، فتجد كل حزام منها يصلح لنوع خاص من المزروعات يناسب سكان هذه المنطقة وبيئتها وجوّها .

لذلك نجد أن كل نوع من المزروعات فى مكانه المناسب لا تصيبه الآفات ، أمّا حين يُنقل إلى مكان غير مكانه ، وبيئة غير بيئته لا بُدَّ أنْ يُصاب .

وفى الأرض خاصية أخرى تتعلق بالإنسان تعلقاً مباشراً ، فمن خصائص الأرض وهى من الطين الذى خُلِق منه الإنسان ، فهى فى

الحقيقة أمه الأولى - فإذا مات لا يسعه إلا أحضان أمه حين يتخلى عنه أقرب الناس إليه ، والصق الناس به ، عندها تستقبله الأم وتحتويه وتستر عليه كُلَّ ما يسوؤه .

ومن خصائص الأرض أنها تمتص فضلات الإنسان والحيوان ومخلّفاته وتُحوِّلها بقدرة الله إلى مُخصِّب تزدهر به المزروعات ، ويزيد به المحصول ، وفى الريف يحملون رَوْثَ الحيوانات ذا الرائحة الكريهة إلى الحقول ، فإذا به ينبت فيه الوردة الجميلة الذكية التى يتشوّق الإنسان لرائحتها .

إنها عجائب فى الخَلْق ، لا يقدر عليها إلا الله عز وجل ، أتذكرون المثل الذى يقول : (فلان يعمل من الفسيخ شربات) هكذا قدرة الله التى تخلق الأضداد .

ألاَ ترون أن أفضل الفاكهة نأكلها الآن من الجبل الأصفر بمصر وهى تُرْوى بماء المجارى .

وبعد أنْ حدَّثنا الحق - تبارك وتعالى - عن هذه المظاهر العامة التى يحتاجها كل الخلق فى السماء والأرض والجبال والمطر .. الخ يُحدِّثنا سبحانه عن مسائل خاصة يحتاجها إنسان دون آخر ، وفى وقت دون آخر ، فيقول سبحانه :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ (١) إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (٦٢) ﴾

(يجيب) الإجابة هى تحقيق المطلوب لداعيه ، والمضطر : هو

(١) قال ابن عباس : هو ذو الضرورة المجهود . وقال السدى : الذى لا حول له ولا قوة . وقال ذو النون : هو الذى قطع العلائق عما دون الله . [ذكرها القرطبى فى تفسيره (٧ / ٥١٠٧)] .

الذى استنفد الأسباب ، وأخذ بها فلم تُجْد معه ، فليس أمامه إلا أنْ يترك الأسباب إلى المسبِّب سبحانه فيلجأ إليه ؛ ذلك لأن الخالق - عز وجل - قبل أنْ يخلق الإنسان خلق له مُقوِّمات حياته وضرورياتها وسخَّرها لخدمته .

لذلك جاء فى الحديث القدسى : « يا ابن آدم خلقت الأشياء كلها من أجلك ، وخلقتك من أجلى فلا تنشغل بما هو لك عما أنت له »

ثم خلق الله لك الطاقة التى تستطيع أن تُسخِّر بها هذه الأشياء وضمن لك القوت الضرورى من ماء ونبات ، فإنْ أردتَ أنْ تُرفِّه حياتك فتحرك فى الحياة بالأسباب المخلوقة لله ، وبالطاقة الفاعلة فيك ، وفكِّر كيف ترتقى وتُثرِى حركة الحياة من حولك .

فالماء الذى ينساب فى داخل البيت حين تفتح الصنبور ، والضوء الذى ينبعث بمجرد أن تضغط على زر الكهرباء ، والسيارة التى تنقلك فى بضع دقائق .. كلها ارتقاءات فى حركة حياة الناس لما أعملوا عقولهم فيما أعطاهم الله من مادة وعقل وفكر وأسباب ، وهذه كلها يد الله الممدودة لعباده ، والتى لا ينبغى لنا ردّها .

فإذا ما حاولتَ ولم تفلح ، ولم تثمر معك الأسباب ، فعليك أنْ تلجأ مباشرة إلى المسبِّب سبحانه ، لأنه خالقك والمتكفِّل بك .

واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا.. (١٢) ﴾ [يونس] ويا ليته ساعةَ دعا ربه ولجأ إليه فاستجاب له يجعل له عند ربه رَجْعة ، ويتوقع أنْ يصيبه الضُّر مرة أخرى ؛ لكن إنْ كشف الله عنه سرعان ما يعود كما كان .

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢) ﴾ [يونس]

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل] فالمضطر إذن لابدَّ أنْ يُجيبه الله ، فمَنْ قال : دعوتُ فلم يُستجب لى . فاعلم أنه غير مضطر ، فليست كل ضائقة تمرُّ بالعبد تُعَدُّ من قبيل الاضطرار ، كالذى يدعو الله أن يسكن فى مسكن أفضل مما هو فيه ، أو براتب ودَخْل أوفر مما يأخذه .. الخ ، كلها مسائل لا اضطرارَ فيها ، وربما علم الله أنها الأفضل لك ، ولو زادك عن هذا القدر طغيتَ وتكبرتَ .

كما قال الحق سبحانه وتعالى :﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق]

فلقد طلبتَ الخير من وجهة نظرك ، وربُّك يعلم أنه لا خيرَ فيه ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴿١١﴾﴾ [الإسراء]

فربُّك يُصحِّح لك هذا الخطأ فى فهمك للمسائل فيقول لك : سأحقق لك الخير ، لكن بطريقة أخرى أنسب من هذه ، فلو أجبتُك إلى ما تريد لحدث مَا لا تُحمد عقباه ، وكأن الله - عز وجل - وهو ربُّنا والمتولِّى أمرنا يجعل على دعائنا (كنترول) ولو كان الله سبحانه موظفاً يلبى لكل منّا طلبه ما استحق أن يكون إلهاً - حاشا لله .

فالإنسان من طبيعته العجلة والتسرع ، فلا بُدَّ للرب أن يتدخل فى أقدار عبده بما يصلحه ، وأنْ يختار له ما يناسبه ؛ لأنه سبحانه الأعلم بعواقب الأشياء وبوقتها المناسب ، ولكل شىء عنده تعالى موعد وميلاد .

واقرأ قول الله تعالى : ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ..﴿١١﴾﴾ [يونس]

ألاَ ترى بعض الأمهات تحب الواحدة ولدها وتشفق عليه ، فإنْ عصاها فى شىء أو ضايقها تقول رافعةً يديها إلى السماء (إلهى اشرب

نارك) أو (إلهى أعمى ولا أشوفك) فكيف لو أجاب الله هذه الحمقاء ؟

إذن : من رحمته تعالى بنا أنْ يختار لنا ما يُصلحنا من الدعاء ، ويُعافينا من الحمق والعجلة .

وقوله تعالى : ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل] فكما أنه لا يجيب المضطر إلا الله لا يكشف السوء إلا الله ، ولو كان هناك إله آخر يجيب المضطر ويكشف السوء لتوجَّه الناسُ إليه بالدعاء ، لكن حينما يُصاب المرء لا يقول إلا يا رب ، ولا يجد غير الله يلجأ إليه لأنه لن يغشَّ نفسه فى حال الضائقة أو المصيبة التى ألمت به .

وقد مثَّلنا لذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ بحلاق الصحة فى الماضى ، وكان يقوم بعمل الطبيب الآن ، فلما أنشئت كلية الطب وتخرَّج فيها أحد أبناء القرية اتجهتْ الأنظار إليه ، فكان الحلاق يذمُّ فى الطب والأطباء ، وأنهم لا خبرةَ لديهم لتبقى له مكانته بين أهل القرية ، لكن لما مرض ابن الحلاق ماذا فعل ؟ إنْ غشَّ الناس فلن يغشَّ نفسه : أخذ الولد فى ظلام الليل ولفَّه فى البطانية ، وذهب به إلى (الدكتور) الجديد .

لذلك يقول كل مضطر وكل مَنْ أصابه سوء : يا رب يا رب حتى غير المؤمن لا بُدَّ أن يقولها ، ولا بُدَّ أنْ يتجه بعينه وقلبه إلى السماء إلى الإله الحق ، فالوقت جِدٌّ لا مساومة فيه .

ويقول تعالى بعدها : ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ .. ﴿٦٢﴾﴾ [النمل] أى : يخلفُ بعضكم بعضاً فيها ، كما قال : ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ﴿٥٥﴾﴾ [النور]

فهل يملك هذه المسائل إلا الله : ﴿أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل] والاستفهام هنا ينكر وجودَ إله غير الله يفعل هذا ﴿قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل] يعنى : لو تفكرتُم وتذكرتُم لعرفتم أنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

هذه أيضاً من الأمور الخاصة التى تخصُّ بعض الناس دون بعض ، وكانت قبل تقدُّم العلم ، حيث كانت النجوم هى العلامات التى يهتدى بها الملاحون فى البحر والمسافرون فى البر ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل]

وقد برع فى علوم الفلك والنجوم وفى علوم البحار علماء من العرب وضَعُوا أسساً لهذه العلوم ، لا عن علم عندهم ، إنما عن مشاهدة لظواهر الكون ، وتوفيق وهداية من الله عز وجل .

وحين نتأمل ارتقاءات الإنسان فى الحياة نجد أنها نتيجة مشاهدة حدثتْ صدفة ، أو حتى بطريق الخطأ ، وإلا فكيف اهتدى الإنسان إلى تخمير العجين ليخرج الخبز على هذه الصورة وبهذا الطعم ؟ لذلك يُسمُّون العجين : فطير وهو المبلط الذى لم يتخمر ، وخمير وهو الذى تخمَّر وارتفع قليلاً وتخلَّله الهواء .

وقد نقلوا هذا المعنى للرأى ، يقولون : فلان رأيه فطير يعنى : سطحى متعجل ، وفكرة مختمرة يعنى : مدروسة بتأنٍّ ، ومنه الفِطْرة يعنى الشىء حين يكون على طبيعته .

وربما اكتشفتْ إحدى النساء مسألة الخمير هذه نتيجة خطأ أو مصادفة حين عجنتْ العجين ، وتأخرت فى خَبْزه حتى خمر ، فلما

خبزته جاء على هذه الصـورة المحببة إلينا ، كذلك الأمـر فى اكتشاف البنسلين مثلاً ، والغواصات والبخار والعجلة .. الخ

وتأمل مـثـلاً : لمـاذا نطبخ الملـوخيـة ولا نطـبخ النعناع ، إنهـا - إذن - هداية الله الذى خلق فسوَّى ، والذى قدَّر فهدى .

الحديد تعلمنا طَرْقه بعد إدخـاله النار ليلين ؛ لأن الله تعالى علمها لنبيه داود عليه السلام حين قال ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ⑩﴾ [سبأ]

إذن : كـثيـر من اكتـشافـات الكون وارتقاءاته تأتى بهـداية الله ، وكلما مـرَّ الزمن تكشفتْ لنا أسرار الكون ، كـلٌ فى ميعاده ومـيلاده الذى أراده الله ، إما أنْ يستنبطه الناس بمقدمات إذا جاء ميلاده ، وإلا فيأتى ولو مصادفة .

واقرأ إن شئت قوله تعالى :﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ .. ﴿٢٥٥﴾ [البقرة] فـحين يشـاء الله يكشف لك الأشيـاء ، ويُيسـر لك أسبابهـا ، فإذا لم تنتبه لهـا أراكها مصادفـة ، ومن وسائل إعلام الله لخلْقه مـثلاً أهل البوادى ، ترى الواحـد منهم متكئًا ينظر إلى السـماء ويقول لك : السمـاء ستمطر بعد كم من الساعـات ، وليس فى السماء سحاب ولا غَيْمٌ يدل على المطر ، لكنه عرفها بالاستقراء والتجربة .

ومن هذه الهـداية الإلهيـة أن ترى البهائـم العجمـاوات وهى تأكل بالغريزة ، تأكل الحـشيش الجاف ، ولا تأكل مثلاً الـنعناع الأخضر ، أو الريحان مع أن رائحته جميلة ، لماذا ؟

لأنه جُـعِل للرائحـة الطيبـة ، لكن طعـمه غـيـر طيب ، وإذا أكل الحيوان وشبع لا يمكن أن يأكل بـعدها أبدًا على خلاف الإنسان الذى يأكل حـتى التخـمـة ، ثم الحلو والبـارد والساخن ، ويقـولون (أرِهَا

الألوان تريك الأركان) . أى : أرِ معدتك ألوان الطعام وأصنافه ، تريك الأركان الخالية فيها .

لذلك تجد رائحة رَوْث الحيوان أقلّ كراهية من رائحة فضلات الإنسان ؛ لأنها تأكل بالغريزة التى خلقها الله فيها ، ونحن نأكل بالشهوة ، وبلا نظام نلتزم به .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا .. (٦٣) ﴾ [النمل] أى : مُبشِّرات بالمطر ﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ .. (٦٣) ﴾ والمطر مظهر من مظاهر رحمة الله ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. (٦٣) ﴾ [النمل] أى : لا إله إلا الله يهديكم فى ظلمات البر والبحر ، ولا إله إلا الله يرسل الرياح تبشركم بالمطر ﴿ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٣) ﴾ [النمل] تنزَّه أن يكون له فى كَوْنه شريك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٦٤) ﴾

مسألة الخَلْق هذه لا يستطيعون إنكارها ، وقد سألهم الله :﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

وفى موضع آخر : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٢٥) ﴾ [لقمان]

لأنهم لا يملكون إنكارها ، وإنْ أنكروها فالردّ جاهز : على مَنْ خلق أولاً أن يُرينا شيئاً جديداً من خَلْقه .

ومعنى ﴿ يَبْدَأُ الْخَلْقَ (٦٤) ﴾ [النمل] يعنى : الخلْق الأول من العدم ﴿ ثُمَّ يُعِيدُهُ (٦٤) ﴾ [النمل] لأن الذى خلقنا من عدم كتب علينا الموت ، وأخبرنا

بالغيب أننا سنُبعث يوم القيامة ، وسيعاد هذا الخَلْق مرة أخرى ، فالذين لم يملكوا إنكار الخلق أنكروا البعث ، فقالوا كما حكى القرآن :
﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ① بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ② أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③ ﴾ [ق]

فاستبعدوا البعث بعد الموت ، وتحلّل الأجساد فى التراب . وهذه القضية خَاضَ فيها الفلاسفة بكلام طويل ، وللردِّ عليهم نقول : أنتم فى القوانين الوضعية تجعلون الثواب لمن أحسن ، والعقوبة لمن قصَّر ، وتُجرِّمون بعض الأعمال بعينها ، وتضعون لها العقوبة المناسبة ، وفى القانون : لا عقوبةَ إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإعلام .

ولم نَرَ فى القانون الوضعى جريمة تُركت بلا عقوبة ، فإذا كان البشر يضعون لمجتمعاتهم هذه القوانين التى تنظم حياتهم ، أليس رب البشر أوْلَى بقانون الثواب والعقاب ؟ وإذا كنتَ لا ترضى لنفسك أنْ يفلتَ المجرم من العقاب ، فكيف ترضى ذلك لله ؟

ثم ألا تعلم أن كثيراً من المجرمين يرتكبون جرائمهم فى غفلة من القانون ، أو يُعمُّون على العدالة ويهربون من العقاب ، ويُفلتون من القوانين الوضعية فى الدنيا ، ولو تركنا هؤلاء بلا عقاب أيضاً فى الآخرة فهم إذن الفائزون ، وسوف نشجع بذلك كل منحرف خارج عن القانون .

أما إنْ علم أن له رباً قيوماً عليه ، وإنْ عمَّى على قضاء الأرض فلن يُعمِّى على قضاء السماء ، وإنْ أفلتَ من عقاب الدنيا فلن يُفلتَ أبداً من عقاب الآخرة - إنْ علم ذلك استقام .

لكن ، ما وجه استبعادهم للبعث ﴿ ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ③ ﴾ [ق]

يقولون : هَبْ أن إنساناً مات ودُفن وتحلّل جسده إلى عناصر امتصتها الأرض ، ثم غُرِسَت شجرة في هذا المكان وتغذتْ على هذه العناصر ، وأكل من ثمارها عدة أشخاص ، وانتقلت جزئيات الميت إلى الثمار ثم إلى من أكل منها ، فحين يُبعث الخَلْق يوم القيامة فلأيِّهما تكون هذه الجزئيات : للأول أم للثاني ؟ إذا بعثتها للأول كانت نقصاً في الثاني ، وإنْ بعثتها للثاني كانت نقصاً في الأول .

وهذا الكلام منهم على سبيل أن الشخص مادة فقط ، لكن التشخيصات مادة و معنى . وهَبْ أن شخصاً بديناً يزن مثلاً مائة كيلو أصابه مرض أهزله حتى قَلَّ وزنه إلى خمسين كيلو مثلاً ، ثم عُولج وتحسنت صحته حتى عاد كحالته الأولى . فهل الجزئيات التي نقصت من وزنه هي نفسها التي دخلتْ فيه بالصحة والتغذية ؟ بالطبع لا ، أتغيرتْ شخصيته بهذا النقص ، أو بهذه الزيادة ؟ لا ، بل هو هو .

إذن : للشخص جزئيات مختلفة التكوين ، وله معنى وروح ، ساعةَ تتجمع هذه الأشياء يأتي الشخص المراد .

لذلك يقول تعالى رداً على هؤلاء المتفلسفين : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾ [ق]

فلماذا تستبعدون الإعادة بعد الموت وقد أقررتُم بالخَلْق الأول واعترفتم بأن الله هو الخالق ، وأليست الإعادة من موجود أهونَ من الخَلْق بدايةً من العدم ؟ ثم إن الإعادة تحتاج إلى قدرة على الإبراز وإلى علم .

أما العلم ، فالحق - تبارك وتعالى - يقول : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ

الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ ﴾ [ق] يعنى : يعلم وزنك ، ويعلم جزئياتك ، لا يغيب منها ذرة واحدة[1] .

أما القدرة ، فقد آمنتُم بها حين أقررتُم بقدرته تعالى على الخَلْق من عدم ، والإعادة أهون من الإنشاء الأول ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم]

وإنْ كان الخالق ـ عز وجل ـ لا يُقَال فى حقه هيِّن وأهْون ، لكنها بعُرْفكم أنتم ، وبما يُقرِّب المسألة إلى أذهانكم .

وفى القدرة أيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [ق]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل]

الرزق : كلُّ ما يُنتفع به ، وهو إما من السماء وإما من الأرض ، وإما من التقائهما حين ينزل الماء من السماء ، ويختلط بتربة الأرض فيخرج النبات .

﴿ أَإِلَـٰهٌ مَّعَ اللَّهِ .. ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل] يكرر نفس الاستفهام السابق لتأكيد أنه لا إله إلا الله يأتيكم بهذه النعم .

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [النمل] أى : هاتوا الدليل على وجود إله آخر يقول : أنا الذى بدأتُ الخَلْق ، وأنا الذى أرزق من السماء والأرض ، فإذا لم يأت مَنْ يقول هذا فقد ثبتتْ الدعوة لصاحبها حيث لم يَقُم معارض ـ ودَعْك من مسألة الإعادة هذه ،

---

(١) قال ابن عباس : قوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [ق] : ما تأكل الأرض من لحومهم وأشعارهم وعظامهم . وقال قتادة : يعنى الموتى تأكلهم الأرض إذا ماتوا [الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ٧/٥٩٠] .

يكفى أن يدعى الخَلْق ؛ لأن القادر على الخَلْق قادر على الإعادة ، فلا يستحيل على الذى خلق من عدم أنْ يُعيد من موجود .

لكن ، ما مناسبة الكلام عن الرزق من السماء والأرض بعد مسألة الإعادة ؟ لا بُدَّ أن تكون هناك علاقة بينهما ، فللرزق الذى يأتى عن طريق التقاء ماء السماء بتربة الأرض وهو النبات دورة مثل دورة الإنسان وإعادة كإعادته ، حيث يتغذى الإنسان على نبات الأرض ، ويأخذ منه حاجته من الطاقة والغذاء ، وما تبقى منه يخرج على صورة فضلات تتحلل فى الأرض ، حتى ما تبقَّى منها فى جسم الإنسان يتحلل بعد موته إلى عناصر الأرض .

فالوردة مثلاً بعد نضارتها وطراوتها وجمالها حين تُقطف تجفّ ويتبخر ماؤها ، وكذلك اللون والرائحة فى الأثير الجوى ، وما تبقى منها من مادة جافة تتحلل فى التربة ، فإذا ما زرعنا وردة أخرى ، فإنها تتغذى على ما فى التربة من عناصر ، وما فى الأثير الجوى من لون ورائحة .

إذن : فعناصر التكوين فى الكون لم تَزِدْ ولم تنقص منذ خلق الله الخَلْق ، ولدورة النبات فى الطبيعة بدء ونهاية وإعادة أشبه ما تكون بخَلْق الإنسان ، ثم موته ، ثم إعادته يوم القيامة .

وكأن الحق - تبارك وتعالى - يعطينا الدليل على الإعادة بما نراه من دورة النبات ، دليلاً بما نراه على الغيب الذى لا نراه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

كما قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ .. (٥٩) ﴾ [الأنعام]

والغيب : كلّ ما غاب عن إدراكك وحسك ، لكن مرة يكون الغيب غيباً إضافياً يغيب عنك ، ولا يغيب عن غيرك ، فأنا لا أعرف مثلاً ما في جيوبكم لكن أنتم تعرفون ، والذى سُرق منه شيء وأخفاه السارق ، فالمسروق منه لا يعلم أين هو ، لكن السارق يعلم .

وإما يكون الغيب غيْباً مطلقاً ، وهو ما غاب عنّا جميعاً وهو قسمان : قسم يغيب عنا جميعاً ، لكن قد نكتشفه ككل الاكتشافات التى اهتدى إليها البشر . وهذه يكون لها مقدمات تُوصِّل إليها ، وهذا غيب نصف إضافى ؛ لأنه غيب اليوم ، لكن نراه مشهداً بعد ذلك ، فلا يكون غيباً .

ومثال ذلك : تمرين الهندسة الذى نعطيه للأولاد بمقدِّمات ومعطيات ، يُعملون فيها عقولهم حتى يتوصلوا إلى الحل المطلوب ، وهذا النوع يقول الله عنه : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة]

فإذا شاء الله وجاء ميلاد هذا الغيب أطلعهم الله تعالى على المقدمات التى توصِّل إليه ، إما بالبحث ، وإما حتى مصادفة ، وهذا يؤكده قوله تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

ومن الغيب المطلق غَيْب حقيقى ، لا يطلع عليه ولا يعلمه إلا الله فقد استقل سبحانه وتفرَّد بمعرفته . وهذا الغيب يقول تعالى عنه : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن]

ومن هذا الغيب المطلق قضية القيامة ﴿ قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ.. ﴿٦٥﴾ ﴾ [النمل] فالقيامة لا يعلم وقتها إلا الله سبحانه ، إلا أنه جعل لها مُقدِّمات وعلامات تدلّ عليها وتُنبىء بقُرْبها .

قال عنها : ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [طه] البعض[1] يظن أن ﴿ أُخْفِيهَا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [طه] يعنى : أداريها وأسترها ، لكن المعنى ليس كذلك ﴿ أُخْفِيهَا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [طه] يعنى : أزيل خفاءها[2] ، ففرْق بين خَفَى الشىء وأخفاه : خَفَى الشىء عنى : ستره وداراه ، أما أخفاه فيعنى : أظهره ، وهذه تُسمَّى همزة الإزالة ، مثل : أعجم الشىء يعنى : أزال عُجْمته . ومنه المعجم الذى يُوضِّح معانى المفردات .

وكما تكون الإزالة بالهمزة تكون بالتضعيف . نقول : مرض فلان يعنى : أصابه المرض ، ومرَّض فلاناً يعنى : عالجه وأزال مرضه ، ومنه : قشَّر البرتقالة : يعنى أزال قشرها .

فالمعنى ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا .. ﴿١٥﴾ ﴾ [طه] أى : أكاد أُظهرها ، ألاَ ترى أن للساعة علامات كبرى وعلامات صغرى ، نرى بعضها الآن ، وتتكشف لنا مع الأيام علامة بعد أخرى .

لكن يظل للقيامة وقتها الذى لا يعلمه إلا الله ؛ لذلك يقول عنها : ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الأعراف]

والنبى ﷺ يفتخر بأنه لا يعلم موعدها ، فيقول حين سُئل عنها :

---

(١) قاله ابن عباس فيما رواه عنه ابن أبى حاتم وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٥٦٣) قال : لا أظهر عليها أحداً غيرى .

(٢) أخرج ابن أبى حاتم وابن الأنبارى عن ورقاء قال : أقرأنيها سعيد بن جبير (أَكَادُ أَخْفِيها) [بفتح الألف] . يقول : أظهرها . [الدر المنثور للسيوطى ٥/٥٦٣] .

« ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[1] .

فشَرفٌ لرسول الله ألاَّ يعلم شيئاً استأثر الله بعلمه ، والقيامة غَيْبٌ مطلق لم يُعْطِ الله مفاتحه لأحد حتى الرسل .

وقد يُكرِم الله تعالى بعض خَلْقه ، ويُطلعه على شيء من الغيب ، ومن ذلك الغيبيات التى أخبر بها النبى ﷺ دون أن يكون لها مُقدِّمات توصِّل إليها ، فلا بُدَّ أنها أتته في وحي القرآن ، كما فى قوله تعالى : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ۝٤﴾ [الروم]

وكان الروم أقرب إلى الله ؛ لأنهم أهل كتاب ، وكان الفرس كفاراً يعبدون النار ، لذلك كان رسول الله ﷺ وصحابته يتمنوْن انتصار الروم على الفرس ، فنزل الوحى على رسول الله يخبره ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢﴾ [الروم] لكنهم فى النهاية ﴿سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم] ولولا أن الله تعالى حدد غلبهم ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ۝٤﴾ [الروم] لكان انتصارهم دائماً ، لكن مَنْ يستطيع تحديد مصير معركة بين قوتين عُظْميين بعد بضع سنين إلا الله ؟

ولأن انتصار الروم يُفرِح المؤمنين بالله ، قال سبحانه : ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ .. ۝٥﴾ [الروم]

وتشاء قدرة الله أنْ يأتيَ انتصار الروم على الفرس فى نفس

(١) حديث متفق عليه . أخرجه مسلم فى صحيحه (٨) ، وكذا البخارى فى صحيحه (٥٠) من حديث عمر بن الخطاب أن جبريل عليه السلام جاء رسول الله ﷺ فى صورة رجل يسأله ، ومما سأله قال : « أخبرنى عن الساعة . . قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل . قال : فأخبرنى عن أماراتها قال : أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء ، يتطاولون فى البنيان . ثم قال رسول الله ﷺ لعمر : يا عمر ، أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم » .

اليوم الذى انتصر فيه المؤمنون على الكافرين فى بدر[١] .

ومن الغيب الذى يفيض الله به على عبد من عباده ما حدث من الصِّديق أبى بكر - رضى الله عنه - وقد أعطى ابنته عائشة - رضى الله عنها - مالاً ، فلما حضرتْه الوفاه قال لها : هاتى ما عندك من المال ، إنما هما أخواك وأختاك : أخواك هما محمد وعبد الرحمن ، وأختاك : لا نعلم أن لعائشة أختاً غير أسماء ، فمن هى الأخرى[٢] ؟

كان الصِّديق قد تزوج من ابنة خالته[٣] وكانت حاملاً ، لكن الحق - تبارك وتعالى - تجلى عليه وألهمه أنها ستُنجب بنتاً تنضم إلى عائشة وأسماء[٤] .

وقوله تعالى : ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥)﴾ [النمل] أى : كما

(١) عن أبى سعيد الخدرى قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس ، فأعجب المؤمنون بظهور الروم على فارس . أخرجه الواحدى فى أسباب النزول ص ١٩٧ .

(٢) هى : أم كلثوم بنت أبى بكر الصديق التيمية ، تابعية ، أمها حبيبة بنت خارجة وضعتها بعد موت أبى بكر . روى عنها جابر بن عبد الله الأنصارى . [الإصابة ٨/٢٧٦] .

(٣) هى : حبيبة بنت خارجة بن زيد الخزرجية ، زوج أبى بكر الصديق ووالدة أم كلثوم ابنته التى مات أبو بكر وهى حامل بها فقال : ذو بطن بنت خارجة ما أظنها إلا أنثى فكان كذلك . تزوجت إساف بن عتبة بن عمرو بعد وفاة أبى بكر . انظر الإصابة فى تمييز الصحابة (٨/٤٨) .

(٤) تزوج أبو بكر الصديق عدة نساء :
- أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية ، وأنجب منها : عائشة ، عبد الرحمن . اسمها زينب بنت عبيد : كانت زوجة للحارث بن سخبرة أو لعبد الله بن الحارث وولدت له الطفيل ثم مات عنها وتزوجها حليفه أبو بكر الصديق . ماتت فى حياة النبى ﷺ [الإصابة ٨/٢٣٢] .
- حبيبة بنت خارجة ، وأنجب منها : أم كلثوم ، وتزوجت بعده .
- قتيلة بنت عبد العزى قرشية من بنى عامر بن لؤى ، وهى والدة أسماء ، وعبد الله . قال ابن حجر العسقلانى فى الإصابة (٨/١٦٩) : « إن كانت عاشت إلى الفتح فالظاهر أنها أسلمت » .

أننا لا نشعر بالموت ولا نعرف ميعاده ، كذلك لا نشعر بالبعث ، ولا متى سنُبعث .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾

معنى ﴿ادَّارَكَ .. ﴿٦٦﴾﴾ [النمل] أى : تدارك ، يعنى : توالى وتتابع الحديث عنها عند كل الرسل ، ومنه قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا .. ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف] يعنى : جُمع بعضهم على بعض .

إذن : تتابع الإعلام بالآخرة عند كل رسل الله ، فما منهم إلا وقد دعا إلى الإيمان بالله وباليوم الآخر ، وأتى بالدليل عليه .

ومع متابعة التذكير بالآخرة قال الله عنهم ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا .. ﴿٦٦﴾﴾ [النمل] أى : من الآخرة ، فلماذا ؟ يقول تعالى : ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل] أى : عميتْ أبصارهم وبصائرهم عنها ، فلم يهتدوا ، ولو تفتحتْ عيونهم وقلوبهم لآمنوا بها .

يقول تعالى : ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج]

إذن : هناك شيء موجود بالفعل ، لكنى أغفلته ، أو تغافلت عنه بإرادتى ، فآيات البعث والقيامة موجودة ومُتداركة ، لكن الناس عَمُوا عنها فلم يَرَوْها .

ومعنى ﴿عَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [النمل] جمع عَمٍ ، وهو الذى عميتْ بصيرته عن دلائل القيامة الواضحة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

يريدون أنْ يستدلوا بعدم بعث الآباء على عدم بَعْثهم ، لكن مَنْ قال لهم : إن الآخرة ستأتى مع الدنيا ، وما سُمِّيت الآخرة إلا لأنها تأتى آخراً بعد انقضاء الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾

أى : من لدن آدم - عليه السلام - والناس يموتون والأنبياء تذكر بهذا اليوم الآخر ، لكنه لم يحدث ﴿إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [النمل] أى : كذب وافتراء ونسج خيال كما فى أساطير السابقين ، لكن ما الدافع لهم لأنْ يتهموا الرسل فى بلاغهم عن الله هذا الاتهام ؟

قالوا : لأن نفس المرء عزيزة عليه ، وكل مُسْرف على نفسه فى المعاصى يريد أنْ يُؤمِّن نفسه ، وأنْ يريحها ، وليس له راحة إلا أنْ يقول هذا الكلام كذب ، أو يتمنى أن يكون كذباً ، ولو اعترف بالقيامة وبالبعث والحساب فمصيبته عظيمة ، فليس فى جُعْبته إلا كفر بالله وعصيان لأوامره ، فكيف إذن يعترف بالبعث ؟ فطبيعى أن يؤنس نفسه بتكذيب ما أخبر به الرسول .

لذلك نجد من هؤلاء مَنْ يقول فى القدر : إذا كان الله قد كتب علىَّ المعصية ، فلماذا يُعذِّبنى بها ؟ والمنطق يقتضى أن يكملوا

الصـورة فيقـولون : وإذا كـتب علىَّ الطاعة ، فلمـاذا يثيـبنى عليـها ؟ فلماذا ذكرتُم الشر وأغفلتم الخير ؟

إذن : هؤلاء يريدون المـنفـذ الذى ينجـون منه ويـهـربون به من عاقبة أعمالهم .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾

يدعـوهم الله تعالى إلى الـسيـر فى مناكب الأرض للنظر وللتـأمل لا فـيـمن بُعث ، لأن البـعث لم يأتِ بَـعْـد ، ولكن للنظر فى عـاقـبـة المـجرمـين الذين كذَّبوا رسلهم فـيمـا أتَوا به ، وكيف أن الله هزمـهم ودحرهم وكتب النصر للرسل .

والبعث مما جاء به الرسل ، فمَنْ كذَّب الرسل كذَّب بالبعث مع أنه واقع لا شكَّ فيـه ، لكن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُخفـيه لوقتـه ، كما قال سبحانه : ﴿ لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ .. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [الاعراف]

ثم يُسلِّى الله تعـالى رسـوله ﷺ ليُـخـفِّف عنه ألم مـا يلاقى فى سبيل الدعوة ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وقد خاطب الحق سبحانه رسوله بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

والمعنى : مُهلِك نفسك من الحزن ، والبخع كما قلنا : المبالغة فى

الذبح بحيث توصله إلى البخاع[1] . والحق ـ تبارك وتعالى ـ يوضح أن مهمة الرسول البلاغ عن الله فقط ، ولا عليه آمن مَنْ آمن ، أو كفر مَنْ كفر ، إنما حب النبى ﷺ لأمته وحِرْصه على نجاتها جعلاه يجزن ويألم إنْ شرد منه واحد من أمته ، ألم يقُلْ عنه ربه : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة]

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١)﴾

يقول المكذبون بالبعث ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ .. (٧١)﴾ [النمل] أى : بالبعث ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٧١)﴾ [النمل] فى أن هناك بَعْثاً .

وسمَّوْا إخبار الله لهم بالبعث وَعْداً ، مع أنه فى حقهم وعيد ، وفَرْق بين وَعَد وأوعد : وَعَد للخير وأوعد للشر ، لكن الله تعالى يطمس على ألسنتهم ، وهم أهل الفصاحة فيقولون ﴿مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ .. (٧١)﴾ [النمل] وهو بالنسبة لهم وعيد ، لأن إيعاد المخالف لك بشرٍّ وَعْد لك بخير .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يقول : لقد وعدنا بأمرين : وعدنا رسلنا بالتأييد والنصرة ، ووعدنا العالم كله بالبعث ، فإذا كنا صادقين فى الأولى وهى مُشَاهدة لكم ومُحسَّة فخذوها مقدمة ودليلاً على صدْقنا فى الأخرى ، وقد عاينتُم أن جميع الرسل انتصروا على

---

(١) قال الزمخشرى : هو من بخع الذبيحة إذا بالغ فى ذبحها وهو أن يقطع عظم رقبتها ويبلغ بالذبح البخاع ، بالباء ، وهو العرق الذى فى الصُّلْب ، والنخع ، بالنون ، دون ذلك ، وهو أن يبلغ بالذبيحة النخاع ، وهو الخيط الأبيض الذى يجرى فى الرقبة . قال ابن الأثير : هكذا ذكره الزمخشرى فى الكشاف وفى كتاب الفائق فى غريب الحديث ولم أجده لغيره . [لسان العرب ـ مادة : بخع] .

مُكذِّبيهم ، إما بعذاب الاستئصال ، وإما بعذاب الهزيمة والانكسار .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ۝٧٢ ﴾

كلمة ﴿عَسَىٰ .. ۝٧٢﴾ [النمل] تفيد الرجاء ، لكنها من الله تفيد التحقيق ، فلو قُلْت مثلاً : عسى أن يعطيك فلان ، لكان الرجاء ضعيفاً ، وأقوى منه لو قُلْت : عسى أن أعطيك لأنى لا أملك فلاناً ، لكن أملك نفسى ، وأقوى من ذلك أن أقول : عسى أن يُعطيك الله لأن أسبابى أنا قد لا تمكِّنى من الوفاء ، أما إنْ قال الله تعالى عسى ، فهى قمة التأكيد والتحقيق فى الرجاء ، وهى أعلى مراتبه وأبلغها .

ومعنى ﴿رَدِفَ لَكُم .. ۝٧٢﴾ [النمل] أى : تبعكم وجاء بعدكم من أردفه إذا أركبه خلفه على الدابة ، فهو خلفه مباشرة ، وفعلاً أصابهم ما يستعجلون ، فلم يمرّ طويلاً حتى حاقت بهم الهزيمة فى بدر(1) ، فصدَّقْنا فى الأولى حين قلنا : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۝٤٥﴾ [القمر] وقد عاينتُم ذلك ، فخذوه دليلاً على الغَيْب الذى أخبرناكم به .

ثم يقول رب العزة سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝٧٣ ﴾

فمن فضله تعالى عليكم أنْ يُؤخِّر القيامة لعل الناس يرعوون ،

(1) قال القرطبى فى تفسيره (٧/٥١١٤) : « ﴿بَعْضُ الَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ۝٧٢﴾ [النمل] ، من العذاب ، فكان ذلك يوم بدر . وقيل : عذاب القبر » .

وإلا لفاجأتهم من أول تكذيب ، وهذا يبين أن الله تعالى يُمهل الخلْق ليزداد فيهم أهل الهدى والإيمان ، ألاَ ترى أن المؤمنين برسول الله لم يأتُوا جميعاً مرة واحدة فى وقت واحد ، إنما على فترات زمنية واسعة .

لذلك قلنا : إن المسلمين الأوائل كانوا فى معاركهم مع الكفر يألمون إنْ فاتهم قَتْل واحد من رؤوس الكفر وقادته مثل عكرمة وعمرو وخالد وغيرهم ، ولو أطلعهم الله على الغيب لَعلموا أن الله تعالى نجَّاهم من أيديهم ليدخرهم فيما بَعْد لنُصْرة الإسلامَ ، وليكونوا قادة من قادته ، وسيوفاً من سيوفه المشْهَرة فى وجوه الكافرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [النمل] دليل على أن البعض منهم يشكر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾

ولك أنْ تقول فى هذه الآية : إذا كان الله تعالى يعلم ما تُكنُّ صدورهم وما تخفيه ، فمن باب أوْلَى يعلم ما يُعلنون ، فلماذا قال بعدها : ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [النمل] ؟

نقول : لأن ما فى الصدور غَيْب والله غَيْب ، وقد يقول قائل : ما دام أن الله غيْب فلا يعلم إلا الغيب . فنردّ عليه بأن الله تعالى يعلم الغيب ويعلم العلن .

﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ(١) فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾

(١) قال الحسن : الغائبة هنا القيامة . وقيل : ما غاب عنهم من عذاب السماء والأرض ، حكاه النقاش . وقال ابن شجرة : الغائبة هنا جميع ما أخفى الله تعالى عن خلقه وغيبه عنهم . وهذا عام . [ذكره القرطبى فى تفسيره (٧/٥١١٥)] .

معنى ﴿ غَائِبَةٍ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [النمل] يعنى : الشىء الغائب ، ولحقتْ به التاء الدالة على المبالغة ، كما نقول فى المبالغة : راوٍ وراوية ، ونسَّاب ونسَّابة ، وعالم وعلامة ، كذلك غائب وغائبة ، مبالغة فى خفائها .

و (منْ) هنا يرى البعض أنها زائدة ، لكن كلمة زائدة لا تليق بأسلوب القرآن الكريم وفصاحته ، ونُنزِّه كلام الله عن الحشو واللغو الذى لا معنى له ، والبعض تأدب مع القرآن فقال (من) هنا صلة ، لكن صلة لأى شىء ؟

إذن : لابد أن لها معنى لكى نوضحه نقول : إذا أردتَ أنْ تنفى وجود مال معك تقول : ما عندى مال ، وهذا يعنى أنه لا مالَ معك يُعتَدّ به ، ولا يمنع أن يكون معك مثلاً عدة قروش لا يقال لها مال ، فإن أردتَ نفى المال على سبيل تأصيل العموم فى النفس تقول : ما عندى من مال ، يعنى بداية ممَّا يُقال له مال مهما صَغُر ، فمنْ هنا إذن ليست زائدةً ولا صلةً ، إنما هى للغاية وتأصيل العموم فى النفى .

فالمعنى ﴿ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾ [النمل] أن الله تعالى يحيط علمه أزلاً بكل شىء ، مهما كان صغيراً لا يُعتدُّ به ، واقرأ قوله تعالى :

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنعام]

كما أن قدرته تعالى لا تقف عند حد العلم إنما ويسجله ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ ﴾ [النمل] أى فى أُمّ الكتاب الذى سجَّل الله فيه كل أحداث الكون ، فإذا ما جاءتْ الأحداث نراها مُوافقة لما سجّله الله عنها

آزَلاً ، فمثلاً لما ذكر الحق ـ تبارك وتعالى ـ وسائل النقل والمواصلات في زمن نزول القرآن قال : ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل]

فلولا تذييل الآية بقوله تعالى : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل] لكان فيها مآخذ على القرآن ، وإلاَّ فأين السيارة والطائرة والصاروخ فى وسائل المواصلات ؟

إذن : نستطيع الآن أنْ نُدخِل كل الوسائل الحديثة تحت ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل]

وسبق أن قلنا : إن من عظمة الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ألاَّ يُعلم بشيء لا اختيار للعبد فيه ، إنما بما له فيه اختيار ويفضحه باختياره ، كما حدث فى مسألة تحويل القبلة : ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. ۝١٤٢﴾ [البقرة]

فيعلنها الله تعالى صراحة ، ويُسمِّيهم سفهاء ؛ لأنهم يعادون الله ويعادون رسول الله ، وبعد هذه الخصومة وهذا التجريح قالوا فعلاً ما حكاه القرآن عنهم .

ولم نَرَ منهم عاقلاً يتأمل هذه الآية ، ويقول : ما دام أن القرآن حكى عنا هذا فلن نقوله ، وفى هذه الحالة يجوز لهم أنْ يتهموا القرآن وينالوا من صدْقه ومن مكانة رسول الله ، لكن لم يحدث وقالوا فعلاً بعد نزول الآيَة : ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. ۝١٤٢﴾ [البقرة] يعنى : تركوا التوجه إلى بيت المقدس وتوجهوا إلى مكة ، قالوه مع ما لهم من عقل واختيار .

وهذه المسألة حدثتْ أيضاً فى شأن أبى لهب لما قال الله عنه :

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣)﴾ [المسد]

لأنه قالها لرسول الله ﷺ لما جمعهم ليبلغهم دعوة الله ، فقال له : تباً لك ألهذا جمعتنا[1] . وأبو لهب عم رسول الله ، كحمزة والعباس ولم يكن رسول الله يدرى مستقبل عمه ، فلعله يؤمن كما آمن حمزة وصار أسد رسول الله ، وكما آمن العباس بن عبد المطلب .

فلما نزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا .. (١)﴾ [المسد] كان بإمكانه أنْ يُكذِّبها وأن يؤمن فينطق بالشهادتين ولو نفاقاً ، فله على ذلك قدرة ، وله فيه اختيار ، لكنه لم يفعل .

إذن : من عظمة كلام الله ومن وجوه الإعجاز فيه أنْ يحكم حكماً على مختار كافر به ، وهو قرآن يُتْلَى علانيةً على رؤوس الأشهاد ، ومع ذلك لا يستطيع التصدِّى له ، ويبقى القرآن حُجَّة الله على كل كافر ومعاند .

ولما نتأمل قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾ [الحجر] نرى أن الحق سبحانه أنزل القرآن وتولَّى حفظه بنفسه - سبحانه وتعالى - ولم يُوكله إلى أحد ، مع أن فى القرآن أشياء وأحداثاً لم توجد بعد ، فكأن الله تعالى يحفظها على نفسه ويُسجِّلها

---

(١) عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤)﴾ [الشعراء] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا (جبل بمكة) فاجتمعوا إليه ، قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصدقى ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإنى نذير لكم بين يدَىْ عذاب شديد . قال أبو لهب : تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا ؟ فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١)﴾ [المسد] .» أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١٨١/٢) وأحمد فى مسنده (٣٠٧/١) ومسلم فى صحيحه - كتاب الإيمان (حديث ٣٥٥) ، والبخارى فى صحيحه أيضاً (٧٣٦/٨ - فتح البارى) .

ويعلنها ، لماذا ؟ لأنها ستحدث لا محالة .

فالحق سبحانه لا يخشى واقع الأشياء الأ تطاوعه ؛ لأنه مالكها ، ألاَ ترى أن الإنسان يحفظ (الكمبيالة) التى له ، ولا يهتم بالتى عليه ؟ أما ربُّنا عز وجل فيحفظ لنا الأشياء وهى عليه سبحانه وتعالى .

واقرأ إن شئت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] فالله يُسجِّلها على نفسه ويحفظها ؛ لأنه القادر على الإنفاذ ، وفعلاً هُزِم الجمع وولَّوْا الأدبار وصدق الله .

﴿ إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾

فَرْق بين أن تخاطب خالىَ الذهن ، وأنْ تخاطب مَنْ لديه فكرة مُسْبقة ، فخالى الذهن يقبل منك ، أما صاحب الفكرة المسْبقة فيعارضك ، كذلك جاء من الكفار ومن أهل الكتاب من يعارض كتاب الله وينكر ما جاء به ، ومع أنهم أعداء الإسلام وكارهون له لكنْ إنْ سألتَهم عما أخبر به القرآن يقولون : نعم نعرف هذا من كتبنا ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [البقرة]

لذلك سيدنا عبد الله بن سلام[1] عندما نظر إلى رسول الله علم أنه الرسول الحق ، فمالتْ نفسه إلى الإسلام وقال : والله إنِّى لأعرف

(١) هو أبو يوسف عبد الله بن سلام بن الحارث من ذرية يوسف النبى عليه السلام ، كان من بنى قينقاع ، كان اسمه الحصين فسماه النبى ﷺ عبد الله ، أسلم أول ما قدم النبى ﷺ المدينة ، وقيل : تأخر إسلامه إلى سنة ثمان . كان أعلم بنى إسرائيل ومن سادتهم . توفى بالمدينة عام ٤٣ للهجرة . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٤/٨١] .

محمداً كمعرفتي بابني ، ومعرفتي بمحمد أشد ، وصدق الله حين قال عنهم : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾ [البقرة]

علم عبد الله أن الإسلام هو الطريق الذى يُوصِّله إلى الله والذى ينبغى لكل عاقل أنْ يتبعه ، فلما أراد أنْ يُسلم أحب أنْ يكسب الجولة بإعلان إسلامه وفضيحة المنافقين والكفار وأهل الكتاب ، فقال : يا رسول الله لقد استشرفَتْ نفسى للإسلام ، وأخاف إنْ أسلمتُ أن يذمَّنى اليهود ويفعلوا بى كذا وكذا ، فاسألهم عنِّى قبل أنْ أُسلِم ، فسألهم رسول الله فقالوا : هو حَبْرنا وابن حَبْرنا ..

وكالوا له الثناء والمديح ، عندها قال عبد الله : أما وقد قلتم ما قلتم ، فأشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقالوا : بل هو شرُّنا وابن شرِّنا . وكالوا له عبارات السب والشتم(١) .

ثم يصف الحق سبحانه القرآن فيقول :

﴿ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ﴾

معنى ﴿ لَهُدًى .. (٧٧) ﴾ [النمل] أى : هداية دلالة وإرشاد ، وهذه للمؤمن وللكافر ﴿ وَرَحْمَةٌ (٧٧) ﴾ [النمل] للمؤمنين فقط . كما قال سبحانه : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء] وفَرْق بين الشفاء والرحمة ؛ لأن العطف هنا يقتضى المغايرة . الشفاء : من الداء الذى جاء القرآن ليعالجه ، والرحمة ألاَّ يعاودك هذا الداء مرة أخرى .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٨/ ١٦٥ - فتح البارى) والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٥٢٧ - ٥٢٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وفى بعض ألفاظ الحديث أنهم قالوا أولاً : « ذاك سيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا » وفى لفظ آخر : « خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ الْعَزِيزُ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [النمل] أى : الذى يقهر ولا يُقهر ، ويغلب ولا يُغْلب ، ويجير ولا يُجَار عليه ، وهو مع ذلك فى عزته ﴿ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النمل] فقد يكون عزيزاً لا يُغلب ، لكن لا علم عنده ، فالحق سبحانه عزيز عليم يضع العزة فى مكانها ، ويضع الذلة فى مكانها .

كما قال سبحانه : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران]

وقد وقف العلماء عند قوله تعالى عن نفسه : ﴿ بِيَدِكَ الْخَيْرُ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [آل عمران] فاجتهد بعضهم فقال : التقدير : بيدك الخير والشر ، وهذا التقدير يدل على عدم فهْم لمعنى الآية فما عند الله خير فى كل الأحوال ؛ لأن إيتاء الملْك لمن ينصف فى الرعية خير ، ونزع الملْك ممَّنْ يطغى به ويظلم خير أيضاً ؛ لأن الله سلب منه أداة الطغيان حتى لا يتمادى ، ففى كلٍّ خير .

وما دام من صفاته تعالى أنه عزيز عليم حكيم رحيم ذو فضل ، فاطمئن أيها المؤمن بالله ، وتوكل على الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾

والتوكل : أن تستضعف نفسك فى شىء تحاول أن تقضيه بقوة فلا تجدها عندك ، والتوكل الحق لا يكون إلا على الله الحى الذى لا يموت ، أما إن توكلْتَ على بشر مثلك فقد يُفاجِئه الموت قبل أنْ يقضى لك حاجتك .

وقال ﴿ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾ [النمل] أى : أنك تتوكل على الله وأنت على الحق وعلى الطاعة له عز وجل ، لا على معصيته ، وما دُمْتَ تتوكل على الله وأنت على حال الطاعة فلا بُدَّ أن يكون نصيرك ومعينك .

ثم يُسلِّى الحق سبحانه رسوله ﷺ ويُعزيه كى لا يألم على مَنْ شردوا منه فلم يؤمنوا :

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ(١) وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

والمعنى : لا تحزن يا محمد ، ولا تُهلك نفسك على هؤلاء الذين لم يؤمنوا من قومك ، فما عليك إلا البلاغ . والبلاغ كلام له أداة

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥١١٧/٧) : « قد عورضت هذه الآية بقصة بدر وبالسلام على القبور ، وبما روى فى ذلك من أن الأرواح تكون على شفير القبور فى أوقات ، وبأن الميت يسمع قرع النعال إذا انصرفوا عنه إلى غير ذلك ، فلو لم يسمع الميت لم يُسلَّم عليه » وقال أيضاً فى التذكرة له (ص ١٦٤) : « لا تعارض بينهما لأنه جائز أن يكونوا يسمعون فى وقت ما أو فى حال ما ، فإن تخصيص العموم ممكن وصحيح إذا وجد المخصص ، وقد وجد هنا » . أو أن المراد نفى الإسماع النافع لهم .

استقبال فى السامع هى الأذن ، فإذا تعطلَتْ هذه الأداة لن يسمعوا ، وهؤلاء القوم تعطلَتْ عندهم أداة السمع ، فهم كالموتى والذين أصابهم الصمم ، فآيات الله الكونية كثيرة من حولهم ، لكن لا يروْن ولا يسمعون .

وليت الأمر يقف بهم عند حَدِّ الصمم ، إنما يُولُّون مدبرين من سماع الدعوة ، وهذه مبالغة منهم فى الانصراف عن دعوة الحق ؛ لأنهم إنْ جلسوا فلن يسمعوا ، فما بالك إذا ولَّوْا مدبرين يجروُن بعيداً ، وكأن الواحد منهم يخاف أن يزول عنه الصمم وتلتقط أذنه نداء الله ، فيستميله النداء ، وعندها تكون مصيبته كبيرة ـ على حَدِّ زعمهم .

وهذا دليل على أنهم يعلمون أنه الحق ، وأنهم لو صَغَوْا إليه لاتبعوه ، ألم يقولوا : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ.. (٢٦) ﴾[فصلت]

ذلك لأن للقرآن جلالاً وجمالاً ياسِرُ الألباب ؛ لذلك نَهَوْا عن سماعه ، ودَعَوْا إلى التشويش عليه ، حتى لا ينفذ إلى القلوب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١) ﴾

فرْق بين سماع قالة الحق أو قضية الصدق ، وأنت خالى الذِّهْن ، وبين أن تسمعها وأنت مشغول بنقيضها ، فلكى يُثمر السماع ينبغى أنْ تستقبل الدعوة بذهن خَالٍ ثم تبحث بعقلك الدعوة وما يناقضها ، فما انجذبتَ إليه واطمأنتْ إليه نفسك فأدخله .

وهذه يُسمُّونها ـ حتى فى الماديات ـ نظرية الحيز أى : أن الحيز

الواحد لا يتسع لشيئين فى الوقت نفسه . وسبق أنْ مثَّلْنا لذلك بالقارورة حين تملؤها بالماء لا بُدَّ أنْ يخرج منها الهواء أولاً على شكل فقاعات ؛ لأن الماء أكثفُ من الهواء .

ومعنى : ﴿إن تُسْمِعُ إلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ (٨١)﴾ [النمل] ولقائل أن يقول : ما دام تُسمع مَنْ يؤمن بآياتنا ، فما فائدة السماع وهو مؤمن ؟ نقول : الآيات ثلاثة ، مترتبة بعضها على بعض ، فأولها : الآيات الكونية العقدية التى تشاهدها فى الكون وتستدلّ بها على وجود إله خالق قادر فتسأل : مَنْ هذا الإله الخالق فيأتى دور الرسول الذى يُبيِّن لك ويحلّ لك هذا اللغز ، ولا بُدَّ له من آيات تدل على صدْقه فى البلاغ عن الله هى المعجزة ، فإنْ غفلنا عن الآيات الكونية ذكرنا بها الرسول ، فقال : ومن آياته كذا وكذا .

فإذا آمنتَ بالآيات الكونية وبآيات المعجزات ، فعليك أنْ تؤمن بآيات الأحكام التى جاءتْ بها معجزة النبى ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾

كلمة ﴿وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ .. (٨٢)﴾ [النمل] أى : سقط كأنه وبطبيعته يسقط لا يحتاج لمَنْ يُجبره على السقوط . والسقوط ﴿عَلَيْهِمْ .. (٨٢)﴾ [النمل] كما فى قوله تعالى ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦)﴾ [النحل]

والوقوع هنا يدل على أنهم سيتعرّضون لشدائد ومتاعب ، وبتتبع هذه المادة (وقع) فى القرآن نجد أنها جاءت كلها فى الشدائد إلا

فى موضع واحد[1] هو قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [النساء]

وما داموا لم يسمعوا للآيات ، ولم يقبلوها ، ولم يلتفتوا إلى منهج الله وصمُّوا عنه آذانهم ، فلم يسمعوا كلام أمثالهم من البشر فسوف نُخرج لهم دابة تكلمهم .

﴿ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [النمل] وانظر إلى هذه الإهانة وهذا التوبيخ : أنتم لم تسمعوا كلام أمثالكم من البشر ، ولم تفهموا مَنْ يخاطبكم بلغتكم ، فاسمعوا الآن من الأدنى ، وافهموا عنها ، وفسِّروا قولها .

لكن ماذا ستقول الدابة لهم ؟ وما نوع كلامها ؟ : ﴿ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [النمل] أى : بآياتنا السابقة لا يؤمنون ، وها أنا ذا أكلِّمهم ، وعلى الماهر فيهم أن يقول لى : كيف أكلمه .

وقد اختلف الناس فى هذه الدابة[2] ، وفى شكلها وأوصافها ، وكيف

---

(١) وردت لفظة (وقع) فى القرآن ٧ مرات :
– ٥ منها ، بمعنى وقوع العذاب والشدة ونزولها : (الأعراف : ٧١ ، ١٣٤) ، (يونس ٥١) ، (النمل : ٨٢ ، ٨٥) .
– موضعان : أحدهما ، ما ذكره فضيلة الشيخ . (النساء ١٠٠) . والثانى ، قوله تعالى : ﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [الأعراف] ، أى : ثبت الحق .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥١١٩/٧) : « اختلف فى تعيين هذه الدابة وصفتها ومن أين تخرج اختلافاً كثيراً .
الأول : أنه فصيل ناقة صالح . وهو أصحها والله أعلم ، لما ذكره أبو داود الطيالسى فى مسنده عن حذيفة .
الثانى : روى أنها دابة مزغبة شعراء ، ذات قوائم طولها ستون ذراعاً .
الثالث . يقال إنها الجساسة ، وهو قول عبد الله بن عمر .
الرابع : وروى عن ابن عمر أنها على خلقة الآدميين ، وهى فى السحاب وقوائمها فى الأرض .
الخامس : وروى أنها جمعت من خلق كل حيوان .
قال القرطبى : قد رفع الإشكال فى هذه الدابة ما ذكرناه من حديث حذيفة فليعتمد عليه » أى : أنها فصيل ناقة صالح .

يأتى القول من غير مألوف القول وهو الدابة ؟ لكن ما دام أن الله تعالى أخبر بها فهى حقٌّ ، لا ينبغى معارضته ، وعلينا أن نأخذ وقوع ما حدَّث به القرآن قبل أن يكون دليلاً على صدْقه فيما يحدِّث به فيما يكون .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

الفوج : هم الجماعة والزمرة من الناس . وأول مَنْ يُجمع فى هذا الموقف هم العتاة والجبابرة الذين تولَّوْا تكذيب آيات الله ، يحشرهم الله أولاً أمام العامة يتقدمونهم ويسبقونهم إلى النار ، كما قال سبحانه عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ .. ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود]

فكما تقدَّمهم فى الضلال فى الدنيا يتقدمهم إلى النار فى الآخرة ، وحين يرى الضالون إمامهم فى الضلال يقدمهم ينقطع أملهم فى النجاة ، فربما تعلَّقوا به فى هذا الموقف ينتظرونه أنْ يُخلِّصهم ، لكن كيف وهو يسبقهم إلى هذا المصير ؟

ومعنى ﴿ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النمل] قلنا فى معنى ﴿ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [النمل] أى : يُمنعون ، والمراد يمنعون أن يسبق أولهم آخرهم[1] بحيث يدخلون جميعاً ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يجمع أولهم على آخرهم (ليشرفوا) سوياً فى النار : التابع والمتبوع كلهم سواء فى الذلة والمهانة ، فربما حاول أحد العتاة أو الجبابرة أن يسبق حتى لا يراه تابعوه ، فيفتضح أمره ، فيؤخره الله ليفضحه على رؤوس الأشهاد .

---

(١) هذا قول قتادة فيما نقله القرطبى فى تفسيره (٥١٢٣/٧) وقول مجاهد فيما أورده السيوطى فى الدر المنثور (٣٨٤/٦) وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم . وهناك قول آخر : أى يساقون . قاله ابن زيد . وقال القرطبى : أى يُدفعون ويُساقون إلى موضع الحساب .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

فى سورة الأعراف يُورِد الحق ـ تبارك وتعالى ـ مذكرة تفصيلية لهذا الموقف ، ولهذا الحوار الذى يدور فى عَرَصات القيامة ، فيقول تعالى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَـٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَـٰؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لاَّ تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأعراف]

﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

قوله ﴿ وَوَقَعَ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [النمل] أى : وجب لهم العذاب ﴿ بِمَا ظَلَمُوا .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [النمل] وكأنه شىء محسوس يسقط على رؤوسهم ﴿ فَهُمْ لا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [النمل] فقد خرستْ ألسنتهم من هَوْل ما رأوْا ، فلا يجدون كلاماً ينطقون به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

ينتقل السياق من الكلام عن الآخرة إلى آية كونية ، وهذه سمة من سمات أسلوب القرآن الكريم ، حيث يراوح بين الدعوة إلى الإيمان وبين بيان الآيات الكونية ، فبعد أن حدثنا عن الآخرة ذكر هذه الآية الكونية ، وكأنه يقول : لا عُذْر لمن يُكذِّب بآيات الله ؛ لأن الآيات موجودة مشاهدة .

لذلك قال : ﴿أَلَمْ يَرَوْا .. ﴿٨٦﴾﴾ [النمل] أى : ألم يعلموا ويشاهدوا ﴿أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ .. ﴿٨٦﴾﴾ [النمل] أى : للنوم وللراحة ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا .. ﴿٨٦﴾﴾ [النمل] أى : بما فيه من الأشعة والضوء الذى يُسبب الرؤيا .

وسبق أنْ بيَّنا دور العالم المسلم ابن الهيثم فى تصحيح نظرية رؤية الأشياء ، وكانوا يعتقدون أن الشىء يُرى إذا خرج الشعاع من العين إليه ، والصحيح أن الشعاع يخرج من الشىء المرئى إلى العين ، فكأن الشعاع هو الذى يُبصر ، فهو سبب الرؤيا ، ولولاه لا نرى الأشياء .

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [النمل] فربك - عزّ وجلّ - نظَّم لك حركة حياتك بليل تسكن فيه ، وتخلد للراحة ونهار تسعى فيه وتبتغى من فضل الله كما قال تعالى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص]

ولن تستقيم لنا حركة الحياة إلا إذا سرْنا على هذا النظام الذى ارتضاه الله لنا ، فإنْ قلبَ الناس هذه الطبيعةَ فسهروا حتى الفجر ، فلا بُدَّ أنْ يلاقوا عاقبة هذه المخالفة فى حركة حياتهم : تكاسلاً وتراخياً وقلة فى الإنتاج .. إلخ .

والحق - تبارك وتعالى - يشرح لنا هذه القضية فى موضع آخر :

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[1] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص]

ففى الكلام عن الليل قال : ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١)﴾ [القصص] وعن النهار قال : ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢)﴾ [القصص] لماذا ؟ قالوا : لأن حاسة الإدراك فى الليل هى السمع ، وفى النهار البصر . وفى هذا إشارة إلى طبيعة كل منهما حتى لا نُغيِّرها نحن ، فنسهر الليل ، وننام النهار .

وفى قوله تعالى ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] ما يسميه العلماء باللف والنشر[2] ، أى : لفّ المحكوم عليه وهو الليل والنهار معاً ، ثم نشر حكم كل منهما على وجه الترتيب : لتسكنوا فيه وهى تقابل الليل ، ولتبتغوا من فضله ، وهى تقابل النهار .

إذن : بعد أنْ استدل الحق ـ تبارك وتعالى ـ بالموجود فعلاً من آيتى الليل والنهار أراد أنْ يستدل بعدمهما فى ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا.. (٧١)﴾ [القصص] و ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا .. (٧٢)﴾ [القصص]

---

(١) السرمد : الزمن الطويل أو الدائم . [القاموس القويم ١/٣١٢] .

(٢) اللف والنشر : هو أن يُذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوّض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به ، ومثال الإجمالى قوله تعالى : ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ .. (١١١)﴾ [البقرة] أى : وقالت اليهود : لن يدخل الجنة إلا اليهود . وقالت النصارى : لن يدخل الجنة إلا النصارى . [راجع تفصيل هذا فى البرهان فى علوم القرآن للسيوطى ٣/٢٨٠] .

ثم يعود السياق مرة أخرى إلى الحديث عن القيامة :

﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ(١) وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

وكأن الله تعالى يقول لى : التفتْ إلى العبرة في الآيات الكونية ، حيث ستنفعك في يوم آت هو يوم القيامة ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [النمل] وهو البوق ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [النمل] والفزع : الخوف الشديد الذى يأخذ كلَّ مَنْ فى السموات ، وكل مَنْ فى الأرض ﴿ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ.. ﴿٨٧﴾ ﴾ [النمل] قالوا : هم الملائكة : إسرافيل الذى ينفخ فى الصور ، وجبريل ، وميكائيل ، وعزرائيل(٢) .

لذلك لما تكلم سيدنا رسول الله ﷺ عن مسألة الصعق هذه قال : « فأفيق من الصعقة فأجد أخى موسى ماسكاً بالعرش »(٣) ذلك لأن موسى عليه السلام صعق في الدنيا مرة حين تجلَّى ربه للجبل ، كما حكى القرآن : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف]

---

(١) عن أبى هريرة فى قوله ﴿ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [النمل] قال : هم الشهداء . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٣٨٤) وعزاه لسعيد بن منصور وابن جرير الطبرى . قال القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥١٢٦) : « وهو قول سعيد ابن جبير أنهم الشهداء متقلدو السيوف حول العرش ، وحديث أبى هريرة صححه القاضى أبو بكر بن العربى فليعول عليه ، لأنه نص فى التعيين وغيره اجتهاد ، والله أعلم » .

(٢) قاله مقاتل ، وفيما أورده عنه القرطبى فى تفسيره (٧/ ٥١٢٦) .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٣٩٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣٧٤) بنحوه من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « الناس يُصعقون يوم القيامة فأكون أول من يُفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى أم جُوزى بصعقة الطور » .

وما كان الله تعالى ليجمع على نبيه موسى عليه السلام صعقتين ، لذلك لم يُصعَق صعقة الآخرة .

وقوله سبحانه : ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧)﴾ [النمل] أى : صاغرين أذلاء ، لا يتأبى على الله منهم أحد ، حيث لا قدرةَ له على ذلك ؛ لأن القيامة أنهتْ الاختيار الذى كان لهم فى الدنيا ، وبه ملَّكهم الله شيئاً من الملْك : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ .. (٢٦)﴾ [آل عمران]

فأعطى الله تعالى طرفاً من الملْك ، ووهبه لبعض عباده فى دنيا الأسباب والاختيار ، أمَّا في الآخرة فالملْك لله تعالى وحده ، لا ينازعه فيه أحد : ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦)﴾ [غافر]

فى القيامة يُنزع منك كلّ شيء تملكه وكلّ قدرة لك على ما تملك حتى جوارحك لا قدرةَ لك عليها ، ولا إرادةَ لتنفعل لك ، هى تبع إرادتك فى الدنيا ، وبها ترى وتسمع وتمشى وتبطش ، أمَّا فى الآخرة فقد سُلبت منك هذه الإرادة ، بدليل أنها ستشهد عليك ، وتُحاجّك يوم القيامة .

ثم ينتقل السياق بنا مرة أخرى إلى آية كونية :

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ۚ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)﴾

قوله تعالى ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً .. (٨٨)﴾ [النمل] أى : تظنها ثابتة ، وتحكم عليها بعدم الحركة ؛ لذلك نسميها الرواسى والأوتاد ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .. (٨٨)﴾ [النمل] أى : ليس الأمر كما تظن ؛ لأنها

تتحرك وتمر كما يمرّ السحاب ، لكنك لا تشعر بهذه الحركة ولا تلاحظها لأنك تتحرك معها بنفس حركتها .

وهَبْ أننا فى هذا المجلس ، أنتم أمامى وأنا أمامكم ، وكان هذا المسجد على رحاية أو عجلة تدور بنا ، أيتغير وضعنا وموقعنا بالنسبة لبعضنا ؟

إذن : لا تستطيع أن تلاحظ هذه الحركة إلا إذا كنتَ أنت خارج الشيء المتحرك ، ألاَ ترى أنك حين تركب القطار مثلاً ترى أن أعمدة التليفون هى التى تجرى وأنت ثابت .

ولأن هذه الظاهرة عجيبة سيقف عندها الخلْق يزيل الله عنهم هذا العجب ، فيقول ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ .. (٨٨)﴾ [النمل] يعنى : لا تتعجب ، فالمسألة من صُنع الله وهندسته وبديع خَلْقه ، واختار هنا من صفاته تعالى : ﴿الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ .. (٨٨)﴾ [النمل] يعنى : كل خَلْق عنده بحساب دقيق مُتقَن .

البعض[1] فهم الآية على أن مرَّ السحاب سيكون فى الآخرة ، واستدل بقوله تعالى : ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥)﴾ [القارعة]

وقد جانبه الصواب لأن معنى ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ (٥)﴾ [القارعة] أنها ستتفتت وتتناثر ، لا أنها تمر ، وتسير هذه واحدة ، والأخرى أن الكلام هنا مبنىٌّ على الظن ﴿تَحْسَبُهَا جَامِدَةً .. (٨٨)﴾ [النمل] وليس فى القيامة ظن ؛ لأنها إذا قامتْ فكلُّ أحداثها مُتيقنةٌ .

ثم إن السحاب لا يتحرك بذاته ، وليس له موتور يُحرِّكه ، إنما يُحرِّكه الهواء ، كذلك الجبال حركتها ليست ذاتيةً فيها ، فلم نَرَ جبلاً

---

(١) قال القشيرى : وهذا يوم القيامة . [نقله القرطبى فى تفسيره ٧ / ٥١٢٧] .

تحرَّك من مكانه ، فحركة الجبال تابعة لحركة الأرض ؛ لأنها أوتاد عليها ، فحركة الوتد تابعة للموتود فيه .

لذلك لما تكلم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن الجبال قال : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ[1] بِكُمْ .. (١٥) ﴾ [النحل]

ولو خُلقتْ الأرض على هيئة السُّكون ما احتاجتْ لما يُثبِّتها ، فلا بُدَّ أنها مخلوقة على هيئة الحركة .

في الماضي وقبل تطور العلم كانوا يعتقدون في المنجِّمين وعلماء الفلك الكفرة أنهم يعلمون الغيب ، أما الآن وقد توصَّل العلماء إلى قوانين حركة الأرض وحركة الكواكب الأخرى في المجموعة الشمسية واستطاعوا حساب ذلك كله بدقة مكَّنتهم من معرفة ظاهرة الخسوف والكسوف مثلاً ونوع كل منهما ووقته وفعلاً تحدث الظاهرة في نفس الوقت الذي حددوه لا تتخلف .

واستطاعوا بحساب هذه الحركة أنْ يصعدوا إلى سطح القمر ، وأن يُطلقوا مركبات الفضاء ويُسيِّروها بدقة حتى إنَّ إحداها تلتحم بالأخرى في الفضاء الخارجي .

كل هذه الظواهر لو لم تكن مبنية على حقائق مُتيقَّنة لأدتْ إلى نتائج خاطئة وتخلفتْ .

ومن الأدلة التي تثبت صحة ما نميل إليه في معنى حركة الجبال ، أن قوله تعالى ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ .. (٨٨) ﴾ [النمل] امتنان من الله تعالى بصنعته، والله لا يمتنُّ بصنعته يوم القيامة ، إنما

(١) ماد يميد : تحرَّك واهتزَّ . أي : لئلا تميد وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

الامتنان علينا الآن ونحن فى الدنيا(١)

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا(٢) وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

لهذه الآية صلة لطيفة بما قبلها : فكما أن الآيات الكونية التى أخبر بها الحق ـ تبارك وتعالى ـ حقيقة واقعة ، وتأكدتَ أنت من صدْقها حيث شاهدتها بنفسك وأدركتها بحواسك ، فكما أخبرناك بهذه الآيات نُخبرك الآن بحقيقة أخرى ينبغى أن تصدقها ، وأن تأخذ من صدْق ما شاهدتَ دليلاً على صدْق ما غاب عنك ، فربُّك يُخبرك بأنه ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل]

الحسنة : فعل الانفعال فيه يكون لمطلوب الله فى العبادة ، فإن فعلتَ الفعل على مراد الله تعالى كانت لك حسنة ، والحسنة عند الله بعشر أمثالها ، وتضاعف إلى سبعمائة ضعْف على مقدار طاقة الفاعل من الإخلاص والتجرُّد لله فى فعله .

والمعنى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل] أى : فى الدنيا ﴿ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [النمل] أى : ناشىء عنها فى الآخرة .

ونسمع من البعض مَنْ يقول : إذا كان قولنا : لا إله إلا الله

---

(١) قال الماوردى فى تفسير الآية : أنها ضَرْب للمثل ، وفيما ضُرب له ثلاثة أقوال :
أحدها : أنه مثل ضربه الله تعالى للدنيا يظن الناظر إليها أنها واقفة كالجبال ، وهى آخذة بحظها من الزوال كالسحاب ، قاله سهل بن عبد الله .
الثانى : أنه مثل ضربه الله للإيمان تحسبه ثابتاً فى القلب وعمله صاعد إلى السماء .
الثالث : أنه مثل ضربه الله للنفس عند خروج الروح والروح تسير إلى العرش . [نقله القرطبى فى تفسيره ٥١٢٨/٧] .

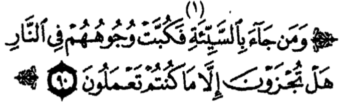
(٢) قال ابن عباس ومجاهد : أى وصل إليه الخير منها . وليس « خير » للتفضيل . قال عكرمة وابن جريج : أما أن يكون له خير منها يعنى من الإيمان فلا ، فإنه ليس شىء خيراً ممن قال لا إله إلا الله ولكن له منها خير . [تفسير القرطبى ٥١٢٩/٧] .

حسنة فالثواب عليها خَيْـر منها . وهذا القول ناتج عن فَهْم غير دقيق لمعنى الآية ؛ لأن الله تعالى الذى أُقر بـه فى الشهادة هو الذى يهبنى هذا الثـواب ، فـمَنْ جاء بالحـسنة له خـيـر ناشىء من هذه الحـسنة ومُسبَّب عنها . كما لو قلت : مأمـور المركز خير من وزير الداخلية : أى خَيْر جاءنا من ناحيته ، ووصل إلينا من طرفه ، أليس هو صاحب قرار تعيينه ؟

ومن ذلك ما يقـوله أصحاب الطريق والمـجاذيب يقولون : محـمد خـيـر من ربه ، وفى مـثل هـذه الأقـوال لعب بأفكـار الناس وإثارة لمشـاعرهم ، وربما تعرض للإيذاء ، فكـيف يقول هذه الكلمة ومحـمد مُرْسَل من عند الله ؟ وحين تُمعن النظر فى العبـارة تجدها صحيحة ، فمراد الرجل أن محمداً خير جاءنا من عند الله .

أو : يكون المعنى ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا .. (٨٩)﴾ [النمل] أن الجزاء على الحـسنة خيـر من الحسنة ؛ لأنك تفـعل الحسنـة فعْلاً مـوقوتـاً ، أمّا خيرها والثواب عليها ، فسيظل لك خالداً بلا نهاية .

ثم يقول الحق سبحانه :


﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ(١) فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) ﴾

معنى ﴿فَكُبَّتْ .. (٩٠)﴾ [النمل] ألقيت بعنـف ، وخصّ الوجوه مع أن الأعضاء كلها ستكبُّ ؛ لأنه أشرفها وأكرمها عند صاحبها ، والوجه

(١) أى : بالشرك . قـاله ابن عباس والنخعى وأبو هريرة ومـجاهد وقيس بن سعـد والحسن . قال القـرطبى فى تفسـيره (٧/٥١٣٠) : « وهو إجماع من أهل التأويل فى أن الحسنة لا إله إلا الله ، وأن السيئة الشرك فى هذه الآية » .

موضع العزة والشموخ ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد لهم الذلّة والمهانة ، وفى موضع آخر يُبيِّن أن كل الأعضاء ستكبُّ فى النار ، فيقول تعالى : ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الشعراء]

وليس هذا المصير ظلماً لهم ، ولا افتراءً عليهم ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النمل] وكما يقول سبحانه : ﴿ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [غافر] فلم نجامل صاحب الحسنة ، ولم نظلم صاحب السيئة .

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

فما دام أن الله تعالى أعطانا هذه المعلومات التى تلفتنا إلى قدرته فى آياته الكونية ، وذكَّرنا بالآخرة ، وما فيها من الثواب والعقاب ، فما عليك إلا أنْ تلتزم (عرفت فالزم) واعلم أن مَنْ أبلغك منهج الله سيسبقك إلى الالتزام به ، فالشرع كما أمرك أمرنى .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [النمل] فإنْ طلبتُ منكم شيئاً من التكاليف فقد طالبتُ نفسى به أولاً ؛ لأننى واثق بصدق تبليغى عن الله ؛ لذلك ألزمتُ نفسى به .

والعبادة كما قلنا : طاعة العابد للمعبود فيما أمر وفيما نهى ؛ لأن ربك خلقك من عَدَم ، وأمدك من عُدْم ، ونظّم لك حركة حياتك ، فإنْ كلَّفك فاعلم أن التكليف من أجلك ولصالحك ؛ لأنه رب مُتولٍّ لتربيتك ، فإنْ تركك بلا منهج ، وبلا افعلْ ولا تفعل ، كانت التربية ناقصة .

إذن : من تمام الربوبية أن يوجهنى ربى كما نُوجِّه نحن أولادنا الصغار ونُربِّيهم ، ومن تمام الربوبية أن توجد هذه الأوامر وهذه

النواهى لمصلحة المربَّى ، وما دام أن ربك قد وضعها لك فلا بُدَّ أن تطيعه .

لذلك نلحظ فى هذه الآية ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. (٩١)﴾ [النمل] ولم يقُلْ : أُمرت أن أطيع الله ؛ لأن الألوهية تكليف ، أمّا الربوبية فعطاء وتربية ، فالآية تُبيِّن حيثية سماعك للحكم من الله ، وهى أنه تعالى يُربِّيك بهذه الأوامر وبهذه النواهى ، وسوف تعود عليك ثمرة هذه التربية .

لذلك ، الصِّديق أبو بكر حينما حدثوه عن الإسراء والمعراج لم يُمرِّر المسألة على عقله ، ولم يفكر فى مدى صدْقها ، إنما قال عن رسول الله : « إنْ كان قال فقد صدق »[1] فالميزان عنده أن يقول رسول الله ، ثم يُعلِّل لذلك فيقول : إنى لأُصدِّقه فى الخبر يأتى من السماء ، فكيف لا أُصدِّقه فى هذه .

وقال تعالى : ﴿رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ .. (٩١)﴾ [النمل] أى : مكة وخصّها بالذكْر ؛ لأن فيها بيته ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا .. (٩٦)﴾ [آل عمران] ثم يذكر سبحانه وتعالى من صفات مكة ﴿الَّذِى حَرَّمَهَا .. (٩١)﴾ [النمل] فهى مُحرَّمة يحرم فيها القتال ، وهذه وسيلة لحماية العالم من فساد الحروب وفساد الخلاف الذى يُفضى بكل فريق لأنْ تأخذه العزة ، فلا يجد حلاً إلا فى السيف .

(١) أخرج البيهقى فى دلائل النبوة (٢ / ٣٦١) من حديث عائشة أنها قالت : « لما أُسرى بالنبى ﷺ إلى المسجد الأقصى أصبح يتحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كانوا آمنوا به وصدَّقوه وسعوا بذلك إلى أبى بكر فقالوا : هل لك فى صاحبك يزعم أنه أسرى به فى الليل إلى بيت المقدس قال أو قال ذلك ؟ قالوا : نعم . قال : لئن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : وتصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ، قال : نعم ، إنى لأصدقه بما هو أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء فى غدوة أو روحة ، فلذلك سُمِّى أبو بكر الصديق » .

وكأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ يعطى لخَلْقه فرصة للمداراة وعُذْراً يستترون خلفه ، فلا ينساقون خلف غرورهم ، فحين تمنعهم من الحروب حُرْمة المكان فى الحرم ، وحُرْمة الزمان فى الأشهر الحرم ـ لأن كل فعل لا بُدَّ له من زمان ومكان ـ حين يمنعهم الشرع عن القتال فإن لأحدهم أن يقول : لم أمتنع عن ضعف . ولولا أن الله منعنى لفعلْتُ وفعلْتُ ، ويستتر خلف ما شرَّع الله من منع القتال ، إلى أنْ يذوق حلاوة السلام فتلين نفسه ، وتتوق للمراجعة .

ولحرمة مكة كان الرجل يلاقى فيها قاتل أبيه ، فلا يتعرَّض له احتراماً لحرمة البيت ، وقد اتسعتْ هذه الحرمة لتشمل أجناساً أخرى ، فلا يُعضد[1] شجرها ، ولا يُصاد صَيْدها .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ .. (٩١) ﴾ [النمل] لأن الله تعالى حين يصطفى من الملائكة رسلاً ، ومن الناس رسلاً ، ويصطفى من الأرض أمكنة ، ومن الزمان ، يريد أن يشيع الاصطفاء فى كل شىء .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يُحَابى أحداً ، فحين يرسل رسولاً يُبلِّغ رسالته للناس كافة ، فيعود نفعه على الجميع ، وكذلك فى تحريم المكان أو الزمان يعود نفعه على الجميع ؛ لذلك عطف على ﴿ الَّذِى حَرَّمَهَا .. (٩١) ﴾ [النمل] فقال ﴿ كُلُّ شَيْءٍ .. (٩١) ﴾ [النمل] فالتحريم جُعل من أجل هؤلاء .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) ﴾ [النمل] أى : المنفذين لمنهج الله يعنى : لا أعتقد عقائد أخبر بها ولا أنفِّذها ، وقد قرن الله تعالى بين الإيمان والعمل الصالح ؛ لأن فائدة الإيمان أنْ

---

(١) عضد الشجر يعضده ، فهو معضود : قطعه بالمعضد . والعضيد : ما قُطع من الشجر أى يضربونه ليسقط ورقه فيتخذوه علفاً لإبلهم . [لسان العرب ـ مادة : عضد] .

تعملَ به ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ③ ﴾ [العصر]

فالله تعالى يريد أن يُعدِّى الإيمان والأحكام إلى أن تكون سلوكاً عملياً فى حركة الحياة .

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْءَانَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

أنت حين تقرأ القرآن فى الحقيقة لا تقرأ إنما تسمع ربنا يتكلم ، ومعنى ﴿ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ .. ٩٢ ﴾ [النمل] يعنى : استدم أُنْسك بالكتاب الذى كُلِّفت به ، ليدل على أنك من عشْقك للتكليف ، عشقتَ المكلِّف ، فأحببتَ سماعه ، وتلاوة القرآنَ فى ذاتها لذة ومتعة .

فأنا سآخذ من تلاوته لذةً ، وأستديم البلاغ بالقرآن للناس ، وبعد ذلك أنا نموذجٌ أمامٍ أمتى ، كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. ٢١ ﴾ [الأحزاب]

يعنى : شىء يُقتدى به ، وما دام أن الرسول قدوة ، فكل مقام للرسول غير الرسالة مَنْ سار على قدم الرسول يأخذ منه ، وكذلك مكان كل إنسان فى التقوى ، على قَدْر اعتباره واقتدائه بالأُسْوة ، أما الرسالة فدَعْك منها ؛ لأنك لن تأخذها .

ومعنى ﴿ اهْتَدَىٰ .. ٩٢ ﴾ [النمل] أى : وصلتْه الدلالة واقتنع بها ﴿ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِه .. ٩٢ ﴾ [النمل] لأن الله سيعطيه المعونة ، ويزيده هدايةً وتوفيقاً ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ١٧ ﴾ [محمد]

إذن : فالهداية والتقوى لا تنفع المشرِّع ، إنما تنفع العبد الذى اهتدى.

ثم يذكر المقابل ﴿ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) ﴾ [النمل] أنا لا يعنيني إلا أنني من المنذرين ، وأنت إنما تضلّ على نفسك ، وتتحمل عاقبة ضلالك .

وبعد أنْ أتممتَ ما خاطبك ربك به بأنْ تعبدَ ربَّ هذه البلدة وكنتَ من المسلمين ، وبعد أنْ تلوتَ القرآن ، واستدمت الأُنْس واللذَّة بسماع الله يتكلم ، ثم بلّغته للناس ، فإذا فعلتَ كل هذا احمد الله الذى وفّقك إليه :

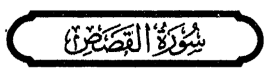
﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾

أى : الحمد لله على نعمه وعلى ما هدانا ، والحمد لله الذى لا يُعذِّب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه ، والإنذار إليه .

والله سيريكم آياته فى أنفسكم وفى غيركم ، فتعرفون دلائل قدرته سبحانه ووحدانيته فى أنفسكم ، وفى السماوات والأرض .

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾ [النمل]

بل هو شهيد على كل شىء .


سُورَةُ القَصَصِ

سورة القصص[1]



﴿ طسم ① ﴾

الحروف المقطعة فى بدايات سور القرآن مرة يأتى حرف واحد مثل (ق ، ن) أو حرفان مثل (طس ، حم) أو ثلاثة أحرف مثل (الم ، طسم) أو أربعة مثل (المر) أو خمسة مثل (حمعسق ، كهيعص) وكل منها له مفتاح وأسرار لم يفتح علينا بعد لمعرفته وما قلنا فى معنى هذه الحروف مجرد محاولات على الطريق .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② ﴾

---

(١) سورة القصص هى السورة رقم (٢٨) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٨٨ آية . وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة وعطاء . قال ابن عباس وقتادة : إلا آية نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجحفة فى وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وهى قوله عز وجل : ﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. ⑧⑤﴾ [القصص] [راجع تفسير القرطبى ٥١٣٣/٧] . نزلت هذه السورة بعد سورة النمل (كما هى فى ترتيبها فى المصحف) وقبل سورة الإسراء . [الإتقان فى علوم القرآن ٢٧/١] .

يعنى : ما يأتى فى هذه السورة آيات الكتاب المبين .

﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ ﴾

أى : نقص عليك ﴿ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ .. ۝٣ ﴾ [القصص] والنبأ : الخبر الهام الذى يجب الالتفات إليه ، وهل هناك أهم من إرسال موسى - عليه السلام - إلى مَن ادعى الألوهية ؟ لذلك أفرد لهما هذه السورة ، فلم يَرِدْ فيها ذكْر آخر إلا لقارون ؛ لأنها تعالج مسألة القمة ، مسألة التوحيد ، وتردّ علىَ مَن ادّعى الألوهية ، ونازع الله تعالى فى صفاته .

وقوله ﴿ بِالْحَقِّ .. ۝٣ ﴾ [القصص] لأن تلاوته وقصصه حق ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ .. ۝٦٢ ﴾ [آل عمران]

والقصص مأخوذ من قصِّ الأثر وتتبّعه ، وقد اشتُهر به بعض العرب قديماً ، ومهروا فيه حتى إنهم ليعرفون أثر الرجل من أثر المرأة .. إلخ ، وقد اشتُهرت عندهم قصة الرجل الذى فقد جمله ، وقابل أحد القصاصين ، وسأله عنه فقال : جملك أبتر(١) الذَّنَب ؟ قال : نعم ، قال : أعور ؟ قال : نعم ، قال : أعرج ؟ عندها لم يشكّ صاحب الجمل أن هذا الرجل هو الذى أخذ جمله ، فأمسك به وقاضاه .

وفى مجلس القضاء ، قال الرجل : والله ما أخذتُ جملك ، لكنى رأيتُ الجمل يبعثر بَعْره خلفه ، أما هذا فيضع بَعْره مرة واحدة ،

(١) الأبتر : المقطوع الذَّنَب (الذيل) من أى موضع كان من جميع الدواب . والبتر : استئصال الشىء قطعاً . [لسان العرب - مادة : بتر] .

فعرفتُ أنه مقطوع الذنب ، ورأيت أحد أخفافه لا يؤثر فى الرمل فعرفتُ أنه أعرج ، ورأيته يأكل من ناحية ويترك الأخرى فعرفتُ أنه أعور .

والحق - تبارك وتعالى - حين يقصُّ علينا يقصُّ الواقع ، فقَصص القرآن لا يعرف الخيال كقصص البشر ؛ لذلك يسميه القصص الحق ، وأحسن القصص ، لأنه يروى الواقع طِبْق الأصل .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي(١) نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾

معنى ﴿ عَلا .. ﴿٤﴾ ﴾ [القصص] من العلو أى : استعلى ، والمستعلَى عليه هم رعيته ، بل علا على وزرائه والخاصة من رعيته ، وعلا حتى على الله - عز وجل - فادَّعى الألوهية ، وهذا منتهى الاستعلاء ، ومنتهى الطغيان والتكبُّر ، وما دامت عنده هذه الصفات وهو بشر وله هوىً فلا بُدَّ أنْ يستخدمها فى إذلال رعيته .

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا .. ﴿٤﴾ ﴾ [القصص] جمع شيعة ، وهى الطائفة التى لها استقلالها الخاص ، والمفروض فى المُملِّك أنْ يُسوِّى بين رعيته ، فلا تأخذ طبقة أو جماعة حظوة عن الأخرى ، أما فرعون فقد جعل الناس طوائف ، ثم يسلِّط بعضها على بعض ، ويُسخِّر بعضها لبعض .

(١) استحياه : استبقاه حياً ولم يقتله ، ومعنى ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة] أى : أنهم يقتلون الذكور فقط ويتركون البنات والنساء على قيد الحياة . [القاموس القويم ١/١٨٣] .

ولا شكَّ أن جَعْل الأمة الواحدة عدة طوائف له مَلْحظ عند الفاعل ، فمن مصلحته أن يزرع الخلاف بين هذه الطوائف ويشغل بعضها ببعض ، فلا تستقر بينهم الأمور ، ولا يتفرغون للتفكير فيما يقلقه ويهزّ عرشه من تحته ، فيظل هو مطلوباً من الجميع .

والقبط كانوا هم سكان مصر والجنس الأساسى بها ، ثم لما جاءها يوسف ـ عليه السلام ـ واستقرَّ به الأمر حتى صار على خزائنها ، ثم جاء إخوته لأخْذ أقواتهم من مصر ، ثم استقروا بها وتناسلوا إلا أنهم احتفظوا بهويتهم فلم يذوبوا فى المجتمع القبطى .

وبالمناسبة يخطىء الكثيرون فيظنون أن القبطىَّ يعنى النصرانى . وهذا خطأ ، فالقبطى يعنى المصرى كجنس أساسى فى مصر ، لكن لما استعمرت الدولةُ الرومانية مصرَ كان مع قدوم المسيحية فأطلقوا على القبطى (مسيحى) .

لكن ، ما السبب فى أن فرعون جعل الناس طوائف ، تستعبد كلٌّ منها الأخرى ؟ قالوا : لأن بنى إسرائيل كانوا فى خدمة المستعمر الذى أزاح حكم الفراعنة ، وهم ملوك الرعاة ، فلما طُرِد ملوك الرعاة من مصر كان طبيعياً فيمَنْ يحكم مصر أن يضطهد بنى إسرائيل ؛ لأنهم كانوا موالين لأعدائه ، ويسيرون فى ركابهم ، ومن هنا جاء اضطهاد فرعون لبنى إسرائيل .

والقرآن الكريم حينما يتحدث عن ملوك مصر فى القديم وفى الحديث يُسمِّيهم فراعنة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر]

وهنا فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ قال أيضاً : فرعون . أما فى قصة يوسف عليه السلام فلم يأت ذكْر للفراعنة ، إنما قال ﴿ الْمَلِكُ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف] وهذه من مظاهر الإعجاز فى القرآن الكريم ؛ لأن الحكم فى مصر أيام يوسف كان لملوك الرعاة ، ولم يكُنْ للفراعنة ، حيث كانوا يحكمون مصر قبله وبعده لما استردوا مُلْكهم من ملوك الرُّعاة ؛ لذلك فى عهد يوسف بالذات قال ﴿ الْمَلِكُ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف] فلم يكُنْ للفرعون وجود فى عصر يوسف .

فمعنى ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [القصص] يعنى : تستبد طائفة الأقباط ، وهم سكان مصر الأصليون بطائفة بنى إسرائيل لينتقموا منهم جزاءَ موالاتهم لأعدائهم .

وأول دليل على بطلان ألوهية فرعون أن يجعل أمته شيَعاً ، لأن المألوهين ينبغى أن يكونوا جميعاً عند الإله سواء ؛ لذلك يقول تعالى فى الحديث عن موكب النبوات : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام]

ذلك لأن دين الله واحد ، وأوامره واحدة للجميع ، فلو كنتم مُتمسكين بالدين الحق لجعلتُم الناس جميعاً شيعة واحدة ، لا يكون لبعضهم سلطة زمنية على الآخرين ، فإذا رأيت فى الأمة هذه التفرقة وهذا التحزُّب فاعلم أنهم جميعاً مدينون ؛ لأن الإسلام ـ كما قُلْنا ـ فى صفائه كالماء الذى لا طعمَ له ، ولا لون ، ولا رائحة .

وهذا الماء يحبه الجميع ولا بُدَّ لهم منه لاستبقاء حياتهم ، أما أن نُلوِّن هذا الماء بما نحب ، فأنت تحب البرتقال ، وأنا أحب المانجو . وهذا يحب الليمون .. إلخ إذن : تدخلتْ الأهواء ، وتفرَّق الدين الذى أراده الله مجتمعاً .

لذلك يقول رسول الله ﷺ : « ستفترق أمتى بضْع وستون ، أو بضع وسبعون فرقة ، كلُّهم فى النار إلا ما أنا عليه وأصحابى »(١) .

فشيعة الإسلام إذن واحدة ، أما أن نرى على الساحة عشرات الفرَق والشِّيَع والجماعات ، فأيّها يتبع المسلم ؟ إذن : ما داموا قد فرَّقوا دينهم ، وكانوا شِيعاً فلسْتَ منهم فى شىء .

ثم يُفسِّر الحق سبحانه هذا الاستضعاف ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ .. ④﴾ [القصص] فيقول ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ .. ④﴾ [القصص] وقلنا : إن الإفساد أن تأتى على الصالح بذاته فتفسده ، فمن الفساد - إذن - قتْل الذُّكْران واستحياء النساء ؛ لأن حياة الناس لا تقوم إلا باستبقاء النوع ، فقتل الذّكْران يمنع استبقاء النوع ، واختار قَتْل الذكْران ؛ لأنهم مصدر الشر بالنسبة له ، أمّا النساء فلا شوكة لهُنَّ ، ولا خوفَ منهن ؛ لذلك استبقاهُنَّ للخدمة وللاستذلال .

وحين نتتبع هذه الآية نجد أنها جاءت فى مواضع ثلاثة من كتاب الله ، لكل منها أسلوب خاص ، ففى الآية الأولى يقول تعالى : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. ㊾﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر : ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ .. ⑭①﴾ [الأعراف] وهاتان الآيتان على لسان الحق تبارك وتعالى .

أما الأخرى فحكاية من الله على لسان موسى - عليه السلام - حين يُعدِّد نِعَم الله تعالى على بنى إسرائيل ، فيقول :

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « إن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم فى النار إلا ملة واحدة ، قالوا : ومن هى يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى » .

﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ .. ⑥ ﴾ [إبراهيم]

فالواو فى ﴿ وَيُذَبِّحُونَ .. ⑥ ﴾ [إبراهيم] لم ترد فى الكلام على لسان الله تعالى ، إنما وردتْ فى كلام موسى ؛ لأنه فى موقف تَعداد نعَم الله على قومه وقصده ؛ لأن يُضخِّم نعم الله عليهم ويُذكِّرهم بكل النعم ، فعطف على ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .. ⑥ ﴾ [إبراهيم] قوله ﴿ وَيُذَبِّحُونَ .. ⑥ ﴾ [إبراهيم]

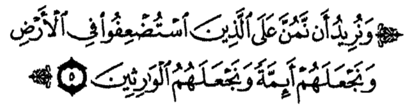
لكن حين يتكلَّم الله تعالى فلا يمتنُّ إلا بالشىء الأصيل ، وهو قتْل الأولاد واستحياء النساء ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يمتنّ بالصغيرة ، إنما يمتنُّ بالشىء العظيم ، فتذبيح الأبناء واستحياء النساء هو نفسه سوء العذاب .

وقوله مرة ﴿ يُذَبِّحُونَ .. ㊾ ﴾ [البقرة] ومرة ﴿ يُقَتِّلُونَ .. ⑭١ ﴾ [الأعراف] لأن قتل الذُّكْران أخذ أكثر من صورة ، فمرَّة يُذبِّحونهم ومرة يخنقونهم .

ومعنى ﴿ يَسُومُونَكُمْ .. ⑭١ ﴾ [الأعراف] من السَّوْم ، وهو أنْ تطلب الماشية المرعى ، فنتركها تطلبه فى الخلاء ، وتلتقط رزقها بنفسها لا نقدمه نحن لها ، وتسمى هذه سائمة ، أما التى نربطها ونُقدِّم لها غذاءها فلا تُسمَّى سائمة .

فالمعنى ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .. ⑭١ ﴾ [الأعراف] يعنى : يطلبون لكم سوء العذاب ، وما داموا كذلك فلا بُدَّ أنْ يتفنَّنوا لكم فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :



فلن يدوم لفرعون هذا الظلم ؛ لأن الله تعالى كتب ألاَّ يفلح ظَلُّوم ، وألاَّ يموت ظلوم ، حتى ينتقم للمظلوم منه ، ويُريه فيه عاقبة ظلمه ، حتى إن المظلوم ربما رحم الظالم ، وحَسْبك من حادث بامرىء ترى حاسديه بالأمس ، راحمين له اليوم .

وهنا تُطالعنا غضبة الحق ـ تبارك وتعالى ـ للمؤمنين ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ .. ۝ ﴾ [القصص] والمنة : عطاء مُعوِّض ، وبدون مجهود من معطى المنة ، كأنها هبَة من الحق سبحانه ، وغضبة لأوليائه وأهل طاعته ؛ لأن الحق ـ تبارك وتعالى ـ كما قال الإمام على : إن الله لا يُسلم الحق ، ولكن يتركه ليبلو غَيْرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا عليه غَارَ هو عليه .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يغَارُ على الذين استُضعفوا لا يرفع عنهم الظلم فحسب ، وإنما أيضاً ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً .. ۝ ﴾ [القصص] أئمة فى الدين وفى القيم ، وأئمة فى سياسة الأمور والملك ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ ﴾[القصص] أى : يرثون مَنْ ظلمهم ، ويكونون سادةً عليهم وأئمةً لهم ، فانظر على كم مرحلة تأتى غيرة الله لأهل الحق .

ولولا أن فرعون ـ الذى قوى على المستضعفين وأذلَّهم ـ تأبَّى على الله ورفض الانقياد لشملته رحمة الله ، ولعاشَ هو ورعيته سواء .

لذلك أهل الثورات الذين جاءوا للقضاء على أصحاب الفساد وإنصاف شعوبهم ممَّنْ ظلمهم ، كان عليهم بعد أنْ يقضوا على الفساد ، وبعد أن يمنعوا المفسد أن يُفسد ، ويحققوا العدالة فى المجتمع ، كان عليهم أنْ يضموا الجميع إلَى أحضانهم ورعايتهم ، ويعيش الجميع بعد تعديل الأوضاع سواسية فى مجتمعهم ، وبذلك نأمن الثورة المضادة .

ثم يقول تعالى استكمالاً لمنَّته :

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ .. ﴿٦﴾﴾ [القصص] نعرف أن الأرض مكان يحدث فيه الحدَث ، لأنَّ كل حَدَث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فالمعنى : نجعل الأرض مكاناً لممكَّن فيها ، والتمكين يعنى : يتصرف فيها تسلطاً ، ويأخذ خيرها .

وقد شرح الحق سبحانه لنا التمكين فى عدة مواضع من القرآن ، ففى قصة يوسف عليه السلام : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يوسف] مكين يعنى : لك عندنا مكانة ومركز ثابت لا ينالُك أحد بشىء ، ومنها قوله تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ .. ﴿٢١﴾﴾ [يوسف] يعنى : أعطيناه سلطة يأخذ بها خير المكان ، ثم يُصرِّف هذا الخير للآخرين .

وقوله تعالى : ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص] وهامان هو وزير فرعون ، ولابد أنه كان لكل منهما جنود خاصة غير جنود الدولة عامة ، كما نقول الآن : الحرس الجمهورى ، والحرس الملكى ، والجيش .

أو : أن هامان يصنع من باطن فرعون ، فالملك لا يزاول أموره إلا بواسطة وزرائه ، وفى هذه الحالة يأخذ الجنود الأوامر من هامان . أو : أن هامان كان له سلطة ومركز قوة لا تقل أهمية عن سلطة فرعون ، وربما رفع رأسه وتطاول على فرعون فى وقت من الأوقات .

وقد رأينا هذا عندنا فى مصر ـ لذلك يقولون فى المثل الريفى المعروف : تقول لمن يحاول خداعك (على هامان) ؟ يعنى : أنا لا تنطلى علىَّ هذه الحيل .

والضمير فى ﴿ مِنْهُم .. ﴿٦﴾ ﴾ [القصص] يعود على المستضعفين ﴿ مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص] أى : سنريهم الشىء الذى يخافون منه ، والمراد النبوءة التى جاءتهم ، إما عن طريق الكهنة ، أو عن طريق الرُّؤْيا ، حيث رأى فرعون ناراً تأتى من بيت المقدس ، وتتسلط على القِبْط فى مصر ، لكنها لا تؤذى بنى إسرائيل ، فلما عبَّروا له هذه الرؤيا قال : لا بد أنه سيأتى من هذه البلد من يسلب منى مُلْكى[(١)] .

ويُرْوى أن الكهنة أخبروه أنه سيُولد فى هذه السنة مولود يكون ذهاب مُلْكك على يديه .

فسوف يرى فرعون وقومه هذه المسألة بأعينهم ويباشرونها بأنفسهم ، وسيقع هذا الذى يخافون منه ؛ لذلك أمر فرعون بقتْل الذكْران من بنى إسرائيل ليحتاط لأمره ، ويُبقِى على مُلْكه ، لكن هذا الاحتياط لم يُغنِ عنه شيئاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾

---

(١) قاله السدى فيما أخرجه ابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم ، ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٣٨٩) .

عجيب أمر فرعون.، فبعد أن أمر بقتل الأولاد من بنى إسرائيل يأتيه فى البحر تابوت به طفل رضيع ، فلا يخطر على باله أن أهله ألقوه فى البحر لينجو من فرعون ، فكيف فاتَتْه هذه المسألة وهو إله ؟ لم يعرفها بألوهيته ، ولا عرفها حتى بذكائه وفِطْنته .

وإذا كان الكهنة أخبروه بأن ذهاب مُلْكه على يد وليد من هؤلاء الأولاد ، وإذا كانت هذه النبوءة صحيحة فلا بُدَّ أن الولد سينجو من القتل ويكبر ، ويقضى على مُلْك فرعون ، وما دام الأمر كذلك فسوف يقتل فرعون الأولاد غير الذى سيكون ذهاب مُلْكه على يديه .

وتشاء إرادة الله أنْ يتربَّى موسى فى قصر فرعون ، وأنْ تأتى إليه أمه السيدة الفقيرة لتعيش معه عيشة الترف والثراء(١) ، ويصير موسى بقدرة الله قُرَّة عَيْن للملكة ، فانظر إلى هذا التغفيل ، تغفيل عقل وطمس على بصيرة فرعون الذى ادَّعى الألوهية .

وبذلك نفهم قول الله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال] فقلبه يُغطِّى على بصيرته ويُعمِّيها .

وقوله تعالى لأم موسى : ﴿أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. ﴿٧﴾﴾ [القصص] فمَنْ منَ النساء تقبل إنْ خافت على ولدها أنْ تُلقيه فى اليم ؟ مَنْ ترضى أَنْ تُنجيه من موت مظنون إلى موت محقق ؟ وقد جعل الحق سبحانه عاطفة الأمومة تتلاشى أمام وارد الرحمن الذى أتاها ، والذى لا يؤثر فيه وارد الشيطان .

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٨١ ، ٣٨٢) : « استدعت آسية امرأة الملك أم موسى وأحسنت إليها وأعطتها عطاء جزيلاً وهى لا تعرف أنها أمه فى الحقيقة ولكن لكونه وافق ثديها ، ثم سألتها آسية أن تقيم عندها فترضعه فأبت عليها وقالت : إن لى بعلاً وأولاداً ولا أقدر على المقام عندك ، ولكن إن أحببت أن أرضعه فى بيتى فعلت ، فأجابتها امرأة فرعون إلى ذلك وأجرت عليها النفقة والصلات والكساوى والإحسان الجزيل ، فرجعت أم موسى بولدها راضية مرضية قد أبدلها الله بعد خوفها أمناً فى عز وجاه ورزق دارّ » .

ثم يهيىء الحق سبحانه كذلك امرأة فرعون ليتم هذا التدبير الإلهى لموسى فتقول ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. ⑨ ﴾ [القصص]

فيرد عليها فرعون : بل لك أنت وحدك ، وكأنه يستشعر ما سيحدث ، ولكن إرادة الله لا بُدَّ نافذة ولا بُدَّ أن يأخذ القدر مجراه لا يمنعه شىء ؛ لأن الله تعالى إذا أراد شيئاً فلا رادّ لإرادته .

فمع ما علمه فرعون من أمر الرؤيا أو النبوءة ربَّى الوليد فى بيته ، ولا يخلو الأمر أيضاً من سيطرة المرأة على الرجل فى مثل هذا الموقف .

لذلك النبى ﷺ حينما قُرِئت هذه الآية قال : « والذى يُحلف به ، لو قال فرعون كما قالت امرأته ـ قرة عين لى ولك ـ لهداه الله كما هداها »(١) . إنما ردَّ الخير الذى ساقه الله إليه ؛ لذلك أسلمتْ زوجته وماتت على الإيمان .

وهى التى قالت : ﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ⑪ ﴾ [التحريم] أما هو فمات على كفره شرَّ ميتة .

وسبق أنْ تكلّمنا فى وحى الله لأم موسى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ .. ⑦ ﴾ [القصص] وقلنا : إن الوحى فى عموم اللغة : إعلام بطريق خفى دون أن تبحث عن الموحِى ، أو الموحَى إليه ، أو الموحَى به . أما الوَحْى الشرعى فإعلام من الله تعالى لرسوله بمنهج لخَلْقه .

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/٥٦٩) عن ابن عباس وعزاه لابن أبى عمر العدنى فى مسنده وعبد بن حميد والنسائى وأبى يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « والذى يُحلف به ، لو أقر فرعون بأن يكون قرة عين له ، كما قالت امرأته لهداه الله به ، كما هدى به امرأته ولكن الله عز وجل حرمه ذلك » .

فالله تعالى يوحى للملائكة : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٢)﴾ [الأنفال]

ويُوحى إلى الرسل : ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ..(١٦٣)﴾ [النساء]

ويُوحى للمؤمنين الصادقين فى خدمة رسول : ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي .. (١١١)﴾ [المائدة]

يوحى إلى النحل ، بل وإلى الجماد : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

وقد يكون الإعلام والوحى من الشيطان : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ .. (١٢١)﴾ [الأنعام]

ويكون من الضالين : ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا.. (١١٢)﴾ [الأنعام]

فالوَحْى إلى أم موسى كان وَحْياً من المرتبة الرابعة بطريق النَّفْث فى الروع ، أو الإلهام ، أو برؤيا ، أو بملك يُكلِّمها ، هذا كله يصح .

وهذا الوحى من الله ، وموضوعه ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧)﴾ [القصص] وهذا أمر ﴿وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. (٧)﴾ [القصص] نهى ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾ [القصص] وهذه بشارة فى خبرين . فهذه الآية إذن جمعتْ لأم موسى أمرين ، ونهيين ، وبشارتين فى إيجاز بليغ مُعْجز .

ومعنى ﴿أَرْضِعِيهِ .. ⑦﴾ [القصص] يعنى : مدة أمانك عليه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ .. ⑦﴾ [القصص] ولم يقل من أىِّ شىء ليدلّ على أىِّ مخوف تخشاه على وليدها ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. ⑦﴾ [القصص] ويراعى الحق سبحانه مشاعر الأم وقلقها على ولدها ، خاصة إذا ألقتْه فى البحر فيطمئنها ﴿وَلا تَخَافِي .. ⑦﴾ [القصص] لأن الله سيُيسِّر له تربية خيراً من تربيتك فى ظل بيت الغنَى والملْك .

﴿وَلا تَحْزَنِي .. ⑦﴾ [القصص] أى : لفراقه ؛ لأن هذا الفراق سيُعوِّضك ، ويُعوِّض الدنيا كلها خيراً ، حين يقضى على هذا الطاغية ، ويأتى بمنهج الله الذى يحكم خَلْق الله فى الأرض .

ثم اعلمى بعد هذا أن الله رادُّه إليك ، بل وجاعله من المرسلين ، إذن : أنا الذى أحفظه ، ليس من أجلك فحسب ، إنما أيضاً لأن له مهمة عندى .

يقولون : ظلت أم موسى تُرضعه فى بيتها طالما كانت آمنة عليه من أعين فرعون ، إلى أنْ جاءها أحد العسس يفتش البيت فخافت على الولد فلفته فى خرقة ودسته فى فجوة بجوارها ، كانت هذه الفجوة هى الفُرْن ، ألقتْه فيه وهو مسجور[1] دون أن تشعر - يعنى من شدة خوفها عليه - حتى إذا ما انصرف العَسَس ذهبت إليه ، فإذا به سالماً لم يُصِبْه سوء . وكأن الله تعالى يريد لها أنْ تطمئن على حِفْظ الله له ، وأن وعده الحق .

وقد وردت مسألة وحى الله لأم موسى فى كتاب الله مرتين مما دعا السطحيين من المستشرقين إلى اتهام القرآن بالتكرار الذى

(١) سجر التنور يسجره : أوقده وأحماه ، وقيل : أشبع وقوده . [لسان العرب - مادة : سجر] .

لا فائدةَ منه ، وذكروا قوله تعالى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾﴾ [طه]

لكن فَرْق بين الوحى الأول والوحى الآخر : الوحى الأول خاص بالرضاعة فى مدة الأمان ، أما الآخر فبعد أنْ خافت عليه أوحى إليها لتقذفه فى اليم .

وتأمل ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ .. ﴿٣٩﴾﴾ [طه] والقذف إلقاء بقوة ، لا أنْ تضعه بحنان ورفق ؛ لأن عناية الله ستحفظه على أى حال ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. ﴿٣٩﴾﴾ [طه] وهذا أمر من الله تعالى لليمِّ أن يخرج الوليد سالماً إلى الساحل ؛ لذلك لم يأت فى هذا الوحى ذكْر لعملية الرضاعة .

فكأن الوحى الأول جاء تمهيداً لما سيحدث ؛ لتستعد الأم نفسياً لهذا العمل ، ثم جاء الوحى الثانى للممارسة والتنفيذ ، كما تُحدِّث جارك ، وتُحذِّره من اللصوص وتنصحه أنْ يحتاط لهذا الأمر ، فإذا ما دخل الليل حدث فعلاً ما حذّرتَهُ منه فَرُحْت تنادى عليه ليسرع إليهم ويضربهم .

لذلك يختلف أسلوب الكلام فى الوحى الأول ، فيأتى رتيباً مطمئناً : ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص] هكذا فى نبرة هادئة لأن المقام مقام نصح وتمهيد ، لا مقام أحداث وتنفيذ .

أما الوحى الثانى فيأتى فى سرعة ، وبنبرة حادة : ﴿أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. ﴿٣٩﴾﴾ [طه] فالعَجلة فى اللفظ تدلُّ على أن المقام مقام مباشرة للحدث فعلاً .

وفى الأولى قال: ﴿فَأَلْقِيهِ .. ۝٧﴾ [القصص] ، أما فى الثانية فقال ﴿فَاقْذِفِيهِ .. ۝٣٩﴾ [طه] والأم لا تقذف وليدها ، بل تضعه بحنان وشفقة ، لكن الوقت هنا ضيِّق لا يتسع لممارسة الحنان والشفقة .

والأمر لليمِّ بأن يلقى التابوت بالساحل له حكمة ؛ لأن العمق موضع للحيوانات البحرية المتوحشة التى يُخاف منها ، أمَّا بالقُرْب من الساحل فلا يوجد إلا صغار الأسماك التى لا خطورة منها ، وكذلك ليكون على مَرْأى العين ، فيطمئن عليه أهله ، ويراه مَنْ ينقذه ليصل إلى البيت الذى قُدِّر له أنْ يتربَّى فيه .

وفعلاً ، وصل التابوت إلى الساحل ، وكان فرعون وزوجته آسية وابنته على الشاطىء ، فلما أُخرِج لهم التابوت وجدوا فيه الطفل الرضيع ، وكان موسى عليه السلام أسمر اللون ، مُجعَّد الشعر ، كبير الأنف ، يعنى لم يكُنْ - عليه السلام - جميلاً تنجذب إليه الأنظار ويفرح به مَنْ يراه .

لذلك يمتنُّ الله عليه بقوله : ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى .. ۝٣٩﴾ [طه] أى : ليس بذاتك أن يحبك مَنْ يراك إنما بمحبة الله[1] ، لذلك ساعة رأته آسية أحبَّته وانشرح صدرها برؤيته ، فتمسَّكت به رغم معارضة فرعون لذلك .

كما أن ابنة فرعون ، وكانت فتاة مبروصة أصابها البرص[2] ،

---

(١) وقد ذكر القرطبى فى تفسيره (٥١٣٧/٧) أن « بعض القوابل الموكلات بحبالى بنى إسرائيل مصافية لها ، فقالت (لها أم موسى) : لينفعنى حبك اليوم ، فعالجتها ، فلما وقع إلى الأرض هالها نور بين عينيه ، وارتعش كل مفصل منها ، ودخل حبه قلبها ، ثم قالت : ما جئتك إلا لأقتل مولودك وأخبر فرعون ، ولكنى وجدت لابنك حباً ما وجدت مثله قط ، فاحفظيه » .

(٢) البرص : مرض جلدى يُحدث بُقعاً بيضاء فى الجلد تُشوِّهه ، وهو من أعراض مرض الجذام الكثيرة . [القاموس القويم ٦٤/١] .

ورأت فى الرؤيا أن شفاءها سيكون بشىء يخرج من البحر ، فتأخذ من ريقه ، وتدهن موضع البرص فيشفى ، فلما رأتْ موسى تذكرتْ رؤياها ، فأخذت من ريقه ودهنتْ جلدها ، فشُفِيت فى الحال فتشبثتْ به هى أيضاً .

فاجتمع لموسى محبة الزوجة ، ومحبة البنت ، وهما بالذات أصحاب الكلمة المسموعة لدى فرعون ، بحيث لا يرد لهما طلباً .

وفى انصياع فرعون لرغبة زوجته وابنته وضعفه أمامهما رغم ما يعلم من أمر الطفل دليلٌ على أن الزوجة والأولاد هما نقطة الضعف عند الرجل ، ووسيلة السيطرة على شهامته وحزمه ، والضغط على مراداته .

لذلك يطمئننا الحق - تبارك وتعالى - على نفسه ، فيقول سبحانه وتعالى ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا (٣)﴾ [الجن]

ذلك لأن الصاحبة غالباً ما تستميل زوجها بوسيلة أو بأخرى ، أما الولد فيدعو الأب إلى الجبْن والخضوع ، والحق - تبارك وتعالى - لا يوجد لديه مراكز قوى ، تضغط عليه فى أى شىء ، فهو سبحانه مُنزَّه عن كل نقص .

وحكوا فى دعابات أبى نواس أن أحدهم وسَّطه ليشفع له عند الخليفة هارون الرشيد ، فشفع له أبو نواس ، لكن الخليفة لم يُجِبْه إلى طلبه ، وانتظر الرجل دون جدوى ، ففكر فى وساطة أخرى ، واستشفع بآخر عند زبيدة زوجة الرشيد ، فلما كلَّمته أسرع إلى إجابة الرجل ، وهنا غضب أبو نواس وعاتب صاحبه الرشيد ، لكنه لم يهتم به ، فقال له اسمع إذن :

لَيسَ الشَّفِيعُ الذِى يأتِيكَ مُؤْتزراً ... مثْلَ الشَّفِيع الذِى يأتِيكَ عُرْيانا

ولهذه العناية الإلهية بموسى عليه السلام نلحظ أنه لما قال له ربه ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٢٤)﴾ [طه] خاف موسى من هذه المهمة ، وكان اسم فرعون فى هذا الوقت يُلقى الرعب فى النفوس ، حتى أن موسى وهارون قالا ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ(١) عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥)﴾ [طه]

لذلك طلب موسى من ربه ما يُعينه على القيام بمهمته : ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (٣٤) إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا (٣٥)﴾ [طه] فماذا قال له ربه ؟ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ (٣٦) وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ (٣٧)﴾ [طه]

أى : أُوتيت كل مسئولك ومطلوبك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨)﴾

اللَّقطُ واللُّقطة : أن تجد شيئاً بدون طلب له ، ومنه اللقيط ، وهو الطفل الرضيع تجده فى الطريق دون قَصْد منك ، أو بحث . وكذلك كان الأمر مع التابوت ، فقد جاء آلَ فرعون وهم جلوس لم يَسْعَوْا

(١) فرط على القوم : ظلمهم وجاوز الحد فى الحكم . قال تعالى عن موسى وهارون ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ (٤٥)﴾ [طه] يظلمنا فرعون ويتعدَّى علينا . [القاموس القويم ٢/٧٧] .

إليه ، ولم يطلبوه ، فما أنْ رأوه أخذوه ، لكن ما علة التقاطه ؟

الزوجة قالت ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ .. ⑨﴾ [القصص] وقالت فى حيثية أخرى : ﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. ⑨﴾ [القصص] فلم يكن لهم بنون ، فأرادوه أخاً للبنت ، وأرادته البنت صيدلية علاج ، لكن هل ظلتْ هذه العلة قائمة ووجدت فعلاً ؟

لا ، إنما التقطوه لتقدير آخر ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ⑧﴾ [القصص] لا ليكون قرة عين ، فاللام هنا فى ﴿لِيَكُونَ .. ⑧﴾ [القصص] لام العاقبة يعنى : كان يفكر لشىء ، فجاءت العاقبة بشىء آخر .

وفى هذا إشارة وبيان لغباء فرعون والطمس على بصيرته وهو الإله !! فبعد أنْ حذَّره الكهنة ، وبعد الرُّؤْيا التى رآها وعلْمه بخطورة هذا المولود على مُلْكه وعلى حياته يرضى أنْ يُربِّيه فى بيته ، وهذا دليل صدْق قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ㉔﴾ [الأنفال]

ومعنى ﴿حَزَنًا .. ⑧﴾ [القصص] يعنى حُزْن مثل : عَدَم وعُدْم ، وسَقَم وسُقْم ، وبَخَل وبُخْل ، فالمعنى يأتى بالصيغتين .

وقول الحق سبحانه : ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ⑧﴾ [القصص]

هم خاطئون ؛ لأن تصرفاتهم لا تتناسب مع ما عرفوه من أمر الوليد ، فلم يُقدِّروا المسائل ، ولم يستنبطوا العواقب ، وكان عليهم أن يشكُّوا فى أمر طفل جاء على هذه الحالة ، فلا بُدَّ أن أهله قصدوا نجاته من يد فرعون .

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ ﴾

معنى ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ .. ۝٩ ﴾ [القصص] مادة (قرَّ) تقول : قرَّ بالمكان يعنى : أقام وثبت به ، ومنه قرور يعنى : ثبات ، وتأتى قرَّ بمعنى البرد الشديد ، ومنه قول الشاعر : ..

أَوْقِدْ فإنَّ الليْلَ لَيْلٌ قُرٌّ والرِّيحُ يَا غُلاَمُ رِيحٌ صرّ
إنْ جلبْتَ ضَيْفاً فأنتَ حُرّ

إذن : قرة العين إما بمعنى ثباتها وعدم حركتها ، وثبات العين واستقرارها إما يكون ثباتاً حسياً ، أو معنوياً ، والثبات المعنوى : أنْ تستقر العين على منظر أو شىء بحيث تكتفى وتقنع به ، ويغنيها عن التطلُّع لغيره .

ومنه قولهم : فلان ليس له تطلعات أخرى ، يعنى اكتفى بما عنده ، ومنه ما قال تعالى مخاطباً نبيه محمداً ﷺ : ﴿ وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ .. ۝١٣١ ﴾ [طه]

لذلك يُسمُّون الشىء الجميل الذى يجذب النظر ، فلا ينظر إلى غيره (قيد النظر) يقول الشاعر :

سَمَّرْتُ عَيْنِى فى القَمَرِ فَنَالَ منِّى مَنْ نَظَر
يَا ليْتَ لائمى عذَرْ فحُسْنه قَيْد النَّظرْ

أما الثبات الحسى فيعنى : ثبات العين فى ذاتها بحيث لا ترى ، ومنه قول المرأة للخليفة : أقرَّ الله عينك ، وأتم عليك نعمتك . تُوهِم

أنها تدعو له ، وهى فى الحقيقة تدعو عليه تقصد : أقرَّ الله عينك .

يعنى : سكَّنها وجمدها بالعمى ، وأتمَّ عليك نعمتك . وتمام الشىء بداية نقصه على حَدِّ قول الشاعر :

إذَا تَمَّ شَىء بَدَا نَقْصُه ترقَّبْ زَوَالاً إذاَ قيلَ تَمّ

أما القرُّ بمعنى البرد ، فمن المعلوم عن الحرارة أن من طبيعتها الاستطراق والانتشار فى المكان ، لكن حكمة الله خرقتْ هذه القاعدة فى حرارة جسم الإنسان ، حيث جعل لكل عضو فيه حرارته الخاصة ، فالجلد الخارجى تقف حرارته الطبيعية عند ٣٧° ، فى حين أن الكبد مثلاً لا يؤدى مهمته إلا عند ٤٠° .

أما العين فإذا زادتْ حرارتها عن ٩° تنصهر ، ويفقد الإنسان البصر ، والعجيب أنهما عضوان فى جسم واحد ، فهى آية من آيات الله فى الخلق ، لذلك حين ندعو لشخص نقول له : أقرَّ الله عينك يعنى : جعلها باردة سالمة ، ألاَ ترى أن الإنسان إذا غَضِب تسخنُ عينه ويحمرّ وجهه ؟

فالمعنى هنا ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ (٩)﴾ [القصص] يعنى يكون نعمة ومتعة لنا ، نفرح به ونقنع ، فلا ننظر إلى غيره .

وفى موضع آخر يشرح لنا الحق سبحانه قُرَّة العين : ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً (١٨) أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ.. (١٩)﴾ [الأحزاب]

فهؤلاء تدور أعينهم هنا وهناك كما نقول نحن : (فلان عينه لايجة) يعنى : لا تهدأ ، إما من خوف ، أو من قلق ، أو من اضطراب ، وهذا كله ينافى قُرَّة العين .

وقولها بعد ذلك ﴿لَا تَقْتُلُوهُ.. ⑨﴾[القصص] تعنى : أنهم فعلاً هَمُّوا بقتله ، ففى بالهم إذن أن هلاك فرعون علىَ يدى هذا الطفل ، وهم على يقين من ذلك .

﴿عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑨﴾[القصص] يعنى : لا يشعرون بنفعه لهم أو عدم نفعه ، وهل سيكون لهم ولداً أم عدواً ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا(١) إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ⑩﴾

الفؤاد : هو القلب ، لكن لا يُسمى القلب فؤاداً إلا إذا كانت فيه قضايا تحكم حركتك ، فالمعنى : أصبح فؤاد أم موسى ﴿فَارِغًا..⑩﴾

---

(١) جاء فى تأويل هذه الكلمة عدة تأويلات منها :

– أى : خالياً من ذكر كل شىء فى الدنيا إلا من ذكر موسى . قاله ابن مسعود وابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة وقتادة والضحاك وغيرهم .

– أى : فارغاً من الوحى إذ أوحى إليها حين أمرت أن تلقيه فى البحر ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي.. ⑦﴾ [القصص] والعهد الذى عهده إليها أن يرده ويجعله من المرسلين . قاله الحسن وابن إسحاق وابن زيد .

– أى : فارغاً من الغم والحزن لعلمها أنه لم يغرق . قاله أبو عبيدة والأخفش .

– أى : ذهب عقلها . قاله مالك . والمعنى أنها حين سمعت بوقوعه فى يد فرعون طار عقلها من فرط الجزع والدهش .

قال النحاس : أصح هذه الأقوال الأول ، والذين قالوه أعلم بكتاب الله عز وجل ، فإذا كان فارغاً من كل شىء إلا من ذكر موسى فهو فارغ من الوحى ، وقول أبى عبيدة : فارغاً من الغم غلط قبيح ، لأن بعده ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا .. ⑩﴾ [القصص] . [تفسير القرطبى ٧/٥١٤١] .

[القصص] أى : لا شىء فيه مما يضبط السلوك ، فحين ذهبتْ لترمى بالطفل وتذكرت فراقه وما سيتعرض له من أخطار كادت مشاعر الأمومة عندها أن تكشف سرَّها ، وكادت أنْ تسرقها هذه العاطفة .

﴿ إن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ .. ⁽١٠⁾ ﴾ [القصص] يعنى : تكشف أمره ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا ⁽١٠⁾ ﴾ [القصص]

وسبق أنْ قُلْنا : إن الإنسان يدرك الأشياء بآلات الإدراك عنده ، ثم يتحول هذا الإدراك إلى وجدان وعاطفة ، ثم إلى نزوع وعمل ، ومثَّلْنا لذلك بالوردة التى تراها بعينيك ، ثم تعجب بها ، ثم تنزع إلى قطفها ، وعند النزوع تواجهك قضايا فى الفؤاد تقول لك : لا يحق لك ذلك ، فربما رفض صاحب البستان أو قاضاك ، فالوردة ليست ملْكاً لك .

وكذلك أم موسى ، كان فؤادها فارغاً من القضية التى تُطمئنها على وليدها ، بحيث لا تُفشى عواطفها هذا السر .

ومعنى ﴿ رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا .. ⁽١٠⁾ ﴾ [القصص] أى : ثبَّتْناها ليكون الأمر عندها عقيدة راسخة لا تطفو على سطح العاطفة ، ومن ذلك قوله تعالى عن أهل الكهف : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ⁽١٤⁾ ﴾ [الكهف]

إذن : الربْط على القلب معناه الاحتفاظ بالقضايا التى تتدخل فى النزوع ، فإنْ كان لا يصح أن تفعل فلا تفعل ، وإنْ كان يصح أنْ تفعل فافعل ، فهذه القضايا الراسخة هى التى تضبط التصرفات ، وكان فؤاد أم موسى فارغاً منها .

لذلك نقول لمن يتكلم بالكلام الفارغ الذى لا معنى له : دَعْكَ من هذا الكلام الفارغ – أى : الذى لا معنى له ولا فائدةَ منه ، ومن ذلك قولهم : فلان عقله فارغ يعنى : من القضايا النافعة . وإلا فليس هناك شىء فارغ تماماً ، لابُدَّ أن يكون فيه شىء ، حتى لو كان الهواء .

ومنه قوله تعالى :﴿ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ .. (٤٣) ﴾ [إبراهيم] ويقولون في العامية : (فلان معندوش ولا الهوا) ذلك لأن الهواء آخر ما يمكن أن يفرغ منه الشيء .

ومعنى : ﴿ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ .. (١٠) ﴾ [القصص] يعني : قاربت من فراغ فؤادها أن تقول إنه ولدي[1] ﴿ لَوْلا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) ﴾ [القصص] لأن الإيمان هو الذي يجلب لك النفع ، ويمنعك من الضار ، وإنْ كان فيه شهوة عاجلة لك ، فمنعها إيمانُها من شهوة الأمومة في هذا الموقف ، ومن ممارسة العطف والحنان الطبيعيين في الأم ؛ لأن هذه شهوة عاجلة يتبعها ضرر كبير ، فإنْ أحسُّوا أنه ولدها قتلوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ[2] فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) ﴾

قُصِّيه : يعني : تتبعي أثره ، وراقبي سيره إلى أين ذهب ؟ وماذا فُعِل به ؟ وحين سمعت الأخت هذا الأمر سارعتْ إلى التنفيذ ؛ لذلك استخدم الفاء الدالة على التعقيب وسرعة الاستجابة ﴿ فَبَصُرَتْ بِهِ (١١) ﴾ [القصص] ولم يقُلْ : فقصَّته ؛ لأن البصر وإنْ كان بمعنى الرؤية إلا أنه يدل على العناية والاهتمام بالمرئي .

(١) قال ابن عباس : أي تصيح عند إلقائه : وا ابناه . وقال السدي : كادت تقول لما حملته لإرضاعه وحضانته : هو ابني . وقيل : إنه لما شب سمعت الناس يقولون موسى ابن فرعون ، فشق عليها وضاق صدرها ، وكادت تقول : هو ابني . [تفسير القرطبي ٥١٤٢/٧] .

(٢) القصُّ : اتباع الأثر . ويقال : خرج فلان قصصاً في أثر فلان وذلك إذا اقتص أثره . [لسان العرب - مادة : قصص] .

ومعنى : ﴿ عَن جُنُبٍ .. ⑪ ﴾ [القصص] من ناحية بحيث لا يراها أحد ، ولا يشعر بتتبعها له ، واهتمامها به . ومن ذلك ما حكاه القرآن من قول السامرى :﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ .. ⑨⑥ ﴾ [طه] أى : رأى من حيث لا يطَّلِع أحد عليه .

ونلحظ هنا أن أخت موسى أخذتْ الأمر من أمها ﴿ قُصِّيهِ .. ⑪ ﴾ [القصص] فقط ولم تلفت نظرها إلى هذا الاحتياط ﴿عَن جُنُبٍ .. ⑪ ﴾ [القصص] مما يدلُّ على ذكاء الفتاة وقيامها بمهمتها على أكمل وجه ، وإن لم تُكلَّف بذلك ، وهذا من حكمة المرسَل الحريص على أداء رسالته على وجهها الصحيح .

وما أجملَ ما قاله الشاعر فى هذا المعنى :

إذَا كُنْتَ فى حَاجَةٍ مُرْسِلاً ... فأرسِلْ حكيماً ولاَ تُوصِهْ

وقوله تعالى : ﴿عَن جُنُبٍ.. ⑪ ﴾ [القصص] يظن البعض أن جنب يعنى قريب منى ، وهذا غير صحيح ؛ لأن معنى الجنب ألاَّ تكون فى مواجهتى ، لذلك يقول تعالى :﴿ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ .. ③⑥ ﴾ [النساء] إذن : الجار الجنب مقابل الجار القريب ، فمعناه الجار البعيد .

فكأن الفتاة حين ذهبت لتتبع سَيْر التابوت أخذت مكاناً بعيداً منه ، حتى لا يفطن أحد إلى متابعتها له .

ومن ذلك قولنا : (فلان تجنَّبنى ، أو فلان واخد جنب منى) أى : يبتعد عنى ، إذن : البعض يفهم هذه الكلمة على عكس مدلولها .

ألاَ ترى لقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَاجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ.. ③⑤ ﴾ [إبراهيم] وقوله تعالى : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ③⓪ ﴾ [الحج] فالاجتناب يعنى : الابتعاد .

وفى تحريم الخمر قال تعالى :﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ(١) رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ .. (٩٠) ﴾ [المائدة] فطلع علينا مَنْ يقول : هذا ليس نصاً فى التحريم ، لأنه لم يقُلْ حرِّمْت عليكم ، فهى مجرد موعظة ونصيحة .

ونقول : لو فهمت معنى ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ .. (٩٠) ﴾ [المائدة] لعلمتَ أنها أقوى فى التحريم من حرمت عليكم ؛ لأن معنى حرِّمْت عليكم الخمر يعنى : لا تشربوها ، أما ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ .. (٩٠) ﴾ [المائدة] يعنى : ابتعدوا عنها كليةً شُرْباً أو بَيْعاً ، أو شراء ، أو نقلاً ، أو حتى الجلوس فى مجالسها .

ثم تتحدث الآيات بعد ذلك عن تمهيدات الأقدار للأقدار ، فتقول :

﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) ﴾

التحريم هنا لا يعنى التحريم بالنسبة للمكلَّف : هذا حلال وهذا حرام ، إنما ﴿ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ .. (١٢) ﴾ [القصص] يعنى : منعناه أنْ يرضع من المرضعات اللائى يأتونَ بهن لتتقلب عليه المراضع واحدة بعد الأخرى ، إلى أن تأتيه أمه .

و ﴿ الْمَرَاضِعَ .. (١٢) ﴾ [القصص] جمع مُرضِع ، ونقول أيضاً : مرضعة ، ولكل من اللفظين مدلول ، على خلاف ما يظنه البعض أنهما بمعنى واحد .

---

(١) الأزلام : جمع زَلَم : وهى قطعة من الخشب تشبه السهم يقترعون بها ، فيقسمون بها الذبائح ، يُكتب على كل زلم عدد الأنصباء يأخذه من المقامرين مَنْ يخرج له وهو نوع من الميسر المحرَّم شرعاً . [القاموس القويم ١/٢٨٩] .

واقرأ أول سورة الحج : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ .. ۝٢ ﴾ [الحج]

المرضِع : التى من شأنها أنْ تُرضع ، وصالحة لهذه العملية ، لكن المرضِعة التى تُرضع الآن فعلاً ، وعلى حِجْرها طفل يلتقم ثديها ، وفى موقف القيامة ستذهل هذه عن طفلها من هَوْل ما ترى ، إذن : فالتى تذهل هى المرضعة لا المرضع .

والضمير فى ﴿ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ .. ۝١٢ ﴾ [القصص] يعود على أخت موسى ؛ لأنها ما زالت فى مهمة تتبُّع الولد ، وقد سمعها هامان تقول ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ۝١٢ ﴾ [القصص] فقال لها : لابدَّ أنك من أهل هذا الولد ؟ وتعرفين قصَّته ، فقالت : بل ناصحون للملك مخلصون له[1]. وفعلاً وافقوها على ما نصحتْ به ؛ لأنهم معذورون ، فالولد يأبى الرضاعة من الأخريات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣ ﴾

وسبق أنْ وعدها الله :﴿ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ .. ۝٧ ﴾ [القصص] وها هو أوانُ تحقيق الوعد الأول ، وهو بُشْرى بتحقُّق الوعد الثانى ﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧ ﴾ [القصص] لكن هذا فى مستقبل الأيام ، وسوف يتحقق أيضاً .

---

(١) قال ابن عباس : فلما قالت ذلك أخذوها وشكُّوا فى أمرها وقالوا لها : وما يدريك بنصحهم له وشفقتهم عليه ؟ فقالت لهم : نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم فى سرور الملك ورجاء منفعتهم [تفسير ابن كثير ٣/٣٨١] .

وقوله سبحانه : ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ ..(١٣)﴾ [القصص] يدل على أن الأسباب في يد المسبب سبحانه ، فنحن الذين رددناه ، لا أخته ولا فرعون ؛ لأننا نُسيِّر الأمور على وَفْق مرادنا ، ونُمهِّد لها الطريق حتى أننا نحول بين المرء وقلبه ، لينفذ قضاؤنا فيه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾ [القصص] يعني : لا يعلمون أن وَعْد الله حق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٤) ﴾

الأشُدّ : يعني القوة واكتمال النمو ، وقد حدَّدوا لذلك سنَّ الثامنة عشرة إلى العشرين ﴿ وَاسْتَوَىٰ .. (١٤)﴾ [القصص] الاستواء هو بلوغُ العقلِ مرحلةَ النضج الفكري ، فلما اكتملت لموسى - عليه السلام - قوة الجسم ونُضْج العقل ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)﴾ [القصص]

ثم يقصُّ الحق سبحانه ، فيقول :

﴿ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) ﴾

أراد موسى - عليه السلام - أن يدخل القرية على حين غفلة من أهلها ، لأن بنى إسرائيل كانوا مُضطهدين ، وكان القبط فى بعض المدن ذاتَ الكثافة العددية منهم يُحرِّمون على بنى إسرائيل دخول قراهم ؛ لذلك اختار موسى وقت غفلة الناس ، لكنه لم يدخل فى الليل لأنه لا يهتدى إلى الطريق ، فقيل : دخلها وقت القيلولة والناس فى بيوتهم(١) .

﴿ فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِ .. (١٥) ﴾ [القصص] يعنى : من بنى إسرائيل ﴿ وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ .. (١٥) ﴾ [القصص] يعنى : الأقباط ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ .. (١٥) ﴾ [القصص] أى : طلب منه العَوْن والنجدة ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ .. (١٥) ﴾ [القصص] يعنى : ضربه بجُمْع يديه ، فجاءت نهاية القبطى وأجله مع هذه الضربة ، لا أنه مات بها ، وكثيراً ما تحدُث هذه المسألة فى شجار مثلاً بين شخصين ، فيضرب أحدهما الآخر فيقع ميتاً ، وبتشريح جثته يتبين أنه مات بسبب آخر .

ومثال ذلك : حين تكلِّف شخصاً بقضاء حاجة لك ، أو تُوسِّطه فى أمر ما ، فيدخل عند المسئولين ويسعى إلى أنْ يقضى لك حاجتك فتقول : « فلان قضالى كذا وكذا » وهو فى الحقيقة ما قضى فى الأرض إلا بعد أن قضى الله فى السماء .

لكن الله تعالى أراد أنْ يُكرم الواسطة ، فجعل قضاءها موافقاً لقضائه سبحانه ، فنقول فى هذه الحالة : قضى الله المصلحة معه لا به .

كان القبط - كما قُلْنا - يكرهون بنى إسرائيل ويُعذِّبونهم ، فلما

---

(١) قاله سعيد بن جبير وقتادة . وقاله ابن عباس أيضاً ، وفى رواية عنه : هو بين العشاء والعتمة . [تفسير القرطبى ٥١٤٦/٧] .

قتلَ موسى القبطى زاد غضبهم وكراهيتهم لبنى إسرائيل ؛ لذلك أحسَّ موسى أن هذا العمل من الشيطان ، ليزيد هذه العداوة ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [القصص]

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝١٦﴾

يُعلمنا موسى – عليه السلام – أن الإنسان ساعة يقترف الذنب ، ويعتقد أنه أذنب لا يكابر ، إنما ينبغى عليه أنْ يعترف بذنبه وظلمه لنفسه ، ثم يبادر بالتوبة والاستغفار ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي .. ۝١٦﴾ [القصص] يعنى : يا ربّ حكْمك هو الحقّ ، وأنا الظالم المعترف بظلمه .

ومن هنا كان الفرْق بين معصية آدم عليه السلام ومعصية إبليس : آدم عصى واعترف بذنبه وأقرَّ به ، فقال﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا .. ۝٢٣﴾[الأعراف] فقبل الله منه وغفر له . أما إبليس فعلَّل عدم سجوده : ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١﴾[الإسراء] وقال :﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ۝٧٦﴾[ص] فردَّ الحكم على الله .

لذلك نقول لمن يُفتى بغير ما شرع الله فيُحلِّل الحرام لسبب ما ، نقول له : احذر أنْ تردَّ على الله حكمه ؛ لأنك إنْ فعلتَ فأنت كإبليس حين ردَّ على الله حُكمه ، لكن افْتِ بالحكم الصحيح ، ثم تعلَّل بأن الظروف لا تساعد على تطبيقه ، فعلى الأقل تحتفظ بإيمانك ، والمعصية تمحوها التوبة والاستغفار ، أما الكفر فلا حيلةَ معه .

فلما استغفر موسى ربه غفر له ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝١٦﴾[القصص] يُعرف الذنب ، ثم يغفره رحمة بنا ؛ لأن الإنسان حين تصيبه غفلة

فيقع فى المعصية إذا لم يجد باباً للتوبة وللرجوع يئس وفقد الأمل ، وتمادى فى معصيته ونسميه (فاقد) عنده سُعار للجريمة ، ولا مانع لديه من ارتكاب كل الذنوب .

إذن : فمشروعية التوبة والاستغفار تعطى المؤمن أملاً فى أنه لن يُطرَدَ من رحمة الله ، لأن رحمة الله واسعة تسَع كل ذنوبه مهما كثُرتْ .

لذلك يقول تعالى فى مشروعية التوبة ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. ﴿١١٨﴾﴾ [التوبة] والمعنى : شرع لهم التوبة ، وحثَّهم عليها ليتوبوا بالفعل فيقبل منهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ[1] فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾

قوله : ﴿ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. ﴿١٧﴾﴾ [القصص] يعنى : بالمغفرة وعذرتنى وتُبْت علىَّ ﴿ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [القصص] أى : عهد الله علىَّ ألاَّ أكون مُعيناً للمجرمين[2].

ثم يقول الحق سبحانه :

(١) أى : من المعرفة والحكمة والتوحيد . قاله القرطبى فى تفسيره (٥١٤٨/٧) وقال ابن كثير فى تفسيره (٣٨٢/٣) : « أى بما جعلت لى من الجاه والعز والنعمة » .

(٢) أراد بمظاهرة المجرمين إما صحبة فرعون وانتظامه فى جملته ، وتكثير سواده ، حين كان يركب بركوبه كالولد مع الوالد ، وكان يُسمَّى ابن فرعون ، وإما بمظاهرة من أدت مظاهرته إلى الجرم والإثم كمظاهرة الإسرائيلى المؤدية إلى قتل الذى لم يحل له قتله . [القرطبى فى تفسيره ٥١٤٨/٧] .

﴿ فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ ﴾

أى : بعد أن قتل موسى القبطىَّ صار خائفاً منهم ﴿ يَتَرَقَّبُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [القصص]

ينظر فى وجوه الناس ، يرقب انفعالاتهم نحوه ، فربما جاءوا ليأخذوه[1] ، كما يقولون : يكاد المريب أنْ يقول : خذونى ، فلو جلس قوم فى مكان ، ثم فاجأهم رجال الشرطة تراهم مطمئنين لا يخافون من شىء ، أما المجرم فيفر هارباً .

ومن ذلك ما يقوله أهل الريف : (اللى على راسه بطحة يحسس عليها)

وهو على هذه الحال من الخوف والترقُّب إذ بالإسرائيلى الذى استغاث به بالأمس ﴿ يَسْتَصْرِخُهُ .. ﴿١٨﴾ ﴾[القصص] استصرخ يعنى : صرخ ، ونادى على مَنْ يُخلِّصه ، وهو انفعال للاستنجاد للخلاص من مأزق ، ومن ذلك قوله تعالى حكاية عن إبليس﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وسبق أنْ تكلَّمنا فى همزة الإزالة نقول : صرخ فلان يعنى استنجد بأحد فأصرخه يعنى : أزال سبب صراخه ، فمعنى الآية : أنا لا أزيل صراخكم ، ولا أنتم تزيلون صراخى .

عندها قال موسى عليه السلام لصاحبه الذى أوقعه فى هذه

(١) قال سعيد بن جبير : يتلفت من الخوف . وقيل : ينتظر الطلب ، وينتظر ما يتحدث الناس به . [تفسير القرطبى ٥١٥٠/٧] وانظر الدر المنثور للسيوطى (٤٠٠/٦) .

الورطة بالأمس ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾[القصص] تريد أنْ تُغـوِيَنى بأنْ أفعل كما فعلت بالأمس ، وما كـان موسى - عليه السلام - ليقع فى نفس الخطأ الذى وقع فيه ، فلا يُلْدَغ المؤمن من جُحْر مرتين[1].

﴿فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا[2] قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِى كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسًۢا بِٱلۡأَمۡسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى :﴿ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا ..﴿١٩﴾﴾[القصص] يعنى : أن موسى حَنَّ مـرة أخرى للذى من شـيعتـه وهو الإسرائيلى وناصره ، ولكن الرجل القبطى هذه المـرة واجهه ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ.. ﴿١٩﴾﴾ [القصص] فهـو يعرف ما حـدث من موسى ، وما داموا قد عـرفوا أنه القاتل ، فلا بُدَّ لهم أنْ يطلبوه ، وأن ينـتقموا منه .

وقوله تعالى :﴿ إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص] إنْ هنا نافـية يعنى : مـا تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض ، فقد قتلتَ نفساً بالأمس ، وتريد أنْ تقتلنى اليوم .

إذن : عـرفـوا أن موسـى هو القـاتل ، وهناك ولا بُدَّ مَنْ يسـعى

(١) نص حديث لرسـول الله ﷺ ، أخرجه البخارى فـى صحيحه (٦١٣٣) ، وكـذا مسلم فى صحيحه (٢٩٩٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) القاتل هنا هو : الإسرائيلى الذى من شيعة موسى والذى كان قد استصرخه بالأمس . قال سعيد بن جبير : أراد موسى أن يبطش بالقبطى فتوهم الإسرائيلى أنه يريده ، لأنه أغلظ له فى القول ، فقال : ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالأَمْسِ .. ﴿١٩﴾﴾ [القصص] فسمع القبطى الكلام فأفشاه . [تفسير القرطبى ٥١٥١/٧] .

للإمساك به ، وفى هذا الموقف لحقه الرجل المؤمن :

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

هو الرجل المؤمن من آل فرعون ، جاء لينصح موسى بالخروج والهرب قبل أنْ يُمسكوا به فيقتلوه[1].

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

لأنهم يضطهدوننا ويعذبوننا من غير ما جريرة ، فما بالك بعد أنْ وجدوا فرصة وذريعة ليزدادوا ظلماً لنا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾

معنى ﴿ تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [القصص] يعنى : ناحيتها ، وأراد أنْ يهرب من مصر كلها ، ولم يكُنْ يقصد مدين بالذات ، إنما سار فى طريق صادف أنْ يؤدى إلى مدين بلد شعيب عليه السلام .

ولو كانت مَدْينُ مقصودة له لما قال بعد توجهه : ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [القصص] فموسى حينما خرج من مصر خائفاً

(١) قال أكثر أهل التفسير : هذا الرجل هو حزقيل بن صبورا مؤمن آل فرعون ، وكان ابن عم فرعون ، ذكره الثعلبى . وقيل : طالوت ذكره السهيلى . وقال المهدوى عن قتادة : اسمه شمعون مؤمن آل فرعون [تفسير القرطبى ٧/٥١٥٢] .

يريد الهرب لم يفكر فى وجهة معينة ، فالذى يُهمه أنْ يخرج من هذه البلدة ، وينجو بنفسه .

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ(١) قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

عرض القرآن الكريم هذه القصة فى إيجاز بليغ ، ومع إيجازها فقد أوضحتْ مهمة المرأة فى مجتمعها ، ودور الرجل بالنسبة للمرأة ، والضرورة التى تُلجىء المرأة للخروج للعمل .

معنى ﴿ وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] يعنى : جاء عند الماء ، ولا يقتضى الورود أن يكون شَرِب منه . والورود بهذا المعنى حلَّ لنا الإشكال فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا .. ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم] فليس المعنى دخول النار ، ومباشرة حَرِّها ، إنما ذاهبون إليها ، ونراها جميعنا - إذن : وردْنا العَيْن . يعنى : جئنا عندها ورأيناها ، لكن الشرب منها ، شىء آخر .

﴿ وَجَدَ عَلَيْهِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] أى : على الماء ﴿ أُمَّةً .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] جماعة ﴿ يَسْقُونَ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] أى : مواشيهم ﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] يعنى : بعيداً عن الماء ﴿ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [القصص] أى : تكفَّان الغنم وتمنعانها من الشُّرْب لكثرة

---

(١) أى : تسوقان أغنامهما ، أو تدفعان الغنم عن التفرق أو عن الزحام . [القاموس القويم ٢٤٧/١] .

الزحام على الماء ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ..(٢٣)﴾[القصص] أى : ما شأنكما ؟

وفى الاستفهام هنا معنى التعجُّب يعنى : لماذا تمنعان الغنم أنْ تشربَ ، وما أتيتُما إلا للسُّقْيا ؟

﴿قَالَتَا لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

وقولهما ﴿حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ .. (٢٣)﴾ [القصص] يعنى : ينصرفوا عن الماء ، فصدر مقابل ورد ، فالآتى للماء : وارد ، والمنصرف عنه : صادر . نقول : صدر يَصْدُر أى : بذاته ، وأصدر يُصْدر أى : غيره .

فالمعنى : لا نَسْقى حتى يسقى الناس وينصرفوا . و ﴿الرِّعَاءُ .. (٢٣)﴾ [القصص] جمع رَاعٍ . ثم يذكران العلَّة فى خروجهما لسقْى الغنم ومباشرة عمل الرجال ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)﴾

معنا - إذن - فى هذه القصة أحكام ثلاثة ﴿لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ..(٢٣)﴾ [القصص] أعطَتْ حكماً و ﴿أَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص] أعطتْ حُكْماً و ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا .. (٢٤)﴾ [القصص] أعطت حكماً ثالثاً .

وهذه الأحكام الثلاثة تُنظم للمجتمع المسلم مسألة عمل المرأة ، وما يجب علينا حينما تُضطر المرأة للعمل ، فمن **الحكم الأول** نعلم أن سَقْى الأنعام من عمل الرجال ، ومن **الحكم الثانى** نعلم أن المرأة لا تخرج للعمل إلا للضرورة ، ولا تؤدى مهمة الرجل إلا إذا عجز الرجل عن أداء هذه المهمة ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣)﴾ [القصص]

أما الحكم **الثالث** فيعلم المجتمع المسلم أو حتى الإنسانى إذا رأى المرأة قد خرجت للعمل فلابد أنه ليس لها رجل يقوم بهذه المهمة ، فعليه أن يساعدها وأنْ يُيسِّر لها مهمتها .

وأذكر أننى حينما سافرت إلى السعودية سنة ١٩٥٠ ركبتُ مع أحد الزملاء سيارته ، وفى الطريق رأيته نزل من سيارته ، وذهب إلى أحد المنازل ، وكان أمامه طاولة من الخشب مُغطَّاة بقطعة من القماش ، فأخذها ووضعها فى السيارة ، ثم سرْنا فسألتُه عما يفعل ، فقال : من عاداتنا إذا رأيتُ مثل هذه الطاولة على باب البيت ، فهى تعنى أن صاحب البيت غير موجود ، وأن ربة البيت قد أعدَّتْ العجين ، وتريد مَنْ يخبزه فإذا مَرَّ أحدنا أخذه فخبزه ، ثم أعاد الطاولة إلى مكانها .

وفى قوله تعالى : ﴿لا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ .. ﴿٢٣﴾﴾ [القصص] إشارة إلى أن المرأة إذا اضطرتْ للخروج للعمل ، وتوفرتْ لها هذه الضرورة عليها أنْ تأخذَ الضرورة بقدرها ، فلا تختلط بالرجال ، وأنْ تعزل نفسها عن مزاحمتهم والاحتكاك بهم ، وليس معنى أن الضرورة أخرجتْ المرأة لتقوم بعمل الرجال أنها أصبحتْ مثلهم ، فتبيح لنفسها الاختلاط بهم .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص] فكان موسى ـ عليه السلام ـ طوال رحلته إلى مَدْين مسافراً بلا زاد حتى أجهده الجوع ، وأصابه الهزال حتى صار جِلْداً على عظم ، وأكل من بقل الأرض[1] ، وبعد أن سقى

---

(١) قال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر وكان حافياً ، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه وجلس فى الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع وإن خضرة البقل لتُرى من داخل جوفه وإنه لمحتاج إلى شق تمرة . [تفسير ابن كثير ٣٨٣/٣] .

للمراتين تولَّى إلى ظلِّ شجرة ليستريح ، وعندها لَهَج بهذا الدعاء ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص]

كأن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يريد من الضعيف أنْ يتجه إلى المعونة ، وحين يتجه إليها فلن يفعل هو ، إنما سيفعل الله له ؛ لذلك نلحظ أن موسى فى ندائه قال ﴿رَبِّ .. ﴿٢٤﴾﴾ [القصص] واختار صفة الربوبية ، ولم يقُلْ يا الله ؛ لأن الألوهية تقتضى معبوداً ، له أوامر ونواهٍ ، أمّا الرب فهو المتولِّى للتربية والرعاية ، فقال : يا رب أنا عبدكَ ، وقد جئتَ بى إلى هذا الكون ، وأنا جائع أريد أن آكل .

ومعنى ﴿أَنزَلْتَ .. ﴿٢٤﴾﴾ [القصص] أن الخير منك فى الحقيقة ، وإنْ جاءنى على يد عبد مثلى ؛ ذلك لأنك حين تُسلسل أىَّ خير فى الدنيا لا بُدَّ أن ينتهى إلى الله المنعم الأول ، وضربنا لذلك مثلاً برغيف العيش الذى تأكله ، بدايته نبتَة لولا عناية الله ما نبتتْ .

لذلك يقولون فى (الحمد لله) صيغة العموم فى العموم ، حتى إنْ حمدتَ إنساناً على جميل أسداه إليك ، فأنت فى الحقيقة تحمد الله حيث ينتهى إليه كُلُّ جميل .

إذن : فحمْد الناس من باطن حمد الله ، والحمد بكل صوره وبكل توجهاته ، حتى ولو كانت الأسباب عائدة على الله تعالى ، حتى يقول بعضهم : لا تحمد الله حتى تحمد الناس[1] .

ذلك لأن أزِمّة الأمور بيده تعالى ، وإنْ جعل الأسباب فى أيدينا ، وهو سبحانه القادر وحده على تعطيل الأسباب ، وأذكر أن بعض

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٢٥٨) ، والترمذى فى سننه (١٩٥٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « من لا يشكر الناس لا يشكر الله » قال الترمذى : « هذا حديث حسن صحيح » .

الدول (باكستان) أعلنت عن وفرة عندهم فى محصول القمح ، وأنها ستكفيهم وتفيض عنهم للتصدير ، وقبل أنْ ينضج المحصول أصابته جائحة فأهلكته . فاختلفت كل حساباتهم ، حتى استوردوا القمح فى هذا العام .

هذا معنى ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص] فالخير منك يا رب ، وإنْ سُقْته إليَّ على يد عبد من عبيدك ، وفقرى لا يكون إلا إليك ، وسؤالى لا يكون إلا لك .

ولم يكَدْ موسى - عليه السلام - ينتهى من مناجاته لربه حتى جاءه الفرج :

﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ(١) قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾

قوله : ﴿ إِحْدَاهُمَا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [القصص] أى : إحدى المرأتين ﴿ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [القصص] يعني : : مُستحية فى مجيئها ، مُستحية فى مِشْيتها ﴿ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [القصص]

لما جاءتْه هذه الدعوة لم يتردد فى قبولها ، وانتهز هذه الفرصة ،

(١) قال عمرو بن ميمون : لم تكن سلفعاً من النساء ، خراجة ولاجة . وقيل : جاءته ساترة وجهها بكُم درعها ، قاله عمر بن الخطاب . [تفسير القرطبى ٥١٥٧/٧] . والمرأة السلفع : السليطة الجريئة . والسلفعة : البذية الفحاشة القليلة الحياء . [لسان العرب - مادة : سلفع] .

فهو يعلم أنها استجابة سريعة من ربه حين دعاه ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص] وهى سبب من الأسباب يَمدُّه الله له ، وما كان له أنْ يردَّ أسباب الله ، فلم يتأبَّ ، ولم يرفض دعوة الأب .

ولم يذكر لنا السياق هنا كيف سار موسى والفتاة إلى أبيها ، لكن يُرْوَى أنهما سارا فى وقت تهبُّ فيه الرياح من خلفها ، وكانت الفتاة فى الأمام لتدلّه على الطريق ، فلما ضمَّ الهواء ملابسها ، فوصفت عجيزتها ، قال لها : يا هذه ، سيرى خلفى ودُلِّينى على الطريق[1] .

وهذا أدب آخر من آداب النبوة .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ ..﴿٢٥﴾﴾ [القصص] أى : سيدنا شعيب عليه السلام ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ .. ﴿٢٥﴾﴾ [القصص] أى : ما كان بينه وبين القبطى ﴿قَالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص] يعنى : طمأنه وهدَّأ من روْعه .

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾

وهذا حكم رابع نستفيده من هذه الآيات ، نأخذه من قول الفتاة ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ .. ﴿٢٦﴾﴾ [القصص]

وفى قولها دليل على أنها لم تعشق الخروج للعمل ، إنما تطلب مَنْ يقوم به بدلاً عنها ؛ لتقرَّ فى بيتها .

ثم تذكر البنت حيثيات هذا العرض الذى عرضته على أبيها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص] وهذان شرطان لابُدَّ

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٠٥) وعزاه للفريابى وابن أبى شيبة فى المصنف وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب .

منهما فى الأجير : قوة على العمل ، وأمانة فى الأداء . وقد تسأل : ومن أين عرفتْ البنت أنه قوى أمين ؟

قالوا : لأنه لما ذهب ليسقى لهما لم يزاحم الناس ، وإنما مال إلى ناحية أخرى وجد بها عُشْباً عرف أنه لا ينبت إلا عند ماء ، وفى هذا المكان أزاح حجراً كبيراً لا يقدر على إزاحته إلا عدة رجال ، ثم سقى لهما من تحت هذا الحجر ، وعرفتْ أنه أمين حينما رفض أن تسير أمامه ، حتى لا تظهر له مفاتن جسمها .

ويأتى دور الأب ، وما ينبغى له من الحزم فى مثل هذه المواقف ، فالرجل سيكون أجيراً عنده ، وفى بيته بنتان ، سيتردد عليهما ذهاباً وإياباً ، ليلَ نهار ، والحكمة تقتضى إيجاد علاقة شرعية لوجوده فى بيته ؛ لذلك رأى أن يُزوِّجه إحداهما ليخلقَ وَضْعاً ، يستريح فيه الجميع :

﴿ قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ(1) عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ ﴾

فى الأمثال نقول : (اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك) ذلك لأن

---

(١) تزوج موسى عليه السلام الصغرى منهما ، فعن أبى هريرة قال ، قال ﷺ : « قال لى جبريل : يا محمد ، إن سألك اليهود أىَّ الأجلين قضى موسى ؟ فقل : أوفاهما ، وإن سألوك أيهما تزوج ؟ فقل : الصغرى منهما » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٤١٠) وعزاه لابن مردويه . وأورد نحوه أيضاً من حديث أبى ذر وعزاه للبزار وابن أبى حاتم والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف .

كبرياء الأب يمنعه أنْ يعرض ابنته على شاب فيه كلُّ صفات الزوج الصالح - وإنْ كان القلة يفعلون ذلك - وهذه الحكمة من الأب فى أمر زواج ابنته تحلُّ لنا إشكالات كثيرة ، فكثيراً ما نجد الشاب سوىَّ الدين ، سوىَّ الأخلاق ، لكن مركزه الاجتماعى - كما نقول - دون مستوى البنت وأهلها ، فيتهيب أنْ يتقدّم لها فيُرفض .

وفى هذه الحالة على الأب أنْ يُجرِّئ الشاب على التقدم ، وأن يُلمح له بالقبول إن تقدَّم لابنته ، كأن يقول له : لماذا لم تتزوج يا ولد حتى الآن ، وألف بنت تتمناك ؟ أو غير ذلك من عبارات التشجيع .

أما أن نرتقي إلى مستوى التصريح كسيدنا شعيب ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ .. ﴿٢٧﴾﴾ [القصص] فهذا شيء آخر ، وأدب عالٍ من العارض ، ومن المعروض عليه ، وفى مجتمعاتنا كثير من الشباب والفتيات ينتظرون هذه الجرأة وهذا التشجيع من أولياء أمور البنات .

ألاَ ترى أن الله تعالى أباح لنا أن نُعرِّض بالزواج لمن تُوفِّى عنها زوجها ، قال تعالى : ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ .. ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة] ولا تخفى علينا عبارات التلميح التى تلفت نظر المرأة للزواج .

وقوله : ﴿عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ .. ﴿٢٧﴾﴾ [القصص] أى : تكون أجيراً عندى ثمانى سنوات ، وهذا مَهْر الفتاة ، أراد به أن يُغلى من قيمة ابنته ، حتى لا يقول زوجها : إنها رخيصة ، أو أن أباها رماها عليه .

﴿فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن

شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [القصص] يعنى : حينما تعايشنى ستجدنى طيبَ المعاملة ، وستعلم أنك مُوفَّق فى هذا النسب ، بل وستزيد هذه المدة محبة فى البقاء معنا .

فأجاب موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾

أى : أنا بالخيار ، أقضى ثمانية ، أم عشرة ﴿ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [القصص]

وقد أخذ العلماء حُكْماً جديداً من هذه الآية ، وهو أن المطلوب عند عقد الزواج تسمية المهر ، ولا يشترط قبضه عند العقد ، فلك أنْ تُؤجله كله وتجعله مُؤَخَّراً ، أو تُؤجل بعضه ، وتدفع بعضه .

والمهر ثمن بُضْع المرأة ، بحيث إذا ماتت ذهب إلى تركتها ، وإذا مات الزوج يُؤخَذ من تركته ، بدليل أن شعيباً عليه السلام استأجر موسى ثمانى أو عشر سنين ، وجعلها مهراً لابنته .

ونلحظ أن السياق هنا لم يذكر شيئاً عن الطعام ، مع أن موسى عليه السلام كان جائعاً ودعا ربه : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص]

لكن يروى أهل السير أن شعيباً عليه السلام قدّم لموسى طعاماً ، وطلب منه أن يأكل ، فقال : أستغفر الله ، يعنى : أنْ آكل من طعام. كأنه مقابل ما سقى للبنتين الغنم ؛ لذلك قال : إنَّا أهل بيت لا نبيع عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً ، فقال شعيب : كُلْ ، فإنَّا أهل بيت

نطعم الطعام ونقرى الضيف ، قال : الآن نأكل[1]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] أي : الذى اتفق عليه مع شعيب عليه السلام ﴿ وَسَارَ بِأَهْلِهِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] قلنا : إن الأهل تُطلق على الزوجة ، وفى لغتنا العامية نقول : معى أهلى أو الجماعة ونقصد الزوجة ؛ ذلك لأن الزوجة تقضى لزوجها من المصالح ما لا يقدر عليه إلا جماعة ، بل وتزيد على الجماعة بشيء خاص لا يؤديه عنها غيرها ، وهو مسألة المعاشرة ؛ لذلك حلَّتْ محلَّ جماعة .

ومعنى ﴿ آنَسَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] يعنى : أبصر ورأى أو أحسَّ بشيء من الأُنْس ، ﴿ الطُّورِ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] اسم الجبل ﴿ قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] انتظروا ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] يخبرها بوجود النار ، وهذا يعنى أنها لم تَرَها كما رآها هو .

وهذا دليل على أنها ليست ناراً مادية يُوقدها بشر ، وإلا لاستوى أهله معه فى رؤيتها ، فهذا ـ إذن ـ أمر خاص به ﴿ لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص] يعنى : رجاءَ أنْ أجد مَنْ يخبرنا عن الطريق ، ويهدينا إلى أين نتوجه ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [القصص]

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٤٠٧) عن أبى حازم وعزاه لابن عساكر . بنحوه .

فهرس آيات المجلد السابع عشر

فهرس آيات المجلد السابع عشر



طبعت بمطابع دار اخبار اليوم
٦ اكتوبر